الدعوة إلى الإسلام

بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية

تأليف

سير ت. و. أرنولد

Sir T. W. ARNOLD

ترجمه إلى العربية

حسن إبراهيم حسن

أستاذ التاريخ الإسلامي
ورئيس قسم التاريخ بجامعة فؤاد الأول

عبد المجيد عابدين

مدرس بكلية غردون بالخرطوم

إسماعيل النحراوي

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

م. شبكشى بالأزهر بمصر

الدعوة إلى الإسلام

بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية

تأليف

سير ت . و . أرنولد

Sir T. W. ARNOLD

ترجمه إلى العربية

حسن إبراهيم حسن

رئيس قسم التاريخ بجامعة فؤاد الأول

عبد المجيد عابدين

مدرس بكلية غردون بالخرطوم

إسماعيل النحراوي

بمكتبة جامعة فؤاد الأول

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

مطبعة الشبكشي بالأزهر بمصر

اهداء الكتاب

الى سير تيودر موريسون

الذى يرجع اليه الفضل فى نشر الطبعة الأولى

أهدى هذه الطبعة الثانية

رمزا للصداقة الطويلة

مقدمة المترجمين

هذا كتاب جليل الفائدة ، غزير المادة ، يتناول الكلام على ناحية من نواحى التاريخ الإسلامى ، كانت من قبل غامضة مهملة . وقد ترجم إلى عدة لغات . وكانت المكتبة العربية فى حاجة ماسة إلى ظهوره بين أسفارها ، وقد استشرفت نفوس كثيرين للاضطلاع بنقله اليها لنفاسته .

وإذ كنا قد عرفنا فضل مؤلف هذا الكتاب من مؤلفاته العديدة ، فإن أحدنا ، الدكتور حسن إبراهيم حسن ، قد عرفه معرفة شخصية ، وتتلمذ له فى جامعة لندن خمس سنين ، وعرف قدره ، وأفاد من علمه . ولما قدم المؤلف إلى مصر فى سنة ١٩٣٠ ، أذن للدكتور حسن إبراهيم حسن فى ترجمة الكتاب إلى العربية . ثم نشأت فى نفس الزميلين الآخرين رغبة شديدة فى ترجمة الكتاب إلى العربية ، وعلما أن تلك الرغبة نفسها عند الدكتور حسن إبراهيم حسن ، فعرضا عليه معاونتهما له فى أداء هذه الخدمة العلمية ، فلقيت فكرتهما عنده قبولا ، وتضافرت الجهود الثلاثة على إخراجه .

أما مؤلف هذا الكتاب ، وهو العالم المحقق السير توماس أرنولد ، فلا نستطيع أن نقدره قدره ، ولا أن نصفه بأحسن مما وصفه به الأستاذ نيكلسون ، إذ يقول فى كلمته القيمة التى صدر بها الطبعة الإنجليزية الثالثة : « إنه لم يتحدث اليه أحد ، إلا أحس فيه عقلا على جانب عظيم من الحيوية والقوة ، وتمتع منه بخلق متواضع رضى سريع الاستجابة » ، وبقوله يصف هذا الكتاب : « إنه يفوق حد الوصف من كل ناحية » .

كان سير توماس أرنولد ، فوق ما امتاز به من صفات العالم الضليع المحقق المنصف ، مثالا للوداعة والتواضع وهدوء النفس وحلاوة الحديث وطيب العشرة ، يُضفى على تلاميذه كل ألوان الرعاية والعطف والتشجيع .

وكان سير توماس أرنولد ملما بالعربية والفارسية ، إلمامه بمعظم اللغات الأوربية . وقد أورد فى هذا الكتاب نصوصا يونانية ولاتينية وإيطالية وأسبانية وهولندية وفرنسية . لهذا كان لزاما أن نرجع إلى المتخصصين فى دراسة هذه اللغات ليتقلوا هذه النصوص إلى العربية . ولذلك نرى واجبا علينا فى هذا المقام ، أن نقدم أجزل الشكر لحضرات الأساتذة الدكتور حسن عثمان والأستاذ موريس عبود لترجمة النصوص الطليانية ، والدكتور دوب لترجمة النصوص الهولندية ، والدكتور حسين مؤنس لترجمة النصوص الأسبانية ، والدكتور محمد عبد الهادى أبى ريدة لترجمة النصوص الألمانية ، والأستاذ أمين سلامة ملطى لترجمة النصوص اليونانية واللاتينية .

ونخص بتقديم أجزل الشكر والثناء حضرة الأستاذ مصطفى السقا، الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول، لتفضله بالمراجعة العربية لترجمة الكتاب. فوق ما أفدنا منه من تحقيقات لغوية وأدبية وتاريخية.

وقد علقنا على بعض عبارات، رأينا ألا نمر عليها من غير إيضاح. كما حرصنا على دقة الترجمة، والرجوع إلى المصادر العربية والفارسية التي أشار إليها المؤلف في كتابه، ونقلنا النصوص من مراجعها الأصلية، وذيلنا الكتاب بفهرس عام يعين القارىء على الوصول إلى أغراضه في سهولة ويسر.

ومن الله نستمد العون والتوفيق ؟

حسن ابراهيم حسن　　　عبد المجيد عابدين　　　اسماعيل النحراوي

الجيزة في ٢٣ من يولية سنة ١٩٤٧

مقدمة الطبعة الأولى

هذه صفحات أنشرها فى شىء كثير من التردد ؛ فالموضوع الذى تتناوله تلك الصفحات متسع جدا ، ولم يكن بد من أن أجد فى تحصيل هذا البحث فى ظروف غير موفقة ، حتى إننى لا أستطيع أن أؤمل إلا فى قدر يسير من النجاح . وإذا ما أتيح لى أن أكون أكثر استعدادا لهذا العمل ، وبعد أن يمكننى التوفر على الدراسة من ملء الثغرات (١) التى تركتها فى هذا الكتاب ، أرجو أن أجعله عملا جديرا بأن يفيد هذا الجانب المهمل من التاريخ الإسلامى . وفى سبيل تحقيق هذه الغاية ، سأكون شاكرا أجزل الشكر لما تقدمه إلىّ أية طائفة من العلماء ، قد تتفضل بالنظر فى هذا الكتاب ، من نقد وتصويب . وإلى أمثال هؤلاء قد نسوق الكلمات التى فاه بها القديس أوغسطين حين قال : « إن من يقرأ ذلك ويقول ، إنى أفهم ما يقال حق الفهم ، وهو ليس من الصدق فى شىء ، إنما يعبر عن وجهة نظره هو ، ويعارض رأيى . على أنه إذا فعل ذلك عن محبة وإخلاص ، وتوخّى أن يجعل هذا الأمر مفهوما لدىّ أيضا (لو مد الله لى فى أسباب الحياة) ، فإنى سأجنى خيرا كثيرا من عملى هذا » (٢) .

وإنى إذ أستطيع أن أدعى أننى لست بثقة ولا متخصص فى أية فترة من فترات التاريخ التى تناولت الحديث عنها فى هذا الكتاب ، وإذ صار كثير من الحوادث التى أشرت إليها فيه ، موضوع جدل ونقاش بين الباحثين ، أوردت إشارات كاملة للمصادر التى رجعت إليها . وفى هذا المقام ، رأيت أن من الخير أن يكون خطئى من جانب الإفراط والمبالغة ، أكثر من أن يكون من جانب النقص . ولقد تحملت كثيرا جدا من العناء ، وأضعت كثيرا جدا من الوقت فى تبيين الإشارات إلى الكتب التى يكتنفها شىء من الغموض أو اللبس ، رغبة فى وقاية الآخرين أن يقعوا فى مثل ما وقعت فيه من مضايقة . وعلى حين يرانى القارىء العادى متحذلقا ، أرى أننى قد أرفع بذلك بعض العناء عن العالم ، الذى يريد أن يختبر دقة أحد النصوص ، أو يتتبع أى جانب من جوانب البحث على نحو أكثر استقصاء .

وإن الطريقة التى اتبعتها فى هذا الكتاب من كتابة الكلمات العربية بحروف إفرنجية ، هى التى وضعتها جمعية مؤتمر المستشرقين الدولى العاشر ، الذى انعقد فى جنيف سنة ١٨٩٤ ، للكتابة بحروف إفرنجية ، لا نستثنى إلا إدغام لام التعريف فى الحروف الشمسية . ولم تنطبق طريقة الكتابة هذه على كتابة الأسماء الجغرافية تمام الانطباق — وكذلك كثير من الحالات ، لأنى لم أتبين مادة اللفظ العربية ، وفى حالات أخرى (كما فى لفظى مكة والمدينة) ، لأن الاستعمال يكاد يكون قد جعل لها لقبا اكتسبته بتعاقب السنين .

---

(١) من ذلك انتشار الاسلام فى صقلية ، وأعمال الدعوة التى قام بها أولياء المسلمين على اختلافهم

(٢) De Trinitate, i. 5. (Migne, tom. xlii. p. 823).

ومع أن هذا المؤلَّف ـ وهذا أمر مسلم به ، كما يتضح فى التمهيد ـ عبارة عن سجل لجهود نشر الدعوة ، وليس تاريخا للاضطهاد (١) ، حاولتُ أن أكون غير متحيز البتة ، وأن أؤيد ذلك المثل الأعلى الذى بسطه المؤرخ المسيحى (٢) الذى أرخ انتصارات العثمانيين وسقوط القسطنطينية بقوله : « لا بد للمؤرخ من أن يسجل التاريخ ، لا حبا فى أن يعترف الناس له بالجميل ، ولا مدفوعا بباعث الحقد والضغينة ، أو الكراهية وإرضاء المشاعر ، بل لأجل التاريخ وحده . ولكيلا تنطوى فى عالم النسيان صفحات التاريخ التى يعرف الزمن كيف ينشرها » .

وإنى أحب أن أقدم الشكر إلى سمو الأميرة بربرينى ، وسمو الأمير تشيجى Chigi ، والجدير بالتبجيل الدكتور بول جوتالس Goethals رئيس أساقفة كلكته ، والجزيل الاحترام فرانسيس پسكى Francis Pesci أسقف الله أباد ، والمحترم س . س . أولنت Allnut ، أحد أعضاء إرسالية كمبردج فى دهلى ، وإلى أمناء مكتبة دكتور وليامز بميدان غوردن بلندن ، إذ تفضلوا فسمحوا لى باستعمال مكتبة كل منهم استعمالا سخيا .

وإنى لمدين بالفضل بنوع خاص للسيد جيمس كنيدى J. Kennedy الموظف بقسم الخدمة المدنية بالبنغال سابقا ، فإنه لم يأل جهدا فى إبداء أية رغبة تنطوى على العطف نحو كتابى . وإنى مدين لعلمه الغزير واطلاعه الواسع بكثير من المعلومات التى لولاه لبقيت مجهولة لدى ، ولا يقل عن ذلك فضلا ما أدين به لقوته الدافعة فى حبه للعلم الذى ينطوى على الحماسة والغيرة ، وروحه الودى الذى مد إلىَّ يد العون والمساعدة . وإنى كذلك مدين بالفضل لرعاية كونت أوجو بلتزانى Conte Ugo Balzani الذى ، لولا معونته لكان من المحال أن أحصل على أجزاء معينة من بحثى هذا . وإنى مدين للمرحوم البروفسور روبرتسن سمث بآرائه الثمينة فى عناصر البحث التى كان ينبغى أن يبُنى عليها تاريخ الكنيسة الإفريقية الشمالية ، وحالة المسيحيين فى ظل الحكم الإسلامى ؛ وإن الحزن العميق الذى أحسه علماء الدراسات السامية جميعا على فقده ليتضاعف فى نفسى ، لاعتقادى بان ذلك هو الاعتراف الوحيد الذى أستطيع أن أصفه كِفاء مساعدته الكريمة وتشجيعه .

كذلك أحب أن أعترف بتشكراتى إلى السير سيد أحمد خان بهادر (K. C. S. I., LL. D.) ، وإلى صديق وزميلى العالم شمس العلماء مولوى محمد شبلى النعمانى ، الذى أعاننى فى سخاء جم من فيض علمه بتاريخ صدر الإسلام ، وإلى تلميذى القديم مولوى بهُادر على (M.A.)

وأخيرا ، وفوق ذلك كله ، ينبغى أن أشكر زوجتى العزيزة ، التى لولاها لما برز هذا المؤلف من فوضى المواد المفككة المتنافرة ، والتى كان عطفها وقبولها خير مكافأة لى على أعمالى .

عليكرة ١٨٩٦ — **المؤلف**

---

(١) ومن ثم لن يجد القارئ أى خبر عن تاريخ أرمينية أو إقريطش الحديث ، أو فى الواقع عن تاريخ أى جزء من إمبراطورية الأتراك فى خلال القرن الحالى — وهى فترة تنفرد بخلوها من مهمة نشر الدعوة من جانبهم .

(٢) Phrantzes, p. 5.

مقدمة الطبعة الثانية

لما نفدت الطبعة الأولى من هـــذا الكتاب منذ عدة سنوات ، وكثر سؤال الناس عن نسخ منه ، أعدت هذه الطبعة الجديدة ، وبذلت مجهودا فى مراجعة الكتاب على ضوء المواد الجديدة التى تجمعت لدىّ فى خلال السنوات الست عشرة الأخيرة . على أنى لا أستطيع أن أدعى أننى قد ألممت بجميع الكتب الشاملة الخاصة بهذا الموضوع ، التى دونت بما يزيد على عشر لغات مختلفة ، والتى نشرت فى خلال هذه الفترة . ويمكن أن نتصور مدى نمو البحث فى الإسلام وفروع الدراسة المختلفة التى تتصل به ، من تلك الحقيقة وهى أن خمس مجلات قد ظهرت منذ سنة ١٩٠٦ ، لتتوفر على دراسات قريبة الصلة من موضوع هذا الكتاب ؛ ومن هذه المجلات :

Revue de Monde Musulman, publiée par La Mission Scientifique du Maroc (Paris, 1906-); Der Islam, Zeitschrift für Geschichte und Kultur des islamischen Orients (Strassburg, 1910-); the Moslem World, a quarterly review of current events, literature and thought among Mohammedans, and the progress of Christian Missions in Moslem lands (London, 1911-); Mir Islama (St. Petersburg, 1912-); and Die Welt des Islams, Zeitschrift der deutschen Gesellschaft für Islamkunde (Berlin, 1913-).

وتبذل جمعيات التبشير المسيحية الآن كذلك اهتماما زائدا بموضوع نشاط الدعوة الإسلامية ، ومن ثم يحتل فيما تنشره هذه الجمعيات جانبا أعظم نسبيا مما كان من قبل .

وكان من الممكن أن تنجز الطبعة الثانية منذ عدة سنوات، لولا تلك السياسة المخالفة للحرية التى أوصدت قاعة المطالعة فى المتحف البريطانى فى الساعة السابعة ؛ وبذلك لم تكن القراءة فيها ميسورة لدىّ من الناحية العملية إلا فى أيام السبت (١) . ولذلك أحب أن أعبر عن شكرى الجزيل لهؤلاء الأصدقاء الذين يسروا أعمالى بإعارتى كتبا من مكتبات جامعة ليدن وجامعة أوترخت (عن طريق المعاونة الكريمة التى قدمها إلىّ البروفسور فنسنك) ، ومدرسة اللغات الشرقية الحية فى باريس : ـــ وإنى لمدين لمستر ج . أ . أولدهام Oldham ، محرر مجلة البعوث الدولية The International Review of Missions لإعارته إياى

(١) يجد طالب كتب العلوم أو الفنون الجميلة المكتبات فى كنسنجتون الجنوبية مفتوحة حتى الساعة العاشرة فى ثلاث ليال من كل أسبوع ، ولكن المكتبة الوحيدة فى تلك البلاد التى تهدف إلى أى لون من الكمال ، ليست إلا فى متناول هؤلاء الطلبة الذين يفرغون من أعمالهم فى أثناء النهار .

بمجلدات بمجلة Allgemeine Missions - Zeitschrift ، ولم أكن أستطيع أن أجد هذه المجموعة فى لندن .
وأقدم شكرى بنوع خاص إلى دكتور ف . و . توماس الذى سمح لى بدراسة الكتاب الأثرى «حوليات الإسلام» لليونى كيتانى « Leone Caetani, Principe di Teano » فترات طويلة (بالإضافة إلى كتب أخرى من مكتبة India Office Library — وهو مؤلف له قيمة لا تقدر فى دراسة تاريخ صدر الإسلام ، ولكنه لسوء الحظ بعيد عن متناول يد العالم العادى بسبب غلاء ثمنه .

كذلك أدين بالفضل الجزيل لهؤلاء العلماء الذين نقدوا الكتاب عند ظهوره للمرة الأولى على ما أبدوه من إيضاحات قيمة عديدة ، — وأحق هؤلاء جميعا بالذكر ، البروفسور جولدتسيهر الذى أبدى من العناية التى تنم عن العطف والمودة بهذا الكتاب ما شجعنى على إتمامه .

(لندن ١٩١٣)　　　　　　المؤلف

مقدمة الطبعة الثالثة

طوت وفاة السير توماس أرنولد فى التاسع من شهر يونية سنة ١٩٣٠ سجلا طويلا رائعا من الخدمة فى كثير من ميادين العلم المتنوعة، وخاصة فى تلك الميادين الواسعة من التاريخ والثقافة والفن الإسلامى. ولا حاجة بى إلى الكتابة عن هذه الجهود بالتفصيل ؛ فهى من الشهرة والتقدير بحيث أستطيع أن أقتصر فى هذا المقام على بعض ملاحظات خاصة بهذا الكتاب، وأن أشير إشارة عابرة إكراما له، إلى مؤلفات ثلاثة أخرى، كل منها يعد طرفة فريدة فى بابها — أعنى بها رسالته فى الخلافة Caliphate ، ونشرته الإجمالية عن الإسلام بعنوان العقيدة الإسلامية The Islamic Faith ، وكتابه الفخم «التصوير فى الإسلام» Painting in Islam . ولما كان أرنولد عالما كامل العلم بلغات كثيرة، ملما بالعربية والفارسية إلمامه بمعظم اللغات الأوربية، فقد أوتى مفاتيح لا عداد لها لعالم العصور الوسطى الذى أحبه، ولم يمل مطلقا الكشف عن مجاهله. ومع ذلك، ففى الوقت الذى نراه يجدّ فى حماسة ونشاط فى البحث وجمع المواد لإعادة بناء هذه العصور، نجده كذلك يعنى أشد العناية، وهو نفسه يمثل دورا فعالا ملهما، فى حياة عصره وتفكيره. وقد كان زميلا يدخل فى النفوس البهجة والسرور. لم يتحدث إليه أحد إلا أحس فيه عقلا على جانب عظيم من الحيوية والقوة، وتمتع منه بخلق متواضع رضىّ سريع الاستجابة. وإنى إذ أختم هذه التقدمة الموجزة إلى ذكراه، أوجه نظر القارىء إلى ذلك الوصف الرائع المسهب الذى كتبه عن توماس أرنولد العالم والرجل، سير أوريل ستين Sir Aurel Stein فى أعمال الأكاديمية البريطانية سنة ١٩٣٠ Proceedings of the British Academy ص ٤٣٩ — ٤٧٤ ، وكان يعرفه معرفة وثيقة.

ظهر كتاب الدعوة إلى الإسلام فى سنة ١٨٩٦ ، وكان أرنولد قد تجاوز الثلاثين بقليل. وقبل ذلك بثمانى سنوات، كان قد ترك كمبردج ليشغل منصبا فى الكلية الانجليزية الإسلامية فى عليكره Anglo-Muhammadan College . وكانت قد تأسست حديثا. وإن ما تميزت به علاقته مع المسلمين دائما من تعاطف وفهم لحالتهم، سرعان ما حببه إلى الطلاب والمعلمين على سواء. وهنا وضع خطة هذا الكتاب وأتم ما وصفه فى هذا العنوان «تاريخ نشر العقيدة الإسلامية». وهذا الكتاب يفوق حد الوصف من كل ناحية. وقد أوتى أرنولد موهبة، وكانت عادة جرى عليها فى معظم أيام حياته، جمعت بين التوفر على الأعمال الإدارية، والغيرة على البحث. وهو كما يلاحظ سير أوريل ستين: «ومع ذلك إذا قدرنا كيف بذل بمحض إرادته العون والوقت للآخرين، وكيف كان فى عليكره بعيدا عن المكتبات العظيمة، لاستولى علينا الدهش كيف استطاع أن يجمع وأن ينقد، هذا القدر الهائل من المواد المتنوعة التى تتعلق بالكتب والمراجع التى استخدمها فى الطبعة الأولى من كتاب الدعوة إلى الإسلام». وإن نظرة واحدة فى المراجع التى اعتمد عليها المؤلف، تكفى لتحقق قيمة الكتاب باعتباره مستودعا وصورة للحقائق التى تتعلق بموضوعه.

على أن سعة الاطلاع أمر أساسى أكثر من أن يكون صفة حيوية ، وأن هذا الكتاب زاخر بالحياة . وعلى الرغم من أن المؤلف ، على حد تعبيره « قد حاول أن يكون غير متحيز البتة » ، فليس معنى ذلك أن سرده للحوادث والأخبار لم يكن شخصيا البتة . وبينما نجد الكتاب ينقلنا على التوالى من بلاد العرب إلى آسيا الغربية وإفريقية وأسبانيا وفارس والهند والصين والملايو ، نحس من وراء سطحه الهادىء عمق الحجج المقنعة وقوتها التى تبعث فيه الحياة . ومنذ قرنين ، قال جورج سيل Sale ، وهو الذى ترجم القرآن إلى الإنجليزية ، إنه لن يتحرى الأسباب التى من أجلها صادفت شريعة محمد ترحيبا لا مثيل له فى العالم (لأن هؤلاء الذين يتخيلون أنها قد انتشرت بحد السيف وحده إنما ينخدعون انخداعا عظيما » . ويوضح الباب الأخير من كتاب الدعوة إلى الإسلام فى دقة ما هى هذه الأسباب . وإن الكتاب من أوله إلى آخره ، برغم طابعه التاريخى ومنهجه العلمى ، إنما هو حجة أرنولد أقامها على الجور والتعصب . وإن آراءه فى الجملة خليقة بأن تؤثر حتى فى هؤلاء الذين قد يظنون أن هذا الكتاب مصدر خطر ، عند ما يقدرون بواعث الحماسة فى نشر الدعوة ونتائجها ، تاركين بصفة قاطعة مظهرا من نشاط هذه الدعوة لم يحسبوا له حسابا ، كما فعل أرنولد .

وإنى لأذكر جيدا تلك المتعة والبهجة التى أحسستها حين قرأت كتاب الدعوة إلى الإسلام عند ما ظهر لأول مرة . وستمكن إعادة طبع هـــذا الكتاب فى الصورة التى روجع بها وزيد عليها كما ظهر فى طبعة سنة ١٩١٣ كثيرا من الطلاب من أن يضيفوا إلى مكتباتهم مؤلفا لا يمكن الاستغناء عنه ، ويعد حجة ثابتة . أما وقد عجزنا عن إدخال التعديلات لجعل الكتاب متمشيا مع العصر ، لم يكن بد من أن يظهر الكتاب دون تغيير . وهذه مسألة تبعث على الأسف ، ولكن إذا نحينا تلك التوافه جانبا ، من مثل ماذكره المؤلف ص ٤٢٦ من أن حركة الإصلاح الوهابية « قد فقدت كل معنى سياسى خارج حدود نجد زمنا طويلا » ، فإن الصعوبات التى كانت تنطوى على استدراك مثل هذا المؤلف بعد ظهوره بأكثر من عشرين سنة ، عظيمة ، كما يظهر ذلك فى وضوح وجلاء .

(ر . ا . نيكلسون)

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

الدعوة الى الاسلام

الباب الأول

تمهيد

منذ أن ألقى الأستاذ مَكس ملّر Max Müller محاضرة فى كنيسة وستمنستر فى لندن، فى يوم الشفاعة من أجل الرسل، وذلك فى ديسمبر ١٨٧٣، أصبح من المعروف علمياً أن الأديان الستة الكبرى في العالم، يمكن تقسيمها إلى دين مختص برسالة ودين غير مختص. فاليهودية والبرهمية والزرادشتية من القسم الأخير، أما البوذية والمسيحية والإسلام فهى من القسم الأول. وقد وفق فى تحديد ما ينبغى أن يدل عليه اصطلاح «دين الرسالة» بقوله إنه الدين «الذى يسمو فيه نشر الحق، وهداية الكفار إلى واجب مقدس، على يد مؤسس الدين أو خلفائه من بعده . . . إنها روح الحق فى قلوب المؤمنين التى لا تستقر حتى تتجلى فى الفكر والقول والعمل، ولا تقنع حتى تؤدى رسالتها إلى كل نفس إنسانية، وتعترف أفراد الجماعة الإنسانية بما تعتقد أنه الحق»(١).

وإن الذى دفع المسلمين إلى أن يحملوا رسالة الإسلام معهم إلى شعوب البلاد التى دخلوها، وجعلهم ينشدون لدينهم بحق مكاناً بين ما نسميه أديان الرسالة، لهى حماسة من ذلك النوع، من أجل صدق عقيدتهم. وليس موضوع هذا الكتاب إلا صورة من تاريخ ظهور هذه الحماسة فى تبليغ الدعوة ودوافعها وألوان نشاطها. وإن انتشار مائتى مليون من المسلمين فى العالم فى الوقت الحاضر لهو الشاهد على ما كان لهذه الحماسة من أثر خلال الثلاثة عشر قرناً التى تلت ظهور الإسلام.

وكان ظهور مبادىء هذه العقيدة لأهالى بلاد العرب فى القرن السابع الميلادى، على يد النبى العربى الذى انضوى تحت لوائه شتى القبائل العربية فأصبحت بذلك أمة واحدة. فلما امتلئوا من آثار هذه الحياة القومية الجديدة، ومن هذه الحماسة، وتلك الحمية التى أمدت جنودهم بقوة لا تقهر، تدفقوا فى أنحاء ثلاثة، يفتحون البلاد ويخضعون العباد. وكان أسبق البلاد إلى التسليم سورية وفلسطين ومصر وشمال إفريقية

(١) تعليق على مقال الأستاذ ليال LYALL (Missionary Religions) فى مجلة Fortnightly Review, July, 1874.

(م — ٢)

وفارس . وبعد انقضاء مائة عام على وفاة الرسول ، وصل أتباعه غربا إلى أسبانيا ، وشرقا إلى أن عبروا نهر السند ، فما لبثوا أن وجدوا أنفسهم سادة على إمبراطورية أعظم من إمبراطورية روما فى أوج قوتها .

ومع أن هذه الإمبراطورية العظمى قد تصدعت أركانها فيما بعد ، وتضعضعت قوة الإسلام السياسية ، ظلت غزواته الروحية مستمرة دون انقطاع . وعندما خربت جموع المغول بغداد (١٢٥٨ م) وأغرقوا فى الدماء مجد الدولة العباسية الذاوى — وطرد فرديناند ملك ليون وقشتالة المسلمين من قرطبة (١٢٣٦ م) ودفعت غرناطة ، آخر معاقل الإسلام فى أسبانيا الجزية للملك المسيحى — كان الإسلام قد استقرت دعائمه وتوطدت أركانه فى جزيرة سومطرة ، وكان على أهبة أن يحرز تقدما ناجحا فى الجزائر الواقعة فى بلاد الملايو . وفى هذه اللحظات التى تطرق فيها الضعف السياسى إلى قوة الإسلام ، نرى أنه قد حقق بعض غزواته الروحيه الرائعة . فهنالك حالتان تاريخيتان كبريان ، وطىء فيهما الكفار من المتبربرين بأقدامهم أعناق أتباع الرسول ، أولئك هم الأتراك السلاجقة فى القرن الحادى عشر ، والمغول فى القرن الثالث عشر ؛ وفى كلتا هاتين الحالتين نرى الفاتحين يعتنقون ديانة المغلوبين . وقد حمل دعاة المسلمين الذين كانوا خلوا كذلك من أى مظهر من مظاهر السلطان الزمنى ، عقيدتهم إلى إفريقية الوسطى والصين وجزائر الهند الشرقية . وتمتد العقيدة الإسلامية اليوم من مراكش إلى زنجبار ، ومن سيراليون إلى سيبريا والصين ، ومن البوسنة إلى غينيا الجديدة .

وفى خارج البلاد الإسلامية الصميمة ، والمناطق التى تضم عددا كبيرا من السكان المسلمين ، كالصين وروسيا ، طوائف صغيرة قليلة العدد من أتباع النبى ، يؤيدون الدين الإسلامى بين صفوف قوم من الكفار ، من أمثال هؤلاء طائفة من المسلمين الذين يتكلمون البولندية ، وينحدرون من أصل تترى فى لتوانيا ، ويقطنون مقاطعة كفنو Kovno وفلنو Vilno وجردنو Grodno[1] ، وطائفة أخرى من المسلمين الهولنديين فى مستعمرة الكاب ، وثالثة من الرعاة الهنود نقلوا معهم عقيدة الإسلام إلى جزائر الهند الغربية وإلى غينيا البريطانية والهولندية . ثم أصبح للاسلام أيضا فى السنين الأخيرة أشياع فى إنجلترا وأمريكا الشمالية وأستراليا واليابان .

ويرجع انتشار هذا الدين فى تلك الرقعة الفسيحة من الأرض ، إلى أسباب شتى اجتماعية وسياسية ودينية ؛ على أن هنالك عاملا من أقوى العوامل الفعالة التى أدت إلى هذه النتيجة العظيمة ، تلك هى الأعمال المطردة التى قام بها دعاة من المسلمين ، وقفوا حياتهم على الدعوة إلى الإسلام ، متخذين من هدى الرسول مثلا أعلى وقدوة صالحة .

ولم تجىء مهمة تبليغ الرسالة فى تاريخ الإسلام بعد تريث وتفكير ، ولكنها كانت ملقاة على عاتق المؤمنين منذ البداية . وقد نرى ذلك واضحاً فى هذه الآيات القرآنيــة ، التى ننقلها هنا مرتبة بحسب تاريخ نزولها :

« ادْعُ إلى سبيل ربِّك بالحكمَةِ والمَوْعظَة الحسنَة . وجادلْهُم بالَّتى هى أحْسَنُ » : (سورة ١٦ آية ١٢٦)

---

(١) Reclus, vol. V, p. 433; Gasztowtt, p. 320 Sqq.

« وإنّ الذين أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِم (أى اليهود والنصارى) لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ . فَلِذَلِكَ فَادْعُ(١) واسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ولا تَتَّبِعْ أهواءَهُم ، وقُلْ آمنتُ بما أنْزَلَ اللهُ من كتابٍ ، وأُمِرْتُ لأعْدِلَ بَيْنَكُم ، اللهُ رَبُّنَا وربُّكُم ، لنا أعمالُنا ولكم أعمالُكم ، لا حُجَّةَ بيْنَنَا وبيْنَكُم ، اللهُ يجمعُ بيننا وإليه المصيرُ » (سورة ٤٢ آية ١٣ - ١٤)

وفى الآيات المدنية أيضا نجد مثل هذه التعاليم ، وقد نزلت على محمد بعد أن أصبح على رأس جيشه الكبير وفى ذروة سلطانه .

« وقل للذين أُوتُوا الكتاب والأُمِّيِّينَ أأسْلَمْتُم ؟ فإن أَسْلَمُوا فقد اهْتَدَوْا ، وإن تولَّوْا فإنَّما عليكَ البلاغُ ، واللهُ بَصِيرٌ بالعِبَاد (سورة ٣ آية ١٩)

« كذلكَ يُبَيِّنُ اللهُ لكم آياته لعلَّكُمْ تَهْتَدُون . وَلْتَكُنْ منكم أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيْرِ ، وَيَأْمُرُون بالمعْرُوف ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وأُولَئِكَ هُمُ المفْلِحون » (سورة ٣ آية ٩٩ - ١٠٠)

« لكلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هم ناسِكُوهُ ، فلا يُنَازِعُنَّكَ فى الأمر ، وادْعُ إلى ربِّكَ ، إنَّك لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيم . وإنْ جادَلُوكَ فقُل اللهُ أعلمُ بما تعْمَلون ! » (سورة ٢٢ آية ٦٦ - ٦٧)

وهذه آيات ننقلها من سورة قيل إنها كانت آخر ما نزل من السور :

« وإنْ أحدٌ من المُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فأَجِرْهُ حتّى يسمعَ كلامَ الله ، ثمَّ أبْلِغه مأمَنَه » (سورة ٩ آية ٦) .

أما الكفار الذين نكثوا عهدهم « واشتَرُوا بآيات الله ثمنًا قليلاً فَصَدُّوا عن سبيله » و « لا يرقُبون فى مُؤمن إلًّا ولَا ذِمَّةً » « فإن تابوا وأقاموا الصَّلاةَ وآتوا الزكاةَ فإخوانُكم فى الدين ، ونُفَصِّل الآيات لقوم يعلمون » (سورة ٩ آية ٩ ، ١٠ ، ١١)

وهكذا كان الإسلام منذ بدء ظهوره دين دعوة ، من الناحية النظرية ، أو الناحية التطبيقية . وقد كانت حياة محمد تمثل هذه التعاليم ذاتها ، وكان النبي نفسه يقوم على رأس طبقات متعاقبة من الدعاة المسلمين ، الذين وفقوا إلى إيجاد سبيل إلى قلوب الكفار . على أنه ينبغى ألا نلتمس الأدلة على روح الدعوة الإسلامية فى قسوة المضطهد ، أو عسف المتعصب ، ولا حتى فى مآثر المحارب المسلم ، ذلك البطل الأسطورى الذى حمل السيف فى إحدى يديه ، وحمل القرآن فى اليد الأخرى (٢) ـ وإنما نلتمسها فى تلك الأعمال الوديعة

---

(١) أى ادعهم إلى الدين

(٢) وقد نشأ هذا التأويل الخاطىء للفتوحات الاسلامية عما ذهب إليه بعضهم من أن الحروب التى نشبت لبسط السيادة الاسلامية على بلاد الكفار ، قد دلت على أن الغاية المنشودة منها ، كانت ترمى إلى تحويلهم إلى الاسلام . وقد أحسن جولدتسيهر حين أشار إلى هذا التأثير فى كتابه «Vorlesungen über den Islam» بقوله : « لقد خلف محمد ما صنعه من عيطه العربى أول الأمر وصية لمستقبل أمته : ذلك هو محاربة الكفر ونشر العقيدة الاسلامية ، ولكن هناك شيئاً أكثر من ذلك ، ألا وهو توسيع نطاق السيادة الاسلامية ، التى هى سيادة الله . ولم يكن الغرض فيما يتعلق بالجهاد الاسلامى يتجه أول الأمر إلى تغيير عقيدة الناس ، وإدخالهم فى الاسلام بقدر ما كان يرمى إلى إخضاع الكفار » ص ٢٥ .

المادية ، التى قام بها الدعاة ، وأصحاب المهن ، الذين حملوا عقيدتهم إلى كل صقع من الأرض . على أن هؤلاء الدعاة لم يلجئوا إلى اتخاذ مثل هذه الأساليب السلبية فى نشر هذا الدين عن طريق الدعوة والإقناع، بخلاف مازعم بعضهم ، حينما جعلت الظروف القوة والعنف أمرا مستحيلا ، يتنافى مع الأساليب السياسية . فلقد جاء القرآن مشددا فى الحض على هذه الطرق السلبية ، فى غير آية منه ، مثال ذلك :

« واصبرْ على ما يقولونَ واهجُرْهم هجْراً جميلاً . وذَرْنى والمُكذِّبين أُولى النَّعْمَة ومَهِّلْهم قليلا »
(سورة ٧٣ آية ١٠—١١)

« إلّا بلَاغا من الله ورسَالاته » (سورة ٧٢ آية ٢٤)

« قُلْ للّذين آمنُوا يغفروا للّذينَ لا يَرجُونَ أيّامَ الله ، ليَجْزىَ قَومًا بمَا كانوا يكسبون »
(سورة ٤٥ آية ١٣)

« وقال الّذينَ أشْركوا لَو شاء الله ما عبَدْنا من دونه من شَىء نَحنُ ولا آباؤنا ، ولا حرَّمْنا من دُونه من شىء ، كذلك فَعَلَ الّذين من قبلهمْ ، فَهَلْ على الرُّسُل إلّا البلاغُ المُبين ؟ » (سورة ١٦ آية ٣٧)

« فإن تولّوْا فإنّما عليك البلاغُ المُبين » (سورة ١٦ آية ٨٤)

« ولا تُجادلُوا أهلَ الكتاب إلّا بالّتى هىَ أحسَنُ ، إلّا الّذين ظلَمُوا منهم ، وقُولوا آمنّا بالذى أنْزلَ إلينَا وأنْزلَ إليكم ، وإلهُنا وإلهُكمُ واحدٌ ، ونحن له مسْلمُون » (سورة ٢٩ آية ٤٥)

« فإن أعرَضُوا فما أرسلناكَ عليهم حفيظا ، إنْ عليك إلا البلاغ » (سورة ٤٢ آية ٤٧)

« ولو شاء ربُّك لآمنَ منْ فى الأرض كلهُم جميعا ، أفأنتَ تُكرِهُ الناسَ حتّى يكونوا مؤمنين ؟ »
(سورة ١٠ آية ٩٩)

« وما أرسلناكَ إلاّ كافّة للنّاس بَشيرا وَنَذيرا » (سورة ٣٤ آية ٢٧٩)

ولم تكن هذه التعاليم مقصورة على السور المكية ، وإنما وردت أيضا بكثرة فى الآيات المدنية كقوله :

« لا إكراهَ فى الدين » (سورة ١٢ آية ٢٥٧)

« وأطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ ، فإن تولّيتم فإنّما على رسولنا البلاغ المبين » (سورة ٦٤ آية ١٢)

« قل أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسول ، فإن تولّوا فإنّما عليه ما حُمّل وعليكم ما حُمّلتم . وإن تُطيعوه تهتدوا . وما على الرسول إلاّ البلاغ المبين » (سورة ٢٤ آية ٥٣)

« قُل يا أيها النّاس إنّما أنا لكم نذير مبين » (سورة ٢٢ آية ٤٨)

« ولا تَزال تَطّلعُ على خائنة منهم إلّا قليلاً منهم ، فاعفُ عنهم واصفح إنّ الله يحبُّ المحسنين »
(سورة ٥ آية ١٦)

وإن الغرض مما سنذكر فى الصفحات التالية ، هو بيان كيف تحقق هذا المثل الأعلى فى التاريخ ، وكيف كان أئمة الإسلام يطبقون مبادىء نشاط الدعوة . وينبغى أن يعلم القارىء منذ البداية ، أننا لم نضع هذا الكتاب لدراسة تاريخ الاضطهادات الإسلامية ، وإنما وضعناه لدراسة الدعوة الإسلامية فى أنحاء العالم . فليس الغرض تأريخ الحالات التى استعملت فيها القوة لإدخال الناس فى الدين الإسلامى ، مما نجده منها مفرقا فى صفحات التاريخ الإسلامى . وقد عنى الكتاب الأوربيون ببيان هذه الحالات ، حتى لم يعد ثمة خوف من إغفالها . وإن من الصعب إدراجها فى نطاق تاريخ الدعوات . وفى بعض تواريخ البعثات المسيحية يؤثر المرء بطبيعة الحال الإصغاء إلى ما فعله القديس ليودجر Liudger والقديس ويلهاد Willehad بين السكسونيين الوثنيين ، أكثر مما نصغى إلى أخبار التعميدات المسيحية ، التى كان شارلمان يفرضها عليهم بحد السيف[1]. وكان المبشرون فى بلاد الدانمرك ، وهم القديس أنسجار Ansgar وخلفاؤه ، أحق بصفة التبشير من الملك كنوت Cnut الذى استأصل الوثنية من ممتلكاته بالقوة والإرهاب[2]. وعلى الرغم مما صادفه القسيس جوتفريد Gottfried ، والأسقف كريستيان Christian من نجاح فى تنصير البروسيين الوثنيين ، وكان نجاحهما أقل مما صادفه من سبقهما ، كانوا بحق أكثر تمثيلا لنشر الدعوة من جماعة إخوان السيف Bretheren of the Sword وغيرهم من الصليبيين ، الذين أدوا رسالتهم بالسيف والنار . ولقد فرض فرسان Ordo Fratrum Militiae Christi المسيحية على شعب ليفونيا فرضا .

ولكن الرسل الحقيقيين للعقيدة المسيحية فى هذه البلاد ، هم رهبان ما ينهارد وتيودوريك Meinhard and Theodoric ، وهم فى ذلك أشد أثرا وأعظم شأنا من أولئك الفرسان المجاهدين ، الذين قامت دعوتهم على القوة العسكرية . وإن الوسائل العنيفة التى كان يلجأ اليها أحيانا الرسل اليسوعيون[3]، لا يمكن أن تنقص الشرف الذى يتصف به أمثال القديس فرانسيس كساڤير Francis Xavier وسائر المبشرين من هذه الطائفة . كذلك لم يكن ڤالنتين Valentyn بأقل من رسل أمبوينا Amboyna فى هذه السبيل ؛ فقد وجه فى سنة ١٦٩٩ م إلى راجوات Rajas هذه الجزيرة مرسوما يأمرهم فيه بإعداد طائفة معينة من

---

(١) انظر Enhardi Fuldensis Annales عام ٧٧٧ م . « ولما ضعف السكسونيون بعد معارك كثيرة وحروب عديدة اعتنقوا المسيحية آخر الأمر وخضعوا لحكم الفرنجة » . راجع Monumenta Germaniae Historica, G. H. Pertz vol. 1. p. 349. (انظر أيضا ; pp. 156, 159).

(٢) « ومن ثم أخضع الأمم المغلوبة على أمرها القانون المسيحى بعد أن اشتبك مع الممالك البربرية فى حروب طاحنة مدفوعا بما كان يضطرم فى نفسه من الشوق إلى نشر العقيدة » (Breviarium Romanum. Iun. 19.)

(٣) Mathurin de la crose, Histoire du Christianisme des Indes, pp. 529—531. (The Hague, 1724).

الوثنيين لتعميدهم ، إذا ما طاف بهم راعى الكنيسة(١).

وإذا تتبعنا تاريخ الكنيسة المسيحية ، فإننا نجد نشاط الدعوة فى اطراد مستمر. وقد يلى عصر الحماسة التى أظهرها الرسل فى نشر الدين ، فترة جمود وعدم اكتراث ، وربما حل الاضطهاد والتنصير الإجبارى محل الدعوة الهادئة إلى «كلمة الله» . كذلك كانت الدعاية الإسلامية فى شتى عهود التاريخ الإسلامى بين مد وجزر . ولكن لما كانت الغيرة التى عرفها هؤلاء العاملون على نشر الدين ، ظاهرة جلية فى بث كل من الديانتين ، رأينا من المناسب أن نفرد لتاريخ الدعوة دراسة خاصة ، بحيث لا ينأى بنا ذلك الاتجاه ، عن ذكر غير ذلك من المعلومات التى تتعلق بالحياة الدينية ، على أن نحصر عنايتنا فى دراسة مظهر من مظاهره ، يكون له ميزاته الخاصة . وعلى ذلك فى مقدورنا أن ندرس الأخبار التاريخية المتعلقة بهذه الدعوة ، منفصلة عن أخبار الاضطهاد ، فى تاريخ الكنيسة المسيحية أو فى تاريخ العقيدة الإسلامية ، ولو أنه قد يكون هناك ما يبرر الخلط بين هاتين الديانتين أحيانا . فكما أن الدين المسيحى لم يكن انتشاره على الدوام بمثل الوسائل التى اتخذها فى ڤيكن Viken (القسم الجنوبى من النرويج) الملك أولاف ترايجفيسون Olaf Trygvesson ، الذى كان يقوم بذبح هؤلاء الذين أبوا الدخول فى المسيحية ، أو بتقطيع أيديهم وأرجلهم ، أو بنفيهم وتشريدهم ، وبهذه الوسائل نشر الدين فى فيكن بأسرها »(٢) . وكما أن وصية القديس لويس لم تتخذ أصلا لمهمة التبشير المسيحى ، تلك الوصية التى تقول : «عند ما يسمع الرجل العامى أن الشريعة المسيحية قد أسىء إلى سمعتها ، فإنه ينبغى ألا يذود عن تلك الشريعة إلا بسيفه الذى يجب عليه أن يطعن به الكافر فى أحشائه طعنة نجلاء » .(٣) فكذلك ظهر دعاة مسلمون ، لم يكن شعارهم فى وسائل دعايتهم تلك العبارة القاسية التى فاه بها مروان آخر خلفاء بنى أمية بقوله : «كل من لا يدخل فى دينى ، ويصلى صلاتى ، ويتبع رأيى من أهل مصر ، قتلته وصلبته» (٤) . كذلك لا يعد المتوكل والحاكم وتيپو سلطان رسلا مثاليين فى الإسلام ، بقدر ما يعد مولانا إبراهيم رسول جاوه ، وخواجة معين الدين خشتى فى الهند ، وغيرهم من كثيرين ظفروا بمعتنقين للاسلام بالوسائل السلمية دون غيرها .

ومع أنه قد يمكن الوقوف على ما هنالك من فرق واضح بين أساليب التحول إلى الدين بتأثير الاضطهاد ، وبين الدعاية السلمية بطريق الإقناع ، فإنه ليس من اليسير أن نتحقق من البواعث التى حملت الداخلين فى الدين على تغيير عقيدتهم ، أو الوقوف على حقيقة أن الدعوة منبعثة حقا عن محبة النفوس ، وعن ذلك المثل الأعلى الذى بيناه فى الفقرة الأولى من هذا الباب . وكان هنالك فى كل حين ، فى المسيحية والإسلام على السواء ،

---

(١) Revue de l'Histoire des Religions, vol. xi. p. 89.

(٢) Konrad Maurer: Die Bekehrung des norwegischen Stammes zum Christenthume, vol. 1. p. 284. (München, 1855) .

(٣) Jean, Sire de Joinville : Histoire de Saint Louis, ed, N. de Wailly, p. 30 (§ 53) .

(٤) سويرس ص ١٩١ (س ٢١ — ٢٢)

نفوس جادة حازمة ، تتخذ من دينها الحقيقة السامية لحياتها . وإن تلك اللذة التى تشبعوا بها فى المسائل المتعلقة بالروح قد وجدت تفسيرها فى تلك الحماسة الدائبة على تبليغ الحقائق الأثيرة لديهم ، المحببة إليهم ، وعلى التمسك بالأصول والقواعد ، التى وجدوا فيها الكمال ، والتى تكوّن القوة الدافعة فى حركات الدعوة . وكان هنالك أيضاً أولئك الخارجون عن حظيرة الإسلام الذين استجابوا لدعوتهم . واعتنقوا الدين الجديد بمثل تلك الحماسة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الإسلام ، كالمسيحية ، قد عد من بين أشياعه كثيرين من الناس ، لم تكن التعاليم الإسلامية فى نظرهم إلا مظاهر لنظام سياسى ، أو صورا من التنظيم الاجتماعى ، قبلوها إما على أنها ضرورات مبغضة إلى نفوسهم ، أو حلول ملائمة للمشاكل العارضة ، التى لا يهمهم أن يجعلوها موضع تفكير لأنفسهم ، نجد أمثال هؤلاء بين الذين دخلوا فى كل من هاتين الديانتين ، ونجد كلا من المسيحية والإسلام قد أضافت إلى أشياعها عددا من الأتباع ، مدفوعين إلى قبول الدين ، متأثرين بمطالب وأحوال اجتماعية وسياسية واقتصادية ، لا علاقة لها بمثل ذلك الظمأ الروحى الذى يدفع الداعى المخلص لدعوته . زد على ذلك أن الأخبار التاريخية التى طالما تتحدث عن أعمال الدعوة قد سجلت دخول الناس فى الدين من غير أن تحاول تحليل البواعث التى حملتهم على تغيير دينهم ، ولا سيما أن هناك نقصا واضحا فى المادة التى تتعلق بتاريخ الدعوة إلى الإسلام . إذ أن الكتب الإسلامية قد انفردت بنقص فى تدوين حالات معتنقى الإسلام ، الذين يحتل أمثالهم فى المسيحية مكانا كذلك المكان الفسيح فى كتب الكنيسة . وليس من المستطاع فيما سنذكره من وصف إجمالى لنشاط الدعوة الإسلامية ، أن نتبين دائما هل كانت تلك الدوافع التى دفعت إلى ذلك التحول سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية ، أو أنها كانت دينية محضة . وسنشير من حين إلى حين إلى ما كان لكل من هذه البواعث من أثر فى هذه السبيل .



الباب الثاني

دراسة حياة محمد باعتباره داعية إلى الاسلام

ليس من غرضنا فى هذا الباب أن نضيف شيئا جديدا إلى ماورد فى كتب السير المتعددة عن حياة محمد ، وإنما آثرنا أن ندرس حياته من ناحية واحــدة ، هى التى يظهر لنا فيها النبى داعية ورسولا إلى الناس بدين جديد . وإن حياة مؤسس الإسلام ومنشىء الدعوة الإسلامية ، قد يتوقع المرء أنها تقدم لنا بطبيعة الحال الصورة الحق لنشاط الدعوة إلى هذا الدين . فإذا كانت حياة النبى هى مقياس سلوك عامة المؤمنين ، فإنها كذلك بالنسبة إلى سائر دعاة الإسلام . لذلك نرجو من دراسة هذا المثل أن نعرف شيئا عن الروح التى دفعت الذين عملوا على الاقتداء به ، وعن الوسائل التى ينتظر أن يتخذوها . ذلك أن روح الدعوة إلى الإسلام لم تجىء فى تاريخ الدعوة متأخرة بعد أناة وتفكير ، وإنما هى قديمة قدم العقيدة ذاتها . وفى هذا لوصف الموجز سنبين كيف حدث ذلك ، وكيف كان النبى محمد يعد نموذجا للداعى إلى الإسلام . ومن ثم لن يدخل فى نطاق هـذا البحث وصف أيامه الأولى ، ولا المؤثرات التى خضع لهـا منذ نعومة أظفاره حتى بلغ سن الرجولة ، فلا نتحدث عنه سياسيا ولا قائدا ، وإنما الذى يعنينا أن نتعرض لحياته داعياً إلى الإسلام فحسب .

بعد أن قضى محمد وقتا طويلاً ، استولى عليه نزاع نفسى وقلق ، واقتنع آخر الأمر بأنه مكلف حمل رسالة دينية من قبل الله ، وجه أول جهوده إلى إقناع قومه بصدق الدين الجديد . فمن هذه الحقائق البسيطة التى طلب أن يبايعوه عليها ، وحدانية الخالق ، ونبذ عبادة الأصنام ، والتسليم لإرادة الله . وكانت خديجة زوجه المخلصة الودود أول من آمن به ـ وكانت قد خطبته لنفسها قبل مبعثه بخمسة عشر عاما ، حين كان ذلك الشاب الفقير الذى يمت اليها بالقرابة يشتغل فى تجارتها أجيراً موفقاً فى عمله ـ وقالت له : « يابن عم ، إنى قد رغبت فيك لقرابتك ، وسطتك فى قومك ، وأمانتك ، وحسن خلقك ، وصدق حديثك[1] » . وقد نشلته من الفقر وساعدته على أن يصل إلى مستوى الطبقة الاجتماعية التى أهلته لها عراقة نسبه . بيد أن هـذا لم يكن شيئا مذكوراً بالنسبة إلى مشاركتها إياه فى حالات قلقه النفسى فى إخلاص وولاء ، وشد أزره ومعاونته بأرق ما يكون من التعاطف والتشجيع فى ساعة اليأس .

وكانت خديجة إلى أن توفيت سنة ٦١٩ م (بعد أن قضت فى حياة الزوجية خمسة وعشرين عاما) ، تظهر على الدوام استعدادها لأن تواليه بعطفها ، وتحبوه بتأييدها ، وتغمره بتشجيعها ، كلما قاسى من اضطهاد خصومه وأعدائه ، أو عذبته الشكوك والهواجس . قال صاحب السيرة :

---

(١) ابن إسحاق ص ١٢٠

« وكانت أول من آمن بالله ورسوله وصدق بما جاء منه ، فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ لا يسمع شيئا مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له ، فيحزنه ذلك ، إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها ، تثبته وتخفف عنه ، وتصدقه ، وتهوّن عليه أمر الناس »(١) .

وممن اعتنق هذا الدين أول الأمر وآمن برسالة محمد ، زيد بن حارثة وعلي بن أبي طالب . وكان الرسول قد تبناهما ، والصديق أبو بكر ، وطالما كان النبي يشيد بذكره قائلا : « مادعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ، ما عكم(٢) عنه حين ذكرته له وما تردد فيه » . وكان أبو بكر تاجرا موسرا مبجلا في قومه ، لكمال خلقه ورجاحة عقله وكفايته ، أنفق بعد إسلامه جل ثروته في شراء الموالى من المسلمين الذين اضطهدهم سادتهم لمشايعتهم دين محمد . وكان لأبي بكر أثر كبير في تحول خمسة من المسلمين الأولين إلى هذا الدين ، وهم : سعد بن أبي وقاص ، الذي تم على يديه فيما بعد فتح بلاد الفرس ، والزبير بن العوام أحد أقرباء النبي وزوجته ، وطلحة بن عبيد الله الذي اشتهر فيما بعد بفروسيته ، وعبد الرحمن بن عوف التاجر الموسر ، وعثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين ، الذي تعرض في حياته الأولى للعذاب . فقد أخذه عمه فأوثقه وقال : « أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث ؟ والله لا أحلك أبداً حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين » . فقال عثمان : « والله لا أدعه أبدا ولا أفارقه » ، فلما رأى عمه صلابته في دينه حل وثاقه .

وتلا هؤلاء قوم آخرون من بينهم طائفة من الموالى والفقراء بوجه خاص ، وبذلك أفلح النبي في أن يجمع حوله فئة قليلة من أتباعه في السنين الثلاث الأولى من البعثة . وكان لنجاح محمد في هذه الجهود الخاصة ما حفزه على التفكير في اتخاذ أساليب أقوى أثرا من الأساليب الأولى ، فبدأ يجهر بدعوته ، وجمع عشيرته ودعاهم إلى دينه الجديد بقوله : « والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به . إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ؛ فأيكم يؤازرني على هذا الأمر ؟ » ، فأحجم القوم عنه جميعا إلا عليا فقد صاح في حماسة الصبي : « أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه » ، فقام القوم يضحكون .

ولم يثن النبي إخفاقه أول ما دعا قومه عن الدعوة في مناسبات أخرى ، ولكن إنذاره لم يزدهم إلا سخرية وازدراء .

وقد حاول الكفار مرارا إقناع عمه أبي طالب زعيم بني هاشم الذين ينتسب اليهم محمد ، ليمنعه ويكفه عن سب آلهة آبائهم ، وإلا اضطروا إلى اتخاذ وسائل أشد عنفا . وهنا حاول أبو طالب إقناع ابن أخيه ألا يجلب الشر على نفسه وعلى قومه ، فرد عليه النبي : « ياعم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه ، ما تركته » . فأثر ذلك في نفس أبي طالب وقال له : « اذهب يابن أخي فقل ما أحببتَ فوالله لا أسلمك لشيء أبداً » .

ونظرت قريش إلى ما أحرزه الدين الجديد من تقدم بعين تزداد سخطا وكراهية يوما بعد يوم ، فلجئوا

---

(١) ابن إسحاق ص ١٥٥

(٢) : تأخر وانتظر

إلى كل ما أمكن من وسائل الوعد والوعيد ، وعرضوا عليه كثيرا من شرف الدنيا وجاهها ، لعله يعدل عما عقد العزم عليه . وقد قيل إن ما لقى محمد من سوء المعاملة كان سببا فى أن يجتذب إلى جانبه شخصا عظيما دخل فى الإسلام ، ذلك هو عمه حمزة . فانه عند ما سمع قصة الإهانة التى لحقت بابن أخيه واحتملها صابرا ، تملكت عاطفة الغضب روحه التى جبلت على البطولة والفروسية ، فأحالته من عدو عنود إلى متعصب غيور على الإسلام . ولم يكن هذا الحادث هو المثل الوحيد لما أثاره التنكيل بالمسلمين من شفقة فى نفوس هؤلاء الذين شاهدوا ما قاساه أولئك من اضطهاد . ولا شك أن كثيرا من الناس كانوا قد دخلوا سرا فى الدين الجديد ، ولكنهم لم يجهروا بإسلامهم حتى يحين يوم انتصار الدين .

واشتدت عداوة قريش للدين الجديد اشتدادا مرا حين رأوا كثرة عدد المشايعين للاسلام ، وأيقنوا أن انتصار الدين الجديد معناه تحطيم دين العرب الموروث والعبادة القومية ، وضياع ما كان يتمتع به سدنة الكعبة المقدسة من ثروة ونفوذ . وكان محمد نفسه فى حماية أبى طالب وبنى هاشم ، فهؤلاء وإن كانوا لم يظهروا أية عاطفة نحو التعاليم التى أذاعها قريبهم فى الناس ، إلا أن قوة العصبية للقبيل التى يتميز بها العرب قد حمته من أية محاولة اعتداء على حياته ، وإن كان قد ظل معرضا لأذى واعتداء كثير . أما الفقراء الذين لم يكن لهم من يقوم بحمايتهم ، وكذلك الموالى ، فقد تحملوا أقسى ألوان الاضطهاد ، فسجنوا ، وعذبوا ، بغية ارتدادهم عن هذا الدين الجديد . فى ذلك الحين اشترى أبو بكر بلالا (١) وأعتقه ، وهو عبد حبشى كان يصفه محمد بأنه « أول ثمار الحبشة » . وكان يقاسى أشد العذاب ، فكان يلقى به فى الرمضاء على وجهه وظهره ، إذا حميت الشمس وقت الظهيرة ، ثم يؤمر بالصخرة الكبيرة فتوضع على صدره ، ثم يقال له : لا تزال هكذا حتى تموت ، أو تكفر بمحمد ، أو تعبد اللات والعزى ، فيقول بلال : « أحد أحد » . ولقد مات اثنان من المسلمين من جراء ما تعرضا له من عذاب . وقد ضعفت عزائم فئة قليلة بتأثير هذه المحنة ، على حين ساعد هذا الاضطهاد على إذكاء روح الحماسة الدينية فى نفوس فئة أخرى . فقد برهن عبد الله بن مسعود على جرأته حين قرأ القرآن فى فناء الكعبة نفسها ـ وكان العمل ينطوى على أشد مظاهر الجرأة التى لم يجسر عليها أحد من أتباع محمد من قبل ـ فتعرض له قوم من قريش كانوا فى أنديتهم وجعلوا يضربون فى وجهه ، ولكنه استمر يتلو القرآن وقتا ما قبل أن يضطروه إلى الكف . ورجع إلى رفاقه ، وقد أظهر استعداده للجهر بالإسلام بمثل هذه الطريقة فى اليوم التالى . ولكن أصحابه أقنعوه بالعدول عن ذلك قائلين ، « حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون » .

وربما كانت شدة معارضة قريش السبب الذى من أجله اتخذ محمد دار الأرقم ، وهو أحد السابقين إلى الإسلام . وكانت هذه الدار فى مركز متوسط يؤمها الحجيج والغرباء . وقد استطاع الرسول أن يواصل نشر مبادىء الإسلام بين الذين كانوا يقصدونه فى هدوء وطمأنينة . وتعد الفترة التى قضاها محمد فى هذه الدار فترة هامة فى الدعاية الإسلامية بمكة ، حتى إن كثيرا من المسلمين يؤرخون دخولهم فى الإسلام من تلك الأيام التى كان الرسول يبث فيها الدعوة بدار الأرقم .

(١) وقد ذاعت شهرته فى العالم الاسلامى باعتباره أول مؤذن فى الاسلام .

ولما اشتد إيذاء الكفار لأتباع محمد أشار عليهم بالهجرة إلى بلاد الحبشة . وفى السنة الخامسة للبعثة (٦١٥ م) عبر اليها أحد عشر رجلا وأربع نسوة حيث لقيهم النجاشى ، وكان يدين بالمسيحية ، بالعطف والقبول . وكان من بينهم مصعب بن عمير صاحب القصة التى تلفت النظر، لأنها قصة الرجل الذى لم يكن بد من أن يتحمل ما يقاسيه حديث العهد بالإسلام من محن مريرة ، وهى كراهة الذين أحبهم وأحبوه من قبل . وقد هدى مصعبا إلى الإســلام ما استمع اليه فى دار الأرقم من تعاليم للاسلام ، إلا أنه كان يخشى أن يظهر إسلامه مخافة أن يصل الخبر إلى أمه وعشيرته الذين كانوا يكنون له حبا خالصا ويناوئون هذا الدين الجديد مناوأة شديدة ، فما إن اكتشفوا حقيقة الأمر حتى أخذوه لحبسوه ولكنه أفلح فى الهرب إلى أرض الحبشة .

ويقال إن سخط قريش قد لحق بهؤلاء الهاربين حتى بأرض الحبشة ، فأرسلوا الرسل يطلبون من النجاشى إخراجهم من هذه البلاد . ولكنه بعد أن سمع من المسلمين قصتهم أبى أن يكف عنهم حمايته ، فقد قالوا له ردا على ما وجه اليهم من أسئلة عن حقيقة دينهم : كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء إلى الجار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان . وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده وبالصلاة والزكاة والصيام . فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان . فلما قهرونا وضيقوا علينا خرجنا إلى بلادك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك » . عندئذ قبل النجاشى شكايتهم ورجع رسل قريش مقهورين (١) . وفى تلك الأثناء قام المكيون بمحاولة جديدة لإغراء النبى بالمال والجاه حتى يترك دعوته ، ولكن تلك الوعود لم تجد نفعا فى هذه السبيل .

وفى الوقت الذى كان المسلمون فى مكة يرقبون بشغف كبير نتيجة بعثة قريش إلى الحبشة ، حدث أن دخل فى الإسلام رجل كان من أشد أعداء محمد وأصلبهم مقاومة وتعصبا — رجل تضافرت الأسباب لدى المسلمين على أنه أخطر أعدائهم وألدهم ، ومع ذلك فقد سطع ذكره فيما بعد، وكان من أنبل الرجال فى صدر الإسلام — ذلك الرجل هو عمر بن الخطاب . فى ذات يوم خرج فى سورة الغضب متوشحا بسيفه يريد قتل النبى ، فلقيه أحد أقاربه وهو فى طريقه إلى النبى وسأله أين يريد ؟ فقال : « أريد محمدا هـذا الصابىء الذى فرق أمر قريش وسب آلهتنا فأقتله » . فقال له : « أفلا ترجع إلى أهـل بيتك فتقيم أمرهم ؟ » قال : « وأى أهل بيتى ؟ » قال : « ختنك وابن عمك سعيد وأختك فاطمة » — فرجع عمر عامدا إلى أخته وختنه وعندهما خبّاب (بن الأرتّ) أحد أتباع محمد ، وكان يعلمهما الدين ، ومعه صحيفة يقرئهما إياها . فدخل عمر عليهما فقال : « ما هذه الهينمة التى سمعتها عندكم ؟ » . قالا : « ما سمعت شيئا » قال : « بلى والله لقـد أخبرت أنكما

---

(١) ابن إسحاق ص ٢١٩ — ٢٢٠ . ولم يتعرض الطبرى لذكر هذه البعثة ، ومن ثم يزعم كيتانى Caetani (فى الجزء الأول ص ٢٧٨) أنها وضعت فيما بعد .

تابعًا محمدا على دينه » . وبطش بختنه سعيد ، فقامت إليه أخته فاطمة لتكفه عن زوجها فضربها فشجها فصاحت فى وجهه : «نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك .» فلما رأى عمر ما بأخته من الدم من أثر ضربته رق لحالها ، وسألها أن تعطيه هذه الصحيفة التى سمعهم يقرءونها آنفا . وبعد تردد أعطته إياها ، وهى تشتمل على السورة العشرين من القرآن ، فقرأها عمر وقال : «ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ا» وإذا بالإيمان يغمره فيصيح : «دلنى على محمد حتى آتيه فأسلم »(١).

ويعد إسلام عمر نقطة تحول فى تاريخ الإسلام : فقد استطاع المسلمون أن يسلكوا منذ ذلك الحين مسلكا أشد جرأة . فترك محمد دار الأرقم ، وبدأ المؤمنون يجهرون بتأدية شعائر الإسلام جماعات حول الكعبة . وقد يتوقع المرء أن يكون هذا الموقف سببا قويا فى إثارة مخاوف أشراف مكة . ذلك أنهم أصبحوا لا يطيقون الحياة مع شرذمة من المنبوذين ، المحقرين ، المضطهدين الذين يجاهدون لكى يعيشوا عيشة ضعف وبؤس . إنهم كانوا عصبة قوية ، يكثر عددهم يوما بعد يوم بمن ينضم إليهم من المواطنين من أصحاب النفوذ والسلطان . ويعرضون استقرار الحكومة القائمة للخطر بما عقدوه من تحالف مع ملك أجنبى قوى .

فلما رأت قريش ذلك عقدت النية على القيام بعمل حاسم يحول دون نمو هذه الحركة الجديدة فى البلاد ، فتحالفت قريش على مقاطعة بنى هاشم وهم الذين حموا النبى لما بينه وبينهم من صلة النسب ، وتعاهدوا على أن لا يتزوجوا منهم ولا يزوجوهم من أنفسهم ، ولا يتجروا معهم ، وأن يقطعوا كل صلة تربطهم بهم . وقد قيل إن بنى هاشم قد أقاموا على ذلك ثلاث سنين مهجورين فى شعب من شعاب مكة ، إلا فى الأشهر الحرم حيث حرم القتال فى كافة أنحاء بلاد العرب ، وعقد حلف بين الفريقين حتى يتمكن الحجيج من زيارة الكعبة المكرمة التى كانت تعد مركز ديانة العرب فى ذلك الحين .

وكان محمد يجعل من مواسم الحج فرصة لنشر الدعوة بين شتى القبائل التى كانت تتدفق إلى مكة وما جاورها من الأسواق . ولكنه لم يصادف نجاحا فى هذه السبيل ، لأن عمه أبا لهب كان قد تعود أن يتعقبه ويصيح بأعلى صوته : «إنه لصابئ يريد أن تسلخوا دين آبائكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا له .» فيردون عليه ردا قبيحا ويقولون له : إن قومك وذوى قرابتك هم أعرف الناس بك ، فلم لم يؤمنوا بك ويتبعوك ؟ وكان ما ذاقه محمد وذوو قرابته من العذاب والحرمان قد أثار آخر الأمر شفقة جماعة كبيرة من القرشيين فنقضوا حلفهم .

وفى هذا العام أصيب الرسول بوفاة خديجة ، تلك الزوج الوفية التى ظلت زهاء خمسة وعشرين عاما تمده بالرأى والتأييد ، لحزن عليها حزنا عميقا . وبعد ذلك بقليل توفى عمه أبو طالب ، فحرمه موتهما من أشد حماته ثباتا وقوة وعرضه لإهانة قريش وأذاها من جديد .

ولما قوبلت دعوة محمد بالإهانة والسخرية من أهل مكة الذين حمل رسالته إليهم زهاء عشر سنوات

---

(١) ابن إسحاق ص ٢٢٥ — ٢٢٦

دون أن يصادف فيها نجاحاً يذكر، عزم على البحث عن قوم آخرين يكونون أكثر استعدادا لقبول دعوته، ويجد فى بلدهم تربة أشد خصبا وصلاحية يستطيع أن يلقى فيها بزور هذا الدين ؛ فانطلق على هذا الأمل إلى مدينة الطائف، وهى على سبعين ميلا من مكة، ودعا فريقاً من أشرافها إلى وحدانية الله، وأخبرهم أنه مكلف من قبل الله أداء رسالته ليعلم هذا الدين، وطلب فى الوقت ذاته أن يحموه ممن اضطهدوه فى مكة. إلا أن عدم التناسب بين مطالبه السامية (التى لم تتقبلها عقول أهل الطائف الوثنيين) وبين حالته التى أصبحت تبعث على اليأس، لم تثر فى نفوسهم غير السخرية والاستهزاء، فرموه بالحجارة فى غير رحمة، وأخرجوه من ديارهم.

وقد وجد محمد عند عودته من الطائف أن أمله فى النجاح قد أصبح أضعف منه فى أى وقت مضى، وتجلت مرارة نفسه فى تلك الآيات التى أوردها على لسان نوح: «قال رب إنى دعوت قومى ليلاً ونهاراً، فلم يزدهم دعائى إلا فراراً. وإنى كلما دعوتُهم لتغفر لهم جعلُوا أصابعهم فى آذانهمْ واستغشوا ثيابهُم وأصَرُّوا(١) واستكبروا استكبارا». (سورة ٧١ آية ٥—٦).

وكان من عادة النبى أن يتردد فى موسم الحج على القبائل العربية المختلفة فى خيامهم ويحدثهم فى الدين. وكان بعضهم يقابل عباراته بشىء من عدم الاكتراث، ويقابلها بعضهم الآخر بالسخرية والاستهزاء، حتى أتاه الفرج من جهة لم يكن يتوقعها. فقد التقى بفئة قليلة، ستة نفر أو سبعة، وعرف أنهم قادمون من المدينة أو يثرب، كما كانت تسمى فى ذلك الحين. فقال لهم مخاطبا: «من أنتم؟» قالوا: «من الخزرج» قال «أمن موالى يهود؟» فأجابوا «نعم» قال: «أفلا تجلسون حتى أكلمكم؟» قالوا: «بلى». وعندئذ جلسوا فدعاهم إلى الله الحق، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. وكان مما صنع الله بهم لأجل الإسلام أن يهودا كانوا معهم ببلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكان أولئك أهل شرك وأصحاب أوثان. وكان اليهود قد غلبوهم فى بلادهم، فكانوا إذا شجر بينهم نزاع قالوا لهم، «إن نبيا الآن مبعوث قد أظل زمانه نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم». فلما كلم رسول الله أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض: «تعلمن والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه». فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا له: «إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى الله أن يجمعهم بك، وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين». وهكذا رجعوا إلى بلادهم يغمرهم الإيمان (٢).

تلك هى القصة السائرة عن هذا الحادث الذى كان نقطة التحول فى بعثة محمد. فقد لقى الآن قوما كان أسلافهم قد هيئوا عقولهم إلى حد ما لتقبل تعاليم النبى، وكانت أحوالهم إذ ذاك، كما دلت الحوادث فيما بعد، ملائمة لقبول دعوته.

وقد أقام اليهود بمدينة يثرب زمنا طويلا، ولا يبعد أن يكونوا قد نزحوا من بلادهم على أثر هذه الكارثة القومية التى نزلت بهم باضطهاد أدريان Hadrian لهم. وفى ذلك الوقت وصلت إلى يثرب طائفة من

(١) أى على خطيئتهم

(٢) ابن إسحاق ص ٢٨٦ - ٢٨٧

البدو المهاجرين، وهم الأوس والخزرج من قبائل العرب، وسمح لها بالإقامة في رقعة من هذه المنطقة. ولما تكاثر عددهم أخذ تعديهم على سلطة الحكام اليهود يزداد شيئاً فشيئاً حتى استطاعوا آخر الأمر أن ينقلوا زمام الحكم كله إلى أيديهم، وذلك فى نهاية القرن الخامس الميلادى.

وكانت طائفة من العرب قد اعتنقت اليهودية، وظل كثير من سادة المدينة الأصليين يقيمون فيها فى خدمة هؤلاء الفاتحين، حتى إن المدينة كانت فى زمن محمد تضم عددا عظيما من اليهود. وكان أهل يثرب قد ألفوا فكرة المسيح الذى ينتظرون عودته، ومن ثم كانوا أقدر على فهم دعوى نبوة محمد من أهل مكة الوثنيين. فقد كانت مثل هذه الفكرة غريبة عليهم كل الغرابة، ومبغضة إلى قلوب القرشيين منهم بخاصة، وهم الذين كانت سيادتهم على سائر القبائل وحالة الرخاء المادى التى تمتعوا بها، راجعة إلى أنهم قد ورثوا حراسة هذه المجموعة من الأوثان العربية التى احتفظوا بها فى حرم الكعبة المقدسة.

زد على ذلك أن مدينة يثرب كانت مشغولة بنزاع داخلى دائم بسبب الخصومة التى قامت بين الأوس والخزرج. وعاش أهل يثرب فى قلق واضطراب. وما من شىء يمكن أن يربط هذه الأحزاب المتناحرة برباط من المصلحة المشتركة إلا كان خيرا لهذه المدينة. وكما أن جمهوريات إيطاليا الشمالية فى القرون الوسطى قد آثرت أجنبيا ليقبض على زمام الأمور فى مدنهم حفظا للتوازن بين قوى الأحزاب المتنافسة، ومنعا للصراع الداخلى الذى كان مفسدا للتجارة والشئون العامة، كذلك لم ينظر أهل يثرب إلى قدوم أجنبى نظرة تنطوى على شىء من الريبة، حتى ولو قدر أن قدومه كان بقصد اغتصاب حكومة البلاد الشاغرة أو كسب رضاهم بتسلم زمام هذه السلطة.

ويظهر أن من أسباب الترحيب الحامى الذى لقيه محمد فى المدينة أن الدخول فى الإسلام، قد بدا للطبقة المستنيرة من أهالى المدينة علاجا لهذه الفوضى التى كان المجتمع يقاسيها بنظامه الرتيب فى الحياة، وجعل أهواء الناس الصعبة خاضعة لقوانين منظمة قد شرعتها سلطة تسمو على الأهواء الفردية (١).

وإن هذه الحقائق لتفسر لنا إلى حد بعيد كيف استطاع محمد أن يدخل مكة بعد ثمانى سنوات من الهجرة على رأس عشرة آلاف من أتباعه، تلك المدينة التى جاهد فيها من قبل جهادا قليل الثمرة مدة عشر سنوات.

وكان محمد قد رغب من قبل فى أن يصحب الحجاج من الخزرج، الذين تحولوا حديثا إلى الإسلام، على يديه إلى يثرب، ولكنهم وعدوه ذلك بعد أن يتم الصلح بينهم وبين الأوس. وقالوا: «دعنا نرجع إلى قومنا عسى الله أن يجعل السلم بيننا وسنعود إليك، وموعدنا موسم الحج فى العام المقبل». وهكذا رجعوا إلى ديارهم ودعوا قومهم إلى الإسلام، فاستجاب لهم كثير، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله.

حتى إذا وافى موسم الحج وافاه وفد من يثرب يتألف من عشرة رجال من الخزرج واثنين من الأوس

(١) Caetani, t. 1, p. 334-5.

عند العقبة ، وهى المكان السرّى المتفق عليه ، وتعاهدوا على بيعته . وهذا هو نص بيعة العقبة الأولى : «على ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف » . ورجع هؤلاء الاثنا عشر رجلا إلى يثرب دعاة إلى الإسلام ؛ وقد انتشر هذا الدين الجديد فيها انتشارا سريعا ، من دار إلى دار ، ومن قبيلة إلى قبيلة بفضل استعداد هذه المدينة لقبول الدعوة ، وما أبداه هؤلاء الدعاة من حماسة وغيرة فى تأدية رسالتهم .

وقد صحبهم مصعب بن عمير وهم راجعون إلى المدينة ، وفى رواية أن الرسول أرسله إجابة لكتاب بعثه الأنصار من يثرب . وكان هذا الشاب من السابقين إلى الإسلام ، وقد عاد أخيراً من الحبشة ، ومن هنا كسب خبرة واسعة . وإن التجربة القاسية التى لاقاها فى مدرسة الاضطهاد لم تضعف من حماسته ، بل علمته كيف يقاوم الاضطهاد ، وكيف يعامل هؤلاء الذين كانوا يغضون من شأن الإسلام قبل أن يتبينوا روحه وتعاليمه . واستطاع محمد أن يوليه كل ثقته ، ويعهد إليه فى هذه المهمة الشاقة ، وهى مهمة إرشاد الذين دخلوا حديثا فى هذا الدين ، وتعليمهم ، وتعهد بزور الحماسة والعبادة الدينية التى ألقيت من قبل حتى آتت ثمارها . واتخذ مصعب دار أسعد بن زرارة مقاما له ، وكان يجمع المسلمين للصلاة وقراءة القرآن فى تلك الدار أحيانا ، وأحيانا أخرى فى دار بنى ظفر ، فى حى من أحياء المدينة ، حيث كانت تقيم فيه هذه الأسرة مع أسرة بنى عبد الأشهل .

وكان سعد بن معاذ وأُسيد بن حُضير شيخى بنى عبد الأشهل فى ذلك الحين . وقد حدث ذات يوم أن مصعباً كان يجلس مع أسعد فى دار بنى ظفر ، وكانا مشغولين بنشر تعاليم الدين بين من دخلوا فيه حديثاً ، إذ قدم عليهم سعد بن معاذ ليعرف مكانهم وقال لأسيد بن حضير : « لا أبالك ، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا ، فازجرهما وانههما أن يأتيا دارنا ، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث قد علمت لكفيتك » (وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد) . عندئذ تناول أسيد حربته وانطلق إلى أسعد ومصعب ، ثم صاح بهما : « ما جاء بكما إلينا ؟ أتسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما فى نفسيكما حاجة » . فأجاب مصعب فى هدوء : « أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته فكف عنه » . فركز أسيد حربته فى الأرض وجلس إليهما يسمع ، ومصعب يشرح له مبادىء الإسلام الأساسية ويقرأ بعض آيات من القرآن . وصاح بعد برهة مأخوذاً : « كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين ؟ » فأجابه مصعب : « تغتسل فتطهر ثوبيك ، ثم تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » . فاستجاب أسيد لساعته ، وردد شهادة الإسلام ثم قال : « إن ورائى رجلا (يشير إلى سعد بن معاذ) إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن » .

عند ذلك انصرف ، وما لبث أن جاء سعد بن معاذ نفسه ثائرا غضبا على أسعد لما قدمه لدعاة الإسلام من تأييد ، فرجا منه مصعب ألا يحكم على الدين قبل أن ينظر فيه . عندئذ رضى أن يصغى إلى كلام مصعب . وسرعان ما أثر فيه ، وحمل الإقناع إلى قلبه ، فدخل فى الدين ، وأصبح من المسلمين . ثم رجع إلى قومه يلتهب حماسة وقال لهم : « يا بنى عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ تعالوا « سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة » ،

فقال سعد : «فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله». ومنذ ذلك اليوم أسلم كل آل عبد الأشهل .(١)

وبمثل هذه الحماسة وتلك المثابرة ونحوهما سارت الدعوة الدينيـــة قدما ، فلم ينقض عام حتى كانت كل أسرة من عرب المدينة قد قدمت بعض أفرادهـا ليزداد به عدد المؤمنين ، لا نستثنى إلا فرعا من الأوس ظلوا بمعزل عنهم خاضعين لنفوذ أبى قيس بن الأسلت الشاعر .

وما إن وافى موسم الحج التالى حتى خرج من يثرب ثلاثة وسبعون شخصا من المسلمين الذين أسلموا حديثا قاصدين مكة ، وكان يصحبهم مواطنوهم من المشركين . وقد عهد اليهم دعوة النبى بالمهاجرة إلى يثرب اعتصاما بها من حنق الخصوم ، وقد قدموا ليبايعوه على أنه نبيهم وزعيمهم . وفى هذه المناسبة العظيمة عاد إلى مكة كل المسلمين الأولين الذين اجتمعوا بالنبى فى الموسمين السابقين ، وكان يرافقهم شيخهم مصعب ، وقد بادر على أثر وصوله بالذهاب إلى النبى ، وإخباره بما أصابه من نجاح فى نشر الدعوة إلى الإسلام . ويقال إن أمه لما سمعت بمقدمه بعثت اليه تقول : «يا عاق ، أتقدم بلدا أنا فيه لا تبدأ بى ؟ فقال : ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله ﷺ . فلما سلم على رسول الله ﷺ وأخبره بما أخبره ذهب إلى أمه فقالت : إنك لعلى ما أنت عليه من الصبأة بعد ، قال : أنا على دين رسول الله ﷺ وهو الاسلام الذى رضى الله لنفسه ولرسوله . قالت : ما شكرتَ ما رثيتك مرة بأرض الحبشة ومرة بيثرب فقال : أفر بدينى أن تفتنونى . فأرادت حبسه فقال : لئن حبستنى لأحرصن على قتل من يتعرض لى ، قالت : فاذهب لشأنك ، وجعلت تبكى ، فقال مصعب : يا أمَّة إنى لك ناصح ، عليك شفيق ، فاشهدى أنه لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، قالت : والثواقب لا أدخل فى دينك فيُزرى برأيى ، ويضعَّف عقلى ، ولكنى أدعك وما أنت عليه وأقيم على دينى .»

وقد دبر اجتماع سرى بالعقبة ، وهو ذلك المكان الذى لقى فيه النبى أهل يثرب من المسلمين فى العام الماضى . وإنما اختار النبى هذا الموضع حتى لا يثير شك قريش ولا يستهدف لعداوتها . جاء محمد لا يرافقه إلا عمه العباس الذى كان يعلم أمر هذا الاجتماع مع أنه كان لا يزال على الشرك . وكان العباس أول من تكلم فى الاجتماع ، فأثنى على ابن أخيه وذكر أنه فى عز من قومه ومنعة فى بلده . على أنه أبى إلا الانحياز إلى أهل يثرب ، فينبغى أن يتدبروا مليا قبل أن يأخذوا على عاتقهم الوفاء له ، ومنعه ممن يخالفونه ، وأن يعقدوا العزم على ألا يرجعوا عن عهدهم إذا ما استهدفوا لخطر . عندئذ أكد البراء بن معرور أحد الخزرج أنهم صادقون فى عزمهم ، وأنهم عولوا على منع نبى الله ، وطلب إلى النبى أن يتكلم فى صراحة وأن يأخذ لنفسه ولربه ما أحب .

وبدأ محمد بتلاوة بعض آيات القرآن ، ودعوتهم إلى الله ورسوله ، وترغيبهم فى الإسلام ، ثم طلب منهم أن يمنعوه وأصحابه بما يمنعون منه أزواجهم وأبناءهم . وعلى أثر ذلك أمسك البراء بن معرور بيده وقال : «والذى بعثك بالحق ، لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرَنا ، فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله أهل الحرب وأهل الحلقة

---

(١) ابن إسحاق ص ٢٩١ وما يليها .

ورثناها كابرا عن كابر » . وهكذا بايعوه واحدا بعد واحد .

ولم تكد قريش تفطن إلى ما يجرى فى الخفاء حتى استأنفوا التنكيل بالمسلمين من جديد . فنصحهم محمد بالفرار من مكة ، قائلا : «هاجروا إلى يثرب ، فإن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون فيها» . ومن ثم هربوا مستخفين مثنى وثلاث إلى المدينـــة . وهناك قوبلوا بترحاب عظيم ، وتسابق إخوانهم فى الدين إلى شرف رعايتهم وقضاء مآربهم . ولم يمض شهران حتى كان عامة المسلمين تقريبا قد غادروا مكة ، وكانوا نحو مائة وخمسين عدا الذين أخذوا وحبسوا والذين لم يستطيعوا الخلاص من الأسر . وقد حكى عن آحد هؤلاء المسلمين ، واسمه صهيب ، وكان النبى يطلق عليه « أول ثمار الروم » (وكان عبدا روميا ، فلما أعتقه مولاه احترف التجارة وجمع منها ثروة كبيرة) لما شرع فى الهجرة قال له أهل مكة : « أتيتنا ها هنا صعلوكا حقيرا ، فكثر مالك عندنا وبلغتَ ما بلغت ، ثم تنطلق بنفسك ومالك ؛ والله لا يكون ذلك ، فقال : أرأيتم إن تركت مالى أتخلون أنتم سبيلى ؟ قالوا : نعم ، فجعل لهم ماله أجمع ، فبلغ النبى (ص) فقال : ربح صهيب ، ربح صهيب » .

وتخلف محمد فلم يهاجر (ولا شك أنه كان يقصـــد بذلك صرف الأنظار عن أتباعه المخلصين) حتى حدثت مؤامرة مدبرة لاغتيال حياته ، فتنبه أنه سيعرض نفسه للموت إن أطال مكثه بعد ذلك ، فاحتال للفرار .

وكان أول ما عنى به محمد بعد أن دخل يثرب (المدينة) كما سميت منذ ذلك الحين — أى مدينة النبى — أن يبنى مسجدا ليكون مقاما للصلاة ومجمعا عاما لأصحابه الذين كانوا حتى ذلك الحين يجتمعون لهذا الغرض فى بيت واحد منهم . وكان المصلون قد تعودوا فى العهد الأول أن يولوا وجوههم شطر بيت المقدس ، وربما كان المقصود من ذلك استمالة اليهود . وقـــد حاول محمد استرضاءهم بوسائل أخرى كثيرة ، فدأب على الاستشهاد بكتبهم المقدسة ، ومنحهم الحرية التـامة فى إقامة شعائرهم الدينية ، وساوى بينهم وبين المسلمين فى الحقوق السياسية ، ولكنهم قابلوا صنيعه باستهزاء وسخرية . فلما أن أخفقت آماله فى استمالتهم إليه وأصبح من الواضح أن اليهود لا يقبلون محمدا نبيا لهم ، أمر صحابته بأن يولوا وجوههم شطر الكعبة بمكة . (سورة ٢ : آية ١٤٤) [١]

وكان لتحويل القبلة مغزى أبعد مما قد يبدو لأول وهلة ، إذ كان ذلك فى الواقع بداية للحياة القومية فى الإسلام : فجعل من الكعبة فى مكة مركزا دينيا للمسلمين كافة ، كما كانت تماما فى الأزمان الغابرة مقصدا لحج القبائل العربية جميعا . ونظير ذلك فى الأهمية ما كان من جعل الحج إلى مكة ، تلك العادة العربية القديمة من بين فرائض الإسلام ، فأصبحت فريضة يؤديها كل مسلم مرة على الأقل فى حياته .

---

(١) ولا شك أن فرض صيام رمضان (سورة ٢ : آية ١٧٩ — ١٨٤) مظهر آخر من مظاهر نبذ مودة اليهود إذ به أبطل صيام يوم عاشوراء .

وفى القرآن آيات كثيرة توجه الأنظار إلى منشأ هذا الشعور القوى ، وتحث أهل بلاد العرب على إدراك ما مُنحوه من فضل بنزول الوحى الإلهى بلغتهم ، وعلى لسان واحد منهم .

« إنَّا جعلْناهُ قُرآناً عربياً لعلكُم تعقِلُون » (سورة ٤٣ : آية ٣٢) .

« وكذلكَ أوحينَا إليكَ قُرآناً عربيًّا لتُنذرَ أُمَّ القُرى ومَن حولَها » (سورة ٤٢ : آية ٥) .

« ولَو جعلْناهُ قُرآناً أعْجميًّا لقالُوا لَولاَ فُصِّلَت آيَاتُه » (سورة ٤١ : آية ٤٤) .

« ولقَد ضَربنَا للنَّاس فى هَذا القُرآن من كُل مَثل لعلَّهُم يتذكَّرون قُرآناً عَربيًّا غَير ذى عوَج لعلَّهم يتَّقُون » (سورة ٣٩ : آية ٢٨ - ٢٩) .

« وإنَّه لتنْزيل ربِّ العَالَمين . . . بلسَان عرَبى مُبين » (سورة ٢٦ : آية ١٩٢ ، ١٩٥) .

« فإنَّما يسَّرنَاه بلسَانك لتُبشِّر به المتَّقين وتُنذر به قَوماً لُدا » (سورة ١٩ : آية ٩٧) .

ولم تكن رسالة الإسلام مقصورة على بلاد العرب ، بل إن للعالم أجمع نصيبا فيها(١) . ولما لم يكن هناك غير إله واحد ، كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى إليه الناس كافة . ولكى تكون هذه الدعوة عامة ، وتحدث أثرها المنشود فى جميع الناس وفى جميع الشعوب ، نراها تتخذ صورة عملية فى الكتب التى قيل إن محمدا بعث بها فى السنة السادسة من الهجرة (٦٨٨ م) إلى عظماء ملوك ذلك العصر . وفى هذه السنة أرسل الرسول كتبا إلى هرقل قيصر الروم ، وإلى كسرى فارس ، وإلى حاكم اليمن ، وإلى حاكم مصر ، وإلى النجاشى . وقد قيل إن الكتاب الذى أرسل إلى هرقل كان كما يلى : — « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل قيصر الروم ، السلام على من اتبع الهدى . أما بعد أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن تتول فان إثم الأكارين عليك . يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله : فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » . على أنه ، إن كانت هذه الكتب قد بدت فى نظر من أرسلت إليهم ضربا من الخرق ، فقد برهنت الأيام على أنها لم تكن صادرة عن حماسة جوفاء . (٢) . وتدل هذه الكتب دلالة أكثر وضوحا وأشد صراحة على ما تردد ذكره فى القرآن من مطالبة الناس جميعا بقبول الإسلام ، فقد قال الله تعالى :

---

(١) « ولكن الرسالة الالهية ليست مقصورة على العرب ، بل إن إرادة الله تشمل جميع المخلوقات ومعنى ذلك خضوع الانسانية كلها خضوعاً مطلقاً . ولقد كان لمحمد ، بوصفه رسولا من الله ، حق المطالبة بهذه الطاعة ، وكان عليه أن يطالب بها . وهذا ما ظهر من أول الأمر جزءا لا ينفصل من جملة ما أراد تحقيقه من مبادىء » .

(Sachau, pp. 203-4), Goldziher (Vorlesungen über den Islam, p. 25 sqq.) and
وكل منهما يرى رأيا مماثلا لما زعمه سخاو . Nöldeke (WZKM. vol. xxi. pp. 307-8)

(٢) انظر Caetani ١ : ٧٢٥ وما يليها للوقوف على مدى الشك فى صحة هذه الكتب .

« إنْ هُو إلاَّ ذكرٌ للعَالمين ولتَعلمُنَّ نبأَه بَعد حين » (سورة ٣٨ : آية ٨٧ - ٨٨)

« إنْ هُو إلاَّ ذكرٌ وقرآنٌ مُبين ليُنذر مَن كَان حَيًّا وَيحقَّ القَول عَلى الكَافرين » .
(سورة ٣٦ : آية ٦٩ - ٧٠) .

« ومَا أَرسَلنَاكَ إلاَّ رَحمَةً للعَالَمين » (سورة ٢١ : آية ١٠٧)

« تَبارَكَ الَّذى نَزَّل الفُرقَان عَلى عَبده ليَكونَ للعَالمين نَذيراً » (سورة ٢٥ : آية ١)

« ومَا أَرسَلْنَاكَ إلاَّ كافةً للنَّاس بشيراً ونذيراً ولكنَّ أكثَرَ النّاس لا يَعلمون » (سورة ٣٤ : آية ٧)

« هُو الَّذى أَرسَلَ رسُولهُ بالهُدَى ودِين الحقّ ليُظهرهُ عَلَى الدِّين كلّه ولوْ كرهَ الكافرون » .
(سورة ٦١ : آية ٩)

وفى ساعة من ساعات اليأس العميق ، عندما كان أهل مكة يمعنون فى النفور من كلام النبى (سورة ١٦ آية ٤٣ ، ١١٤ الخ) ، وعند ما عذبوا من هداهم النبى إلى الإسلام حتى كفروا من بعد إيمان (سورة ١٦ آية ١٠٨) ، وعندما لجأ آخرون إلى المهاجرة فى الله من بعد ما ظلمهم مضطهدوهم (سورة ١٦ : آية ٤٣ ، ١١١) ، عند ذلك تلقى النبى الوعد « ويومَ نبعثُ من كلّ أمة شهيداً » (سورة ١٦ : آية ٨٦) [1]

وإن ما يعبر به النبى فى تلك الآيات من مطالبة البشرية كلها بارتضاء الإسلام ديناً ليزداد وضوحاً فى قول محمد متنبئاً ، إن بلالا « أول ثمار الحشبة » ، وإن صهيبا « أول ثمار الروم » . أما سلمان ، وهو أول من أسلم من الفرس ، فقد كان عبداً نصرانياً بالمدينة اعتنق الإسلام فى السنة الأولى من الهجرة . وهكذا صرح الرسول بكل وضوح وجلاء أن الإسلام ليس مقصوراً على الجنس العربى قبل أن يدور بخلد العرب أى شىء يتعلق بحياة الفتح والغزو بزمن طويل . وإن القصة التالية الخاصة بإرسال البعوث إلى كل الشعوب للدعوة إلى الإسلام لتشير إلى دعوى عموم الرسالة . وهى « أن رسول الله قال لأصحابه ، « وافونى بأجمعكم بالغداة ، وكان إذا صلى الفجر حبس فى مصلاه قليلا ، يسبح ويدعو ، ثم التفت إليهم فبعث عدة إلى عدة وقال لهم : انصحوا الله فى عباده ، فانه من استرعى شيئاً من أمور الناس ثم لم ينصح لهم حرم الله عليه الجنة ؛ انطلقوا ولا تصنعوا كما صنعت رسل عيسى بن مريم ، فانهم أتوا القريب وتركوا البعيد . فأصبحوا يعنى الرسل

---

(١) ومن الغريب أن ينكر بعض المؤرخين أن الاسلام قد قصد به مؤسسه فى بادىء الأمر أن يكون دينا عالمياً برغم هذه الآيات البينات ، ومن بينهم السير وليم ميور إذ يقول : « إن فكرة عالمية الرسالة قد جاءت فيا بعد ، وإن هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التى تؤيدها ، لم يفكر فيها محمد نفسه . وعلى فرض أنه قد فكر فيها ، فقد كان تفكيره تفكيرا غامضا ، فان عالمه الذى كان يفكر فيه إنما كان بلاد العرب ، كما أن هذا الدين الجديد لم يهيأ إلا لها ، وأن محمدا لم يوجه دعوته منذ بعث إلى أن مات إلا للعرب دون غيرهم ، وهكذا نرى أن نواة عالمية الاسلام قد غرست ، ولكنها إذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك ، فانما يرجع هذا إلى الظروف والأحوال أكثر منه إلى الخطط والمناهج » . The Caliphate, pp. 43-4 ؛ وكيتانى آخر من يؤيد هذا الرأى Annali dell Islam, vol. v, pp. 323-24.

وكل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين أرسل إليهم ، فذكر ذلك للنبي فقال : هذا أعظم ما كان من حق الله عليهم في أمر عباده [١] .

ويؤيد دعوى عموم الرسالة والحق في المطالبة بأن يستجيب لها جميع الناس أن الإسلام كان الدين السماوي الذي اختاره الله للجنس البشري كافة ثم أوحى به إليهم من جديد على لسان محمد «خاتم النبيين» (سورة ٣٣ : آية ٤٠) كما أوحى به من قبل على لسان غيره من الرسل .

« ومَا كانَ النّاسُ إلاّ أُمّةً واحدةً ، فاختلفُوا ، ولَولا كَلمةٌ سَبقت من ربّكَ لقُضيَ بَينهم فِيما كانُوا فيه يختلفُون (سورة ١٠ . آية ٢٠) .

« قُل ما كُنتُ بدعاً منَ الرُّسل » (سورة ٤٦ . آية ٨) .

« كَانَ النّاس أُمّةً واحدةً ، فبعثَ اللهُ النّبيين مُبشّرين ومُنذرين ، وأنزل معهمُ الكتَابَ بالحقّ ليحكمَ بيْنَ النَّاس فِيما اختلفُوا فيه ، وما اختلفَ فيه إلاّ الذينَ أُوتوهُ مِن بعد مَا جاءتْهمُ البيّنات بَغياً بيْنَهم ، فَهدى الله الّذينَ آمنُوا لما اختلفُوا فيه من الحقّ بإذنه ، والله يهدى من يَشاء إلى صراط مُستقيم . (سورة ٢ آية ٢٠٩)

« ثُم أوحَينا اليكَ أن اتّبع ملّة إبراهيمَ حَنيفاً وما كَان من المشْركين » . (سورة ١٦ . آية ١٢٤) .

« قُل إنّني هَداني ربّي إلى صراط مُستقيم ديناً قِيَما ملّة إبراهيمَ حنيفاً وما كانَ منَ المشْركين » . (سورة ٦ آية ١٦٢)

« قُل بَل ملّة إبراهيمَ حَنيفاً وما كانَ من المشْركين » . (سورة ٢ . آية ١٢٩) .

« قُل صَدق الله فاتّبعوا ملّة إبراهيمَ حَنيفاً وما كانَ منَ المشْركين . إنّ أولَ بيْت وُضع للنّاس للّذى ببكّةَ مُباركا وهُدًى للعَالمين » . (سورة ٣ : آية ٨٩ - ٩٠) .

« ومَن أحسَن ديناً ممن أسلَم وجهَهُ لله وهُو مُحسن واتّبع ملّة إبراهيم حنيفًا ، واتّخذ الله ابراهيم خَليلا » ، (سورة ٤ : آية ١٢٤) .

« . . . هُو اجْتباكم وما جَعل عليكُم في الدّين من حَرج ، ملّة أبيكُم إبراهيم هُو سمّاكم المسْلمين » (سورة ٢٢ : آية ٧٧) .

ولنعد الآن إلى تتبع حياة محمد في المدينة . ولكي نقدر موقفه بعد الهجرة تقديرا حقيقيا ، ينبغي أن نذكر ما اتصف به المجتمع العربي في ذلك الحين من طابع خاص ، فيما يتعلق بهذا الجزء على الأقل من شبه الجزيرة . لم يكن يوجد إطلاقا أي منهج منظم للادارة أو القضاء كالذي نعرفه عن فكرة الحكومة في العصر

---

(١) ابن سعد ١٠ § . وقد يشك البعض ، وربما كانوا على حق ، في صحة هذه القصة ، ولكنها على أقل تقدير تدلنا على إدراك السابقين الصفة التبشيرية في الاسلام .

الحديث . كانت كل قبيلة أوعشيرة تؤلف جماعة منفصلة ومستقلة تمام الاستقلال . وينسحب هذا الاستقلال أيضا على أفراد القبيلة ، فكل فرد منهم لا يعتبر زعامة شيخ قبيلته أو سلطته إلا رمزا لفكرة عامة شاءت الظروف أن يأخذ هو منها بنصيب ، بل كان مطلق الحرية فى أن يرفض ما اجتمع عليه رأى الأغلبية من أبناء قبيلته . وأبعد من هذا أنه لم يكن هناك نظام لتنقل سلطة الرئيس ، إذ كان يختار لها غالبا أكبر أفراد القبيلة سنا ، وأكثرهم مالا ، وأعظمهم نفوذا ، وأجدرهم بكسب الاحترام الشخصى . وإذا ما تضخمت قبيلة تشعبت فروعا كثيرة ، يتمتع كل منها بحياة منفصلة ووجود مستقل ، ولا تتحد إلا فى ظروف غير عادية ، اشتراكا فى الدفاع عن القبيلة أو قياماً بغارات بالغة الخطورة . ومن ثم نستطيع أن ندرك كيف تمكن محمد من أن يجعل نفسه ، فى المدينة ، على رأس جماعة من أتباعه كبيرة العدد آخذة فى النمو ، يتطلعون إليه زعيما وقائدا ، ولا يعترفون بسلطـان غير سلطانه ، — دون إثارة أى شعور من القلق ، أو خوف من التعدى على السلطة المعترف بها ، كما كان ينتظر أن يحدث فى مدينة إغريقية قديمة ، أو فى أى مجتمع منظم مماثلها . وهكذا باشر محمد سلطة زمنية كالتى كان يمكن أن يباشرها أى زعيم آخر مستقل مع فارق واحد هو أن الرباط الدينى بين المسلمين كان يقوم مقام رابطة الأسرة والدم .

وعلى هـذه الصورة أصبح الإسلام ولو من الوجهة النظرية على الأقل ، كما سن دائما — نظاما سياسيا بقدر ما هو نظام دينى .

كانت رغبة محمد ترمى إلى تأسيس دين جديد . وقد نجح فى هذه السبيل ، ولكنه فى الوقت نفسه أقام نظاما سياسيا له صفة جديدة متميزة تميزا تاما . وكانت رغبته بادىء الأمر مقصورة على توجيه بنى وطنه إلى الاعتقاد بوحدانية الله . إلا أنه بجانب ذلك عمل على هدم نظام الحكومة القديم فى مكة مسقط رأسه ، وأقام حكومة دينية مطلقة ، وقام هو على رأسها خليفة لله فى الأرض بدلا من حكومة الأرستقراطية القبلية ، التى كانت الأسر الحاكمة تتوزع سياسة الشئون العامة تحت لوائها .

وقبيل وفاة محمد نرى جميع أنحاء الجزيرة العربية تقريبا تدين له بالطاعة ، وإذا ببلاد العرب التى لم تخضع إطلاقا لأمير من قبـــل تظهر فى وحدة سياسية وتخضع لإرادة حاكم مطلق . ومن تلك القبائل المتنوعة ، صغيرها وكبيرها ، ذات العناصر المختلفة التى قد تبلغ المائة والتى لم تنقطع عن التنازع والتناحر ، خلقت رسالة محمد أمة واحدة . وقد جمعت فكرة الدين المشترك تحت زعامة واحدة شتى القبائل فى نظام سياسى واحد ، ذلك النظام الذى سرت مزاياه فى سرعة تبعث على الدهش والإعجاب . وإن فكرة واحدة كبرى هى التى حققت هذه النتيجة ، تلك هى مبدأ الحياة القومية فى جزيرة العرب الوثنية . وهكذا كان النظام القبلى لأول مرة ، وإن لم يقض عليه نهائيا (إذ كان ذلك مستحيلا) ، شيئا ثانويا بالنسبة للشعور بالوحدة الدينية . وتكللت المهمة الضخمة بالنجاح ، فعند ما انتقل محمد إلى جوار ربه كانت السكينة ترفرف على أكبر مساحة من شبه الجزيرة ، بصورة لم تكن القبائل العربية تعرفها من قبل ، مع شدة تعلقها بالتدمير وأخذ الثأر . وكان

الدين الإسلامى هو الذى مهد السبيل إلى هذا الائتلاف (١) » .

حتى عند وفاة المسلم نرى دعوى القرابة تطرح جانبا ، فيرث الأخ فى الدين كل ما يملك صاحبه المتوفى ، ثم ألغى هذا النظام بعد غزوة بدر حين لم يعد هذا الرباط المصطنع ضروريا لتوحيد الكلمة بين أتباع الرسول ، وإنما كان مثل هذا النظام لازما حينما كان عدد المسلمين قليلا وكانت حياة التضامن الإسلامى ظاهرة جديدة . زد على ذلك أن محمدا كان قد قضى فى المدينة فترة قصيرة جدا قبل أن يكثر عدد أتباعه كثرة سريعة جعلت هذه الاشتراكية فى النظام الاجتماعى أمرا ليس من اليسير تحقيقه من الناحية العملية . ولم يكن يتوقع المرء من نمو جماعة سياسية مستقلة تتألف من مهاجرى مكة ، وتقيم فى مدينة تضمر لهم العداء ، إلا أن يؤدى هذا النمو إلى قيام النزاع بين الفريقين . وكما هو مشهور معروف فإن كل كتاب من كتب السيرة حافل بروايات تتعلق بسلسلة طويلة من المناوشات الصغيرة والمعارك الدامية ، التى قامت بين أتباعه وبين القرشيين من أهل مكة ، وانتهت بدخوله المظفر فى هذا البلد سنة ٦٣٠ م ، كما حفلت هذه الكتب بما كان بين الرسول وبين القبائل الأخرى من علاقات عدائية ظلت قائمة حتى انتقل إلى جوار ربه سنة ٦٣٣ م (١١ هـ)

وإن وصف هذه الغزوات لا يدخل فى نطاق هذا الكتاب ، وإنما المهم أن نبين كيف أن محمدا عند ما رأى على رأسه جماعة مسلحة من أتباعه لم يتحول دفعة واحدة ، كما قد يريدنا البعض على الاعتقاد ، من داعية مسالم إلى متعصب يحمل سيفه بيده ويفرض دينه على كل من استطاع (٢) .

وقد أكد الكتاب الأوربيون مرارا أن النبى سلك مسلكا جديدا تمام الجدة منذ أن هاجر إلى المدينة ومنذ أن تغيرت ظروف حياته هناك ، وأنه لم يعد ذلك البشير النذير المرسل إلى الناس الذى كان قد أقنعهم بالحجة بصدق الدين الذى أوحى إليه ، وإنما ظهر الآن أقرب إلى أن يكون متعصبا مندفعا يستغل كل ما فى سلطته من قوة ومهارة سياسية فى فرض نفسه وفرض آرائه .

على أنه من الخطأ أن نفترض أن محمدا فى المدينة قد طرح مهمة الداعى إلى الإسلام والمبلغ لتعاليمه ، أو أنه عند ما سيطر على جيش كبير يأتمر بأمره ، انقطع عن دعوة المشركين إلى اعتناق الدين . فهذا ابن سعد يعرض طائفة من الكتب التى بعث بها النبى من المدينة إلى الشيوخ وغيرهم من أعضاء القبائل العربية المختلفة بالإضافة إلى هذه الكتب التى أرسلها إلى الملوك والأمراء فى خارج الجزيرة العربية يدعوهم إلى اعتناق الإسلام . وسنجد فى الصفحات التالية أمثلة من البعوث الدينية التى أرسلها لتبليغ الإسلام إلى الذين لم يسلموا من قبائلهم ، تلك البعوث التى يدل مجرد إخفاقهم فى بعضها على أن الجهود التى بذلت كانت ذات

(١) A. Von Kremer (3), pp. 309,310.

(٢) ويظهر أن هذا الرأى قد صرح به بعض الباحثين ولا سيما الأستاذ ميور عند ما تحدث عن مذبحة بنى قريظة التى وقعت فى السنة السادسة للهجرة فقال : « إن الدعائم التى سار عليها محمد قدما كانت سياسية محضة إذ أنه لم يكن قد أقر حتى ذلك الحين طريقة إكراه الناس على اعتناق الإسلام أو معاقبتهم على رفضه » . (Muir (2), vol iii, p. 282)

صبغة تبشيرية خالصة ، كما تدل على أنها لم تكن تميل إلى استخدام القوة . ومن الأمثلة الواضحة على إخفاق تلك البعثات ، تلك البعثة التى أرسلت إلى بنى عامر بن صعصعة فى السنة الرابعة للهجرة . فقد زار أبو البراء عامر شيخ هذه القبيلة محمدا فى المدينة ، واستمع إلى تعاليمه ، ولكنه لم يشأ أن يعتنق الإسلام . ومع ذلك أظهر شيئا من العطف نحو هذا الدين الجديد ، وطلب إلى النبى أن يرسل بعض أتباعه إلى نجد لينشر تعاليم الدين بين أهالى هذه البلاد . فأرسـل النبى جماعة تتألف من أربعين مسلما معظمهم من شباب المدينة ، الذين حذقوا تلاوة القرآن واعتادوا أن يجتمعوا ليلا للدرس وإقامة الصلاة ، ولكنهم قتلوا غدرا بالرغم من الأمان الذى عرضه عليهم أبو البراء عامر ، ولم ينج بحياته إلا ثلاثة منهم (١) .

ومع ذلك فقد كانت انتصارات الجيوش الإسلامية تجذب كل يوم أفرادا من شتى القبائل ولا سيما من كان يقيم منهم فى جوار المدينة لتزداد بهم صفوف أتباع النبى . وإن « المعاملة الحسنة التى تعودتها وفود هذه العشائر المختلفة من النبى واهتمامه بالنظر فى شكاياتهم ، والحكمة التى كان يصلح بها ذات بينهم ، والسياسة التى أوحت إليه بتخصيص قطع من الأرض مكافأة لكل من بادر إلى الوقوف فى جانب الإسلام وإظهار العطف على المسلمين — كل ذلك جعل اسمه مألوفا لديهم ، كما جعل صيته ذائعا فى كافة أنحاء شبه الجزيرة سيدا عظيما ورجلا كريما (٢) » .

وكثيرا ما كان يفد أحد أفراد القبيلة على النبى بالمدينة ثم يعود إلى قومه داعيا إلى الإسـلام جادا فى تحويل إخوانه إليه . وفى القصة التالية مثل من أمثلة ذلك التحويل إلى الإسلام ، وذلك فى السنة الخامسة للهجرة :

بعثت بنو سعد بن بكر واحداً منها يقال له ضمام بن ثعلبة رسولا إلى النبى ، فقدم وأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله . ودخل المسجد حيث كان النبى جالسا فى أصحابه ، فأقبل حتى وقف عليهم وقال : « أيكم ابن عبد المطلب » ؟ فقال النبى : « أنا ابن عبد المطلب » قال : « أمحمد ؟ » قال « نعم » قال : « إنى سائلك ومغلظ عليك فى المسألة فلا تجدنّ فى نفسك » . قال : « لا أجد فى نفسى فسل عما بدا لك » قال : « أنشدك الله إلٰهك وإلٰه من كان قبلك وإلٰه من هو كائن بعدك ، اللهُ بعثك إلينا رسولا ؟ » قال محمد : « اللهم نعم » . قال : « فأنشدك الله إلٰهك وإلٰه من كان قبلك وإلٰه من هو كائن بعدك الله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئا وأن نخلع هذه الانداد التى كان آباؤنا يعبدون معه ؟ » قال محمد « اللهم نعم » . وبعد ذلك

(١) ابن إسحاق ص ٦٤٨ وما يليها .

(٢) Muir (2), vol. iv. pp. 107-8. See also Caetani. vol. i. p. 663. « إن ازدياد عدد المؤمنين يجب أن يعزى إلى الانتصارات العسكرية أكثر من أن يعزى إلى تأثير دعوة النبى وجودة تعاليم الاسلامية . وقد أصبحت سرعة انتشار الاسلام بنوع خاص شيئا ملموساً بسبب ما أظهره النبى من هيبة وما أبداه من روح التسامح والحرية وتحين المناسبات فى علاقاته مع الذين تحولوا إلى الاسلام » .

سأل النبي عن فرائض الإسلام كلها ، عن الصلاة والصيام والحج الخ ، وهو يستحلفه مثل ماسبق . وأخيراً قال : « . . . فإني أشهد أن لا اله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه ثم لا أزيد ولا أنقص » . ثم انصرف وأطلق بعيره ورجع إلى قومه . فلما جمعهم كان أول ما قال لهم : « بئست اللات والعزى » ، قالوا « مه يا ضمام اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون » ، قال ويلكم إنهما والله لا ينفعان ولا يضران . إن الله قد بعث رسولا وأنزل عليه كتابا استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإني أشهد أنه لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه » . وما زال يقص عليهم حتى لم يأت المساء إلا وقد أسلم كل من فى الحى رجالا ونساء [١].

وقد كان عمرو بن مرة أحد أفراد قبيلة بنى جهينة التى كانت تقيم بين المدينة والبحر الأحمر مثلا آخر لهؤلاء الدعاة ؛ فقد كان إسلامه قبل الهجرة من العام نفسه (٥ هـ) . وقد وصف إسلامه بقوله : « كان لنا صنم وكنا نعظمه ، وكنت سادنه ، فلما سمعت بالنبى كسرته وخرجت حتى أقدم المدينة على النبى ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق وآمنت بما جاء به من حلال وحرام ، فذلك حين أقول :

شهدت بأن الله حق وإننى ... لآلهة الأحجار أول تارك
وشمرت عن ساق الإزار مهاجرا ... إليك ، أجوب الوعث بعد الدكادك
لأصحب خير الناس نفساً ووالداً ... رسول مليك الناس فوق الحبائك

فبعثه رسول الله إلى قومه يرغب فى الإسلام ، فتكللت جهوده بالنصر حتى لم يبق هناك إلا رجل واحد هو الذى استعصى على الترغيب [٢] .

ولما جعل صلح الحديبية فى السنة السادسة للهجرة الصلات الودية مع أهل مكة أمرا ممكنا ، خرج إلى المدينة لاعتناق الإسلام كثيرون من أصحاب هذا البلد الذين كانوا قد أتيحت لهم فرصة الاستماع لدعوة محمد فى مستهل بعثته . ومن هؤلاء رجال من ذوى النفوذ والسلطان .

وكانت الحروب المتصلة التى شنها الرسول على أهل مكة قد جعلت حتى ذلك الحين القبائل التى كانت تقيم جنوبى هذه المدينة بعيدين بعداً يكاد يكون تاماً عن سلطان الدين الجديد ، ولكن هذه الهدنة قد جعلت الاتصال مع بلاد العرب الجنوبية أمراً ميسوراً فى ذلك الحين . فجاء وفد صغير من قبيلة بنى دوس من تلك الجبال التى تتاخم بلاد اليمن الشمالية وانضموا إلى النبى فى المدينة . ونجد قبل ظهور محمد بقليل جماعة من هذه القبيلة مزودين بلمحات من ديانة أرقى من الوثنية التى كانت منتشرة فيمن حولهم ، وكانوا يرون أن

---

(١) ابن اسحاق ص ٩٤٣ — ٩٤٤ . وتعتمد هذه القصة على بعض مصادر مشكوك فى صحتها ، انظر
Caetani, vol. i. p. 610

(٢) ابن سعد ١١٨ §

هذا العالم لابد له من خالق ، ولو أنهم لم يهتدوا إليه . فلما بعث محمد رسولا من قبل هذا الخالق ، قدم أحدهم واسمه طفيل بن عمرو ، إلى مكة ليقف على حقيقة هذا الخالق .

وبالرغم من أن قريشاً حذرته ما قد يتركه محمد فى نفسه من تأثير خطير إذا ما تحدث إليه ، فقد تبع النبى إلى بيته بعد أن رآه يصلى فى الكعبة ، فشرح له النبى تعاليم الإســـلام ، وقد أصبحت نفس طفيل تفيض تحمساً لهذا الدين الجديد . فلما رجع إلى بلده أفلح فى هدى أبيه وزوجه ، ولكنه وجد قومه غير راغبين فى ترك عبادتهم الوثنية القديمة . فعاد النبى وقد استولى عليه اليأس مما أصابه من الإخفاق فى دعوته ، وطلب اليه أن يستنزل لعنة الله على بنى دوس ، ولكن النبى شجعه على المثابرة بقوله : « ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم » . وفى الوقت نفسه دعا لهم النبى بقوله : « اللهم اهد دوساً » . وقد بلغ من نجاح طفيل فى بث الدعوة إلى الإسلام أنه وفد على المدينة فى السنة السابعة للهجرة ومعه عدد يتراوح بين السبعين والثمانين أسرة من قومه كان الإسلام قد ظفر بانضمامهم إليه . وبعد أن دخل النبى مكة دخول الظافر أشعل طفيل النار فى كتلة من الخشب ، وهى الصنم الذى كانت قبيلته تنظر إليه نظرة التبجيل والتعظيم حتى ذلك الحين (١) .

وفى السنة السابعة للهجرة دخل خمس عشرة قبيلة أخرى فى طاعة النبى ، ثم تمت الغلبة للاسلام بعد فتح مكة فى السنة الثامنة للهجرة ، وبادر إلى مبايعته على هذا الدين الجديد هؤلاء العرب الذين كانوا قد تخلفوا عن الدعوة وكانوا يقولون : « دعوا محمداً يقاتل قومه فإن نجح فهو نبى حقاً » (٢) . ومن هؤلاء الذين وفدوا على النبى بعد فتح مكة طائفة كانوا من أشد الناس اضطهاداً للنبى فى الأيام الأولى من بعثته ، ولكنه بوأهم بصبره الجميل وعفوه الكريم مكاناً من الأخوة الإسلامية . وشهدت السنة التالية استشهاد عروة بن مسعود أحد زعماء أهل الطائف ، تلك المدينة التى حاول المسلمون أن يستولوا عليها دون جدوى . فقد كان عروة فى ذلك الحين غائباً باليمن ، ثم رجع من رحلته بعد الحصار بقليل . وكان قد قابل النبى فى الحديبية قبل ذلك بعامين وبالغ فى تعظيمه ، والآن يفد على المدينة ليعتنق الدين الجديد ، وقد تطوع بدافع حماسته الملتهبة للذهاب إلى الطائف لتحويل عشيرته إلى الإسلام . وعلى الرغم مما بذله النبى من جهود فى ثنيه عن هذه المهمة الخطيرة ، رجع إلى بلده ، وأعلن نبذ عبادة الأصنام ، ثم دعا الناس إلى الاقتداء به . وبينما كان يقوم بنشر دعوته إذا بسهم يصيب منه مقتلا ، فمات وهو يحمد الله على أن وهب له شرف الاستشهاد . وبعد سنة تقريباً قام صحابى آخر بنشر الدعوة فى اليمن ، وكان أكثر توفيقاً فى هذه السبيل . وفيما يلى وصف دقيق عن هذه الدعوة : « كتب رسول الله إلى الحارث ومسروح ونعيم بن عبد كلال من حمير : « سلم أنتم ما آمنتم بالله ورسوله ، وأن الله وحده لا شريك له بعث موسى بآياته وخلق عيسى بكلماته . وقالت اليهود

---

(١) ابن اسحاق ص ٢٥٢ - ٢٥٤

(٢) Caetani, vol. ii. t.i. p. 341

« عزير ابن الله » ، وقالت النصارى « الله ثالث ثلاثة ، عيسى ابن الله » . (قال) : وبعث بالكتاب مع عياش ابن ربيعة المخزومى ، وقال : وإذا جئت أرضهم فلا تدخلن ليلا حتى تصبح ، ثم تطهر فأحسن طهورك وصل ركعتين ، وسل الله النجاح والقبول واستعذ بالله وخذ كتابى بيمينك ، وادفعه بيمينك فى أيمانهم فإنهم قابلون واقرأ عليهم : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين » الخ . (سورة ٩٨) . فإذا فرغت منها فقل آمن محمد وأنا أول المؤمنين ، فلن تأتيك حجة إلا دحضت ولا كتاب زخرف إلا ذهب نوره . وهم قارئون عليك فاذا رطنوا فقل « ترجموا » وقل « حسبى الله آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير » . وإذا أسلموا فسلهم قضبهم الثلاثة التى إذا حضروا بها سجدوا وهى من الأثل ، قضيب ملمع ببياض وصفرة ، وقضيب ذو عجر كأنه خيزران ، والأسود البهيم كأنه من سأسم ثم أخرجها فحرقها بسوقهم » . قال عياش « فخرجت أفعل ما أمرنى رسول الله حتى إذا دخلت إذا الناس قد لبسوا زينتهم . قال فمررت لأنظر اليهم حتى انتهيت إلى ستور عظام على أبواب دور ثلاثة ، فكشفت الستر ودخلت الباب الأوسط ، فانتهيت إلى قوم فى قاعة الدار فقلت: أنا رسول رسول الله ، وفعلت ما أمرنى فقبلوا وكان كما قال النبى ﷺ »(١) .

وفى السنة التاسعة للهجرة وفد على النبى ثلاثة عشر رجلا من بنى كلاب ، وهم فرع من بنى عامر بن صعصعة ، وأخبروه أن أحد صحابته وهو الضحاك بن سفيان قد سارفيهم بالقرآن وسنة الرسول ، وأن قومهم قد استجابوا بدعوته للدين الجديد(١) . كذلك أسلم فرع آخر من القبيلة نفسها وهم بنو رؤاس بن كلاب على يد واحد منهم يقال له عمرو بن مالك ، وكان فى المدينة ، واعتنق الإسلام ثم عاد بعد ذلك إلى عشيرته وحضهم على الاقتداء به .(٢)

وفى هذه السنة نفسها قام رجل حديث العهد بالإسلام وهو واثلة بن الأسقع بمحاولة لم تصادف نجاحا كبيرا ، إذ أخذ يرغب قومه فى الإسلام ، وكان قد اعتنقه بعد أن لقى النبى مرة ، وكان قد طرده أبوه فى احتقار وازدراء وقال له : « والله لا أكلمك كلمة أبدا » ولم يجد راغبا فيما دعا إليه من تعاليم إلا أخته التى جهزته للرجوع إلى النبى بالمدينة(٣) . وكانت تسمى هذه السنة التاسعة للهجرة بعام الوفود لأن عدداً كبيراً من القبائل العربية وأهالى المدن أرسلوا إلى النبى وفادات تعلن خضوعها وتسليمها . وكان دخول مبدأ جديد من الوحدة الاجتماعية فى ظل الأخوة الإسلامية فى المجتمع العربى قد بدأ منذ حين فى إضعاف القوة الرابطة للفكرة القبلية القديمة ، تلك الفكرة التى أقامت بناء المجتمع العربى على أساس قرابة الدم . وكان إسلام الفرد ودخوله فى المجتمع الجديد هدماً لأهم قوانين الحياة العربية الأساسية ، كما كانت كثرة دخول العرب فى الإسلام من العوامل القوية التى أدت إلى تفكيك النظام القبلى وتركه ضعيفا أمام حياة قومية شديدة التعصب قوية

(١) ابن سعد 85 §

(٢) نفس المرجع 86 §

(٣) نفس المرجع 91 §

التماسك، كتلك الحياة التى صار إليها المسلمون . وهكذا اضطرت القبائل العربية إلى أن تذعن للنبي ، لا لمجرد أنه رئيس لأقوى قوة عسكرية فى بلاد العرب ، بل لأنه رمز لمذهب حياة اجتماعية كان يجعل كل خارج عليه ضعيفاً عديم التأثير[١] . وكان محمد قد أفلح فى أن يدخل فى مجتمع عصره الذى كان مليئا بالفوضى وسوء النظام شعوراً بالوحدة القومية وإدراكا للحقوق والواجبات ، كل نحو الآخر ، على نحو لم يعرفه العرب من قبل[٢] وبهذه الطريقة كان الإسلام يوحد بين عشائر كانت حتى ذلك الحين فى نزاع مستمر بعضها مع بعض . وبينما كان هذا الاتحاد العظيم ينمو ويطرد ، نراه فى الوقت نفسه يجتذب المستضعفين من قبائل العرب شيئا فشيئا . وكثيرا ما نجد فى القصص التى وردت عن إسلام القبائل العربية ذكر ما كان يعدهم به النبى من حمايته إياهم من أعدائهم ، تلك الوعود التى كانت تبذل لهم في حالة تسليمهم لدعوته . وقد عبر أحد أفراد القبائل العربية عن حزنه عند ما بلغه خبر وفاة النبي بقوله : واأسفا على محمد ، لقد عشت فى سلام وأمن من أعدائى ما كان حياً .

ولا بد أن تكون هذه الصيحة قد وجدت صدى بعيدا فى كافة أرجاء الجزيرة العربية .

وربما كان انتشار الردة بين قبائل عربية كثيرة انتشارا واسعا بعد وفاة الرسول مباشرة دليلا على مدى سطحية مشايعة هذه القبائل للاسلام . والظاهر أن قبولهم للاسلام كان فى أحوال كثيرة أقرب إلى أن يكون وليد اعتبارات سياسية ومساومات ناشئة عن ضغط القوة والعنف ، أكثر منه وليد حماسة ويقظة روحية . فقد سمحوا لأنفسهم أن ينجرفوا فى هذا التيار الذى كان قد أصبح فى ذلك الحين حركة قومية عظيمة . وهنا لا نلمس فى هؤلاء الذين أسلموا بعد فتح مكة تلك الحماسة الدافقة التى كنا نجدها لدى السابقين إلى الإسلام . إلا أنه ظهر حتى من بين هؤلاء كثيرون زادوا فى صفوف المؤمنين الخلص مدفوعين بحماسة حقيقية فى إعلاء شأن الدين ، ومستعدين ، كما رأينا ، لبذل نفوسهم فى سبيل بث الدعوة بين إخوانهم .

وكان هؤلاء الرجال ورثة النبي الصادقين الصالحين ، ورسل الإسلام فيما بعد ، والأوصياء والأوفياء على كل ما أنزله الله للناس على محمد . لقد تغلغل فى نفوسهم خلال ملازمتهم للنبي وولائهم له لون جديد من الوجدان والتفكير ، هو فى الواقع أسمى وأرقى مما ألفوه من قبل ، إنهم انتقلوا فى الحقيقة إلى حالة أحسن مما كانوا عليها من جميع الوجوه . وفى أحرج أوقات الغزوات التى وقعت فيما بعد ، قدم الساسة والقادة منهم دليلا رائعا لا سبيل إلى إنكاره . على أن أفكار محمد وتعاليمه كانت قد ألقت بزورها فى تربة خصيبة ، فأنتجت جماعة من أعظم الرجال قدرا ؛ فكانوا الحفظة على نصوص القرآن المقدسة ، وهم وحدهم الذين وعوها عن ظهر قلب ، وهم الحراس المتحمسون لحفظ كل ما روى عن النبي من كلام ووصايا ، والأمناء على تراث محمد الأدبى . ولقد تألفت من هؤلاء الرجال جماعة الإسلام المبجلة الذين انبثقت منهم يوما

(١) انظر Sprenger, vol. iii. pp. 360-361

(٢) Caetani, vol. ii. p. 433.

طبقة الأجلاء من أوائل الفقهاء والأصوليين والمحدثين فى المجتمع الإسلامى[١] .

وكان طبيعيا أن نرى حركة واسعة كهذه الحركة لا تستطيع أن تؤلف بين هؤلاء الناس جميعا . وقليل جدا الذين سلموا من الصدمة التى منيت بها هذه الحركة بوفاة النبى ، إذ لا يعزب عن البال كيف ظهر جليا أن الإسلام حركة حديثة العهد فى بلاد العرب الوثنية ، وكيف كانت تتعارض المثل العليا فى هذين المجتمعين تعارضا تاما[٢] . ذلك أن دخول الإسلام فى المجتمع العربى لم يدل على مجرد القضاء على قليل من عادات بربرية وحشية فحسب ، وإنما كان انقلابا كاملا لمثل الحياة التى كانت من قبل .

وهنا الدليل القاطع على ما تتسم به تعاليم محمد من صفة تبشيرية أساسية . ذلك النبى الذى أصبح بذلك رمزا لأسلوب جديد . فمن المحقق أن محمداً لم يجد المجتمع فى عصره مهيأ لقبول دعوة معلم جديد ، فضلا عن دعوة من يأتيهم بلقب رسول الله (الذى لم يكن مفهوما لديهم) .

وكذلك كانت المساواة بين المؤمنين فى الإسلام وما ساد بينهم جميعا من أخوة مشتركة لا تسمح بوجود فوارق بين عربى وعجمى أو بين حر وعبد ممن اعتنقوا الإسلام ، فكرة عارضت فى الصميم نعرة الشعور القبلى عند العربى الذى بنى احترامه الشخصى على شهرة أجداده ، ومضى اقتداء بهم فى إثارة النزاع الدموى الدائم الذى كان يلتمس فيه اللذة والسرور . والواقع أن المبادىء الأساسية فى دعوة محمد كانت تعارض كثيرا ما كان ينظر إليه العرب نظرة ملؤها التقدير والإجلال حتى ذلك الحين ، كما أنها كانت تعلم حديثى العهد بالإسلام أن يعدوا من الفضائل صفات كانوا قبل إسلامهم ينظرون إليها نظرة الاحتقار .

وكانت الصداقة والعداوة فى نظر العربى الجاهلى دينا يجد فى أدائه عن رغبة ، وكان يتباهى برد الشر بالشر ، وينظر إلى كل من يسلك خلاف ذلك نظرته إلى كل نذل ضعيف .

ولقد خاطب النبى أمثال هؤلاء بقوله . « ادْفع بالتى هىَ أحسن السَّيئة » (سورة ٢٣ آية ٩٨) ، فإذا أحبُّوا أنْ يغفرَ اللهُ لهمْ فَلْيعفُوا وليْصفحُوا (سورة ٢٤ آية ٢٢) وأُعدّتْ للكاظمينَ الغيْظ والعافينَ عَنِ النّاس جنّات عرضُها السّموات والأرْض (سورة ٣ آية ١٢٨) .

وكان مجرد فرض الصلاة مثار سخرية بين هؤلاء العرب الذين وجه إليهم محمد رسالته أول الأمر . وكان من أشق مراحل رسالته أن يوجه تفكيرهم وجهة دينية نحو الخالق ، الشىء الذى كان يغرسه الإسلام فى النفوس كما كانت اليهودية والمسيحية ، إلا أنه لم يكن فى الواقع معروفاً لدى الوثنيين من العرب ، فإن ما اتصفوا به من هذا الاعتماد على النفس ، وذلك النقص فى الروح الدينية ، فضلا عن مباهاتهم البالغة

---

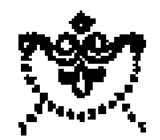
(١) Caetani, vol. ii, p. 429.

(٢) وليس هناك بحث لهذه المسألة أكثر شمولا وأعظم قيمة مما كتبه الأستاذ إجناس جولدتسيهر فى مؤلفه العلمى النفيس (Muhammedanische Studien, vol. i.) . وقد استقينا له ما سنذكره من معلومات .

بالجنس ، لم يجعلهم مهيئين تمام التهيؤ لتلق تعاليم الرجل الذى خاطبهم قائلا « إنَّ أكْرمكُم عندَ اللهِ أتْقاكُم » : (سورة ٤٩ آية ١٣)

ولم يعد هؤلاء يحتملون هذه القيود التى جد الإسلام فى فرضها على حريتهم فى الحياة ، فالخمر والنساء والغناء كانت من أحب الأشياء إلى قلب العربى فى الجاهلية ، وكان النبى صارما شديدا فى نواهيه الخاصة بكل منها .

وهكذا حمل الإسلام منذ البـــداية طابع الدين الذى يقوم على الدعوة ويسعى لجذب قلوب الناس لتحويلهم إليه وحثهم على الدخول فى زمرة المؤمنين . وكما كانت الحال فى مبدأ الأمر كذلك ظلت على هذا النحو إلى اليوم ؛ وهذا هو الغرض الذى قصدنا إلى توضيحه فى الصفحات التالية .



الباب الثالث

انتشار الاسلام بين الشعوب المسيحية فى آسيا الغربية

بعد وفاة محمد أرسل أبو بكر الجيش الذى كان النبى قد عزم على إرساله إلى مشارف الشام ، على الرغم من معارضة بعض المسلمين ، بسبب الحالة المضطربة فى بلاد العرب إذ ذاك . فأسكت احتجاجاتهم بقوله : « لا أرد قضاء قضى به رسول الله ، ولو ظننت أن السباع تختطفنى لأنفذت جيش أسامة كما أمر النبى » . وكانت هذه هى أولى تلك السلسلة الرائعـــة من الحملات التى اجتاح العرب فيها سورية وفارس وإفريقية الشمالية ، فقوضوا دولة فارس القديمة وجردوا الإمبراطورية الرومانية من أجمل ولاياتها . ولا يدخل فى نطاق هذا الكتاب أن نتتبع تاريخ هذه الحملات المختلفة ، بل يجدر بنا ، فيما يتعلق بانتشار العقيدة الإسلامية التى تبعت الفتوحات العربية ، أن نكشف عن هذه الظروف التى جعلت مثل هذا التوسع أمرا ممكنا .

وقد أجاد مؤرخ كبير (١) ، عرض المشكلة التى تواجهنا هنا فى الكلمات الآتية : هل كانت الحماسة الدينية الخالصة ، تلك القوة الجديدة لعقيدة كانت إذ ذاك ولأول مرة آخذة فى الازدهار ، صافية تمام الصفاء ، هى التى أمدت جيوش العرب بالنصر فى كل موقعة من المواقع وأقامت فى مثل هذا الزمن القصير أعظم إمبراطورية شهدها العالم ؟ لكن الدليل يعوزنا لنثبت أن الحالة كانت كذلك . إذ كان عدد هؤلاء الذين بايعوا النبى ، وقبلوا تعاليمه عن حرية واقتناع صادق ضئيلا جدا ، على حين نجد من ناحية أخرى أن الأكثرية كانت تتألف من هؤلاء الذين لم ينضووا تحت لواء المسلمين ، إلا عن طريق الضغط عليهم أو طمعا فى نفع دنيوى . وقد عبر خالد ، وهو سيف من سيوف الله ، فى أسلوب جد مؤثر عن هـــذا المزيج من القوة والإقناع ، الذى أسلم عن طريقه هو وكثير من قريش حين قال : إن الله أخذ بهم من قلوبهم و نواصيهم ، وأرادهم على أن يتبعوا النبى . وكذلك كان لشعورهم بالاعتزاز بقومية مشتركة أثر كبير - وكان ذلك الشعور أشد حيوية بين العرب فى ذلك الوقت منه بين أى شعب آخر ، وقد حمل هذا الشعور وحده آلافا مؤلفة ، على أن يؤثروا مواطنهم ودينه على غيره من الغرباء الداعين إلى أديان أخرى .

وكان أقوى من ذلك جذبا لهم إلى الإسلام أملهم الوطيد فى الحصول على غنائم كثيرة فى جهادهم فى سبيل الدين الجديد ، ثم أملهم فى أن يستبدلوا بصحاريهم الصخرية الجرداء التى لم تتح لهم إلا حياة تقوم على البؤس ، بتلك الأقطار ذات الترف والنعيم وهى فارس والشام ومصر . ومن المؤكد أن هذه الفتوح الهائلة

---

(١) Döllinger, pp. 5-6

التى وضعت أساس الإمبراطورية العربية لم تكن ثمرة حرب دينية قامت فى سبيل نشر الإسلام ، وإنما تلتها حركة ارتداد واسعة عن الديانة المسيحية ، حتى لقد ظن دائماً أن هذا الارتداد كان الغرض الذى يهدف إليه العرب . ومن هنا أخذ المؤرخون المسيحيون ينظرون إلى السيف على أنه أداة للدعوة الإسلامية ، وفى ضياء النصر الذى عزى إليه حجبت مظاهر النشاط الحقيقى للدعوة . ولكن الروح التى دفعت جحافل العرب الغازية ، تلك الجحافل التى تدفقت على حدود دولتى الروم والفرس ، لم تكن روح تحمس وغيرة ترمى إلى تلقين الدعوة ابتغاء تحويل الناس إلى الإسلام ، بل كان الأمر على العكس من ذلك ، فإن البواعث الدينية ، كما يظهر ، لم تكن قد تسربت إلا قليلا فى نفوس أبطال الجيوش العربية[1]. ويعتبر توسع الجنس العربى على أصح تقدير ، هجرة جماعة نشيطة قوية البأس دفعها الجوع والحرمان ، إلى أن تهجر صحاريها المجدبة ، وتجتاح بلاداً أكثر خصبا كانت ملكا لجيران أسعد منهم حظا [2] .

وقد ظلت الحكومة الدينية القائمة فى المدينة ومن بعدها الدولة الجديدة التى أنشأها صحابة النبى الأصفياء وأمناء دعوته الأوفياء ، هؤلاء الذين استطاعوا بفضل غيرتهم وخلقهم القوى أن يحفظوا الاسلام حياً كدين رسمى ، بالرغم من فتور أولئك العرب الذين لم يكن إسلامهم إلا إسلاما اسميا [3] . ومن أجل هذا يجب أن لا نتلمس الأسباب التى أدت إلى مثل هذا الانتشار السريع للعقيدة الإسلامية فى أخبار الجيوش الفاتحة ، بل الأجدر أن نفتش عن ذلك فى الظروف التى كانت تحيط بالشعوب المغلوبة على أمرها .

وقد كان الطابع القومى لهذا التوسع الجنسى يجذب بطبيعة الحال إلى جيوش الغزوات العربية ممثلى العنصر العربى الذين كانوا يقيمون فى أطراف الجزيرة ، والذين كانت جيوش الفتح تتخذ فى بلادهم ممرا تنفذ منه إلى البلاد التى يريدون غزوها . ومن ثم لم يكن غريبا أن نجد كثيرا من البدو والمسيحيين ينجرفون فى التيار الدافع لهذه الحركة الضخمة ، وأن نجد كثيرا من القبائل العربية التى دانت بالمسيحية قرونا قد نبذتها فى ذلك الوقت لتدين بالإسلام . وكان من بين هؤلاء قبيلة بنى غسان الذين بسطوا نفوذهم على الصحراء الممتدة شرقى فلسطين وجنوبى سورية ، والذين كان يقال عنهم إنهم «أرباب فى الجاهلية نجوم فى الإسلام »[4]. وبعد موقعة القادسية (سنة ١٤ هـ) التى انهزم فيها الجيش الفارسى بقيادة رستم هزيمة منكرة ، وفد على قائد المسلمين كثير من المسيحيين الذين ينتمون إلى قبائل البدو التى كانت

(١) Caetani, Studi di Storia Orientale, I, p. 365 sqq. (Milano, 1911)

(٢) وقد أجاد كيتانى إجادة فائقة فى تفسير هذه الفتوحات العربية على أنها آخر هجرة من الهجرات السامية . جـ ٢ ص ٨٣١-٨٦١

(٣) تكونت فى المدينة جماعة Caetani, vol. ii. p. 455; vol. v. p. 511 دينية لا يبتهان بها تتألف من عناصر مختلفة . ولكن السواد الاعظم منها كان من أهل المدينة الذين اعتنقوا الاسلام عن يقين وإخلاص فأخذوا يحافظون على التعاليم الجديدة اعتقادا منهم بأنهم بذلك يرضون ضمائرهم ويحترمون إرادة النبى .

(٤) المسعودى جـ ٤ ص ٢٣٨

تقيم على ضفاف نهر الفرات ، وقالوا إن القبائل الذين سبقوا إلى الإسلام ، كانوا أصوب منا رأيا ، واليوم وقد قتل رستم فلندخل فى الدين [١] .

وشبيه بهذا ، أنه بعد فتح شمال الشام انضمت معظم القبائل البدوية بعد شيء من التردد إلى أتباع النبي [٢] .

ويمكننا أن نحكم من الصلات الودية التى قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بأن القوة لم تكن عاملا حاسما فى تحويل الناس إلى الإسلام . فمحمد نفسه قد عقد حلفا مع بعض القبائل المسيحية ، وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية فى إقامة شعائرهم الدينية ، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم القديم [٣] فى أمن وطمأنينة وقد وجد حلف كهذا بين أتباع النبي وبين مواطنيهم الذين كانوا يدينون بالوثنية دينهم القديم ، والذين تقدم كثير منهم عن طواعية لمؤازرة المسلمين فى حملاتهم الحربية ، وأظهروا للحكومة الجديدة نفس روح الولاء التى جعلتهم يقفون بمنأى عن الردة التى رفعت لواء العصيان فى كافة أرجاء بلاد العرب على أثر وفاة النبي [٤] . وقد زعم بعض الباحثين أن العرب المسيحيين الذين كانوا يخفرون حدود الإمبراطورية البيزنطية الواقعة على أطراف الصحراء ، ألقوا بجموعهم مع جيش الفتح الإسلامى حين رفض هرقل دفع الجزية التى تعود إعطاءها إياهم مقابل خدماتهم الحربية التى كانوا يؤدونها باعتبارهم حراسا للحدود [٥] .

وفى موقعة الجسر (سنة ١٣ هـ) حين أوشكت الهزيمة المنكرة أن تحل بالعرب الذين أخذ الفزع منهم كل مأخذ ، وقد حصروا بين الفرات والجيش الفارسى ، إذا بزعيم مسيحى من بنى طيء ، ينضم إلى المثنى القائد المسلم كما انضم سبوريوس لارتيوس Spurius Lartius إلى جانب هوراتيوس Horatius من قبل ليساعد فى الدفاع عن الجسر الذى كان يتألف من القوارب ، والذى استطاعوا عن طريقه وحده أن يرتدوا ارتدادا منظما . وحينما جمعت جموع جديدة لترد عار هذه الهزيمة ، كان من بين الإمدادات التى تدفقت من كل فج قبيلة بنى النمر النصرانية التى كانت تقيم داخل أراضى الدولة البيزنطية . وفى موقعة بويب التى تلتها سنة ١٣ هـ وقبيل هجوم العرب الأخير الذى حول مصير المعركة إلى جانبهم ، استوى المثنى على فرسه وتوجه إلى القائد المسيحى وقال له « إنك امرؤ عربى فإذا حملت فاحمل معى » ، فارتد الفرس أمام هجومهم المروع وأضيف بذلك نصر كبير إلى سلسلة الانتصارات الإسلامية الرائعة . وفى ذلك اليوم قام بأعظم الأعمال بسالة غلام من قبيلة نصرانية أخرى من قبائل البدو ، وكان قد جاء مع أصحابه ، وهم جماعة من فرسان البدو فى الوقت

(١) Muir's Caliphate, pp. 121-122.

(٢) Caetani, vol. ii. pp. 260, 299, 351

(٣) Id. pp. 792-3 ; vol. iii : p. 253 (§ 8)

(٤) Id. pp. 111-15

(٥) Caetani, vol. iii. p. 814 (§ 323)

الذى كان الجيش العربى يتهيأ للقتال . فألقوا بأنفسهم فى المعركة فى جانب قومهم ، وبينما الصراع يزداد عنفا إذا بهذا الغلام يندفع إلى قلب الفرس ، ويقتل قائدهم ، ثم يستوى على فرسه المطهمة ويرجع بها راكضاً وسط إعجاب صفوف المسلمين صائحاً فى انتصار وهو يمر بهم : « أنا الغلام التغلبى ، أنا قتلت المرزبان »[١].

وكانت القبيلة التى افتخر هذا الشاب بانتسابه إليها إحدى القبائل التى آثرت أن تظل على المسيحية ، بينما أسلمت قبائل أخرى من تلك التى كانت تسكن بلاد ما بين النهرين مثل بنى النمر وبنى قضاعة . وقد بادرت بنو تغلب فأرسلت وفداً إلى النبى فى سنة ٩ هـ . واعتنق أفراد هذا الوفد الذين كانوا يدينون بالوثنية الدين الإسلامى ، وعقد النبى مع المسيحيين منهم معاهدة سمح لهم فيها بأن يحتفظوا بدينهم القديم . ولكن هذه المعاهدة لم تسمح لهم بتعميد أبنائهم . وإن مثل هذا الشرط الذى يختلف تمام الاختلاف عن سياسة التسامح التى تعود النبى أن يسير عليها إزاء العرب المسيحيين الذين سمح لهم بأن يختاروا بين الإسلام ودفع الجزية ولم يرغموا قط على ترك دينهم ، قد بعث على الظن بأن الأسر المسيحية من بنى تغلب هى التى اقترحت هذا الشرط من تلقاء نفسها بدوافع اقتصادية [٢] . ويدل بقاء المسيحية طويلا فى هذه القبيلة على أن هذا الشرط لم يكن معمولا به فى حقيقة الأمر . وقد حرم الخليفة عمر استخدام أية وسيلة من وسائل الضغط عليهم عند ما أظهروا أنهم لا يرغبون فى ترك دينهم القديم ، وأمر بترك الحرية لهم فى إقامة شعائرهم الدينية ، على ألا يقفوا فى سبيل أى فرد من أفراد قبيلتهم يرغب فى التحول إلى الإسلام أو يعمدّوا وليداً ممن أسلم آباؤهم [٣] . وقد طالب إلى بنى تغلب أن يدفعوا الجزية [٤] أو الضريبة المفروضة على الرعايا من غير المسلمين ، ولكنهم شعروا أن من الإذلال لكبريائهم والحط من كرامتهم أن يدفعوا ضريبة فرضت عليهم مقابل حمايتهم وحماية أموالهم ، فالتمسوا من الخليفة أن يسمح لهم بأن يعاملوا معاملة المسلمين فى دفع الضرائب . لذلك نراهم يؤدون فى مقابل الجزية صدقة أو زكاة [٥] مضاعفة — وهى ضريبة كانت تجبى من المسلمين على أراضيهم وماشيتهم وما إلى ذلك ، لتنفق على الفقراء[٦]. وقد ضايق المسلمين وحز فى نفوسهم

---

(١) Muir : Caliphate, pp. 90-4

(٢) Caetani, vol. ii. p. 299. Wellhausen, iv. p. 156 (N. 5)

(٣) الطبرى جـ ١ ص ٢٤٨٢

(٤) ولدراسة الجزية دراسة مستفيضة مبنية على ترتيب قد واختبار دقيق لكل المواد التاريخية التى أمكنه الحصول عليها ، راجع كيتانى جـ ٥ ص ٣١٩ وما يليها . ولدراسة مصر فى خلال القرن الأول من الحكم الاسلامى فليراجع ما ذكره بل Bell ص ١٦٧ وما يليها ، وبكر Becker فى كتابه Beiträge zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam, p. 81 sqq.

(٥) يعتقد كيتانى (جـ ٤ ص ٢٢٧) أن هذه القصة من اختراع عصر متأخر ، وضعت لتفسير استثناء هذه القبيلة المسيحية فى معاملتها معاملة المسلمين من الناحية المالية .

(٦) وقد جمع لا مانس الاشارات القليلة البسيطة التى تتعلق بهذه القبيلة من كتب مؤرخى العرب وذلك فى كتابه Le Chantredes Omie des (J. A. ix. sér., tome iv, pp. 97-9, 438-59.) وراجع أيضاً كيتانى جـ ٤ ص ٢٢٧ وما بعدها .

بوجه خاص أن يروا أى فرد من العرب يسمح له بأن يظل مخلصاً للمسيحية . وقد أسلم السواد الأعظم من بنى تنوخ فى السنة الثانية عشرة للهجرة عند ما أذعنوا لخالد بن الوليد (١) مع غيرهم من قبائل العرب المسيحية ، ولكنه يظهر أن بعضهم ظل على عقيدته القديمة قرابة قرن ونصف قرن حيث قيل إن الخليفة المهدى (١٥٨-١٦٩ هـ) رأى نفراً منهم يقيمون بظاهر حلب ، فلما علم أنهم من المسيحيين أمرهم ، وهو فى سورة من الغضب ، أن يعتنقوا الإسلام فأجابوا ، وكان عددهم خمسة آلاف شخص ، وآثر أحدهم الاستشهاد على الارتداد عن دينه (٢) . أما فيما يتعلق بالسواد الأعظم من هؤلاء المسيحيين فإن الأخبار الخاصة بزوال المسيحية من بين القبائل العربية النصرانية التى كانت تقيم فى بلاد العرب الشمالية لا تزال بحاجة إلى شىء من التفصيل ؛ والظاهر أنهم قد انتهوا إلى الامتزاج بالمجتمع الاسلامى الذى كان يحيط بهم عن طريق ما يسمونه (الاندماج السلمى) الذى تم بطريقة لم يحسها أحد منهم ؛ ولو أن المسلمين حاولوا إدخالهم فى الاسلام بالقوة عند ما انضووا بادىء الأمر تحت لواء الحكم الاسلامى لما كان من الممكن أن يعيش المسيحيون بين ظهرانيهم حتى عصر الخلفاء العباسيين(٣).

كذلك قاوم أهل الحيرة كل الجهود التى قام بها خالد لحملهم على قبول العقيدة الإسلامية . وكانت هذه المدينة من أشهر المدن فى تاريخ بلاد العرب ، فبدا لبطل الإسلام المغوار أن الإهابة بدمهم العربى كافية لإغرائهم بأن ينتظموا فى أتباع نبىّ الجزيرة العربية . ولما أرسل أهل هذه المدينة المحاصرون سفراءهم إلى قائد المسلمين للنظر فى شروط تسليم مدينتهم ، سألهم خالد : « ما أنتم ، أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ؟ أو عجم ؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل ؟ » فقال له عدى ، وقد فوض إليه الوفد أن يتحدث بلسانهم : « بل عرب عاربة وأخرى متعربة » . قال خالد : « لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا وتكرهوا أمرنا » . قال عدى : « ليدلُّك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية » . قال له خالد : « صدقت . اختاروا واحدة من ثلاث : (١) أن تدخلوا فى ديننا فلكم مالنا وعليكم ما علينا إن نهضتم وهاجرتم ، وإن أقمتم فى دياركم ؛ (٢) أو الجزية ؛ (٣) أو المنابذة والمناجزة . فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة » . فقال عدى : « بل نعطيك الجزية » . قال خالد : « تبًّا لكم ! ويحكم ! إن الكفر فلاة مضلة ، فأحمق العرب من سلكها ، فلقيه دليلان ، أحدهما عربى فتركه واستدل الأعجمى » (٤) .

وقد أمد الخليفة هؤلاء الذين دخلوا حديثاً فى الإسلام بما ينبغى أن يمدهم به من علماء يلقنونهم مبادىء الدين ، لأنه لما كانت القبائل بأجمعها تدخل فى الإسلام بمثل هذه السرعة كان من الضرورى أن يأخذوا الحيطة اتقاء ما يحدث من أخطاء سواء من ناحية العقيدة أو الشعائر الدينية ، وكان من الطبيعى أن تكون

(١) كيتانى ج ٢ ص ١١٨٠

(٢) ابن العبرى (٣) ص ١٣٤ — ١٣٥

(٣) Caetani, vol. ii, p. 828.

(٤) الطبرى ج ١ ص ٢٠٤١ .

هذه الأخطاء مصدر خوف إذا ما ترك هؤلاء الذين دخلوا فى الإسلام لا يعرفون تعاليم هذا الدين معرفة صحيحة . ومن ثم نرى الخليفة عمر يعين فى كل بلد معلمين مهمتهم أن يعلموا الناس القرآن ويفقهوهم فى الدين . وكذلك أمر العمال أن يستيقنوا من أن جميع المسلمين صغاراً وكباراً يواظبون على حضور صلاة الجماعة لا سيما فى أيام الجمع وفى شهر رمضان . ونستطيع أن نحكم على ما كان لتفقيه من دخلوا فى الإسلام حديثاً من أهمية من أن هؤلاء الذين عهد إليهم بهذا العمل فى مدينة الكوفة كانت شخصيتهم لا تقل عن شخصية من عهد إليهم بالولاية على بيت المال(١).

ومن هذه الأمثلة التى قدمناها آنفاً عن ذلك التسامح الذى بسطه المسلمون الظافرون إلى العرب المسيحيين فى القرن الأول من الهجرة ، واستمر فى الأجيال المتعاقبة ، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التى اعتنقت الإسلام ، إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة (٢) . وإن العرب المسيحيين الذين يعيشون فى وقتنا هـــذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح ؛ يقول لايارد Layard إنه صادف مخيما من العرب المسيحيين فى مدينة الكرك ، شرقى البحر الميت ، لا يختلفون عن العرب المسلمين بحال ما ، سواء فى الزى أو فى العادات(٣). وقد أخبر رهبان طورسينا بُرْكارْت Burckhardt أنه كان لا يزال هناك فى القرن الماضى بعض أسر من البدو المسيحيين الذين لم يدخلوا فى الإسلام وأن آخرهم كانت امرأة عجوزاً ماتت سنة ١٧٥٠ ، ودفنت بحديقة الدير (٤).

ولا يزال كثيرون من قبيلة بنى غسان الشهيرة يدخلون فى الديانة المسيحية ، وهم من أشد القبائل أصالة فى العروبة ، دخلوا فى المسيحية حول نهاية القرن الرابع الميلادى ، ولا يزالون متمسكين بالدين المسيحى ، ومنذ خضوعهم لكنيسة رومة منذ قرنين تقريباً ، وهم يستخدمون اللغة العربية فى طقوسهم الدينية (٥).

وإذا ما تركنا الكلام على البدو لننظر فى موقف الأهالى الذين استقروا فى المدن وموقف المجتمع غير العربى من الدين الجديد ، وجدنا أن الفتح العربى لم يعقبه مثل هذا التحول السريع إلى الإسلام . ويظهر أن نصارى المدن الكبرى فى الولايات الشرقية التابعة للدولة البيزنطية قد ظل أكثرهم على ولائهم لعقيدة آبائهم وأجدادهم التى لا تزال جموع ضخمة منهم تتعلق بأهدابها .

(١) المسعودى ج ٤ ص ٢٥٦

(٢) «لم يضطهد العرب أحداً فى السنوات الأولى من أجل الدين كما أنهم لم يعملوا على ضم أحد إلى دينهم ، ومن ثم تمتع المسيحيون الساميون فى ظل الإسلام ، بعد الفتوح الأولى ، بحرية لم يتمتعوا بها من قبل طيلة أجيال عديدة» . (أنظر Caetani, vol. v. p. 4.)

(٣) Sir Henry Layard : Early Adventures in Persia, Susiana and Babylonia, vol. i, p. 100. (London, 1887) ; R. Hartmann : Die Herrschaft von al-Karak. (Der Islam, vol. ii p. 137.)

(٤) Burckhardt (2), p. 564

(٥) W. G. Palgrave : Essays on Eastern Questions, pp. 206-8 (London, 1872.)

ولكى نستطيع أن نقدر حالة هؤلاء البدو الذين عاشوا فى ظل الحكم الإسلامى تقديراً كاملا ونقف على قيمة المؤثرات التى أدت إلى تحول الناس إلى الإسلام من حين إلى حين ، يحسن بنا أن نجتزىء بالإشارة إلى حالتهم فى ظل الحكم المسيحى فى عهد الدولة البيزنطية التى ولت الأدبار أمام السيوف العربية .

ولقد أفلح جستنيان Justinian قبل الفتح الإسلامى بمائة عام فى أن يكسب الإمبراطورية الرومانية مظهراً من مظاهر الوحدة . ولكنها سرعان ما تصدعت بعد موته ، وأصبحت فى حاجة ماسة إلى شعور قومى مشترك يربط بين الولايات وحاضرة الدولة . أما هرقل فقد بذل جهوداً لم تصادف نجاحاً كاملا فى إعادة ربط الشام بالحكومة المركزية ، ولكن ما اتخذه من وسائل عامة فى سبيل التوفيق قد أدى لسوء الحظ إلى زيادة الانقسام بدلا من القضاء عليه . ولم يكن ثمة ما يقوم مقام الشعور بالقومية سوى العواطف الدينية ، لحاول بتفسيره العقيدة تفسيراً يستعين به على تهدئة النفوس ، أن يقف كل ما يمكن أن يشجر بعد ذلك بين الطوائف المتناحرة من خصومات ، وأن يوحد بين الخارجين على الدين وبين الكنيسة الأرثوذكسية ، وبينهم وبين الحكومة المركزية . وكان مجمع خلقيدونية قد أعلن فى سنة ٤٥١ م «أن المسيح ينبغى أن يعترف بأنه يتمثل فى طبيعتين ، لا اختلاط بينهما ولا تغير ، ولا تجزؤ ، ولا انفصال ؛ ولا يمكن أن يلتق اختلافهما بسبب اتحادهما ، بل الأحرى أن تحتفظ كل طبيعة منهما بخصائصها ، وتجتمع فى أقنوم واحد وجسد واحد ، لا كما لو كانت متجزئة أو منفصلة فى أقنومين ، بل متجمعة فى أقنوم واحد ، هو ذلك الابن الواحد والله والكلمة » . وقد رفض اليعاقبة هذا المجمع ، وكانوا لا يعترفون فى المسيح إلا بطبيعة واحدة ، وقالوا إنه مركب الأقانيم ، له كل الصفات الإلهية والبشرية ، ولكن المادة التى تحمل هذه الصفات لم تعد ثنائية ، بل أصبحت وحدة مركبة الأقانيم . وكان الجدل قد احتدم قرابة قرنين من الزمان بين طائفة الأرثوذكس وبين اليعاقبة الذين ازدهروا بوجه خاص فى مصر والشام والبلاد الخارجة عن نطاق الإمبراطورية البيزنطية ، فى الوقت الذى سعى فيه هرقل فى إصلاح ذات البين عن طريق المذهب القائل بأن للمسيح مشيئة واحدة Monotheletism : فنى الوقت الذى نجد هذا المذهب يعترف بوجود الطبيعتين إذا به يتمسك بوحدة الأقنوم فى حياة المسيح البشرية ، وذلك بإنكاره وجود نوعين من الحياة فى أقنوم واحد ؛ فالمسيح الواحد الذى هو ابن الله يحقق الجانب الإنسانى والجانب الإلهى بقوة إلهية إنسانية واحدة ؛ ومعنى ذلك أنه لا يوجد سوى إرادة واحدة فى الكلمة المتجسدة (١) .

لكن هرقل قد لقى المصير الذى انتهى إليه كثيرون جداً ممن كانوا يأملون أن يقيموا دعائم السلام . ذلك أن الجدل لم يحتدم مرة أخرى كأعنف ما يكون الاحتدام فحسب ، بل إن هرقل نفسه قد وُصم بالإلحاد وجر على نفسه سخط الطائفتين على السواء .

---

(١) I. A. Dorner : A System of Christian Doctrine, vol. iii. pp. 215-16. (London, 1885). J. C. Robertson : History of the Christian Church, vol. ii. p. 226. (London, 1875).

والواقع أن الشعور الذى أثاره هذا الإمبراطور قد بلغ من المرارة مبلغاً يبرر الاعتقاد بأنه حتى السواد الأعظم من الأرثوذكس من رعايا الدولة البيزنطية الذين كانوا يقيمون فى البلاد المفتوحة فى عهد هذا الإمبراطور هم الذين رحبوا بالعرب ، وقد نظروا إلى الإمبراطور نظرة الكراهية باعتباره خارجاً على الدين ، وكانوا يخشون أن يأخذ فى اضطهادهم وإرغامهم على القول بوحدة مشيئة المسيح(١). ومن أجل هذا استقبلوا بالرضى - بل بالحماسة — هؤلاء السادة الجدد الذين وعدوهم بالتسامح الدينى ، وأظهروا رغبتهم فى تسوية مركزهم الدينى واستقلالهم القوى لو أنهم استطاعوا أن يخلصوا أنفسهم من الخطر العاجل الذى كان يحدق بهم .

وقد استطاع ميخائيل الأكبر Michael the Elder بطريق أنطاكية اليعقوبى أن يجسد فيما كتبه فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ما قرره إخوانه فى الدين ، وأن يرى إصبع الله فى الفتوح العربية ، حتى بعد أن خبرت الكنائس الشرقية الحكم الإسلامى خمسة قرون . وقد كتب يقول بعد أن سرد اضطهادات هرقل : « وهذا هو السبب فى أن إله الانتقام الذى تفرد بالقوة والجبروت ، والذى يديل دولة البشر كما يشاء ، فيؤتيهــا من يشاء ، ويرفع الوضيع — لما رأى شرور الروم الذين لجأوا إلى القوة فنهبوا كنائسنا وسلبوا أديارنا فى كافة ممتلكاتهم ، وأنزلوا بنا العقاب فى غير رحمة ولا شفقة أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم . وفى الحق إننا إذا كنا قد تحملنا شيئاً من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا وإعطائها لأهل خلقيدونية فقد استمرت هذه الكنائس فى حوزتهم . ولما أسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التى وجدت فى حوزتها (وفى ذلك الوقت كانت قد انتزعت منا كنيسة حمص الكبرى وكنيسة حران) . ومع ذلك فلم يكن كسباً هيناً أن نتخلص من قسوة الروم وأذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا ، وأن نجد أنفسنا فى أمن وسلام(٢) » .

ولما بلغ الجيش الإسلامى وادى الأردن ، وعسكر أبو عبيدة فى فحل ، كتب الأهالى المسيحيون فى هذه البلاد إلى العرب ، يقولون : « يامعشر المسلمين ، أنتم أحب إلينا من الروم ، وإن كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا . ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا(٣) » .

(١) ومن الممكن أن نحكم على أن مثل هذه المخاوف لم يكن لها أساس على الاطلاق بما أظهره الامبراطور من تصرفات تنطوى على التعصب إزاء كثير من أفراد الطائفة اليعقوبية ، وذلك فى أثناء تقدمه فى بلاد الشام بعد أن أحل الهزيمة بالفرس سنة ٦٢٧ م . (انظر Caetani, vol ii., p. 1049. Michael the Elder, vol. ii. p. 412,) . وإذا أردت الاطلاع على ما ارتكبه الجنود البيزنطيون من الفظائع ضد إخوانهم فى الدين فى عهد كونستانس الثانى فراجع Michael the Elder vol. ii, p. 443,

(٢) Michael the Elder, vol. ii, pp. 412-13.

وكتب ابن العبرى بعد ذلك بحوالى قرن بنفس هذه النغمة وذلك فى كتابه (Chronicon Ecclesiasticum, ed. J. B. Abbeloos et Lamy, p. 474.)

(٣) الأزدى ص ٩٧ .

وغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل ، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم[١] » .

وهكذا كانت حالة الشعور فى بلاد الشام إبان الغزوة التى وقعت بين سنتى ٦٣٣ ، ٦٣٩ م والتى طرد فيها العرب جيش الروم من هذه الولاية تدريجياً . ولما ضربت دمشق المثل فى عقد صلح مع العرب سنة ٦٣٧ ، وأمنت بذلك السلب والنهب ، كما ضمنت شروطاً أخرى ملائمة ، لم تتوان سائر مدن الشام فى أن تنسج على منوالها . فأبرمت حمص ومنبج (Hieropolis) وبعض المدن الأخرى معاهدات قد أصبحت بمقتضاها تابعة للعرب ؛ بل سلم بطريق بيت المقدس هذه المدينة بشروط مماثلة . وإن خوف الروم من أن يكرههم الإمبراطور الخارج على الدين على اتباع مذهبه ، قد جعل الوعد الذى قطعه المسلمون على أنفسهم بمنحهم الحرية الدينية أحب إلى نفوسهم من ارتباطهم بالدولة الرومانية وبأية حكومة مسيحية . ولم تكد المخاوف الأولى التى أثارها نزول جيش فاتح فى بلادهم تتبدد حتى أعقبها تحمس قوى لمصلحة العرب الفاتحين[٢] .

أما ولايات الدولة البيزنطية ، التى سرعان ما استولى عليها المسلمون بيسالتهم ، فقد وجدت أنها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طوال قرون كثيرة بسبب ما شاع بينهم من الآراء اليعقوبية والنسطورية ؛ فقد سمح لهم أن يؤدوا شعائر دينهم دون أن يتعرض لهم أحد ، اللهم إلا إذا استثنينا بعض القيود التى فرضت عليهم منعاً لإثارة أى احتكاك بين أتباع الديانات المتنافسة ، أو إثارة أى تعصب ينشأ عن إظهار الطقوس الدينية فى مظهر المفاخرة حتى لا يؤذى ذلك الشعور الإسلامى[٣] . ويمكن الحكم على مدى هذا التسامح — الذى يلفت النظر فى تاريخ القرن السابع — من هذه العهود التى أعطاها العرب لأهالى المدن التى استولوا عليها وتعهدوا لهم فيها بحماية أرواحهم وممتلكاتهم وإطلاق الحرية الدينية لهم فى مقابل الإذعان ودفع الجزية[٤] .

وليس من السهل أن نستخلص تفاصيل هذه العهود الدقيقة مما أصبح يشوبها من زيادات . وسواء أكانت هذه التفاصيل صحيحة بلفظها أم لم تكن ، فهى على جانب من الأهمية من حيث إنها تمثل الرواية التاريخية التى أخذ بها المؤرخون المسلمون فى القرن الثانى الهجرى — وهى رواية كان من العسير أن تستقر

---

(١) البلاذرى ص ١٣٧ .

(٢) Caetani vol. iii p. 813; vol v. p. 394. (« قبل السكان عن رضى ظاهر تغيير الحكومة ، وذلك بمجرد أن علموا أن العرب سيحترمون حقوقهم الشخصية ، وسيتركون لهم الحرية التامة فى إقامة شعائرهم الدينية . وفى سورية أسرعت مدن ومقاطعات بأكملها إلى التفاهم مع العرب حتى قبل أن تقع هزيمة الروم النهائية ، وفى السواد أذعنوا دون أية معارضة ، وقبلوا السيادة الجديدة دون شرط ولا قيد . ومن المحتمل أن يكون هذا قد تم فى سورية أيضاً بالنسبة إلى كثير من المناطق النائية عن طريق المواصلات الكبرى ») .

(٣) وقد جمع جوتهيل Gottheil مجموعة قيمة من الشواهد المدعمة بالوثائق التاريخية فيما يتعلق بحالة الشعوب التى دخلت فى حماية الحكم الاسلامى وذلك فى بحثه «Dhimmis and Moslems in Egypt» .

(٤) البلاذرى ص ٧٤ فى آخر الصفحة ، ١١٦ ، ١٢١ (فى وسط الصفحة) .

دعائمها لو أن هناك دليلا يقوم على إثبات عكسها . ولا بأس من أن نورد هنا الشروط (١) التي قيل إن الخليفة عمر بن الخطاب قد وضعها حين سَلّمَ له بيت المقدس : « بسم الله الرحمن الرحيم ! هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان . أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم »(٢).

وفرض عليهم الخراج خمسة دنانير من الموسرين وأربعة من الطبقة الوسطى وثلاثة من الفقراء . وقد زار عمر الأماكن المقدسة يصحبه البطريق ، وقيل إنه بينما كانا في كنيسة القيامة وقد حان وقت الصلاة ، طلب البطريق إلى عمر أن يصلي هناك ، ولكنه بعد أن فكر اعتذر وهو يقول : إنه إن فعل ذلك فإن أتباعه قد يدعون فيما بعد ، أنه محل لعبادة المسلمين .

ومما يتفق مع هذه الروح التي تنطوي على حسن معاملة عمر لرعاياه من أصحاب الديانات الأخرى ، ما أثر عن عمر من أنه أمر أن يعطى قوم مجذومون من النصارى من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت(٣). وهو لا ينسى الذميين (وهم أصحاب الديانات الأخرى الداخلون في حماية المسلمين) حتى في أخرى وصاياه ، إذ عهد فيها إلى من يخلفه بما ينبغي القيام به في هذا المنصب السامي فقال : « وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفى لهم بعهدهم وألا يكلفوا إلا طاقتهم »(٤).

وتنسب بعض الأجيال المتأخرة إلى عمر عدداً من القيود التي حالت بين المسيحيين وبين إقامة شعائرهم الدينية في حرية وطلاقة ، إلا أن دى غويه De Goeje (٥) وكيتانى Caetani (٦) قد أقاما الدليل الذي لا يدع مجالا للشك على أن هذه القيود قد استحدثت في بعض العصور المتأخرة ؛ ومع ذلك فقد قبل فقهاء المسلمين الذين عاشوا في أزمان أقل تسامحاً هذه العهود على أنها صحيحة ، ومن ثم كانت على جانب من الأهمية في تكوين حكم عن حالة الكنائس المسيحية في ظل الحكم الإسلامي . وإليك هذا العهد الذي أطلق عليه عهد عمر بنصه : « بسم الله الرحمن الرحيم ! هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا ، أنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا ، وشرطنا لكم على أنفسنا ألا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب(٧) ؛ ولا نجدد

(١) وللاطلاع على مناقشة كيتانى لهذه الوثيقة ، انظر Caetani, vol. iii. p. 952 sqq.

(٢) الطبرى ج ١ ص ٢٤٠٥

(٣) البلاذرى ص ١٢٩ .

(٤) ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ٢٤٦ .

(٥) Mémoire sur la conquête de la Syrie, p. 143 sq.

(٦) Annali dell'Islam, vol. iii p. 957.

(٧) رأى بعض الثقات في الشرع الاسلامى أن هذه القاعدة لم تنسحب على القرى والضياع التي لم يكن بناء الكنائس فيها محظوراً (الهداية ج ٢ ص ٢١٩) .

ماخرب منها ، ولا نحيي ماكان منها فى خطط المسلمين ؛ وألا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين فى ليل ولانهار ، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل ، وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم ؛ ولا نؤوى فى كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً ولا نعلم أولادنا القرآن[1] ؛ وألا نظهر شركا ولا ندعو إليه أحداً ، وألا نمنع أحداً من ذوى قراباتنا الدخول فى الإسلام إن أرادوه ؛ وأن نوقر المسلمين ؛ وأن نقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس ؛ ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم فى قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ؛ ولا نتكلم بكلامهم[2] ولا نكتنى بكناهم ، ولا نركب السروج ، ولا نتقلد السيوف ، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا ؛ ولا ننقش خواتيمنا بالعربية ؛ ولا نبيع الخمور ؛ وأن نجز مقاديم رؤوسنا ، وأن نلزم زيّنا حيث ما كنا ، وأن نشد الزنانير على أوساطنا ؛ وألا نظهر الصليب على كنائسنا ؛ وألا نظهر صُلبنا وكتبنا فى شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم[3] ؛ وألا نضرب بنواقيسنا[4] فى كنائسنا إلا ضرباً خفياً ؛ وألا نرفع أصواتنا بالقراءة فى كنائسنا فى شيء من حضرة المسلمين ؛ وألا نخرج شعانين ولا باعوثاً ، وألا نرفع أصواتنا على موتانا ، ولا نظهر النيران عليهم فى شيء من طرق المسلمين وأسواقهم ، ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ماجرى عليه سهام المسلمين ؛ وأن نرشد المسلمين ولا نطلع فى منازلهم ... ولا نضرب أحداً من المسلمين . شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان ، فإن نحن خالفنا عن شيء مما شرطناه لكم وضمناه على أنفسنا فلا ذمة لنا ، وقد حل لكم منا ما يحل لكم من أهل المعاندة والشقاق »[5] . (†)

وأول من ذكر هذه الوثيقة ابن حزم المتوفى حول منتصف القرن الخامس الهجرى ؛ وتمثل شروطها ما كان فى العصور المتأخرة من تصرفات أشد تعصباً وأبعد عن التسامح . والحق أن هذه الشروط لم تعد أن تكون نظماً قد طبقت بصفة غير مطردة ، وكان الأمر بوجه عام يتطلب سورة من التعصب الدينى لإجابة أى مطالب لتطبيق هذه الشروط . وهناك شواهد كثيرة تبين أن المسيحيين قل ما كانوا فى عهد الفتوح

---

(١) « تختلف آراء العلماء فى مسألة تعليم القرآن : فهو محظور فى مذهب مالك ، ومباح عند أبى حنيفة ، أما الشافعى فله فى هذا الموضوع رأيان : فهو من جهة يحبذ دراسة القرآن من حيث إن فى ذلك إشارة إلى الرغبة فى الاسلام ، وهو من جهة أخرى يحظره لأنه يخشى أن يكون الكافر الذى يدرس القرآن مصراً على إثمه وعناده فلا يقصد بقراءته إلا أن يتخذه هزواً ما دام هو عدواً لله والرسول الذى انزل عليه الكتاب . والآن فليس للشافعى ، وقد رأينا له فكرتين تناقض إحداهما الأخرى ، رأى حاسم فى هذه المسألة من الوجهة الشكلية » . (Belin, p. 508)

(٢) كعبارات التحية وغيرها مما يستعمله المسلمون بعضهم مع بعض دون غيرهم .

(٣) يقول أبو يوسف (ص ٨٢) أنه لا مانع من خروج النصارى بصلبانهم فى أيام عيدهم خارج المدينة بلا رايات ولا بنود يوماً فى السنة ، فأما داخل البلد بين المسلمين ومساجدهم فلا تظهر الصلبان .

(٤) الناقوس فى اللغة قطعة طويلة من الخشب تقرع بخشبة أخرى قصيرة

(٥) Gottheil, pp. 382-4 حيث أورد الاشارات إلى النصوص المختلفة لهذه الوثيقة .

(†) راجع كتاب المذمة فى استعمال أهل الذمة لابن النقاش — مخطوط بدار الكتب رقم ٣٩٥٢ ورقة ٣ — ٤

الإسلامية الأولى يشكون مما يضعف من قوة دينهم . والواقع أن تمسكهم بدينهم القديم هو الذى عرضهم لدفع الجزية — وهى كلمة كانت تدل أصلا على الضريبة من أى نوع يدفعها غير المسلمين من رعايا الدولة العربية إلا أنها أصبحت أخيراً تدل على ضريبة الرأس حين وضع الولاة الجدد النظام المالى[1]. لكن هذه الجزية كانت من البساطة بحيث لم تكن تثقل كاهلهم ، وذلك إذا لاحظنا أنها أعفتهم من الخدمة العسكرية الإجبارية التى كانت مفروضة على إخوانهم من الرعايا المسلمين . ولا شك أن التحول إلى الإسلام كان يقترن ببعض مزايا مالية معينة ، ولكنه لم يكن من الممكن أن يكون للدين القديم إلا تأثير ضئيل على هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام لا لشىء إلا ليظفروا بإعفائهم من أداء الجزية ، وعندئذ كان على هؤلاء الذين يتحولون إلى الإسلام أن يؤدوا بدلا من الجزية الصدقات الشرعية ، وهى الزكاة التى كانت تفرض سنوياً على معظم أنواع الممتلكات المنقولة والعقارية[2] . وقد قل إلى حد بعيد ما كان يحدث من إغراء مادى للتخلص من عبء الضريبة عن طريق التحول إلى الإسلام ، وذلك حين اضطرت بعض الاعتبارات المالية الحكومة العربية ، حول نهاية القرن الأول إلى أن تشدد على المسلمين الجدد فى أن يوالوا دفع الجزية حتى بعد دخولهم فى زمرة المؤمنين[3]. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يجب أن نذكر أن غير المسلمين من الأهلين كانوا يعرضون أنفسهم دائما لأن يكونوا ضحايا الاضطهاد المالى عند ما تكون الدولة فى حاجة إلى زيادة الخراج .

ولم تكن مقادير الجزية التى فرضها الفاتحون الأولون متماثلة[4] ، ولم يتفق أبو حنيفة ومالك ، وهما الإمامان المشهوران ، فى بعض التفاصيل التى لا تصل إلى درجة كبيرة من الأهمية[5] . وقد نتخذ من المعلومات التالية التى استقيناها من كتاب الخراج الذى وضعه أبو يوسف تلبية لطلب هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩ م) (١٧٠ - ١٩٣ هـ) دليلا يمثل لنا بوجه عام الطريقة التى سار عليها المسلمون فى جمع الخراج فى عهد الدولة العباسية : فكان على الموسر أن يدفع فى السنة ثمانية وأربعين درهما ، وعلى الوسط أربعة وعشرين ، بينما يؤخذ من المحتاج كالحراث العامل بيده اثنا عشر درهما[6] ، وإن جاؤوا بعرض قبل منهم ، مثل الدواب والتجارة والمتاع ، حتى الإبر كانت تقبل منهم بدلا من النقد ،

---

(١) وهناك شواهد تدل على أن العرب الفاتحين قد أبقوا على النظام المالى الذى وجدوه سائداً فى البلاد التى انتزعوها من أيدى الروم دون أن يغيروا منه شيئاً وأن تفسير الجزية بأنها عبارة عن ضريبة الرؤس ، إنما هو من اختراع الفقهاء المتأخرين الذين كانوا يجهلون الأمور على وضعها الصحيح فى صدر الإسلام .

(Caetani, vol. iv, p. 610 (§ 231) ; vol. v. p. 449). H. Lammens : Ziâd ibn Abihi. (Rivista degli Studi Orientali, vol, iv. p. 215).

(٢) Goldziher, vol, i. pp. 50-7, 427-30. Caetani, vol. v. p. 311 sqq.

(٣) Caetani, vol. v. pp. 424 (§ 752), 432.

(٤) البلاذرى ص ١٢٤ — ١٢٥ .

(٥) A. von Kremer (1), vol, i. pp. 60,436.

(٦) الدرهم يساوى خمسة بنسات تقريباً ، أو ٢١ مليا تقريباً.

ولا يؤخذ منهم خنزير ولا خمر ولا ميتة . وكانت الضريبة لا تجبى إلا من الذكور القادرين ولا تجبى من النساء والصبيان(١) ؛ وكذلك كان يستثنى من أداء الجزية المسكين الذى يتصدق عليه ، والشيخ الفقير الفانى الذى لا يستطيع العمل ، كما أعفى الأعمى والأعرج والمريض الذى لا يرجى شفاؤه ، والمغلوب على عقله إلا إذا كان من أصحاب اليسار ، وكما أعفى المترهبون الذين فى الديارات وأهل الصوامع إذا كانوا يعيشون على صدقات الموسرين ، أما إن كانوا قادرين على العمل أو كان لهم غنى ويسار أخذت منهم الجزية . وقد أوصى جباة الجزية أن يظهروا الشفقة بأهل الذمة بوجه خاص فلا يظلموهم ولا يؤذوهم فى المعاملة ولا ينزلوا بهم عقاباً جسمانياً إذا لم يؤدوا الجزية(٢).

ولم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحيين ، كما يريدنا بعض الباحثين على الظن ، لونا من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام ، وإنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة فى الجيش ، فى مقابل الحماية التى كفلتها لهم سيوف المسلمين . ولما قدّم أهل الحيرة المالَ المتفق عليه ، ذكروا صراحة أنهم إنما دفعوا هذه الجزية على شريطة « أن يمنعونا وأميرهم البغى من المسلمين وغيرهم »(٣). وكذلك حدث أن سجل خالد فى المعاهدة التى أبرمها مع بعض أهالى المدن المجاورة للحيرة قوله : « فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا »(٤). ويمكن الحكم على مدى اعتراف المسلمين الصريح بهذا الشرط من تلك الحادثة التى وقعت فى حكم الخليفة عمر . لما حشد الامبراطور هرقل جيشاً ضخما يصد قوات المسلمين المحتلة كان لزاماً على المسلمين نتيجة لما حدث ، أن يركزوا كل نشاطهم فى المعركة التى أحدقت بهم . فلما علم بذلك أبو عبيدة قائد العرب كتب إلى عمال المدن المفتوحة فى الشام يأمرهم بأن يردوا عليهم ما جُبى من الجزية من هذه المدن وكتب إلى الناس يقول : « إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع . وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك . وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط ، وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم » . وبذلك ردت مبالغ طائلة من مال الدولة ، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين ، وقالوا : « ردكم الله علينا ونصركم عليهم (أى على الروم) ، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا وأخذوا كل شىء بقى لنا »(٥) .

وقد فرضت الجزية كما ذكرنا على القادرين من الذكور مقابل الخدمة العسكرية التى كانوا يطالبون بأدائها لو كانوا مسلمين ؛ ومن الواضح أن أى جماعة مسيحية كانت تعفى من أداء هذه الضريبة إذا ما دخلت فى خدمة الجيش الإسلامى . وكان الحال على هذا النحو مع قبيلة الجراجمة ، وهى قبيلة مسيحية كانت تقيم

---

(١) Bell, pp. XXV, 173.

(٢) أبو يوسف ص ٦٩ — ٧١

(٣) الطبرى ج ١ ص ٢٠٥٥

(٤) نفس المرجع ص ٢٠٥٠

(٥) أبو يوسف ص ٨١

بجوار أنطاكية ، سالمت المسلمين وتعهدت أن تكون عوناً لهم وأن تقاتل معهم فى مغازيهم ، على شريطة ألا تؤخذ بالجزية ، وأن تعطى نصيبها من الغنائم(١) . ولما اندفعت الفتوح الاسلامية إلى شمال فارس فى سنة ٢٢ هـ ، أبرم مثل هذا الحلف مع إحدى القبائل التى تقيم على حدود هذه البلاد وأعفيت من أداء الجزية فى مقابل الخدمة العسكرية(٢) .

ونجد أمثلة شبيهة بهذه للاعفاء من الجزية فى حالة المسيحيين الذين عملوا فى الجيش أو الأسطول فى ظل الحكم التركى . مثال ذلك ما عومل به أهل ميغاريا Megaris وهم جماعة من مسيحى ألبانيا الذين أعفوا من أداء هذه الضريبة على شريطة أن يقدموا جماعة من الرجال المسلحين لحراسة الدروب على جبال Cithaeron و Geranea التى كانت تؤدى إلى خليج كورنثة Isthmus of Corinth ؛ وكان المسيحيون الذين استخدموا طلائع لمقدمة الجيش التركى ، لإصلاح الطرق وإقامة الجسور، قد أعفوا من أداء الخراج ومنحوا هبات من الأرض معفاة من جميع الضرائب(٣)، وكذلك لم يدفع أهالى Hydra المسيحيون ضرائب مباشرة للسلطان ، وإنما قدموا فى مقابلها فرقة من مائتين وخمسين من أشداء رجال الأسطول التركى كان ينفق عليهم من بيت المال فى تلك الناحية (٤).

وقد أعفى أيضاً من الضريبة أهالى رومانيا الجنوبية الذين يطلق عليهم Armatoli ، (٥)وكانوا يؤلفون عنصراً هاماً من عناصر القوة فى الجيش التركى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين ، ثم المرديون Mirdites وهم قبيلة كاثوليكية ألبانية كانت تحتل الجبال الواقعة شمالى سكوتارى Scutari ، وكان ذلك على شريطة أن يقدموا فرقة مسلحة فى زمن الحرب (٦). وبتلك الروح ذاتها لم تقرر جزية الروس على نصارى الإغريق الذين أشرفوا على القناطر (†) التى أمدت القسطنطينية بماء الشرب ، (٧) ولا على الذين كانوا فى حراسة مستودعات البارود فى تلك المدينة(٨) نظراً إلى ما قدموا للدولة من خدمات . ومن جهة أخرى أعفى الفلاحون المصريون من الخدمة العسكرية على الرغم من أنهم كانوا على الإسلام وفرضت عليهم الجزية فى نظير ذلك كما فرضت على المسيحيين(٩).

---

(١) البلاذرى ص ١٥٩

(٢) الطبرى جـ ١ ص ٢٦٦٥

(٣) وهو اسمهم (« Musellim ») Marsigli, vol. i. p. 86

(٤) Finlay, vol. vi. pp. 30, 33.

(٥) Lazâr, p. 56.

(٦) De la Jonquiére, p. 14.

(†) هى نوع من القناطر تقام على أعمدة لتوصيل مياه الشرب إلى المدن وقد كانت شائعة فى الدولة الرومانية منذ القرن الأول الميلادى .

(٧) Thomas Smith, p. 324.

(٨) Dorostamus, p. 326.

(٩) De la Jonquiére, p. 265.

ولما كان المسيحيون يعيشون فى مجتمعهم آمنين على حياتهم وممتلكاتهم ناعمين بمثل هذا التسامح الذى منحهم حرية التفكير الدينى ، فقد تمتعوا ، وخاصة فى المدن ، بحالة من الرفاهية والرخاء فى الأيام الأولى من الخلافة .

وقد توسع معاوية (٦٦١ — ٦٨٠م) (٤١ — ٦٠هـ) فى إلحاق المسيحيين بخدمته ، وحذا حذوه فى ذلك أفراد آخرون من البيت المالك [1] . وطالما شغل المسيحيون مناصب عالية فى بلاط الخليفة ، مثل الأخطل وهو عربى نصرانى كان شاعراً للبلاط ، ومثل أبى القديس يوحنا الدمشقى مستشار الخليفة عبد الملك (٦٨٥—٧٠٥م) (٦٥ — ٨٦هـ) .

وكان فى خدمة الخليفة المعتصم (٨٣٣—٨٤٢م) (٢١٨—٢٢٧هـ) أخوان مسيحيان بلغا منزلة سامية عنـــد أمير المؤمنين : أحدهما يدعى سلمويه ويظهر أنه كان يشغل منصباً قريب الشبه من منصب الوزير فى العصر الحديث ، وكانت الوثائق الملكية لا تتخذ صفة التنفيذ إلا بعد توقيعه عليها ، على حين عهد إلى أخيه إبراهيم بحفظ خاتم الخليفة كما عهد إليه بخزانة بيوت الأموال فى البلاد ، وكان المنتظر من طبيعة هذه الأموال وتصريفها أن يوكل أمر الإشراف عليها إلى رجل من المسلمين ، وقد بلغ من ميل الخليفة الشديد إلى إبراهيم أنه عاده فى مرضه الأخير وغمره الحزن عند وفاته ، وأنه أمر فى يوم تشييع جنازته بإحضار جثمانه الى القصر حيث أقيمت له الطقوس المسيحية فى خشوع مهيب [2] .

واختار عبد الملك عالماً مسيحياً من مدينة الرها يدعى أثناس Athanasius مؤدباً لأخيه عبد العزيز . وقد رافق أثناس هـذا تلميذه إلى مصر عند ما عين والياً عليها ، وهناك جمع ثروة طائلة ، قيل إنه امتلك أربعة آلاف من العبيد ، كما ملك كثيراً من الدور والبساتين . وكان الذهب والفضة عنده وكأنها الحصى ؛ وكان أولاده يأخذون من كل جندى ديناراً عند ما يتسلم راتبه ، ولما كان جيش مصر قد بلغ حينذاك ٣٠٠٠٠ جندى فإنه من الممكن أن نكون فكرة عن الثروة التى جمعها أثناس خلال الإحدى والعشرين سنة التى قضاها فى هذه البلاد [3] . وفى نهاية القرن الثامن نرى رجلا يدعى أبا نوح الأنبارى كاتب أبى موسى بن مصعب والى الموصل ، قد استغل نفوذه القوى لمصلحة بنى جلدته من المسيحيين [4] .

وفى عهد المعتضد (٨٩٢ — ٩٠٢م) (٢٧٩ — ٢٨٩هـ) ، كان عمر بن يوسف والى الأنبار مسيحياً ، وقد وافق الخليفة على تقليده هذه الولاية ، بحجة أن النصرانى فى نظره أجدر بأن يستخدم إذا وجد صالحاً ؛ إذ أن هناك أسباباً قوية لتفضيل النصرانى على غيره من اليهود أو المسلمين أو المجوس [5] . وعهد الموفق ، وكان صاحب السلطان المطلق فى عهد أخيه المعتمد (٨٧٠ — ٨٩٢م) (٢٥٦ — ٢٧٩هـ) أمر تنظيم

---

(١) Lammens, p. 13

(٢) ابن أبى أصيبعة ج ١ ص ١٦٤

(٣) Michael the Elder, vol. ii. p. 475.

(٤) مارى بن سليمان ص ٧١ (س ١٦) وقد كتب أبو نوح الأنبارى رداً على القرآن وكتباً أخرى فى العقائد (انظر Wright, p. 191 n. 3).

(٥) مارى بن سليمان ص ٨٤ .

الجيش إلى مسيحي يدعى إسرائيل، واتخذ ابنه المعتضد نصرانياً آخر كاتباً له، وهو مالك بن الوليد . وفي عصر متأخر تولى في أيام المقتـــدر (٩٠٨ م — ٩٣٢م) (٢٩٥هـ — ٣٢٠هـ) نصراني آخر أمر ديوان الجيش (١) .

كذلك كان نصر بن هارون مسيحياً ، وكان كبير وزراء عضد الدولة البويهي (٩٤٩م — ٩٨٢ م) (٣٣٧ — ٣٧١ هـ) الذي حكم العراق وجنوبي فارس (٢) . وقد ظلت دواوين الحكومة وخاصة ديوان الخراج فترة طويلة مكتظة بالمسيحيين والفرس (٣) ، وظلت الحال في مصر على هذ النحو حتى زمن متأخر جداً ، حيث كان السواد الأعظم من المسيحيين يحتكرون أمثال هذه المناصب احتكاراً يكاد يكون تاماً(٤). وكثيراً ما جمع الأطباء المسيحيون بوجه خاص ثروات ضخمة ، ولقوا تكريماً كبيراً في بيوت العظماء . فجبريل الذي اتخذه الخليفة هارون الرشيد طبيباً خاصاً كان مسيحياً نسطورياً بلغ إيراده السنوي ٨٠٠٠٠٠ درهم من أملاكه الخاصة فضلا عن راتب قدره ٢٨٠٠٠٠ درهم في السنة مقابل عنايته بمعالجة الخليفة ؛ وكان الطبيب الثاني وهو نصراني أيضاً يتقاضى ٢٢٠٠٠ درهم في السنة(٥). وكان المسيحيون يجمعون أموالا وفيرة من احترافهم الصناعة والتجارة : والواقع أن هذه الثروة هي التي طالما أثارت طمع الدهماء الذي يقوم على الحسد — وهو شعور دفع المتعصبين من المسلمين إلى انتهاز هذه الفرصة لاضطهادهم وإيقاع الظلم بهم ؛ أضف إلى ذلك أن الطوائف غير الإسلامية قد تمتعت بسلطات تكاد تكون تامة . لأن الحكومة وضعت في أيديهم التصرف في شئونهم الداخلية تصرفاً مطلقاً ، وكان رؤساؤهم الروحانيون يباشرون واجباتهم القضائية في القضايا الخاصة بأبناء دينهم فحسب(٦) . ولم يتعرض أحد لمعظم كنائسهم وأديارهم إلا في المدن الكبيرة ، حيث تحول بعضها إلى مساجد — وهو تصرف كان من العسير أن يعترض عليه نظراً لتزايد عدد المسلمين الهائل وما كان يقابله من تناقص في المجتمع المسيحي .

وقد أشار النقد التاريخي الحديث إلى استحالة الأسطورة القائلة بأنه لما استولى العرب على دمشق ، قسمت الكنائس بالتساوي بين المسيحيين والفاتحين ، بحجة أنه بينما كان أحد القواد المسلمين يشق طريقه إلى المدينة عنوة من الباب الشرقي ، كان قائد آخر يتلقى تسليم حاكم المدينة عند الباب الغربي ؛ كذلك دل اختبار الوثائق التاريخية كما دل اختبار طبوغرافية البناء على أن كاتدرائية القديس يوحنا الكبرى لا يمكن بحال أن تكون قد استخدمت على النحو الذي وصفه بعض مؤرخي العرب وهو أنها كانت مكاناً عاما

(١) هلال الصابي ص ٩٥

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٦

(٣) Von Kremer (1) vol. i. pp. 167-168. Lammens, p. 11.

(٤) Renaudot, pp. 430, 540.

(٥) Von Kremer (1) vol. ii. pp. 180—1.

(٦) Von Kremer (1) vol. i. p. 183.

لعبادة المسلمين والمسيحيين على السواء (١) . ولكن مجرد اعتقاد هؤلاء المؤرخين بأن مثل هذا الإجراء قد استمر قرابة ثمانين عاماً ، دليل على ما أعطى منذ وقت مبكر للمسيحيين من حرية فى إقامة شعائرهم الدينية .

ويختلف فقهاء المسلمين فى هذه المسألة اختلافا بينا . من أكثر المذاهب تسامحاً وهو المذهب الحنفى الذى يعلن أنه على الرغم من أن بناء الكنائس ومعابد اليهود فى الديار المصرية مخالف للشرع إلا أنه يمكن إصلاح ما كان قائماً إذا ما خرب أو اعتراه البلى ، كما يجوز بناء كنائس ومعابد يهودية جديدة فى القرى والضياع التى لا تظهر فيها الشعائر الإسلامية ، إلى أكثر المذاهب تشددا وهو المذهب الحنبلى ، الذى يرى أنه لا يجوز بناؤها ولا إصلاحها إذا ما تهدمت أو أصابها التلف . ورأى بعض الفقهاء أن المزايا قد اختلفت تبعاً لما منحتهم المعاهدات إياه من حقوق . ففى المدن التى أخذت عنوة لا يصح للذميين أن يقيموا فيها دوراً للعبادة ، أما إذا أبرمت معاهدة تنص على ذلك فقد سمح لهم ببناء كنائس ومعابد يهودية جديدة (٢) . لكن هذه الفتاوى ، ككثير من بحوث الفقهاء المسلمين ، كانت صلتها ضعيفة بالحقائق الواقعية (٣) . فربما اتفق أصحاب المذاهب على أن الذميين لا يسمح لهم أن يبنوا دوراً للعبادة فى المدن التى أسسها المسلمون ، ولكن السلطة المدنية أباحت للقبط أن يبنوا كنائس فى القاهرة ، العاصمة الجديدة (٤) ، كما سمح للمسيحيين أن يؤسسوا فى بعض المدن الأخرى كنائس وأدياراً جديدة . وإن مجرد ما يقال من أن عمر الثانى (٧١٧ - ٧٢٠ م) (٩٩ - ١٠١ هـ) قد أمر فى نهاية القرن الأول للهجرة بهدم كل الكنائس (٥) التى استحدثت ، وأنه بعد أكثر من قرن أعاد المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١ م) (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) الذى اشتهر بتعصبه الدينى نفس هذا الأمر ، ليوضح كيف أن تحريم بناء كنائس جديدة قلما كان يوضع موضع التنفيذ (٦) . ولدينا أمثلة دوّنها عن بناء كنائس محدثة مؤرخون من المسيحيين والمسلمين على السواء : مثال ذلك أن أحد النصارى من ذوى اليسار فى مدينة الرها يدعى أثناس قد بنى فى عهد عبد الملك (٦٨٥ م - ٧٠٥ م) (٦٥ - ٨٦ هـ) كنيسة جميلة وقفها على السيدة مريم ؛ كما أقام بناء للتعميد تكريما لصورة المسيح التى كان إرسالها إلى الملك أبجر أمراً مشهوراً فى ذلك الحين ؛ وكذلك بنى عدداً من الكنائس والأديار

(١) Caetani, vol. iii. pp. 350 sq., 387 sqq.

(٢) Gottheil, pp. 360—1. Goldziher : Zur Literatur des Ichtilaf al-madahib, ZDMG., vol. 38 pp. 673-4.

(٣) كتب Snouck Hurgronje عن هذا الطابع النظرى الذى اتسم به كثير جداً من كتب الفقه الاسلامى وذلك فى بحثه : Mohammedanisches Recht in Theorie und Wirklichkeit.

(٤) Gottheil, p. 363.

(٥) Gottheil, pp. 358-9. ومع ذلك يشك هذا المؤرخ فى ما إذا كان هناك شاهد من الشواهد التى تعزو هذا التعصب إلى عمر الثانى .

(٦) Journal Asiatique, IVme série, tome xviii, (1851) pp. 433, 450. والطبرى ج ٣ ص ١٤١٩ .

فى جهات كثيرة من مصر ، من بينها كنيستان عظيمتان فى الفسطاط(١). وقد طلب بعض الفراشين(†) من النصارى الذين كانوا فى خدمة عبد العزيز بن مروان (أخى عبد الملك) والى مصر أن يأذن لهم ببناء كنيسة فى حلوان ، وقفت على القديس يوحنا (٢)، مع أن هذه المدينة من المدن التى أسسها المسلمون . وفى سنة ٧١١ م (٩٢ هـ) بنيت كنيسة يعقوبية بإذن من الخليفة الوليد (٧٠٥ - ٧١٥ م) ، (٨٦ - ٩٦ هـ) (٣) .

وفى السنة الأولى من حكم يزيد الثانى (٧٢٠ م) (١٠١ هـ) دخل أنطاكية مار إلياس Mar Elias بطريق أنطاكية اليعقوبى ، تحفه الهيبة والوقار ، يصحبه رجال الكنيسة والرهبان ، ليبارك كنيسة جديدة كان يرجع إليه السبب فى بنائها ؛ وفى السنة التالية بارك كنيسة أخرى فى قرية سرمده من أعمال أنطاكية ، وكانت المعارضة الوحيدة التى لقيها ، من ناحية الطائفة المسيحية المنافسة التى قبلت قرارات مجمع خلقيدونية(٤). وفى العهد التالى بنى خالد القسرى الذى كان والياً على العراقين العربى والعجمى من ٧٢٤ م - ٧٣٨ م . (١٠٥ - ١٢٠ هـ) كنيسة لأمه النصرانية تتعبد فيها (٥) . وفى سنة ٧٥٩ م تم بناء كنيسة فى نصيبين ، أنفق عليها الأسقف النسطورى سابريان Cyprian ستة وخمسين ألف دينار (٦) . وإلى هذا القرن نفسه (٧) يرجع تاريخ كنيسة أبى سرجه فى الحصن الرومانى القديم بمصر القديمة . وفى حكم المهدى (٧٧٥ - ٧٨٥ م) (١٥٨ - ١٦٩ هـ) بنيت ببغداد كنيسة للمسيحيين الذين كانوا قد أسروا خلال الحملات الكثيرة التى وجهت لبلاد الدولة البيزنطية (٨) . وبنى أهل سمالو كنيسة أخرى فى هذه المدينة نفسها فى عهد هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩ م) (١٧٠ - ١٩٣ هـ) ، وكانوا قد أذعنوا لطاعة هذا الخليفة وأخذوا منه الأمان (٩) ؛ وفى عهد هذا الخليفة نفسه تلقى سرجيس Sergius مطران البصرة النسطورى إذناً ببناء كنيسة فى البصرة (١٠) ، مع أن هذه المدينة قد أسسها المسلمون فى عهد الخليفة عمر سنة ٦٣٨ م (١٧ هـ) ، وبنيت فى بابليون كنيسة فخمة تضم جثمانى النبيين دانيال وحزقيال(١١) . ولما جاء المأمون

---

(١) Michael the Elder, vol. ii. p. 476. Renaudot, p. 189.

(†) هى كنيسة مار جرجس وكانت تسمى كنيسة الفراشين (راجع سعيد بن البطريق ج ٢ ص ٢٤١)

(٢) سعيد بن البطريق ج ٢ ص ٤١ (ويقول سويرس (ص ١٢٩) إنها ,, كنيستان ،، .

(٣) Von Kremer (1) vol. ii. pp. 175.

(٤) Michael the Elder, vol. ii. pp. 490, 491.

(٥) ابن خلكان ج ١ ص ٤٨٥

(٦) Elias of Nisibis, p. 128.

(٧) A. J. Butler: The Ancient Coptic Churches of Egypt, vol. i. p. 181. (Oxford, 1884)

(٨) ياقوت ج ٢ ص ٦٦٢

(٩) ياقوت ج ٢ ص ٦٧٠

(١٠) ماري بن سليمان ص٧٣

(١١) Ishok of Romgla, p. 266.

مصر (٨١٣ - ٨٣٣ م) (١٩٨ - ٢١٨ ﻫ) أذن لاثنين من فراشيه النصارى ببناء كنيسة على جبل المقطم (†) القريب من القاهرة ؛ كما سمح هذا الخليفة لأحد ذوى اليسار من المسيحيين ويدعى بكام ببناء عدة كنائس حسان ببلدة بورة فى مصر[١]. وقد شيد البطريق النسطورى طيما ثاوس Timotheus المتوفى سنة ٨٢٠ م كنيسة فى تكريت وديراً فى بغداد[٢]. وفى القرن العاشر ، بنيت فى الفسطاط كنيسة أبى سيفين القبطية الجميلة[٣]، كما بنيت فى جدة كنيسة جديدة فى عهد الظاهر سابع الخلفاء الفاطميين فى مصر (١٠٢٠ — ١٠٣٥ م) (٤١١ - ٤٢٧ ﻫ) ،[٤] وشيدت فى عهد الخليفة العباسى المستضىء (١١٧٠ — ١١٨٠ م)[٥] (٥٦٦ — ٥٧٥ ﻫ) كنائس وأديار جديدة . وفى سنة ١١٨٧ بنيت كنيسة فى الفسطاط وُقِفت على السيدة العذراء الطاهرة [٦] .

والواقع أنه منذ أن عرقل قيام الحكم الاسلامى تقدم الكنيسة المسيحية يكشف تاريخ النساطرة عن نهضة رائعة فى الحياة الدينية وعن نواحى نشاطها منذ أن صاروا رعية للمسلمين [٧] . وكان أكاسرة الفرس يدللون هذه الطائفة تارة ويضطهدونها تارة أخرى، حيث كان السواد الأعظم من أفرادها يقيمون فى ولايات هؤلاء الأكاسرة ، بل مروا بحياة أشد من هذه خطورة وخضعوا لمعاملة خشنة قاسية حين جعلتهم الحرب بين فارس وبيزنطة عرضة لشك الفرس فيهم بأنهم كانوا يمالئون أعداءهم من المسيحيين . ولكن الأمن الذى نعموا به فى بلادهم فى عهد الخلفاء ، قد مكنهم من أن يسيروا قدماً فى سبيل أعمالهم التبشيرية فى الخارج ، فأرسلوا البعوث الدينية إلى الصين والهند ، وارتقى كل منها إلى مرتبة المطرانية فى القرن الثامن الميلادى ؛ وفى العصر نفسه تقريباً رسخت أقدامهم فى مصر ، ثم أشاعوا فيها بعد العقيدة المسيحية فى آسيا حتى إذا جاء القرن الحادى عشر ، كانوا قد جذبوا عدداً كبيراً ممن اعتنقوا المسيحية من بين التتار [٨] .

(†) وهى كنيسة مرتمريم التى فى القنطرة وهى المعروفة اليوم بكنيسة الروم وكانت تسمى كنيسة الفراشين (سعيد بن البطريق ج ٢ ص ٥٨)

(١) سعيد بن البطريق ج ٢ ص ٥٨ .

(٢) Von Kremer (1) vol. ii. pp. 175-6

(٣) Butler: Ancient Coptic Churches of Egypt, vol. i. p. 76.

(٤) Renaudot, p. 399,

(٥) Ishok of Romgla, p. 333

(٦) أبو صالح ص ٩٢

(٧) وقد زار راهب دومينيكانى من فلورنسة ، يدعى Ricoldus de Monte Crucis بلاد الشرق حول نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر وتحدث عن روح التسامح التى تمتع بها النساطرة إلى عصره فى ظل الحكم الاسلامى فقال : ,,وقرأت فى التاريخ القديم وفى مؤلفات العرب الموثوق بها أن النساطرة أنفسهم كانوا أصدقاء محمد وحلفاءه وأن محمداً نفسه قد أوصى خلفاءه أن يحرصوا على صداقتهم مع النساطرة التى يرعاها العرب أنفسهم حتى ذلك اليوم بشىء من العناية ،، . (Laurent, p. 128.)

(٨) J. Labourt : De Timotheo 1, Nestorianorum Patriarcha, p. 37 sqq. (Paris, 1904).

وإذا كانت الطوائف المسيحية الأخرى قد أخفقت فى إظهار مثل هذا النشاط القوى ، فليس هذا الإخفاق خطأ المسلمين ؛ إذ كانت الحكومة المركزية العليا تتسامح مع جميعهم على سواء ، وكانت فضلا عن ذلك تصدهم عن أن يضطهد بعضهم بعضاً [1]. وفى القرن الخامس أغرى برصوما ، وهو أسقف نسطورى ، ملك الفرس بأن يدبر اضطهادا عنيفاً للكنيسة الأرثوذكسية ، وذلك بإظهار نسطور بمظهر الصديق للفرس ، وإظهار مبادئه بأنها أكثر ميلا إلى مبادئهم ؛ وقال إن عدداً يبلغ ٧٨٠٠ من رجال الكنيسة الأرثوذكسية ، مع عدد ضخم من العلمانيين ، قد ذبحوا فى هذا الاضطهاد[2] . وقام خسرو الثانى باضطهاد آخر للأرثوذكس ، بعد أن غزا هرقل بلاد فارس وذلك بتحريض أحد اليعاقبة الذى أقنع الملك بأن الأرثوذكس سوف يظهرون بمظهر العطف والميل إلى البيزنطيين [3] ، ولكن مبادىء التسامح الإسلامى حرّمت مثل هذه الأعمال التى تنطوى على الظلم : بل كان المسلمون على خلاف غيرهم ، إذ يظهر لنا أنهم لم يألوا جهداً فى أن يعاملوا كل رعاياهم من المسيحيين بالعدل والقسطاس . مثال ذلك أنه بعد فتح مصر ، استغل اليعاقبة فرصة إقصاء السلطات البيزنطية ، ليسلبوا الأرثوذكس كنائسهم ، ولكن المسلمين أعادوها أخيراً إلى أصحابها الشرعيين ، بعد أن دلل الأرثوذكس على ملكيتهم لها [4] .

وإذا نظرنا إلى التسامح الذى امتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين فى صدر الحكم الإسلامى ، ظهر أن الفكرة التى شاعت بأن السيف كان العامل فى تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة التصديق . ومن ثم لم يكن بد من أن نتلمس بواعث أخرى غير ذلك الباعث الذى أوحى بالاضطهاد . ولكن مما يؤسف له ، أننا لا نملك إلا أخباراً قليلة ، ومن ثم نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نلجأ إلى الحدس والتخمين[5]. ويرجح وجود بعض المفكرين الذين هيأتهم اتجاهاتهم الفكرية لقبول موقف المسلمين حيالهم فى عصر كهذا العصر حافل بالتأمل الدينى . وكان من هذا النوع أولئك الشهريغان أو ملاك الأراضى فى فارس فى القرن الثامن

(١) E. von Dobschütz, pp. 390—1.

(٢) Michael the Elder, vol. ii. pp. 439—40.

(٣) المكين ص ١٢ . وراجع J. Labourt : Le Christianisme sous la dynastie sassanide, p. 139 sq. (Paris, 1904) .

(٤) Renaudot, p. 169.

(٥) وقد أجاد فون كرمر فى هذه الملاحظة : « إننا مدينون فيما نعرفه عن التاريخ السياسى والحربى الذى يتعلق بتلك العصور لما بذله مؤرخو العرب من اجتهاد لا يعرف الكلل فى جمعهم للأخبار ؛ وإن بيننا وبين ذلك التاريخ اثنى عشر قرناً ، لهذا تتناسب الدقة فيه مع طول هذه الشقة . على أن التاريخ الداخلى لتلك الفترة الهامة ، وكذلك تاريخ الكفاح بين الدين الجديد البسيط وبين الديانات القديمة التى تكونت فيها المذاهب إلى حد التعقيد ، لا نكاد نعرف منه شيئاً إلا فى أعم حدوده » .

(Von Kremer (2), pp. 1—2).

الميلادى، وكانوا مسيحيين اسماً، ولكنهم اعتقدوا أن المسيح لم يكن إلا رجلا عادياً وأنه كسائر الأنبياء(١). ويظهر أنهم كانوا يثيرون من حين إلى حين متاعب كثيرة لرجال الدين من النساطرة الذين كانوا يلاقون عنتاً شديداً لإدخالهم فى مسالك الأرثوذكسية (٢)، ولكن موقفهم الدينى كان أشد صلة بالإسلام منه بالعقيدة المسيحية. ويحتمل أنهم أقبلوا على الإسلام فزادوا فى صفوف الذين تحولوا إلى هذا الدين بعد أن فتح العرب بلاد الدولة الفارسية.

ويزعم كثير من علماء اللاهوت المسيحيين (٣). أن حالة الكنيسة الشرقية التى تدهورت فى ذلك الوقت - من الناحيتين الخلقية والروحية - لا بد أن تكون قد دفعت كثيرين إلى أن يلتمسوا جواً روحياً أسلم وأصح فى ذلك الدين الإسلامى الذى جاءهم وهو فى أشد ما تكون الحماسة الفتية قوة وعنفاً(٤). وعلى سبيل المثال، يتساءل ملمان Dean Milman (٥): « ماذا كانت حال العالم المسيحى فى الأقاليم التى تعرضت لأول غزوات الإسلام؟ كانت الأحزاب الدينية يناوىء بعضها بعضا، ورجال الكنيسة يتنازعون فيما بينهم على أشد مسائل الدين إبهاماً وأكثرها غموضا، فيما يتعلق بما وراء الطبيعة فى العقيدة الدينية. والأرثوذكس والنساطرة وأتباع أوطيخوس واليعاقبة يضطهد بعضهم بعضاً، وقد استحكمت بينهم العداوة التى لا تفتر ولا تنقطع؛ ولا نكون مبالغين فى الحكم على مساوىء الجدل الدينى إذا افترضنا أن كثيرين ربما فرحوا بوقوع خصومهم فى إسار الكفار، إذ كان هذا أفضل عندهم من أن يجمع بينهم هدف مشترك فى سبيل الدفاع عن المسيحية التى تربط بينهم. فكم من أناس لا بد أن يكون هذا الجدل المستمر قد زعزع أسس عقيدتهم! وكم كان يكون غريباً لو أن هؤلاء الآلاف من الناس لم يتلمسوا، وهم فى ضجرهم وحيرتهم، ملجأ من هذه المجادلات التى لا تنتهى عند حد ولا تعرف اللين والتسامح، فى تلك الحقيقة البسيطة الواضحة، حقيقة الوحدانية مهما طولبوا بالاعتراف ببعثة محمد ونبوته ». وشبيه بهذا مايراه كيتانى Caetani من أن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة شعور باستياء من السفسطة المذهبية التى جلبتها الروح الهلينية إلى اللاهوت المسيحى. « أما الشرق الذى عرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة فقد كانت الثقافة الهلينية وبالا عليه من الوجهة الدينية، لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية

---

(١) Thomas of Marga, vol. ii. p. 309 sq.

(٢) Thomas of Marga, vol. ii. pp. 310 sq.

(٣) وبالاضافة إلى ما نقلنا، هنا من نصوص، أنظر ما كتبه ماكلينتوش Mclintoch وسترنج Strong تحت مادة Mohammedanism ج ٦ ص ٤٢٠، وراجع James Freeman Clarke : The Great Religions, Part ii, p. 75. (London, 1883.)

(٤) ومن ثم عبر المؤرخ المسلم عن لسان الامبراطور هرقل بقوله: « إن دينهم دين جديد يجدد لهم تبارهم » (طبرى ١ : ٢١٠٣)

(٥) History of Latin Christianity, vol. ii. pp. 216—17.

إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة، مليئة بالشكوك والشبهات؛ فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها. فلما أهلّت آخر الأمر أنباء الوحى الجديد فجأة من الصحراء، لم تعد تلك المسيحية الشرقية التى اختلطت بالغش والزيف وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية، وتزعزعت قواعدها الأساسية، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب، لم تعد المسيحية بعد تلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذى بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة، وقدم مزايا مادية جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التى لا تقبل الجدل. وحينئذ ترك الشرق المسيحَ وارتمى فى أحضان نبى بلاد العرب (١)».

أضف إلى هذا قول تايلور Canon Taylor (٢) «إنه من اليسير أن ندرك لماذا انتشرت تلك اليهودية المهذبة بهذه السرعة فى إفريقية وآسيا. كان أئمة اللاهوت فى إفريقية والشام قد استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتافيزيقية عويصة: ذلك أنهم حاولوا أن يحاربوا ماساد هذا العصر من فساد بتوضيح فضل العزوبة فى السماء وسمو البكورية إلى مرتبة الملائكة. فكان اعتزال العالم هو الطريق إلى القداسة، والقذارة صفة لطهارة الرهبنة. وكان الناس فى الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة؛ كما كانت الطبقات العليا مخنثة يشيع فيها الفساد، والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب(٣)، ولم يكن للعبيد أمل فى حاضرهم ولا مستقبلهم. فأزال الإسلام، بعون من الله، هذه المجموعة من الفساد والخرافات. لقد كان ثورة على المجادلة الجوفاء فى العقيدة وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى. ولقد بين أصول الدين التى تقول بوحدانية الله وعظمته، كما بين أن الله رحيم عادل يدعو الناس إلى الامتثال لأمره والإيمان به وتفويض الأمر إليه. وأعلن أن المرء مسئول، وأن هناك حياة آخرة ويوماً للحساب، وأعد للأشرار عقاباً أليماً؛ وفرض الصلاة والزكاة والصوم وفعل الخير؛ ونبذ الفضائل الكاذبة والدجل الدينى والترهات والنزعات الأخلاقية الضالة وسفسطة المتنازعين فى الدين؛ وأحل الشجاعة محل الرهبنة؛ ومنح العبيد رجاء، والإنسانية إخاء، ووهب الناس إدراكا للحقائق الأساسية، التى تقوم عليها الطبيعة البشرية.»

أضف إلى ذلك أن الإسلام قد نظر إليه بعض الباحثين على أنه رد فعل ضد النظام الكنسى البيزنطى(٤)

(١) Caetani, vol. ii. pp. 1045—6.

(٢) A paper read before the Church Congress at Wolverhampton, October 7th, 1887.

(٣) أنظر ما كتب عن النظام المالى المجحف فى ظل الدولة البيزنطية وذلك فى:

Gfrörer: Byzantinische Geschichten, vol. ii. pp. 337—9, 389—91, 450.

(٤) «وكان الاسلام عبارة عن رد فعل ضد ما أظهره جستنيان من سوء التصرف نحو الانسانية وخاصة الديانة المسيحية التى كان يزعم جستنيان أنه رئيسها الأعلى الروحى والدنيوى. ويرجع الفضل إلى حد كبير فيما أصابه محمد العربى الذى ولد عام ٥٧١ م أى بعد وفاة جستنيان بست سنوات من نجاح منقطع النظير فى دعوته إلى ذلك النفور الذى أحست به الأمم التى كانت تقيم فى داخل حدود الدولة البيزنطية وفيما جاورها من الأمم من الفظائع التى ارتكبها باسيلوس.»

Gfrörer: Byzantinische Geschichten, vol. ii. p. 437.

الذى كان يمثل الإمبراطور ورجال بلاطه صورة من الجلالة الإلهية فى الأعالى ، وينظر إلى الامبراطور نفسه لا على أنه الحاكم الدنيوى الأعظم فحسب ، بل على أنه الكاهن الأكبر كذلك[١]. وفى عهد جستنيان Justinian نرى هذا النظام يزداد تعسفا حتى يستحيل استبداداً يجثم بأثقاله الحديدية على رجال الكنيسة والعامة على سواء . وفى سنة ٥٣٢ م انفجر السخط ، الذى كان سائداً فى القسطنطينية ، على الكنيسة والدولة معاً ، وتحول ثورة على حكومة جستنيان لم تقمع إلا بعد أن ذبح خمسة وثلاثون ألف شخص . أما حزب الخضر Greens الذى كان اسمه يطلق على جماعة المتذمرين ، فقد وضعوا فى ناديهم احتجاجاً قوياً صريحاً على اضطهاد الإمبراطور ، ونادوا قائلين : «لقد فقد العدل من الدنيا ولن يكون مرة أخرى . ولكننا ستتهود ، بل سوف نعود إلى عبادة الوثنية الإغريقية[٢]» . ولم يمح مرور قرن من الزمان شيئاً من بواعث السخط الذى تجلى فى هذا المقام فى مثل ذلك التعبير القوى ، إلا أن يد الحكومة البيزنطية الغاشمة قد حالت دون اندلاع ثورة كتلك الثورة التى حدثت سنة ٥٢٣ م ، وأرغمت المتذمرين على التفرق . ومع ذلك انكشف فى القسطنطينية فى سنة ٥٦٠ م أمر جماعة وثنية متسترة فأنزل بهم العقاب[٣] . بيد أن أمثال هؤلاء المتذمرين الذين كانوا يقيمون فى أطراف الإمبراطورية بمنأى عن العاصمة كانوا أكثر طمأنينة ، وقد اتخذ الهراطقة الذين اضطهدتهم الحكومة وغيرهم من الساخطين على كنيسة الدولة البيزنطية من الشرق ملجأ يلجئون إليه ، وهنا لا بد أن تكون جيوش المسلمين قد لقيت ترحيباً من أبناء هؤلاء الروحانيين الذين كانوا قد رغبوا قبل ذلك الحين بمائة سنة فى أن يستبدلوا بالدين المسيحى عقيدة أخرى .

أضف إلى ذلك أيضاً أنه كان لتعميم استعمال اللغة العربية فى كافة أرجاء البلاد الخاضعة للخلافة الإسلامية ، وبخاصة المدن والمراكز الكبرى الآهلة بالسكان ، كما كان كذلك للتماثل الذى تم تدريجياً فى الأخلاق والعادات ، والذى أدى فى خلال ما يقرب من قرنين إلى اندماج الأجناس المغلوبة على اختلافها اندماجاً قوياً فى الحياة القومية التى كان يحياها العنصر العربى الحاكم — كان لهذا كله من غير شك صدى فى الحياة الدينية والفكرية لدى كثيرين من أفراد الديانات التى دخلت فى حماية العرب الفاتحين . ومن المحتمل جداً أن تكون الحركة الفكرية التى أثرت فى العقيدة الإسلامية تأثيراً بالغاً ، ابتداء من القرن الثانى حتى القرن الخامس للهجرة ، قد أثرت فى المفكرين المسيحيين وصرفتهم عن ديانة كانت روح عقيدتها السائدة تلوح فى ذلك الوقت أنها عقيدة مستحيلة من الناحية العملية . وقد حفظ لنا أحد كتاب المسلمين الذين عاشوا فى القرن الرابع الهجرى حديثاً مع أحد الأقباط نستطيع أن نعتبره فى شىء من الاطمئنان مظهراً للاتجاه العقلى العام عند سائر الكنائس الشرقية فى تلك الفترة : — « دليلى على صحتها (صحة الديانة المسيحية) وجودى إياها متناقضة متنافية . تدفعها العقول وتنفر منها النفوس ، لتباينها وتضادها . لا نظر يقويها ،

(١) Id. vol. ii, pp. 296-306, 337.

(٢) Id. vol. ii, pp. 442—4.

(٣) Id. vol. ii, pp. 445

ولا جدل يصححها ، ولا برهان يعضدها من العقل والحس عند التأمل لها والفحص عنها . ورأيت مع ذلك أمماً كثيرة وملوكا عظيمة ذوى معرفة وحسن رأى قد انقادوا إليها وتدينوا بها ، فعلمت أنهم لم يقبلوها ولا تدينوا بها مع ماذكرت من تناقضها فى العقل إلا الدلائل شاهدوها وآيات علموها ومعجزات عرفوها أوجبت انقيادهم إليها »(١) .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ينبغى أن نذكر أن هؤلاء الذين تحولوا من المسيحية إلى الإسلام تحت تأثير الاتجاهات العقلية التى سادت ذلك العصر قد وجدوا فى الآراء الدينية عند المعتزلة كثيراً من المبادىء التى كانت مشتركة بين العقيدتين ، حتى إنه بقدر ما كان لأصول العقيدة والاتجاه العقلى نحو كثير من المسائل الدينية من علاقة ، فإننا نرى أن هذا التحول لم يبلغ من الشدة الحد الذى يظنه بعض الباحثين . وإذا ضربنا صفحاً عن ذكر تلك المبادىء الأساسية المتعددة التى تتبادر حتى إلى أذهان هؤلاء الذين لا يعرفون عن تعاليم الدين إلا النزر اليسير ، كانت هنالك وجهات نظر أخرى كثيرة مشتركة بين الديانتين ، كانت نتيجة مباشرة للصلات الوثيقة التى قامت بين رجال الدين من المسيحيين والمسلمين فى دمشق فى عهـــد الخلفاء الأمويين ، كما قامت أيضاً هـذه الصلات فى أزمان متأخرة ، إذ ثبت أن هناك شواهد بينة تدل على ما كان لعلماء اللاهوت البيزنطيين من أثر فى تقدم البحث فى المذاهب الإسلامية بصورة منظمة . وإن أقدم أحكام الدين التى وضعت باللغة العربية لتوحى إلينا صيغتها وترتيبها بالشبه بينها وبين الرسائل المماثلة لها ، التى كتبها القديس يوحنا الدمشقى وغيره من الآباء المسيحيين(٢) . وقد نشأ أقدم أنواع التصوف العربى الذى كان متجهاً اتجاهاً خالصاً نحو حياة التقشف (كما كان يتميز عن التصوف الحلولى الذى جاء فيما بعد) ، نشأ هذا النوع بتأثير الأفكار المسيحية إلى حد بعيد(٣) . ويمكن أن نتتبع هذا التأثير فى عقائد بعض فرق المعتزلة(٤) بوجه خاص ، الذين شغلوا أنفسهم فى الجدل فى صفات الطبيعة الإلهية ، كما كان يفعل علماء اللاهوت البيزنطيون تماماً . فمن المحتمل أن تكون القدرية أو القائلون بالإرادة الحرة من المسلمين قد استعاروا نظريتهم فى حرية الإرادة من المسيحية مباشرة ، كما نجد المرجئة ، فى إنكارها لنظرية العقاب الأبدى تتفق تمام الاتفاق مع تعاليم الكنيسة فى هذا الموضوع ، وهو رأى يناقض الرأى الذى أجمع عليه أهل السنة من المسلمين (٥) . هذا من جهة ومن جهة أخرى فان الأئمة الذين كانوا أكثر تحمساً للعقائد السنية فى الإسلام

---

(١) المسعودى ج ٢ ص ٣٨٧

(٢) Von Kremer (2), p. 8

(٣) Id. p. 54 and (3). p. 32. Nicholson, p. 231.

(٤) ويقال إن محمد بن الهذيل مؤدب المأمون وأحد فلاسفة المعتزلة قد حول إلى الاسلام ما يزيد على ثلاثة آلاف شخص . (أحمد بن يحيى المرتضى ص ٢٦ س ٧) .

(٥) Von Kremer (2), pp. 3, 7-8. C. H. Becker: Christliche Polemik und islamische Dogmenbildung (Zeitschrift für Assyriologie, XXVI. 1912).

كان لهم تأثير فى تحول الكفار إلى هــــذا الدين ؛ ويستدل على ذلك بالرواية القائلة بأن عشرين ألف مسيحى ويهودى ومجوسى أسلموا يوم مات الإمام الأكبر أحمد بن حنبل(١) وقد ذكر أن أبا الفرج بن الجوزى (١١١٥ — ١٢٠١ م) الفقيه السنى المشهور الذى كان أعلم أهل زمانه وواعظاً معروفاً وكاتباً من أسبق الكتاب ، أنه كان يفخر بأن مثل هذا العدد من الناس قد دخل فى الإسلام على يديه(٢) .

أضف إلى ذلك أن ما أحرزته سيوف المسلمين من نجاح واسع النطاق ، منقطع النظير ، قد زعزع عقيدة الشعوب المسيحية التى أصبحت تحت حكمهم ، ورأت أن هذه الفتوح قد تمت بعون من الله(٣) ، وأن المسلمين قد جمعوا بين النعيم فى الدنيا وبين التوفيق الإلهى ، وأن إله الحرب (كما زعموا) لم يجعل النصر إلا فى أيدى عباده المختارين . وهكذا ظهر نجاح المسلمين دليلا على صدق دينهم .

كان المثل الأعلى الذى يهدف إلى إخوة المؤمنين كافة فى الإسلام من العوامل القوية التى جذبت الناس بقوة نحو هذه العقيدة . ومع أن اعتداد العرب بنسبهم قد عمل مدة أجيال كثيرة على ألا ينال المسلمون المحدثون تلك المزايا التى كان يتمتع بها الجنس الحاكم ، فإنهم قد حصلوا على مكانة مرموقة فى المجتمع ، وهم لا يزالون موالى للقبائل العربية المختلفة ، التى كانوا قد تعودوا بادىء الأمر أن ينضووا تحت لوائها ؛ وفى نهاية القرن الهجرى الأول حققوا لهذا المثل الأعلى مكانه الصادق من العقيدة الإسلامية ، كما حققوا له فى الدولة اعترافاً نظرياً على أقل تقدير(٤) .

ولكن حال المسيحيين لم تكن دائماً قائمة على هذا التسامح الذى كان فى عهد خلفاء صدر الاسلام . فقد كانت تفرض أحياناً ، فى سبيل خدمة المؤمنين المخلصين بعض الحالات التى تضايق الأهالى من غير المسلمين (أو أهل الذمة) بحجة ضمان المزايا الاجتماعية السامية للمؤمنين . وقد قام بعض الخلفاء بمحاولات غير مجدية لاقصائهم عن الوظائف العامة . وأصدر المنصور (٧٥٤ — ٧٧٥ م) ، والمتوكل (٨٤٧ — ٨٦١ م) والمقتدر (٩٠٨ — ٩٣٢ م) والآمر (١١٠١ — ١١٣٠ م) وهو أحد الخلفاء الفاطميين فى مصر ، مراسيم بهذا الصدد ، وصدر مثل هذه المراسيم فى عهد سلاطين المماليك فى القرن الرابع عشر الميلادى(٥) . ولكن مجرد

( ) ابن خلكان ج ١ ص ٤٥

(٢) Wüstenfeld, p. 103.

(٣) Michael the Elder, vol, ii. pp. 412-13. Caetani, vol. v. p. 508

(« إن ما أحرزه العرب من انتصارات على اليونان والفرس لم يكن انتصاراً العرب على شعوب الأقاليم المغلوبة على أمرها وحدها ، وإنما كان ، كما تمثل فى أذهان البيزنطيين الذين يرون يد الله فى كل حادث ، انتصاراً لمبدأ الاسلام على المسيحية والمزدكية بل على المسيحية بنوع خاص ») .

(٤) Goldziher, vol. i. chaps 3, 4.

(٥) وقد أثار آخر هؤلاء السلاطين ما اكتشفه من أمر محاولة المسيحيين إحراق مدينة القاهرة .

(De Guignes, vol. iv, pp. 204-5.) Gottheil, p. 359, Journal Asiatique, IVme série, tome xviii. (1851), pp. 454, 455, 463, 484, 491.

تجدد هذه المراسيم الخاصة بإقصاء الذميين من الوظائف الحكومية دليل على أن مثل هذه الأساليب التي تنطوى على التعصب لم تكن توضع موضع التنفيذ دائماً . والحق أنه يمكن أن تكون هذه المراسيم راجعة بوجه عام إما إلى سخط شائع أثاره السلوك الخشن المتعجرف ، الذى يسلكه الموظفون المسيحيون (١) ، أو إلى سورات من التعصب حملت الحكومة على القيام بأعمال من التعسف تتنافى مع الروح العامة التى ظهر بها الحكم الإسلامى . ولكن مصير هذه الأعمال التعسفية قد آل إلى الزوال فى أسرع وقت .

وتبدأ معاملة الأهلين من المسيحيين بصورة أشد عنفاً منذ عهد هارون الرشيد (٧٨٦ — ٨٠٩م) (١٧٠ — ١٩٣هـ) الذى أمرهم بأن يلبسوا لباساً يميزهم عن غيرهم وأن يتخلوا للمسلمين عن المناصب . ويدلنا أول هذه المراسيم على أنه قلما روعى عهد واحد على الأقل من تلك العهود التى نسبت إلى الخليفة عمر ، وأن هذه المراسيم لم تكن إلى حد كبير أثراً لشعور دينى بحت بقدر ما كانت أثراً للظروف السياسية التى سادت هذا العصر . وطالما تجشم المسيحيون فى ظل الحكم الإسلامى المتاعب بسبب ما أضمره الغرباء من الحكام المسيحيين من سوء الظن فى العقيدة الإسلامية ، كما ظهر ذلك فى علاقاتهم بأمراء المسلمين . وهذه الحالة تفسر لنا ما ارتكبه الإمبراطور البيزنطى ، نقفور Nicephorus من غدر جعلت اسم المسيحى مبغضاً إلى هارون الرشيد(٢). ويمكن أن نرجع كثيرا من اضطهادات المسيحيين في البلاد الإسلامية إما إلى الشك فى ولائهم الذى كانت تثيره دسائس المسيحيين الغرباء وأعداء الإسلام وتدخلهم فى شئونهم ، أو إلى ذلك الشعور السيء ، الذى أثاره ذلك المسلك القائم على الخيانة والقسوة الذى ظهر به هؤلاء الأجانب نحو المسلمين . على أن التعصب الدينى مسئول عن كثير من أمثال هـــذه الاضطهادات ، كما حدث فى عهد الخليفة المتوكل (٨٤٧ — ٨٦١ م) (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) الذى اتخذ نحو المسيحيين إجراءات شديدة من التعسف . فقد استغل هذا الخليفة ما كان قد حدث فى العقيدة الإسلامية من رد فعل قوى للحركات العنيفة التى شنها أهل السنة على النزعات التى قامت على التعقل والتفكير الحر ، والتى كانت قد وجدت مرعى خصيباً فى عهد من سبقهم من الخلفاء — وتقدم باعتباره بطل جماعة المتزمتين من أهل السنة الذين كان السواد الأعظم من النـاس ينتمون إليهم على حين كانت الطبقات العليا (٣) تختلف معها فى الرأى ، والذين كانوا متعطشين للانتقام لتلك الاضطهادات التى كانوا هم قد تعرضوا لها فى عهـد المعتصم والواثق من قبل (٤) ، فأخذ يخطب ودهم عن طريق اضطهاد المعتزلة ، وتحريم كل جدل فى القرآن وأعلن أن القول بخلق القرآن رأى خارج على الدين ، كما أمر بحبس شيعة علىّ وضربهم ، ونبش قبر الحسين بكربلاء ومنع زيارة مشهده . وساهم المسيحيون بنصيب فى المحن التى تعرض لها سائر الخارجين على الدين ، إذ تشدد المتوكل فى تنفيـذ القوانين التى كانت قد صدرت فى عهد من سبقه من الخلفاء ، وميز بين أهل الذمة والمسلمين فى الملبس ، ومنع

(١) Assemani, tom. iii, pars 2, p. c. Renaudot, pp. 432, 603, 607.

(٢) Muir : The Caliphate, p. 475.

(٣) Von Kremer (3), p. 246.

(٤) Muir (1), pp. 508, 516-17.

استخدام المسيحيين فى المناصب العامة ، وضاعف ضريبة الرأس ، وحرم على المسيحيين أن يقتنوا أرقاء من المسلمين ، أو يستخدموا الحمامات التى يستخدمها المسلمون ، وضايقهم بما وضعه من قيود أخرى كثيرة .

ومما هو جدير بالملاحظة أن مؤرخى الكنيسة النسطورية — التى لم يكن بد من أن تقاسى الكثير من هذا الاضطهاد — يعدونه أمراً حديث العهد انفرد به المتوكل وانتهى بوفاته [١] . وقد جدد أحد خلفاء المتوكل وهو المقتدر (٩٠٨ — ٩٣٢ م) (٢٩٥ — ٣٢٠ ﻫ) هذه القوانين التى يظهر بوضوح أن انقضاء نصف قرن عليها قد أدى إلى إهمالها . وقد أدت سورات أخرى من التعصب إلى تخريب كنائس للمسيحيين ومعابد لليهود [٢] ، كما أدى الرعب الذى ألقاه مثل هذا الاضطهاد فى النفوس إلى ارتداد كثيرين عن الكنيسة المسيحية [٣]. ولكن مثل هذا التعسف كان منافياً لروح الإسلام السمحة ، وللتعاليم التى أثرت عن النبى [٤]، وقد حاول الفريق المتعصب ، دون جدوى ، أن يفرضوا تنفيذ هذه الأساليب التعسفية بصفة مطردة إذلالا للأهالى من غير المسلمين . فالعلماء (أى المثقفون ورجال الدين) يقدرون هذه الأمور فيكون ويئنون فى صمت ، على حين يتغاضى عن هذه الأمور أولئك الحكام الذين أوتوا من السلطة ما يمكنهم من أن يقضوا على هذه المفاسد التى تنطوى على الإجرام [٥] . ولا يجوز أن تتخذ الأحكام التى قد تضعها فئة متعصبة من رجال الدين مقياساً لما قامت به الحكومات المدنية من تصرفات : ولن نصادف شيئاً من النجاح إذا أردنا التحقق من هذه الفكرة التى جعلت من الممكن وقوع هذه الصور المنطوية على المبالغة فيما عاناه المسيحيون من متاعب فى ظل الحكم الإسلامى والتى صورها هؤلاء الكتاب الذين زعموا أن فتاوى طائفة معينة من الفقهاء تمثل هذه التصرفات المتباينة . ويظهر أن أمثال سورات الاضطهاد هذه قد أثارها فى بعض الحالات هؤلاء المسيحيون الذين شغلوا مناصب عالية فى خدمة الحكومة من جراء إساءة استعمال سلطتهم فأثاروا على أنفسهم بظلمهم المسلمين شعوراً قويا من الاستياء . وقد قيل إنهم استغلوا مناصبهم العالية فى سلب أموال المؤمنين ومضايقتهم ومعاملتهم بشىء كثير من الغلظة والفحة وتجريدهم من أراضيهم وأموالهم . وقد تقدم المسلمون بالشكوى إلى الخليفة المنصور (٧٥٤ — ٧٧٥ م) (١٣٦ — ١٥٨ ﻫ) والمهدى (٧٧٥ — ٧٨٥م) (١٥٨ — ١٦٩ ﻫ) والمأمون (٨١٣ — ٨٣٣م) (١٩٨ — ٢١٨ ﻫ) والمتوكل

---

(١) مارى بن سليمان ص ٧٩ وما يليها . صليبا بن يوحنا ص ٧١ .

(٢) Gottheil, p. 364 sqq.

(٣) مارى بن سليمان ص ١١٤ (س ١٤ — ١٦)

(٤) ويظهر أن هذا الحديث النبوى قد ورد بصيغ متعددة فروى مثلا «من ظلم معاهدا (يعنى ذميا) وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه » (البلاذرى آخر ص ١٦٢) (ويضيف يحيى بن آدم فى آخر ص ٥٤ قوله « إلى يوم الدين . ») « ويذكره المكين ، المؤرخ المسيحى (ص ١١) بقوله « من عذب أهل الذمة فقد عذبنى . »

(٥) Journal Asiatique, IVme série, tome xix. p. 109 (Paris, 1852.) وانظر أيضاً R. Gottheil: A Fetwa on the appointment of Dhimmis to office. (Zeitschrift für Assyriologie, vol. xxvi, p. 203 sqq.)

(٨٤٧ — ٨٦١ م) (٢٣٢ — ٢٤٧ ﻫ) والمقتدر (٩٠٨ — ٩٣٢ م) (٢٩٥ — ٣٢٠ ﻫ) وإلى كثير من خلفائهم[١] . كما تعرضوا أيضاً لبغض كثير من المسلمين باستخدامهم عيوناً للدولة العباسية ومطاردة أشياع البيت الأموى الذى أقصى عن الحكم[٢]. وفى عصر متأخر اتهم المسيحيون فى زمن الحروب الصليبية باتصالهم بالصليبيين[٣] اتصالا ينطوى على الخيانة ، فجلبوا على أنفسهم قيوداً شديدة الحرج ، ليس من العدل أن نصفها بأنها اضطهاد دينى .

وبمقدار ما كان يشتد العبء على كاهل الشعوب المغلوبة على أمرها كانت تشتد رغبتهم فى تخليص أنفسهم من الشقاء ، فيقولون : «لا إله إلا الله : محمد رسول الله». وعند ما كانت الدولة فى حاجة إلى المال - إذ كانت الحالة تتطلب هذه الزيادة - كانت الحكومة لا تفتر عن إثقال كاهل الشعوب المحكومة بالضرائب، حتى أصبحت حالة الطوائف من غير المسلمين تزداد سوءاً بصورة مطردة ، وكلما ازداد هذا الاضطهاد شدة وعنفاً ازداد دخول الناس فى الإسلام . وإن هذا السجل المظلم الحافل بالفضائح التى امتلأت بها صفحات مؤرخى المسيحيين فى هذا العصر المتأخر ليوحى إلينا بأن الكنائس المسيحية قد أخفقت فى تنمية قوة خلقية متينة كافية لتحمل الحالات المناوئة ، فاذا ما حل الاضطهاد وارتد المسيحيون عن دينهم ، وجب أن نبحث عن هذا الارتداد - كما يظن مؤرخ الكنيسة النسطورية [٤] - فيما ساد رجال الكنيسة من إهمال شامل فى إقامة الشعائر الدينية وما تطرق إلى حياتهم من فساد .

وقد نجد عوامل أخرى ساعدت على تناقص الشعب المسيحى فى هذه الحقيقة القائلة بأن كثيراً من أطفال الأسرى من المسيحيات الكثيرات اللواتى حملن إلى بيوت المسلمين بين طبقة الحريم لم يكن بد من أن ينشئوا على دين آبائهم ، وإن كثيراً من الإغراء كان يقدمه السيد المترف لمولاه المسيحى بإعتاقه ثمناً لتحوله إلى الإسلام . ولكننا لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام ، أو عن أى اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحى . ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التى أقصى بها فرديناند Ferdinand وإزابلا Isabella دين الإسلام من أسبانيا أو التى جعل بها لويس الرابع عشر Louis XIV المذهب البروتستنتى مذهباً يعاقب عليه متبعوه فى فرنسا ، أو بتلك السهولة التى ظل بها اليهود مبعدين عن إنجلترا مدة خمسين وثلثمائة سنة . وكانت الكنائس الشرقية فى آسيا قد انعزلت انعزالا تاماً عن سائر العالم المسيحى الذى لم يوجد فى جميع أنحائه أحد يقف فى جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين . ولهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى

---

(١) Belin, pp. 435-40, 442, 448, 456, 459-61, 479-80.

(٢) Id. p. 435. n. 2.

(٣) Id. p. 478.

(٤) عرض مارى بن سليمان (ص ١١٥ س ١ — ٢) تعليلا لحالات الارتداد هذه التى أعقبت الاضطهاد حول نهاية القرن العاشر بقوله : وأسلم خلق كثير وكان أصل ذلك تهوز الناس فى أديانهم وقبح سيرة الكهنة فى المذابح والبيع وبيوت القدس .

الآن ليحمل فى طياته الدليل القوى على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم (١) .

وقد بقى إلى الآن نحو من خمسين ومائة ألف من نساطرة (٢) الكنائس القديمة التى كانت تقيم فى غرب آسيا وقت الفتح الإسلامى ، وكان يمكن أن يكون عددهم أكثر من ذلك لولا تلك الجهود التى قامت بها كنائس مسيحية أخرى فى نشر تعاليمها ، فكان عدد الكلدين الذين خضعوا لكنيسة رومه سبعين ألفا . وفى سنة ١٨٩٨ انضم إلى الكنيسة الروسية الأرثوذكسية الأسقف النسطورى ماريونان Mar Jonan مع عدة من رجال الكنيسة وخمسة عشر ألفا من النساطرة ، كما تحولت أيضاً جموع من النساطرة إلى المذهب البروتستنتى (٣) . ويباشر بطريق أنطاكية اليعقوبى سلطته القضائية على نحو من ثمانين ألفا من أفراد هذه الكنيسة القديمة ، على حين انقادت خمسة وعشرون ألف أسرة من اليعاقبة الذين يطلق عليهم (Uniat Jacobites) لأمر البطريق الكاثوليكى السورى (٤) . أما فيما يتصل بالكنيسة الأرثوذكسية الإغريقية ، فهناك ثمانية وعشرون ألفا وستة وثلاثون وثمانمائة أسرة بزعامة بطريق أنطاكية ، وأكثر من خمسة عشر ألف شخص برياسة بطريق بيت المقدس (٥) ، على حين بلغ عدد الملكانيين أو الكاثوليك الإغريق قرابة ثلاثين ومائة ألف (٦) . وكان يتبع الكنيسة المارونية ، التى اتحدت مع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية منذ سنة ١١٨٢ م ، ثلاثمائة ألف شخص (٧) .

ومما يثير العجب أن هذه الطوائف المنعزلة المشتتة قد بقيت زمنا طويلا معرضة كما كانت من قبل لتخريب الحرب والوباء والمجاعة (٨) ، تقيم فى بلاد كانت ميدانا لحروب لم تنقطع مدة قرون ، ويجتاحها

---

(١) والواقع أن الحاكم بأمر الله الفاطمى (٩٩٦ — ١٠٢٠ م) كان قد أمر كل اليهود والمسيحيين بأن يغادروا مصر ويهاجروا إلى الأرض البيزنطية ، ولكنه نزل عن رأيه بعد أن توسلوا إليه (مقريزى (١) ص ٩١) ، على أنه قد كان فى مكنته أن ينفذ أمره بالقوة كما فعل السلطان القاسى سليم الأول (١٥١٢ — ١٥٢٠ م) الذى ذبح أربعين ألف شيعى فى سبيل تنفيذ خطته التى كانت ترمى إلى القضاء على كل الخلافات الدينية فى بلاده ، كما أنه أتم هذه الخطة السياسية باستئصال شأفة المسيحيين كذلك . ولكنه ، حين سمح لنفسه بأن يرجع عن هذه الخطة ، لم يكن ثمة شك فى أنه عمل طبقاً للسياسة العامة التى اتخذها الحكام المسلمون بإزاء رعاياهم المسيحيين . (Finlay, vol. v, pp. 29—30.)

(٢) Silbernagl, p. 268.

(٣) Id. p. 354.

(٤) Id. pp. 307, 360.

(٥) Id. p. 25-6.

(٦) Id. p. 335.

(٧) Id. p. 384.

(٨) أنظر : A. von Kremer (1), vol. ii. pp. 490—2.

الأتراك والمغول والصليبيون (١) . وإنه لا يعزب عن أذهاننا كذلك أن الشريعة الإسلامية قد حرمت عليهم أن يعوضوا عن طريق بذل جهود فى سبيل نشر الدعوة ما أصاب عدد هؤلاء المسيحيين من نقص - لو أنهم قد وجهوا العناية إلى هذه الغاية حقاً ، إذ يظهر أن هؤلاء المسيحيين (مع استثناء النساطرة) قد فقدوا الروح التبشيرية حتى قبيل الفتح الإسلامى ، تلك الروح التى يدلنا التاريخ الحافل بكثير من الشواهد على أنه لا يمكن لهؤلاء أن يحيوا بدونها حياة سليمة فى ظل كنيسة مسيحية . ويزعم بعض الباحثين أيضاً أن الرهبنة التى كانت تعتبر مثلا أعلى للتقشف والتى كانت منتشرة فى الشرق انتشاراً واسعاً ، ثم ما جرى عليه المسيحيون من الزواج بواحدة فحسب ، وشعورهم بعدم الاطمئنان ، وما كانوا فيه من الذل — كل ذلك ربما وقف حجر عثرة فى طريق نمو السكان المسيحيين (٢) .

وليس لدينا إلا النزر اليسير من المعلومات التى تتعلق بتحول الناس إلى الإسلام . ويظهر أن المسيحيين فى بداية احتلال العرب لبلادهم قد انتقلوا إلى الاسلام فى جموع هائلة . ويمكن أن نكوّن فكرة ما عن مدى ذلك التحول المبكر إلى الاسلام فى العراق مثلا ، إذا علمنا أن إيراد الضرائب فى عهد عمر كان يتراوح بين ١٠٠ ألف ألف و ١٢٠ ألف ألف درهم ، على حين هبط فى عهد عبدالملك ، أى بعد نحو خمسين عاماً ، إلى أربعين ألف ألف درهم . وبينما يعزى هذا التدهور فى الخراج ، إلى حد كبير ، إلى التخريب الذى كان نتيجة الحروب والفتن فإنه ما زال ينسب أولا وقبل كل شىء إلى هذه الحقيقة ، وهى أن جموعاً غفيرة من الأهلين كانوا قد دانوا بالإسلام ، ومن ثم لم يُطالبوا بعد بدفع ضريبة الرأس (٣) .

وشهدت هذه الفترة ذاتها تحول جماعات كبيرة من نصارى خراسان إلى الإسلام ، كما نقف على ذلك من رسالة لأحد رجال الكنيسة المعاصرين وهو البطريق النسطورى يشوع ياف الثالث Isho Yabh ، وكان قد بعث بهذه الرسالة إلى سمعان Simeon مطران ريڤاردشير Revardashir ورئيس أساقفة فارس . ولا نملك إلا النزر اليسير من الوثائق المسيحية التى ترجع إلى القرن الأول الهجرى ، وتحمل هذه الرسالة الدليل الساطع على طابع الهدوء والمسالمة فى نشر هذا الدين الجديد ، أضف إلى ذلك أن المؤرخين المحدثين لم يفطنوا إلى هذه الرسالة إلا قليلا ، لهذا لا نرى بأساً من أن نذكرها هنا كاملة : «أين أبناؤك ، أيها الأب الذى ثكل أبناءه ؟ أين أهل مرو العظماء ، الذين على الرغم من أنهم لم يشهدوا سيفاً ولا ناراً ولا تعذيباً ، ولم يسيطر على نفوسهم إلا حب التجارة والأخذ منها بنصيب ، تنكبوا الطريق المستقيم وكبكبوا فى هوة الضلال — فى الهلاك المقيم ، وسيقوا إلى الفناء ولم ينج إلا قسيسان (قسيسان بالاسم على الأقل) من نار الكفر المحرقة كما تنتزع جمرتان من اللهيب ؟ واحسرتاه ! واحسرتاه ! على هذه الآلاف المؤلفة التى

---

(١) وقد تتخذ ما حل بالقسطنطينية سنة ١٢٠٤ م من خراب على يد الصليبيين نموذجاً للمعاملة التى لقيها المسيحيون الشرقيون من اللاتينيين . ويشكو ابن العبرى من أن دير حران قد هاجمه الكونت جوسلين Goscelin ، صاحب حمص ، وأنزل به الدمار سنة ١١٨٤ كأنه تماماً واحد من العرب أو من الأتراك (Barhebraeus, (1) vol. ii. pp. 506-8.)

(٢) H. H. Milman, vol. ii. p. 218.

(٣) A. von Kremer (1), vol. i. p. 172.

تحمل اسم المسيحية ، والتى لم يتقدم حتى واحد منها ليهب نفسه ضحية للرب ويريق دماءه فى سبيل الدين الحق . أين كذلك معابد كرمان و بلاد فارس جمعاء ؟ إن الذى أنزل بهم الخسران والدمار لم يكن وساوس إبليس ولا إرادة ملوك الأرض ولا أوامر حكام البلاد — ولكنه نفثة ضعيفة من نفثات شيطان تافه حقير لم تعده الشياطين التى بعثته فى مهمته جديراً بشرف الشياطين ، ولم يمنحه إبليس قدرة على الخداع الشيطانى حتى يستطيع أن يبثه فى بلادكم ، ولكنه بإشارة من أمره هدم جميع الكنائس فى بلادكم فارس . . . وإن العرب ، الذين منحهم الله سلطان الدنيا ، يشاهدون ما أنتم عليه ، وهم بينكم ، كما تعلمون ذلك حق العلم : ومع ذلك فهم لا يحاربون العقيدة المسيحية ، بل على العكس ، يعطفون على ديننا ، ويكرمون قسسنا وقديسى الرب ، ويجودون بالفضل على الكنائس والأديار ، فلماذا إذاً هجر شعبك من أهل مرو عقيدتهم من أجل هؤلاء العرب ؟ ولماذا حدث ذلك أيضاً فى وقت لم يرغمهم فيه العرب ، كما يصرح بذلك أهل مرو أنفسهم ، على ترك دينهم ، بل تعهدوا لهم أن يبقوا عليه آمنا مصوناً إذا هم اقتصروا على أداء جزء من تجاراتهم إليهم . ولكنهم هجروا العقيدة التى تجلب الخلاص الأبدى إبقاء على نصيب من عرض هذه الدنيا الزائلة : تلك العقيدة التى اشترتها وتشتريها حتى هذا اليوم شعوب بأسرها بإراقة دمائها حتى ترث بذلك حياة أبدية . إن شعبك من أهل مرو قد قبلوا عن رغبة أن يغيروا دينهم من أجل جزء من تجاراتهم — بل من أجل ما هو أقل من ذلك[1]» . وقد امتاز عهد الخليفة عمر الثانى (٧١٧ — ٧٢٠ م) ، (٩٩ — ١٠١ هـ) بحركة تحول إلى الإسلام واسعة النطاق : فقام بتنظيم حركة ملؤها الحماسة فى نشر الدعوة ، وقدم للشعوب المحتلة كل لون من ألوان الاغراء لقبول الإسلام ، حتى بمنحهم هبات من المال ، وقد قيل إنه أعطى فى إحدى المناسبات قائداً نصرانياً (بطريقاً) ألف دينار تألفه بها على الإسلام[2] ، كما أمر عمال الولايات بدعوة الذميين إلى الاسلام . وقد قيل إن الجراح بن عبد الله والى خراسان قد أدخل فى الإسلام نحواً من أربعة آلاف شخص[3] ، بل لقد قيل أيضاً إنه كتب إلى ملك الروم لاون الثالث (Leo III) يدعوه إلى الإسلام[4] . وقد ألغى القرار الذى كان قد أصدره عام ٧٠٠ م لوضع حد لما أصاب الخزانة من العجز ، وقد أدى ذلك إلى أن الشخص الذى كان يدخل فى الإسلام لم يعف من دفع ضريبة الرأس ، بل أرغم على أن يظل على أدائها كما كان يفعل من قبل ، حتى ولو أسلم قبل السنة التى تدفع فيها الجزية بيوم واحد ، أو أسلم والجزية فى كفة الميزان[5] . ولم يحتسب الخراج بعد ذلك من أصحاب الأراضى من المسلمين ، بل فرضت عليهم ضريبة أخف من ذلك وهى ضريبة العشر . وكانت هذه الأساليب ، وإن انطوت على خسارة فادحة من الناحية

---

(١) Assemani, tom. iii, Pars Prima, pp. 130—1.

(٢) ابن سعد : الطبقات ، ج ٥ ص ٢٥٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٨٥ .

(٤) محبوب المنبجى ص ٣٥٨ (س ٢ — ٣)

(٥) ابن سعد : الطبقات ، ج ٥ ص ٢٦٢

المالية ، قد صادفت نجاحاً تاماً في الاتجاه الذي كان يريد أن يحققه الخليفة صاحب العقلية التي أشربت الورع والتدين ، فبادرت جموع هائلة إلى الدخول في زمرة المسلمين[١] .

ومع ذلك فلا ينبغي أن نفترض أن مثل هذه الاعتبارات المادية كانت هي المؤثرات الوحيدة الفعالة في تحول المسيحيين إلى الإسلام . وإن ما كتبه القديس يوحنا الدمشقي (الذي عاش في هذا القرن نفسه) ، من الكتب التي ألفها في الجدل تمدنا بلمحات ، عن طريق ما أثاره من جدال في الجهاد الاسلامي الذي يقوم على الحماسة في سبيل تقويض دعائم العقيدة المسيحية . وإن صياغة هذه الرسائل في قالب الحوار وكثرة التكرار في مثل قوله «إذا سألك العربي» ، «إذا قال لك العربي... فأجبه» ... فإن هذه العبارات تعطي مظهراً يكاد يقرب من الحقيقة ويجعلها تبدو كما لو كان المقصود بها تزويد المسيحيين بإجابات حاضرة رداً على الاعتراضات المختلفة التي كان جيرانهم المسلمون يوجهونها إلى العقيدة المسيحية[٢] . وطبيعي أننا لا ننتظر إلا أن يكون سلوك التحدي الذي ظهر به المجادل المسلم قد عرض بصورة بارزة هذه المحاورات ، حيث إنه لم يكن من غرض هذا اللاهوتي الكبير أن يبرر موقف الاسلام فيما يكتب . وكذلك كتب تلميذه ، الأسقف تيودور أبو قرة بعض محاورات[٣] تقوم على الجدل مع المسلمين طرق فيها المتناظرون كل مواطن النزاع بين العقيدتين ، وكان المسلمون ، كما رأينا من قبل ، هم البادئين بالتحدي . ونستطيع بهذا الحوار أن نكوّن فكرة ضئيلة عن النشاط الذي والاه المسلمون في هذه الفترة في عرض قضية الاسلام . قال الأسقف : «تتجه أذهان أبناء هاجر وكل ما لديهم من حماسة نحو إنكار ألوهية الرب : الكلمة ، ويقصرون كل جهودهم على تحقيق هذه الغاية» . [٤] وكان البطريق النسطوري ، طيماثاوس Timotheus يعقد مناظرات في المسائل الدينية بحضرة الخليفة الهادي ، وهارون الرشيد وجمع هذه المناظرات في كتاب لم يعثر عليه للآن [٥] . وقد ضمن طيماثاوس انتخابه لكرسي البطركية إزاء المعارضة النشيطة التي أبداها كثير من أقوى رجال الدين في كنيسته ؛ وكان بين هؤلاء يوسف ، مطران مرو ، الذي وشى به لدى الخليفة المهدي (٧٧٥ — ٧٨٥ م) (١٥٨ — ١٦٩ هـ) ولكن الخليفة قد حثه على قبول الاسلام وكافأه على ارتداده عن دينه القديم بهدايا ثمينة وأسند إليه منصباً من مناصب الدولة في البصرة[٦] .

أما هذه التفاصيل التي تتعلق بالقرنين الأولين للهجرة فإنها يسيرة للغاية ، وتدل على أنه كانت هنالك جهود في نشر تعاليم الاسلام أكثر من دلالتها على وقائع معينة . ويظهر أن أول وثيقة وصلت إلينا وتدل على صورة واضحة من صور الدعوة إلى الاسلام ترجع إلى عهد المأمون (٨١٣ — ٨٣٣م) (١٩٨ — ٢١٨هـ) ،

---

(١) August Müller, vol. i, p. 440.

(٢) Migne : Patr. Gr., tom. 96, pp. 1336-48.

(٣) Migne : Patr. Gr., tom. 97, pp. 1528-9, 1548-61.

(٤) Id. p. 1557.

(٥) عمرو بن متى ، ص ٦٥ .

(٦) عمرو بن متى ، ص ٧٢ .

وهي في صورة رسالة(١) كتبها ابن عم الخليفة إلى عربي مسيحي كريم المحتد، عظيم المنزلة في البلاط، وكان المأمون يحله من نفسه محل الاحترام والتقدير. وفي هذه الرسالة يرجو من صديقه أن يدخل في الاسلام. وكان رجاؤه في لهجة تنم عن الود، وفي لغة تصور بوضوح مسلك المسلمين السمح تجاه الكنيسة المسيحية في ذلك العصر. وتحتل هذه الرسالة في تاريخ الدعوة الاسلامية المبكر مكاناً يكاد يكون فريداً في بابه، ولهذا أوردناها كاملة في الملحق الأول من ملاحق هذا الكتاب(٢). ونجد في ذلك المؤلف نفسه وصفاً لحديث حدث به الخليفة في مجلس يضم أشراف دولته تحدث فيه بأشد اللهجات ازدراء لهؤلاء الذين لم يسلموا إلا طمعاً في الدنيا وجرياً وراء مصالحهم الشخصية، ويوازن بين حالتهم وحالة الذين كانوا يتظاهرون بأنهم من أنصار النبي في الوقت الذي كانوا فيه يتآمرون على حياته. ومع ذلك فكما كان النبي يدفع بالحسنة السيئة، كذلك عقد الخليفة العزم على أن يعامل هؤلاء الناس معاملة لطيفة رقيقة حتى يقضي الله بينهم(٣). وإن تسجيل هذه الشكوى الصادرة من الخليفة لعلى جانب من الأهمية، من حيث إنها تدلنا على أن المسلمين كانوا ينتظرون ويرجون ممن دخلوا في الإسلام حديثاً، اقتناعاً بريئاً خالصاً، كما تدلنا على أن اكتشاف الأنانية والبواعث الدنيئة في اعتناقهم للدين قد جرّت عليهم أشد ألوان اللوم والتقريع.

كان المأمون نفسه شديد التحمس فيما قام به من جهود في نشر الإسلام، فأرسل إلى الكفار حتى إلى من كان يقيم منهم في أقصى أجزاء مملكته كبلاد ما وراء النهر وفرغانه يدعوهم إلى الإسلام(٤)، ولم يسيء في الوقت نفسه استعمال سلطته الملكية، بمحاولة فرض عقيدته على غيره: ذلك أنه لما قدم شخص يدعى يزدانبخت زعيم المانوية في زيارة لبغداد(٥)، وعقد مناظرة مع المتكلمين المسلمين وأفحمه فيها المتكلمون منهم، حاول الخليفة أن يقنعه باعتناق الاسلام. ولكن يزدانبخت أبى ذلك وقال: «نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة، وقولك مقبول، ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم، فلم يبد الخليفة شيئاً من الاستياء لاخفاق محاولته ووكل به حفظة خوفاً عليه من تعصب الغوغاء(٦).

---

(١) رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح بن إسحق الكندي ص ١ — ٣٧. (لندن، ١٨٨٥).

(٢) الملحق الأول. وراجع الملحق الثاني لدراسة نبذة عن مصادر الجدل الاسلامي.

(٣) الكندي، ص ١١١ — ١١٣

(٤) البلاذري، ص ٤٣٠.

(٥) ومن المحتمل جداً أن تكون المناسبة التي دفعت يزدانبخت إلى زيارة بغداد هي دعوة المأمون إلى عقد مجلس عظيم يضم زعماء جميع الطوائف الدينية في ذلك العصر، عند ما وصل إلى مسامعه أن أعداء الاسلام قد جهروا بأن الفضل فيما أحرزه الاسلام من نجاح إنما يرجع إلى السيف لا إلى قوة الحجة: وفي هذا المجلس دحض أئمة المسلمين ما نسب إلى دينهم من هذه التهم، ويقال إن الكفار قد اعترفوا بأن المسلمين قد أفحموهم وأدلوا بحجتهم. (أحمد بن يحيى المرتضى: المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل (British Museum, Or. 3937, fol. 53 (b), II. 9-11).

(٦) كتاب الفهرست ج ١ ص ٣٣٨.

وقد أشار بعض المؤرخين المسيحيين إشارات قليلة إلى حالات رؤساء الدين المسيحي الذين اعتنقوا الاسلام مثل جرجيس George أسقف البحرين ، الذى أسلم حول منتصف القرن التاسع ، وكان قد أقصى عن منصبه لاتهامه ببعض التهم الكنسية (١) . وإن ما يستحق الذكر فى هذا الصدد ما كان من إسلام أخ لجبريل ، مطران فارس ، حول منتصف القرن العاشر ، لأنه قيل إن إسلامه كان موضع اعتراض على لياقة جبريل نفسه لانتخابه بطريقا على الكنيسة النسطورية (٢) .

وفى مستهل هذا القرن ذاته أسلم تيودور Theodore أسقف بيت جرماى Beth Garmai النسطورى ، ولم يذكر المؤرخ الكنسى الذى سجل هذه الواقعة (٣) شيئا عن استخدام أية قوة أو إرغام فى إسلام هذا الأسقف ، ولو أن شيئاً من ذلك حدث لسجله من غير شك . وبعد عدة سنوات (بين سنتى ٩٦٢ ، ٩٧٩ م) ، أسلم كذلك فيلوكسنيوس Philoxenos أسقف آذربيجان اليعقوبى (٤) ، وفى القرن الذى يليه ، فى سنة ١٠١٦ ، ذهب أغناطيوس Ignatius (٥) مطران تكريت اليعقوبى إلى بغداد ودخل فى الاسلام فى حضرة الخليفة القادر ، وكان قد شغل هذا المنصب خمسة وعشرين عاماً (٦) . وكان يكون من الممتع حقاً لو امتدت فاتحة حياة كل من هذين الداخلين فى الاسلام Apologia pro Vita Sua لتكشف لنا عن التطور الدينى الذى احتل مكاناً فى عقلية كل منهما . ويشير المؤرخ المسيحى إلى فساد الخلق ، الذى كان سببا فى التحول عن الدين فى الحالات الثلاث الأخيرة . ولكن مثل هذا الاتهام الذى لم يدعم بشواهد أخرى محل لكثير من الشك (٧) ، وهو يشبه اتهام أحد الكاثوليك الرومان حينما كان يؤرخ تحول كاهن من طائفته إلى المذهب البروتستنتى . وإن ما وصلنا من تحول هؤلاء البارزين من رجال الدين ، إلى الإسلام ، وكانوا من طائفتين متخاصمتين من الطوائف المسيحية ، إنما كان راجعاً من غير شك إلى مكانتهم السامية فى الكنيسة ،

(١) ابن العبرى (١) جـ ٣ ص ١٩٤ .

(٢) مارى بن سليمان ، ص ١٠١ (س ٣ — ٤) .

(٣) ابن العبرى (١) جـ ٣ ص ٢٣٠ .

(٤) ابن العبرى (١) جـ ٣ ص ٢٤٨ .

(٥) ويتخذ كل البطارقة اليعقوبيين اسم اغناطيوس ، ويسمى قبل تقديسه بمرك بر قيقى .

(٦) ابن العبرى ( ) جـ ٣ ص ٢٨٨—٢٩٠ ، Elias of Nisibis, pp. 153—4 . على أنه قد آب إلى الدين المسيحى قبل موته الذى حدث بعد ذلك بحوالى عشرين عاماً . وهنالك حالتان عائلتان مسجلتان فى أخبار بطارقة أنطاكية اليعقوبيين فى القرن السادس عشر : إحداهما حالة بطريق يدعى يشوع اعتنق الاسلام سنة ١٥١٧ ، ولكنه بعد ذلك ارتد وهرب إلى قبرص (التى كانت فى يد البندقيين فى ذلك الحين) ، حيث خر ساجداً عند باب إحدى الكنائس فى خضوع وندم ، وتحمل بذلك جميع الذين وطئوا جسده من الداخلين فى الكنيسة والخارجين منها ؛ أما الآخر ويدعى نعمة الله الذى عاش حول سنة ١٥٦٠ م ، فانه بعد أن ترك المسيحية واعتنق الاسلام ، التمس العفو من البابا جريجورى الثالث عشر فى رومه . (ابن العبرى (١) جـ ٢ ص ٨٩٧—٨٩٨) .

(٧) والواقع أن إلياس النصيبى ، المؤرخ المعاصر لتحول البطريق اليعقوبى إلى الاسلام ، لم يتعرض لذكر شىء من مثل هذه المفاسد ، كذلك لم يذكر مارى بن سليمان (ص ١١٥ — ١١٦) شيئاً منها وهو مؤرخ الكنيسة النسطورية المنافسة الكنيسة اليعقوبية ، مع أنه يتهمه بأنه قد خرب الآنية المقدسة وتصاوير الكنائس ، وكما يقول رايت Wright, (Syriac Literature, p. 192) عن يوسف ، بطريق مرو : « لسنا فى حاجة إلى الاعتقاد فى كل المساوىء التى يخبرنا عنها ابن العبرى عن هذا الرجل المسكين » .

على حين لم يسجل المؤرخون تحول غير هؤلاء إلى الاسلام من الأفراد الذين لم يكن لهم شأن يذكر . وكلما اقترب ابن العبرى بتاريخه الكنسى من عصره ، يقدم تفاصيل أوفى عن حياة أمثال هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام ؛ مثال ذلك ما ذكره فى منتصف القرن الثانى عشر حين دوّن ما وقع فيه بعض الأساقفة اليعاقبة ، من سقطات عامة ، ويخص بالذكر هارون أسقف إحدى المدن فى خراسان ، نظراً إلى أنه قد أسلم بعد أن ثبتت عليه إحدى الزلات الخلقية . ولما ندم على تحوله عن دينه . أراد أن يسترد مركزه الأسقفى ، ولكنه لما رفض طلبه ، ذهب إلى القسطنطينية وأنكر مبادىء الكنيسة اليعقوبية ؛ غير أن المقابلة التى لقيها فى القسطنطينية قد أثارت ، فى نفسه روح السخط والتذمر ، فرجع إلى البطريق اليعقوبى ، ثم انتقل ثانية إلى الإسلام (بدون أى مبرر) ، وعندئذ ندم للمرة الثانية ، وأخيراً قضى أواخر أيامه بين مارونيى جبل لبنان(١). وقد سعى دانيال أسقف خابور الذى كان يعاصر ابن العبرى ، فى منتصف القرن الثالث عشر، والذى قيل إنه كان بارعاً فى العلوم الدنيوية ، ليعين فى أبرشية حلب ، ولكنه لما أخفق فى مسعاه هجر العقيدة المسيحية ، وجلب بإسلامه الحزن والعار على الشعب المسيحى بأسره . ولكن الله (له المجد !) سرعان ما عزى شعبه المحزون ، وأذهب العار عن الشعب الذى خلصه الرب ؛ إذ بعد أشهر قلائل مات هذا الشقى التعيس بائساً فى إحدى محطات القوافل ؛ واندثر اسمه وأقصى عماً ، ولا يعرف أحد مستقره » (٢).

على أنه وإن كان التحول إلى الإسلام ليس بمجرد أمثلة فردية ، فإن لدينا شاهداً فيما أورده جاك دى ڤترى Jacques de Vitry أسقف عكا (١٢١٦—١٢٢٥م) ، الذى تحدث عن الكنيسة الشرقية بما له من خبرة عن شئونها فى الأراضى المقدسة ، فقال : « حين عملت تلك المغريات . . . التى جاء بها النبى . . . على استضعاف هـــذه الكنيسة وإيقاعها فى الشرك على صورة تبعث على الألم المرير ، انغمرت الكنيسة واعتنقت . . . وكانت من قبل تتقلب فى أعطاف النعيم »(٣) . (†)

وإلى ذلك الحين كانت الكنائس المسيحية التى وصفت بأنها قد دخلت فى نطاق تأثير الحكم الإسلامى عبارة عن الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية والطوائف الخارجة عن الدين التى تفرعت عنها . ولكن بانتهاء القرن الحادى عشر الميلادى انضم إلى أهالى الشام وفلسطين من المسيحيين عنصر جديد يتألف من هذه الجموع الهائلة من الصليبيين الذين كانوا يدينون بشعائر الأمم اللاتينية ، واستقروا فى مملكة بيت المقدس وسائر الولايات التى أسسها الصليبيون ، وظلت تعيش مهددة قرابة قرنين من الزمان . وفى غضون هـذه الفترة كانت تحدث من حين لآخر تحولات إلى الإسلام من بين هؤلاء المهاجرين الغرباء . ففى الحرب الصليبية الأولى مثلا ، انشق على الطائفة الرئيسية جماعة من الألمان واللومبارديين بزعامة فارس مشهور يدعى

(١) ابن العبرى (١) ، جـ ٢ ص ٥١٨ .

(٢) نفس المرجع جـ ٢ ص ٧١٢ وما يليها .

(٣) Historia Orientalis, C. 15 (p. 45).

(†) ورد على لسان هذا الأسقف عبارات تمس الاسلام ونبيه الكريم فآثرنا عدم ذكرها ، وهى تنطوى على روح من التعصب .

Rainaud وحاصرهم السلطان أرسلان السلجوقى فى إحدى القلاع ، وتظاهر هو وخاصة أتباعه بالقيام بهجوم على محاصريهم فى الخارج ، فتركوا رفاقهم التاعسين وانتقلوا إلى الأتراك حيث اعتنقوا الاسلام بينهم (١).

ويمثل لنا تاريخ الحرب الصليبية الثانية ، تلك الحرب المشئومة ، حادثة على جانب عظيم من الأهمية وهى شبيهة بتلك الحادثة . والقصة كما ذكرها أودو الدويلى Odo of Deuil أحد رهبان القديس دينيس Denis الذى كان يشغل وظيفة قسيس خاص للويس السابع ، وصحبه فى هذه الحرب الصليبية ، فكتب فى وصفها نبذة هذا نصها : بينما كان الصليبيون يحاولون شق طريقهم براً عن طريق آسيا الصغرى إلى بيت المقدس ، منوا بهزيمة فادحة على أيدى الترك فى ممرات فريجيا Phrygia الجبلية (١١٤٨م) وبلغوا مدينة أتاليا Attalia الساحلية بشق الأنفس . وهنا ، تمكن جميع الذين استطاعوا أن يرضوا المطالب الفادحة ، التى كان يفرضها عليهم تجار الاغريق ، من الابحار إلى أنطاكية ، بينما خلفوا وراءهم المرضى والجرحى وعامة الحجاج تحت رحمة الخونة من حلفائهم الاغريق الذين أخذوا مبلغ خمسمائة مارك من لويس ، على شريطة أن يمدوا الحجيج بقوة من الحرس ، وأن يعنوا بالمرضى حتى يصبحوا من القوة بحيث يمكن إرسالهم ليلحقوا بسائر زملائهم . ولكن ، لم يكد الجيش يغادر المكان حتى أخبر الاغريق الترك بموقف الحجيج الأعزل ، وراقبوا فى صمت ، ما أصاب هؤلاء التاعسين من المجاعة والمرض وسهام العدو التى جرت عليهم الدمار والخراب وهم فى طريقهم إلى معسكرهم . وحاولت جماعة تبلغ ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف ، أن تلوذ بالفرار بدافع من اليأس ؛ ولكن الترك ، الذين كانوا قد بلغوا المعسكر وهجموا عليه ليتابعوا انتصارهم ، أحدقوا بهم ومزقوهم شر ممزق . وكان يكون موقف من نجا من الموت منهم قد بلغ حد اليأس ، لو أن منظر شقائهم لم يذب قلوب المسلمين ويستدر شفقتهم . فواسوا المرضى وأغاثوا الفقير والجائع الذى أشرف على الهلاك ، وبذلوا لهم العطاء فى كرم وسخاء . بل لقد اشترى بعضهم النقود الفرنسية ، التى ابتزها الاغريق من الحجاج بالقوة أو الخداع ، ووزعوها بسخاء بين المعوزين منهم . فكان البون شاسعاً بين المعاملة الرحيمة التى لقيها الحجاج من الكفار وبين ما عانوه من قسوة إخوانهم المسيحيين من الاغريق الذين فرضوا عليهم السخرة ، وضربوهم ، وابتزوا منهم ما تُرك لهم من متاع قليل ، حتى إن كثيراً منهم دخلوا فى دين منقذيهم بمحض إرادتهم . وكما يقول المؤرخ القديم : «لقد جفوا إخوانهم فى الدين الذين كانوا قساة عليهم ، ووجدوا الأمان بين الكفار الذين كانوا رحماء عليهم ، ولقد بلغنا أن ما يربو على ثلاثة آلاف قد انضموا بعد أن تقهقروا إلى صفوف الأتراك . آه ، إنها لرحمة أقسى من الغدر ! لقد منحوهم الخبز ، ولكنهم سلبوهم عقيدتهم ، ولو أن من المؤكد أنهم لم يكرهوا أحداً من بينهم على نبذ دينه ، وإنما اكتفوا بما قاموا لهم من خدمات» (٢).

(١) De Guignes, tome ii. (Seconde Partie), p. 15.

(٢) Odo de Diogilo. (De Ludovici vii. Itinere. Migne, Patr. Lat., tom. cxcv. p. 1243.)

ولكى يتجنبوا أنصار دينهم الذين كانوا يقسون عليهم ، ذهبوا آمنين إلى الكفار الذين كانوا يشفقون عليهم . وقد انضم أكثر

وإن زيادة اختلاط المسيحيين بالمسلمين وتقدير الصليبيين لفضائل خصومهم تقديراً أخذ ينمو على مر الزمن ، وهي ظاهرة تميز المتأخرين من مؤرخي الحروب الصليبية عن السابقين منهم تمييزاً واضحاً جلياً (١)، ثم ما كان من كثرة تقليد الفرنجة المقيمين في الأراضي المقدسة للشرقيين في عاداتهم وأساليب حياتهم - إن ذلك كله لم يخفق في إيجاد تأثير متبادل في الأفكار الدينية . ومن أظهر ألوان هذا التأثير ، ذلك المسلك السمح الذي سلكه كثير من الفرسان المسيحيين نحو العقيدة الإسلامية ؛ وهو اتجاه فكري كان أشد ما تشكو منه الكنيسة . ولما زار أسامة بن منقذ ، وكان أحد أمراء الشام في القرن الثاني عشر ، بيت المقدس ، في فترة من فترات الهدنة ، خصص له فرسان المعبد The Knights Templar ، الذين كانوا قد احتلوا المسجد الأقصى زاوية صغيرة ملحقة به ، ليقيم فيها الصلاة ، واستاءوا استياء شديداً من تدخل أحد الصليبيين ، وكان قد قدم حديثاً ، واتجه هذه الوجهة الجديدة في سبيل الحرية الدينية(٢). وكان يكون مثيراً للدهش حقاً ، لو لم تكن المسائل الدينية مثار جدل في المناسبات الكثيرة ، حيث كان يلتقي الصليبيون بالمسلمين اقساء ودياً أثناء المهادنات الكثيرة ، لا سيما إذا عرفنا أن الدين نفسه هو الذي أتى بالصليبيين إلى الأراضي المقدسة وحملهم على شن هذه الحروب الدائمة . بل إن علماء اللاهوت المسيحي ، حين أدى اختلاطهم بالمسلمين اختلاطا شخصياً إلى إتسكون رأى أكثر إنصافاً عن ديانة المسلمين ، وزعزع الارتباط بأساليب التفكير الحديثة أفكار الناس ، وأثار ألوان الزندقة ، فليس بغريب أن ينجذب كثيرون إلى حظيرة الإسلام (٣) . وكان عدد المرتدين (عن المسيحية) في القرن الثاني عشر الميلادي كثيراً كثرة نلاحظها في سجلات الصليبيين القانونية التي يطلق عليها ، مجالس قضاء بيت المقدس ، Assises of Jerusalem والتي لم تقبل بموجبها كفالتهم في حالات معينة (٤) .

وقد يكون من الممتع أن نعرف من هم هؤلاء المسلمون الذين توفروا على كسب هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام ، ولكن يظهر أنهم لم يخلفوا سجلا بأعمالهم . على أننا نعلم أن صلاح الدين العظيم نفسه ، كان على رأسهم ، وهو الذي وصفه كاتب سيرته بأنه قدم محاسن الإســلام بين يدي ضيفه المسيحي ، وحثه على اعتناقه (٥) .

ويظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته التي انطوت على البطولة قد أحدثت في أذهان المسيحيين في

من ثلاثة آلاف شاب — كما سمعنا — إلى الذين رحلوا إلى هؤلاء الكفار . آه ! أيها التقوى ، كم أنت اقسى من ضروب الخيانة كلها ! إنهم قد منعوهم الخبز ، وجردوهم من الايمان غير أن من المحقق أنهم على رصاص بالعبودية ، لم يرغموا أحداً على إنكار عقيدته ،،،

(١) Guizot : Histoire de la çivilisation en Europe, p. 234. (Paris, 1882.)

(٢) أسامة بن منقذ ، ص ٩٩ .

(٣) Prutz, pp. 266-7.

(٤) Assises de la Cour des Bourgeois, (Recueil des historiens des Croisades, Assises de Jérusalem, tome ii, p. 325.)

(٥) بهاء الدين بن شداد ص ٢٥

عصره تأثيراً سحرياً خاصاً ، حتى إن نفرا من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أنهم هجروا ديانتهم المسيحية وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين ؛ وكذلك كانت الحال ، عند ما طرح النصرانية ، مثلا ، فارس إنجليزى من فرسان المعبد ، يدعى روبرت أوف سانت ألبانس Robert of St. Albans فى سنة ١١٨٥ م ، واعتنق الإسلام ثم تزوج باحدى حفيدات صلاح الدين (١) . وبعد عامين ، غزا صلاح الدين فلسطين وهزم الجيش المسيحى هزيمة منكرة فى واقعة حطين ، وكان جوى Guy ملك بيت المقدس بين الأسرى . وحدث فى مساء المعركة أن ترك الملك ستة من فرسانه ، قد حلت فيهم روح شريرة ، وفروا إلى معسكر صلاح الدين حيث أسلموا بمحض إرادتهم (٢) . ويظهر أن صلاح الدين ، كان قد تفاهم ، فى الوقت نفسه مع ريموند الثالث Raymund III كونت طرابلس الشام ، على أن يوعز إلى أتباعه بترك العقيدة المسيحية والتحول إلى جانب المسلمين ؛ ولكن موت هذا الكونت المفاجىء قد وقف بصورة فعالة فى سبيل تنفيذ هذه الخطة (٣) .

وقد حفز سقوط بيت المقدس والانتصارات التى أحرزها صلاح الدين فى الأراضى المقدسة ، أهل أوربا للقيام بالحرب الصليبية الثالثة ، التى كان أهم أحداثها حصار عكاء (١١٨٩ — ١١٩١ م) . وإن ماتعرض له الجيش المسيحى من آلام مروعة ، من جوع ومرض ، قد دفع كثيرين منهم إلى الفرار والتماس ما يخلصهم من ألم الجوع فى معسكر المسلمين . ومن هؤلاء الفارين ، كثيرون قد رجعوا مرة أخرى ، بعد فترة من الزمن ، إلى جيش الصليبيين ؛ ومنهم كثيرون آثروا أن يساهموا بنصيب مع المسلمين ، فالتحق فريق منهم بخدمة أعدائهم السابقين ، ولكنهم ظلوا على ولائهم للدين المسيحى . وقد (علمنا أنهم) كانوا راضين كل الرضى عن سادتهم الجدد ، على حين اعتنق آخرون الإسلام وأصبحوا قوماً صالحين (٤) . وكذلك سجل المؤرخ ، الذى رافق ريتشارد الأول فى هذه الحرب الصليبية ، تحول هؤلاء الفارين إلى الإسلام فقال : « وفريق من رجالنا (الذين لا نستطيع أن نتحدث عن مصيرهم أو نسمع عنه دون أن يحز فى نفوسنا ألم مرير) قد استسلموا لقسوة المجاعة المرة ، فتجشموا فى سبيل إنقاذ أبدانهم ، هلاكاً أبدياً لأرواحهم . إذ أنه بعد انقضاء الجزء الأكبر من هذه المحنة تراهم يهجرون بنى جلدتهم ويفرون إلى الأتراك : فلم يترددوا فى أن يصبحوا فى زمرة المرتدين ؛ ولكى يطيلوا زمناً قصيراً أعمارهم الموقوتة اشتروا موتاً أبدياً بهذا الكفر المفزع . أيتها المساومة الملعونة ! أيتها الفعلة المخزية التى لا يكفر عنها أى عقاب ! أيها الرجل الأحمق الذى يشبه البهائم البله ! إنك إن فررت من الموت المحتوم الذى لا مفر من أن يأتى عاجلا فلن تفر من الموت الأبدى (٥) » .

(١) Roger Hoveden, vol. ii. p. 307.

(٢) Benedict of Peterborough, vol. ii. pp. 11-12.

(٣) Id., vol. ii. pp. 20-1. Roger Hoveden, vol. ii pp. 316, 322.

(٤) أبو شامة : ص ١٥٠ .

(٥) Itinerarium Peregrinorum et Gesta Regis Richardi, p. 131. (Chronicles and Memorials of the reign of Richard I. Edited by William Stubbs.) (London, 1864.)

ومنذ ذلك الحين لا نعدم أخبـــاراً عن المرتدين عن المسيحية ، فيما كتبه هؤلاء الذين رحلوا إلى الأراضى المقدسة وغيرها من بلاد المشرق . وإن صيغة القسم التى عرضها على القديس لويس أولئك المسلمون الذين أسروه حين طولب بأن يتعهد بأداء ما فرض عليه من الفدية (١٢٥٠م) ، كانت من إملاء بعض المسلمين الذين كانوا قسيسين من قبل ثم اعتنقوا الإسلام [١] . وبينما كانت عملية الفداء لا تزال جارية ، جاء مرتد آخر ، وكان فرنسيا ولد ببروفنز وقدم هدية إلى الملك : وكان هذا الفرنسى قد صحب يوحنا ملك بيت المقدس فى حملته على دمياط سنة ١٢١٩ م ، وبقى فى مصر وتزوج بامرأة مسلمة وصار سيداً يشار إليه بالبنان فى تلك البلاد [٢] . وكان خطر الدخول فى الإسلام ، وهو ما كان يستهدف له حجاج الأراضى المقدســـة ، قد شاع أمره فى ذلك العصر بصورة واضحة ، حتى إن أمورى دى لاروش Amaury de la Roche رئيس فرسان المعبد the Knights Templar التمس من البابا وتوابه فى فى فرنسا وصقلية ، فى مذكرة دونها حوالى سنة ١٢٦٦ ، أن يمنعوا الفقراء والشيوخ والعاجزين عن حمل السلاح من عبور البحر إلى فلسطين ، لأن أمثال هؤلاء الأشخاص كانوا يتعرضون إما للقتل أو الأسر ، أو لأن يفتنهم العرب عن دينهم [٣] . ويتحدث لودولف دى سوشم Ludolf de Suchem الذى تنقل فى الأراضى المقدسة من سنة ١٣٣٦ إلى سنة ١٣٤١ عن ثلاثة من المرتدين وجدهم فى حبرون [†] . وكانوا قد قدموا من أبرشية مندن Minden ودخلوا فى خدمة فارس من فرسان وستفاليا ، كان السلطان وغيره من أمراء المسلمين يكرمونه ويحترمونه [٤] .

ولا شك أن هذه الأخبار المبعثرة ، تحمل الدليل على أن تحول المسيحيين إلى الإسلام الذى لم يصلنا عنه أى خبر كان على نطاق أوسع : فمن ذلك ما يقال من أن خمسة وعشرين ألفاً من المرتدين عن المسيحية كانوا فى مدينة القاهرة حول نهاية القرن الخامس عشر [٥] ، ولا بد أنه كان هنالك أيضاً كثيرون من هؤلاء المرتدين ، فى مدن الأراضى المقدسة بعد زوال الإمارات اللاتينية فى الشرق . ولكن يظهر أن المسلمين الذين أرخوا هذه الفترة ، قد بلغ من شدة انهماكهم فى تسجيل مآثر الأمراء ، وتقلبات الدول أنهم لم يوجهوا عنايتهم إلى التغير الدينى الذى طرأ على حياة الأفراد المغمورين ؛ (وبقدر ماهدانا إليه البحث) فقد كانت ملاحظتهم ، فى تتبع أخبار دخول المسيحيين فى الإسلام ، قليلة كقلة ملاحظتهم فى دخول أبناء

---

(١) Joinville, p. 238.

(٢) Id. p. 262.

(٣) Mas Latrie (1) vol. ii. p. 72.

(†) قرية تعرف الآن بالخليل ، على بعد ١٨ ميلا من القدس إلى الجنوب .

(٤) Ludolf de Suchem p. 71.

(٥) Lionardo Frescobaldi, quoted in the preface of Defrémery and Sanguinetti's edition of Ibn Batutah, vol. i. p. xl.

دينهم فى المسيحية . فنحن مضطرون ، نتيجة لذلك ، أن نعتمد ، فى الوقوف على كل من هذين النوعين من الأحداث ، على الكتاب المسيحيين ، الذين نجد أنهم فى الوقت الذى أمدونا فيه بأخبار مفصلة تنم على عطف على المتنصّرين ، يحملون شهادة تنطوى على عدم الرضا عن وجود أمثلة من الداخلين فى الإسلام ، ويصورون بواعث الذين ارتدوا عن دينهم ودخلوا فى الإسلام فى أحط صورة ممكنة . وربما لم يتسرب إلى ذهن كاتب من هؤلاء الكتاب أن دخول أى مسيحى فى الاسلام ، عن اقتناع صادق ، كان أمراً ممكناً . ولو فرضنا أن مثل هذه الفكرة قد تسرب إلى أذهانهم ، لكان من الصعب أن يجازفوا بتعريض أنفسهم لفظاعة العقاب الكهنوتى ، بعرضه عرضاً صريحاً .

ومن الأمثلة التى تدل على أن تدوين مايتعلق بمثل هذا التحول إلى الإسلام كان نادراً ، هذه القصة التى أمدنا بها الفيرر هيمندورف Fürer von Haimendorf الذى كان فى القاهرة سنة ١٥٦٥ ، عن إسلام عالم ألمانى ، تلقى دراسته بجامعة ليبزج Leipzig ؛ قال : « ولكن بينما كنا نمضى هذا الوقت فى القاهرة حدث أن رجلا يدعى يوستوس ستيفن الألمانى ، الذى ينتسب إلى هاملينا Hamelensis والذى كان يقيم معنا فى بيت واحد ، قد أنكر الديانة المسيحية ، وقدم نفسه لاعتناق الديانة الإسلامية وإجراء الختان . وكان رجلا عالماً يقول لنا دائماً إنه درس طويلا فى وتنبرج وليبزج ، ولكنه لما سئل عن ذلك الأمر قال إنه الآن يملك روحاً خاصة ، ليس فى مقدوره أن يفعل أو يفكر بدون وحى منها . ولقد أثار جحود هذا الرجل تفكيرنا كثيراً ، والحق أنه دفعنا إلى الفرار . وفى هذا اليوم نفسه طِيف كذلك ، برجل يهودى فى المدينة كان قد اعتنق الإسلام قبل ذلك بأيام قليلة ، فى موكب من مواكب النصر . وقد أخبرنا بعض الانكشارية أن هذا العمل ذاته سوف يحدث لستيفن نفسه » .(١)

ومن هذه المصادر التى أوردناها آنفاً معلومات قليلة تتعلق بعدد الذين تحولوا إلى الاسلام ، وأخرى تتعلق بالجهود التى قامت لنشر الدعوة والتى بذلت لحثهم على تغيير عقيدتهم . ومن البواعث التى طالما علل بها هؤلاء المؤرخون التحول إلى الاسلام ، رغبة المسيحيين فى التخلص من عقوبة الموت بالارتداد عن دينهم . وكثيراً ما ذكر الرحالة الأوربيون أمثال هذه الحالات . ومن هذا النوع مثال متأخر نختاره هنا ، لجمال تصويره وحسن عبارته ، من تقرير أحد أفراد الجزويت الذى كان بالقاهرة سنة ١٦٢٧ ؛ فقد رأى رجلا من القبط كان قد أسلم نفسه إلى ذلك التيار ، « تارة بدافع العاطفة وتارة بقوة الغيرة الطائشة ، فقتل أخاه بيده حاقداً عليه أن ترك يسوع المسيح ، على صورة من الجبن والتهرب ، وراح يعتنق الاسلام تخلصاً من مضايقة الأتراك . وقبض على هذا المسكين فى الحال وهو متلبس بجريمته ، واعترف فى جرأة بأن هذا الكافر بدينه ، الذى لايستحق أن يكون أخاً له ، لم يستطع أن يمحو هذه الوصمة السوداء إلا بدمه . وقد ألح

(١) Christophori Füreri ab Haimendorf Itinerarium Aegypti, p. 42. (Norimbergae, 1620.)

المسلمون عليه أن يترك دينه إبقاء على حياته ، ; ولكنه قرر أنه مصر على أن يموت مسيحياً ، غير أن هذا العذاب، الذى صبه عليه أولئك الذين وُكل إليهم أمر تعذيبه . قد أوهن من عزمه فأذعن فى اللحظة الأخيرة.

ولقد حولته هذه الكارثة فى لحظة من مؤمن إلى مرتد ، ومن شهيد إلى كافر ، ومن قديس إلى آثم ، ومن ملاك إلى شيطان رجيم . فأقر بالدين بل أقر بالغدر والخيانة على وفق أساليب المسلمين ... فأطلقت له الحرية ، لاحرية أبناء الرب ، ولكن حرية الأبناء الخاسرين ، . ثم حمله تأنيب ضميره ، آخر الأمر ، على أن يرتد فقتله المسلمون(١) .

وقد صور الراهب بركارد Burchard (٢) السكان المسيحيين عند ما كتب حول عام ١٢٨٣م أى قبل أن يطرد الصليبيون من آخر معاقلهم ، وقبل أن يزول النفوذ اللاتينى فى الشرق نهائياً بسنوات قليلة ، بأنهم يفوقون المسلمين عدداً فى كافة أنحاء العالم الإسلامى ، وأن نسبة عدد المسلمين (فيما عدا مصر وبلاد العرب) كانت لا تزيد على ثلاثة أو أربعة فى المائة من جميع السكان . ولا شك أن هذه اللهجة مبالغ فيها ، ومن المحقق أن الراهب الطيب قد اندفع فيما زعمه بظنه ان ما شاهده فى مدن الصليبيين ومملكة أرمينية الصغرى ينطبق تمام الانطباق على سائر جهات الشرق . على أن من الجائز أن نتخذ كلماته هذه فى الواقع ، دليلا على أن التحول إلى الإسلام لم يكن فى عهد الصليبيين حركة واسعة النطاق، وأن المسلمين ، حينما استردوا سلطانهم على الأراضى المقدسة ، بسطوا على المسيحيين نفس روح التسامح التى كانت من قبل ، وذلك بأن جعلوهم « يشترون السكينة والسلام » بأداء الجزية . وهذا يحمل على الظن بأن ما حدث من التحول إلى الإسلام إنما كان عبارة عن حالات فردية من المسيحيين الذين أشربوا العقيدة الاسلامية فى أذهانهم قبل أن يقدموا على الخطوة الأخيرة . وقد أوردنا من قبل أمثلة من المسيحيين الذين دخلوا فى خدمة سادتهم من المسلمين وتمتعوا بحريتهم الدينية إلى أبعد حد ، وقد ميزت مجالس قضاء بيت المقدس Assises of Jerusalem بين « هؤلاء الذين كفروا بالله واتبعوا شريعة أخرى » و « بين جميع الذين قاموا بخدمات عسكرية للعرب

(١) Le Voyage en Ethiopie entrepris par le Père Aymard Guérin. (Rabbath, pp. 17-18.)

(٢) ومما هو جدير بالذكر حقاً أنه على الرغم من أن بعض الناس يظن خلاف ذلك فيميل إلى تأكيد شىء لم يره رأى العين ، وهو أن الشرق كله ، فيما وراء البحر والهند وإثيوبيا يعترف بالمسيح ويبشر باسمه ما عدا العرب وبعض الأتراك الذين يقيمون فى كبادُكيا فانى أؤكد فى ثقة تأكيد من رأى رأى العين وسمع ذلك من قوم آخرين أنك ستجد دائماً فى كل مكان وفى كل مملكة عدا مصر وبلاد العرب حيث تقطن جموع غفيرة من العرب وبعض أتباع محمد ، نسبة المسيحيين إلى المسلمين كنسبة الثلاثين أو أكثر إلى الواحد ؛ ذلك أن جميع المسيحيين، عبر البحر ، إنما هم فى الواقع غرباء ينحدرون من أصل شرقى ، وعلى الرغم من أنهم مسيحيون ، إلا أنهم نظراً إلى عدم خبرتهم الواسعة فى حمل السلاح ، كانوا سرعان ما يخضعون إذا داهمتهم جيوش العرب والتتار أو غيرهم فيشترون السلم والأمان منهم بدفع الجزية ثم يعين العرب أو من يملكون ناصية الحكم فيهم مشرفين على أمرهم وجباة للضرائب فى تلك الأراضى ، ومن ثم أصبحت تلك المقاطعة تسمى مملكة العرب مع أن جميع سكانها فى الواقع مسيحيون عدا المشرفين وجباة الضرائب أنفسهم وبعض حاشيتهم ، كما رأيت بنفسى فى سيلزيا وأرمينية الصغرى التى تخضع لحكم التتار .

(Burchardi de Monte Sion Descriptio Terrae Sanctae. p. 90.)

وغيرهم من الأشرار ، يناوئون بها المسيحيين مدة أكثر من عام ويوم . »[١]

ومن المؤكد أن المسيحيين من أهالى هذه البلاد قد آثروا حكم المسلمين على حكم الصليبيين [٢] . ويظهر أن أهالى فلسطين من المسيحيين ، لما وقع بيت المقدس فى أيدى المسلمين نهائياً (سنة ١٢٤٤ م) رحبوا بالسادة الجدد واطمأنوا إليهم ورضوا بحكمهم [٣] .

كذلك دفع هذا الشعور نفسه ، شعور الاطمئنان إلى الحياة الدينية فى ظل الحكم الاسلامى ، كثيراً من مسيحيى آسيا الصغرى ، فى إبان هذه الفترة ذاتها ، إلى الترحيب بمقدم الأتراك السلاجقة ، باعتبارهم مخلصين لهم من الحكومة البيزنطية البغيضة ، لابسبب نظام الضرائب المجحف وحده ، ولكن بسبب روح الاضطهاد التى ظهرت بها الكنيسة الاغريقية ، والتى قمت بمثل هذه القسوة ، بدع أصحاب بواس ومحطمى الصور والتماثيل Iconoclasts[†] كذلك . وطالما دعا الأهلون الأتراك فى عهد ميخائيل الثامن ، إلى الاستيلاء على مدنهم الصغيرة فى داخل آسيا الصغرى ، تخلصاً من استبداد الدولة ، وكثيراً ما هاجر الأغنياء منهم والفقراء إلى الولايات التركية [٤] .

وقد بقى لدينا بعض معلومات نوردها هنا عن كنيستين أخريين من كنائس آسيا الغربية ، ونعنى بهما كنيسة أرمينية وكنيسة جورجيا . أما كنيسة أرمينية فإن من الممكن أن يقال عنها إن ما قدمه أفرادها فى سبيل زيادة عدد الداخلين فى الإسلام ربما كان أقل (وهذا بالنسبة إلى عدد أفراد الطائفة) مما قدمته أية كنيسة من الكنائس الشرقية التى خضعت للحكم الإسلامى . وعلى الرغم من الأهمية التى تتعلق بقصة كفاح هذا الشعب الباسل للمطامع الطاغية ، وقصة تفانيه فى الدين المسيحى ـ خلال قرون الحروب والمظالم ، والتنكيل والتشريد ـ فليس الغرض من هذا الكتاب أن نذكر أكثر من أن نبين بإيجاز مدى ارتباط هذا

---

(١) Recueil des historiens des Croisades. (Assises Jérusalem, tome i. p. 325.)

(٢) Prutz, pp. 146-7, 150

(٣) وفيما يلى ما كتبه رؤساء الكنائس فى الأراضى المقدسة سنة ١٢٤٤ م ، بشأن محاربة الخوارزميين الذين كان السلطان أيوب قد استقدمهم لمعاونته فى طرد الصليبيين : — ،، وكانوا ينطلقون فى كافة أنحاء المعمورة ، حتى مدينة الناصرة وسافد ، بحرية دون أية مقاومة ، ويحتلونها ، ويقسمونها فيما بينهم كما لو كانت ممتلكاتهم . وكانوا يتركون فى القرى والضياع قواداً وسفراء يتولون أمرها ويتسلمون من الفلاحين الضرائب والاتاوات التى اعتادوا أن يؤدوها للمسيحيين بعد أن خضعوا جميعاً لأوامر كوروسمين ، وكان قد خلق منهم أعداء للمسيحيين ومردة عليهم . ،،

Matthei Parisiensis Chronica Majora, ed. H. R. Luard, vol. iv. p. 343.) (London, 1872-83.)

(†) حركة قامت فى القرنين الثامن والتاسع ترمى إلى تحطيم الصور والتماثيل التى كانت تعبد فى الكنائس المسيحية فى الشرق .

(٤) Finlay, vol. iii pp. 358-9. J. H. Krause : Die Byzantiner des Mittelalters, p. 276. (Halle, 1869.)

الشعب بتاريخ المسلمين . لقد ظلت مملكة أرمينية قائمة بعد أن منيت بصدمة الفتح العربى، ونهضت فى القرن التاسع الميلادى فأصبحت دولة على جانب من الأهمية ثم ازدهرت أثناء اضمحلال خلافة بغداد ، ولكن الأتراك السلاجقة أدالوها فى القرن الحادى عشر . وقد أسس جماعة من الهاربين مملكة أرمينية الصغرى Lesser Armenia ، ولكن هذه المملكة ذهبت كذلك فى القرن الرابع عشر . وظلت حياة أهل أرمينية القومية باقية بالرغم من ضياع استقلالهم . وكان دينهم وكنيستهم الوطنية مبعثاً لحماستهم ووطنيتهم التى لا تنفى ، كما كان الحال فى اليونان فى عهد الأتراك . ومع أن بعضهم دخل فى الإسلام بتأثير اضطهاد عنيف ، إلا أن غالبية الشعب ما زالت مخلصة لعقيدتها القديمـــة . ويلاحظ تافرنيه [1] ملاحظة غير مشربة بروح المودة والعطف ، فيقول : « قد تكون هناك قلة من الأرمينيين اعتنقت الإسلام لنفع دنيـوى ، ولكنهم بوجه عام يعدون أشد الناس عناداً وأصلبهم تمسكا بمعتقداتهم الخرافية » .

أما كنيسة جورجيا (التى أسست فى مستهل القرن الرابع) فكانت فرعاً من الكنيسة الاغريقية التى ظلت فى ترابط معها ، بالرغم من أن البطريق أوجانليق كنيسة جورجيا قد أعلن استقلاله منذ منتصف القرن السادس . وإن تاريخ هذا الشعب المحارب الباسل ، الذى مزقته الخصومات الداخلية وتعرض لهجمات متتابعة ، من الاغريق والفرس والعرب والترك والمغول ، لهو تاريخ حروب لا تكاد تنقطع ، وجهت نحو خصومهم من الأجانب ، ومنازعات متضاربة تقوم بصورة وحشية بين زعماء هذه البلاد : وحسبنا أن نلقى نظرة على العهود التى حكم فيها واحد أو اثنان من الحكام الأقوياء ، الذين هيئوا لرعاياهم فترات قصيرة من الأمن والسلام ، لنتبين ذلك البون الشاسع بين هذه العهود وبين حالة القلق والاضطراب التى كانت تسود هذه البلاد . وكثيراً ما أثارت تلك الروح الاستقلالية العنيفة ، التى يمتاز بها أهالى جورجيا ، والتى لا تطيق الحكم الأجنبى ، سخط جيرانهم من المسلمين على صورة أشبه شىء بالجنون ، حين أخفق هؤلاء فى أن يفرضوا عليهم شيئاً من دياناتهم أو سلطتهم الزمنية . وإن هذا السبب ـ وهو أن تغيير العقيدة ينطوى على فقدان الاستقلال السياسى ـ هو الذى يفسر لنا إلى حد بعيد ما صنعته كنيسة جورجيا من تسجيل أسماء مثل هذا العدد الكبير من شهدائها ، على حين لا نجد فى تواريخ الكنيسة الاغريقية فى هذه الفترة نفسها ما تعرضه من مثل قوائم التشريف والتكريم هذه .

ولم تأخذ المسيحية فى الاضمحلال [2] (فى جورجيا) إلا بعد أن اجتاحها جنود المغول المدمرة ، فتركت وراءها كنائس محطمة وأدياراً مهدمة وأكداساً من الرءوس البشرية تشهد على مدى تقدم جحافلهم المخربة . وكان من أثر ذلك أن ظل الشعب وقتاً طويلا خلواً ممن يمده بمطالبه الروحية ، نظراً إلى ما أصاب عددهم

---

(١) Tavernier (1), p. 174.

(٢) Joselian, p. 125

وحوالى ذلك الوقت تخلت عن الدين المسيحى كل قبائل الأبخاز والجيخيث Djkhethes والأوسيت Ossetes والكبرد Kabardes وكيستيث Kisthethes .

وما تعرضت له ثقافة رجال الكنيسة من تأخر . حتى هؤلاء الذين ظلوا يدينون بالمسيحية ، فقد زاد فريق منهم فى متاعب رجال الكنيسة بسلب أملاكها ، واستغلال موارد الكنائس والأديار لمصلحتهم الشخصية ، وبذلك عجلوا بالدين المسيحى إلى الضعف والانحلال(١) .

وفى سنة ١٤٠٠م أضافت غزوة تيمور فزعاً بالغاً إلى متاعب جورجيا ، ومع أن حكم اسكندر الأول (١٤١٤—١٤٤٢م) قد خلص البلاد ، فترة قصيرة من نير الأجنبى ، وطرد المسلمين جميعاً ، إلا أن البلاد قد انقسمت بعد وفاته مرة أخرى إلى عدد من الامارات الصغيرة التى انتزع منها الأتراك والفرس آخر ما بقى من استقلالها . ولكن المسلمين طالما وجدوا من جورجيا إيالة تسودها الفوضى والتمرد ، وتتأهب دائماً لإشعال نار الثورة لأتفه الأسباب . فسعى الأتراك والفرس لكسب ولاء هؤلاء الرعايا ، الذين يثيرون المتاعب والقلاقل ، عن طريق تحويلهم إلى الإسلام . وقد أسلم بعد سقوط القسطنطينية وازدياد النفوذ التركى فى آسيا الصغرى ، أهالى أخالتسيخيه Akhaltsikhé ومقاطعات أخرى تقع غربيها (٢). وفى سنة ١٥٧٩ وفد أميران من جورجيا — وكانا أخوين — فى بعثة إلى القسطنطينية ، تصحبهما حاشية كبيرة تتألف من نحو مائتى شخص : وهنا أسلم الأخ الأصغر وأسلمت حاشيته معه أملا (كما قيل) فى أن يحل محل أخيه الأكبر(٣) . وقد ضمت فتوح الأتراك إلى حوزتهم ، بعد هذا العصر بزمن طويل بعض المقاطعات الواقعة فى قلب جورجيا التى اعتنق أهلوها ديانة الفاتحين (٤). ومنذ ذلك الوقت اعترفت Samtzkhé ، أقصى أجزاء جورجيا من جهة الغرب ، بسيادة تركيا : فأتيح لحكامها وشعبها أن يظلوا على عقيدتهم المسيحية ، لا يتعرض لهم أحد بسوء ، إلا أنه منذ سنة ١٦٢٥ اعتنق البيت الحاكم الإسلام وحذا حذوه كثير من الزعماء والأشراف .

وظلت المسيحية بعد ذلك محتفظة بسلطانها على الفلاحين وقتاً طويلا . ولكن حين أبى رجال الكنيسة فى إقليم سامتسخى ، أن يعلنوا ولاءهم لجاثليق كارثلى Karthli انقطع إرسال المدد الذى كان يسد حاجات الشعب الروحية بصورة منتظمة . وكان الأشراف حتى قبيل إسلامهم قد درجوا على اغتصاب ضياع الكنيسة ، ثم بطبيعة الحال توقعوا بعد إسلامهم عن مساعدتها بعطاياهم ، وكان طبيعياً أن تحل المساجد محل الكنائس والأديار التى حل بها الخراب(٥).

وخضع سائر أجزاء جورجيا لفارس ، وعندما زار تافرنييه هذا الجزء من البلاد ، فى أواسط القرن السابع عشر ، وجده منقسما إلى مملكتين كانتا تابعتين للدولة الفارسية ، يحكمهما أمراء من أهالى جورجيا ،

(١) Id. p. 127.

(٢) Id. p. 143.

(٣) David Chytraeus, p. 49.

(٤) Joselian, p. 157.

(٥) Brosset 11e partie, 1re livraison, pp. 227-35. Description géographique de la Géorgie par le Tsarévitch Wakhoucht, p. 79. (St. Petersburg, 1842.)

وكان عليهم أن يدخلوا في الإسلام قبل التقدم لشغل هذا المنصب(١) . وكان من هؤلاء الأمراء السابقين إلى الحكم قسطنطين تساريفتش C . Tsarevitch بن اسكندر الثاني ملك كاخث Kakheth ، وكان قد تربى في البلاط الفارسي ، حيث اعتنق الإسلام في بداية القرن السابع عشر(٢). كذلك تربى في فارس الملك تساريفتش رستم (١٦٣٤—١٦٥٨ م) ، وهو أول ملوك كارثلي Karthli من المسلمين ، وكان هو وجميع من خلفوه حتى نهاية ذلك القرن من المسلمين(٣) .

ويصف تافرنييه أهل جورجيا بأنهم على جانب كبير من الجهل بالشئون الدينية ، كما يصف رجال الكنيسة بأنهم أميون وأصحاب رذيلة . وقد حدث أن باع فريق من رؤساء الكنيسة فتيات وصبياناً من المسيحيين بيع الرقيق للأتراك والفرس (٤) . ويظهر أنه قامت منذ ذلك الحين ، حركة ارتداد عن المسيحية واسعة النطاق وخاصة بين الطبقات العليا وبين هؤلاء الذين كانوا يسعون إلى اكتساب عطف البلاط الفارسي(٥). وفي سنة ١٠٧١م كان واختنج السادس Wakhtang VI الذي جلس على عرش جورجيا مسيحيا : وظل طوال السنين السبع الأولى من حكمه سجيناً في أصبهان ، حيث بذلت جهود ضخمة لحمله على الإسلام ؛ وقد قيل إنه عندما صرح بأنه يؤثر ضياع عرشه على أن يشتريه بالارتداد عن دينه ، عرض أخوه الأصغر ، مع أنه كان يشغل منصب بطريق جورجيا ، أن يترك المسيحية ويعتنق الإسلام إذا أنعم المسلمون عليه بالتاج ، ولكنه بالرغم من أن الفرس قد منحوه السلطة الملكية ، رفض أهل جورجيا قبوله حاكما عليهم وطردوه من المملكة (٦).

وحول نهاية القرن الثامن عشر وضع ملك جورجيا شعبه تحت حماية التاج الروسي . وإلى تلك اللحظة كان شعورهم الوطني الفياض قد ساعد على الاحتفاظ بالعقيدة المسيحية حية بينهم طالما كان الغزاة الغرباء من المسلمين . أما في الوقت الذي أصبحت فيه القوة التي تسعى إلى سلب استقلالهم تدين بالمسيحية ، فقد ساعد هذا الشعور نفسه على خدمة الاسلام في بعض المقاطعات الواقعة شمالي القوقاز . وفي داغستان حاول شخص يدعى درويش منصور أن يجمع شمل قبائل القوقاز المختلفة لمناهضة الروس ، وبث دعوته إلى الاسلام وأفلح في تحويل أمراء يوبخستان وداغستان وأشرافهما الذين ظلوا على ولائهم للاسلام منذ ذلك الحين .

(١) The Six Voyages, p. 123.

(٢) Joselian, p. 149.

(٣) Id. pp. 160—1.

(٤) Tavernier (1), pp. 124, 126. (Id. 123.)

وهو يقدر عدد المسلمين بحوالى اثنى عشر ألفاً .

(٥) Brosset, IIe pastie, 1re livraison, pp. 85, 181

(٦) Documents Originaux sur les relations diplomatiques de la Géorgie avec la France vers la fin du regne de Louis XIV, recueillis par M. Brosset Jeune. (J. A. 2me série; tome ix. (1832), pp. 197, 451.)

وكذلك دخل بدعوته ، كثيرون من الجراكسة فى الاسلام وفضلوا أن ينفوا من البلاد على أن يخضعوا للحكم الروسى (١) . ولكنه أسر فى سنة ١٧٩١م ، ثم دخلت جورجيا رسمياً فى حوزة الإمبراطورية الروسية عام ١٨٠٠ م .

ولم يكن درويش منصور هو الوحيد الذى قام بجهود فى سبيل إدخال الجراكسة فى الإسلام . فعند ما اعترفت معاهدة كوتشاك قينرجى Kuchak-Kainarji سنة ١٧٧٤ باستقلال القرم ، وفتحت طريق البحر الأسود للسفن الروسية ، استولى الفزع على الحكومة التركية من أن تطمع روسيا فتقوم بحركة أخرى للسيطرة على طول الساحل الشرقى للبحر الأسود ، وعقدت النية على أن تحاول تحريض الجراكسة على المقاومة . فأرسلت ضابطاً تركياً يدعى فرح على سنة ١٧٨٢ م لتأسيس مستعمرة حربية فى أنابا ، بالقرب من منفذ بحر آزوف والدخول فى صلات مع قبائل الشراكسة . وكان أول ما وجه إليه فرح على عنايته أن خطب ابنة أحد البكوات الجراكسة ، وقدم إلى أبيها هدايا ثمينة من الأسلحة والخيل وغيرها ؛ وقد احتفل بالزواج فى موكب فخم واحتفال عظيم . وشجع فرح على جنوده على أن يحذوا حذوه فوعدهم القيام بنفقات زواجهم . وكان من أثر ذلك أن انضم فريق من النساء الجركسيات ، إلى المستعمرة الصغيرة واعتنقن ديانة أزواجهن ، وجذبن آباءهن وإخواتهن إلى الإسلام ، بفضل روح الحماسة التى تميز بها الجدد فى الإسلام . وابتدأت حركة نشيطة فى نشر الدعوة إلى الإسلام ، ويظهر أن الذين انحازوا إلى المستعمرة التركية من الجراكسة ، كانوا قد أظهروا استعداداً عند ما تركوا معتقداتهم الوثنية فى سبيل الدين الذى نزل به القرآن . وقد عكف العلماء (الملاوات) على تفقيه حديثى العهد بالإسلام ، ولم يكن بد من أن يطلبوا مدداً من القسطنطينية لتثقيف جموع الداخلين فى الاسلام ، الذين كان عددهم يزداد شيئاً فشيئاً (٢) .

ولكن نشاط فرح على لم يدم طويلا ؛ فقد توفى سنة ١٧٨٥ ، وكان قبره مثابة احترام وتوقير كما كانت قبور القديسين ، غير أن جهوده قد زالت بموته . فقد انتقلت أنابا إلى أيدى الروس سنة ١٨١٢ م ، وعند ما تغلبوا على مقاومة الجراكسة بصفة نهائية سنة ١٨٦٤ ، هاجر أكثر من نصف مليون من الجراكسة المسلمين إلى الأراضى التركية .

وكان اعتناق أى دين يخالف ديانة الكنيسة الأرثوذكسية فى روسيا ، أمراً محرماً فى القانون الروسى ، ومن ثم توقف الإسلام عن أى تقدم جديد إلى أن صدر مرسوم التسامح الدينى سنة ١٩٠٥ . ومن النتائج التى ترتبت على صدور هذا المرسوم ، فى بلاد القوقاز ، أن دخلت جموع كثيرة فى الإسلام من بين طوائف الأبخاز Abkhazes الذين كانوا قد ظلوا طويلا يدينون بالمسيحية اسماً فقط ، ولكنهم الآن قد أصبحوا مسلمين ، فى جموع بلغ من ضخامتها أن رجال الكنيسة الأرثوذكسية قد أخذ الخوف منهم كل مأخذ حتى أقاموا جمعية خاصة تقوم بتوزيع منشورات دينية بينهم ، أملا فى مناهضة النفوذ الإسلامى (٣) .

(١) Mackenzie, p. 7. Garnett, p. 194.

(٢) Barbier de Meynard pp. 45 sqq.

(٣) R. du M. M., VII, p. 320 [1909]

الباب الرابع

انتشار الإسلام بين مسيحيي إفريقية

دخل الإسلام إفريقية أولا مع الجيش العربي الذى غزا مصر بقيادة عمرو بن العاص سنة ٦٤٠ م (٢٠ هـ) ، وقد ترك انسحاب الجيوش البيزنطية بعد ذلك بثلاث سنين أهالى هـذه البلاد المسيحيين الكثيرى العدد فى أيدى الفاتحين المسلمين . ويرجع النجاح السريع الذى أحرزه غزاة العرب ، قبل كل شىء ، إلى ما لقوه من ترحيب الأهالى المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطى ، لما عُرف به من الإدارة الظالمة ولما أضمروه من حقد مرير على علماء اللاهوت . فإن اليعاقبة الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من السكان المسيحيين ، قد عوملوا معاملة مجحفة من أتباع المذهب الأرثوذكسى التابعين للبلاط الذين ألقوا فى قلوبهم بزور السخط والحنق اللذين لم ينسهما أعقابهم حتى اليوم[1] .

كان بعضهم يعذب ثم يلقى بهم فى اليم ، وتبع كثير منهم بطريقهم إلى المنفى لينجوا من أيدى مضطهديهم ، وأخفى عدد كبير منهم عقائدهم الحقيقية ، وتظاهروا بقبول قرارات مجمع خلقدونية[2] . وقد جلب الفتح الإسلامى إلى هؤلاء القبط ، ذلك اللفظ الذى يطلق على المسيحيين من اليعاقبة فى مصر ، حياة تقوم على الحرية الدينية التى لم ينعموا بها قبل ذلك بقرن من الزمان . وقد تركهم عمرو أحراراً على أن يدفعوا الجزية ، وكفل لهم الحرية فى إقامة شعائرهم الدينية ، وخلصهم بذلك من هـذا التدخل المستمر الذى أنوا من عبئه الثقيل فى ظل الحكم الرومانى . ولم يضع عمرو يده على شىء من ممتلكات الكنائس ، ولم يرتكب عملا من أعمال السلب والنهب[3] . ويظهر أن حالة القبط فى الأيام الأولى من حكم المسلمين كانت معتدلة نوعاً ما . وليس هنالك شاهد من الشواهد يدل على أن ارتدادهم عن دينهم القديم ودخولهم فى الإسلام على نطاق واسع كان راجعاً إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم الحديثين[4] . بل لقد

---

(١) Amélineau, p. 3; Caetani, vol. iv. p. 81 sq.

قيل إن جستنيان أمر بقتل مائتى ألف من القبط فى مدينة الاسكندرية ، وأن اضطهادات خلفائه قد حملت كثيرين على الالتجاء إلى الصحراء . (Wansleben : The Present State of Egypt, p. 11,) (London, 1678)

(٢) Renaudot, p. 161. سويرس ص ١٠٦ .

(٣) يوحنا أسقف نقيوس اليعقوبى (عاش فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى) ص ٥٨٤

Caetani, vol. iv. pp. 515-16.

(٤) Bell, p. xxxvii. ولكن الظلم والعناء اللذين لم يكن بد من أن يقاسيهما القبط بعد الفتح بنحو سبعين سنة ، تسمح لنا كما يقول المقريزى فى شىء من الجهد بأن نمد هـذه الفترة إلى الحد الذى عينه فون رانكى بقوله : " ونعرف عن طريق أصدق الأدلة أن أهالى مصر فى القرون التالية كانوا فى ظل السيادة العربية يعيشون فى حالة مرضية . "

(Weltgeschichte, vol. v. p. 153, 4th ed,)

تحول كثير من هؤلاء القبط إلى الإسلام قبل أن يتم الفتح ، حين كانت الإسكندرية حاضرة مصر وقتئذ لا تزال تقاوم الفاتحين ، وسار كثير من القبط على نهج إخوانهم بعد ذلك بسنين قليلة[١] . وفى عهد عثمان ابن عفان (٦٤٣ - ٦٥٥ م) (٢٣ — ٣٥ هـ) بلغ خراج مصر اثنى عشر مليون دينار ، ثم نقص بعد سنين قليلة إلى خمسة ملايين فى عهد معاوية بن أبى سفيان (٦٦١ — ٦٧٩ م) (٤١ — ٦٠ هـ) ، وذلك بسبب دخول عدد كبير فى الدين الإسلامى ، ثم أخذ الخراج فى النقصان فى عهد عمر بن عبد العزيز (٧١٧ — ٧٢٠ م) (٩٩ — ١٠١ هـ) ، حتى إن والى مصر[٢] اقترح ألا يعفى من يدخلون فى الإسلام بعد ذلك من أداء الجزية . ولكن الخليفة التقى أبى أن يجيب هذا الوالى إلى طلبه قائلا إن الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه جابياً[٣] .

ولكن الولاة الذين جاءوا بعد ذلك اعترفوا أن مثل هذه السياسة تضر بالدولة لأسباب تتعلق بمال الجباية ، وألحوا بأن يؤدى الذين يدخلون فى الإسلام الضرائب كما كانوا يؤدونها من قبل . على أن مثل هذه السياسة لم يقدر لها الاستمرار ، وعمل كل وال من هؤلاء الولاة برأيه ، وبصورة تقوم على التعسف وعدم النظام[٤] . فقد ذكروا أن حفص بن الوليد الذى ولى مصر فى سنة ٧٤٤ م (١٠٨ هـ) لما وعد بإعفاء جميع الذين يدخلون فى الإسلام من الجزية . انتحل هذا الدين عدد بلغ أربعة وعشرين ألفاً[٥] . وقد قيل إن أبا العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين أذاع بياناً مماثلا على أثر اعتلائه عرش الخلافة فى سنة ٧٥٠ م (١٣٢ هـ) ، إذ « كتب إلى جميع مملكته أن كل من يصير على دينه ويصلى كصلاته يكون بغير جزية ، فمن عظم الخراج والكلف عليهم أنكر كثير من الأغنياء والفقراء دين المسيح وتبعوه »[٦] والحق أن كثيراً من مسيحيى مصر تركوا النصرانية بمثل هذه السهولة وتلك السرعة التى اعتنقوا بها النصرانية فى مستهل القرن الرابع الميلادى . وقبل هذا العصر ، كانت جماعة صغيرة جداً من سكان وادى النيل تدين بالمسيحية . ولكن ما عاناه الشهداء فى اضطهادات دقلديانوس ، وما دون عن المعجزات التى أتى بها هؤلاء الشهداء ،

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٨٨ . « فكثير من المصريين الذين كانوا من المسيحيين الزائفين أنكروا الديانة المقدسة الكاملة ، والتعميد الذى يهب الحياة ، وانحازوا إلى ديانة المسلمين أعداء الله ، وقبلوا المذهب . . . الذى جاء به ذلك المخلوق ، محمد ؛ فقد ساهموا فى ضلال هؤلاء المشركين وامتشقوا السلاح فى وجه المسيحيين » .

(٢) ويظهر أن قرة بن شريك (ولى مصر من سنة ٧٠٩ إلى سنة ٧١٤ م) (٩٠ — ٩٦ هـ) أو سلفه قد أصر على أن يعتبر الذين تحولوا إلى الاسلام فى أداء الجزية . (Becker, Papyri Schott—Reinhardt, p. 18.)

(٣) ابن سعد : الطبقات جـ ٥ ص ٢٨٣ .

(٤) Caetani, vol. iv. p. 618; vol. v. pp. 384—5,

(٥) سويرس ص ١٧٢ — ١٧٣ .

(٦) المصدر نفسه ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

والشعور القومى الذى أثارته روح المقاومة لأوامر الحكومة الأجنبية(١) ، وما أعطوا من الضمانات بأن جنة النعيم قد فتحت أبوابها لكل شهيد مات على أيدى معذبيه — كل أولئك قد أثار فى نفوسهم حماسة أدت إلى سرعة انتشار الدين المسيحى بصورة لايكاد يصدقها العقل . « وبدلا من أن يتنصر المصريون عن طريق التبشير ، كغيرهم من أهالى بلاد المشرق ، نراهم يتحولون المسيحية فى غمرة من الحماسة الجامحة ، دون أن يتلقوا أى شىء من التبشير أو التعليم عن الدين الجديد غير اسم عيسى المسيح الذى خلع حياة من السعادة الأبدية على جميع الذين اعترفوا بوجوده »(٢) .

ومن المرجح أن تأثير المسيحية فى السواد الأعظم من أهل مصر كان قليلا فى القرن السابع . وإن التعليقات النظرية التى استغلها زعماؤهم فى إثارة شعور الكراهية والمقاومة فى وجه الحكومة البيزنطية ، كان يمكن أن يدركها عدد قليل جداً من الناس ؛ كما أن سرعة انتشار الاسلام فى الأيام الأولى من الاحتلال العربى قد تكون راجعة إلى عجز ديانة كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء ، أكثر من أن تكون راجعة إلى الجهود الظاهرة التى قام بها الفاتحون لجذب الأهلين إلى الاسلام . وإن الأساس اللاهوتى لبقاء اليعقوبيين حزباً منفصلا ، والشعائر التى جاهدوا فى سبيل الاحتفاظ بها وقتاً طويلا ، ودفعوا ثمناً غالياً فى هذه السبيل ، قد اجتمعت فى عقائد كانت صيغتها أشد ما تكون غموضاً وإبهاماً من الناحية الميتافيزيقية . ولا شك أن كثيراً من هؤلاء قد تحولوا ، وقد أخذت الحيرة منهم كل مأخذ ، واستولى على نفوسهم الضجر والاعياء من ذلك الجدل السقيم الذى احتدم من حولهم ، إلى عقيدة تتلخص فى وحدانية الله البسيطة الواضحة ، ورسالة نبيه محمد . بل إننا نجد فى داخل الكنيسة القبطية نفسها فى عصر متأخر شواهد تنبىء عن حركة ، إن لم تكن إسلامية خالصة ، فقد كانت على الأقل وثيقة الصلة بها ، وربما ساعد عدم وجود أى نظام كنسى مستقل ، يجد طريقة لايضاحه والتعبير عنه ، على زيادة عدد الذين دخلوا فى الاسلام . وفى أوائل القرن الثانى عشر كان بدير القديس أنطونيوس (بمقربة من إطفيح على النيل) راهب يدعى بلوطس ، « وكان عالماً ومعلماً خبيراً بأوضاع الدين المسيحى وسيرة الرهبنة ماهراً فى حقوق مايلزم من القوانين الشرعية ، وأصاده الشيطان فى شرك من شراكه ، فاعتقد اعتقاداً مخالفاً لما وضعه الآباء الثلثمائة والثمانية عشر (بمجمع نيقية) . وأفسد عقول جماعة كبيرة ممن ليس له معرفة ولا دراية بالأمانة الأرثوذكسية ، وأشاع من فمه النجس ومنطقه الخبيث أن المسيح ربنا له المجد ، كأحد الأنبياء ، وصار مجتمعاً بالأشرار من أهل الملة وهو لابس شكل الرهبنة منتطقاً بالزونية والأسكيم ، وإذا سئل عن مذهبه واعتقاده فيقول إنه موحد وظهرت مقالاته فى سنين آخرها سنة تسع وثلاثين وثمانمائة للشهداء الأبرار (١١٢٣م) ، ومات وانقطع ذكره إلى الأبد »(٣)(٤)

(١) وليس من شك فى أنه كان فى كثرة الشهداء ضرب من مقاومة الحكام الغرباء فى سبيل الوطن (Amélineau, p. 58.)

(٢) Amélineau, pp. 57-8.

(٣) أبو صالح الأرمنى ص ١٦٣ — ١٦٤

(٤) وردت أخطاء لغوية ونحوية فى هذا النص أبقينا عليها وتركناها لفطنة القارىء .

أضف إلى ما تقدم أن نظرية الحياة المسيحية التي وجدت أقصى ما يمكن إدراكه والتعبير عنه في التقشف في أكيرصورة[١] قد استطاعت أن تظهر بعض الميل نحو الآداب الإسلامية الأكثر إنسانية[٢]. ولكثرة عدد القبط الذين كانوا يعتنقون الإسلام من حين إلى حين ، أخذ أتباع النبي يعتبرونهم أشد ميلا لقبول الدين الإسلامي من أية طائفة أخرى . ومع أنهم قد تعرضوا لتحمل أشد أنواع الظلم والاضطهاد في كثير من المناسبات ، قيل إن القبط الذين حملوا على ترك دينهم على هذا النحو كانوا أقل عدداً بالنسبة إلى هؤلاء الذين غيروا دينهم عن طواعية[٣]. حتى في القرن التاسع عشر، في الوقت الذي قيل فيه إن مصر كانت أشد البلاد الإسلامية تسامحاً في الدين ، لم تخل سنة من السنوات لم يتحول فيها القبط إلى الإسلام[٤] . أضف إلى ذلك : أن الاضطهاد والظلم قد قاما من غير شك بدور كبير في نقص عدد القبط . وإن قصة آلام كنيسة اليعاقبة في مصر ، التي اضطهدها كذلك إخوانهم في الدين من المسيحيين[٥] ، وأتباع المذهب السائد في هذه البلاد ، لتثير أشد ألوان الحزن والأسى . وقد ترك كثير دين آبائهم ليتخلصوا من الضرائب الثقيلة والتحقير والشتائم التي لا تحتمل . وإن الفرق الشاسع في ذلك بين حالتهم وحالة مسيحيي سورية وفلسطين والأندلس في العصر نفسه ، لتجد ما يعبر عنها في الثورات التي أشعل نيرانها القبط أنفسهم . ويظهر أن نزاعهم الطويل الذي قاموا به في وجه استبداد بيزنطة من الناحيتين المدنية والدينية ، قد أثر في ذوي الغيرة على الدين وحولهم إلى جماعة وطنية استطاعت أن تصبر قليلا على حكم الأجانب من العرب كما صبروا على حكم البيزنطيين من قبلهم . وإن الثورة التي قام بها القبط في وجه سادتهم الجـــدد في سنة ٦٤٦م ، حين طردوا العرب من الاسكندرية إلى حين ، وفتحوا أبواب هذه المدينة للجيوش البيزنطية (التي عاملت القبط المنكودين كأعداء،

---

(١) Amélineau, pp, 53-4. 69-70,

(٢) أمدنا أبو صالح ببيان يشتمل على بعض الرهبان الذين انتحلوا الاسلام ، ولا يبعد أن يمثل هؤلاء عدداً أكبر من الرهبان الذين لم يترك هذا المؤرخ ثبتاً بأسمائهم بسبب افتقاره إلى معرفة الظروف التي لا بست ما لحق بهذا الدير من التلف أو ما حدث مما جعل أمثال هذه الحوادث ذات أهمية لديه (ص ١٢٨ ، ١٤٢) .

(٣) Lane, pp. 546, 549.

(٤) Lüttke (1), vol. i. pp. 30, 35. ; وقد كتب الدكتور اندرو وطسون Dr. Andrew Watson

,, لم تمر سنة واحدة في الأربع والأربعين سنة التي أقمتها في وادي النيل دون أن أسمع عن أمثلة عدة للمروق عن الدين لأسباب أهمها الأمل في نيل أغراض دنيوية مختلفة الأنواع ، والاضطهاد القاسي المستمر ، والتعرض لقسوة جيرانهم من المسلمين وميلهم للنهب وتعرضهم للمهانة ، والضعف السياسي على اختلاف أنواعه ,, .

(Islam in Egypt: Mohammedan World, p. 24.)

(٥) سويرس بن المقفع ص ١٢٢ ، ١١٦ ، ١٤٣ .

ومن أولى المناسبات التي ضجوا فيها بالشكوى من الضرائب الفادحة ما حدث عند ما أخذ ميناس والي مصر السفلى من مدينة الاسكندرية ٥٧ ،٣٢ قطعة من العملة الذهبية كرهاً بدلا من ٢٢,٠٠٠ قطعة كان عمرو قد قرر جمعها (يوحنا أسقف نقيوس ص ٥٨٥) وقال رينودو (Renaudot, p. 168) إنه بعد أن استرد رجال الكنيسة سلطانهم بعد الفتح الاسلامي بنحو سبعين سنة ، قاسى القبط على يد الكنيسة بقدر ما قاسوا على أيدي المسلمين أنفسهم .

والذين لم يكونوا قد نسوا بعد الحفاوة التى قابلوا بهـا غزاة المسلمين من قبل) — كانت الأولى من سلسلة الثورات والفتن(١) التى طالما أثارتها الضرائب الفادحة، التى دفعتهم إلى القتل وعرضت جماعة المسيحيين من اليعاقبة فى مصر إلى الصلابة فى تحمله أكثر من أية فرقة من الفرق المسيحية فى هــذه البلاد أو فى البلاد الأخرى التى كانت تحت حكم المسلمين. ولكن تاريخ هذه الحوادث يتصل بتاريخ اضطهاد المسلمين وتعصبهم الدينى، أكثر مما يتصل بموضوع هذا الكتاب. على أنه يجب أن لا نفرض أن حالة القبط كانت على الدوام حالة طائفة مضطهدة (†)؛ بل على العكس كانت هناك فترات كانوا يترقون فيها إلى المناصب التى يتمتع أصحابها بالشهرة والغنى فى الدولة. فملئوا مناصب الوزراء والكتاب فى دواوين الحكومة (٢)، وحددوا قيمة الضرائب التى تجبى على الأرض التى تعطى على سبيل الالتزام(٣)، وجمعوا ثروة ضخمة(٤) فى بعض الحالات ولقد أمدنا تاريخ كنيستهم بكثير من الأمثلة عن رجال الكنيسة الذين تمتعوا بعطف الأمراء الذين حكموا بلادهم، ونعم القبط فى عهدهم بأقصى درجات الطمأنينة (٥). وإلى مثل هذه الفترة التى تمتعت فيها الكنيسة بالسلام، يرجع ذلك الحادث الذى أدى إلى اندماج كثير من المسيحيين فى جماعة المؤمنين.

وفى عهد صلاح الدين الأيوبى فى مصر (١١٦٩ — ١١٩٣م) (٥٦٤ — ٥٨٩هـ) تمتع المسيحيون بالسعادة إلى حد كبير، فى ظل ذلك الحاكم الذى عرف بالتسامح الدينى. فقد خفف الضرائب التى كانت فرضت عليهم، وأزال بعضها جملة. وملئوا الوظائف العامة كوزراء وكتاب وصيارفة. وفى عهد خلفاء صلاح الدين نعموا بمثل هذا التسامح والرعاية، قرابة قرن من الزمان. ولم يكن هناك ما يشكون منه إلا ما اتصف به كهنتهم أنفسهم من الفساد والانحطاط. فقد فشت السيمونية بينهم، فبيعت مناصب القسيسين الذين اتصفوا بالجهل والرذيلة، على حين حيل بين الذين طلبوا التعيين وبين هذا المنصب المقدس بعجزهم عن أداء الأموال المطلوبة فى احتقار وازدراء، مع أنهم كانوا من الجديرين بشغل هذا المنصب، وكان من أثر ذلك أن أهمل تثقيف الناس روحيا وخلقيا إهمالا تاما، وبلغت الحياة المسيحية درجة محزنة من الانحلال (٦). كما بلغ من فساد الكنيسة أنه عند وفاة يوحنا الرابع والسبعين من بطارقة اليعاقبة فى سنة

---

(١) ذكر المقريزى شيئاً من الفتن الأخرى التى أثارها القبط والتى لم يكن بد من أن تقمع بقوة السيف فى خلال القرن الأول لسيادة العرب (المقريزى (٢) ص ٧٦ — ٨٢)

(†) راجع ما ذكره المقريزى (ج ١ ص ٧٩ — ٨٠) عن „ انتقاض القبط وما كان من الأحداث فى ذلك „، وما ذكره عن „ دخول النصارى من قبط مصر فى طاعة المسلمين وأدائهم الجزية واتخاذهم ذمة لهم وما كان فى ذلك من الحوادث والأنباء „. (ج ٢ ص ٤٩٢ — ٥٠١).

(٢) Renaudot, pp. 189, 374, 430, 540.

(٣) Id. p. 603.

(٤) Id. pp. 432, 607. Nasir-i-Khusrau: Safar-namah, ed. Schefer, pp. 155-6.

(٥) Renaudot, pp. 212, 225, 314, 374, 540.

(٦) Renaudot, p. 588.

١٢١٦ م ، كان لابد من انتخاب خليفة له ، وقام بين الجماعات المتعادية المتناحرة التى لجت فى إثارة حقوق المرشحين المتنافسين ، نزاع عنيف استمر نحو عشرين سنة . إلا أنه لم يكن من سبيل إلى إصلاح ذات البين بين هذه الجماعات ، فقد كان اهتمامهم طوال ذلك الوقت بما قد يترتب على ذلك من نتائج محزنة مخزية ضارة ، أقل من اهتمامهم بالمحافظة على روح التحزب التى تنطوى على العناد وإثارة الشقاق . وفى أكثر من مناسبة ، حاول السلطان الجالس على العرش أن يصلح بين هـذه الفرق المتخاصمة ، ورفض ما عرضته عليه من رشا ضخمة بلغت ثلاثة الآلاف وخمسة الآلاف ، بل عشرة الآلاف قطعة من العملة الذهبية ليغروه بأن يكفل لهم اختيار أحد المرشحين بالضغط وباستعمال نفوذه الرسمى . بل لقد عرض عليهم هذا السلطان أن يتجاوز عن المطالبة بالرسوم التى اعتاد أن يؤديها البطريق الذى يفوز حديثا بالانتخاب ، لو أنهم طرحوا منازعاتهم ووصلوا إلى شىء من الاتفاق . ولكن هـذه الجهود لم تحقق أى غرض من الأغراض . وخلا فى الوقت نفسه كثير من الأسقفيات ، ولم يكن هناك من يحل محل الأساقفة والقسيسين الذين ماتوا فى تلك الفترة . ففى دير القديس مكاريوس وحده لم يبق غير أربعة من القسيسين بعد أن كان عددهم قد تجاوز الثمانين فى عهد البطريق السابق (١) . وقد بلغ من شـدة إهمال مسيحيى أبرشيات الكنيسة الغربيـة أنهم تحولوا إلى الإسلام (٢) . ويؤسفنا أن ليس لدينا ما نزيده على هذا البيان الجرىء الذى أتى به مؤرخ الكنيسة القبطية من المعلومات عن الجهود الفعالة التى بذلها المسلمون فى سبيل تحويل هؤلاء المسيحيين إلى دينهم . وإذا كانت ثمة جهود قد بذلت فى هذا السبيل ، فهذا أمر لا يثير غير قليل جداً من الشك ، وخاصـــة إذا علمنا أن المسيحيين قـد قاموا بمحاولات علنية وشغلوا أنفسهم بتدوين المناقشات والمناظرات عن مزايا كل ديانة بالنسبة إلى غيرها (٣) من الديانات المنافسة لها . ومما يدل على أن تحول المسيحيين إلى الإسلام لم يكن راجعاً إلى الاضطهاد ، ما وقفنا عليه من الشواهد التاريخية الأصلية وهو أنه فى الوقت الذى شغر فيه كرسى البطرقية ، تمتع المسيحيون بالحرية التامة فى إقامة شعائرهم ، وسمح لهم بإعادة بناء كنائسهم بل ببناء كنائس جديدة ، وتخلصوا من القيود التى حتمت عليهم أن يركبوا الحمير والبغال ، وحوكموا فى محاكمهم الخاصة ، على حين أعفى الرهبان من دفع الجزية ، ومنحوا امتيازات معينة (٤) .

ومن الصعب أن نقدر إلى أى حد يعد هـذا الحادث مثلا لانتشار الإسلام بين القبط . وقد ذكر

---

(١) Id. pp. 567, 571, 574—5.

(٢) Wansleben, p. 30. ، ذكر فنسلبن مثلا آخر وقع فى ظروف متباينة عن تدهور الكنيسة القبطية فى جزيرة قبرص التى كانت من قبل تحت نفوذ البطريق القبطى فى المسائل القضائية . وقد بلغ من اضطهاد رجال الدين من الأرثوذكس ، الذين تمتعوا بحماية الأباطرة البيزنطيين ، أن البطريق لم يستطع أن يتيح للقسيسين الذهاب إلى هنالك . وكان من أثر ذلك أن جميع القبط الذين أقاموا فى الجزيرة ، قبلوا الاسلام دينا لهم ، أو اعترفوا بمجمع خلقدونية ، وأغلقت كنائسهم جميعاً . (Id. p. 31.)

(٣) Renaudot, p. 377.

(٤) Ibid, p. 575

حالة مشابهة لهذا الإهمال اثنان من الرهبان الكبوشيين(†) قاما برحلة فى النيل فى القرن السابع عشر الميلادى إلى الأقصر ، فوجدا أن القبط فى هذه المدينة لم يكن لهم قسيس ، وأن بعضهم لم يذهب للاعتراف أو يحضر القداس أو العشاء الربانى مدة خمسين سنة (١) . وفى مثل هذه الظروف نستطيع أن ندرك بسهولة قلة عدد القبط . وقد حدث إهمال مماثل ربما يعزى إلى انحلال الكنيسة النوبية التى اعترفت بسيادة بطريق الإسكندرية اليعقوبى عليها ، كما كان يفعل الحبشة حتى الوقت الحاضر . وقد تحول النوبيون إلى المسيحية حول منتصف القرن السادس الميلادى ، واستردوا استقلالهم عند ما فتح العرب مصر ، وعقدت معاهدة كانوا بمقتضاها يقدمون فى كل عام ثلاث مائة وستين من العبيد بالاضافة إلى أربعين عبدا يقدمونهم إلى والى مصر ، على أن يمدهم العرب بالغلال والزيت والملابس (٢). وفى عهد الخليفة المعتصم (٨٣٣ — ٨٤٢ م) أرسلت السفراء ليجددوا هذه المعاهدة ، وزار ملك النوبة حاضرة مصر حيث قوبل بالتعظيم والتبجيل ، ثم عاد يحمل معه هدايا ثمينة ذات قيمة (٣) . وكان جميع النوبيين فى القرن الثانى عشر لا يزالون على المسيحية (٤) . واحتفظوا باستقلالهم القديم على الرغم من الحملات المتكررة التى كانت ترسل إليهم من مصر (٥) . وفى سنة ١٢٧٥ م استطاع ابن أخى ملك النوبة فى ذلك الحين أن يظفر من سلطان مصر بقوة من الجيش تشد أزره فى الثورة التى أعلنها على عمه وقد استطاع بمعونتهم أن يعزله ؛ ولم يكن بد من أن ينزل للسلطان عن ولايتين فى أقصى شمال النوبة جزاء مساعدته . ولما كان أهالى هذه المنطقة قد اختاروا البقاء على دينهم المسيحى ، فقد فرضت عليهم جزية سنوية مقدارها دينار واحد على كل ذكر منهم (٦) . على أن السيادة الإسلامية على هاتين الولايتين لم تكن إلا وقتية ، فسرعان ما استعاد النوبيون الذين كانوا يسكنون فى هاتين الولايتين استقلالهم (٧) .

ولكن العرب كانوا قد استقروا فى النوبة قبل ذلك بعدة قرون ، وزاد عدد العرب القاطنين على ضفاف النيل الأزرق ، كما زادت ثروتهم زيادة كبيرة فى القرن العاشر ، حتى إنهم استطاعوا أن يلتمسوا الإذن ببناء مسجد فى سوبة (٨) ، عاصمة المملكة المسيحية (٩) .

(†) الكبوشيون هم لابسو القلانس من رهبان الفرنسسكان نسبة إلى Capuche أى قلنسوة .

(١) Relation du voyage du Sayd ou de la Thebayde fait en 1668, par les PP. Protais et Charles—François d'orleans, Capuchins Missionaries, p. 3. (Thevenot, vol. ii.)

(٢) Caetani, vol. iv. p. 520.

(٣) Ishok, of Romgla, pp. 272—3.

(٤) الادريسى ص ٣٢

(٥) المقريزى (٣) ج ١ القسم الثانى ص ١٣١

(٦) المقريزى ص ١٢٨ — ١٣٠

(٧) Burckhardt (1), p. 494.

(٨) وتقع على بعد اثنى عشر ميلا تقريبا من مدينة الخرطوم الحديثة .

(٩) Artin, pp. 62, 144.

وفى القرن الثالث عشر ، ومن أوائل القرن الرابع عشر خاصة ، بدأ عن طريق الهجرة إلى بلاد النوبة اندماج العرب ، ولا سيما قبيلة جهينة الذين تزوجوا من نساء هذه البلاد ، ونجحوا شيئاً فشيئاً فى كسر شوكة الأمراء النوبيين (١) . ويخبرنا ابن بطوطة (٢) فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر أن النوبيين كانوا فى وقته لا يزالون على المسيحية ، مع أن ملك مدينة دنقلة(٣)، تلك المدينة الرئيسة فى بلاد النوبة ، كان قد دخل فى الإسلام ، وذلك فى عهد الناصر (وربما كان هو الناصر محمد بن قلاوون أحد سلاطين مصر من المماليك الذى توفى فى سنة ١٣٤٠ م) . ولم تفلح الحملات المتكررة التى قام بها المسلمون فى عصر متأخر كالقرن الخامس عشر فى تقدم فتوحهم جنوبى الشلال الأول حيث كان يقع بالقرب منه آخر معقل من معاقلهم (٤) ، على حين كانت المسيحية ، فيما يظهر ، تمتد بعيداً على طول نهر النيل حتى مدينة سنار .

ويظهر أن المملكة النوبية المسيحية قد صارت إلى الزوال ، لظهور الانقسامات الداخلية من ناحية ، ولهجمات القبائل العربية والإفريقية التى كانت تغير على حدود هذه المملكة من ناحية أخرى ، وأخيراً لقيام دولة الفونج القوية فى القرن الخامس عشر(٥).

ولكن من الجائز أن الإسلام فى هذه البلاد كان يلقى خلال ذلك الوقت رواجاً على أيدى التجار وغيرهم من المسلمين الذين كانوا يترددون عليها . وقد نقل المقريزى الذى كتب فى مستهل القرن الخامس عشر حكاية تتعلق بالدعوة ، لا نجد لها ذكرا فى مؤلفات العرب إلا فى القليل النادر . وقد روى هذه القصة ابن سليم الأسوانى ، وهى من الأهمية بحيث تعطينا صورة حية للداعى المسلم الذى يعمل على نشر دعوته . ومع أن الداخل فى الإسلام الذى أشارت اليه هذه القصة لم يكن مسيحياً ولا نوبياً ، فإن القصة مع ذلك تبين لنا أنه كان هنالك شىء كهذا يتعلق بتحويل الناس إلى الإسلام فى بلاد النوبة فى القرن الخامس عشر . ويقول ابن سليم إنه رأى ذات مرة رجلا فى مجلس نوبى كان عظيم المقرة ، وسأله عن بلده فقال مسافته إلى النيل ثلاثة أهلة . وسأله عن دينه فقال : ربى وربك الله ، ورب الملك ورب الناس كلهم واحد ، وهو كائن فى السماء وحده ، فاذا أبطأ عنهم المطر أو أصابهم الوباء ، أو وقع بدوابهم آفة صعدوا الجبل ، ودعوا الله فيجابون للوقت ، وتقضى حاجتهم قبل أن ينزلوا . فلما أقر الرجل أن الله لم يرسل قط

(١) Becker, Geschichte des östlichen Sudan, p. 160.

(٢) ج ٤ ص ٣٩٦

(٣) ويسجل سلاطين باشا أسطورة متداولة بين عرب دنقلة ، وهى أن هذه المدينة قد أسسها جدهم الأكبر دنقل الذى سمى المدينة باسمه (على أن هذا الزعم محال نظراً لأن دنقلة كانت فى عصور المصريين القدماء ، وذكرت فى الآثار ، انظر (Vuren de Saint-Martin, vol. ii. p. 85.) . وتذكر الأسطورة أن هذا المدعو دنقل ، مع أنه كان عبداً ، تمكن من ان يكون حاكماً لبلاد النوبة ، غير أنه كان يؤدى الجزية إلى بهنسا ، الأسقف القبطى لكل الاقليم الواقع بين سراس والدبه الحاليين . (Fire and Sword in the Sudan, p. 13) (London, 1896.)

(٤) ابن سليم الأسوانى نقلا عن المقريزى : كتاب الخطط ج ١ ص ٩٠. (القاهرة ١٢٧٠ هـ)

(٥) Budge, vol. ii. p. 199. Artin, p. 144.

رسولا فيهم ، ذكر له ابن سليم بعثة موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم ، وما أبدوا به من المعجزات فقال : « إذا كانوا فعلوا هذا فقد صدقوا ؛ وقد صدّقتهم إن كانوا فعلوا » (١) .

ويظهر أن النوبيين قد انساقوا من المسيحية إلى الإسلام بالتدريج وفى بطء شديد(٢) . وكانت الحياة الروحية فى كنيستهم قد انحدرت إلى أقصى دركات الانحطاط . ولما وجد المسيحيون ألا أمل فى قيام حركة للاصلاح فى مجتمعهم ، وأنهم قد فقدوا الاتصال بكنائسهم التى تقع فيما وراء حدودهم ، لم يكن من الطبيعى إلا أن ينشدوا ما يشفى غلتهم ويسد رمقهم الروحى فى الدين الإسلامى الذى حمل أتباعه بين هؤلاء الدليل على قوة حيويته وقتاً طويلا ، كما كانوا قد ظفروا بفريق من مواطنيهم الذين قبلوا الدخول فى هذا الدين . وقد حفظ قسيس برتغالى تنقل فى بلاد الحبشة بين سنتى ١٥٢٠ ، ١٥٢٧ صورة عن النوبيين فى هذا الدور من الانتقال ؛ إذ كتب يقول إنهم لم يكونوا نصارى ولا يهود ولا مسلمين ، ولكنهم أصبحوا بحيث لا يدينون بدين ولا يعترفون بقانون ، ولكنهم مع ذلك كانوا يعيشون تحدوهم الرغبة فى أن يكونوا مسيحيين ، . وقد انحدروا إلى أحط دركات الجهل بسبب ما وقع فيه رجال الكنيسة من خطأ ، فلم يكن بين هؤلاء النوبيين أساقفة ولا قساوسة فى ذلك الوقت . وكان من أثر ذلك أن أرسلوا إلى ملك الحبشة بعثة مؤلفة من ستة رجال ، يلتمسون منه أن يرسل إليهم قسيسين ورهباناً لتعليمهم ، ولكن النجاشى أبى أن يفعل إلا بعد أن يستأذن فى ذلك بطريق الاسكندرية . ولما لم يظفروا بهذا الإذن ، رجع هؤلاء السفراء السيئو الحظ إلى أوطانهم يجرون أذيال الخيبة (٣) . وقد روى مسيحى كان قد سافر إلى بلاد النوبة لهذا الكاتب نفسه ، أنه كان قد عثر على ١٥٠ كنيسة هنالك ، كان لا يزال فى كل منها صور المسيح المصلوب ، ومريم العذراء ، وبعض القديسين منقوشة على الجدران . كذلك وجدت كنائس(٤) فى كل القلاع التى كانت منبثة فى جميع أنحاء البلاد . «وقبيل نهاية القرن التالى ، ذهبت معالم المسيحية من بلاد النوبة ، وذلك بسبب النقص فى عدد رعاة الكنيسة » . أما الكنائس المغلقة فلم يكن بد من أن تظل قائمة فى أنحاء البلاد(٥) . وقد خضع النوبيون للمؤثرات الاسلامية القوية التى أحاطت بهم ، ويرجع إليها أكبر الفضل فى الجهود التبشيرية التى قام بها المسلمون الذين تنقلوا فى بلاد النوبة فى القرون الماضية ؛ فنى الشمال كانت مصر وكذلك القبائل العربية التى كانت قد أخذت طريقها تجاه منابع النيل ، ووسعت سلطانها على طول ضفاف ذلك النهر(٦) ؛

(١) المقريزى : كتاب الخطط ج ١ ص ١٩٣

(٢) Morié, vol. i. pp. 417-18.

(٣) يذكر لورد ستانلى أف الدرلى Stanley of Alderley فى ترجمته لكتاب ألفاريز Alvarez من الأصل المكتوب باللغة البرتغالية أن رد الملك عليهم كان كما يأتى : « قال لهم إنه قد حصل على المطران من بلاد البربر ، يعنى بذلك من جهة طريق الاسكندرية ... فكيف يستطيع إذن أن يمد غيره بقسيسين ورهبان ، ما دام غيره يمدهم » (p. 352, London, 1881.)

(٤) Viaggio nella Ethiopia al Prete Ianni fatto par Don Francesco, Alvarez Portughese (1520-1527), (Ramusio, tom. i. pp. 200, 250.)

(٥) Wansleben, p. 30. للاطلاع على وصف البقايا التى لا تزال باقية من هذه الآثار ، وراجع Budge, vol. ii. p. 299 sqq. G.S. Nileham, Churches in Lower Nubia (Philadelphia, 1910.)

(٦) Burckhardt (1), p. 133.

وفى الجنوب كانت ولاية قبائل بلو Belloos الإسلامية تفصل بينهم وبين بلاد الحبشة[١].

وكانت هذه القبائل فى مستهل القرن السادس عشر خاضعة لملك الحبشة المسيحى ، على الرغم من أنها كانت تدين بالاسلام . وإذا صح أن هؤلاء البلو هم البليّون الذين تحدث عنهم الادريسى فى القرن الثانى عشر ، وعدهم من النصارى اليعاقبة [٢] ، وقرن اسمهم باسم قبائل البجة (سكان الجزيرة التى تعرف باسم جزيرة مرو) الذين كانوا يقطنون بجوارهم ، فمن الجائز أنهم لم يقضوا إلا أعواماً قليلة قبل أن يتحولوا إلى الإسلام ، فى الوقت الذى أسلم فيه قبائل البجة الذين كانوا قد اندمجوا فى دولة الفونج الإسلامية حين مد هؤلاء فتوحهم بين سنتى ١٤٩٩ ، ١٥٣٠ من الجنوب حتى حدود بلاد النوبة والحبشة ، وأسسوا ولاية سنار القوية . وعندما غزا جيش أحمد جرانُ بلاد الحبشة ، وشق طريقه فى البلاد من الجنوب إلى الشمال ، اتصل حول سنة ١٥٣٤ بجيش سلطان مسيجيه أو مزجه Maseggia or Mazaga ، وهى ولاية كانت خاضعة لحكومة إسلامية ، ولكنها كانت تدفع الجزية لبلاد الحبشة ، وتقع هذه الولاية بين بلاد الحبشة وسنار . وكان فى جيش هذا السلطان ١٥ الف جندى من النوبيين ، وكانوا فيما يظهر لنا مما روى عنهم ، يعتنقون الدين الاسلامى [٣] . ولما كانت أخبار تحول النوبيين إلى الاسلام شذرات غير كافية ، فإننا نستطيع من غير شك أن نستخلص من كل ما نعرفه عن هـذا الشعب الذى جبل على الاستقلال ، والذى عرف بتشبثه بالدين المسيحى طالما كان هـذا الدين قوة حية بينهم ، أن تحولهم عن دينهم قد تم تدريجياً وفى خلال قرون كثيرة .

والننتقل الآن إلى الكلام على تاريخ الاسلام بين الحبش الذين كانوا قد دخلوا فى المسيحية قبل النوبيين بقرنين ، وخضعوا مثلهم للكنيسة اليعقوبية .

ويبدو أن تيار الهجرة العربية لم يكن قد تجاوز البحر الأحمر الذى كانت سواحله الغربية تكوّن جزءاً من مملكة الحبشة إلا بعد أن دخل العرب في دّين محمد بقرون كثيرة . ولم تكن هنالك حتى القرن العاشر الميلادى إلا أسر إسلامية قليلة العدد ، تقيم فى مدن الحبشة الساحلية . إلا أنه فى نهاية القرن الثانى عشر أدى تأسيس دولة عربية إلى فصل بعض الأراضى الساحلية عن المملكة الحبشية . وحدث فى عام ١٣٠٠ أن شق أحد الدعاة ، ويدعى أبا عبدالله محمدا ، طريقه إلى بلاد الحبشة ، داعياً أهلها إلى الاسلام . فلما تمكن من أن يجمع حوله مائتى ألف شخص ، هجم فى السنة التالية على حاكم أمهرة ، واشتبك معه فى معارك كثيرة[٤]. وقد اتخذ الملك سيف أرعد (١٣٤٢ — ١٣٧٠م) تدابير صارمة ضد المسلمين فى مملكته ، تقضى بإعدام كل من أبى الدخول فى المسيحية أو نفيهم من البلاد [٥] . وفى نهاية هذا القرن نفسه عمت البلاد حالة قلق واضطراب

---

(١) Alvarez, p. 250.

(٢) الادريسى ص ٣٢ .

(٣) عرب فقيه ص ٣٢٣

(٤) المقريزى (٢) ج ٢ القسم الثانى ص ١٨٣

(٥) Basset, p. 240.

لانشغالها بالحروب الداخلية . ومهدت تلك الحـــالة السبيل للقبائل العربية المختلفة التى استقرت على طول الساحل ، لأن يجعلوا من أنفسهم سادة على المنطقة الساحلية بأجمعها ، وطردوا الأحباش إلى المناطق الداخلية . وقد قيل إن الملك بئيدَ ماريام (١٤٦٨ — ١٤٧٨) قضى الجزء الأكبر من حكمه فى محاربة المسلمين الذين كانوا يقيمون على الحدود الغربية من مملكته (١) . وفى مستهل القرن السادس عشر ، بينما كانت مملكة عدل الإسلامية القوية الواقعة بين بلاد الحبشة والأطراف الجنوبية للبحر الأحمر وغيرها من الممالك فى عداء مستحكم مع القوة المسيحية ، كانت هنـــاك ممالك أخرى تؤلف جماعة مسالمة خاضعة للقديس يوحنا Prester John . ومن أمثلة هؤلاء قوم من العرب ، كانوا يسكنون فى مصوع ، ويعيشون فى كنف السادة الأحباش ، وكانوا يطوفون فى جماعات ، كل منها يتألف من ثلاثين أو أربعين شخصاً ، ومعهم نساؤهم وأطفالهم ، وعلى رأس كل جماعة « قائدها » . وقد ذُكر كذلك أن بعض المسلمين كانوا من خدمة الملك ، وأنه كان يسند إليهم مناصب هامة فى الدولة . وفى الوقت الذى نرى فيه بعض هؤلاء يغالون على إخلاصهم للاسلام ، نجد بعضاً آخر ينتحل الديانة السائدة فى البلاد . أما أن هـــذه الجماعات الإسلامية كانت تؤدى الجزية لملك الحبشة ، فهذا أمر لا نستطيع التثبت منه . وقد كان على مسلمى هدية أن يدفعوا جزية أخرى للملك ، وهى أن يعطوه فى كل سنة بنتاً ينصرها له ، وجدت هذه العبارة فى بلدهم بمقتضى معاهدة كان ملك الحبشة يحكم دائماً بها ، « وكان أقوى منهم » ، ثم إنه حكم عليهم ألا يلبسوا اعدة الحرب ، ولا يمسكوا السيف ، ولا يركبوا خيولهم بالسروج ، قالوا : « وحكم علينا ... ونطيعه مخافة أن يقتلنا ، ويخرب مساجدنا . وإذا أرسل إلينا الذى يتقبل البنت والمـــال ، أخرجنا له البنت على السرير ، ونغسلها ونكفنها بثوب ونصلى عليها ، ونحسب أنها ميتة ، ونعطيها له ، فإنا وجدنا آباءنا وأجدادنا يفعلون ذلك » (٢) .

وكانت البقاع الرئيسة التى يقطنها هؤلاء المسلمون الذين يدفعون الجزية لملك الحبشة واقعة فى الأراضى المنخفضة التى تؤلف حدود الحبشة الشمالية ، من البحر الأحمر غرباً حتى سنار (٣) ، وفى الجهة الجنوبية والجنوبية (٤) الشرقية من المملكة . وإن القول بما كان لهؤلاء المسلمين من تأثير فى الشعوب المسيحية التى اختلطت بهم ، وأنهم عملوا على تحويل الناس إلى الإسلام ، كما حدث فى القرن الحالى ، لا يعدو الحدس والتخمين . ولكن هناك أمراً لا شك فيه ، وهو ما فعله أحمد جرانى أمير عدل المسلم المستقل ، وهو يروى عن نفسه أنه كان ابن أحد قساوسة أيجو Aijo المسيحيين ، وكان قد ترك موطنه ودخل فى الإسلام فى عدل (٤) ، ـ قد غزا بلاد الحبشة من سنة ١٥٢٨ إلى ١٥٤٣ ، وانضم إلى جيشه الظافر كثير من زعماء الأحباش مع أتباعهم ، وأصبحوا مسلمين . ومع أن أهالى بعض المقاطعات من المسيحيين قد آثروا أداء الجزية (٥) ،

---

(١) Id., p. 237.

(٢) عرب فقيه ص ٢٧٥ — ٢٧٦

(٣) نفس المرجع ص ٢١٩ ، ٢٢٤

(٤) نفس المرجع ص ٢٨ ، ١٢٩ ، ٢٧٥

(٥) Plowden, p. 36.

وانتحل آخرون دين الفاتحين (١) . غير أن المؤرخ المسلم المعاصر نفسه يذكر لنا أن هذا التحول إلى الإسلام كان فى بعض الحالات نتيجة الخوف ، وأن الشكوك كانت تساور النفوس حول إخلاص هؤلاء القريبى العهد بالإسلام (٢) . ولكن من الجلى أن مثل هذه الحالة لم يكن عاماً بين الناس . وإن هذا التحول الواسع النطاق إلى الاسلام فى مقاطعات كثيرة ، ليوحى بأن هذه الحركة كانت قد لقيت تأييداً من العامة ، فقد استغل الزعماء المسيحيون الذين تحولوا إلى الاسلام نفوذهم الشخصى فى تحريض جيوشهم على الاقتداء بهم . ويقال إن فريقاً منهم كانوا على جهل تام بأصول دينهم (٣) ، ومن ثم كان تغيير الدين أمراً أقل صعوبة عليهم . وقد تحول إلى الإسلام بمثل هذه الطريقة الآلية كثير من الناس وخاصة زعماء المسلمين ، هؤلاء الذين كانوا قد دخلوا فى خدمة ملك الحبشة ، وأولئك المرتدون الذين اتخذوا من غزو بلادهم على أيدى جيش المسلمين الهائج فرصة لأن ينبذوا فى الحال المسيحية ، وطاعتهم للملك المسيحى ، وأن يعلنوا إسلامهم من جديد (٤) .

وفى سنة ١٥٣١ م كتب أحد هؤلاء إلى أحمد جرانى كتاباً هذا نصه : « أنا من أول مسلم وابن مسلم ، وأسرونى المشركون ، ونصرونى ؛ وإن قلبى مطمئن بالايمان ، والآن أنا جار الله وجار رسوله وجارك ، أن تقبل توبتى ولا تؤاخذنى بما عملته ، فأنا تائب إلى الله ، وهذه جيوش الملك الذين هم معى ، أنا أحتال عليهم حتى يدخلوا عندك ويسلموا » . ـ وفى الحق آثر السواد الأعظم من جيشه أن يقتدوا بقائدهم ، فأسلموا جميعهم ، وهم ـ فيما يقال ـ نحو عشرين ألفاً مع نسائهم وأولادهم (٥) .

ولكن الأحباش استطاعوا بمعونة البرتغاليين أن يخلعوا نير الغزاة المسلمين ، وقُتل أحمد جرانى نفسه فى سنة ١٥٤٣ . ومع ذلك استقرت دعائم الاسلام فى تلك البلاد . وإن حالة القلق التى أصابت مرافق البلاد فى البقية الباقية من القرن السادس عشر ، وفى القرن الذى يليه ، قد مكنت الإسلام من البقاء ، فقد كانت الكنائس المسيحية المتنافسة مشغولا بعضها بالتنازع مع بعض انشغالا لم يمكنها من التفرغ لعدوها المشترك . فإن ما قام به اليسوعيون من أعمال ناجحة فى التبشير ، وما فعله المبشرون الآخرون من الرومان الكاثوليك ، وما صنعه البرتغاليون من تدخل فعال فى كل الشئون المدنية والسياسية ـ كل ذلك قد أثار مقاومة عنيفة بين جمهرة مسيحى الحبشة . وكان هذا الشعور مؤلما حقاً ، حتى لقد بلغ من ألمه أن بعض القواد قد أعلن صراحة أن من الخير لهم أن يخضعوا للحاكم المسلم من أن يظلوا على محالفة البرتغاليين (٦) ؛ ـــ وسرعان

(١) نفس المرجع والصفحات .

(٢) ص ١٧٥ ، ١٩٥ ، ٢٤٨ .

(٣) نفس المرجع ص ١٧٨

(٤) عرب فقيه ص ٣٤ — ٣٥ ، ١٢٠ — ١٢١ ، ١٨٢ — ١٨٣ ، ٢٤٤ ، ٢٢٧ .

(٥) عرب فقيه ص ١٨١ — ١٨٢ ، ١٨٦

(٦) Iobi Ludolfi ad suam Historiam Æthiopicam Commentarius, p. 474. Frankfurt a. M., 16971.

ما اتخذت الحركة شبه الدينية ، وشبه الوطنية التي استقرت هنالك مثل هـذه الخطوات الواسعة التي أدت (حول سنة ١٦٣٢) إلى طرد البرتغاليين وإخراج كل المسيحيين الأجانب من البلاد . وسرعان ما أصبحت حالة بلاد الحبشة في ذلك الحين ضرباً من الفوضى المزعجة وسوء النظام . وقد استغل بعض قبائل الجلا Galla هذه الفرصة فشقت طريقها إلى قلب البـــلاد حيث لا تزال الأماكن التي استوطنوها باقية إلى الوقت الحاضر .

ويمكن أن يقدر المرء مدى التقدم الذي أحرزه الإسلام في خلال هذه الفترة مما أثبته رحالة عاش في القرن السابع عشر، إذ يذكر لنا أن منتحلي هذا الدين كانوا في ذلك الوقت منبثين في جميع أنحاء بلاد الحبشة وأنهم يؤلفون ثلث جميع السكان[1]. ويلوح أن دين النبي قد كثر في خـــلال القرن الذي يليه عن طريق إسلام أفراد كانوا يعيشون في عزلة هنا وهناك . وقد ساعد عدم وجود أية حكومة مركزية قوية على ظهور أمراء مستقلين ، وكان كثير منهم يعطف على الإسلام عطفاً شديداً ، مع أن كل أمراء الحبشة (وذلك طبقاً لأحد القوانين الأساسية للدولة) لم يكن بد من أن يتبعوا الدين المسيحي . وكذلك تنكر المسلمون لدياناتهم التي نشئوا عليها ، تطلعاً إلى عظمة الأرستقراطية الحبشية ، وتظاهروا بالتحول إلى المسيحية حتى يتمكنوا من الانتظام في سلك الأشراف ، واستخدموا كل ما لهم من نفوذ في نشر الإسلام [2] بكونهم حكاماً على الولايات المسيحية . ويظهر أنه كان من أهم الأسباب التي أدت إلى نجاح هذا الدين ما كان للمسلمين من تفوق أدبي إذا ووزنوا بسائر أهالي الحبشة من المسيحيين .

ويقول ريبل Rüppell إنه كثيراً ما لاحظ في خلال رحلاته في بلاد الحبشة ، أنه عند ما يراد شغل منصب من المناصب التي تتطلب أن يكون الشخص الذي يشغلها أميناً كل الأمانة ، موثوقاً به تمام الثقة ، كان اختيارهم يقع دائماً على شخص مسلم . وقد عقد الكاتب مقارنة بينهم وبين المسيحيين ، فقال إنهم (أي المسلمين) كانوا أكثر حيوية ونشاطاً ، فقد التزم كل مسلم تعليم أبنائه القراءة والكتابة ، في الوقت الذي نرى فيه أبناء المسيحيين لا يتعلمون إلا عند ما يزمعون القيام بأعمال الكهنوت[3] . وإن ما ناله مسلمو الحبشة من هذا التفوق الأدبي على الأهالي المسيحيين ، ليفسر لنا إلى حد بعيد ما أحرزه الاسلام من تقدم مستمر ، وإن كان بطيئاً في خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وإن ما اتصف به رجال

---

(١) Histoire de la Haute Ethiopie, par le R. P. Manoel d'almeïda, p. 7. (Thevenot, vol. ii.)

(٢) Massaja, vol. ii. pp. 205-6. ،،ومن الواضح أن ارتداداً نتج عن حب السيطرة . لم يكن في الواقع إلا تنفيذ إجراء شكلي ، إذ أن هؤلاء المرتدين كانوا مسلمين حقيقيين في قلوبهم وسلوكهم ، ومن ثم كانوا إذا ما ارتقوا إلى رتبة ،،راس،، يحيطون أنفسهم بالمسلمين ، ويعهدون إليهم في أكثر الوظائف ويغمرونهم بالألقاب والثروة والنعم . وهكذا انضوت الحبشة المسيحية المجتاحة والآهلة بهذا الجنس السيء ، تحت لواء الاسلام ،، .

(٣) Rüppell, vol. i. pp. 328, 366.

الكنيسة الحبشية من انحطاط وجمود ، وما شجر بين زعماء الحبشة من منازعات لا حد لها ، قد أفسحت للمؤثرات الاسلامية المجال لتعمل فى حرية واطمئنان .

وعند ماتحدث مستر بلودن Plowden قنصل إنجلترا فى بلاد الحبشة من سنة ١٨٤٤ إلى ١٨٦٠ م، عن قبائل الحباب وهى ثلاث قبائل تنتمى إلى فرع التيجرى Tigré ، وكانوا يقطنون بين خطى عرض ١٦° ٣٠َ ١٧° إلى الشمال الغربى من مصوع ، قال إنهم اعتنقوا الاسلام ، فى خلال مائة العام الأخيرة . وكلهم ما عدا الجيل الأخير ، يحملون أسماء مسيحية . وقد غيروا دياناتهم لما كان للمسلمين الذين كانوا يتجرون معهم من تأثير متصل ، وبما صنعه زعماء الحبشة من تركهم البلاد تدريجياً ، وقد أصبح الآن شاملا ، لفرط انشغالهم مع جيرانهم فى حروب لا تنقطع (١) . ومن أساطيرهم أن أحد زعمائهم ويدعى جاوج Jâwej قد رفض المسيحية ودخل فى الإسلام، اعتقاداً منه أن هذا الدين يورث حسن الحظ وطول العمر، قال حينئذ لقسيسه : « حطّم التابوت قطعة قطعة(٢) » فأجاب القسيس : « إنى لا أجرؤ على أن أحطم تابوت مريم قطعة قطعة » عند ذلك أمسك جاوج التابوت بيديه ثم أهوى عليه بفأسه ، فهشمه قطعاً ، وهنا اعتنق القسيس الاسلام ، وأصبح كل ذراريهم شيوخاً للقبيلة حتى الوقت الحاضر (٣).

وفى هذه الفترة ذاتها تحولت جموع أخرى من أهالى المقاطعات الشمالية فى هـــذه البلاد إلى الإسلام بطريقة مماثلة ، ذلك أن القساوسة كانوا قد هجروا هذه المقاطعات وتعرضت الكنائس للخراب ، ــ ولم يكن ذلك فيما يظهر إلا نتيجة الإهمال ، إذ يقال إن المسلمين فى تلك البلاد لا يعرفون التعصب فى أية صورة من صوره ، ولا يضمرون للمسيحية أى نوع من العداء(٤). وهناك شهادة مماثلة أدلى بها رحالون آخرون(٥) تؤيد تقدم الاسلام فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى ، فقد وجد هؤلاء الرحالون جموعاً من المسيحيين فى تحول مستمر إلى هذا الدين . وقد عطف على المسلمين بوجه خاص (راس على) أحد نواب الملك فى بلاد الحبشة ، وكانت له السيادة الفعلية على هذه البلاد قبل أن يجلس الملك تيودور على عرشه سنة ١٨٥٣ . ومع أن هذا النائب نفسه كان مسيحياً ، فقد قسم مناصب الدولة ، بل ماغنمه من الكنائس بين أتباع الدين الإسلامى . وفى أثناء حكمه اعتنق دين النبى نصف أهالى الولايات الوسطى من بلاد الحبشة (٦) . وقد مد هـذا الدين الآن جذوراً بعيدة الغور فى أرض الحبشة ، حتى إن أتباعه ملكوا ناصية التجارة كلها ، كما ملكوا المهن الصغيرة

---

(١) Plowden, p. 15.

(٢) أى تابوت العهد.

(٣) Littmann, pp. 69-70.

(٤) Plowden, pp. 8-9.

(٥) Beke, pp. 51-2. Isenberg, p. 36.

(٦) Massaja, vol. xi. p. 125. Reclus, vol. x. p. 247.

بأنواعها فى البلاد ، ونعموا بأملاك واسعة ، وسيطروا على مدن كبيرة وأسواق هامة ، وظفروا بنفوذ قوى على جمهرة الشعب . وقد قدر مبشر مسيحى ، عاش فى هذه البلاد خمساً وثلاثين سنة ، نجاح دعاة المسلمين وحماستهم تقديراً عظيماً بقوله : لو أن هناك أحمد جرانى آخر ينهض وينشر راية النبى ، لصارت بلاد الحبشة مسلمة بأسرها(١) . وقد أدى الشقاق الذى وقع بين الحبشة والحكومة المصرية (التى اشتبكت معها فى حرب من سنة ١٨٧٥ إلى ١٨٨٢) إلى إحداث شعور استياء فى وجه الإسلام : فقد انعكست كراهيتهم للعدو الأجنبى المسلم على إخوانهم فى الدين الذين أقاموا بين ظهرانيهم . وفى سنة ١٨٧٨ عقد الملك جون مجمعاً يضم رجال الكنيسة الحبشية ، ونادوا به حكماً أعلى فى المسائل الدينية ، وقرروا وجوب الاقتصار على دين واحد فى كافة أنحاء المملكة . وأعطى المسيحيون على اختلاف طوائفهم ما عدا اليعاقبة ، مهلة عامين ليصبحوا فيها متفقين فى الرأى مع كنيسة البلاد . وألزم المسلمون بالتسليم فى خلال ثلاث سنين ، والوثنيون فى خلال خمس . وأذاع الملك مرسوماً بعد ذلك بأيام قليلة ، أوضح فيه أن مهلة السنوات الثلاث التى منحها المسلمون كانت قليلة الأهمية ، وذلك أنه لم يقتصر على إلزامهم ببناء كنائس مسيحية متى كانوا فى حاجة إليها ، ودفع العشور للقساوسة الذين يقيمون فى مقاطعاتهم الخاصة ، بل أنذر كل الموظفين المسلمين بأن يختاروا فى خلال ثلاثة أشهر بين قبول التعميد أو التخلى عن مناصبهم . وكان مثل هذا التنصير الاجبارى الذى لا يشتمل إلا على طقوس العماد ودفع العشور) عديم الأثر بطبيعة الحال . فى الوقت الذى تظاهر المسلمون فيه بالقبول كانوا فى الخفاء يؤكدون ولاءهم لدينهم القديم . وقد شاهد مسّاجا بعضاً من هؤلاء يخرجون من الكنيسة التى عمدوا فيها قاصدين المسجد ، يلتمسون فيه رجلا مباركا من رجال دينهم ، يمحو عنهم ما لحقهم من التعميد الذى أرغموا عليه(٢) . وإن ما جعل كل هذا التنصير أضعف أثراً وأقل قيمة هو أنه كان مقصوراً على الرجال دون النساء ، ذلك أنه لما كان المرسوم الملكى لم يشر إلى النساء فى قليل ولا كثير ، فانهن لم يتعرضن لسوء بحال ، — وهى حالة ربما دلت على معنى كبير فيما سيحدث بعد فى مستقبل الإسلام فى بلاد الحبشة ، كما أن مساجا يقيم البرهان الساطع على ما قام به النساء المسلمات من دور خطير فى سبيل نشر دينهن فى هذه البلاد(٣) ، فيقول إن الملك جون أرغم حول سنة ١٨٨٠ ما يقرب من خمسين ألفاً من المسلمين على التعميد ، كما أجبر عشرين ألفاً من أفراد إحدى القبائل الوثنية ونصف مليون من قبائل الجلا (٤) . ولكن لما كان تنصيرهم لم يتجاوز التعميد ودفع العشور ، فلا عجب اذا عرفنا أن هذه الوسائل التى تقوم على العنف والارهاب ، لم تؤد إلا إلى زيادة العداوة والبغضاء فى نفوس الأحباش المسلمين

---

(١) Massaja, vol. xi. p. 124.

(٢) Massaja, vol. xi. pp. 77-8.

(٣) Id. pp. 124, 125.

(٤) Oppel, p. 307. Reclus, tome x. p. 247.

والوثنيين جميعاً نحو الدين المسيحي[١]. وقد اغتنم ملك ولاية كافا Kafa الصغيرة (التي كانت تعترف بالسيادة الحبشية بصفة دائمة تقريبا) - واسمه Sawo-Teheno - فرصة ارتباك الملك جون الذي هدده الايطاليون وأتباع المهدى فى وقت واحد، فأعلن (ملك كافا) استقلاله واعتنق الاسلام ليكون بذلك أقوى نفوذا فيا يعمل. وقد أفلح فى مقاومة كل هجوم حتى سنة ١٨٩٧، حين غزيت ولايته مرة أخرى وأسره الإمبراطور منليك ملك شوا Shoa السابق، الذى وطد سلطانه فى جميع أنحاء بلاد الحبشة بعد وفاة الملك جون سنة ١٨٨٩. وعاد الدين المسيحى دينا رسمياً فى ولاية كافا بأسرها، وتجددت العبادة المسيحية فى الكنائس التى تركت لم تمس بسوء، وكان بعضها قد أغلق أو تحول إلى مساجد [٢]. ولكن هذه التدابير الصارمة التى اتخذت لصالح المسيحية قد أخفقت فى وقف نمو النفوذ الاسلامى فى خلال القرن التاسع عشر. فقد أسلمت قبائل بأجمعها، كانت يوماً ما تدين بالمسيحية، ولا تزال تحمل أسماء مسيحية، مثل قبائل تاكليه Taklès (أى نبات يسوع)، وهبتيه Hebtès (عطية يسوع)، وتماريام Temaryam (عطية مريم). وكانت قبيلتا منساع Mänsa مسيحية بأسرها حول منتصف القرن التاسع عشر، ثم دان السواد الأعظم منهما بالاسلام فى مستهل القرن العشرين. ويلوح أن الجهود التى قام بها دعاة المسلمين الذين أدخلوهم فى الإسلام كانت ممهدة السبيل بسبب جهل رجال الكنيسة. كذلك قامت حركة عائلة لنشر الإسلام، ظلت مستمرة بعض الوقت بين قبائل أخرى [٣].

ولنعد الآن إلى تاريخ إفريقية فى القرن السابع الميلادى عند ما كان العرب يسيرون بفتوحاتهم قدما من الشرق إلى الغرب على طول الساحل الشمالى. وقد كان فتح مصر أمراً ميسوراً بالنسبة إلى غيره من الفتوح، حيث قامت جموع غفيرة من السكان بمساعدة العرب فى وضع حد للحكم البيزنطى. ولا مجال للمقارنة بينه وبين تلك المعارك الدامية، والمقاومة المتوالية الطويلة الأمد التى حالت دون التوغل فى تقدمهم فى فتح إفريقية. وقد مضى نصف قرن قبل أن يظفر العرب بالسيادة التامة على الساحل الشمالى الذى يمتد من مصر إلى المحيط الأطلسى. ولم تكد قرطاجنة تسقط سنة ٦٩٨ م حتى زال الحكم الرومانى من إفريقية زوالا لارجعة له، كما أن إخضاع البربر قد مكن العرب من أن يصبحوا سادة هذه البلاد.

وليس من غرضنا فى هذا الكتاب أن نتعرض لتفاصيل هذه الغزوات، وإنما يحسن بنا أن نحاول البحث عن الطريقة التى انتشر بها الاسلام بين أهالى هذه البلاد المسيحيين. ويؤسفنا أن المادة التاريخية التى تعيننا على تحقيق هذا الغرض قليلة غير وافية. فما ذا كان مصير تلك الكنيسة الإفريقية الكبرى التى كانت

(١) Massaja, vol. xi. pp. 79, 81.

(٢) Morié, vol. ii. p. 449.

(٣) Littmann, pp. 68-70. K. Cederquist: Islam and Christianity in Abyssinia, p. 154 (The Moslem World, vol. ii.).

قد أمدت العالم المسيحى بأمثال هؤلاء القديسين ورجال الدين ؟ لقد زالت كنيسة ترتوليان Tertullian ، وكنيسة القديس سايبريان Cyprian وكنيسة القديس أوجوسطين Augustine ، التى كانت قد خرجت ظافرة من أمثال هذه الاضطهادات الكثيرة ، والتى ناضلت فى قوة وعنف عن قضية الأرثوذكسية المسيحية ، كل ذلك ، فيما يظهر ، قد تلاشى كما يتلاشى الضباب .

ولما لم يكن ثمة أخبار محدودة واضحة ، تعود بعض الباحثين أن ينسبوا اختفاء المسيحيين من أهالى تلك البلاد إلى اضطهاد الفاتحين المسلمين الذى أملته عليهم روح التعصب الدينى وإكراههم على الدخول فى الإسلام . ولكن هناك اعتبارات شتى تدفع ما استقر عليه الرأى فى هذه المسألة الشائكة . أولها عدم وجود الدليل البين الذى يؤيد مثل هذا الرأى . لقد كانت هنالك المذابح وأعمال التدمير ، وكل ما اقترن بحروب دامية طويلة الأمد ، وكانت من الكثرة بحيث تثير الرعب والفزع ، أما ما يتعلق باضطهاد دينى حدث فعلا فإن المؤرخين لم يذكروا عنه إلا شيئاً قليلا . وإن بقاء الكنيسة المسيحية الوطنية بعد الفتح العربى أكثر من ثمانية قرون ، لشاهد على روح التسامح التى استطاعت وحدها أن تجعل مثل هذا البقاء أمراً ممكناً .

فمن اللازم أن نلتمس الأسباب التى مهدت السبيل إلى تدهور المسيحية فى شمال إفريقية ، فى شىء آخر أكثر مما نلتمسها فى تعصب الولاة المسلمين . ولكن قبل أن نحاول بسط هذه الأسباب ، يجدر بنا أن نتبين كيف أن عدد الأهالى المسيحيين فى نهاية القرن السابع الميلادى كان لا بد أن يكون قليلا جداً — وهذه حالة تجعل استمرار بقائهم فى ظل الحكم الإسلامى أقوى دلالة على انعدام وسائل العنف والإكراه فى التحول إلى الإسلام . كما أن هذه الحالة تجعل مثل هذا الزعم واهياً لا ينال شيئاً يذكر من القبول بالنسبة إلى ما كانت تكون عليه الحال لو أن العرب وجدوا هناك كنيسة عظيمة مزدهرة ، عند ما أخذوا فى فتح إفريقية الشمالية .

وإن الولايات الرومانية فى إفريقية التى كان الأهالى المسيحيون محصورين فيها لم تمتد قط بعيداً إلى الجنوب ؛ فإن الصحراء الكبرى تقف حاجزا منيعا فى هذا الاتجاه ، حتى إن اتساع الساحل لا يتجاوز ثمانين أو مائة ميل إلا فى القليل النادر[١] . ومع أنه كان هناك قبيل غزو الوندال عدد كبير من الأسقفيات ، قد يبلغ الخمسمائة ، لا يجوز أن يكون هذا العدد مقياساً لعدد المؤمنين من المسيحيين ، نظرا لما جرت عليه العادة التى كانت متبعة فى الكنيسة الإفريقية من تعيين أساقفة فى معظم المدن الصغيرة الشأن ، والإكثار من تعيينهم على أغلب القرى التى لا شأن لها[٢] . ثم إننا لا نشك فيما إذا كانت المسيحية قد امتدت إطلاقاً بين قبائل البربر[٣] إلى المناطق الداخلية ، وعند ما انحلت قوة الدولة الرومانية فى القرن الخامس الميلادى ، احتشدت قبائل مختلفة ، تنتمى إلى ذلك الجنس العظيم ، وهم الذين يعرفون عند الرومان بأسماء البربر Moors

---

(١) Gibbon, vol. i. p. 161.

(٢) Id. vol. ii. p. 212.

(٣) C. O. Castiglioni : Recherches sur les Berbères atlantiques, pp. 96-7 (Milan, 1826.)

وأهالى إقليم الزاب (Numidians) والليبيين Libyans الخ . . . احتشدت فى جماعات كثيفة ، وسارت من الجنوب تعيث فى الأرض فسادا ، وتخرب المدن الغنية التى تقع على الساحل . هؤلاء الغزاة كانوا وثنيين من غير شك . فهؤلاء الليبيون الذين رثى سينيسيوس القوريناثى Synesius of Cyrene ما قاموا به من أعمال التدمير والتخريب رثاء رقيقاً شجياً ، قد نهبوا الكنائس ، وأحرقوها ونقلوا الآنية المقدسة لاستخدامها فى عباداتهم الوثنية الخاصة[١]. ولم تفق ولاية برقة Cyrenaica هذه أبداً مما قاموا به من أعمال التدمير . والراجح أن المسيحية فى هذه الولاية كادت تزول فى زمن الغزو الإسلامى وإن زعيم البربر فى مقاطعة طرابلس Tripolis الذى كان فى حرب مع ثورسمند Thorismund ملك الوندال (٤٩٦—٥٢٤م) ، لم يحترم إلا الكنائس الأرثوذكسية ورجالها الذين كانوا يلقون سوء المعاملة من الوندال . هذا الزعيم قد جهر بدينه الوثنى حين قال : « لست أعرف من يكون إله المسيحيين ، ولكنه إذا كان قوياً كما يصورونه ، فإنه سيثأر من هؤلاء الذين يحقرون من شأنه ، ويخلص هؤلاء الذين يمجدونه »[٢]. وهناك نوع من الاحتمال أن الكثرة المطلقة من بدو مرطانية Mauritania كانوا كذلك يدينون بالوثنية .

على أنه مهما يكن اتساع الكنيسة المسيحية فقد تلقت من اضطهادات الوندال ضربة لم تفق منها أبداً . فقد ظل الوندال الآريون قرابة قرن من الزمان ، يضطهدون الأرثوذكس اضطهاداً عنيفاً لا هوادة فيه ، فشردوا أساقفتهم ، وحرموا الجهر بإقامة شعائرهم الدينية ، وقسوا فى تعذيب هؤلاء الذين أبوا أن يدخلوا فى ديانة من فتحوا بلادهم[٣] . فلما سحق بليزاريوس Belisaruis قوة الوندال سنة ٥٣٤ م ، وأعاد شمال إفريقية إلى الدولة الرومانية ، لم يلتق فى مجمع قرطاجنة[٤] إلا ٢١٧ أسقفاً لاستئناف إدارة الكنيسة المسيحية . وبعد أن تعرضوا لاضطهاد مرير طويل الأمد ، استسلموا له مكرهين ، لم يكن بد من أن ينقص عدد المخلصين للدين نقصاً كبيراً . وفى خلال القرن الذى انقضى قبل قدوم المسلمين ، حدثت غارات قام بها البرابرة من قبائل المغرب الذين قطعوا الطريق على الرومان فى المدن وغيرها من المراكز الآهلة بالسكان ، واحتفظوا لأنفسهم بالجبال والصحراء والبلاد المكشوفة[٥]. فإن انتشار الفوضى وفساد الأداة الحكومية ، فضلا عن تفشى الأوبئة الفتاكة التى تميز بها النصف الثانى من القرن السادس — كل هذه الأمور تضافرت على استمرار أعمال التخريب . وقد قيل إن الحروب وحكومة الإمبراطور جستنيان قد أفنت خمسة ملايين من الإفريقيين . وهجر المواطنون الذين كانوا أيسر حالا بلاداً كانت فيها التجارة والزراعة من قبل مزدهرة أيما ازدهار ، ولكنها أصبحت الآن خراباً لا سبيل إلى علاجه . وهكذا تم خراب إفريقية ، حتى إن

(١) Synesii Catastasis. (Migne : Patr. Gr., tom. lxvi. p. 1569.)

(٢) Neander (2), p. 320.

(٣) Gibbon, vol. iv. pp. 331-3.

(٤) Id. vol. v. p. 115.

(٥) التيجانى ص ٢٠١ . Gibbon, vol. v. p. 122.

الغريب كان يطوف فى كثير من أنحائها ، أياما كاملة دون أن يصادف وجه صديق أو عدو . زالت أمة الوندال ، وكان قد بلغ عدد أهلها من قبل مائة وستين ألفاً من المحاربين ، عدا الأطفال والنساء والعبيد . وكانت تزداد جموعهم زيادة لا حد لها ، بانضمام عدد من العشائر البربرية التى انقرضت فى إحدى الحروب الطاحنة الداميـة . كذلك حل الدمار نفسه بالرومان وحلفائهم الذين أهلكهم المناخ والمنازعات المتبادلة وثورة البرابرة »(١) .

وحدث قبل أن يتقدم العرب الظافرون من مصر لإخضاع الولاية الغربية بعام أى فى سنة ٦٤٦ م ، أن الكنيسة الإفريقيـــة التى ناضلت كثيراً فى سبيل تطهير العقيدة المسيحية ، قد أثارها إلى أبعد حد ما قام من صراع ضـد المذهب القائل بأن للمسيح مشيئة واحدة Monotheletism ؛ ولكن عند ما قام أساقفة الولايات الدينية الأربع فى أبرشية قرطاجنة : وهى مرطانية Mauritania وإقليم الزاب Numidia والولاية الداخلية Byzacena وولاية إفريقية القنصلية(†) Africa Proconsularis ، وعقدوا مجامع لإدانة أنصار هذا المذهب ، وكتبوا خطابات عفلية إلى كل من الامبراطور والبابا ، لم يكن هناك إلا ثمانية وستون أسقفا اجتمعوا فى قرطاجنة ليمثلوا هذه الولايات الأخيرة ، واثنان وأربعون يمثلون الولاية الداخلية . أما عدد الذين مثلوا الأسقفيتين الأخيرتين ، فلم يذكر عنهم شىء ، غير أن الأهالى المسيحيين كانوا من غير شك قد عانوا فى هاتين الأسقفيتين أشد كثيراً مما كانت تعانيه الأسقفيتان الأخريان اللتان كانتا أقرب إلى مقر الحكومة (٢) . وليس من المحتمل بحال أن يتخلف أسقف من الأساقفة عن الحضور فى مناسبة أثارت شعوراً كبيراً ، فى الوقت الذى تضافرت فيه الحماسة فى سبيل العقيدة المسيحية والخصومة السياسية للبلاط البيزنطى على تشجيع هذه الحركة ، وفى الوقت الذى أخذت فيه إفريقية على عاتقها نصيباً كبيراً من إثارة المعارضة التى أدت إلى انعقاد مجمع لاتيران Lateran الأعظم سنة ٦٤٨ م . ومن المؤكد أن النقص فى عدد الأساقفة يدل على نقص كبير فى عدد الأهالى المسيحيين . وإذا نظرنا إلى الأسباب المتعددة التى أدت إلى تأخر الأهالى ، فلا ينبغى كذلك أن نجعل أهمية كبيرة جداً لعدد هؤلاء ، لأن من الممكن أن يظل أى كرسى من كراسى الأسقفية مشغولا زمنا طويلا بعد أن يخمل ذكر الأسقفية وتصبح قليلة الخطر .

ومن الاعتبارات التى ذكرناها من قبل ، يمكن أن نستنتج فى شىء من التأكيد أن الأهالى المسيحيين فى وقت الغزو الاسلامى لم يكن عددهم كبيراً بحال من الأحوال . وقد ظل عدد الأهالى المسيحيين فى خلال

---

(١) Gibbon, vol. v. p. 214.

(†) وكانت هذه الولاية تضم ولاية إفريقية الأصلية والجزء الشرقى من تونس الحالية الذى كان يسمى زوجيتانا Zeugitania ، والمنطقة الداخلية منها التى تمتد حتى قوان المسماة بيزاسينا — الدكتور حسين مؤنس : فتح العرب المغرب (القاهرة ١٩٤٧) ص ٢ .

(٢) Neander (1), vol. v. pp. 254-5. J.E.T. Wiltsch: Hand-book of the geography and statistics of the Church, vol. i. pp. 433-4. (London, 1859.) J. Bournichon: L'Invasion musulmane en Afrique, pp. 32-3, (Tours, 1890.)

الخمسين عاما التى انقضت قبل أن يحرز العرب انتصارهم ، ينقص شيئاً فشيئا من جراء ما أصابهم من أعمال التخريب فى هذا النزاع الطويل . فقد نهبت مدينة طرابلس بعد أن قاست الحصار ستة أشهر ، وقتل جانب من السكان بحد السيف ، وسيق الآخرون أسرى إلى مصر وبلاد العرب (١) . ودافع أمير رومانى عن مدينة أخرى كانت تتاخم الصحراء النوميدية ، ومعه حامية كبيرة تحملت بشجاعة حصاراً دام عاماً كاملا ؛ ولما أخذت المدينـــة عنوة آخر الأمر أعدم جميع الرجال بالسيف ، ووقع النساء والأطفال فى الأسر (٢) . وقد قيل إن عدد أمثال هؤلاء الأسرى بلغ كثيراً من مئات الآلاف (٣) . كما فر كثير من المسيحيين (٤)، بعضهم إلى إيطاليا وأسبانيا (٥) ، وآخرون يلوح أنهم قد طوفوا فى الآفاق حتى بلغوا ألمانيا ، نستدل على ذلك مما كتبه البابا جريجورى الثانى Gregory II فى خطاب أرسله إلى أسقفية القديس بونيفاس St. Boniface (٦) . وفى الواقع إن كثيراً من المدن الرومانية الكبرى قد أخليت من سكانها إخلاء تاماً ، وظلت خاوية على عروشها وقتاً طويلا وتركت لتصبح أطلالا بالية (٧) ، على حين اختار الفاتحون كما حدث فى أحوال كثيرة ، مواقع جديدة تماما لتأسيس مدنهم الهامة (٨) .

أما البقايا المبعثرة للكنيسة المسيحية التى كانت مزدهرة من قبل ، والتى كانت لاتزال باقية فى إفريقية فى نهاية القرن السابع ، فمن الصعب أن نزعم أن الاضطهاد هو المسئول عن فنائها النهائى ، إذا واجهنا الحقيقة القائلة بأن آثار طائفة مسيحية إفريقية كانت قائمة حتى فى عصر متأخر يرجع إلى القرن السادس عشر . ومن الحق ما يقال من أن إدريس مؤسس الأسرة الحاكمة فى مراكش ، وهى التى نسبت إليه وحملت اسمه ، قد أرغم النصارى واليهود على الدخول فى الاسلام فى سنة ٧٨٩ م ، عندما شرع فى تأسيس مملكة لنفسه بحد السيف (٩) . على أن هذه الحادثة ، لم يكن لها نظير فى تاريخ الكنيسة الوطنية فى إفريقية الشمالية (١٠) .

---

(١) Leo Africanus (Ramusio, tom. i. p. 70. D.)

(٢) ,, ومدينة ديسن Deusen قديمة جداً ، بناها الرومان على حدود مملكة Buggia وصحراء نوميديا ،، (Id. p. 75, F.)

(٣) Pavy, vol. i. p. iv

(٤) ,, وجميع الذين لم يتحولوا إلى الاسلام ، أو الذين تمسكوا بعقيدتهم وأبوا أن يلتزموا دفع ضريبة الرأس ، قد اضطروا إلى الفرار أمام الجيوش الاسلامية ،، (التجانى ص ٢٠١)

(٥) Leo Africanus (Ramusio, tom. i. p. 7.)

(٦) ,, كان بونيفاس لا يرحب مطلقاً بالافريقيين الذين أقبلوا من كل صوب على نظم الكنيسة ، لأنه قد ثبت أن بعضهم كان من أصحاب مانى ، وبعضهم الآخر كان قد عمد أكثر من مرة ،،

Epist iv. (Migne: Patr. Lat., tom. lxxxix, p. 502.)

(٧) Leo Africanus (Ramusio, pp. 65, 66, 68, 69, 76.)

(٨) تأسست القيروان سنة ٥٠ هـ ، وفاس سنة ١٨٥ هـ ، والمهدية سنة ٣٠٣ هـ ، ومسيلة سنة ٣١٥ هـ ، ومراكش سنة ٤٢٤ هـ . (أبو الفدا ج ٢ ص ١٩٨ ، ١٨٦ ، ٢٠٠ ، ١٩١ ، ١٨٧) .

(٩) ابن أبى زرع ص ١٦ .

(١٠) ولدينا حالة مشكوك فى صحتها تنسب إلى عبد المؤمن الذى فتح تونس سنة ١١٥٩ م ، أنه أرغم بعض الناس على الدخول

وإن انحلال الكنيسة فى بطء شديد لدليل على التسامح الذى لا بد أن تكون قد عوملت به هـــذه الكنيسة . فقد وجد بعد الفتح الإسلامى بثلاثمائة سنة تقريباً ما يقرب من أربعين أسقفية كانت لا تزال باقية هناك(١) ، وفى سنة ١٠٥٣م حزن البابا ليو التاسع على أنه لم يمكن أن يوجد إلا خمسة أساقفة يمثلون الكنيسة الإفريقية التى كانت من قبل تتمتع بالشهرة والازدهار(٢) . والأرجح أن سبب ذلك راجع إلى ما أحدثته الجماعات العربية من مجازر بشرية وتدمير فظيع ، تلك الجماعات التى تدفقت على هذه البلاد قبل ذلك ببضع سنوات ، وملئوا البلاد بالفوضى والمنازعات التى لم تنقطع(٣) . وفى سنة ١٠٧٦ م عجزت الكنيسة الإفريقية عن إعداد ثلاثة أساقفة قضت بهم الحاجة لرسم شخص كان يرغب فى منصب الأسقفية ، وذلك طبقاً لما تقتضيه الشريعة الدينية . وقد وجد البابا جريجورى السابع من الضرورى أن يرسم أسقفين ليعملا مساعدين لرئيس أساقفة قرطاجنة ؛ ولكن عدد المسيحيين كان لا يزال من الضخامة بحيث كان يتطلب إيجاد أساقفة جدد ليخففوا من عبء العمل الذى كان ثقيلا على هؤلاء الأساقفة الثلاثة ، حتى إنهم لم يستطيعوا القيام به دون معونة أو مساعدة(٤) . وفى خلال القرنين التاليين ، كانت حالة الكنيسة تزيد ضعفاً على ضعف . وفى سنة ١٢٤٦ كان أسقف مراكش هو الزعيم الروحى الوحيد الذى كان يشرف على البقية الباقية من الكنيسة القومية(٥) . وكانت آثار ما تبقى من المسيحية حتى هـذه الفترة ذاتها ، لا تزال

ـــــــــــــــ

= فى الاسلام بالقوة ، أنظر De Mas Latrie (2), p. 77-8 ،، وهنالك مؤلفان عربيان : أحدهما ابن الأثير الذى كان معاصراً ، إلا أنه كان يقيم فى دمشق فى وسط الثورة الدينية التى أثارتها انتصارات صلاح الدين ، والآخر التيجانى الذى زار إفريقية فى القرن الرابع عشر ــ هذان المؤلفان كتبا أن السلطان صاحب تونس أرغم المسيحيين واليهود القاطنين فى هذه المدينة على الدخول فى الاسلام ، وأن العصاة قتلوا بلا رحمة . ونحن نشك فى حقيقة وقوع هذه التدابير كلها ، إذ لو كان الأمر بالقتل قد صدر من السلطان فى نشوة النصر لاشباع بعض الرغبات الوقتية ، لكان من الواجب أن يعدل أو أن يرفض ، ما دام هذا الأمر يتنافى مع مبدأ الحرية الدينية الذى كان محترماً من كل أمراء المغاربة حتى ذلك الحين . أما الشىء المحقق فهو أن المسيحيين واليهود لم يظهروا متأخرين فى تونس ورأينا نرى المسيحيين ، قبل نهاية (عهد) عبد المؤمن قد استوطنوها ، ونعموا كما كانوا فى العهود السابقة ، بالحرية فى مزاولة تجارتهم وإقامتهم شعائرهم الدينية .... ويقول مؤلف عربى قديم ، إنه اخترق بلاد الزاب وإفريقية ، مؤيداً بالله فى خطواته ، مستولياً على البلاد والمدن ، معطياً الأمان لمن يطلبونه ، وقاتلا كل من يعصى أمره ؛ وتؤيد هذه الكلمات الأخيرة شعورنا إزاء ماسلكه نحو المسيحيين الذين قبلوا الحكم بالقتل الذى قضت به الأقدار . ،،

(١) De Mas Latrie (2), pp. 27-8.

(٢) S. Leonis IX. Papae Epist lxxxiii (Migne : Patr. Lat., tom. cxliii p. 728).

هـذه الرسالة تتناول موضوع نزاع على الأسبقية بين أساقفة جمى Gummi وقرطاجنة ، ومن المحتمل جداً أن تكون حالة الفوضى التى سادت إفريقية فى ذلك الحين ، قد جعلت أساقفة إفريقية لا يعرفون شيئاً عن الأسقفيات الأخرى ، فضلا عن أسقفياتهم أنفسهم تلك التى كانت ملاصقة لها . ومن ثم نرى الأخبار التى استقاها البابا قد صورت عدد الأساقفة أقل مما هو عليه فى حقيقة الأمر .

(٣) A. Müller, vol. ii. pp. 628-9.

(٤) S. Gregorii VII. Eipstola xix. (Liber tertius). (Migne : Patr. Lat., tom. cxlvii p. 449)

(٥) De Mas Latrie, p.226 . وأن عدداً من المسيحيين الأسبان ، الذين كان أجدادهم قد أبعدوا إلى مراكش سنة ١١٢٢ كانوا قد أقاموا هناك فى وقت متأخر ، يرجع إلى سنة ١٣٨٦ م ، حـــين سمح لهم بالعودة إلى شبيلية بفضل ما أسداه إليهم سلطان مراكش من حسن الصنيع فى ذلك الحين (Whishaw, pp. 31-4.) .

قائمة بين قبائل بلاد الجزائر(١) (†). وكانت هذه القبائل قد أحاطت فى زمن مبكر ببعض معلومات طفيفة عن مبادىء الإسلام ، ولكن هذا الدين الجديد لم يسيطر على نفوسهم إلا بمقدار يسير جداً ، ثم امحت من أذهانهم بمرور الزمن حتى تلك المعارف الضئيلة التى تعلموها بادىء الأمر ، إلى حد أنهم نسوا كيفية الصلاة فى الإسلام . ولما كانوا محصورين فى بقاعهم الجبلية المنيعة ، غيورين على استقلالهم ، فقد نجحوا فى مقاومة تسرب العنصر العربى إلى بيئتهم ؛ ومن هنا قامت فى سبيل تحويلهم إلى الإسلام صعاب جمة . وقد قام سكان دير كان تابعاً لطائفة القادرية ، وهم ساقية الحمراء ، ببعض محاولات غير ناجحة كانت ترمى إلى نشر الدعوة بينهم ، ولكن لم ينل شرف النفاذ إليهم ودعوتهم إلى الدين الإسلامى إلا عدد من بربر الأندلس طردوا من أسبانيا بعد سقوط غرناطة فى سنة ١٤٩٢ . وكانوا قد احتموا فى هذا الدير ، وتوسم فيهم « الشيخ » أنهم أليق من يضطلع بتلك المهمة الشاقة التى أعيت جهود تلاميذه من قبل إعياء تاماً . وقبل أن يبعثهم فى تلك المهمة الدينية خاطبهم قائلا : « إنه لواجب قد ألقى على عاتقنا أن نحمل مشعل الإسلام إلى تلك الأصقاع التى ضيعت ما ورثته من بركات هذا الدين ، ذلك أن هذه القبائل البائسة لم تزود مطلقاً بالمدارس ، وليس لديهم شيخ يعلم أبناءهم مبادىء الأخلاق وفضائل الإسلام . لهذا فهم يعيشون كالحيوان الأعجم ، لا يعرفون إلهاً ولا ديناً . ولكى ننزع عنهم هـــذه الشقاوات ، عقدت النية على أن أناشد غيرتكم الدينية وهدايتكم . لا تدعوا بعد اليوم سكان هذه الجبال غارقين فى حالة يرثى لها من الجهل بحقائق ديننا العظمى ؛ انطلقوا وانفخوا فى نيران دينهم الزائلة ، وأعيدوا إنارة جذوتها الخامدة ، طهروهم مما قد يظل عالقاً بهم من آثام من أثر اعتقادهم القديم فى النصرانية . فطّنوهم إلى أن الله لا يقبل الرجس فى دين سيدنا محمد ﷺ ، كما لا يقبله فى النصرانية(٢) . إننى لا أخفى عنكم أن مهمتكم محفوفة بالصعاب ، ولكن ما اتصفتم به من غيرة لا تقاوم ، وحماسة من أجل دينكم ، سيمكنكم بعون الله من تذليل كل الصعاب . انطلقوا يا أبنائى وأعيدوا إلى الله ورسوله مرة أخرى هذا الشعب الشقى المنغمر فى حمأة الجهالة والكفر . انطلقوا يا أبنائى واحملوا رسالة الخلاص أيدكم الله ووفقكم . »

وانطلق الدعاة جماعات ، كل جماعة تتألف من خمسة أو ستة ، إلى وجهات مختلفة فى وقت واحد . وذهبوا فى أسمال بالية ، كل واحد عكازه فى يده . واختاروا أشد أماكن الجبال وحشة ، وأقلها عمراناً ، وبنوا لهم صوامع فى الكهوف والأخاديد . وسرعان ما أثار تقشفهم وطول تعبدهم فضول القبائل الذين أخذوا بعد وقت وجيز يبادلونهم الصداقة والود . وتمكن الدعاة شيئاً فشيئاً من الظفر بما أرادوا عن طريق

---

(١) C. Trumelet : Les Saints de l'Islam, p. xxxiii. (Paris, 1881.)

(†) ويطلق الجغرافيون الأوربيون لفظ كابيليا Kabylia على البلاد الجبلية من ساحل الجزائر . والكلمة مشتقة من (قبيلة) اللفظة العربية . (راجع Encyc. of Islam, art. Kabylia)

(٢) قارن هذا بالمراد التى نشرها المجلس الذى عقد فى مدريد سنة ١٥٦٦م ، وهو يتعلق بتنصير المسلمين المقيمين فى أسبانيا Moriscoes (أى بعد زوال الحكم العربى منها) ، وهذا نص إحدى هذه المراد : « لا يسمح مطلقاً لهم ولا لنسائهم ولا لأى فرد آخر أن يغتسلوا أو يستحموا فى منازلهم أو فى أى مكان آخر ، كما يجب أن تهدم وتخرب حماماتهم كلها ... » (J. Morgan, vol. ii. p. 256.)

ما عرفوه من الطب والصناعات الآلية وبعض مزايا أخرى من الحضارة ، وأصبحت كل صومعة مركزاً من مراكز التعليم الاسلامى . واجتمع حولهم طلاب للعلم ، وقد انجذبوا إلى تعاليم هؤلاء الذين قدموا إليهم من عهد قريب ، وأصبح هؤلاء الطلاب بعد فترة من الزمن دعاة إلى الاسلام بين قومهم ، حتى استطاعوا أن ينشروا دينهم فى كافة أنحاء البلاد التى تسكنها القبائل والقرى التى تقع فى صحراء الجزائر[١].

ولا شك أن هذا الحادث السالف الذكر يصور لنا الطريقة التى كان ينفذ بها الاسلام إلى غير هذه الجماعات من القبائل المستقلة فى داخل هذه البلاد ، الذين كانوا قد تلقوا أية تعاليم مسيحية من قبل . ولكن معلوماتهم عن هذا الدين كانت قد تضاءلت واستحالت إلى شعائر دينية قليلة مبنية على الخرافات[٢] ، ذلك أنهم لما كانوا منقطعين عن سائر العالم المسيحى ، غير مزودين بمعلمين روحانيين ، لم يكن لهم من وسائل الاعتقاد الدينى الذى يقوم على اليقين ما يمكنهم من مناهضة تعاليم دعاة المسلمين .

ولدينا معلومات أخرى قليلة ، يمكن أن تضاف إلى تلك المعلومات المبعثرة التى ذكرناها عن انحلال الكنيسة الإفريقية الشمالية . فهذا رحالة مسلم[٣] عاش فى النصف الأول من القرن الرابع عشر ، زار بلاد الجريد وهى الولايات التى تقع جنوبى تونس ، وهو يخبرنا أن الكنائس المسيحية كانت لا تزال قائمة على عهده ، ومع أنها كانت مهدمة ولكن العرب الفاتحين لم يخربوها ، واكتفوا ببناء مسجد قبالة كل من هذه الكنائس . ويتحدث ابن خلدون (فيما كتبه حول نهاية القرن الرابع عشر) عن بعض قرى ولاية قسطيلية[٤] ، ويسكنها بعض الأهالى المسيحيين الذين كان أسلافهم قد عاشوا هناك منذ الفتح العربى[٥] . وفى نهاية القرن التالى كان لا يزال فى مدينة تونس جماعة صغيرة من المسيحيين من أهالى هذه البلاد ، يعيشون فى إحدى الضواحى بعضهم مع بعض ، منفصلين تمام الانفصال عن تلك البقعة التى أقام فيها التجار المسيحيون الغرباء بعيدين عن كل ظلم أو اضطهاد ، فقد كانوا يعملون حراساً للسلطان[٦] . ولا شك أنهم كانوا هم أنفسهم الذين هنأهم تشارلس الخامس بعد استيلائه على تونس فى سنة ١٥٣٥ على ما أظهروه من الثبات على الدين المسيحى[٧] .

---

(١) C. Trumelet : Les Saints de L'Islam, pp. xxviii - xxxvi

(٢) يقول ليو الافريقى أنه فى نهاية القرن الخامس عشر نجد جميع سكان الجبال من أهل الجزائر والبوجيا ، مع إسلامهم ، قد رسموا صليباً أسود اللون على خدودهم ، وفى بطون راحاتهم (Ramusio, i. p. 61.) ، ونظير ذلك بنو مزاب الذين يحتفظون ، حتى اليوم ، ببعض طقوس دينية تتعلق بالحرمان والاعتراف (Oppel. p. 299.) ؛ ويجرى بعض القبائل البدوية فى الصحراء الكبرى بعض طقوس خاصة بدرع من التعميد ، ويستخدمون الصليب زينة لبعض أمتعتهم وأسلحتهم (De Mas Latrie (2), p. 8.)

(٣) التيجانى ص ٢٠٣ .

(٤) وهى توزر الحديثة ، فى تونس .

(٥) تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب ، ج ١ ص ١٤٦ (طبعة دى سلان بالجزائر سنة ١٨٤٧ .)

(٦) Leo Africanus (Ramusio, tom. i. p. 67.)

(٧) Pavy, vol. i. p. vii.

وكان هذا آخر ماسمعنا عن الكنيسة المسيحية القومية فى إفريقية الشمالية . وإن مجرد بقائها مثل هذا الوقت الطويل ليدحض أى زعم بأن تحولهم إلى الاسلام قد قام على القوة والاكراه ، حتى ولو لم يكن لدينا الدليل الكافى على روح التسامح التى ظهر بها العرب الحاكمون فى ممالك إفريقية الشمالية على اختلافها ، فهم الذين استخدموا جنوداً مسيحيين (١) ، ومنحوا المسيحيين من التجار والمستوطنين بمقتضى معاهدات متكررة ، الحرية فى أداء شعائرهم الدينية(٢) ، وهم الذين فوض البابوات (٣) إليهم العناية بالأهلين من المسيحيين ، كما حضوا هؤلاء على خدمة حكامهم المسلمين فى إخلاص وولاء(٤) .

(١) De Mas Latrie (2), pp. 61-2, 266-7. L. del Marmol-Caravajal: De L'Afrique, tome ii. p. 54. (Paris, 1667)

(٢) De Mas Latrie (2), p. 192.

(٣) مثلا ، Innocent IV. Gregory IX, Gregory VII, Innocent III.

(٤) De Mas Latrie (2), p. 273.

الباب الخامس

انتشار الاسلام بين مسيحي أسبانيا

أدخل العرب الظافرون الإسلام فى أسبانيا سنة ٧١١ م ، وفى سنة ١٥٠٢ أصدر فردناند وإيزابلا مرسوماً يقضى بإلغاء شعائر الدين الاسلامى فى جميع أرجاء البلاد . ولقد كتبت أسبانيا الإسلامية فى القرون التى تقع بين هذين التاريخين صفحة من أنقى الصفحات وأسطعها فى تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، وقد امتد تأثيرها من ولاية بروفانس Provence إلى الممالك الأوربية الأخرى ، وأتت بنهضة جديدة فى الشعر والثقافة ، ومنها تلقى طلاب العلم المسيحيون من الفلسفة اليونانية والعلوم ما أثار فى نفوسهم النشاط العقلى حتى جاء عصر النهضة الحديثة . على أنه يجمل بنا أن نمر مر الكرام على هذه الحياة وما تنطوى عليه من مدنية ورقى ونصر مؤزّر فى الفن والشعر ، وفى العلم والفلسفة ، وأن نوجه اهتمامنا إلى الحالة الدينية فى أسبانيا فى ظل الحكم الإسلامى .

لما قدم المسلمون أول الأمر إلى أسبانيا حاملين دينهم ، وجدوا المذهب الكاثوليكى قد استقر فى هذه البلاد بعد انتصاره على المذهب الآرى . وقد أصدر المجمع السادس فى طليطلة قرارا يقضى بأن يقسم كل الملوك بأن لا يسمحوا بانتشار أى مذهب آخر غير المذهب الكاثوليكى ، وأن ينفذوا القانون بالقوة على الخارجين عليه . وقد تلا هذا القانون قانون آخر يحرم على كل شخص أن يتطرق إلى ذهنه أى شك فى الكنيسة الكاثوليكية المقدسة ، وفى النظم الإنجيلية وتفاسير الآباء الروحيين والمراسيم الكنسية والقرابين المقدسة إذا ما صودرت أملاكه أو حكم عليه بالسجن المؤبد . وقد كسب رجال الدين لطائفتهم نفوذاً راجحاً فى شئون الدولة[1] . وجلس الأساقفة وكبار رجال الدين فى المجالس الوطنية التى كانت تجتمع لإقرار الشئون الهامة فى الدولة والمصادقة على انتخاب الملك ، وادعت لنفسها الحق فى عزله إذا أبى الإذعان لقراراتهم . واتخذ القسس من وراء هذه القوة التى وصلوا إليها سبيلا لاضطهاد اليهود الذين كانوا طائفة كبيرة العدد فى أسبانيا ، وصدرت الأوامر المشددة ضد كل من امتنع عن الدخول فى المسيحية[2] . وكان من أثر هذه الاضطهادات أن رحب اليهود بالعرب الغزاة وعدوهم مخلصين لهم مما حل بهم من المظالم ، فساعدوهم على فتح أبواب المدن ، كما استعان بهم الفاتحون فى حماية المدن التى وقعت فى أيديهم[3] .

---

(١) Baudissin, p. 22

(٢) Helfferich, p. 68.

(٣) المقرى ج ١ ص ٢٨٠ — ٢٨٢

كذلك رحب بالمسلمين هؤلاء الأرقاء الذين حل بهم البؤس والشقاء فى عهد المسيحيين الكاثوليك الذين كانت معرفتهم بأصول المسيحية سطحية ، إذا ما ووزنت بذلك التسامح الدينى وهذه المزايا الكثيرة التى حصلوا عليها بإلقاء زمامهم للمسلمين .

وكان هؤلاء الأرقاء الذين وصلوا إلى الحضيض أول من تدين بالاسلام فى أسبانيا ، ولا يبعد أن يكون عدد كبير من هؤلاء الأهلين الذين كانوا لا يزالون على الوثنية والذين ورد ذكرهم فى سنة ٦٩٣ م[١] قد ساروا على منهاج هؤلاء الأرقاء . كما اعتنق هذا الدين الجديد كثير من أشراف المسيحيين عن عقيدة راسخة أو عن بواعث أخرى [٢] ، يضاف إلى ذلك عدد كبير من أهالى الطبقات الدنيا والوسطى الذين دانوا بالإسلام عن إيمان ثابت ، متحولين إليه من دياناتهم القديمة التى أهمل رجالها مصالحهم ولم يحفلوا بتلقينهم أصولها ، وانصرفوا إلى مطامع الدنيا ، فساموهم الخسف ونهبوا أملاكهم [٣]، وبعد أن تحول هؤلاء الأسبان إلى الاسلام ظهروا بمظهر الغُيُر لدينهم الجديد وانضموا هم وأولادهم إلى جماعة إخوان الصفا الذين عرفوا بالتقشف وشدة تمسكهم بالدين ، ولم يحفلوا بأن يعيشوا عيشة الترف والاهمال التى سادت الطبقة الأرستقراطية العربية[٤] .

ويقول مؤرخو المسيحيين إن فضائل القوط القدماء قد انحطت فى وقت الفتح العربى الإسلامى وفسحت الطريق إلى الفساد والخلاعة ، حتى لقد ظهر الحكم الإسلامى كأنه عقاب قد نزل بهؤلاء الذين ضلوا الطريق السوى واتجهوا نحو الرذيلة [٥]. ولكن مثل هذا القول طالما يرد فى التاريخ الكنسى على حين لا توجد هناك شواهد معاصرة تؤيد صحة هذا الرأى[٦].

بيد أنه يظهر لنا أن الأمور لم تستقم على مر الزمن ، ذلك أنه لما اشترك الأساقفة المسيحيون فى الثورات

---

(١) Baudissin, p. 7.

(٢) Dozy (2), tome ii. pp. 45-6.

(٣) A. Müller, vol. ii. p. 463

(٤) Dozy (2), tome ii. pp. 44-6

(٥) So St. Boniface (A.D. 745, Epist. lxii)

،، مثلما حدث للقبائل الأخرى فى أسبانيا ، وللقاطات ، ولشعب برغنديا الذين ارتكبوا الكبائر بابتعادهم عن الرب ، حتى لقد أراد القاضى الأعظم أن يحل بهم ، على يد العرب ، عقابه وانتقامه ، بسبب ما ارتكبوه من مآثم ، وبسبب جهلهم بقانون الرب ،، (Migne : Patr. Lat., tom. lxxxix. p. 761.) ،، وانتقلت ، إبان قوتهم (أى العرب) مقاليد أسبانيا إليهم ، فى الوقت الذى كنا نقوم بأعمالنا . ،، Eulogius, lib. i, § 30. (Migne : Patr. Lat., tom. cxv. p. 761.) .

ونظير ذلك ما ذكره ألفار Alvar (2), § 18 ،، سأحاول أن أخبر السوط الذى صب علينا لما ارتكبناه من آثام . إن جميع آثامنا ، أيها الاخوة ، تكاسلنا ، ودنسنا ، وإفساد عاداتنا . .... لذلك أسلمنا المولى الذى يؤثر العدل ويأمر رحمه بالانصاف إلى هذا الوحش لنظل فريسة فى يده ،، (pp. 531—2.) .

(٦) Dozy (3), tome i. pp. 15—20 ; Whishaw, pp. 38, 44.

التي قامت في بلاط المسلمين في الوقت الذي أصبحت فيه الأرشيات تُمنح الأساقفة عن طريق المزاد ، وعين الملحدون الذين يضمرون الإلحاد للكنيسة ، وأصبح هؤلاء بدورهم يمنحون منصب القساوسة أشخاصا تنقصهم الكفاية والغيرة على مبادىء الدين المسيحي (١) — إذا عرفنا هذا استطعنا أن نجزم بأن تحول المسيحيين عن دينهم لم يقتصر على أهل مقاطعة إلفيرة (٢) ، بسبب ذلك الفساد الذي تطرق إلى نفوس رؤسائهم الروحيين(٣) ، فأخذ هؤلاء المسيحيون يبحثون عن بيئة أكثر ملاءمة لحياتهم الدينية والدنيوية بدخولهم في حظيرة الإسلام .

ولو أن كتاب الكنيسة قد عنوا بتدوين هذه الأحداث ، لوجدنا أسبانيا تقدم لنا من غير شك أمثلة صالحة عن رجال تحولوا عن المسيحية من أمثال بودو Bodo ، الذي كان شماساً في البلاط الفرنسي في عهد لويس التقي واعتنق اليهودية سنة ٨٣٨ م لكي « يتمسك بأهداب شريعة الله » بتركه هذه الحياة الأثيمة كما يقول (٤). كذلك لا يبعد أن تكون البقية الباقية لهؤلاء القوط القدماء الذين دانوا بعقائد المذهب الآريوسي الذي ظهرت بعض آثار نهضته في الكنيسة الأسبانية قبيل الفتح العربي (٥) ، قد ساعدت على حث الناس واستمالتهم لقبول هذا المذهب الجديد الذي تتفق العقيدة المسيحية فيه اتفاقا وثيقا مع العقيدة الآريوسية(٦). وسنرى فيما بعد شواهد مماثلة تدلنا على مدى تحول أهل أسبانيا إلى هذا المذهب قبل الفتح العربي ، والذي مهد السبيل لتحول أهل أوربا الغربية إلى الإسلام قبل الفتح العربي لبلاد الأندلس . ومن الأمثلة التي تؤيد ما ذهبنا إليه تحول ثيودسكلوس Thiodisclus ، ذلك الرجل الإغريقي الذي خلف القديس إيزيدور Isidore المتوفى سنة ٦٣٦ م في منصب رئيس أساقفة إشبيلية . فقد اتهم بالإلحاد لقوله بأن المسيح لم يكن إلها باتحاده بالله وبروح القدس ، وإنما كان ابن الله عن طريق التبني . لهذا قضى المجمع الديني بعزله عن

(١) Samson, pp. 377-8, 381.

(٢) Dozy (2), tome ii, p. 210

(٣) اتهم أسقف إجيلا Egila ، الذي أرسله البابا أدريان الأول إلى جنوب أسبانيا حول نهاية القرن الثامن ليقوم بعمل من شأنه أن يحول دون اطراد تقدم الفكر الاسلامي ، القسيسين الأسبان الذين عاشوا مع النساء اللاتي اتخذوهن سراري لهم .

(Helfferich, p. 83.)

(٤) Alvari Cordubensis, Epist, xix.

" إنني أسلم نفسي الى قانون المولى ، في شوق ولهفة ، لأني أستحق العقاب الأبدي . "

(Migne : Patr. Lat., tom. cxxi. p. 512.)

(٥) Helfferich, pp. 79-80

(٦) " إذا فكر المرء إلى أي حد بلغ صدى فكرة النبوة المأخوذة من العهد القديم (من التوراة) في نصرانية القبائل الجرمانية الآرية ، بل إذا فكر المرء في بقاء هذه الفكرة عند القوط الغربيين بعد أن اعتنقوا المذهب الكاثوليكي — إذا فكر المرء في ذلك اتضح له كيف ظهرت بعد قدوم العرب ، عند الشعوب المسيحية المفترحة ، تصورات قريبة من الاسلام . "

(Helfferich, p. 82.)

منصبه وبحرمانه حقوقه الكنسية ، فالجأ إلى العرب ودان بالإسلام بين ظهرانيهم (١) .

أما عن حمل الناس على الدخول فى الإسلام ، أو اضطهادهم بأية وسيلة من وسائل الاضطهاد . فى الأيام الأولى التى أعقبت الفتح العربى ، فإننا لا نسمع عن ذلك شيئاً . وفى الحق إن سياسة التسامح الدينى التى أظهرها هؤلاء الفاتحون نحو الديانة المسيحية كان لها أكبر الأثر فى تسهيل استيلائهم على هذه البلاد . وإن الشكوى الوحيدة التى شكا منها المسيحيون هى معاملة حكامهم الجدد لهم معاملة تختلف عن معاملة رعاياهم من غير المسيحيين ؛ ذلك لأنه قد فرض عليهم أداء جزية الرءوس المعتادة وهى ثمانية وأربعون درهما عن الأغنياء ، وأربعة وعشرون عن أهل الطبقة الوسطى ، واثنا عشر درهما عن العمال ، لإعفائهم من الخدمة العسكرية (٢) ، على أن هذه الجزية لم تفرض إلا على القادرين من الرجال ، على حين أعفى منها النساء والأطفال والرهبان والمقعدون والعميان والمرضى والمساكين والأرقاء . هذا إلى أن جمع هذه الضرائب قد قام به الموظفون المسيحيون أنفسهم مما خفف وطأتها على الناس (٣) .

على أنه فى الأحوال التى كان يعتدى فيها المسيحيون على الدين الإسلامى ، كانوا يحاكمون أمام قضاتهم وفقاً للقوانين المعمول بها فى بلادهم (٤) ، ولم يتعرض لهم المسلمون فى إقامة شعائرهم الدينية (٥) . ولا غرو فقد كانوا يقدمون القرابين بين دق الناقوس وإحراق البخور وغير ذلك من الطقوس الدينية الكاثوليكية ، وكذا ترنيم المزامير وإلقاء المواعظ والاحتفال بالأعياد المسيحية على النحو الذى كانوا يحتفلون به قبل الفتح . ويظهر أنهم لم يعاملوا معاملة إخوانهم فى الدين فى سورية ومصر بأن يلبسوا ملابس

---

(١) Lucae Diaconi Tudensis Chronicon Mundi (Andreas Schottus : Hispaniae Illustratae, tom. iv. p. 53.) (Francofurti, 1603—8.)

(٢) Dozy (2), tom ii. p. 41. Whishaw, p. 17.

(٣) Dozy (2), tom ii. p. 39.

(٤) Baudissin, pp. 11—13, 196.

(٥) Eulogius ; Mem. Sanct., lib. i. § 30. ,, نعيش بينهم دون بغض الدين ،، (p. 761) Id. ib. lib. i. § 18.

,, لم ترغمهم قوة من قوى الحكام إلى إنكار دينهم ولم تبعدهم عن عبادة الدين المقدس الموقر ،، (p. 751.)

ويقول John of Gorz (الذى زار أسبانيا حول منتصف القرن العاشر) 124 § ، ,, ويستخدم المسيحيون الذين كانوا إبان حكمه الأماكن المقدسة وأملاكهم بحرية ،، .

وبذلك وصف أسقف أسبانى حالة المسيحيين وصفاً بعث به إلى جون أوف كورتز فقال : ,, لقد وصلنا إلى هذا بسبب آثامنا لخضعنا لقوة الملحدين ، وعجزنا عن مقاومة الحكومة ، وما لنا من عزاء فى هذا الأمر إلا أن الذين يخدمون ، يرحبون بن يلقونهم ، وهم مؤيدون للمسيحيين تأييداً حاراً ؛ لا يمنعوننا من استخدام قوانيننا ، وهم فى الوقت نفسه راضون بحياتهم الاجتماعية . وما دام ليس هنالك إبعاد عن دياناتنا ، فعلينا أن نتظاهر مؤقتاً بقبول السياسة القادمة علينا ، فنطيعهم ونخضع لأوامرهم طالما لا تقف سياستهم حجر عثرة فى سبيل إيماننا ،، 122 § (p. 302) .

خاصة تميزهم عن المسلمين ، فتكون مظهراً من مظاهر إذلالهم . وكان المسيحيون المدنيون ، فى القرن التاسع الميلادى على الأقل ، يلبسون نفس ملابس العرب [١] ، كما سمح لهم فى وقت من الأوقات أن يبنوا كنائس جديدة [٢] .

كذلك نقرأ عن بناء[٣] عدة أديار جديدة بالإضافة إلى الأديار الكثيرة المزهرة التى أقام بها الرهبان والراهبات الذين عاشوا فى أمن وطمأنينة لا يتعرض لهم حكام المسلمين بسوء . وكان الرهبان يستطيعون الظهور على ملأ من الناس فى وشاحهم الصوفى وفق نظامهم الكنسى ؛ ولم يكن ثمة ما يدعو القسيس إلى إخفاء شارته الدينية . وفى الوقت نفسه لم تحل المناصب الدينية [٤] دون تقلد المسيحيين المناصب العالية فى البلاط أو اندماجهم فى سلك الرهبنة [٥] أو انتظامهم فى جيش المسلمين [٦] .

ومن الثابت لدينا أن هؤلاء المسيحيين الذين مالوا إلى الصلح ورضوا عن طيب خاطر بحرمانهم ما كانوا يتمتعون به من نفوذ سياسى وسلطة . لم يكن ثمة ما يدعوهم إلى الشكوى ، حتى إننا لم نسمع فى خلال القرن الثامن الميلادى كله إلا عن محاولة واحدة للثورة من جانب هؤلاء المسيحيين المقيمين بمدينة بيجه Beja . ويظهر أنهم انضووا فى ثورتهم هذه تحت لواء رئيس عربى[٧] . كما أن أولئك الذين هاجروا إلى الأراضى الفرنسية لكى يعيشوا تحت حكم المسيحيين لم يصبحوا فى الحقيقة أحسن حالا من إخوانهم فى الدين الذين خلفوهم وراء ظهورهم . وفى سنة ٨١٢م تدخّل شرلمان لحماية المنفيين الذين لحقوا به عند ارتداده عن أسبانيا من عنت موظفى الإمبراطورية واضطهادهم إياهم . وبعد ثلاث سنين لم ير لويس التقى بدآ من إصدار مرسوم آخر لتحسين حال هؤلاء المنفيين الذين لم يلبثوا أن لجئوا برغم هذا إلى الشكوى ثانية من الإشراف الذين اغتصبوا أراضيهم التى خُصِّصت لهم . ولم يمض وقت طويل على محاولة القضاء على هذه المساوىء حتى عمت الشكوى من جديد ؛ ولم تُجْدِ هذه المراسيم والأوامر الملكية التى صدرت لتحسين حال هؤلاء المنفيين التاعسين . وسوف نصادف فى العصور المتأخرة فى الجالية الأسبانية Cagots التى فرت من الحكم الإسلامى طبقة محتقرة عوملت معاملة سيئة ووضعت نفسها تحت رحمة بنى جنسهم من المسيحيين[٨] .

---

(١) Baudissin, pp. 16—17.

(٢) تكلم يولوجيوس المتوفى سنة ٨٥٩ م (Mem. Sanct. Lib. iii. c. 3.) عن كنائس حديثة البناء . وقد نسبت هذه الواقعة التاريخية إلى ليتبراند خطأ بناء كنيسة فى قرطبة سنة ٨٩٥ م (ص ١١١٣) .

(٣) Eulogius : Mem. Sanct., lib. iii. c. 11 (p. 812.)

(٤) Baudissin, p. 16.

(٥) Id, p. 21, and John of Gorz, § 128 (p. 306.)

(٦) Whishaw, pp. 272, 301.

(٧) Dozy (2), tome ii. p. 42.

(٨) Baudissin, pp. 96—7.

وإن سياسة التسامح الديني التي سارت عليها الحكومة الإسلامية نحو رعاياها المسيحيين في أسبانيا ، وحرية الاختلاط بين المتدينين بالديانتين قد أدت إلى شيء من التجانس والتماثل بين الجماعتين . وقد كثر التصاهر بينهم[١]، حتى إن إزيدور أحد سكان مدينـــة بيجه Isidore of Beja الذى شدد النكير على الفاتحين المسلمين ، قد دون مسألة زواج عبدالعزيز بن موسى (بن نصير) من أرملة الملك لـُذْريق ، دون أن يذكر كلمة واحدة يستنكر فيها هذا العمل [٢] . هذا إلى أن كثيرين من المسيحيين قد تسموا بأسماء عربية ، وقلدوا جيرانهم المسلمين فى إقامة بعض النظم الدينية ، فاختتن كثير منهم [٣] ، وساروا وفق رسوم الوثنيين « غير المُعَمَّدين » (يعنى المسلمين) فى أمور الطعام والشراب[٤] .

وإن إطلاق لفظ مستعربين Muzarabes على الأسبان المسيحيين الذين عاشوا فى ظل حكم العرب ، ليدل دلالة ظاهرة على مدى الميول والاتجاهات التى كانت تعمل بنشاط وهمة فى هـــذه السبيل ؛ فسرعان ما أخذت دراسة اللغة العربية تحل محل دراسة اللغة اللاتينية فى جميع أرجاء البلاد [٥] ، حتى إن لغة الدين المسيحى قد تطرق إليها الإهمال والنسيان شيئاً فشيئاً . بل لقد أثار بعض القسيسين سخرية النـاس لجهلهم باللغة اللاتينية الصحيحة[٦] . ومن العسير أن نتوقع من العلمانيين نفس الحماسة والغيرة التى كان يبديها رجال الدين فى هذا النوع من الدراسة . ففى سنة ٨٥٤م نرى أحد كُتّاب الأسبان يعلن هـذه الشكوى ضد مواطنيه المسيحيين فيقول :— « بينما نتتبع النظم التى وردت فى كتابهم المقدس (يعنى المسلمين) ونلتقى بهم لدراسة مذاهب فلاسفتهم — أو الذين يباهون بهذا الضرب من الحذر والإعجاب بمعنى أدق — لا لندحض بالحجة والبرهان تعاليمهم الفاسدة ، بل لنفيد من كلامهم الذى يستولى على الأفئدة بجماله ، ومن بلاغة لغتهم — غاضين النظر عن قراءة كتابهم المقدس ، فلا نكون حينئذ إلا قوما يجعلون من الحيوان معبوداً .

(١) أنظر كتاب البابا أدريان الأول إلى الأساقفة الأسبان حيث يقول فيه : ,, أضف الى ذلك أن هناك عبارات مختلفة ، سمعناها من تلك الأماكن ، تقول ان كثيرين ممن يطلقون على أنفسهم كاثوليك ، ويعيشون فى ألفة مع اليهود والكفرة من غير المتنصرين ، يؤكدون أنهم ليسوا مدنسين مطلقاً فى الطعام أوالشراب أو الذنوب المختلفة أو فيما هو محرم ، فليس مصرحاً لأحد أن يتزوج من الكفرة ، لأنهم أنفسهم سيمنحون بناتهم لهؤلاء ، وبذلك يلقى بهن فى أحضان الكفار . ,,

(Migne : Patr. Lat., tome xcviii. p. 385.)

(٢) Isidori Pacensis Chronicon, § 42 (p. 1266.)

(٣) Alvar : Indic. Lum., § 35 (p. 53.) John of Gorr, § 123 (p. 303.)

(٤) Leuer of Hadrian 1, p. 385. John of Gorz, § 123. (p. 303.)

(٥) لا تزال هناك أبيات من الشعر العربى نظمها شاعر مسيحى فى القرن الحادى عشر الميلادى باقية الى اليوم ، وهى تدل على مهارة فائقة فى امتلاك ناصية اللغة ووزن الشعر (Von Schack, 11, 95.)

(٦) وقد أمدنا سمسون رئيس أحد الأديار بأمثلة من الأساليب اللاتينية الرديئة التى كتبها بعض رجال الكنيسة فى هذا العصر فتلا يقول : ,, لأننا كنا اقتنعنا البساطة المسيحية ,, (أى على اعتبار أن البساطة مفعول به ,, ولكن تصحيحه قد ورد أسوأ من الأول قال : ,, كنا قد اقتنعنا لاجل البساطة المسيحية ,, (يريد اقتنعنا بالبساطة) (pp. 404, 406.)

يعبدونه (Apoc.Xiii.18) . وأنّى لنا أن نجد فى أيامنا هذه أى علمانى مثقف قد انهمك فى دراسة الكتاب المقدس ، واهتم بالنظر فى مؤلفات آباء الكنيسة اللاتينية ؟ ومن ذا الذى أوتى من الحماسة والغيرة ما يثير فى نفسه الرغبة فى قراءة مؤلفات المبشرين بالإنجيل أو الأنبياء والمرسلين ؟ وإن شباننا المسيحيين ، برغم تكلفهم اللطف والكياسة وحسن البيان وطلاقة اللسان ، إنما كانوا يسترعون الأنظار بحسن هندامهم وحسن تصرفهم فيما يعرض من الأمور ، وبما عُرف عنهم من حسن الأدب ودماثة الخلق ، وبتشبهم بالبلاغة العربية ، تراهم يتناولون كتب الكلدانيين (يعنى المسلمين) منهم ، ويطالعونها بلهف ويناقشونها فى حماسة وغيرة ، ويشيدون بذكرها ، ويمتدحونها بكل ضروب التنميق فى اللفظ وحسن البيان ، على حين أنهم لا يفقهون شيئاً من جمال الأدب الكنسى ، ثم يحتقرون جداول الكنيسة التى تنساب إليها من الجنة . واأسفاه ! لقد جهل المسيحيون نظم شريعتهم ، وأصبحت الأمم اللاتينية لا تعير لغتها اهتماماً ، حتى لا تكاد تجد فى جماعة المسيحيين كافة رجلا من كل ألف رجل يستطيع أن يستفسر عن صحة صديق بعبارات واضحة جلية ، وأنت واجـــد بين جمهرة السوقة والعامة أشخاصاً لا يحصى عددهم ، يحيطون إحاطة تامة بالعبارات الفصيحة التى خلفتها اللغة العربية فى عصورها الذهبية ، حتى لقد استطاعوا أن ينظموا القصائد المقفّاة — تلك القصائد التى يتجلى فيها أسمى مراتب الجمال ، بل لقد كان بعضهم أمهر من العرب أنفسهم فى قرض الشعر (١) .

وفى الحق إن اللغة اللاتينية بلغت فى بعض أجزاء أسبانيا درجة كبيرة من الانحطاط ، حتى لقد أصبح من الضرورى أن تترجم قوانين الكنيسة الأسبانية القديمة والإنجيل إلى اللغة العربية ليسهل استعمالها على المسيحيين (٢) .

وبينما كانت الآداب العربية التى ازدهرت فى ذلك العصر تستولى على الأفئدة بجمالها ، ويقبل الناس على دراستها فى حماسة وشغف ، نجد أن أولئك الذين رغبوا فى دراسة الأدب المسيحى لم يعد فى متناول أيديهم المادة التى كانت تستخدم فى تعليم القوط المتبربرين ، ولم يجدوا ، إلا فى شىء من الصعوبة ، المعلمين الذين يستطيعون أن يمدوا معهم نوعا من الدراسة لا يرتفع كثيراً حتى عن المستوى المنحط من الثقافة . وهذه الحاجة الماسة للدراسات المسيحية قد زادت على مر الأيام . ففى سنة ١١٢٥ م كتب المستعربون فى أسبانيا إلى ألفونس ملك أرغونة : « لقد نشأنا نحن وآباؤنا إلى وقتنا هذا وتربينا بين الأجانب . وإننا نرعى الرسوم المسيحية فى حرية بعد أن تعمدنا فى طفولتنا ، بيد أننا لم نكن قط بحيث نستطيع أن نلم بتعاليم ديننا المقدسة . فإننا لا نجرؤ ، بسبب وجودنا تحت حكم الكفار الذين ظلمونا دهرا طويلا ، على طلب المعلمين

(١) Alvar : Indic, Lum., § 35. (pp. 554-6.)

(٢) Von Schack, vol. ii. p. 96.

من رومة أو من فرنسا . فإنهم لم يفدوا إلينا قط من تلقاء أنفسهم بسبب وحشية الوثنيين الذين ندين لهم بالطاعة » (١) .

ومن ذلك الاتصال الوثيق بالمسلمين ، ودراسة آدابهم دراسة عميقة ـ حيث نجد حتى من بين المسيحيين مثل ألفار Alvar (٢) الذى عرف بتعصبه على الإسلام ، يقرر أن القرآن قد صيغ فى مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل ، حتى إن المسيحيين لم يسعهم إلا قراءته والإعجاب به — كان طبعياً أن نتوقع وجود أدلة على مدى النفوذ الدينى : كذلك كانت الحال بلا مراء . ويقال إن إليندس Elipandus أسقف طليطلة (المتوفى سنة ٨١٠م) ، وأحد أئمة المذهب الإلحادى القائل بالتبنى ـ الذى ذهب إلى القول بأن عيسى المسيح الرجل ابن الله بالتبنى لا بالطبيعة ـ قد انتهى إلى هذه الآراء المغرقة فى الإلحاد عن طريق اتصاله بالمسلمين (٣) . ويظهر أن هذه العقيدة الجديدة قد ذاعت بسرعة فى جزء كبير من أسبانيا ، بينما نشر فيلكس أسقف أرجيل Urgel إحدى مدن إقليم قطالونية هذه الآراء فى إقليم سپتمانيا الذى كان تحت حماية فرنسا (٤) . وقد استدعى فيلكس أمام مجمع برياسة شرلمان ، وأرغم على التفكير عن خطئه ، ولكنه عاد إلى إلحاده على أثر عودته إلى أسبانيا . وليس من شك فى أن ذلك كان راجعاً (كما ظن البابا ليو الثالث Leo III فى ذلك الوقت) إلى اتصاله بالوثنيين (يعنى بذلك المسلمين) الذين دانوا بنفس هذه الآراء (٥) .

ولما كان أشهر رجال الدين قد تأثروا تأثراً عميقاً من جراء اتصالهم بالمسلمين ، جاز لنا أن نحكم بأن تأثير الإسلام فى مسيحيى أوربا كان عظيماً . وليس أدل على صحة هذا القول من التفكير فى عقد ذلك المجمع بمدينة طليطلة سنة ٩٣٦ م ، للبحث فى أحسن الوسائل التى تحول دون أن تفسد هذه العلاقات من صفاء الدين المسيحى ونقائه (٦) .

من ذلك نستطيع أن ندرك بسهولة كيف أن عوامل التأثير فى الآراء وإقامة الشعائر الإسلامية —

---

(١) Orderic Vitalis, p. 928.

(٢) ،، واليوم نقرأ فى كتبهم بأعيننا Alvar : Ind. Lum, § 29. وقد نستحسن تركيب العبارات والصلوات التى يصلى بها أنصار (هذا الدين) جميعاً والتى تصاغ كل يوم من أجـله فى مهارة فائقة وفصاحة عذبة . ،،

(Migne : Patr.- Lat., tome cxxi. p. 546.)

(٣) Enhueber, § 26, p. 353.

(٤) Helfferich, p. 88.

(٥) ،، بعد قليل ، انتقض قانون الرب وفر إلى الكفار الذين اتفقوا معه ، وأصبح بذلك حانثاً لعهده . ،،

Frobenii dissertatio de haeresi Elipandi et Felicis, § xxiv. (Migne : Patr. Lat., tome ci. p. 313.)

(٦) Pseudo-Luitprandi Chronicon, § 341. (p. 1115.) ،، دعا باسيليوس مجلس طليطلة واشترط بواسطته ألا يعاقب المسيحيون باختلاطهم مع المسلمين . ،،

بالإضافة إلى هذه الجهود الواضحة التي بذلت في سبيل تحول هؤلاء المسيحيين (١) — قد أدت إلى ما هو أكثر من مجرد التقارب والاتصال ، كما أنها سرعان ما عملت على زيادة الداخلين في الإسلام ، حتى إن ذريتهم الذين أطلق عليهم اسم المولّدين — ذلك اللفظ الذي يدل على الأشخاص الذين لم يكونوا من دم عربي — سرعان ما ألّفوا جماعة كبيرة لها أهميتها وخطرها في الدولة ، وأصبحت بلا شك أغلبية سكان البلاد (٢) ، حتى إننا نقرأ كثيراً عن الجهود التي بذلها هؤلاء الأسبان في مستهل القرن التاسع للتخلص من حكم العرب ، ثم تنشط حركتهم وتتقدم بخطا مسرعة في مناسبات كثيرة ، ويظهرون باسم جماعة الحزب الوطني للأسبان المسلمين .

وليس لدينا إلا اليسير من المعلومات المفصلة عن تاريخ تحول هؤلاء الأسبان الحديثي العهد بالإسلام . ويظهر أن ذلك التحول استمر إلى أواخر أيام الحكم الإسلامي ؛ فقد ذكر المؤرخون أن المسيحيين الذين ارتدوا إلى الإسلام وجدوا في مدينة ملقة التي استولى عليها جيش فرديند وإيزابلا في سنة ١٤٨٧ م ، وأنهم قد عذبوا عذاباً أفضى بهم إلى الموت ، وذلك بوضع القاب الحادّ المدبب في أجسادهم .

وفي الحصار الذي انتهى بتسليم مدينة Purchena بعد ذلك بسنتين ، وعد الفاتحون بألا يحملوا هؤلاء المرتدين على التحول إلى المسيحية ثانية (٣) . على أن عدداً قليلا من الأهلين قد ارتد عن الإسلام ليتخلص من الغرامة التي قضت المحاكم الشرعية عليه بأدائها (٤) . وقد بلغ من تأثير الإسلام في نفوس معظم الذين تحولوا اليه من مسيحيي أسبانيا مبلغاً عظيما ، حتى سحرهم بهذه المدنية الباهرة ، واستهوى أفئدتهم بشعره وفلسفته ، وفنه الذي استولى على عقولهم وبهر خيالهم : كما وجدوا في الفروسية العربية الرفيعة مجالا فسيحاً لإظهار بأسهم ، وما تكشفت عنه هذه الفروسية من قصد نبيل وخلق قويم — تلك الحياة التي ظلت مغلقة في وجوه الأسبان الذين بقوا على تمسكهم بالمسيحية وإخلاصهم لها . أضف إلى ذلك أن علوم المسيحيين وآدابهم لا بد أن تكون قد بدت فقيرة ضئيلة اذا ما قيست بعلوم المسلمين وآدابهم التي لا يبعد أن تكون دراستها في حد ذاتها ، باعثا على الدخول في دينهم . هذا الى أن الإسلام في أسبانيا استطاع أن يثير في نفوس الأتقياء الجمال الذي ينشده الورعون والمتحمسون من جماعة اخوان الصفا ، وعلى رأسهم علماء

---

(١) ليس هنالك غير نصوص قليلة توضح مثل هذه العوامل والجهود ، بيد أن الاشارة الى هذه العوامل والجهود تظهر في عبارات يولوجيوس هذه (Liber Apologeticus Martyrum § 20) عن محمد :

" وفي الحق سيظفر الذين يرغبون من الكاثوليك في معرفة جنون هذا الاثم ، وهذيان هذا التبشير ، وأوهام البدعة غير المقدسة ، بفكرة أوضح ، من أصحاب هذه الطائفة ، حين يدرسونهم ، فانهم يعتقدون أنهم على شيء مقدس ، ويؤمنون به ويبشرون بعقيدة نبيهم ، لا في السر فحسب ، بل في الأحاديث العامة كذلك . " (Migne : Patr. Lat., tome cxv. p. 862.)

(٢) Dozy (2), tome ii. p. 53.

(٣) Lea, The Moriscos, pp. 17. 18.

(٤) Samson, p. 379.

الكلام عند أهل السنة الذين كانت لهم الكلمة النافذة فى أمور الدولة وقتا ما . والذين دأبوا فى حمية وغيرة على إصلاح مذهبهم وتقويم أخلاقهم .

وإذا نظرنا الى ذلك الشعور الدينى الذى أحيا أكثرية الأسبان المسلمين ، وذلك التحدى والحقد الذى غلا فى صدور المسيحيين حتى دبروا المؤامرات بمؤازرة إخوانهم فى الدين الذين كانوا يقيمون خارج حدود بلادهم ، لايسعنا الا الاعتراف بأن تاريخ أسبانيا فى ظل الحكم الاسلامى يمتاز بعدهبعداً تاماً عن الاضطهاد الدينى . واذا استثنينا ثلاثاً أو أربعاً من حالات الاستشهاد الحقيق ، فإن الشىء الذى قد نطلق عليه اضطهاداً أو ما يقرب من الاضطهاد مدة الحكم العربى ، انما نجده فى هذه الاجراءات التعسفية التى اتخذتها الحكومة الاسلامية للقضاء على الجنون الذى استولى على عقول بعضهم ، فدفع بهم الى التطوع للاستشهاد الذى فشا بقرطبة فى القرن التاسع . فى ذلك الوقت ظهرت فى هذا الجزء من أسبانيا (والواضح أن الكنيسة المسيحية فى سائر أنحاء البلاد لم تعطف على هذه الحركة) ، جماعة دينية اشتهرت بتعصبها للمسيحية ، وانتهكت حرمة ديانة المسلمين جهرا وبغير ما سبب ، ورمت نبيهم بالكفر ، وأصرت على تحدى هذه الديانة ، وعرضوا أنفسهم للقتل على أيدى مواطنيهم الذين ضلوا السبيل ومرقوا عن الدين بتحولهم الى الإسلام وتعصبهم له .

وإن هذا الانفعال النفسانى الغريب الذى دفع بهذه الطائفة إلى التضحية ، ليظهر ظهوراً بينا لدى جماعة القسيسين والرهبان والراهبات بين سنتى ٨٥٠ و ٨٦٠م . وقد يبدو أن عادة إطالة التفكير والتأمل بحكم وجودهم فى الأديار وعزلتهم فى الصوامع ، فيما آل إليه نفوذ المسيحية من ضعف ومابلغته الحمية الدينية من وهن وانحلال ، قد دفع بهم إلى السعى وراء شرف الاستشهاد — الذى سلبهم إياه تسامح حكامهم الكفار — بمناوأة الاسلام والغض من شأنه وشأن نبيه . ومن الأمثلة التى تؤيد صحة ما ذهبنا إليه تلك الحادثة التى دونت عن أحد الرهبان ويدعى إسحاق ، فقد تقدم إلى القاضى ، وادعى أنه يريد أن يتعلم أصول الإسلام . ولما شرح له القاضى تعاليم النبى بادره بقوله فى عنف وشدة : « لقد كذب عليكم (لعنه الله !) ذلك الشرير الذى ملأ الخبث قلبه ، وقاد كثيرين من الناس إلى التهلكة وقضى عليهم بالتردّى فى نارجهنم يوم الدين ، وقدّم إليكم كأساً من النبيذ البارد ليدخل المرض إلى نفوسكم بهذه الشعوذة الشيطانية التى احترفها فلكت عليه مشاعره . وسوف يكفّر عن خطيئته بما يحل به من اللعنة الأبدية . ولم لا تخلصون نفوسكم من أمثال هذه المخاطر بفضل ما وهبكم الله من مزية الفهم والإدراك ؟ ولماذا لا تتلمسون النجاة الأبدية برفض هذه الوصمة التى تشوب عقائدكم الوبائية بالرجوع إلى إنجيل دين المسيح (١) ؟ » .

وفى مناسبة أخرى اقتحم اثنان من المسيحيين أحد المساجد وأخذا يغضان من شأن الدين الإسلامى ، وأعلنا على ملأ من الحاضرين أن هذا الدين سيعود على أنصاره عما قليل بالتهلكة ونار الجحيم (٢) . ومع أن

---

(١) Eulogius ; Mem. Sanct. Pref., § 2. (Migne, tome cxv. p. 737.)

(٢) المصدر نفسه .c. xiii. (p. 794)

عدد هؤلاء المتعصبين للدين المسيحي لم يكن كبيراً(١)، خشيت الحكومة الإسلامية سوء عاقبة هذه الحوادث وأوجست خيفة من أن احتقارهم سلطانهم وعدم اكتراثهم لهذه القوانين التي سنوها ضد من يطعن في دينهم قد يؤدي إلى استفحال روح الكراهة وذيوع حركة العصيان بين الأهلين كافة. إذ أن محمداً الأول لم يجد في الواقع بدأ من أن يرسل في سنة ٨٥٣م جيشا إلى مسيحيي طليطلة الذين استفزهم يولوجيوس Eulogius، الذي نصب نفسه للدفاع عن الشهداء، وأشعل نار الثورة حين وصلت إلى سمعه أنباء هذه الآلام التي كان يقاسيها إخوانهم في الدين(٢). وقد قيل إنه أمر بذبح جميع النصارى. على أن الناس لما أدركوا أنه لم يشترك في هذه الأعمال أي شخص من المسيحيين الذين يمتازون بشيء من الذكاء أو السلطان(٣). (إذ أن ألفار Alvar نفسه يشكو من أن أغلبية القسيسين المسيحيين قد دانوا الشهداء وحكموا عليهم بالخطيئة(٤))، اكتفى الأمير بتنفيذ القوانين المعمول بها نحو من يطعن في الدين الإسلامي بمنتهى الصرامة. وقد أيدت طائفة الكنيسة التي عرفت بالاعتدال الحكومة فيما بذلت من جهود في هـــذه السبيل، ولعن الأساقفة هؤلاء المتعصبين وحرموهم الحقوق الكنسية، وعقد في سنة ٨٥٣ م مجمع ديني لبحث وسائل القمع التي اتفق عليها الفريقان(٥)، وانتهت بالقضاء على هذه الحركة. وقد دون المؤرخون بعد ذلك حادثة أو حادثتين منفصلتين من حوادث الاستشهاد ـ وقعت ثانيتهما في سنة ٩٨٣ م، ولم تقع بعدها أية حادثة مدة الحكم العربي في أسبانيا(٦)

---

(١) يقال ان عدد الشهداء لم يتجاوز الأربعين ،

(W. H. Prescott: History of the Reign of Ferdinand and Isabella, vol. i. p. 342, n.) (London, 1846.)

(٢) Dozy (2), tome ii. pp. 161-2.

(٣) Eulogius: Mem, Sanct. 1, iii, c, vii, [p. 805.]

،، وان الحقيقة السافرة القائلة بأنه ليس هناك بين المسيحيين رجل حكيم مهذب ، ولا قائد من قوادهم قد أتى عملا من هذا القبيل ، قد جعلتهم يؤكدون وجوب القضاء المبرم على الذين لم يسبقهم القائد بنفسه الى القتال . ،،

(٤) يقول ألفار (Alvar: Ind., Lum. § 14.)

،، ألم يحضر حتى أولئك الذين يظهرون أنهم دعائم الكنيسة الذين كان يعتقد أنهم اختيروا بدون إكراه أو سخط بين يدي القاضي وقدموا شكواهم ضد شهود الخير في سايتكس Cynicus ، بل أيضاً ضد شهود أبيقور ؟ ألم يقتنيه رعاة المسيح ، ومعلمو الكنيسة والأساقفة ورؤساء الأديار ، والقسس من الشيوخ والرؤساء فيعرفوا أنهم كانوا هراطقة ؟ ألم يمثلوا معترفين ، دون أن يسألوا ، ويستجوبوا من تلقاء أنفسهم ، ويحكموا على أساس حكمهم الشخصي ، ما لا يحق لهم أن يقولوا ولو أنذروا بالموت ؟ ،،

(Migne: tome cxxi. p. 529.)

(٥) Alvar: Indic, Lum, p. 15.

أي عذر يمكن أن نتحله لهؤلاء الذين تركهم فريسة الحرمان الكنسي ، والذين اغتصبنا من أفواههم إيماناً بأنهم ان يخرجوا أبداً على دينهم ؟ أولئك الذين منعتهم أن يعاشروا في آثام الكفار أو يلمسوا الملوثين ؟ انا نضطرهم بسوء نية ، أن يقسموا على الانجيل والصليب بالقوة والاكراه ، بل نضطرهم بقسوة وهلع مرير ، مهددين اياهم بعقوبات لم يسمع عنها ، وبألوان من العذاب كقطع الأطراف وضرب السياط وغير ذلك مما يستولى علينا الفزع حين نقوله أو نسمعه ،، (Migne: tome cxxi. p. 530.)

(٦) Baudissin, p. 199.

ولكن فى عهد دولة المرابطين التى تولت حكم بلاد الأندلس ، انفجر بركان التعصب الدينى فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى من جانب المتحمسين من رجال الدين الإسلامى ، وقاسى من جراء ذلك المسيحيون واليهود وطائفة الأحرار المسلمين الذين نادوا بحرية الفكر كالفلاسفة والشعراء ورجال الأدب . ولكن هذه الحوادث لم تكن إلا استثناء للتسامح الدينى الذى اتسم بذلك الطابع الذى عرف به أمراء المسلمين فى أسبانيا نحو رعاياهم من المسيحيين . ذلك أن أحد مسلمى أسبانيا الذى طرد من بلاده حين أقصى العرب لآخر مرة سنة ١٦١٠ م ، بينما نراه يحتج على اضطهادات محاكم التفتيش ، يثبت بالأدلة القاطعة مدى التسامح الدينى الذى سار عليه إخوانه فى الدين فى هذه الكلمات : « هل حاول أسلافنا المنتصرون ولو مرة واحدة أن يستأصلوا المسيحية من أسبانيا حين كان فى مقدورهم أن يفعلوا ذلك ؟ ألم يسمحوا لآبائكم بأن يتمتعوا بحرية استعمال رسومهم الدينية فى نفس الوقت الذى لبسوا فيه طيالسهم ؟ ألم يوص نبينا بأن تترك الحرية الدينية لأهالى البلاد التى يفتحها العرب بحد السيف مهما بلغت آراؤهم الدينية من حمق وخرق ؟ بل ألم يسمح لهم بالتدين بأى دين آخر يؤثرونه على دينهم إذا دفعوا مقداراً معتدلا من الجزية فى كل سنة ؟ وإذا كانت ثمة أمثلة قد يأتى بها بعضهم للدلالة على إرغام الأهلين على اعتناق الإسلام ، فإن هذه الأمثلة قد بلغت من الندرة بحيث لا تستحق أن تذكر هنا ، وإنما حاولها أناس لا يخشون الله ونبيه ، بل قاموا بهذا العمل من تلقاء أنفسهم مع مخالفته لتعاليم الدين الإسلامى وسنة نبيه ، تلك التعاليم التى لا يمكن أن يدنسها أو ينتهك حرمتها إلا كل شخص لا يتحلى بصفات المسلم الحقيقى .... وأنتم لا تستطيعون أن تظهروا لنا شيئاً ما عن أية حادثة خاصة بسفك الدماء أو تقديم للمحاكمة ، بسبب الطرق المختلفة التى اتبعت فى إقناع الناس وتلقينهم تعاليم تشبه على نحو ما ، محاكم التفتيش الممقوتة . وإن يدنا مبسوطة دائماً لتلق كل من وهب الله له نعمة التدين بديننا ؛ ولكن كتابنا المقدس وهو القرآن الكريم لا يجيز لنا أن نتحكم فى ضمائر الناس . وإن الذين استجابوا إلى ديننا قد نعموا بكل ما يمكن أن يتصوره العقل من تشجيع ومعاضدة ؛ حتى اذا اعترفوا بوحدانية الله ورسالة نبيه ، صاروا كواحد منا من غير تمييز أو استثناء ، فتزوجوا بناتنا وشغلوا المناصب التى يكون أصحابها محلا للثقة ، ويحاطون بمظاهر الشرف وينعمون بالثراء . وكان أقصى ما رضيناه لأنفسنا من هؤلاء ، أن طلبنا اليهم فى رقة ولطف أن يلبسوا لباسنا ، وأن يظهروا بمظهر المخلصين الحقيقيين للدين فى كل ما يظهرون به أمام الناس ، دون أن يعرضوا ضمائرهم للامتحان بشرط أن لا يغضوا من شأن ديننا أو يدنسوه . فاذا فعلوا ذلك أنزلنا بهم ما يستحقونه من العقاب بلا مراء ، إذ كان تحولهم إلى هذا الدين عن طواعية واختيار لا عن ارغام وإكراه[١] » .

وقد اتخذ رئيس أساقفة بلنسية من روح التسامح الحقيقية هذه ، مقالا رئيساً بعنوان : « ارتداد العرب فى الأندلس وخيانتهم للدولة » ، وذلك حين أشار على فيليب الثانى بطردهم فقال : « إنهم لم يذكروا بالجميل والحمد شيئاً أكثر من حرية الضمير هذه فى كافة المسائل الدينية ، تلك الحرية التى سمح الأتراك العثمانيون وغيرهم من المسلمين لرعاياهم أن ينعموا بها » [٢].

(١) Morgan, vol. ii. pp. 297—8, 345.

(٢) Id. p. 310.

وإن هذه البذور العميقة التى ألقى بها الإسلام فى قلوب أهالى بلاد الأندلس ، يمكن الحكم على مدى عمقها من هذه الحقيقة ، وهى أنه لما طرد آخر بقايا المسلمين من هذه البلاد سنة ١٦١٠ م ، كان هؤلاء الأهالى المساكين لا يزالون يتمسكون بدين آبائهم ، مع أنهم أرغموا على إظهار تدينهم بالمسيحية أكثر من قرن ، ومع توالى هـذه الهجرات التى حدثت منذ سقوط غرناطة ، حتى قيل إنه طرد فى ذلك الوقت أكثر من خمسمائة ألف[١]. ومن ثم هجرت مدن وقرى برمتها ، تخربت بيوتها وأصبحت أطلالا بالية ، حتى لم يعد فيها شخص واحد يقوم ببنائها من جـــديد[٢]. وربما كان هؤلاء المسلمون المتخلفون فى أسبانيا جميعاً من سلالة أهالى البلاد الأصليين ، الذين لم يكن بينهم وبين العرب امتزاج ما فى الدم ، بل ربما كان هذا الامتزاج قليلا . وإن الأدلة التى قد نوردها على سبيل التدليل لدعم هذه الحقيقة من الكثرة بحيث لانستطيع أن نأتى بها على سبيل الحصر فى هـذا المقام . ولنذكر الآن إحدى هذه الحقائق لتكون شاهداً على صحة مانقول ، مستمدين ذلك من كتاب يرجع تاريخه إلى سنة ١٣١١ م . وقد جاء فيه أنه لم يكن من بين المائتى ألف من المسلمين الذين كانوا يعيشون فى مدينة غرناطة فى ذلك الحين أكثر من خمسمائة من أصل عربى ، على حين كان سائر هؤلاء المسلمين من أهالى بلاد الأندلس الأصليين الذين تحولوا إلى الإسلام[٣]. وأخيراً فن المهم أن نذكر أنه حتى أواخر ذلك الوقت الذى احتفظ فيه الإسلام بقوته ونفوذه ، نرى هذا الدين يظفر بمتبعين جدد . ولا غرو فإن المؤرخ حين يدون الحوادث التى وقعت فى سنة ١٤٩٩م ، أى بعد سقوط غرناطة بسبع سنين ، يوجه أذهاننا إلى هذه الحقيقة ، وهى أنه كان من بين العرب فى أسبانيا عدد قليل من المسيحيين الذين اعتنقوا دين النبى فى عصر متأخر[٤] .

(١) Lea, The Moriscos, p. 259.

(٢) Morgan, vol. ii, p. 337.

(٣) Id, p. 289.

(٤) Sterling-Maxwell, vol. i. p. 115.

الباب السادس

انتشار الاسلام بين شعوب أوربا المسيحية فى عهد الأتراك

نسمع لأول مرة عن الأتراك العثمانيين فى بداية القرن الثالث عشر عندما هربوا من وجه المغول فى عدد يقرب من خمسين ألفاً . ثم قدموا لنجدة سلطان قونيـــة الذى أقطعهم ولاية فى الشمال الغربى من آسيا الصغرى مكافأة لهم على خدماتهم ضد المغول والإغريق . وكانت هذه الولاية نواة الدولة العثمانية المقبلة التى أخذت تتسع أول الأمر باندماج الولايات الصغيرة التى كان الأتراك السلجوقيون قد تقسموها فيما بينهم . ثم عبر الأتراك إلى أوربا وأخذوا يضمون إلى ملكهم دولة بعدأخرى ، حتى توقفت انتصاراتهم المطردة أمام أبواب ڤينا فى سنة ١٦٨٣ (١) .

ولقد باشر العثمانيون السلطة على الرعايا المسيحيين منذ الأيام الأولى التى قاموا فيها بتوسيع مملكتهم فى آسيا الصغرى . ولم تكد حاضرة الإمبراطورية الشرقية القديمة تسقط فى أيدى العثمانيين سنة ١٤٥٣ م ، حتى توطدت العلاقات بين الحكومة الإسلامية والكنيسة المسيحية بصفة قاطعة وعلى أساس ثابت . ومن أولى الخطوات التى اتخذها محمد الثانى ، بعد سقوط القسطنطينية وإعادة إقرار النظام فيها ، أن يضمن ولاء المسيحيين بأن أعلن نفسه حامى الكنيسة الإغريقية . فحرم اضطهاد المسيحيين تحريما قاطعا ، ومنح البطريق الجديد مرسوما يضمن له ولأتباعه ولمرءوسيه من الأساقفة حق التمتع بالامتيازات القديمة والموارد والهبات التى كانوا يتمتعون بها فى العهد السابق . وقد تسلم جنّاديوس ، أول بطريق بعد الفتح التركى ، من يد السلطان نفسه ، عصا الأسقفية التى كانت رمز هذا المنصب ، ومعها كيس يحتوى على ألف دوكة ذهبية ، وحصان محلى بطاقم فاخر ، وكان يتميز بركوبه فى خلال المدينة تحف به حاشيته(٢) . ولم يقتصر المسلمون فى معاملة رئيس الكنيسة على ما تعود أن يلقاه من الأباطرة المسيحيين من توقير وتعظيم ، بل كان متمتعا أيضا بسلطة أهلية واسعة ، فكان من عمل البطركية أن يفصل فى القضايا التى تتعلق بالإغريق بعضهم مع

---

(١) لا مجال هنا لسرد تاريخ هذه الأراضى التى استولى عليها الأتراك ، والتى يمكن سردها بإيجاز فيما يلى : فى سنة ١٣٥٣ عبر الأتراك العثمانيون الى أوربا أولا ، وبعد سنوات قلائل اتخذوا أدرنة حاضرتهم الأوربية . وفى عهد بايزيد (١٣٨٩ – ١٤٠٢ م) امتدت ممتلكاتهم من بحر إيجه إلى نهر الطونة ، مشتملة على جميع أجزاء بلغاريا ومقدونية وتساليا وتراقية ، ما عدا خلكيديكية والمقاطعة المحيطة بالقسطنطينية مباشرة . ثم احتل مراد الثانى (١٤٢١ – ١٤٥١ م) خلكيديكية ، وسار بفتوحاته قدما نحو الأدرياتيك . وقد أصبح محمد الثانى (١٤٥١ – ١٤٨١ م) ، بعد أن فتح القسطنطينية وألبانيا والبوسنة والصرب ، سيد شبه الجزيرة الجنوبية الشرقية ، ما عدا الأجزاء الساحلية التى تحتلها البندقية والجبل الأسود . ثم أضاف سليمان الثانى (١٥٢٠ – ١٥٦٦ م) إلى ملكه بلاد المجر وجعل بحر إيجه بحراً عثمانيا ؛ وفى القرن السابع عشر ، استولوا على إقريطش ، ونزلت لهم بولندة عن پودوليا .

(٢) Phrantzes, pp. 305—6.

بعض : فكان لها أن تفرض الغرامات ، وتسجن المجرمين فى سجن معد لها ، بل كان لها أن تحكم بالإعدام فى بعض الأحيان . بينما صدرت التعليمات إلى الوزراء وموظفى الحكومة بتنفيذ هذه الأحكام : وكانت المراقبة التامة على الشئون الروحية والكنسية (وهى التى لم تتدخل فيها الحكومة التركية مطلقاً بعكس السلطة المدنية التى كانت مخولة للدولة البيزنطية) متروكة كلها فى أيدى البطريق وأعضاء المجمع الأعظم ، وكان فى استطاعة البطريق أن يدعوهم متى شاء . كذلك كان فى استطاعته أن يفصل فى كل شئون العقيدة والشريعة من غير أن يخشى تدخلا من جانب الحكومة . ولما كان هذا البطريق معترفا به موظفا من موظفى الحكومة السلطانية ، كان يستطيع أن يقوم بعمل كبير فى رفع الظلم عن المظلومين بأن يوجه أنظار السلطان الى أعمال الحكام الظالمين . كذلك عومل الأساقفة من الإغريق فى الولايات معاملة تنطوى على رعاية بالغة ، وعهد إليهم كثيرا من القضايا المتعلقة بشئونهم المدنية ، إلى حد أنهم ظلوا حتى عصور حديثة يعملون فى أسقفياتهم كما لو كانوا عمالا من الأتراك على الأهالى الأرثوذكس ، وبذلك حلوا محل الأرستقراطية المسيحية القديمة التى استأصل الغزاة شأفتها . ونجد أن رؤساء الكنيسة كانوا بوجه عام أكثر نشاطا باعتبارهم من الأتراك منهم باعتبارهم قساوسة من الإغريق . وطالما علموا شعبهم أن السلطان قد اكتسب قبولا إلهياً بوصفه حامى الكنيسة الأرثوذكسية ، ومن ثم أذيع منشور يكفل للأرثوذكس حق استخدام الكنائس التى لم تصادرها الحكومة لتحويلها إلى مساجد ، ويمنح لهم حق الاحتفال بطقوسهم الدينية تبعا لعاداتهم القومية(١).

وكان من أثر ذلك أن الإغريق ، ولو أنهم كانوا يفوقون الأتراك عددا فى كل الولايات الأوربية التابعة للدولة ، قد جعلهم التسامح الدينى الذى رخص لهم ، وما تمتعوا به من حماية لحياتهم وأموالهم ، يسرعون فى الموافقة على تغيير سادتهم وإيثار سيادة السلطان على سيادة أية سلطة مسيحية . وكان الغزاة العثمانيون فى بقاع كثيرة من المملكة يلقون ترحيبا من جانب الإغريق ، ويعدونهم مخلصين لهم من الحكم الظالم المستبد ، حكم الفرنجة وأهل البندقية الذين طال نزاعهم مع بيزنطة حول ملكية البلوبونيز وبعض الجهات المجاورة لبلاد اليونان ، فقد صيروا الشعب فى حالة من العبودية يرثى لها ، بإدخالهم نظام الإقطاع فى اليونان ، كما كانوا مكروهين من رعاياهم ، لاختلافهم عنهم فى اللغة والجنس والعقيدة (٢). ووجد هؤلاء

---

(١) Finlay, vol. iii. p. 522.

Pitzipios, seconde partie, p. 75. M. d'Ohsson, vol, iii. p. 52-4.
Arminjon, vol. i. p. 16.

(٢) يرسم أحد الرحالة الذين زاروا جزيرة قبرص فى سنة ١٥٠٨م صورة من ظلم البنادقة فى أملاكهم الأجنبية على الوجه التالى : « كل سكان قبرص عبيد للبنادقة لكونهم مضطرين إلى دفع ثلث مواردهم أو دخلهم للدولة سواء من حاصلات أراضيهم أو من الغلال أو النبيذ أو الزيت أو الاغنام أو أى شىء آخر . إلى جانب ذلك يسخر كل منهم بالعمل للدولة يومين فى الأسبوع فى أى مكان يجبرون تعيينه فيه . وكل من يتخلف منهم عن العمل بسبب انشغاله فى بعض أعماله الخاصة ، أو لعلة جسمانية ، يكلف بأن يدفع غرامة عن الأيام التى تغيب فيها عن العمل . ومما زاد هذه الحالة سوءا أن هناك بعض الضرائب السنوية ، وغيرها من الضرائب التى

الرعايا أن أى تغيير لحكامهم ، طالما لا يمكن أن ينقلهم الى حالة أسوأ مما هم عليها ، قد يهيء لهم فرصة ممكنة لتحسين هذه الحالة . ومع أن مخلصيهم كانوا كذلك غرباء عنهم ، إلا أنهم آثروا التركى الكافر على الكاثوليك المراقطة إيثارا مطلقا[١] . كذلك كان الإغريق الذين عاشوا تحت حكم بيزنطة غير المباشر ، فقد كان من الجائز أن يوافقوا على تغيير الحكام . وقد بلغت حاله التدهور والظلم التى ميزت أسرة Palaelogi إلى حد يدعو المتأمل إلى الخوف والذعر . « فإن الأرستقراطية الفاسدة ، ورجال الكنيسة المستبدين الذين لا يحصيهم العد ، وضغط القانون الباطل ، وإرهاق الحكومة الوضيعة . وأكثر من هذا ، المقاطعات والمالية والجيوش المجيشة لجمع الضرائب والخراج ـ كل ذلك قد جعل الشعب المنحل خلوا من الحقوق والمبادىء ، لا فرصة أمامه للاصلاح ، ولا أمل له فى الانتعاش[٢] » . وهنا نشير إلى كتابة تؤيد صحة هذا الحكم لأحد المعاصرين الذين يعدون حجة ، حتى لا يظهر أن مثل هذا الحكم قد أملته روح التعصب الطائفية . فقد عرض الإخباريون من الروس الذين تحدثوا عن سقوط القسطنطينية لمثل هذا الحكم ضد حكومتها بقولهم : « إن أية دولة لا تخاف القانون تشبه فرسا من غير زمام . لقد سمح قسطنطين وأسلافه لأكابر دولته بأن يستبدوا بالشعب ، فلم تعد فى محاكمهم عدالة ، ولا فى قلوبهم شجاعة . وجمع القضاة الثروات من دموع الأبرياء ودمائهم ، وأصبح الجنود الإغريق لا يفخرون إلا بفخامة الملبس ، والمواطنون لا يتحرجون من الظهور بمظهر الغش والخيانة ، والجنود لا يخجلون من الفرار . وأخيرا صب الله غضبه على هؤلاء الحكام الجاحدين ، ورفع من شأن محمد الذى ينشد أتباعه المحاربون اللذة فى القتال ، والذى لا يخدع قضاته ضمائرهم[٣] » . هذه العبارة الأخيرة التى تنطوى على المديح والثناء[٤] ، قد تقع موقع الدهش حين يسمعها جيل من الأجيال طالما استنجد به ليحتج على جور الأتراك . ولكن هذا ثابت فى وضوح وتواتر بشهادة المؤرخين المعاصرين . فالمؤرخ البيزنطى الذى خلف لنا قصة سقوط القسطنطينية ، يحدثنا كيف كان بايزيد الصارم نفسه رحب الصدر ، كريم الخلق مع رعاياه المسيحيين ، وكيف جعلهم يألفونه ألفة تامة بأن سمح

فرضت عليهم ، مما جعل عامة الشعب من الفقراء على جانب كبير من الهزال والانهيار بحيث كانوا لا يكادون يملكون وسيلة يقيمون بها على الروح والجسد معا ،، . (The Travels of Martin Baumgarten, p. 373.)

راجع أيضا النصوص التى نقلها هاكيت Hackett فى :

History of the Orthodox Church of Cyprus, p. 183.

(١) Finlay, vol. iii. p. 502.

(٢) Urquhart, quoted by Clark: Races of European Turkey, p. 82.

(٣) Karamsin, vol. v. p. 437.

(٤) ويكتب مارتن كروسيوس Martin Crusius بهذه الروح نفسها إذ يقول : ,, ومن الغريب أننا لم نسمع مطلقا أن شيئا من الجرائم أو المظالم قد وقع بين البرابرة (الاتراك) وبين البقية الباقية فى هذه المدينة الكبرى ، فالعدالة ممنوحة لكل فرد . لذلك وصف السلطان القسطنطينية بأنها ملجأ العالم كله : ذلك لأن جميع التاعسين يختبئون هناك فى أمان ، ولأن العدالة توزع على الناس جميعا ، على أقلهم شأنا وأعظمهم نفوذا ، على المسيحيين والكفار سواء بسواء ،،

(Tureograecia, p, 487.) (Basileae, 1584.)

لهم بالتردد على مجلسه فى حرية كاملة . وقد اشتهر مراد الثانى بعنايته فى تحقيق العدالة و بإصلاحه للمفاسد التى سادت فى عهد الأباطرة الإغريقيين ، وعاقب فى غير هوادة أى موظف من موظفيه استبد بأى فرد من رعاياه[1]. لهذا رأينا بعد سقوط القسطنطينية بقرن على الأقل ، طائفة من الحكام الصالحين ، واستطاعوا بفضل الإدارة الحازمة الصارمة أن ينشروا الأمن والنظام فى المقاطعات كلها ، ووجدنا تنظيما رائعا فى الشئون المدنية والقضائية ، وهو إن لم يجعل المساواة تامة بين المسلمين والمسيحيين ، إلا أنه جعل الإغريق أحسن حالا بكثير مما كانوا عليه من قبل . فقد كان ما كلفوا به من مشقة العمل الإجبارى أهون عليهم من ذى قبل ، وكانوا فى القليل النادر يدفعون غرامات غير عادية ، وكانت الضرائب التى يدفعونها عبئا خفيفا ، إذا ما قورنت بالالتزامات الإقطاعية ، التى لا تنتهى ، والتى كان الفرنجة يفرضونها عليهم ، والإرهاق المستمر الذى كانوا يتكبدونه من البيزنطيين . ولا شك أن الإيالات التركية كانت أحسن حكما وأكثر رخاء من معظم جهات أوربا المسيحية ، وأن جمهرة السكان المسيحيين الذين اشتغلوا بزراعة الأراضى كانوا ينعمون بقدر كبير من الحرية الشخصية ، كما كانوا ينعمون بثمار جهودهم فى ظل حكومة السلطان أكثر مما كان ينعم به معاصروهم فى ظل كثير من الحكام المسيحيين [2] . أضف إلى ذلك عاملا كبيرا كان من أهم العوامل فى زيادة نشاط المملكة التجارى ، ذلك أن السلاطين الأولين كانوا دائما على استعداد لإنعاش الصناعة والتجارة بين رعاياهم ؛ وإن كثيراً من المدن الكبرى قد ازدهر ازدهارا كبيرا عند ما خلصها الفتح التركى مما أصابها فى عهد الدولة البيزنطية من طغيان الثروة الحكومية التى عرقلت نهضتها وشلت حركتها ، ومن هذه المدن نيقية التى سلمت لأورخان سنة ١٣٣٠ بشروط ملائمة جدا بعد حصار طويل[3]. وكان العثمانيون كالرومان القدماء مهرة فى إنشاء الطرق والكبارى مما سهل التجارة فى جميع أنحاء الدولة ؛ وقد اضطرت الدول الأجنبية إلى السماح بفتح موانيها لتجار الإغريق ، وكانوا قد منعوا من دخولها فى عهد الأباطرة البيزنطيين . ذلك أنهم قد أصبحوا فى تلك الحالة يبحرون فى ظل الراية العثمانية ، وقد اتخذوا زى الأتراك وعاداتهم ، ومن ثم ظفروا من أمم غربى أوربا بالاحترام والتقدير اللذين كان الكاثوليكيون يرفضون دائما حتى ذلك الحين أن يمنحوها أفراد الكنيسة الإغريقية [4] .

ولسنا نستثنى من هذا السلوك الطيب ، وذلك التسامح الكريم ، إلا أمرا واحدا معروفا ، ذلك هو

---

(١) Phrantzes, p. 92.

(٢) ,, وإذا عاش النصارى أو اليهود (فى الشرق) فى أماكن فيها قضاة أو سوباشاهات (وهى وظيفة إدارية تقابل اليوم وظيفة المدير أو الحافظ فى مصر) بحيث لا يستطيع عامة الأتراك أن يفعلوا بهم ما يشاءون ، فإنهم (أى اليهود والنصارى) كانوا يؤثرون أن يعيشوا تحت سيطرة النصارى . ذلك أنهم كانوا لا يتعرضون لأذى ما داموا يدفعون الجزية . أما فى الممالك النصرانية فلا حد لما كان على الرعايا أن يؤدوه للدولة طوال العام . ،، (Tage-Buch, p. 413.)

(٣) Hertzberg, pp. 467, 646, 650.

(٤) Finlay, vol. v. pp.156-7.

ضريبة الأبناء المسيحيين الذين كانوا يؤخذون من آبائهم فى سن مبكرة كرها وينتظمون فى سلك الإنكشارية المشهورين. وقد استحال هذا الجيش، بعد أن أنشأه أورخان سنة ١٣٣٠، فى خلال بضعة قرون، عمادا لقوة السلاطين الأتراك الغاشمة، وظل يتغذى بهذه الضريبـــة المنتظمة، وكانت تحدث مرة كل أربع سنوات [١]، عند ما كان قواد السلطان يزورون المقاطعات التى فرضت الضريبة عليها، فيختارون طائفة من بين الأبناء الذين يبلغ سن الولد منهم السابعة تقريبا. وقد حاول فقهاء المسلمين تبرير هذه الضريبـة التى تتنافى مع الإنسانية بأن جعلوا هؤلاء الأولاد يمثلون الخمس الذى جعله القرآن من نصيب الحاكم فى الغنائم [٢]، وأفتوا بأن تجنب الإكراه على اعتناق الإسلام [٣] كان ملحوظا من غير شك بالنسبة إليهم كذلك، على أن حداثة سنهم التى كانوا يوضعون فيها تحت إرشاد معلمين من المسلمين لا بد أنها لم تكن بحيث تجعل [٤] لهذه النظرية أية قيمة من الوجهة العملية. ولقد طالما عبرت أوربا المسيحية عن استيائها من هذه الضريبة الوحشية، ورسم الرحالة الذين تنقلوا فى الولايات التركية صورا مؤلمة للمنازل المهجورة والآباء الذين ذرفوا الدمع على الأطفال الذين انتزعوا منهم انتزاعا. غير أن الجيش فى أول نشأته كان قد كثر عدده بسرعة فائقة بتطوع كثيرين من بين المسيحيين أنفسهم [٥]، وربما كانت الظروف والأحوال التى فرضت فيها هذه الضريبة أولا تذهب بعيدا فى تفسير الجمود الذى أبداه الإغريق أنفسهم فيما يظهر. فقد تعرضت البلاد كلها للخراب من جراء الحروب، وكثيرا ما استهدفت الأسر لخطر الهلاك جوعا. ومن ثم كان الأبناء الذين يتبنون يتامى فى كثير من الأحيان، ولولا تبنيهم لتعرضوا للهلاك. أضف إلى ذلك أن عادة بيع المسيحيين أرقاء كانت فى ذلك الحين قد انتشرت انتشارا واسع النطاق، ربما أدى إلى جعل هذه الضريبة أقل إثارة للدهش مما كان متوقعا. ثم إن هذه العادة قد ثبت أنها لم تكن إلا استمرارا لحالة مماثلة كانت قائمة فى ظل الأباطرة البيزنطيين [٦]. وقد قيـل أيضا إنه لم يكن ثمة ما يدعو القواد الذين كانوا

---

(١) على أن هـذه الفترة لم تكن ثابتة ؛ ففى أول الأمر كانت الجباية تحدث كل سبع سنوات أو خمس، ولكنها حدثت فى عصور متأخرة، على فترات أكثر من هذه، تبعاً لحاجة الحكومة (Menzel, p. 52.). ويقرر متروفانس كريتوبولوس، فيما كتبه سنة ١٦٢٥، أن الجباة كانوا يفدون إلى المدن إذا وافت السنة السابعة، وكان على كل مدينة أن تتطوع بثلاثة أولاد أو أربعة، أو بولدين على الأقل (p. 205.)

(٢) القرآن سورة ٨ آية ٤٢

(٣) نفس المرجع سورة ١٠ آية ٩٩، ١٠٠

(٤) « ومع ذلك فان الشبان المسيحيين لم يرغموا على تغيير عقيدتهم. وكانت مبادىء الحكومة تتعارض مع ذلك طبقا لأحكام القرآن ؛ فاذا كان هؤلاء المرظفون قد استخدموا أحيانا شيئا من الاكراه الدينى بدافع تحمسهم، فقد كان ذلك تساهلا من جانب قيادتهم ؛ على أن هذا الاكراه لم يكن مسموحاً به مطلقا من الرؤساء. »

(M. d'Ohsson, tome iii. pp. 397-8.)

(٥) Hertzberg, p. 472.

(٦) « على أنه من المحزن جدا ما حدث يوما من أن الأباطرة المسيحيين كانوا يستعرضون من كل مدينة عددا معينا من الأطفال، الذين يبدو أن قوامهم الطبيعية تفوق قوى هؤلاء الباقين، الذين تحملوا مشقة إحضارهم إلى الساحة للقيام بواجبات الخدمة العامة ؛

يجمعون العدد المعين من الأبناء إلى استخدام القوة والإكراه إلا فى القليل النادر ، وإنما كان هؤلاء الآباء مشوقين فى الغالب إلى إدخال أبنائهم فى خدمة تهيء لهم فى كثير من الأحيان حياة سعيدة وعيشة ناعمة مريحة ، لا تعنيهم الظروف والملابسات ، طالما كان هؤلاء الأسرى الصغار يُنشّئون ويثقفون كما لو كانوا أولاد السلطان نفسه (١). ثم إن هذا النظام قد يبدو أخف وحشية لو أن الآباء كانوا حقا يفتدون أولادهم غالبا بدفع بعض الأموال (٢). وفى سنة ١٦٢٥ كتب مترو فانس كريتوبولوس Metrophanes Kritopoulos ، وكان بطريقا للقسطنطينية ثم للاسكندرية ، فذكر شتى الحيل التى كان يلجأ إليها المسيحيون تخلصا من عبء هذه الضريبة . من ذلك أنهم كانوا يشترون أولاد المسلمين ويقدمونهم على أنهم مسيحيون ، وأنهم كانوا يرشون الجباة ليأخذوا بدلا من أولادهم أولادا من المسيحيين الذين ولدوا من عنصر منحط ، أو نشئوا تنشئة فاسدة ، أو ممن « يستحقون الشنق » (٣) . وتحدث توماس سمث Thomas Smith فى جملة آخرين عن إمكان افتداء الأولاد بالمال ، وقد بلغ من التأثر مبلغا عظيما : « وحرص بعض آبائهم ، بدافع من الشفقة الطبيعية والشعور الدينى الصادق على ألا يُسلَبوا أبناءهم الذين قد تضطرهم هذه المحنة إلى الارتداد عن نصرانيتهم ، فكانوا يدفعون للأتراك خمسين دولارا أو مائة ، مبلغا يتفاوت قلة وكثرة حسب قدرتهم على الدفع ، ومدى تأثيرهم فى جشع الأتراك »(٤). وقد أعفى من هذه الضريبة القاسية أهالى مدن خاصة من المسيحيين ، كالقسطنطينية وبعض البلاد والجزائر التى كانت قد اتفقت على هذا الشرط وقت تسليمها للأتراك ، أو كانت قد اشترت هذا الامتياز (٥) . وإن هذه الظروف المخفّفة فى بداية حكمهم ، وحالة الرخاء التى يستسلم الناس فى ظلها لأية عادة مقررة — ولو أنها لا تصلح بحال أن تكون عذرا لهذا الوضع الذى يتنافى مع الإنسانية — لتعيننا على فهم ما يسميه أحد الرحالة فى القرن السابع عشر « عدم الاكتراث

— المدنية والحربية : كذلك عند ما احتل الاتراك الامبراطورية اليونانية ، كان لهم نفس الحق فى أن ينتزعوا من أرباب الأسر أطفالا وهبتهم الطبيعة قوة بالغة » .

(David Chytraeus, pp. 12-14.)

(١) Creasy, p. 99. M. d'Ohsson, tome iii. p. 397. Manzel, p. 53.

وقد قال توماس سمث وهو يتحدث عن أمثال هؤلاء الآباء : « وآخرون قد لحقهم خزى الدين وعاره ، معيبون اسما فحسب ، تخلوا عنهم ، فى حرية وإقبال عظيم ، لا لكى يتخلصوا من متاعبهم وأعبائهم فحسب ، بل أملا فى أن يحصلوا ، بعد أن يكبروا ، على شىء من السلطان فى الحكومة » . An Account of the Greek Church, p. 12. (London, 1680.)

وفى عهد مراد الاول ، استخدمت الجيوش المسيحية فى جمع ضريبة الأطفال المسيحيين هذه . (Finlay vol. v, p. 45.)

(٢) « على أنه كان من الممكن حقا أن يخلص الآباء هؤلاء الاطفال من الجباة بافتدائهم بالمال » (David Chytraeus p. 13.)

يذكر دى لا جيتيير De la Guilletière هذه الضريبة فى سنة ١٦٦٩ على أنها من خصائص الأثينيين .

(An account of a Late Voyage to Athens, p. 272. London, 1676.)

(٣) Confessio, p. 205.

(٤) An Account of the Greek Church, p. 12. (London, 1680.)

(٥) Menzel, p. 52. Thomas Smith : De Moribus ac Institutis Turcarum, p. 81. (Oxonii, 1672.)

الذى لا يمكن تعليله »[١]، والذى يظهـــر أن الإغريق كانوا قد وقعوا فيه ، حين طلبوا حكومة جديدة (حكومة الأتراك) عملت على تحسين حالتهم تحسينا ملموسا .

زد على ذلك أن رعايا الدولة العثمانية من المسيحيين كان عليهم أن يدفعوا ضريبة الرأس فى مقابل حمايتهم وإعفائهم من الخدمة العسكرية . وكانت الفئات المقررة فى القانون العثمانى تتراوح بين ٢½ ، ٥ ، ١٠ قروش على كل ذكر بالغ ، كل بالنسبة إلى دخله[٢]، على حين أعفى النساء ورجال الكنيسة[٣]. وكانت الفئات فى القرن التاسع عشر تتراوح بين ١٥ ، ٣٠ ، ٦٠ قرشا ، كل بحسب دخله[٤]. وكثيرا ما تحدث الكتاب المسيحيون فى القرنين السادس عشر والسابع عشر عن هذه الضريبة بتقدير دوكة واحدة عن كل رأس[٥]. ولكنهم أخبروا كذلك ، على اختلاف فيما بينهم أنها تتراوح بين ٣ ، ٥ ، ٥⅞ من الريالات أو الدولارات[٦]. ولعل التقلبات التى طرأت فى القرن السابع عشر على سعر النقد فى العملة التركية هى التى تفسر لنا تلك التغييرات الأخيرة . ولكى نقدر على وجه التحقيق ، إلى أى حد كانت هذه الضريبة عبئا على هؤلاء الذين يؤدونها فإن ذلك يحتاج إلى بحث مستفيض حول تتبع قيمة النقد فى هــذه الفترة ، وعمل مقارنة مع سائر أبواب المصروفات[٧] . ولكنها لا تكاد تكون فى ذاتها عذرا وجيها لتغيير العقيدة ، كما أشار إلى ذلك

---

(١) Hill, p. 174.

(٢) Joseph von Hammer (2), vol. ii. p. 151.

ويقرر هنس شلتبرجر Hans Schiltberger ، الذى أسره الأتراك فى سنة ١٣٩٦ م ورجع إلى وطنه ميونيخ بعد أن أمضى فى الأسر اثنين وثلاثين عاما ، أن الضريبة التى لم يكن بد من أن يدفعها المسيحيون لم تزد على جزئين من مائة من الماركات فى الشهر . (Reisebuch, p. 92.)

(٣) كانوا يعفون خدام الدين المسيحى ، كما أمر بذلك الله ، كأنهم كانوا يفعلون ذلك احتراما للمناصب المقدسة التى يشغلونها كما أعفى النساء كذلك من دفع هذه الضريبة .

(De Graecae Hodierno Statu Epistola, authore Thoma Smitho, p. 12.) (Trajecti ad Rhenum, 1698.)

(٤) Silbernagl, p. 60.

(٥) Martin Crusius, p. 487; Sansovino, p. 67.

Georgieviz, pp. 98—9; Scheffler, § 56; Hertzberg, p. 648. De la Jonquière, p. 267.

ويقرر كتاب نشر فى لندن سنة ١٥٩٥ بعنوان «The Estate of Christians living under the subjection of the Turke,» ، أن ضريبة الرأس عن الأطفال الذكور كانت ثمانية شلنات (p. 2.). ويقول ميشيل باودن Michel Bauden إن مقدارها (one sequin) لكل رأس من الذكور . (Histoire du Serrail, p. 7. Paris, 1662.)

(٦) Georgirenes, p. 9; Tournefort vol. i. p. 91; Tavernier (3), p. 11.

(٧) وفى كتاب نشره جوزيف جيرو جيريتيس رئيس أساقفة سيسام († جزيرة فى بحر إيجه ، يذكرها العرب بصيغة سامو أو سام أو شامس — Encyc. of Islam,) فى سنة ١٦٧٨ ، فى أثناء زيارة إلى لندن ، يعدنا بوصف عن دخل أبرشيته ، الذى

تورنيفورت Tournefort حين كتب سنة ١٧٠٠م عن إسلام الكانديوت Candiots فقال : «يجب أن نعترف بأن هؤلاء التاعسين يبيعون أرواحهم بما يساوى بنسا ، وأن كل ما حصلوا عليه من تبديل دينهم ، هو تغيير زيهم وتمتعهم بإعفائهم من ضريبة الرأس التى لا تتجاوز خمسة ريالات فى العام [١]» . كذلك قرر شفلر Scheffler الذى كان مولعا بتلوين حالة المسيحيين فى ظل الحكم التركى بأقتم ما استطاع من ألوان ، أن دوكة واحدة لكل رأس شىء تافه ، ورأى أن يوجه عنايته قبل كل شىء إلى الضرائب غير العادية ، وإتاوات الحرب وغيرها مما كانوا يطالبون بأدائها[٢] . وكانت ضريبة الأطيان مفروضة على كل من المسيحيين والمسلمين على حد سواء . ذلك أن التفرقة القديمة بين الأراضى التى يدفع عنها المالك المسلم العشر ، والأراضى التى يدفع عنها المالك غير المسلم الخراج لم تكن معروفة لدى العثمانيين[٣] . وأيا كانت هذه المتاعب التى لم يكن بد من أن يتجشمها المسيحيون ، فقد نشأت من ظلم الأفراد الذين استغلوا منصبهم الرسمى لابتزاز الأموال من هؤلاء الذين وقعوا تحت سلطتهم . ولم يكن مثل هذه المظالم يتنافى مع الشريعة المحمدية فحسب ، بل كان نادر الوقوع قبل أن يتطرق الضعف إلى الحكومة المركزية ويعانى فوضى السلطات المحلية وتعسفها دون أن توقع عليها عقابا[٤] . وهناك فرق واضح كل الوضوح بين ما لدينا من الأخبار الخاصة

= يظهر أن تفصيلاته لم تكن تعد مجحفة ، كما أنها كانت مدونة هنا لفائدة قراء الانجليز : وإذا قورنت بالمبالغ المذكورة هنا فينبغى أن نذكر أنه يتحدث عن ضريبة الرأس باعتبارها ثلاثة ريالات أو دولارات (pp. 8-9) . «عندما يتولى (أى رئيس الأساقفة) لأول مرة يقدم له الآباء أو قسيس أبرشية الكنيسة عن مسكنه خمسة عشر دولارا أو عشرين ; أما هؤلاء التابعون للكنائس الأخرى فيمنحون بحسب قدرتهم على الدفع . فى السنة الأولى من توليه يؤدى كل خورى كنيسة له أربعة دولارات . وفى السنة التالية دولارين ويؤدى كل علمانى إليه ثمانية وأربعين أسبرا (asper)» — (فى المعاهدة التجارية التى أبرمت مع انجلترا سنة ١٦٧٥ ، كانت قيمة الدولار ثابتة على ثمانين أسبرا (Finlay, v. 28.) — «وفى السنين التالية بلغت أربعة وعشرين . ويؤدى أهل سيمام دولارا واحدا عن كل ترخيص ; وكل الغرباء يدفعون دولارين ، ولكن كل من يأتى بعد الزيجة الأولى ليطلب ترخيصا بزيجة ثانية أو ثالثة يدفع ثلاثة دولارات أو أربعة» . (pp. 33—4.)

(١) Tournefort, vol. i. p. 91.

(٢) Scheffler. § 56.

«أما فيما يتعلق بهذه الدوكات التى تؤدونها فإنكم أنتم أيضا تنخدعون بها انخداعا فظيعا . حقا أن الامبراطور التركى لا يأخذ فى العادة جزية على الرأس إلا دوكة واحدة ، ولكن أين ضرائب الجمارك والضرائب غير العادية ؟ ألا يأخذ وكلاء السلطان وعماله شيئا أبدا ؟ ألستم ملزمين فى أوقات الحرب بدفع ضرائب غير عادية ؟ أما الضرائب غير العادية فإنها تزيد وتنقص تبعا لسوء حال العصور ، والواجب أن يدفع رعايا السلطان هذه الضرائب كما ندفعها نحن» .

(٣) Hammer (2), vol. i., p. 346.

(٤) «وقد نشأت المصاعب التى كان يعانيها رعايا السلطان من المسيحيين ، فى كل الأزمان من تلك الحقيقة وهى أن السلطة المركزية فى القسطنطينية لم يكن لها إلا سلطان فعلى ضئيل على كل أرجاء الدولة التركية . وإن الظلم اليسير الذى أحدثه موظفو القرى ، والذى قد جعلته الأحقاد الشخصية شديد الوطأة ، هو الذى أثار أعمال القسوة هذه التى أذعن لها المسيحيون فى تركيا سواء فى العهود السابقة أو فى الوقت الحاضر حيث تظهر هذه الأعمال أعنف وأشد . وفى الأيام التى تصل أمة من الأمم إلى عظمتها ، قد تكون العدالة بل الشرف بإزاء الشعب المحكوم أمرا محتملا . ولكن النادر أن توجد هذه الصفات فى أمة تأخذ طريقها نحو التأخر والانحلال» .

(Rev. W. Denton : Servia and the Servians, p. 15. London, 1862.)

Gerlach, pp. 49, 52.

بحالة المسيحيين فى خلال القرنين الأولين من الحكم التركى فى أوربا والأخبار التى تتعلق بحالتهم فى وقت متأخر ، حين كان دور الانحلال قد بدأ بالفعل . ولكن مما هو جدير بالملاحظة أن ما سجل عن عدد المسيحيين الذين تحولوا إلى الإسلام كان قليلا جدا فى هذه الفترة نفسها التى كان المسيحيون فيها أشد تعصبا. ولما كانت حالة المسيحيين فى القرن الثامن عشر أسوأ منها فى أى عهد آخر ، كان من الصعب أن نجد أية إشارة تدل على تحول المسيحيين إلى الإسلام ، وظهر الأتراك أنفسهم بمظهر الذين لا يكترثون مطلقا لتقدم دينهم ، كما أصيبوا إلى حد كبير بالشك والإلحاد [١]. ودليل آخر يثبت أن ما تحملوه من مشاق كان راجعا إلى فساد الحكومة أكثر منه إلى الاضطهاد الدينى ، ذلك أن المسلمين والمسيحيين قد لاقوا المتاعب على سواء [٢]. ومع ذلك فقد كان المسيحيون بطبيعة الحال أكثر تعرضا للعسف وسوء المعاملة لما اعترضهم من صعاب فى سبيل الحصول على ما يصلح حالهم بالدفاع عن قضيتهم . ومن ثم لا يبعد أن يكون تغيير الدين وسيلة لجأ إليها طائفة من أفقر طبقاتهم تحررا من متاعبهم .

---

(١) Businello, pp. 43—4.

(٢) جرت عادة حكومة السلطان المركزية أن تعامل رعاياها من المسلمين بمثل ما عاملت به المسيحيين المغلوبين على أمرهم من القسوة والجور . وقد كانت متاعب الاغريق نتيجة لما صدر من الطبقة الحاكمة من القحة والظلم ، وإنما سيطر على الادارة العثمانية من فساد ، أكثر من أن تكون نتيجة لمباشرة السلطان لنفوذه . كان الاغريقى ، فى شئونه الخاصة ، فرصة للحصول على العدالة من أساقفه وشيوخ ناحيته ، أحسن مما كان يحصل عليه التركى من القاضى . ،، (Finlay, vol. vi. pp. 4-5.)

،، ومن الخطأ أن نزعم أن المسيحيين وحدهم هم الطائفة المظلومة البائسة من الأهالى . فقد كان فساد الأداة الحكومية التركية شاملا ، يرزح تحت ثقله جميع الناس على سواء . وربما كان بؤس المسلمين فى بعض أنحاء المملكة أسوأ حالا فى الواقع من بؤس المسيحيين . وإنما كانت حالة المسيحيين هى التى أثارت أكثر من غيرها شفقة الرحالة . ،،

(William Forsyth: The Slavonic Provinces South of the Danube, pp. 157—8. London, 1876.)

،، ويقع كل هذا التعسف والبؤس (يعنى فى شمال آسيا الصغرى) على الأهالى من المسلمين والمسيحيين على سواء . ،،

(James Bryce: Transcaucasia and Ararat, p. 381.)

،، خيل إلى أوربا أن المسيحيين وحدهم هم الذين يذعنون فى تركيا للاستبداد والعذاب والهوان ، الذى نشأ عن التعسف ، لم يكن هذا مطلقا ؛ فما من فرقة أجنبية كانت تبتلى بأمر المسلمين ، ومن ثم ربما كان الغبن الواقع عليهم أشد ، وتعرضهم لنير الظلم أكثر مما تعرض له هؤلاء الذين لا يؤمنون بالنبى . ،،

(De la Jonquière, p. 507.)

،، وإذا حكمنا بما لاحظناه من قبل ، وجدنا أن أحط طبقات المسيحيين فى آسيا الصغرى لم يكونوا أسوأ حالا من أمثالهم فى تركيا . وإذا كان مسيحيو تركيا الأوربية يتمتعون ببعض مزايا ناشئة من تأثير تفوق عددهم على عدد الأتراك ، فان مسيحيى آسيا يرتاحون حين يرون أن الأتراك يتعرضون من جانب أصحاب النفوذ لمثل حالة العسف التى يتعرضون لها هم أنفسهم ؛ وحسبهم أن يتعاملوا مع جنس من المسلمين أرق حاشية ، وأشد تدينا ، وأحسن احتمالا لمذهب من أمثالهم فى أوربا . ،،

(W. M. Leake: Journal of a Tour in Asia Minor, p. 7. London, 1824.)

وانظر كذلك : Laurence Oliphant: The Land of Gilead, pp. 320—3, 446. (London, 1880.)

ولكننا إذا استثنينا ضريبة الأبناء التي يلوح أن الإغريق المغلوبين على أمرهم قد أذعنوا لها ولم يظهروا مقاومة تذكر، والتي يرجع السبب في إلغائها، لا إلى ثورة قامت، أو انقلاب وقف في سبيل استمرارها، ولكن إلى زيادة السكان من الأتراك وعدد المرتدين الذين كانوا يوالون الدخول في خدمة السلطان[١] — فان المعاملة التي أظهرها الأباطرة العثمانيون للرعايا المسيحيين — على الأقل بعد أن غزوا بلاد اليونان بقرنين — لتدل على تسامح لم يكن مثله حتى ذلك الوقت معروفا في سائر أوربا. وإن أصحاب كلفن Calvin في المجر وترانسلفانيا، وأصحاب مذهب التوحيد Unitarians من المسيحيين الذين كانوا في ترانسلفانيا، طالما آثروا الخضوع للاتراك على الوقوع في أيدي أسرة هابسبورج المتعصبة[٢]. ونظر البروتستانت في سيليزيا إلى تركيا بعيون الرغبة، وتمنوا بسرور أن يشتروا الحرية الدينية بالخضوع للحكم الإسلامي[٣]. وحدث أن هرب اليهود الاسبانيون المضطهدون في جموع هائلة فلم يلجئوا إلا إلى تركيا، في نهاية القرن الخامس عشر[٤]؛ كذلك نرى القوزاق Cossaks الذين ينتمون إلى فرقة المؤمنين القدماء Old Believers الذين اضطهدتهم كنيسة الدولة الروسية، قد وجدوا من التسامح في ممالك السلطان ما أنكره عليهم إخوانهم في المسيحية[٥]. وربما كان يحق لمقاريوس بطريق أنطاكية في القرن السابع عشر أن يهنىء نفسه حين رأى أعمال القسوة الفظيعة التي أوقعها البولنديون من الكاثوليك Catholic Poles على روسيي الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية. قال مقاريوس: «إننا جميعا قد ذرفنا دمعا غزيرا على آلاف الشهداء الذين قتلوا في هذه الأعوام الأربعين أو الخمسين على يد أولئك الأشقياء الزنادقة أعداء الدين.

---

(١) وفي القرن السادس عشر أخذت ضريبة الأطفال تتلاشى؛ وآخر مثال مدون لفرض هذه الضريبة كان في سنة ١٦٧٦.

(٢) De la Jonquière, p. 333. Sckeffler, § 45-6. Gasztowtt, p. 51.

(٣) «... لأني أسمع مع فرط الدهش، أن الامر لم يقتصر على ما يروج بين العامة من إشاعات مؤداها أن الحياة في ظل الحكم التركي شيء مقبول؛ ذلك أنه يظن أن الانسان متى دفع دوكة واحدة وهي جزية الرأس لم يعرض له بعد ذلك بسوء، وأن للاتراك، بالاجمال، يتركون الناس أحرارا في دينهم، وأن النصارى سترد إليهم كنائسهم، وما شاكل ذلك. بل هنالك أيضا آخرون، (يعني من المسيحيين) ممن يجب أن يدركوا الأمور على وجه صحيح، يفرحون بما يقال لهم (عن محاسن الأتراك)، ويهللون للقضاء الذي هم فيه! فان هؤلاء النصارى ليسوا هالكين فحسب، بل هم عصاة، متهورون، كفار، لم ينبتوا إلا من تربة الالحاد التي تجنح إلى الثورة، وإلى استئصال شأفة المسيحية.» (Scheffler, § 48.)

(٤) Hertzberg, p. 650.

(٥) De la Jonquière, p. 34. وقد علق ريتشارد ستيبر R. Staper، وهو تاجر انجليزي كان في تركيا في عصر مبكر (سنة ١٥٧٨) ، مقارنة عاقلة بقوله: «وعلى الرغم من أن الأتراك بوجه عام شعب من أشرس الشعوب، يسرهم في أعمال الظلام .... سمحوا للمسيحيين جميعا، الاغريق منهم واللاتين، أن يعيشوا محافظين على دينهم، وأن يصرفوا ضمائرهم كيف شاءوا، بأن منحوهم كنائسهم لأداء شعائرهم المقدسة، في القسطنطينية وفي أماكن أخرى كثيرة جدا، على حين أستطيع أن أؤكد بحق بدليل اثنى عشر عاما قضيتها في أسبانيا، أننا لا نرغم على مشاهدة حفلاتهم البابوية فحسب، بل إننا في خطر على حياتنا وسلعنا.»

(M. Epstein: The Early History of the Levant Company, p. 57. London, 1908.)

وربما كان عدد القتلى سبعين ألفا أو ثمانين ألفا . فيا أيها الخونة ! يامردة الرجس ! يا أيتها القلوب المتحجرة ! ماذا صنع الراهبات والنساء ؟ وما ذنب هؤلاء الفتيات والصبية والأطفال الصغار حتى تقتلوهم ؟... ولماذا أسميهم البولنديين الملعونين ؟ لأنهم أظهروا أنفسهم أشد انحطاطا وأكثر شراسة من عباد الأصنام المفسدين ، وذلك بما أظهروه من قسوة فى معاملة المسيحيين ، وهم يظنون بذلك أنهم يمحون اسم الأرثوذكس. أدام الله بقاء دولة الترك خالدة إلى الأبد . . فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان ، سواء أكان رعاياهم مسيحيين أم ناصريين ، يهودا أو سامرة : أما هؤلاء البولنديون الملاعين فلم يقنعوا بأخذ الضرائب والعشور من إخوان المسيح بالرغم من أنهم يقومون بخدمتهم عن طيب خاطر ؛ بل وضعوهم تحت سلطة اليهود الظالمين أعداء المسيح الذين لم يسمحوا لهم حتى بأن يبنوا الكنائس ، ولا بأن يتركوا لهم قسساً يعرفون أسرار دينهم[1]. حتى إيطاليا كان فيها قوم يتطلعون بشوق عظيم إلى الترك لعلهم يحظون كما حظى رعاياهم من قبل بالحرية والتسامح اللذين يئسوا من التمتع بهما فى ظل أية حكومة مسيحية[2]. وهنا قد يلوح أن الإسلام لم ينتشر بالقوة فى أملاك سلطان تركيا . ومع أن ما اتصف به العابثون من عمال الأتراك فى أيام انحلال الدولة من ظلم ونقص فى روح العدل والإنصاف ربما دفع بعض المسيحيين إلى أن يحاولوا تحسين حالتهم بتغيير عقيدتهم ، فإن أمثال هذه الحالات كانت نادرة فى القرنين الأولين من العهد التركى فى أوربا ، تلك الفترة التى ينسب إليها معظم حالات التحول إلى الإسلام . وكان يكون من الغريب حقاً ، لو أن الغيرة التى دفعت العثمانيين فى ذلك الحين إلى هداية الناس واستمالتهم إلى الإسلام لم تحملهم قط على مجاوزة حدود التسامح الذى رسمته قوانينهم الخاصة بهم . ومع ذلك فقد قال الذين وقعوا فى الأسر بينهم اثنين وعشرين عاماً : « إن الأتراك لم يرغموا أحداً على ترك دينه »[3]. وذكر آخرون شواهد أخرى

(١) Macarius, vol. i. pp. 183, 165. Cf. the memorial presented by Polish refugees from Russia to the Sublime Porte, in 1853. (Gasztowtt, p. 217.)

(٢) «وضع بعضهم نصب عينيه نوعا من الحرية يتعاوى على الحاقة ... فلما فقدوا الأمل فى الحصول على هذه الحرية فى ظل حكومة مسيحية ، آثروا أن يعيشوا فى ظل الأتراك ، كأن هؤلاء كانوا أكثر شفقة فى منح هذه الحرية من الحكام المسيحيين .»

[Joannis Ludovici Vivis De Conditione Vitae Christianorum sub Turca, pp. 220. 225.] [Basileae, 1538.]

«وينادى بعض الناس بأن الإيمان حر فى ظل الحكم التركى»

(Othonis Brunfelsii ad Principes et Christianos omnes Oratio, p. 133.) (Basileae 1538.)

وحوالى سنة ١٥٧٧ كتب أوبرتوس فوليتا Ubertus Folieta أحد أشراف جنوه ، يقول : «وطالما تساءلت : كيف يحدث أن عدداً كبيراً جدا من رجالنا يأوى إليهم باستمرار ، ويتنكر للديانة المسيحية ، وينضوى تحت لواء الشريعة الاسلامية .»

(De Causis Magnitudinis Turcarum Imperii, col. 1209.) (Thesaurus Antiquitatum et Historiarum Italiae, curá Joannis Georgii Graevii, tom. i. Lugduni Batavorum, 1725.)

(٣) Turchicae Spurciiae Suggillatio, fol. xvii. (a).

عائلة ، فقد زار أحد سادة الإنجليز تركيا فى الشطر الأول من القرن السابع عشر وهو يحدثنا أن «من النادر أن تجد أى إكراه للنفوس وبالأحرى لا إكراه بالقتل ، إذ لم تكن هناك فرصة تسمح بارتكاب أية جناية من هذا النوع[١]» . وبعد ذلك بنحو ثلاثين عاماً (أى سنة ١٦٦٣) كتب مؤلف[٢] كتاب Türcken—Schrifft يقول : «وهو فى أثناء ذلك (يعنى التركى) يجذب (أى يحول الناس إلى الاسلام) بالحيلة أكثر مما يجذب بالعنف ، وينتزع المسيح من قلوب الناس بالمكر والخداع . ذلك أن التركى فى الحقيقة ، فى وقتنا الحاضر ، لا يرغم بلداً من البلاد على أن يكفر بالعنف والإكراه . ولكنه يستخدم وسائل أخرى يستأصل بها شأفة المسيحية من خفة ولطف .. فما الذى جرى للمسيحيين إذن ؟ إنهم لم يطردوا من البلاد ، ولم يجبروا على اعتقاد دين الأتراك : حينئذ كان لا بد أن يصبحوا من تلقاء أنفسهم أتراكا» .

وقد رأى الأتراك أن أعظم خير يستطيعون تقديمه لأى فرد هو أن يهدوه إلى دين الاسلام[٣] . وفى سبيل هذه الغاية لم يدعوا وسيلة للاغراء إلا فعلوها : يحدثنا رحالة هولندى ، عاش فى القرن السادس عشر أنه بينما كان يظهر إعجابه بمسجد أياصوفيا الكبير ، حاول بعض الأتراك أن يؤثروا فى عواطفه الدينية من طريق إحساسه بالجمال ، فقالوا له : «إنك لو أصبحت مسلماً لاستطعت أن تأتى هنا كل يوم من أيام حياتك» . وبعد ذلك بقرن تقريباً حدث لرحالة إنجليزى[٤] ما يشبه تلك الحادثة إذ قال : «وقد يسألون مسيحياً بدافع من فيض حماستهم ، فى أدب جم ، كما سألونى أنا نفسى عند مدخل مسجد أياصوفيا : لماذا لا تصبح مسلماً فتكون كأحدنا ؟» ومما يدل على الحب الروحى المتوقد الذى جعل هؤلاء القوم فى مثل هذه المنزلة من الغيرة على نشر الدين ، تلك الأفراح الشعبية التى كانوا يحيون فيها من دخلوا طوعاً من المسلمين الجدد فى الإسلام . فكان المسلم الجديد يمتطى حصاناً ويطاف به فى طرقات المدينة ، وهم فى نشوة النصر . فاذا توسموا فيه خلوص النية فى تغيير دينه ، وعرفوا أنه دخل بمحض إرادته فى حظيرة الإسلام أو كان شخصاً ذا مكانة طيبة استقبلوه بتكريم عظيم ، وأمدوه بما يعينه[٥] . ولا شك أنه كان هناك دليل قوى يؤيد قول من قال : «إن فى نفوس الأتراك غيرة لا يكاد يصدقها العقل حين يبتهلون الى الله أن يحول الناس الى الإسلام ، أو بعبارة أصح ، أن يحول المسيحيين إلى ديانتهم المارقة : إنهم كل يوم يبتهلون إلى الله فى مساجدهم مخلصين أن يؤمن المسيحيون بالقرآن ، وأن يهتدوا على أيديهم ، ولم يدعوا للتأثير وسيلة من وسائل الترهيب والترغيب ، والعقاب والجزاء إلا فعلوها»[٦] .

---

(١) Blount, vol. i. p. 548.

(٢) Scheffler, § § 51, 53.

(٣) Dousa, p. 38, Busbecq, p. 190.

(٤) Thomas Smith, p. 32.

(٥) Thomas Smith, p. 42. Blount, vol. i. p. 548. Georgieviz, p. 20. Schiltberger, p. 83-4. Baudier, pp. 149, 313.

(٦) Alexander Ross, p. ix. Baudier p. 317, cf. also Rycaut, vol. i. p. 276.

«ويعتقد المرء أن تحويل الانسان إلى مسلم فضل كبير ، وليس ثمة شخص لديه من الغنى ما يمكنه من امتلاك عبد إلا ويريد أن

وإن حالات المجتمع المسيحي نفسه قد جعلت هـذه الجهود التي تنطوى على الغيرة والحماسة الدينية فى اكتساب مسلمين جدد أشد أثراً وأعظم قيمة . ويعد تدهور الكنيسة الإغريقية فى مقدمة هـذه الحالات جميعاً . وإلى جانب طغيان الدولة البيزنطية فى الشئون الزمنية ، نشأ استبداد فى الأمور الدينية جعل الحياة العقلية ترزح تحت عبء القرار الحاسم الذى حرّم كل مناقشة فى شئون الأخلاق والدين . والشيء الوحيد الذى أقض مضاجعهم هو المجادلات العنيفة التي قامت حرباً عواناً على الكنيسة اللاتينية مقرونة بكل ما فى المناقشات النظرية والكراهة العنصرية من شدة ومرارة . وتدهورت ديانة الشعب فأصبحت تراعي المظاهر الخارجية مراعاة تقوم على كثير من الوهم والريبة . ووجدت حماسة عبادتهم البالغة متنفساً فى عبادة العذراء والقديسين والصور والمخلفات الأثرية ؛ وانصرف عدد كبير عن كنيسة انحطت حياتها الروحية الى الحضيض ولما ملوا مناقشات لا نهاية لها حول مسائل مذهبية عويصة ، كالانبثاق المزدوج لروح القدس Double Procession of Holy Spirit ، وأخرى تافهة كاستخدام الخبز الخمير أو الفطير فى القربان المقدس ، تقبلوا بصدر رحب تعاليم الاســـلام الواضحة المفهومة التي تقوم على الوحدانية . وقد انتهت إلينا أخبار(١) عن طوائف كبيرة من الناس تحولوا إلى الإسلام ولم يكونوا من بسطاء عامتهم فحسب ، بل كانوا من العلماء على اختلاف طبقاتهم ومناصبهم وحالاتهم ، وأخبار عن الطريقة التي أجرى بها الأتراك أرزاقاً أسخى على هؤلاء الرهبان والقساوسة الذين اعتنقوا الإسلام حتى يكونوا قدوة قد تدفع غيرهم إلى الدخول فى الإسلام . وبينما كانت أدرنة لا تزال العاصمة التركية (أى قبل سنة ١٤٥٣) كان البلاط قد اكتظ بالذين دخلوا فى الإسلام . ويقال إنهم كانوا يؤلفون السواد الأعظم من أصحاب الجاه والسلطان هناك(٢) . وكثيراً ما انحاز

= يكون له عبد قوى ، قادر على أن يتحمل كل ألوان المتاعب دون ألم ، هذا الشخص الذى يستطيع أن يدعى أنه حوله إلى الاسلام حتى يستحق بذلك الشرف لكونه قد زاد فى عدد المؤمنين ،، .

ويروى توماس سمث كيف كان الشيخ الذى أراه قبر أورخان فى بروسه ،، يشخص ببصره إلى السماء ، فى حنان دافق ، ويبتهل إلى الله أن يتعطف ، فيحولنا فى زمنه أخيراً إلى الديانة الاسلامية . وهـذا من غير شك أعظم برهان على حبه إيانا الذى يتدفق من تلك الرغبة الدافقة التي تنطوى على جهل مطبق ،، .

(Epistolae duae, quarum altera De Moribus ac Institutis Turcarum agit, p. 20.) (Oxonii, 1672.)

(١) وصلت إلينا هذه الأخبار من كتاب لم يعرف اسم مؤلفه الذى كان أسيرا فى تركيا من سنة ١٤٣٦ إلى سنة ١٤٥٨ .

Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. xvii. (a).

(٢) Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. xi. (b).

ويتحدث ليوناردو أوف سكيو ، رئيس أساقفة ميتيلينى Mitylene الذى شهد سقوط القسطنطينية عن الجموع الكبيرة من المرتدين فى الجيش المحاصر : ,, من الذى أحاط بالمدينة ، ومن الذى علم الأتراك النظام ، غير المسيحيين الأوغاد؟ إنى شاهد على أن الاغريق واللاتين والألمان والمجر ، وكل نوع آخر من المسيحيين الذين اختلطوا بالترك تعلموا علمهم وعقيدتهم ، والذين نسوا عقيدتهم المسيحية أخضعوا المدينة بالقوة . أيها الأوغاد الذين تنكرون المسيح ، يا أتباع عدو المسيح المحكوم عليهم بعذاب الجحيم ، هذه ساعتكم ! ,, (Sansovino, p. 258.)

الأمراء البيزنطيون وغيرهم إلى صفوف المسلمين ، ووجدوا منهم ترحيبا كبيرا : ومن أسبق أمثال هذه الحالات مايرجع تاريخه الى سنة ١١٤٠م عندما أسلم ابن أخي الإمبراطور جون كومنين John Comnenes وتزوج إحدى بنات مسعود سلطان قونية[١]. وبعد سقوط القسطنطينية أظهرت الطبقات العليا من المجتمع المسيحي من الاستعداد لاعتناق الإسلام ما يفوق بكثير استعداد جمهرة اليونان ؛ فنجد من بين الداخلين في الإسلام عدداً كبيراً ينتمون الى بيت باليولوجوس الإمبراطوري ، كما هجر العالم جورج أميروتزيس الطرابيزونى G. Amiroutzes of Trebizond المسيحية في أعوامه الأخيرة ، ودونت أسماء أخرى كثيرة من أمثال هؤلاء الأفراد[٢]. ولم يطلب الجيل الجديد إلا قبول شهادته البسيطة : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ؛ وقد كتب عنها الكاتب السالف الذكر[٣]يقول : « إن الصعوبة كلها تتركز في هذه الشهادة الدينية لأنه إذا استطاع أي إنسان أن يقنع نفسه بأنه ممن يعبدون إلهاً واحداً ، فمن السهل أن تسرى فيه سموم خطيئته تحت ستار الدين . هذه هي صخرة الإثم التي ارتطم عليها كثيرون وسقطوا في الحبائل التي جرت الهلاك على نفوسهم . هذه هي حجر الطاحون الذي علق حول أعناق كثيرين فغاص بهم في هوة اليأس . ذلك أنه بينما كان هؤلاء الحمق يستمعون إلى الأتراك وهم يلعنون عبادة الأصنام ، ويعبرون عن جزعهم من كل صورة أو تمثال كما لو كانت نار جهنم ، ويدأبون على الاعتراف بعبادة الإله الواحد والدعوة إليها ، لم يعد هناك في عقولهم موطن للشك » .

أصبح الدين الإسلامي في ذلك الحين الملجأ الطبيعي لأفراد الكنيسة الشرقية ، هؤلاء الذين أحسوا بمثل هذا الحنين بعد أن عرفوا صورة من العقيدة أنقى وأبسط خلقتها الهرطقة البوليشية Poeulician heresy التي كانت قد قمعت في قسوة وعنف قبل ذلك ببضعة قرون . وقد كانت هذه الحركة إلى حد كبير احتجاجاً على تقاليد الكنيسة الأرثوذكسية وعلى عبادة الصور والمخلفات الأثرية المقدسة والقديسين كما كانت محاولة تتوخى بساطة العقيدة وحياة الورع والخشوع . وبينما كان بعض أتباع هذه البدعة يعيش في بلغاريا حتى وقت متأخر يرجع إلى القرن السابع عشر[٤]، وجد الغزاة المسلمون من غير شك كثيراً ممن كانوا عازفين عن تعاليم الكنيسة الإغريقية وتصرفاتها . ولما كانت كل الظروف غير ملائمة لإنشاء كنيسة من أمثال تلك الكنائس التي ظهرت في الغرب ، فلا شك أن هؤلاء الذين مرقوا من الدين قد وجدوا في الإسلام جواً أكثر ملاءمة لمبادئهم . وتحملنا الأسباب المختلفة على الظن بأن ما حدث كان نتيجة للمحاولة الخائبة

---

(١) J. H. Krause: Die Byzantiner des Mittelalters, pp. 385-6. (Halle, 1869.)

(٢) Hertzberg, p. 616. Finlay, vol. v. p. 118.

(٣) Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. xix. (a).

(٤) Rycaut, vol. i. pp. 710-11. Bizzi, fol. 49. (b).

التى قامت بجعل الكنيسة الإغريقية بروتستانتية فى أوائل القرن السابع عشر . وكان كيرلّوس لوكاريس Cyril Lucaris الذى اختير بطريقاً للقسطنطينية خمس مرات من سنة ١٦٢١ إلى ١٦٣٨ قوة هذه الحركة الدافعة . وكان قد زار جامعات وتنبرج وجنيف فى شبابه لدراسة اللاهوت فى مراكز التعليم البروتستانتى. وظل بعد عودته يراسل أساتذة الإصـــلاح الدينى فى جنيف وهولندة وإنجلترة ، ولكن تعاليم الكنيسة الانجليزية ومبادىء لوثر لم تصادف رغبة صادقة فى نفسه بقدر ماصادفته تعاليم چون كلفن John Calvin (١) التى جاهد فى إدخالها إلى الكنيسة الإغريقية . وقد أيد جهوده فى هذه السبيل تأييداً حاراً ، هؤلاء الذين انتحلوا مذهب كلفن فى جنيف بأن أرسلوا شاباً عالماً فى اللاهوت ، يقال له ليجر Leger ليؤازر الحركة بترجمة كتابات اللاهوتيين من أتباع كلفن إلى اللغة اليونانية(٢)، كما وجد كيرلوس أعواناً متحمسين فى سفراء البروتستانت فى القسطنطينية ، ولا سيما سفراء الهولنديين والانجليز الذين أمدوه بالأموال فى سخاء . ومن جهة أخرى فإن اليسوعيين الذين أيدهم سفراء الكاثوليك قد جهدوا بكل الطرق أن يحبطوا محاولة تحويل الكنيسة الإغريقية كلفنية ، ونشطوا فى تأييد المؤامرات التى دبرها حزب المعارضة من رجال الكنيسة الإغريقية الذين تآمروا آخر الأمر على قتـــل البطريق . وفى ١٦٢٩ نشر كيرلوس قانون إيمان A confession of faith . ويظهر أن الغرض الأساسى الذى وضع هذا القانون من أجله هو التعبير عن مذاهب الكنيسة الأرثوذكسية تعبيراً يخالف الكاثوليكية الرومانية بصورة تجعله منطوياً على اتفاق جوهرى مع التعاليم البروتستانتية(٣) . وهو يستعير من كلفن مذاهب القضاء والقدر ، والخلاص بالإيمان وحده ، وينكر عصمة الكنيسة من الخطيئة ، ويرفض سلطة الكنيسة فى تفسير الكتب المقدسة ، وينكر عبادة التماثيل . وهو فى وصفه للمشيئة ولمسائل أخرى كثيرة ، أميل إلى مذهب كلفن منه إلى تعاليم الكنيسة الأرثوذكسية(٤)، وقد أدى نشر قانون الإيمان من حيث إنه يمثل تعاليم الكنيسة كلها التى كان كيرلوس رئيسها الروحى إلى إثارة معارضة عنيفة بين جمهرة رجال الكنيسة الإغريقية . ولم تمض على وفاة كيرلوس أسابيع قليلة حتى انعقد مجمع لرفض آرائه والحكم عليه بالحرمان . وفى سنة ١٦٤٢ انعقد فى القسطنطينية مجمع آخر لنفس الغرض أخذ فى تفنيد كل مقالة من قانون كيرلوس بالتفصيل كما صنع المجمع الأول وانتهى من ذلك بأن أعلن لعنتـه عليه وعلى أتباعه :ـــ « نحكم على هـذا القانون كله بإجماع الآراء، وبعبارات لا هوادة فيها بأنه حافل بمسائل الإلحاد ، ومتعارض مع حقيقة ديننا تعارضاً تاماً ، ونعلن كذلك أن واضعه لايمت إلى عقيدتنا بصلة ، ولكنه نسب إلينا مذهبه الكلفنى زوراً وبهتاناً . وكل من يقرءونه ويحفظونه وهم يعتقدون أنه حق وبرىء ، ويدافعون عنه بالكتابة أو الحديث ، فإننا نخرجهم من جماعة المؤمنين باعتبارهم أتباعاً له ، ومشايعين لزندقته ، ومفسدين للكنيسة المسيحية ، ونأمر أن يعاملوا مهما كانت مكانتهم ومراكزهم معاملة الكفار والفسقة . ولتكن اللعنة عليهم إلى الأبد ، ولينفصلوا عن

---

(١) Pichler, pp. 164, 172.

(٢) Pichler p. 143.

(٣) Id. p. 148.
على أنه يشك فى أن كيرلوس كان حقيقة هو الذى وضع هذه الوثيقة التى تحمل اسمه . (Kyriakos, p. 100.)

(٤) Id. pp. 183—9.

الآب والابن والروح القدس فى هـــذا العالم وفى العالم الآتى ، محرومين منبوذين ، ضالين بعد الموت ، وليلازمهم العذاب الأزلى[١] . وفى سنة ١٦٧٢ ، انعقد مجمع ثالث فى بيت المقدس لتفنيد المقالات الإلحادية التى وردت فى قانون الإيمان ، والدفاع عن عقيدة الكنيسة الإغريقية الصحيحة رداً على هؤلاء الذين يظهرونها ملوثة بمذهب كالفن . وبذلك أخفقت محاولة جعل الكنيسة الاغريقية بروتستانتية المذهب كل الإخفاق . فقد كانت مبادىء كلفن تتعارض مع تعاليمها تعارضاً تاماً . وفى الحق أنها قررت فى الأذهان كثيراً من العقائد الدينية التى كانت أكثر تمشياً مع آراء رجال الكنيسة الأرثوذكسية والتى كثيراً ما هاجمتها هذه الكنيسة فى مجادلاتها مع أعدائها المسلمين . وكان هذا التقارب إلى فكرة الإسلام قد بوأ هذه الحركة التى تتطلع إلى مذهب كلفن مكاناً فى تاريخ انتشار الإسلام : فإن رجلا سب عبادة التماثيل ، وذم سلطة الكهنوت ونظامه فى الصميم ، وتمسك بمبادىء القول المطلق بالقضاء والقدر ، وأنكر الحرية بالنسبة إلى الإرادة الإنسانية ، وملأ الروح الصارمة التى يتميز بها مذهب كلفن والتى كانت تتجاوب مع التوراة أكثر منها مع الإنجيل — ليجد حقاً فى الإسلام جواً أكثر ملاءمة مما نجده فى الكنيسة الإغريقية فى القرن السابع عشر. وقد يكون هناك قليل من الشك فى أنه كان من بين أفواج الذين دخلوا فى الإسلام فى خلال هذا القرن فريق قد انفصل عن كنيسة آبائهم من جراء ممالأتهم لمذهب كالفن[٢] وليس لدينا معلومات واضحة تتعلق بعدد أتباع كيرلوس لوكاريس ومدى تأثيرات هـــذا المذهب فى الكنيسة الإغريقية ؛ ولما كان رجال الكنيسة ذوى غيرة على سمعة كنيستهم التى اعتز أبناؤها بالدفاع عن سلامة عقيدتها ، وعصمتها من الهرطقة ، فإنهم رغبوا فى أن يصوروا البطريق الملحد بأنه لا يمثل إلا آراءه ، وذلك حين رأوا أن هذه الكنيسة قد جرّحت بسبب اتهامها بمذهب كالفن[٣] . ولكن لاشك أن كان له أتباع : فقد صادف قانون الإيمان الذى نشره قبولا فى مجمع تألف من أتباعه[٤] . وأعلن حرمان أولئك الذين مالئوا هرطقته بقرار من مجمع القسطنطينية الثانى سنة ١٦٤٢ ، ومن مجمع بيت المقدس سنة ١٦٧٢[٥] . ولا شك أن هذا التكرار كان يكون بلا معنى لو أن أحداً من هؤلاء الأتباع لم يكن له وجود ؛ زد على ذلك أنه قد وصلت إلينا أسماء نفر قليل من هؤلاء الأتباع منهم سوفرونيوس Sophronius ، مطران أثينا الذى كان من المؤيدين المتحمسين لحركة الإصلاح[٦] ؛ وراهب يقال له نيكوديموس ميتاراس Nicodemus Metaras وكان قد استحضر مطبعة من لندن ونشر رسائل خارجة على مذهب الكنيسة ، كان قد كافأه كيرلوس بكرسى المطرانية كفاء خدماته[٧] ؛

---

(١) Pichler p. 226.

(٢) أما فيما يتعلق بأسرى المسيحيين ، فقد اشتهر البروتستانت بلا شك بين الأتراك بأنهم يظهرون ميلا إلى الدخول فى الاسلام أكبر مما يظهره الكاثوليك . (Gmelin, p. 21.)

(٣) Pichler, pp. 211, 227.

(٤) Id. pp. 181, 228.

(٥) Id, pp. 222. 226.

(٦) Id. p. 173.

(٧) Id. pp. 128, 132, 143.

والفيلسوف كورايداليوس Corydaleus أحد أصدقاء كيرلوس ، وقد فتح مدرسة كلفنية المذهب فى القسطنطينية ، ورجل آخر من الإغريق يدعى جرجانوس نشر مذهبا فى التعليم المسيحى ، فى أسلوب الحوار ، تمهيدا لبث تعاليم كلفن بين مواطنيه (١) ؛ ونيو فيتوس الثانى Neophytus II ، الذى عين بطريقا فى سنة ١٦٣٦ فى الوقت الذى كان فيه كيرلوس منفيا فى جزيرة رودس ، وكان تلميذه وابنا متبنّى له ؛ وقد استدعى معلمه من منفاه وتخلى له عن كرسى البطركية (٢) . وكتب كيرلوس إلى جامعة جنيف خطابا (بتاريخ يوليه ١٦٣٦) قال فيه إن ليجر كان قد فاز بعدد كبير من الداخلين فى مذهب كلفن عن طريق كتاباته وتبشيره (٣) ؛ ووصف فى خطاب آخر بعث به إلى ليجر كيف جعل أهالى كنديا Candia يحسون بما أحدثه من تأثير (٤). وقد نفى خلفه (٥) على كرسى البطركية إلى قرطاجنة ، وهناك شنقه أشياع لوكاريس سنة ١٦٣٩ (٦) . وقد قيل إن أصحاب كلفن علقوا الآمال على تعيين بارتنيوس الأول Parthenius 1 (وهو خليفة كيرلوس الثانى) ؛ ولكن نهايته المفاجئة (سواء أكان موته بتجرع السم أو من جراء نفيه ؛ وهذه مسألة يكتنفها الشك) قد خيبت آمالهم (٧) . وكان بارتنيوس الثانى بطريق القسطنطينية من سنة ١٦٤٤ — ١٦٤٦ من أنصار مذهب كلفن المخلصين . وبالرغم من أنه لم يجسر على أن يجهر بتعليم مبادىء كلفن ، إلا أن ما عُرف عنه من ممالأته لهم قد أدى إلى عزله ، وإرساله إلى المنفى وشنقه (٨) . وعلى ذلك نرى أن تأثير مذهب كلفن كان من غير شك أكثر انتشارا مما كان يريد أعداء كيرلوس لوكاريس أن يقرروا . وكما قلنا آنفا ، كان أولئك الذين أبوا أن يسلموا بقرارات الحرمان التى قضت بها المجامع على زعيمهم ، أكثر ائتلافا من غير شك مع جيرانهم المسلمين منهم مع رجال الكنيسة الأرثوذكسية الذين أقصوهم عن بيئتهم. وفى الحق أنه ليس لدينا شواهد قاطعة تدلنا على ما كان لهذا المذهب فى تركيا من مؤثرات يسرت إدخال الناس فى الإسلام (٩) . ولكن مع انعدام أى تفسير آخر فى هذا الصدد ، يظهر حقا أن من الفروض التى يقرها العقل أن مثل هذه الأحوال كانت من بين العوامل التى زادت زيادة هائلة فى عدد

---

(١) Fichler p. 143.

(٢) Le Quien, tom. i. col. 334.

(٣) Fichler, p. 172.

(٤) Hefele, vol. i. p. 473.

(٥) وهو Cyril II. of Berrhoea.

(٦) Le Quien, tom. i. col. 335.

(٧) Id. tom. i. col. 336.

(٨) Id. tom. i. col. 337.

(٩) على أنه حدث فى محاولة سابقة قام بها علماء المذهب البروتستانتى فى توبنجن (١٥٧٣—٧٧) لادخال تعاليم كنيسة الاصلاح الجديدة فى الكنيسة الشرقية ، أن اعتنق أحد علماء سامتسخيث المسيحيين فى جورجيا The Vaivode Quarquar of Samtskheth) قانون اعتراف أوجسبرج ، ولكنه دخل فى الاسلام سنة ١٥٨٠ [Joselian, p. 140] .

المرتدين عن المسيحية من الإغريق فى أواسط القرن السابع عشر — وهو وقت قيل فيه إن عدد المرتدين عن المسيحية من الطبقات المتوسطة والمنحطة فى المجتمع كان أكبر منه فى أى وقت مضى (١). وقد تواتر ذكر حالات الارتداد عن المسيحية من بين رجال الكنيسة ، بل من بين أعظم رؤساء الكنيسة شأنا وأسماهم مقاما ، كالذى يروى عن أحد مطارنة رودس السابقين (٢) . وقد قيل إن فريقا من الأهالى المسيحيين فى كورنثة كانوا فى سنة ١٦٧٦ يدخلون كل يوم فى دين الأتراك ، وإن ثلاثة من القسس قد أصبحوا مسلمين قبل ذلك بعام (٣) . وفى سنة ١٦٧٩ سُجلت وفاة أحد الرهبان المرتدين (٤) . وفى مناسبة ختان مصطفى ابن السلطان محمود الرابع سنة ١٦٧٥ ، دخل فى الإسلام عدد لا يقل عن مائتى شخص فى غضون ثلاثة عشر يوما من الأفراح الشعبية (٥) . وقد نجد أمثلة أخرى كثيرة فى الكتابات التى ترجع إلى هذا العهد . وفى سنة ١٦٦٣ أجاد مؤلف معاصر فى وصف الاتجاه العقلى الذى اتصف به أمثال هؤلاء الذين دخلوا فى الإسلام : « عند ما تخالطون الأتراك فى مجرى حياتهم العادية ، تراهم يقيمون الصلاة ، ويرتلون حتى مزامير داود ، ويمنحون الصدقات ويفعلون غير ذلك من أعمال الخير ، ويعتقدون فى المسيح اعتقادا ساميا ، ويتناولون التوراة فى شرف عظيم إلى غير ذلك ; هذا فضلا عن أنه كان يمكن أن يصير أى جاهل ، خورى كنيسة إذا سعى إلى الباشا التركى بالهدايا ; ولن يحصنكم هذا الخورى كثيرا على المسيحية . حينئذ سوف تنتهون إلى التفكير فى أنهم قوم صالحون ، وأن من الممكن جدا أن يدركهم الخلاص ; وسوف تنتهون إلى الاعتقاد بأن من الممكن أن يدرككم الخلاص كذلك إذا ما صرتم مثلهم أتراكا مسلمين . بذلك سوف يمّحى من أذهانكم فى سهولة ويسر سر الثالوث المقدس ، وابن الله المصلوب ، وسائر أسرار الدين الكثيرة

(١) Scheffler, § 53-6. Finlay, vol. v. pp. 118-19.

(٢) Hammer (1), vol. vi p. 94.

(٣) Spon, vol. ii. p. 57.

(٤) Hammer (1), vol. vi. p. 364.

(٥) Early Voyages and Travels in the Levant, edited by J. Theodore Bent, p. 210 (London, 1893).

ونظير ذلك ما يحتج به ميشل بوديير Michel Baudier وصفه للمهرجانات فى القسطنطينية التى أقيمت بمناسبة ختان محمد الثالث فى النصف الأخير من القرن السادس عشر مقرونا بوصف دخول عدد كبير من المسيحيين فى الاسلام : « وفى أثناء شهود هذا الاحتفال المهيب هرع الاغريق التاعسون إلى هذا المكان ليدخلوا فى الاسلام أفواجا ، وقد هجر بعضهم المسيحية تخلصا من ظلم الأتراك ، وبعضهم هجرها أملا فى منفعة خاصة ... وقد وجد أن عدد هؤلاء المنبوذين قد تجاوز أربعة آلاف نفس . »

The History of the Serrail, and of the Court of the Grand Seigneur Empereur of the Turkes, pp. 93-4. (London, 1635.) Histoire generale du Serrail, et de la Cour du Grand Seigneur, Empereur des Turcs, pp. 89-90. (Paris, 1631.)]

التى يلوح أنها غير معقولة بصورة ما فى نظر الشخص الأمى . وإذا بروح المسيحية تموت فى نفوسكم من حيث لا تشعرون ؛ وإذا بكم ترون أنه سواء عليكم أن تدينوا بالمسيحية أو بالإسلام (١) » .

ويتحدث توماس سمث الذى كان فى القسطنطينية سنة ١٦٦٩ عن عدد الداخلين فى الإسلام من المسيحيين حوالى هذه الفترة . ولكنه ينسب إليهم بواعث أكثر خسة : « من المحزن أن نحصى هذا العدد الضخم من القوم التاعسين الذين انقلبوا أتراكا ؛ فأسلم فريق بدافع اليأس البالغ ، وقد عجزوا عن احتمال عبء العبودية وتجنب سفاهات الكفار وإهاناتهم ؛ وأسلم فريق آخر نتيجة منزلة سقيمة هوجاء ليتبوءوا مكانة يملكون بهـــا ناصية الحكم ، وينزلون الإهانة بغيرهم من الناس . . . وأسلم فريق آخر تخلصا من ألوان العقاب والبلاء جزاء بما ارتكبوه من جرائم ، ولكى يشمموا بالحريات التى تنطوى على الوحشية والتى قدسها محمد باعتباره مثلا قد اقتدى به أتباعه . هذه هى البواعث والأسباب الهامة المغرية التى دفعتهم إلى هذا الارتداد ، وما هى إلا دوافع تنشد الراحة واللذة والرخاء بل تنشد العبث والآثام ؛ ذلك أنه لا يمكن أن نتصور أن يُغْرَى أحد من الناس عن طريق الإقناع العقلى باعتناق هذه العقيدة التركية وأباطيلها (٢) » . ولا نجد بعد هذه الفترة إلا النزر اليسير مما سجله التاريخ عن الداخلين فى الإسلام ؛ ولكن متراية Motraye يورد ذكر كثير من المرتدين الذين انتقلوا إلى الإسلام فى القسطنطينية سنة ١٧٠٣ ؛ وكان من بين هؤلاء قسيس فرنسى ، وفريق آخر من الفرنسيين الكاثوليك ، وبعض قساوسة من أزمير (٣) .

وهناك ظاهرة أخرى فى حالة الكنيسة الإغريقية ، ساهمت فى تضاؤل عددها ؛ تلك هى فساد رعاتها وانحطاط حالتهم ، ولا سيما الطبقة العليا من رجال هـذه الكنيسة . وعرضت مقرات الأساقفة ورؤساء الأساقفة للبيع بالمزاد بأغلى الأثمان ، وسعى المشترون إلى تعويض خسائرهم باغتصاب ضرائب من كل نوع من رعاياهم ، فبهظوا المسيحيين المساكين بالضرائب العادية وغير العادية ، وجعلوهم يشترون كل الأسرار المقدسة بأسعار باهظة ، وهى التعميد ، والاعتراف ، وقداس العشاء الربانى ، وحالات الغفران ، وحق الدفن المسيحى . بل عقد فريق من رجال الكنيسة تحالفا غير شريف مع الإنكشارية ، فكانت أسماء كثير من الأساقفة وأسماء أسراتهم مدونة فى سجل إحدى الأرط أو الكتائب الإنكشارية ليضمنوا على الوجه الأكمل حصانة من طغيانهم ، وليتخلصوا من معاقبتهم على ما ارتكبوا من جرائم فى ظل حماية هذه الشرذمة

---

(١) Scheffler, § 55.

(٢) Thomas Smith : An Account of the Greek Church, pp. 15-16. (London 1680.)

(٣) A. de la Motraye : Voyages en Europe, Asie et Afrique, vol. i. pp. 306, 308. (La Haye, 1727.)

التي كان قد أتاح لها ضعف الحكام العثمانيين أن تتبوأ مثل هذا المركز القوى فى الدولة[١] . وإن الشواهد التي أثبتها شهود عيان من المعاصرين عن المسلك الجائر الذي ظهر به رجال الكنيسة الإغريقية ، لتقدم لنا صورة مخيفة عن آلام المسيحيين . فقد كتب تورنفورت Tournefort فى سنة ١٧٠٠ م بعد أن وصف انتخاب بطريق جديد فقال : «لاداعى مطلقا للشك فى أن البطريق الجديد لن يفعل خيرا فى عهده ، فقد نتج الظلم عن بيع الوظائف الكنسية : وكان أول شىء عمله أن عرّف حاشية السلطان بجميع رؤساء أساقفة رجال الكنيسة وأساقفتهم . وكان أعظم ماعنى بدراسته هو معرفة موارد كل رئيس من رؤساء الكنيسة على وجه التحقيق ؛ ففرض ضريبة عليهم ، وأردف ذلك بخطاب إلى كل منهم يشدد فيه النكير عليهم بإرسال المبالغ المستحقة ، وإلا حكم على أبرشياتهم ببيعها فى المزاد بأبخس الأثمان . ولما كان رؤساء الكنيسة قد تعودوا هذه الحرفة لم يبقوا قط على أحد من مساعديهم ؛ وهؤلاء المساعدون كانوا يعذبون الآباء ، والآباء يجردون أبناء رعية الخورى من أموالهم . وقلما كانوا يرشون أقل نقطة من الماء المقدس إلا إذا تقاضوا ثمنها مقدما . فاذا ما احتاج البطريق بعدئذ إلى مال ، احتال لجمعه بالبيع للأتراك فى المزاد بأبخس الأثمان ؛ ومن أدى ثمنا أغلى ، ذهب إلى بلاد اليونان يطالب رؤساء الكنائس بحقه أمام القضاء . وكان التركى عادة يغتصب اثنين وعشرين ريالا عن كل عشرين ألفا مما يفرض على رجال الكنيسة ، حتى لقد يحصل أحيانا على ألفى ريال كفاء ما يبذله من جهود . هذا فضلا عما يعهد إليه من أعمال فى كل أبرشية . وبمقتضى الاتفاق الذى كان عليه أن يبرمه مع البطريق ، كان من حقه أن يحرم أو يمنع رؤساء الكنائس الذين يرفضون أداء ضريبتهم من المناصب الدينية كلها[٢]» . بل قيل إنه حتى رجال الكنيسة المسيحية كانوا يحملون أبناء رعية الخورى ويبيعونهم بيع الرقيق ، ليحصلوا على المال اللازم لشراء الوظائف الكنسية[٣].

وقد وجدت ألوان الإرهاق التى وقعت فى القرن السابع عشر نظيرا لها فى القرن التاسع عشر ؛ فكانت متاعب المسيحيين التابعين للكنيسة الإغريقية فى البوسنة قبل الاحتلال النمساوى ، تفسر لنا تماما كلمات تورنفورت . فقد تعود مطران سيراجيفو Serajevo أن يغتصب ما مقداره عشرة آلاف من الجنيهات كل عام من رعاياه المساكين ، وهو مبلغ يساوى تماما ضعفى راتب الوالى التركى نفسه ؛ ولكى يرفع هذا المبلغ الضخم ، كان يبتز أموال أبناء رعية الخورى التاعسين بكل وسيلة ممكنة ، وصدرت الأوامر للسلطات التركية بمساعدة رجال الكنيسة فى جباية ضرائبهم ، وتحملت القرى المسيحية بأسرها نصيب المدن التى ابتزت أموالها فى حالة رفضها أو عجزها غالبا عن مجاراة رؤساء الكنائس المسيحيين فى مطالبهم الباهظة[٤].

---

(١) Pitzipios, Seconde Partie, pp. 83-7. Pichler, p. 29.

(٢) Tournefort, vol. i. p. 107

وكثيرا ما استخدم سبون Spon نفس هذه اللهجة فى ج ١ ص ٥٦ .

(٣) Gaultier de Leslie, p. 137.

(٤) A. J. Evans, 267. ونظير ذلك مايقوله ما كنزى وإربى : « فى معظم جهات الصرب القديمة كانت الفكرة التى

وطالما أثار مثل هذا الجور الفادح في نفوس الزعماء الروحانيين الذين كان ينبغي أن يحموا الأهالي المسيحيين روح التمرد كلما سنحت لهم الفرصة (١). فليس بغريب حينئذ أن نعرف أن كثيرا من المسيحيين دخلوا في الإسلام لكي يتخلصوا من مثل ذلك الظلم (٢).

وقد قيل إن ظلما كنسيا من نوع آخر أشد وطأة، كان سببا في تحول أسلاف جماعة قليلة إلى الإسلام يبلغ عددها حول ٤٠٠٠ من جنوبي رومانيا من منطقة Noanta في إقليم مجلن Meglen التابعة لولاية سلونيكا، وهم يروون أن بطريق القسطنطينية في القرن الثامن عشر أقنع السلطان الحاكم وقتئذ بأن المسيحيين الذين يتكلمون اليونانية، هم وحدهم الذين يمكن أن يكونوا رعايا مخلصين للدولة العثمانية. عندئذ حرم السلطان على المسيحيين ألا يتكلموا غير اليونانية، وأنذرهم بقطع ألسنتهم إن لم يفعلوا. فلما بلغ ذلك أهل نوانتا هرب جانب من السكان إلى الغابات، وأسسوا فيها قرى جديدة؛ أما الذين بقوا منهم فقد اعتنقوا الإسلام، وعلى رأسهم أسقفهم، حتى يبقوا بذلك على لغتهم الأصلية (٣).

وعلى الرغم من أن جمهرة رجال الأبرشية كانوا أبرياء من التهم التي وجهها سادتهم إليهم (٤)، كانوا لا يزالون أميين وعلى درجة كبيرة من الجهل. وقد قيل في نهاية القرن السابع عشر إن من العسير أن نجد اثني عشر شخصا في جميع الممتلكات التركية يجيدون اللغة اليونانية القديمة إجادة تامة؛ وكانت القدرة على القراءة من المزايا الكبرى في نظر رجال الكنيسة، على حين كان هؤلاء الأشخاص على جهل تام بمعاني الألفاظ التي وردت في كتب الصلوات (٥).

وبينما كان في المجتمع المسيحي في ذلك الحين ما يدعو إلى الصد والنفور كان في أخلاق الأتراك وحياتهم ما يبعث على التقريب والاجتذاب. وكان تفوق العثمانيين في عصورهم الأولى، إذا ما قورن بانحطاط زعماء الكنيسة المسيحية ومعلميها، لا بد أن يؤثر بطبيعة الحال في العقول الزاهدة التي سئمت الأطماع المنبعثة من الأنانية، وبيع الوظائف الكنسية، وفساد أفراد الكنيسة الإغريقية. وطالما أتى

= وجدناها منسوبة إلى أحد الأساقفة، عبارة تتعلق بشخص انتزع تلك الفلوس القليلة التي كان الأتراك قد خلفوها». (p. 258.)

وأورد أحد الكتاب وصفا آخر لرجال الكنيسة الاغريقية في Revue des Deux Mondes (Tome 97, p. 336) إذ قص لنا القصة التالية: «في مستهل هذا القرن، في تيرنوفا، تلقى أحد القابوات ذات يوم، ويدعى بوافيم، وكان محبوبا من رعيته، مكروها من أسقفه، أمرا بمرض ضريبة على الروث في الاسطبل الكنسي، ولكنه لم يقبل: عندئذ انهال عليه الخدم ضربا بفرشاة كبيرة ذات أصابع. ولكن صاحبنا كان قويا؛ فناهضهم، ونزع إلى القاضي بعد أن ترك ثوبه رهينة. ولم تغرب الشمس عليه حتى كان مسلما صالحا».

(١) Pitzipios, Seconde Partie, p. 87.

(٢) Id. Seconde Partie, p. 87. Pichler, p. 29.

(٣) Lazâr, p. 223.

(٤) Finlay, vol. iv. pp. 153-4.

(٥) Tournefort, vol. i. p. 104. Cf. Pichler, pp. 29,31. Spon, vol. i. p. 44.

الكتاب المسيحيون على غيرة هؤلاء الأتراك وصلابتهم فى حياتهم الدينية ، وحماستهم فى أداء طقوسهم التى رسمها لهم دينهم ، ومظهر الحشمة والتواضع البادى فى زيهم وأسلوب معيشتهم ، وعدم التباهى والادعاء ، وبساطة الحياة التى تلاحظ حتى فى العظماء أو الأقوياء منهم[١]. ويثنى مؤرخ السفارة التى أرسلها الإمبراطور ليوبولد الأول إلى الباب العالى من سنة ١٦٦٥-١٦٦٦ ثناء خاصا على تعبد الأتراك وانتظامهم فى الصلاة ، بل يذهب بعيدا فيقول : « يجب أن نتكلم عن فوضى المسيحيين . إن الأتراك يدلون على كثير من العناية والغيرة فى أداء شعائرهم الدينية : أما المسيحيون فلم يظهروا شيئا من ذلك فى دينهم . . . بل أكثر من ذلك كله أننا قد عرفنا بالتجربة المتدين بين المسيحيين : ذلك الذى لا تراه ، فى أثناء الصلاة ، لاهيا بعينيه : لا ترى فى أثنائها شخصا غير متعلق بموضوع صلاته ، ولا شخصا لا يبدو بين يدى خالقه فى مظهر التبجيل الظاهرى الذى يتطلبه من المخلوق » [٢].

حتى الأخلاق فى الجندية تلق حظها من الثناء . فقد أخبرنا كاتب البعثة التى أرسلها شارل الثانى إلى السلطان أن سكان البلاد ، فى أثناء مسير جيش من الجيوش ، لم يظهروا أية شكوى من أنهم خسروا شيئا أو أن نساءهم قد تعرضن لسوء المعاملة . كل الحانات الممتدة على خط سير الجنود قد أغلقت وختمت بالشمع قبل وصول الجيش بيومين أو ثلاثة ، ولم يسمح ببيع النبيذ للجنود ، وإلا عرضوا أنفسهم لعقوبة الموت [٣] .

وكثيرا ما قدم الكتاب المسيحيون الذين لا يكنون للعثمانيين محبة ولا ودا ، تقدمة المدح والثناء على فضائل الأتراك ؛ فمن أولئك كاتب كان له رأى سيء فى عقيدتهم [٤] (†)، يتحدث عنهم بقوله : « حتى بين توافه القرآن نجد بعض جواهر من الفضائل المسيحية ؛ وفى الحق لو قرأ المسيحيون باهتمام شريعة المسلمين وتاريخهم وتدبروها ، لاستولى عليهم الحياء حين يشاهدون إلى أى حد هؤلاء المسلمون ذوو غيرة على عبادتهم وتقواهم وتصدقهم ؛ وإلى أى حد هم متفانون فى إخلاصهم ، قانتون فى مساجدهم ؛ وإلى أى حد هم مطيعون لرئيسهم الروحى ، حتى إن التركى العظيم نفسه لا يحاول أمرا إلا بعد مشورة المفتى ؛ وإلى أى حد هم مهتمون بمراعاة أوقات الصلوات الخمس فى كل يوم حيث وجدوا وأيا كانت مشاغلهم ؟ ما أشد مراعاتهم دائما لصومهم من الصباح حتى المساء طول أيام الشهر بلا انقطاع ؛ وما أكثر تواد المسلمين وتراحمهم ؛

---

(١) Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. xiii. (b) ; fol. xv. (b) ; fol. xvii. (b) ; fol. xx. (a). Veniero, pp. 32,36. Busbecq, p. 174.

(٢) Gaultier de Leslie, pp. 180,182

(٣) Rycaut, vol. i. p. 689. See also Georgieviz, pp. 53-4, and Menavino, p. 73.

(٤) Alexander Ross, p. ix.

(†) ذكر المؤلف أمثلة من التهم التى رمى بها إسكندر روس القرآن الكريم وهى تهم باطلة أعرضنا عن ذكرها .

وما أعظم ما نُرى من عنايتهم بالغرباء فى نُزُلهم ، سواء بالفقير أو النازح المسافر ؛ لو تأملنا عدالتهم ونزاهتهم وسائر فضائلهم الخلقية لخجلنا من جمودنا سواء فى عبادتنا أو فى تراحمنا ، ومن جورنا وإفراطنا وتعسفنا ، فلا ريب أن هؤلاء الناس سيقيمون الحجة علينا ؛ ولا شك أن عبادتهم وتقواهم وأعمال الرحمة فيهم ، هى الأسباب الرئيسة لنمو الدعوة المحمدية »(١) .

وقد وصل مؤرخ حديث إلى مثل هذه النتيجة حين قال : «نجد كثيرين من الإغريق من ذوى المواهب العالية والميزات الخلقية قد بلغ من تأثرهم بتفوق المسلمين ، أنهم حتى عندما كانوا يتجنبون الاندماج فى خدمة السلطان بأداء ضريبة الأبناء ، كانوا يدخلون فى دين محمد بمحض إرادتهم . ولا بد أنه كان لتفوق المجتمع التركى من الناحية الخلقية شأن كبير فى هذا التحول إلى الإسلام الذى كان كثير الوقوع فى القرن الخامس عشر بقدر ما كان للطموح الشخصى للأفراد من أثر فى هذه السبيل» .

وإن جيلا قد راقب انحلال السلطان التركى فى أوربا والتناقص المطرد فى ممتلكاته ، وتعود أن يسمع قول من يتحدثون عنه بأنه (الرجل المريض) ، الذى يصير إلى الفناء العاجل ، ليجد من العسير أن يدرك تلك المشاعر التى بعثتها الدولة العثمانية فى أيام نهضتها الأولى فى أوربا . فإن نجاح الأسلحة التركية بهذه الصورة السريعة النطاق قد ملأ عقول الناس فزعا ودهشا . فقد سقطت الممالك المسيحية ، الواحدة تلو الأخرى ، فى أيديهم : فبلغاريا والصرب والبوسنة والمجر كلها قد تخلت عن استقلالها باعتبارها ولايات مسيحية . وشاهدت جمهورية البندقية الشامخة ممتلكاتها تغتصب من يدها الواحدة تلو الأخرى ، حتى أصبح أسد سان مارك وحده يسيطر على سواحل بحر الأدرياتى . حتى رومة (المدينة الخالدة) نفسها قد استهدفت للخطر بتسليم أوترنتو Otranto . وإن الآداب المسيحية ، فى النصف الأخير من القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، حافلة بالأخبار المفزعة التى تتعلق بالمصير الذى كان يهدد أوربا المسيحية لولا توقف تقدم الأتراك الناجح ، وتمثل التركى فى نظرهم سوطا فى يد الله قد صبه على شعبه معاقبة له على كفره وخطيئته(٢) ؛ أو هو من جهة أخرى ، القوة الشيطانية المتخاذلة التى تعمل على هدم المسيحية تحت ستار من الدين يقوم على الرياء .

ولكن أهم ما نلاحظه هنا ، أن بعض الناس بدأ يسأل : «هل من الجائز أن يأذن الله للمسلمين بأن يبلغوا ما بلغوه من هذا العدد الذى لا يدخل تحت حصر بدون سبب معقول ؟ هل من المتصور أن مثل هذه الآلاف المؤلفة تتعرض للهلاك الأبدى كما يتعرض الرجل الواحد ؟ كيف يمكن أن يكون أمثال هذه الجماهير الزاخرة مناوئين للدين الحق ؟ إنه إذا كان الحق أقوى من الباطل ، وكان الناس جميعا يحبون الحق ويرغبون فيه أكثر مما يحبون الباطل ، فليس من المحتمل أن تجمع أقوام كثيرة كهؤلاء على محاربته . كيف استطاعوا أن يقووا على الحق مادام الله يعين على الحق ويؤيده ؟ كيف استطاع دينهم أن ينتشر بهذه الصورة

---

(١) Finlay, vol. v. p. 29.

(٢) Schiltberger, p. 96.

العجيبة لو أنه قام على أساس فاسد من الباطل(١) ؟ فأمثال هذه الأفكار، كما تخبرنا الروايات، قد أغرت الشعوب المسيحية التي عاشت في ظل الحكم التركي إغراء قوياً، كما أغرت بنوع خاص، هؤلاء الأسرى المسيحيين البائسين الذين راقبوا الأعوام تمر متثاقلة دون أمل في التخلص أو راحة من الشقاء الذي هم فيه. فهل يمكن أن يستولى علينا الدهش حين نجد مثل هذا الرجل يسأل ؟ ولاشك لو أن الله كان راضيا بالدين الذي تشبثتم به لما هجركم على هذا النحو، ولساعدكم لتحصلوا على الحرية ولتعودوا إليها مرة أخرى. أما وقد أغلق الله منافذ الحرية دونكم، فربما قضت مشيئة الله أن تتخلوا عنها، وأن تقترنوا بتلك الطائفة، وأن يكون خلاصكم على يديها(٢).

وإن العبد المسيحي الذي يصور على هذا النحو تلك الشكوك التي تحيك في صدره كلما مرت السنون البطاء، دون أن تجلب له تحررا وخلاصا، إنما يعبر هنا من غير شك عن الأفكار التي خطرت لكثير من المسيحيين المنكودين الذين شملهم الاستعباد وظلوا عليه، حتى لجأ آخر الأمر إلى تحطيم أغلال دينه القديم ليدخل في الإسلام. وإن كثيرين من الذين كانوا على أهبة أن يموتوا شهداء في سبيل الدين المسيحي، لو أنهم خيروا بين القرآن والسيف كما تروى الأساطير، أحسوا إحساساً أخذ يقوى شيئاً فشيئاً، بعد أن قضوا سنين طوالا في الأسر، بتأثير الإسلام من الوجهتين النظرية والعملية؛ وكسبت الإنسانية كثيراً من الداخلين في الإسلام منهم في الوقت الذي أخفقت فيه وسائل العنف(٣). ذلك أنه بالرغم من أن حظ كثير من أسرى المسيحيين كان غاية في التعس، نجد بعضهم الآخر، ممن شغل مراكز في خدمة خاصة القوم، لم يكن في الغالب أحط شأناً من خدم المنازل في سائر أوربا. وبعد أن نظمت الشريعة الإسلامية مسألة الرق، انتزع عن الرق كثير من أشد مظاهره غلاظة وفظاظة. ويظهر أنه لم يكن على الأقل في تركيا، شيء من أمثال تلك الأعمال الوحشية والفظائع التي كانت في ولايات القرصنة في إفريقية الشمالية. كان للرقيق كما كان لسائر المواطنين حقوقهم، بل قيل إنه كان للعبد أن يقاضي سيده إذا أساء معاملته، وأنه إذا تحقق القاضي من اختلاف طباعهما اختلافا بينا إلى حد تعذر الاتفاق بينهما، فله أن يرغم السيد على بيعه(٤).

(١) Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. xii. (b), xiii. (a).

(٢) Id. fol. xxvii. (a).

(٣) ,, وفي الوقت الذي لم تقض على أجسادهم بما أظهره لهم من رعاية وتقوى، صمم بدهائه الشيطاني على أن يقتل أرواحهم بتجريدهم من إيمانهم. ويمكن ان يشهد على هذه الحقيقة، تلك الجموع من المؤمنين الذين لا يدخلون تحت حصر؛ ذلك أنه على الرغم من أن كثيرين منهم كانوا على غاية الاستعداد بأن يموتوا في سبيل العقيدة المسيحية، ومن أجل المسيح، وتخليصا لأرواحهم، قد نفث فيهم، بإنقاذهم من الموت الجسدي وحملهم إلى الأسر، سمومه، فأفسدهم بمرور الزمن، ودفعهم مخمة إلى أن ينكروا إيمانهم بالمسيح. ,, Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. i.; cf. fol. vi. (a).

(٤) Menavino, p. 96. John Harris : Navigantium atque Itinerantium Bibliotheca, vol. ii. p. 819. (London, 1764.)

وكانت حالة الأسرى المسيحيين تختلف بطبيعة الحال باختلاف الظروف وباختلاف قدرتهم على تهيئة أنفسهم لحياة تكتنفها المتاعب ؛ فالشيوخ والقسس والرهبان وأصحاب المنبت الكريم كانوا أكثر الناس تحملا ، على حين لقى الأطباء والصناع من سادتهم احتراماً باعتبارهم خداماً قد أدوا على خير الوجوه ما أنفق عليهم من مال[١]. أما الرقيق المحكوم عليهم بالسجن فقد كانوا بطبيعة الحال أشد الناس تحملا للمتاعب. وفى الحق أن ألطف المعاملات لم يستطع إلا فى القليل النادر أن يخلصهم من الشدائد التى اقترنت بمثل هذا الملك[٢]. زد على ذلك أن حظ العبيد الذين كانوا ملكا للدولة كان أكثر تعسا من أولئك الذين كانوا ملكا للأفراد[٣]. وقد جرت العادة بأن يسمح لهم بأداء شعائرهم الدينية فى حرية ، وكان لهم فى سجون الدولة فى القسطنطينية قساوسة ومعابد خاصة بهم ، كما سمح لرجال الكنيسة بأن يقوموا بإلقاء عظات دينية تعزية للأرقاء المحكوم عليهم بالسجن[٤]. وكان عدد العبيد المسيحيين الذين دخلوا فى الإسلام عظيما ؛ وقد ذكر بعض حالات قليلة كانوا يهددون فيها ، ويعاملون معاملة سيئة لإغرائهم على الارتداد. ولكن جرت العادة بأن سادتهم كانوا لا يرغمونهم على ترك دينهم إلا فى النادر[٥] ، وإنما كانوا يضغطون عليهم أشد الضغط فى خلال السنوات الأولى من استرقاقهم ، ثم بعد ذلك يتركونهم لأنفسهم يتبعون الدين الذى يشاءون[٦]. ولهذا غير أكثر العبيد دينهم ودخلوا فى الإسلام بمحض إرادتهم ؛ ولما كانت

---

(١) « وينبغى أن نقرر فيما يتعلق بالترك أنهم عاملوا خدمهم ومواليهم الذين استطاعوا أن يفيدوا من حذقهم ومهارتهم معاملة أحسن من تلك التى كان النصارى يعاملون بها خدمهم وعبيدهم .... فكان الخادم الماهر فى فن من الفنون يتمتع بكل ما يرجوه الحر ولا ينقصه إلا التحرر » . (G.C. von den Driesch, p. 132.)

(٢) يقول سير وليم ستيرلنج مكسويل W. Stirling-Maxwell عن هؤلاء : « إن المساكين التاعسين الذين كانوا يعملون مجذفين فى أية سفينة حربية تركية ، عاشوا عيشة ليست أشد ولا أخف بؤسا من هؤلاء المجرمين المحكوم عليهم تحت شارة الصليب . فقد كان العمل الشاق ، والحياة المريرة ، والصدمات القاسية من نصيب الفريقين على سواء . وفى البر ، ربما كان السجين التركى أو المغربى أشد جهلا وتعاسة من سجين فى نابلى أو فى برشلونة ؛ أما فى البحر ، فإنه إذا جاز أن يكون البؤس درجات فربما تميز المسيحى المكبل فى الأغلال التركية من هذه الناحية ؛ ذلك أن فريق المجذفين فى سفن السلطان كانوا ملكا للقبطان فى الغالب ؛ والمفروض أن الشفقة الطبيعية التى تكون للمالك على ما يملك ، قد تتدخل أحيانا فى أداء واجبه » .
(Vol. i. pp. 102—3.)

(٣) Gmelin, p. 16.

(٤) Id. p. 23.

(٥) John Harris : Navigantium atque Itinerantium Bibliotheca, vol. ii. p. 810.

(٦) « وتعد السنون الأولى بالنسبة إلى أمثال هؤلاء التاعسين أشق سنى حياتهم ، وخاصة إذا ما كانوا حديثى السن ؛ إذ أن الترك حاولوا أن يدخلوا الناس فى دينهم بالملاطفة ، فإن لم يجد ذلك فبالشدة . فإذا ما انقضت سنوات الشدة هذه ، وجدنا الرق عند الترك محتملا أكثر منه عند غيرهم » . (G.C. von den Driesch, p. 132.). أضف إلى ذلك ما يقوله جيرد جيفز من أن أولئك الذين تمسكوا بالدين المسيحى قد أعتقوا بعد فترة معينة .

السفارات المسيحية تخشى دائماً من يوم لآخر من أن ينقلب بعض مواطنيهم من الخدم الذين كانوا قد صحبوهم إلى القسطنطينية إلى أوطانهم أتراكا [1]، كان من اليسير أن ندرك أن العبيد الذين كانوا قد فقدوا كل أمل فى الرجوع إلى أوطانهم وكانوا لا يجدون فى محيطهم إلا القليل من التشجيع على الاستمرار فى التعليم مدة حياتهم الأولى — لم يكن بد من أن يخضعوا للمؤثرات التى أحاطت بهم، وإلا يحسوا بقيود كبيرة تمنعهم من الدخول فى جماعة جديدة وفى دين جديد. وقد قال عنهم رحالة إنجليزى عاش فى القرن السابع عشر [2]: «كان قليل منهم يعود إلى وطنه؛ وأقل منهم من كان له من الشجاعة والثبات ما يمكنه من الاحتفاظ بدينه المسيحى الذى تعلمه. وما كان تعلم هؤلاء إلا تافها ولا معرفتهم بمبادىء المسيحية وأصولها إلا ضئيلة. ومن ثم كان بعضهم يأوى إلى ديانة الترك فزعاً مما ران على قلبه من شدائد العبودية من الجزع والحقد المرير. كما أطمع بعضهم الآخر ما كانت تبيحه الشريعة الإسلامية للمسلمين من فنون المجاملة، والتملق للذائذ، وما أملوه فى جعل حياتهم أيسر حالا وأكثر رخاء بتغيير دينهم؛ فلما لم يعد أمل فى إصـــلاح حالهم، تركوا مخلّصهم ودينهم المسيحى، وسرعان ما نسوا وطنهم الأول وأصبحوا لا يعدون أنفسهم غرباء، بل ادعوا أنهم مواطنون».

وقد اعتمد كثير بطبيعة الحال على الخلق الشخصى الذى تميز به عبيد المسيحيين أنفسهم على اختلافهم؛ فقد وقع الكاتب المجهول الذى نقلنا عنه كثيرا فيما سبق، فى أسر طويل الأمد، مكنه من أن يتحدث بجدارة عن حالتهم. فقسمهم إلى ثلاث طبقات: الطبقة الأولى تشمل هؤلاء الذين قضوا أيامهم فى بساطة تامة، لا يبالون بتكليف أنفسهم مشقة تعلم شىء عن ديانة سادتهم، وهؤلاء قد اكتفوا بعلمهم أن الترك قوم من الكفار، ولهذا تجنبوا، بقدر ما سمحت حالة استرقاقهم ونير استعبادهم، أن يكون لهم أية علاقة بسادتهم ولا بعبادتهم، خوفاً من أن يضلوا بخطاياهم، واجتهاداً فى مراعاة الدين المسيحى بقدر ما تسمح به معرفتهم ونفوذهم. وتتألف الطبقة الثانية من هؤلاء الذين يقودهم حب الاستطلاع إلى الدراسة والبحث فى

«إذا استمروا على الديانة المسيحية، حددت لهم فترة معينة للخدمة يصبحون بعد انقضائها أحرارا. أما عن أولئك الذين يتركون ديانتنا، وأن هناك فترة محدودة للخدمة وحق العودة إلى الوطن، فأملهم فى الحرية لا ينحصر إلا فى إرادة السيد». (p. 87.). كذلك انظر Menavino, p. 65. ويذكر كانتا كوزينوس Cantacuzenos هذه الفترة على أنها سبع سنوات: — «إن عبيدهم ينالون معاملة طيبة لأن محمدا أمرهم فيما أمرهم به ألا يظل عبد فى العبودية أكثر من سبع سنوات، لهذا فانه لا أحد يحاول، أو نادرا ما يحاول المرء أن يخالف ذلك الأمر» (p.128.)

(١) «وكان لدى النصارى المخلصين لعقيدتهم الذين ذهبوا إلى تركيا او إلى بلاد إسلامية أخرى سبب كاف للحزن على ما كان من كثرة ارتداد أبناء دينهم. وتفيض كتب رؤساء طوائف المترهبين بالشكوى من ذلك الأمر. أما الأرقاء فقد كان من الممكن أن يمتزج شعور الانكار لمرتقيهم بشعور الرثاء لحالهم. على أنه طالما تألم المسيحى حين كان يرى أحرار قومه يدخلون فى الاسلام. وكان السفراء لا يأمنون فى اى يوم ان ينصرف عنهم أفراد من حاشيتهم. ولقد أحسنوا صنعا حين كانوا لا يحمدون النهار حتى يقبل عليهم الليل».

(Gmelin, p. 22.) Cf. Von den Driesch, p. 161.

(٢) . Thomas Smith, pp. 144-5.

أفعال الترك . فإذا ما اتسع وقتهم بمعونة الله ، ليغوصوا فى طلب أسرارهم ، وأتيح لهم الإدراك الكافى لاختبارهم ، ونور العقل ليلتمسوا منه الشرح والتفسير ، فإنهم لا يخرجون من هذه التجربة بحيث لا يمسهم ضر فحسب ، بل يكسبون لدينهم قوة على قوة . أما الطبقة الثالثة فتتألف من هؤلاء الذين اختبروا الدين الإسلامى دون أن يتخذوا لأنفسهم الحيطة اللازمة ، فأخفقوا فى الغوص إلى أعماقه والاهتداء إلى تفسيره . ولذلك ضلوا ، فلما اعتقدوا أن باطل الأتراك هو الحق ، فقدوا دينهم ودخلوا فى دين المسلمين الزائف . وبهذا لم يجروا الخراب على أنفسهم فحسب ، بل كانوا قدوة سيئة لغيرهم . وكان عدد أمثال هؤلاء لا يدخل تحت حصر [١] .

لم يخلص الدخول فى الإسلام كما أكد بعض المؤلفين ، العبد من الرق ، ولم يطلق سراحه [٢] ، لأن العتق كان باختيار السيد وحده ، وهو الذى طالما وعد حقاً بتحريره لا من طريق أداء فدية ولكن بالدخول فى الإسلام [٣] ، ولكنه من ناحية أخرى كان كذلك يرغب بمحض إرادته فى أن يحرر العبد المسيحى ، حتى ولو كان قد احتفظ بدينه ، بشرط أن يكون قد برهن على أنه خادم أمين ، كما كان يرغب فى أن يجرى عليه رزقاً لكبر سنه [٤] .

وكان هنالك آخرون شأنهم كشأن هؤلاء العبيد المسيحيين ابتعدوا عن بيئاتهم ومجتمعاتهم ، فوجدوا أنفسهم قد انقطعوا عن الروابط القديمة ، وألقى بهم فى وسط جماعة مدفوعة بمُثُل عليا : اجتماعية ودينية من طراز جديد تمام الجدة . فهذه الجموع الحاشدة من العمال المسيحيين الذين قدموا بعد طوافهم فى البلاد المفتوحة فى القرن الخامس عشر إلى أدرنة وسائر المدن التركية للبحث عن عمل ، قد أقنعوا بسهولة ويسر أن يستوطنوا هذه البلاد وأن يدخلوا فى الإسلام [٥] . كذلك حدث للأسر المسيحية التى نقلها محمد الثانى من الولايات المغلوبة على أمرها من أوروبا إلى آسيا الصغرى [٦] ، فمن المحتمل أنها انتظمت تماماً فى مجموع الأهالى المسلمين على درجات لم تكن فى الغالب محسوسة ، كما كانت الحال مع الأرمن الذين حملهم الشاه عباس الأول إلى فارس (١٥٨٧ — ١٦٢٩م) ، والذين يظهر أن معظمهم كان قد تحول إلى الإسلام فى الجيل التالى [٧] .

---

(١) Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. xxxv. (a).

(٢) M. d'Ohsson, vol. iii. p. 133. Georgieviz, p. 87. (quoted above.) Menavino, p. 95.

(٣) Von den Driesch, p. 250.

(٤) Id, p. 131-2.

(٥) Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. xi.

(٦) Hertzberg, p. 621.

(٧) « وبموت الشيوخ المسنين ، كان يدخل الشبان فى الاسلام غالباً ، حتى إنك الآن (١٦٥٥) لا تكاد تلقى باثنين من مسيحى الأرمن فى كل تلك السهول الخصبة ، التى كان آباؤهم قد أرسلوا إليها لتسميدها » . Tavernier (1), p. 16.

وفى خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ظهر أن روح نشر الدعوة الإسلامية بين الأتراك قد اعتراها الضعف والفتور . أما السنين الأخيرة من حكم السلطان عبد الحميد فقد شهدت تجدد الاهتمام بالدعاية الإسلامية ، وأخذت الصحف التركية فى تسجيل أمثلة من التحول إلى الإسلام . وكان من أجدرهم بالذكر عدد يبلغ ثمانية عشر أميرا تقريباً من أسرة شهاب المالكة فى جبل لبنان ، وكانت تدين بالمسيحية مدة قرن تقريباً ؛ وقد قيل إنهم ادعوا النسب إلى قريش ، وقد بذل الأتراك كل جهد فى سبيل إعادتهم إلى حظيرة الإسلام . وعين الذين أسلموا منهم فى مناصب تدر عليهم ربحاً فى الخدمة التركية المدنية (١) .

وفى الصفحات التالية نرى أن نذكر أخباراً أكثر تفصيلا وتخصصا تتعلق بانتشار الإسلام بين أهالى ألبانيا والصرب والبوسنة وإقريطش من المسيحيين ، إذ أن تاريخ كل بلد من هذه البلاد ، بعد أن فتحها الأتراك ، يمثل بعض المظاهر الخاصة التى تسترعى الانتباه فى تاريخ الدعوة الإسلامية .

يسكن الألبانيون ، عدا بعض من استوطن منهم فى اليونان(٢) ، تلك المنطقة الجبلية التى تمتد على طول الساحل الشرقى للبحر الأدرياتى من الجبل الأسود إلى خليج أرتا Arta . وهم يكونون عنصراً من أقدم العناصر وأنقاها فى أوربا ، ويقال إنهم ينتمون إلى الفرع البلاسجى من الكتلة الآرية .

وقد بدأ غزو الأتراك بلادهم سنة ١٣٨٧ م ، ولكن لم يكن بد من أن تنسحب الجيوش التركية سريعاً ، واعترف بنفوذ السلطان للمرة الأولى فى سنة ١٤٢٣ . واستردت ألبانيا استقلالها فترة قصيرة بزعامة جورج كاستريوتا G. Kastriota الذى اشتهر باسمه الإسلامى إسكندر بك أو سكندر بك . وقد أثبتت الأبحاث الحديثة عدم صحة الأفكار الخيالية التى نسجت حول قصة أيامه الأولى — كيف سُلم فى صباه رهينة إلى الأتراك ، وشب بينهم على الإسلام ، وحظى بعطف السلطان . والحقيقة أنه قضى أيام شبابه فى بلاده الجبلية ، وبدأ نضاله مع الأتراك منذ اليوم الذى أحرز فيه النصر عليهم فى سنة ١٤٤٤ ؛ وظل أكثر من عشرين عاما يقاوم قواتهم الغازية مقاومة عنيفة ؛ ولكن بعد وفاته سنة ١٤٦٧ أخذ الأتراك يستردون ألبانيا . وسقطت كرويا Kruya (آق حصار) ، حاضرة أسرة كاستريوت فى أيديهم بعد أحد عشر عاماً ، ومنذ ذلك الوقت ، يظهر أنه لم تحدث مقاومة منظمة فى كافة أنحاء المملكة ، على الرغم من أن الثورات كانت كثيرة الوقوع ، وأن خضوع البلاد لم يكن تاما بحال . وظل بعض الموانى البحرية يقاوم مدة أطول ؛ وسقطت مدينة دورانسو Durazzo فى سنة ١٥٠١م ، على حين لم تسلم مدينة انتيفارى Antivari الواقعة فى أقصى الشمال من ساحل ألبانيا حتى ١٥٧١م . وقد نصت شروط التسليم على أن تحتفظ المدينة بقوانينها القديمة ونظام حكومتها ، وأن تكفل لهم الحرية فى إقامة شعائر دينهم المسيحى ، وألا يتعرض أحد بسوء لكنائسهم ومعابدهم ، وأن يعاد بناؤها إذا تطرق إليها البلى ، وأن يحتفظ المواطنون بأملاكهم كلها ، المنقول منها والعقار ، وألا يثقل كاهلهم بأداء أية ضرائب إضافية .

---

(١) H. H. Jessup : Fifty-three in Syria, vol. ii, p. 658. (New York, 1910).

(٢) ولمعرفة أسماء هؤلاء أنظر : Finlay, vol. vi, pp. 28-9

ويظهر أن الألبانيين احتفظوا دائما فى ظل الحكم التركى بنوع من الحكومة شبه الاستقلالية ، وظلت القبائل والعشائر المختلفة يتمتعون بنفس الاستقلال الذى كانوا يتمتعون به قبل الفتح . وعلى الرغم من وجود ولاة لسلاطين الترك ، كانوا لا يطيقون تدخل الموظفين من الترك فى إدارتهم الداخلية . وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الحكومة التركية لم يكن فى وسعها قط أن تدين أو تقرّ أى حاكم إقليمى لا يكون من أهالى ألبانيا ، ولا أن يدعم نفوذه بأسلحته وسياسته وعلاقته بالناس[١]. فقد بلغ اعتزازهم بمنصرهم حدا كبيرا ، وإذا سئل الألبانى ، حتى الوقت الحاضر ، عن نفسه أجاب بأنه سكيتار[٢] ، قبل أن يجيب بأنه مسيحى أو مسلم — وهذا شاهد قوى جدا يدلنا على أن الشعور القومى قد محا التفرقة الشديدة بين هاتين الديانتين التى تدخلت تدخلا عنيفا فى سائر بلاد الدولة العثمانية . فالألبانيون ، النصارى والمسلمون على سواء ، يتكلمون لغة واحدة ، ويؤثرون تقاليد واحدة ، ويراعون طباعا وعادات واحدة ؛ وإن اعتدادهم بقوميتهم المشتركة لرابط أقوى من أن يسمح لخلافات العقيدة الدينية بأن تقسم الأمة شيعا متفرقة على هذا الأساس[٣]. ولقد خدموا جنبا إلى جنب فى الجيوش غير النظامية التى سرعان ما أصبحت بعد الفتح التركى الدعامة الأساسية للحكومة فى كل إدارتها الداخلية ، ووجدت كلتا الطائفتين استعدادا واحدا فى خدمة الباشوات المحليين ، لأنهم كانوا يعدون أشجع الجنود فى الدولة . فقد خدم الألبانيون المسيحيون فى الجيش التركى فى حرب القرم[٤]. ومع أنهم ربما كانوا أكثر هدوءا وإلماما بالزراعة من مواطنيهم من المسلمين ، إلا أن الفرق بين هؤلاء وأولئك مازال يسيرا ؛ فقد كانوا يحتفظون دائما بأسلحتهم وصفاتهم العسكرية ، وأظهروا دائما نفس تلك الروح الصارمة المزهوة ، صعبة المراس ، وعاشوا بنفس ذلك الشعور القومى العنيف ، كما كان لإخوانهم الذين اعتقدوا دين النبى[٥] .

---

(١) Leake, p. 250.

(٢) وهو الاسم الذى يطلقه الألبانيون دائما على أنفسهم ومعناه سكان الصخور .

(٣) ويقول واحد منهم ، وهو مسيحى ألبانى ، متحدثا عن العداوة القائمة بين المسيحيين والمسلمين فى بلغاريا : ,, أما ألبانيا فقد كان موقفها مختلفا عن ذلك تمام الاختلاف ؛ إذ أن المسلمين الألبانيين ، كالمسيحيين ، يتكلمون لغة واحدة ، ولهم عادات وأخلاق واحدة ، ويسيرون على عرف واحد . وليس بين المسلمين والمسيحيين كراهية مطلقا ؛ إذ لم يكن بينهم عداوة أجيال . ولم يكن اختلاف الدين باعثا بحال على الانفصال الحقيقى . وكانوا يعيشون ، عدا حالات عدة ، على قدم المساواة ، يتمتعون بحقوق واحدة ويؤدون واجبات متماثلة . (Wassa Effendi: Albanien und die Albanesen, p. 59. Berlin, 1879)

(٤) Finlay, vol. v. p. 46.

(٥) Clark, pp. 175-7. والمرديون Mirdites ، وهم من الرومان الكاثوليك المعروفين بتعصبهم الشديد (فى أبرشية أليسيو Alessio) ، لن يقبلوا مسلما أن يعيش فى جبالهم ، ولا فردا من قبيلتهم أن يترك دينه ؛ ولو حاول أى مردى أن يفعل شيئا من ذلك لقضى عليه بالقتل من غير شك ، إلا إذا أفلح فى الهرب من ألبانيا .

(Hecquard : Histoire de la Haute Albanie, p. 224) .

وإن لتقدير هذه الحقائق أهمية فى تتبع انتشار الإسلام فى ألبانيا ؛ إذ يظهر أنه انتشر تدريجاً وفى بطء على أيدى أهل البلاد أنفسهم لا نتيجة لضغط المؤثرات الأجنبية . وإن ما لدينا من تفصيلات عن هذه الحركة لا يغنى فتيلا ، فإننا لا نعرف شيئا ذا غناء عن تاريخ ألبانيا منذ نهاية القرن الخامس عشر حتى قيام على باشا بعد ذلك بثلاثمائة سنة ؛ فكل ما لدينا من معلومات عن كثرة الداخلين فى الإسلام الذى كان بطيئا ، ولكنه كان مستمرا فى خلال هذه الفترة ، مستقى من التواريخ الكنسية للأرشيات المختلفة[١]، ومن التقريرات التى أرسلت إلى ألبانيا من وقت لآخر وإلى جماعة الدعوة إلى الدين Congregatio de Propaganda Fide[٢]. وغنى عن البيان أن طبيعة هذه المصادر تكسب المعلومات التى استقيت منها طابعا من النقص — ولا سيما فيما يتعلق بالبواعث التى دفعتهم إلى الدخول فى الإسلام . ذلك أنه لم يكن من المعقول تقريبا أن رجل الكنيسة الذى يرجع إلى تلك العصور كان يسلم حتى باحتمال أى دخول فى الإسلام من طريق الإقناع الصحيح — فضلا عن كونه يعبر بصراحة عن رأى كهذا فيما يكتبه إلى رؤسائه .

وفى خلال القرن السادس عشر، يظهر أن الإسلام لم يخط إلا خطوات بطيئة نحو التقدم ، على الرغم من أن تيار الدخول فى الإسلام كان قد بدأ منذ حين . وفى سنة ١٦١٠ كان عدد الأهالى المسيحيين يفوق عدد المسلمين بنسبة ١٠ إلى ١[٣]. ولما كان المسيحيون يقطنون معظم القرى مع خليط قليل جدا من المسلمين[٤]، يظهر أن حالات الدخول فى الإسلام كانت أكثر منها فى المدن الكبيرة . ففى مدينة أنتيقارى مثلا ، بينما آثر كثير من المسيحيين أن يهاجروا إلى البلاد المسيحية المجاورة ، تحول السواد الأعظم من هؤلاء الذين بقوا فى هذه البلاد إلى الإسلام تدريجا ، سواء الشريف منهم والوضيع ، حتى أخذ يتناقص عدد الأهالى المسيحيين يوما بعد يوم[٥]. وبازدياد عدد الداخلين فى الإسلام حُوّلت الكنائس إلى مساجد — وهذا التصرف مع أنه يتعارض مع شروط الصلح ، يبرره ، فيما يظهر ، التغيير الذى طرأ على عقيدة الشعب[٦]. وفى ١٦١٠ لم يكن هنالك الا كنيستان تعليميتان قد بقيتا فى أيدى النصارى من اللاتين . ولكن يظهر أنهما

(١) Published in Farlati's Illyricum Sacrum.

(٢) Alessandro Comuleo, 1593. Bizzi, 1610. Marco Crisio, 1651. Fra Bonaventura di S. Antonio, 1652. Zmaievich, 1703.

(٣) Bizzi, fol. 60, b.

(٤) Bizzi, fol. 35, a.

(٥) Farlati, vol. vii. pp. 104, 107.

(٦) وكذلك شكا بعضهم من أن قصر رئيس الأساقفة قد امتلكه المسلمون ، إلا أنه كان قد ترك خاليا ثمانى سنين ، إذ أن رئيس الأساقفة ، أمبروسيوس ، الذى نبغ بين سنتى ١٥٧٩ — ١٥٩٨ ، وجد من الصواب أن يغادر البلاد بعد أن هاجم الاسلام ,, بجسارة تفوق حد الحذر ، وتطاول فى حق محمد ، وسب مبادئه الشيطانية ,, .

(Farlati, vol. vii. p. 107.)

كانتا بحيث تسدان حاجات الجماعة (١) ، ويمكن أن ندرك مدى ما بلغه هذا الأمر على وجه التقريب من هذه الكلمات التي جاءت على لسان ماركو بتزى إذ يقول : « هناك نحو ٦٠٠ منزل يقطنها المسيحيون والمسلمون دون تمييز ، سواء منهم اللاتينيون والمنشقون (أى عن الكنيسة الإغريقية الأرثوذكسية) ، وأن عدد المسلمين يتجاوز عدد المسيحيين قليلا ، كما أن عدد اللاتين يتجاوز عدد المنشقين » .

وفيما وصل إلينا من الأخبار التي تتعلق بالصلات الاجتماعية بين النصارى والمسلمين وعـــدم وجود حدود فاصلة تميز بين الفريقين ، نجد بعض ما يرشدنا إلى الحالة التي ظفرت فيها المؤثرات الإسلامية تدريجا بداخلين في الدين من بين الأهالى المسيحيين ، الأمر الذى يرجع الى تدهور قوة الكنيسة وحياتها الروحية .

وكان قد أصبح من الشائع المعروف لدى الأسر المسيحية أن تزوج بناتها من المسلمين ، ولدى النساء المسيحيات ألا يبدين أية معارضة في أمثال هـذه العلاقات(٢). وتربى الأطفال من الذكور الذين نشئوا عن هذا الزواج المختلط تربية إسلامية ، أما البنات فقد سمح لهن أن يتبعن دين أمهاتهن(٣). ولم يكن لمثل هـذا السماح تأثير من الوجهة العملية من جانب رجال الكنيسة الذين أمروا أن يحرم الأمهات من دخول الكنائس ومن الاشتراك في القرابين المقدسة (٤). وكان من أثر ذلك (على الرغم من أن خورى الكنائس طالما كانوا يغضون النظر عن أوامر رؤسائهم) أن كثيرا من أولاء الأمهات قد دخلن في دين أزواجهن . على أنهن تمسكن بالعادة التقليدية الخاصة بطقوس العماد التي كان يظن أنها دواء واق من البرص والسحرة والذئاب(٥). وقد أبدت القساوسة استعداداً لإجراء هذا التقليد لأية امرأة مسلمة تريد أن تعمد أولادها(٦). كذلك يتضح هذا الشعور الطيب بين أفراد الديانتين(٧) بما أبداه المسلمون في أعياد القديسين من النصارى ؛

(١) Bizzi, fol. 9. حيث يقول : ,, قمت بالقداس في ذلك الصباح لكل الطائفة المسيحية اللاتينية تقريباً ,, . وإذا وازنا ذلك بالاحصاء الذى أورده زمايفتش (fol. 227.) فانى أستطيع أن أجزم على الظن بأن الجماعة اللاتينية المسيحية بلغت فى ذلك الحين ما يزيد على ألف نسمة .

(٢) Bizzi, fol. 27, b; 38, b.

(٣) Viniero, fol. 34. ؛ وكذلك جرت العادة في بعض قرى ألبانيا في عصر متأخر يرجع إلى أوائل القرن التاسع عشر . أنظر :
W. M. Leake : Travels in Northern Greece, vol. i. p. 49. (London, 1835) :
,, وفى بعض القرى تزوج المسلمون بنساء من الاغريق ، وترى أبناؤهم تربية تركية على حين شب البنات على المسيحية ، حتى إن لحوم الخنازير والضأن تؤكل على مائدة واحدة .

(٤) Bizzi, fol. 38, b. Farlati, tom. vii, p. 158.

(٥) Bizzi, fol. 10, b. Veniero, fol. 34.

(٦) وبعد وصول ماركو بتزى إلى أنتيفارى بزمن قصير ، أبدت سيدة مسلمة تنتمى إلى طبقة راقية رغبتها في تعميد طفلها على يد رئيس الأساقفة نفسه الذى يخبرنا أنها شكت شكاة مريرة إلى أحد زعماء المسيحيين فى المدينة بقولها : ,, إنى لم أجد من مكانى ما يبقى على إسداء تلك المكرمة إليها ، الشيء الذى يفعله يومياً قساوسنا عند طلب أى فرد من عامة الشعب ,, (fol. 10, b.)

(٧) وللاطلاع على أمثلة حديثة من تلك العلاقات الودية القائمة بين أتباع كل من الديانتين الذين يعيشون جنباً إلى جنب فى قرية واحدة ، انظر :

Hyacinthe Hecquard : Histoire et description de la Haute Albanie (pp. 153, 162, 200). (Paris, 1858).

فمثلا يقول ماركو بتزى إنه فى يوم عيد القديس إيليا (الذى يظهر أن الألبانيين كانوا يقدسونه بنوع خاص) وفد على الكنيسة من المسلمين عدد كبير يماثل عدد الذين وفدوا عليها من النصارى [١]. وتحدثنا الأخبار أن المسلمين الألبانيين حتى الوقت الحاضر يعظمون مريم العذراء والقديسين المسيحيين ويحجون إلى مقابرهم؛ كما أن المسيحيين، من جهة أخرى، يترددون على قبور أولياء المسلمين بقصد الشفاء من الأمراض أو الوفاء بالنذور[٢]. وفى مدينة كاليفاتشى Calevacci، حيث كان هنالك ستون أسرة مسيحية وعشر أسرات من المسلمين، ساهم أتباع النبى فى إعانة كاهن أبرشية. إذ كان للسواد الأعظم منهم زوجات مسيحيات[٣]. وفى مثل هذه الظروف لا يكاد يستولى علينا الدهش إذا علمنا أن كثيرين اعتقـــدوا الإسلام علانية، بينما أرضوا ضمائرهم بقولهم إنهم اعتقدوا المسيحية بقلوبهم[٤]. وقد علل ماركو بتزى مثل هذه الزلة بثلاثة أوجه: الجرى وراء المنفعة الدنيوية، والرغبة فى تجنب أداء الضريبة، والنقص فى ذلك العدد الملحوظ من رجال الكنيسة الأذكياء الذى يشبع حاجات البلاد الروحية[٥]. وطالما يعزى الدخول فى الإسلام إلى شدة وطأة الضريبة التى تفرض على المسيحيين، حتى لقد قيل إن جميع القرى ارتدت عن دينها القديم تجنبا لأداء الضريبة. ولما لم ترد أخبار مفصلة عن ذلك، فمن المحال أن نحكم عما إذا كان هنالك حقا أساس كاف للشكوى، أو إذا لم يكن هناك ما يبرر السلوك الذى سلكه المرتدون لاصطناع نوع من العذر لإخوانهم السابقين فى الدين — أو أن ذلك كان فى الحقيقة مبالغة من جانب رجال الكنيسة الذين خيل إليهم أن الدخول الصادق فى الإسلام على أسس منطقية أمر مستحيل تمام الاستحالة. وكانت جزية الرأس بعد ذلك بقرن (فى سنة ١٧٠٣) ستة ريالات عن كل شخص من الذكور، وكانت هذه الضريبة (عدا ضريبة تسمى الشياتارتشيو Sciataraccio كان مقدارها ثلاثة ريالات كل عام) هى العبء الوحيد الذى فرض على المسيحيين وحدهم[٦]. ولا بد أن تعلق الناس بدينهم كان من الضعف والوهن بحيث انصرفوا عن دينهم لا لشىء إلا ليتخلصوا من عقوبة تافهة كهذه. وإن مجرد وجود مثل هذه الجموع الحاشدة من المسيحيين فى ألبانيا فى الوقت الحاضر، ليدلنا على أن العبء لم يكن من الشدة بحيث يرغمهم على الكفر دون أن تكون لهم الخيرة فى شىء آخر.

ولو وصل إلينا من المعلومات ما هو أكثر من تلك الشكاوى العامة الغامضة ضد «الجور التركى»، لكان فى وسعنا أن نقرر على الوجه الأمثل إلى أى حد استطاع هذا الجور أن يكون له مثل هـذا التأثير

---

(١) Bizzi, fol. 38, a.

(٢) Garnett, p. 267.

(٣) Bizzi, fol. 36, b.

(٤) Id. fol. 38, b; 37, a.

(٥) Bizzi, fol. 38, b; 61, a; 37, a; 33, b.

(٦) كان الريال البندقى فى القرن الثامن عشر يساوى القرش التركى. (Businello, p. 94)

الذى ينسب إليه : ولكن يظهر أن الشاهد الذى أشرنا إليه لا يكاد يدعم مثل هذه النتيجة . وكان من أثر التقليد المعيب الذى سار عليه البلاط العثمانى ببيع المناصب فى الولايات عن طريق المزاد بأفحش الأثمان ، والشك فى مدى بقاء أمثال الذين يشغلون هذه المناصب ، أن لجأ هؤلاء فى كثير من الأحيان إلى جمع أقصى ما يستطيعون من الأموال باشتطاطهم فى جمعها بكل وسيلة . على أنه قيل إن مثل هذه الأعباء كانت شديدة الوطأة على المسلمين كما كانت على النصارى (١) . ومع ذلك كان لا يخلو فى الواقع أن يجد موظف شره جائر ، أن من الأيسر أن يجور على النصارى ولا يفعل ذلك بالمسلمين ، ولاسيما حينما أغرى النصارى بأن يتصلوا بالبنادقة وبعض الولايات المسيحية الأخرى اتصالا ينطوى على الخيانة ، كما أثيرت حولهم الشكوك فى شق عصا الطاعة واللجوء إلى الثورة .

ومهما يكن من شىء ، فمن الممكن أن يوجد قليل من الشك فيما أحدثه نشاط الإسلام الحماسى وحياته الفتية من تأثير ، فى مقابل ما اتصف به رجال الكنيسة المسيحية من جمود وجهل . ولو رزق الإسلام فى ألبانيا أئمة كثيرين من أمثال المـُـلا الذى أتى ماركو بتزى على إخلاصه ولطفه وتوادده ، وكان قد تعود أن يناقشه فى المسائل الدينية ، لكان من المحتمل أن يشق الإسلام طريقه خيرا مما كان(٢) . والظاهر أن الأمية كانت متفشية فى السواد الأعظم من رجال الدين المسيحى ، فإن معظمهم لم يعرف كيف يكتب برغم إلمامه الضعيف بالقراءة ؛ وكانوا على جانب كبير من الجهل بواجبات مهنتهم المقدسة إلى حد أنهم لم يستطيعوا حتى إعادة صيغة الغفران عن ظهر قلب(٣) . وعلى الرغم من أنه كان من واجبهم أن يلقوا القداس وسائر الخدمات باللغة اللاتينية ، كان هنالك عدد قليل جدا يستطيع أى يدرك شيئا منها ، كما كانوا على جهل بأية لغة عدا لغتهم الأصلية ، وكانوا لا يعرفون عن حقائق دينهم (٤) إلا معارف غامضة أخذوها بالتواتر . وقد حمّل ماركو بتزى أسقفية البلاد القاصرة مسئولية هذه المساوىء من حيث قلة عدد رجال الكنيسة ، وجهلهم بمهنتهم المقدسة ، ومن حيث هذا العدد العظيم من المسيحيين الذين أدركتهم الشيخوخة ، بل أدركهم الموت ، دون أن يمنحوا التثبيت الكنسى ، والذين ارتدوا عن دينهم فى كل مكان تقريبا(٥) . وقد تنبأ بزوال المسيحية العاجل فى هذه البلاد إذا لم تعالج هذه المساوىء(٦) . كذلك اتهم كثير من القسس باتخاذ الجوارى وشرب الخمر(٧) .

(١) Bizzi, fol. 12-13, Zmaievich, fol. 5.

(٢) Bizzi, fol. 10-11.

(٣) Id. fol. 31, b.

(٤) Bizzi, fol. 60, b.

(٥) Id. fol. 33, b. «ويرجع هذا إلى العدد القليل من القساوسة فى تلك الأنحاء ، ومعرفتهم الناقصة بتلك المهنة ، وعدد المسيحيين الكبير الذين يشيخون ، بل يموتون ، دون أن يمنحوا التثبيت الكنسى ، ويرتدون عن دينهم فى كل مكان تقريبا» .

(٦) «وإذا لم تلق ألبانيا معونة أكبر ، فسوف تسوء حالة السواد الأعظم من المسيحيين فى مدى سنوات قليلة ، لقلة عدد الأساقفة والقساوسة الذين هم على جانب من الفهم» (Id. fol. 61, a)

(٧) Id. fol. 36, a. Id. fol. 64, b.

ومما يلاحظ فى هذا المقام ، أن القسيسين الألبانيين لم يكونوا حفظة على المطامع القومية والمثل العليا ، كما كان رجال الكنيسة الأرثوذكسية فى سائر ولايات الدولة العثمانية ، هؤلاء الذين برغم جهلهم أبقوا بين شعبهم على تقديس الديانة المسيحية التى كونت نواة الحياة القومية عند اليونان(١) . وعلى خلاف ذلك ، اعتز الألبانيون بشعور قومى كان منفصلا تمام الانفصال عن العقيدة الدينية ، كما اعتبروا بروح صادقة ، أن الأتراك ، كما كانوا من قبل ، سادة البلاد وأن من الواجب أن يطاعوا مهما فرضوا من أوامر(٢) .

وهناك قصة عجيبة تتعلق بالتحول إلى الإسلام ، قيل إنها حدثت نتيجة لفقدان العلاقات الودية بين أحد القساوسة المسيحيين وشعبه ، وقد جرت هذه القصة على الوجه التالى : « منذ أعوام كثيرة ، عند ما كان جميع البلاد يدين بالمسيحية ، تمثلت هنالك فى مدينة أسكدار صورة جميلة لمريم العذراء التى كان يهرع إلى معبدها كل عام آلاف من الناس من كافة أنحاء المملكة لتقديم هداياهم ، وتأدية شعائرهم ، والاستشفاء من عللهم . بيد أنه حدث لسبب من الأسباب أن وقع شقاق بين القسيس وقومه . وفى ذات يوم وفد قوم على الكنيسة فى جموع زاخرة معلنين أنهم إذا لم يخضع القسيس لأمرهم فسوف ينبذون دين المسيح ويدخلون فى دين محمد . ولما ظل القسيس متشبثا برأيه ، سواء أكان مصيباً أم مخطئاً ، نزع قومه مسابحهم وصلبانهم من أعناقهم وسحقوها بأقدامهم ، ولما ذهبوا إلى أقرب مسجد ، أدخلهم الملا فى حظيرة المؤمنين الصادقين(٣) » .

وكان من جراء الإهمال والجمود اللذين ظهر بهما رجال الكنيسة أن أتيح لكثير من المساوىء والشذوذ أن تزحف إلى المجتمع المسيحى . ومن ذلك ما يسمونه إجراء عقود الزواج بدون تصديق الكنيسة أو عمل أى احتفال دينى ، وهو ما نجد له مقارباً فى الشريعة الإسلامية التى تجعل الزواج عقداً مدنيا . ولكى يعالجوا هذه السيئة لم يكن بد من أن يحرموا الزوج والزوجة من دخول الكنيسة حتى يمتثلا أمر القانون الكنسى ويذهبا لإقامة شعائرهم بطريقة منتظمة(٤) .

وفى خلال القرن السابع عشر كانت الأحوال الاجتماعية ، وسائر العوامل التى ذكرناها من قبل ، قد آتت ثمرتها فى كثرة عظيمة ، وبدأ عدد الأهالى من المسيحيين يتدهور تدهورا سريعـــا . ففى فترة قصيرة تبلغ الثلاثين عاما وتقع بين سنتى ١٦٢٠ ، ١٦٥٠ ، قيل إن حوالى ٣٠٠ ألف من الألبانيين تحولوا إلى الإسلام(٥) . وفى سنة ١٦٢٤ لم يكن فى أبرشية أنتيڤارى كلها إلا ألفان من الكاثوليك ، ولم يكن فى المدينة

---

(١) Finlay, vol. v. pp. 153-4. Clark, p. 290.

(٢) « وهؤلاء التاعسون اعتقدوا اعتقادا راسخا بأنهم لم يرتكبوا خطيئة فى عقد مثل ذلك الزواج (كتزويج البنات المسيحيات من المسلمين) ، ونظرا لأن الترك هم سادة البلاد ، فلا يمكن ، ولا يجوز أن نعصى لهم أمرا عند ما يأمرون بأى شىء » .
(Bizzi, fol. 38, b.)

(٣) Garnett, p. 268.

(٤) Bizzi, fol. 38, b; 63, a.

(٥) Kyriakos, p. 12.

نفسها إلا كنيسة واحدة . وفى نهاية هذا القرن لم تعد حتى هذه الكنيسة تستخدم فى عبادة المسيحيين . إذ لم يبق فيها إلا أسرتان من الكاثوليك الرومان(١). وفى سنة ١٦٥١ كان السواد الأعظم من الطائفة المسيحية فى كافة أنحاء البلاد بوجه عام مؤلفا من النساء . إذ كان الذكور من الأهالى قد ارتدوا عن دينهم واعتنقوا الإسلام بمثل هذه الجموع الكبيرة (٢) . وظلت الحالة فى نهاية هذا القرن على سوئها ; ولما كان الكاثوليك فى ذلك الحين أقل عددا من المسلمين أصبحت النسب بينهم كنسبة ١ : ١ ½ تقريبا (٣) ، على حين كانوا قبل ذلك بأقل من مائة عام يفوقون المسلمين عددا حتى أصبحت النسبة بينهم ١٠ : ١ (٤) . ونقص عدد الأهالى المسيحيين فى رياسة الأسقفية فى دوراتزو إلى ما يقرب من النصف فى مدى عشرين سنة (٥) ; وفى مدينة أخرى فى أسقفية كرويا تحول الأهالى كافة من المسيحية إلى الإسلام فى مدى ثلاثين عاما (٦) . وبرغم الاحتجاجات المتكررة والنظم التى أحدثها رؤساؤهم الروحانيون استمر خورىّو الكنائس فى تشجيع ما كان يصنعه أفراد كثيرون من رعاياهم من الاعتراف الصريح بالإسلام مقترنا بالمشايعة السرية للدين المسيحى ، وذلك بمنحهم إياهم سر القربان المقدس ; وكان من أثر ذلك أن أبناء أمثال هؤلاء الأفراد الذين نشئوا نشأة إسلامية فقدوا إلى الأبد شعورهم نحو الكنيسة المسيحية (٧) . كذلك ظلت الأسر المسيحية تزوج بناتها من المسلمين ، وظل خورىّو الكنائس يؤازرون مثل هذه الروابط بمنح السر المقدس أمثال أولاء النساء (٨) ، برغم ما أظهره رؤساء رجال الكنيسة من سخط على أى تساهل من هذا القبيل (٩) . على أن مثل هذا التصرف من جانب صغار رجال الكنيسة لا يكاد يؤخذ على أنه دليل على أية حماسة بالغة منهم فى سبيل تزويد رعاياهم بالفائدة الروحية . بإزاء الاتهامات الموجهة إليهم ، فإن معظمهم قد اتهم بأنهم خلعاء جالبون للعار . قلما ذهبوا إلى الاعتراف ; وأدمنوا الانغماس فى ملذات الشراب فى بيوتهم أيام الأعياد ، وباعوا أملاك الكنيسة ، وطالما تغيبوا عن أبرشياتهم . فإذا أدبتهم الكنيسة نجحوا فى التخلص بوضع أنفسهم تحت حماية الأتراك (١٠) . أما الفرنسسكان المصلحون والأبزرڤانت (†) الذين كانوا

(١) Farlati, tom. vii. pp. 124, 141.

(٢) Marco Crisio, p. 202.

(٣) Zmaievich, fol. 227.

(٤) Bizzi, fol. 60, b.

(٥) Zmaievich, fol. 137.

(٦) Zmaievich, fol. 157.

(٧) Id. fol. 11, 159.

(٨) Id. fol. 13.

(٩) Bizzi, fol. 38, b. Farlati, vol. vii. p. 158.

(١٠) Zmaievich, fol. 13-14.

(†) هم طائفة من رهبان الفرنسسكان انفصلوا عن طائفة أخرى من هؤلاء فى القرن الخامس عشر .

قد أرسلوا ليمدوا الشعب بحاجاته الروحية فإنهم لم يصنعوا شيئا إلا المنازعات ومقاضاة بعضهم بعضا ؛ وقد انطوى كثير من هذه المنازعات على فضائح عامة الشعب المسيحي وإهمال الرسالة التي جاءوا من أجلها (١) . وفي منتصف القرن السابع عشر ، خلا خمس أبرشيات ألبانية من اثنتي عشرة أبرشية ؛ فلم يزر أسقفية بولاتي Pullati أحد من الأساقفة مدة ثلاثين عاما ، ولم يكن هنالك إلا قسيسان في منطقة بلغ عدد سكانها ٦٣٤٨ نفسا (٢). وفي بعض الأبرشيات الواقعة في داخلية البلاد ، لم يكن هنالك قساوسة في فترة تزيد على أربعين سنة ؛ ولم يكن هذا راجعا بحال إلى ضغط « الجور التركي » ؛ لأنه عند ما أرسل أخيرا أربع بعثات من الفرنسسكان قرروا أنهم استطاعوا أن يجوسوا خلال البلاد ويمارسوا مهنتهم المقدسة دون أن يعترضهم أي شيء في هذه السبيل (٣) . وكان أسقف سپّا قد أقام مدة طويلة في البندقية ، مما أدى إلى إلحاق خسارة فادحة بأبرشيته . وقد قيل إنه عاش هناك حياة حافلة بالرذائل . وكان قد أناب عنه قسيسا جاهلا كان معروفا بخلاعته وسوء خلقه ، وقد باشر هذا الرجل أعماله الدينية بين ١٢٤٠٠ نفس . ويقول الزائر الديني إنه « في خلال غياب الأسقف استهدفت الأسقفية لخطر نتيجة لما جره على نفسه من تحطيم روحه ، والعمل على خراب النفوس التي تحت سلطانه الديني وخراب أملاك الكنيسة »(٤). وكان أسقف أسكدار ، في نظر رجال كنيسته وقومه ، رجلا ظالما لم يفلح في الاحتفاظ بمركزه إلا بمعونة الأتراك (٥) ؛ ويشكو زمايفتش Zmaievich من الأساقفة عامة الذين أثقلوا كاهل الأبرشيات القائمة في أسقفيتهم بضرائب إجبارية(٦) . ويظهر أن السلطان كان قد منح رجال الدين المسيحي السلطة لأن يفرضوا رسوما على رعاياهم . ومن ثم سمح لرياسة أسقفية أنتيڤاري (١٥٩٩ — ١٦٠٧) أن « تفرض وتتسلم » قطعتين من فئة الأسپر Asper من كل أسرة مسيحية ، واثنتي عشرة قطعة عن الزواج الأول (وضعفي هذا المبلغ عن الزواج الثاني ، وأربعة أضعافه عن الثالث) وقطعة ذهبية من كل أبرشية في السنة . ويظهر أنه كان من اليسير الحصول على مساعدة السلطات التركية في جباية هذه الرسوم(٧) .

ولم يكن في كافة أنحاء ألبانيا مدرسة مسيحية واحدة (٨) ؛ وكان القسس في جهل مطبق : أرسل بعضهم

---

(١) Informatione circa la missione d'Albania, fol. 196.

(٢) Crisio, fol. 204.

(٣) Fra Bonaventura, fol. 201.

(٤) Marco Crisio, fol. 202, 205.

(٥) Id. fol. 205.

(٦) Zmaievich, fol. 13.

(٧) Farlati, tom, vii. p. 109. Bizzi, fol. 19, b.

(٨) Marco Crisio, fol. 205.

للدراسة فى إيطاليا ، ولكن ماركو كرزيو M. Crisio ينحى باللائمة على هذه الطريقة ، لأن أمثال هؤلاء القسيسين كانوا فى خطر من أن يجدوا الحياة فى إيطاليا قد بلغت من المتعة بحيث كانوا يرفضون العودة إلى وطنهم . فاذا كان الكهنوت على هذا النحو من الجهل وإهمال الواجبات المقدسة ، فلا عجب إذا عرفنا أن عامة الشعب كانوا لا يعرفون حتى مبادىء دينهم ، وأن أضرارا كثيرة ومفاسد جمة قد نجمت فى مجتمعهم . وهى التى « عملت أقصى ما يمكن من التخريب لكرمة الرب (١) » . وقد عاش كثير من المسيحيين أعواما يتسرون النساء علانية مع استمرارهم فى منح الأسرار (٢) ، على حين كان لآخرين منهم عدد من الزوجات (٣) . وفى هذه العادة الأخيرة نلاحظ تشابها بين عادات الطائفتين - النصارى والمسلمين - وهو تشابه يزداد وضوحا باعتراف رجال الكنيسة بكفالة المسلمين فى تعميد أطفال المسيحيين ، على حين ظل القسس يجيزون التقليد القديم الخاص بتعميد أطفال المسلمين (٤) .

ولما كانت الكنيسة المسيحية فى ألبانيا فى النصف الأخير من القرن السابع عشر على الحالة التى وصفناها ، كان أتفه البواعث يكفى لإحداث ارتداد واسع النطاق . وإن العقاب الذى وقع على الكاثوليك الثائرين فى النصف الأخير من هذا القرن كان عاملا حاسما أكثر مما ينبغى لإحداث ميول كانت تجذبهم نحو الإسلام وتجعل جموعا كبيرة منهم يخرجون على الكنيسة المسيحية . ويظهر أن الحركة الثورية التى أشرنا إليها والتى أثارها جورج التاسع والثلاثون من رؤساء أساقفة أنتيڤارى (١٦٣٥ — ١٦٤٤) الذى حاول عن طريق أساقفة دوراتسو وشقودرة وأليسيو Alessio أن يحرض زعماء جماعة المسيحيين على التآمر على الحكم التركى وتسليم زمام البلاد إلى القوة المسيحية المجاورة ، وهى جمهورية البندقية . ولما كانت البندقية فى عهده فى سلم مع الأتراك ، لم تحن فرصة مناسبة لتدبير هذه المؤامرة ، إلا أنه فى سنة ١٦٤٥ نشبت الحرب بين تركيا وهذه الجمهورية ، وقام البنادقة بمحاولة خائبة للاستيلاء على مدينة أنتيڤارى التى كانت فى حوزتهم قبل الفتح العثمانى بأكثر من ثلاثة قرون (١٢٦٢ — ١٥٧١) . أما الكاثوليك الألبانيون الذين تحيزوا للعدو وأعانوه سرا ، فقد عوقبوا عقابا شديدا وحرموا امتيازاتهم ، على حين كوفىء المسيحيون اليونان (الذين كان لديهم كل ما يثير مخاوفهم من أن يعود حكم البنادقة فظلوا موالين للحكومة التركية) مكافأة سخية ، ونوهوا باسمهم باعتبارهم مخلصين لبلادهم . وأصبح كثير من الكاثوليك ، إما مسلمين أو منحازين إلى الكنيسة الرومانية . وهذه الحقيقة الأخيرة ذات مغزى كبير من حيث إنها تدلنا على أنه لم يكن ثمة اضطهاد للمسيحيين كهذا ، كما لم تكن هنالك أية محاولة لحملهم على قبول الإسلام . وقد فعل الكاثوليك الذين دخلوا

---

(١) Zmaievich, fol. 11.

(٢) Id. fol, 32.

(٣) Crisio, fol. 204.

(٤) Zmaievich, fol. 11. Farlati, vol. vii. p. 151.

فى الإسلام هذا التصرف ليتجنبوا حرج مركزهم بعد أن أخفقت مؤامرتهم . واستطاعوا أن يحققوا نفس الغرض وأن يبقوا فى الوقت نفسه على دينهم المسيحى بالانضمام إلى الكنيسة الرومانية التى اعترفت بها الحكومة التركية رسميا ، بل كانت تلق كذلك رعاية سامية فى أنتيفارى فى ذلك الحين ، حتى إن هؤلاء الذين تهاونوا فى ذلك العمل لم يكن تعلقهم بالدين المسيحى إلا يسيرا جدا . وتنطبق هذه الملاحظة نفسها على كثرة حالات الدخول فى الإسلام فى السنين المتعاقبة ، فيعزو زمايفتش دخولهم فى الإسلام فى بعض الحالات إلى الرغبة فى تجنب أداء الجزية . ولكن ليس من المعقول ، كما يتضح ذلك مما ذكرناه ، أن هذا السبب كان هو الباعث الوحيد القاطع .

فى سنة ١٦٤٩ اندلعت ثورة أخرى أكثر تفاقما ، وكان يوسف ماريه بونالدو رئيس أساقفة أنتيفارى (١٦٤٦—١٦٥٤) هو المحرض الأول على الحركة . وتآمر القواد من أهالى مدن أنتيفارى وشقودرة ومدن أخرى على أن يفتحوا أبوابهم لجيوش جمهورية البندقية . ولكن هذه المؤامرة أخفقت كذلك . وقمعت الجيوش التركية هذه الثورة بقوة وعنف ، وساعدهم على ذلك الخلافات التى قامت بين المسيحيين أنفسهم . وأبعد كثيرون من الألبانيين الذين كان يخشى تأثيرهم ، من بلادهم إلى داخل الممتلكات التركية ؛ وعبرت قوة مؤلفة من ٣٠٠٠ رجل إلى الحدود ، ودخلت أراضى البندقية ؛ أما البقية الباقية منهم فقد أرهبوا بإنشاء الحصون وتسيير الجنود فى المقاطعات المتمردة ، على حين فرضت مغارم فادحة على المتمردين(١) . ولم يتخذ الكتاب المسيحيون الذين شكوا لسوء الحظ من « الضرائب والمضايقات المجحفة التى كان يضيق بها الأتراك على الألبانيين حتى يدخلوا فى الإسلام(٢)» ، إلا أساليب عامة ، ولم يمدونا بتفاصيل تمكننا من الحكم على ما إذا كان مثل هذه الشكاوى مبررا بالوقائع الصحيحة . ويمهد زمايفتش لما ذكره من ارتداد ألفى نفس عن دينهم بتعديد الضرائب وسائر الأعباء التى كان على المسيحيين أن يتحملوها ؛ إلا أنه يقول إن كل هذه الأمور كان يشترك فيها المسلمون كذلك ، ما عدا جزية الرأس التى كانت تبلغ ستة ريالات فى السنة لكل فرد من الذكور ، وما عدا ضريبة أخرى تسمى شياتارتشيو Sciatraccio وكانت تبلغ ثلاثة ريالات فى السنة(٣) . وختم بقوله : « ولما كانت هذه الضرائب طعنة فى أوهى جوانب الأمة أعنى الفائدة المادية ، التى تقدرها وتميل إليها ميلا فذا بالطبيعة أو بالضرورة ، فقد قدمت سببا وجيها لإظهار اللوعة والأسى على فقد نحو من ألفى نفس ارتدوا عن دينهم الصحيح حتى لا يدفعوا الجزية(٤) » . ولا شىء فيما ذكره فى تقريره يدلنا على أن الضرائب التى لم يكن بد من أن يؤديها الكاثوليك كانت عبئا لا يحتمل ،

---

(١) Farlati, vol. vii. pp. 126-32. Zmaievich, fol. 4-5, fol. 20.

(٢) « أخذ عدد عظيم فى أن يترك تدريجيا المسيحية ليعفى من أداء الضرائب وسائر الإتاوات المجحفة » .

(Farlati, tom. vii. p. 311.)

(٣) Zmaievich, fol. 5.

(٤) Id, fol. 5.

بلغ من شدة وطأته أنه أجبرهم على ترك عقيدتهم . وعلى الرغم من أنه نسب كثيرا من حالات التحول للاسلام إلى الرغبة فى التخلص من الجزية ، إلا أنه يقول بوضوح إن هذه الردة عن الدين المسيحى ترجع فى أساسها إلى الجهل المطبق الذى ظهر به رجال الكنيسة (١) ، كما ترجع إلى حد كبير إلى ما قاموا به من منح هؤلاء الذين كانوا يجهرون بالإسلام ، ويظلون مشايعين سرا للعقيدة المسيحية (٢) أسرار الكنيسة المقدسة . ويقول فى موضع آخر حين كان يتحدث عن رجال الكنيسة الذين لم يكونوا لائقين للقيام بمنصب خوريين للكنائس ، وعن مباشرتهم منح الجاحدين بالدين والمسيحيين المتسترين أسرار الكنيسة : وهذان هما على وجه التحديد الدافعان اللذان نجمت عنهما كل الخسائر التى عانتها الكنيسة المسيحية فى ألبانيا(٣) » . وثمة قليل جدا من الشك فى أن الارتداد عن المسيحية على هذا النحو الواسع النطاق فى ذلك الحين كان نتيجة لسلسلة طويلة من المؤثرات التى تشبه تلك التى عرضنا لذكرها فى الصفحات السابقة . وأن التخلص من أداء الجزية كان آخر حلقة من هذه السلسلة .

أما الجهود النشيطة الفعالة التى قام بها المسلمون أنفسهم ليضموا المسيحيين إلى حظيرة الإسلام ، فليس من اليسير أن نتوقع معرفة شىء منها من تقرير أى زائر دينى . إلا أننا نجد إشارة إلى إحدى المقاطعات التى كان سكانها قد اقتبسوا بمعاشرتهم للترك «رذائل هؤلاء الكفار» ، وأن أحد الأسباب الرئيسة لتخليهم عن العقيدة المسيحية إنما كان تعاقدهم على الزواج من النساء التركيات(٤) . وليس من شك فى أنه كان ثمة مؤثرات إسلامية قوية فعالة ، كما كانت الحال فى أبرشيتى بشاشيا Biscascia ، وباسيا Basia اللتين تعرض مجموع أهلهما الذين يبلغ عددهم نحو ألف شخص « لخطر ظاهر من الارتداد عن دينهم بسبب الحاجة إلى راع للكنيسة» ، وطالما «غُرر بهم للخروج عن دينهم، وأصبحوا فى حاجة إلى رعاة للكنيسة ، عقلاء متحمسين ، يشجعونهم فى دينهم(٥) » .

وتكلم زمايفتش عن إحدى الأسر المسيحية العريقة النبيلة فى ضواحى أنتيفارى التى كانت تتمثل فى ذلك الحين فى أخوين كان أكبرهما قد « راوده » المسلمون البارزون فى ناحيته على ترك دينه ، وكان بينه وبينهم صلة وثيقة ؛ ورغب الأصغر فى دراسة تهيؤه لمنصب الكهنوت الذى « يمكنه من تقديم مساعدة كبيرة للكنيسة المسيحية عن طريق التقدير السامى الذى كان يظهره الأتراك لأسرته التى كانت برغم رقة حالها تلقى احتراما من جميع الناس » (٦) . وهذا فى الواقع تفسير آخر للحقيقة القائلة بأن المسلمين لم يسيئوا

(١) Zmaievich, vol. 15, 197.

(٢) Id. fol. 11.

(٣) Id. fol. 137.

(٤) Id. fol. 149.

(٥) Id. fol. 143-4.

(٦) Zmaievich, fol. 22.

معاملة المسيحيين فى شىء مطلقا ، إلا إذا ظهروا بمظهر الساخطين على الحالة السياسية . فإن زمايفتش ، الذى كان هو نفسه ألبانيا واتخذ مقامه فى أبرشيته بدلا من انتقاله إلى أراضى البندقية ، كما فعل فيما يظهر كثير من رؤساء أساقفة أنتيفارى (١) ، كان قد قوبل « بحفاوة بالغة » و « ملاطفة رائعة » من عامة موظفى الأتراك ، بل من سمو باشا ألبانيا نفسه الذى منحه مكانة سامية فى ديوانه ، وكان دائما يصحبه إلى الباب عند انصرافه ويستقبله عند الباب لدى وصوله (٢) . هذا « المتبربر » الذى « دلّ على أنه أكثر شبها بمسيحى متدفق الإخلاص منه بتركى » ، قد قدم أدلة مادية على أنه يضمرشعورا طيبا نحو المسيحيين بإعفائهم — حين طلب رئيس الأساقفة منه ذلك — من الجزية المستحقة للعام المقبل من أربع مدن مختلفة (٣) . وإذا كان أحد من رجال الكنيسة قد عومل من جانب الأتراك معاملة سيئة ، فيظهر أن ذلك كان يرجع بوجه عام إلى اتهامهم بمراسلة أعـــداء الأتراك مراسلة تنطوى على خيانة . كذلك يظهر أن زيارات رجال الدين المسيحى إلى إيطاليا قد أثارت بحق وفى كثير من الحالات أمثال هذه الريب . وبغير ذلك يظهر أنه لم يكن لدى رجال الكنيسة سبب للشكوى من المعاملة التى لاقوها من المسلمين . بل إن زمايفتش ليتحدث عن خورى كنيسة بأنه كان « محبوبا جدا من رؤساء الأتراك » (٤) . وليس من شك فى أنه كان فى ألبانيا نظائرلحالة قسيس فى أبرشية تريبنجة Trebinje فى هرتسيجوفينا Herzegovina أتهم فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، بسبب علاقاته الودية مع المسلمين ، بأنه عقد النية على الدخول فى الإسلام . وكان من أثر ذلك أن بعث به أسقفه إلى رومة تحت حراسة آمنة (٥) .

ويظهر أنه ليس فى الفترات المتعاقبة من تاريخ ألبانيا ما يثبت حدوث ارتداد عن المسيحية واسع النطاق كالذى حدث فى القرن السابع عشر ؛ ولكن كان هنالك حالات عرضية من الدخول فى الإسلام حتى عصور حديثة . وفى جنوب ألبانيا فى بلاد التوسك Tosks بلغ من كثرة عدد الأهالى المسلمين أن أصبح المسيحيون فى حالة سيئة ؛ ويروى عن الكرمورتادين Karamurtads ، وهم أهالى ست وثلاثين قرية بجوار بوجونيانى Pogoniani ، أنهم كانوا حتى نهاية القرن الثامن عشر يدينون بالمسيحية . ولكن لما وجدوا أنفسهم عاجزين عن سد الهجمات المتوالية التى شـــنها عليهم جيرانهم المسلمون من أهالى ليسكوفيكى Leskoviki ، اجتمعوا فى كنيسة وابتهلوا إلى القديسين أن يصنعوا معجزة لمصلحتهم ، وأقسموا أن يصوموا حتى عيد الفصح انتظارا للمعونة الإلهية ؛ ولكن عيد الفصح أقبل عليهم ولم تُصنع المعجزة ، ولهذا دخل الأهلون كافة فى الإسلام ؛ وسرعان ما حصلوا بعـــد على الأسلحة التى احتاجوا إليها وذبحوا أعداءهم القدامى فى

---

(١) Farlati, tom. vii. p. 141.

(٢) Zmaievich, fol. 7. 17.

(٣) Id. fol. 9.

(٤) Id. fol. 141.

(٥) Farlati, vol. vi. p. 317.

فى ليسكوفيكى واستولوا على أراضيهم (١) . ولم يكن يسمح البتة للطائفة الدينية فى ألبانيا أن تقف فى طريق نزاع قبلى . ولم يكد يأتى القرن التاسع عشر حتى غيرت القبائل والقرى الألبانية دينها لأسباب تافهة جدا . فيقال إن فريقا من إحدى القبائل المسيحية دخلوا فى الإسلام لأن قسيسهم الذى وكل إليه العمل فى قرى كثيرة وزارهم أولا ، قد أصر على أن يقول القداس فى ساعة مبكرة غير مناسبة (٢) .

وقد قيل إن المسلمين فى ألبانيا فى الوقت الحاضر يبلغ عددهم حوالى المليون ، وأن المسيحيين نحو ٤٨٠ ألف ، ولكن ضبط هذه الأرقام يحتاج إلى تحقيق . والمرديون كلهم نصارى ، خضعوا للسلطان على شرط ألا يسمح لمسلم أن يستقر فى أراضيهم ، ولكن أنصار كلتا العقيدتين المتنافستين قد وجدوا فى كل القبائل الأخرى تقريبا . وقد قيل إن جميع أهالى ألبانيا الوسطى مسلمون تقريبا ، وإن أتباع الإسلام يؤلفون نحو ستين فى المائة من أهالى ألبانيا الشمالية . ويحتفظ الأهالى المسيحيون بأكبر نسبة فى ألبانيا الجنوبية ولا سيما فى المقاطعات المتاخمة لبلاد اليونان .

كانت مملكة الصرب أول الأمر تؤدى الجزية للعثمانيين فى سنة ١٣٧٥ م ، وفقدت استقلالها بعد هزيمة منكرة فى كسوفو Kossovo (١٣٨٩) ، حيث قتل ملك الصرب والسلطان التركى كلاهما فى ميدان القتال . ودخل خليفتا الملكين المقتولين فى تحالف ودى ، فاعترف ستيفن الأمير الصربى الشاب بسيادة تركيا ، وزوج أخته من بايزيد السلطان الجديد ، وعقد معه تحالفا أخويا . وفى موقعة نيكوبوليس Nikopolis (١٣٩٤) التى ضمنت للأتراك امتلاك كافة أرجاء جزيرة البلقان ما عدا المقاطعة التى تحيط بالقسطنطينية ، وحوّل الاتفاق العرفى مصير الموقعة المتقلب فوهب النصر للأتراك . وفى ساحة أنقرة (١٤٠٢) ، عند ماسحقت القوة التركية ، وأخذ تيمور بايزيد نفسه أسيرا ، كان ستيفن يشهد المعركة بجيوشه الصربية ، فحارب بشجاعة من أجل زوج أخته ، وبدلا من أن ينتهز الفرصة لدعم استقلاله ظل مخلصا لعهده ، ووقف إلى جانب أبناء بايزيد حتى استردوا عرش أبيهم . ثم تمتعت الصرب بشبه استقلال فى عهد جورج برانكوفتش G. Brankovich خليفة استيفن ، ولكنه عند ما رفع لواء الثورة سنة ١٤٣٨ غلب الأتراك على المدينة مرة أخرى ، وحينئذ لم يكن بد من أن تعترف الصرب بسيادة المجر إلى حين . ولكن هزيمة جون هنيادى J. Hunyady سنة ١٤٤٤ قد حملتها على أداء الجزية مرة أخرى ، وانتهى أمرها أن صارت إيالة تركية فى سنة ١٤٥٩ .

ولا يبعد أن يكون أهل الصرب الذين اعتقدوا الإسلام بعد موقعة كسوفو كانوا على علم بمصير الطائفة المسلمة القليلة العدد التى كانت قد انقرضت من بلاد المجر قبل ذلك بنحو قرن ؛ ولذلك آثروا سيادة الأتراك على سيادة المجريين . ويورد ياقوت الوصف التالى لاجتماعه حول سنة ١٢٢٨ ببعض أفراد هذه الجماعة من أتباع التى فى أوربا الوسطى ، وهو يعزو إسلامهم إلى هؤلاء المسلمين الذين كانوا قد استوطنوا بين

---

(١) Eliot, p. 401.

(٢) Id, p. 392.

ظهرانيهم ؛ قال ياقوت : « وجدت بمدينة حلب طائفة كثيرة يقال لهم الباشغردية (الباشكير) ، شقر الشعور والوجوه جدا ، يتفقهون على مذهب أبي حنيفة رضى الله عنه ، فسألت رجلا منهم استعقلته عن بلادهم وحالهم ، فقال : أما بلادنا فن وراء القسطنطينية فى مملكة أمة من الإفرنج يقال لهم الهُنكر (الهنغاريون = المجريون) . نحن مسلمون ، رعية لملكهم ، فى طرف بلاده نحو ثلاثين قرية ، كل واحدة تكاد أن تكون بُلَيدة . إلا أن ملك الهنكر لا يمكننا أن نعمل على شىء منها سورا ، خوفا من أن نعصى عليه . ونحن فى وسط بلاد النصرانية ، فشمالينا بلاد الصقالبة ، وقبلينا بلاد البابا يعنى رومية (والبابا رئيس الإفرنج وهو عندهم نائب المسيح ، أمير المؤمنين عند المسلمين ينفذ أمره فى جميع ما يتعلق بالدين فى جميعهم) ، وقال : وفى غربينا الأندلس ، وفى شرقينا بلاد الروم ، قسطنطينية وأعمالها ، قال : ولساننا لسان الإفرنج ، وزينا زيهم ، ونخدم معهم فى الجندية ، ونغزو معهم كل طائفة ، لأنهم لا يقاتلون إلا مخالفى الإسلام . فسألته عن سبب إسلامهم مع كونهم فى وسط بلاد الكفر ، فقال: سمعت جماعة من أسلافنا يتحدثون أنه قدم إلى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفر من المسلمين من بلاد بلغار ، وسكنوا بيننا ، وتلطفوا فى تعريفنا ما نحن عليه من الضلال ، وأرشدونا إلى الصواب من دين الإسلام ، فهدانا الله ، والحمد لله ؛ فأسلمنا جميعا وشرح الله صدرنا للإيمان . ونحن نقدم إلى هذه البلاد ونتفقه ، فاذا رجعنا إلى بلادنا أكرمنا أهلها وولونا أمور دينهم»[١].

وظل الإسلام قائما بين الباشغردية من أهل المجر حتى سنة ١٣٤٠ حين أرغم الملك شارل روبرت جميع رعاياه ، الذين لم يكونوا مسيحيين بعد ، أن يعتقدوا الدين المسيحى أو يغادروا البلاد [٢] .

لهذا ربما كان يسر المسلمين من أهل الصرب أن يتخلصوا من حكم المجر ، كمواطنيهم المسيحيين ، لأنه لما عرض عليهم هؤلاء أن يختاروا بين الحكم الرومانى الكاثوليكى فى المجر وحكم الأتراك الإسلامى ، دعاهم تقديس الصربيين الكنيسة الإغريقية إلى إيثار تسامح المسلمين على روح اللاتينيين التى جبلت على حب التبشير بمذهبهم والتى لا تعرف المصالحة واللين . ومن ثم تمثل أسطورة قديمة مشاعرهم فى ذلك الحين : — اشتبك الأتراك والمجريون فى حرب ، وبحث جورج برانكوفتش عن جون هنيادى وسأله : « ماذا تصنع لو انتصرت ؟ » فأجاب : « أؤسس العقيدة الرومانية الكاثوليكية » ؛ ثم بحث عن السلطان وسأله : « ماذا تصنع لديننا لو انتصرت ؟ » فأجاب : « أقيم كنيسة إلى جانب كل مسجد ، وأدع مطلق الحرية لكل فرد فى أن يصلي فى أيهما شاء » [٣] . وقـــد أرغمت خيانة بعض القسوس الصربيين حامية بلغراد على التسليم للأتراك [٤] ، كـذلك رحب صربيو سمندرية Semendria الواقعة على نهر الدانوب بالجيوش التركية التى

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٣٨ (طبعة القاهرة ١٣٢٣)

(٢) Geographie d'Abou'féda, traduite par M. Reinaud, tome ii. pp. 294-5.

(٣) Enrique Dupuy de Lôme : Los Esclavos y Turquía, pp. 17-18, (Madrid, 1877.)

(٤) De la Jonquière, p. 215.

خلصتهم من حكم جيرانهم الكاثوليك سنة ١٦٠٠ (١) .

بدأ انتشار الإسلام بين الصربيين بعد موقعة كسوفو مباشرة ، عند ما تحول عدد كبير من أشراف الإقطاعيين القدامى بمحض إرادتهم إلى دين محمد ، إذ طال بهم العمر ولم يلجئوا إلى البلاد المسيحية المجاورة ، حتى يضمنوا سلامة ما كسبوه من مزايا قديمة (٢) . وقد وجد السلطان فى هؤلاء الأشراف الداخلين فى الإسلام أشد الدعاة تحمسا للدين الجديد (٣). ولكن السواد الأعظم من الشعب الصربى ظل متمسكا بدينه القديم فى خلال الفترة التى تحملوا فيها المتاعب والمشاق . أما فى ستارا سربيا Stara Serbia أو الصرب القديمة وحدها (٤) ، التى تؤلف الآن الجزء الشمالى الشرقى من ألبانيا الحديثة ، فقد كان هناك عدد هائل نوعا ما من هؤلاء الذين تحولوا إلى الاسلام ؛ بل لقد سار انتشار الاسلام هنا بخطا وئيدة جدا حتى القرن السابع عشر ، عند ما حرض النمساويون أهل الصرب على إذكاء نار الثورة ، حتى إذا ما أخفقت هذه المحاولة ، هاجر أرسنيوس الثالث تسرنويفتش Tsernoïevich ، بطريق ذلك الوقت فى سنة ١٦٩٠ مع ٣٧٠٠٠ أسرة صربية يجتازون الحدود إلى بلاد المجر . وفى سنة ١٧٣٩ حدثت هجرة أخرى مؤلفة من ١٥ ألف أسرة بزعامة أرسنيوس الرابع چوڤانوڤتش ، وأوشك هذا الجزء من البلاد أن يتجرد من أهاليه الصربيين الأصليين (٥) .

وضغط المستعمرون الألبانيون من الجنوب على البلاد التى خلت بهجرة هؤلاء الهاربين : وكان السواد الأعظم من هؤلاء الألبانيين عند وصولهم من الرومان الكاثوليك . ولكنهم بعد أن استقروا فى بلاد الصرب القديمة اعتقدوا الإسلام تدريجا ، ولم يبق اليوم من الألبانيين من الرومان الكاثوليك إلا بقية صغيرة ، على الرغم من أن أفواجا جديدة كانت تتجمع إليهم من الجبال من حين إلى حين . على أن هؤلاء الجدد كانوا ينسجون عادة على منوال أسلافهم ، فيدخلون فى الإسلام بعد قليل (٦) .

أخذ الإسلام بعد هذه الهجرة ، ينتشر بصورة أسرع بين البقية الباقية من أهالى الصرب . وكان رجال الكنيسة من الصربيين فى غاية الجهل والأمية ، فلم يستطيعوا قراءة كتب خدمتهم الدينية إلا فى صعوبة ، ولم يعرف أحد منهم الكتابة إلا نادرا ، ولم يعظوا الناس أو يعلموهم أصول الدين بطريقة الحوار . ومن ثم كان من النادر أن تجد فى جميع القرى شخصا عرف صلاة الرب وعرف عدد الوصايا ، حتى القسس

---

(١) De la Jonquière, p. 290.

(٢) Kanitz, p. 37.

(٣) Id. pp. 37—8.

(٤) أورد ما كنزى وإربى Irby (p. 243.) خريطة لهذه البلاد : وهى تشمل پرزرين Prizren ، حاضرة الصرب القديمة ، وإيبك Ipek مقر البطريق الصربى ، والمنطقة التى نشبت فيها معركة كسوفو .

(٥) Kanitz, p. 37.

(٦) Mackenzie and Irby., pp. 250—1.

أنفسهم كانوا لا يقلون جهلا بهذه المسائل الدينية[١]. وبعد ثورة ١٦٨٩ عين الباب العالى بطريق إيك، الرئيس الدينى للصرب؛ ولكن فى سنة ١٧٣٧، كان من أثر قيام ثورة أخرى أن تعطلت البطركية الصربية تعطلا تاما؛ وجُعلت الكنيسة الصربية تابعة للبطريق الإغريقى فى القسطنطينية. وامتلأت الكنائس بالأساقفة الإغريق الذين ظاهروا البكوات والباشوات الأتراك على ابتزاز المسيحيين المساكين، وحرمت لغتهم القومية وجمعت كتب الصلوات السلافية القديمة وغيرها وأرسلت إلى القسطنطينية[٢].

فلا عجب أن يصيب الدين المسيحى انحلال وتدهور مع قيام رجال على الكنيسة من هذا القبيل؛ مثال ذلك أننا نجد فى شعب جورا Gora (فى مقاطعة برزرين) الذين كانوا قد أخذوا يدخلون فى الإسلام على أثر الهجرة الكبرى سنة ١٦٩٠، أن الصربيين الذين ما زالوا متعلقين بالمسيحية، طالما لجئوا إلى أسقف برزرين الإغريقى ليبعث إليهم قسوسا ولو من حين لآخر. ولكن مساعيهم كلها ذهبت أدراج الرياح؛ فظل أبناؤهم من غير تعميد، ونظمت أعمال العرس والدفن من غير مباركة الكنيسة، وآلت المبانى المقدسة إلى البلى[٣]. كذلك فى مقاطعة أوبولجه Opolje المجاورة. لا يبعد أن يكون السواد الأعظم من الأهالى المسلمين الآن الذين يبلغ عددهم ٩٥٠٠ نفس، منحدرين من أهالى هذه البقعة الذين ينتمون إلى أصل سلافى[٤]. وفى مستهل القرن السابع عشر وجد بتزى فى مدينة جانيڤو Jagnevo ١٢٠ أسرة رومانية كاثوليكية و٢٠٠ أسرة إغريقية و١٨٠ أسرة إسلامية[٥]. وبعد ذلك بأقل من مائة عام، كان كل بيت فى المدينة يُعدُّ مسلما، لأن رب كل أسرة دان بالإسلام ولم يبق على المسيحية إلا النساء وبعض الأطفال[٦]. وحول منتصف القرن الثامن عشر كانت قرية لجورس Ljurs بأسرها كاثوليكية. ففى سنة ١٨٦٣ كانت هناك ٩٠ أسرة مسلمة و٢٣ أسرة مسيحية، أما فى الوقت الحاضر فإن هذه القرية وما جاورها من القرى قد قد نبذ أهلها المسيحية عن آخرهم[٧]. وكان لا يزال إلى وقت حديث بعض آثار باقية من دينهم المسيحى القديم، قائمة فى بعض القرى كإحراق جذع الشجرة ليلة عيد الميلاد وغير ذلك. بيد أن أمثال هذه العادات أخذت تزول فى الوقت الحاضر.

وبعد موقعة كسوڤو وسقوط دولة الصرب كانت هضاب الجبل الأسود الموحشة ملجأ لهؤلاء الصربيين الذين أبوا الخضوع للأتراك، ولكنهم عقدوا النية على التمسك باستقلالهم. ولا مجال هنا لسرد ما كان لهذا

(١) Farlati, vol. vii. pp. 127—8.

(٢) Mackenzie and Irby, pp. 374-5. Kanitz, p. 39.

(٣) Id. pp. 39-40.

(٤) Kanitz, p. 38.

(٥) Bizzi, fol. 48, b.

(٦) Zmaievich, fol. 182.

(٧) Kanitz, p. 38.

الشعب الجرىء من تاريخ كفاح ينطوى على البطولة فى وجه هذه الكثرة الهائلة ، وكيف استطاعوا فى خلال قرون قضوها فى قتال مستمر فى ظل حكم أمرائهم الأساقفة(١)، أن يبقوا على ولاية مسيحية حرة ، فى حين كان جميع إخواتها من جنسها قد أجبرت على الخضوع للحكم الإسلامى . ولما كان الأساس الذى قام عليه كيانهم المستقل ، باعتبارهم أمة ، هو تمسكهم بالعقيدة المسيحية التى لا تتزعزع ، لم يكن من المنتظر أن يتخذ الإسلام سبيلا بينهم فى سهولة ويسر . ولكن فى القرن السابع عشر دخل فى الإسلام كثير من أهالى الجبل الأسود فى المقاطعات الواقعة على الحدود ، والتحقوا بخدمة من جاورهم من الباشوات . وفى سنة ١٧٠٣ جمع دانيال پتروڤتش D. Petrovich الأسقف الحاكم فى ذلك الحين ، القبائل وأخبرهم أن الأمل الوحيد لإنقاذ بلادهم ودينهم ينحصر فى القضاء على المسلمين الذين يعيشون بين ظهرانيهم . وكان من أثر ذلك أن الذين لم ينقضوا عهد الإسلام وأبوا أن يدخلوا فى المسيحية من مسلمى الجبل الأسود قتلوا فى ليلة عيد الميلاد فى ثبات ورباطة جأش(٢) .

والآن ننتقل إلى البوسنة : كانت أحوال الشعب الدينية والاجتماعية فى هذه البلاد قبل الفتح التركى تستحق عناية خاصة . ينتمى السواد الأعظم من أهالى هذه البلاد إلى طائفة مسيحية من الخوارج يطلق عليها طائفة « البوجوميل Bogomiles » ، الذين كانوا قد تعرضوا من القرن الثالث عشر لاضطهاد الكاثوليك الرومان ، والذين طالما دعا البابوات إلى شن حرب صليبية عليهم(٣) . فى سنة ١٣٢٥ كتب البابا جون الثانى والعشرون إلى ملك البوسنة يقول : « إلى ولدنا الحبيب الحسيب استيفن أمير البوسنة — لعلمنا بأنك ابن مخلص للكنيسة ، نعهد إليك أن تستأصل شأفة الخوارج فى مملكتك ، وأن تبذل العون والمساعدة لقاضينا فابيان Fabian ؛ ذلك أن جمهورا عظيما من الخوارج تجمعوا من نواح كثيرة متعددة ، وتدفقوا جميعا على إمارة البوسنة مطمئنين إلى أنهم سيبذرون هناك خطاياهم الفاحشة ويعيشون فى أمن ودعة . ولما كان هؤلاء القوم قد أشربوا خبث العدو القديم (أى الشيطان) وتسلحوا بسموم باطلهم ، أفسدوا عقول الكاثوليك بتظاهرهم بالبراءة وادعائهم الزائف اسم المسيحيين ، كلامهم يدب دبيب السرطان ، ويندسون فى تواضع ، ولكنهم يقتلون فى باطن الأمر ، وهم ذئاب فى ثياب خراف ، يستترون جنونهم الوحشى ، يجعلونه وسيلة للتمويه على خراف المسيح الأبرياء » . وفى القرن الخامس عشر أصبحت آلام البوجوميل لا تحتمل ، حتى إنهم استغاثوا الأتراك لتخليصهم مما هم فيه من بؤس وشقاء ، لأن ملك البوسنة والقسيسين كانوا قد بلغوا باضطهاد البوجوميل حدا ربما لم يبلغه أحد من قبل . فهرب عدد كبير منهم يقرب من أربعين ألفا من البوسنة ، واتخذوا ملجأ فى البلاد المجاورة . أما الذين لم يوفقوا فى الهرب فقد أرسلوا إلى

---

(١) حكم الجبل الأسود أساقفة من سنة ١٥١٦ إلى ١٨٥٢ .

(٢) E. L. Clark, pp. 362—3.

(٣) دعا إليها البابا هونوريوس الثالث Honorius III. فى سنة ١٢٢١ ، وجريجورى التاسع فى سنة ١٢٣٨ ، وإنوسنت الرابع Innocent IV فى سنة ١٢٤٠ ، وبندكت الثانى عشر Benedict XII فى سنة ١٣٣٧ ، وأسس ديوان التفتيش Inquisition فى سنة ١٢٩١ .

رومة مكبلين فى الأصفاد . ولكن هذه التدابير ، على شدتها لم تضعف من قوة البوجوميل فى البوسنة إلا يسيرا ؛ ذلك أن الأخبار فى سنة ١٤٦٢ تحدثنا أن الهراطقة كانت في هذه البلاد أقوى منهم فى أى وقت مضى . وفى السنة التالية ، عند ما غزا محمد الثانى البوسنة ، وجد الملك الكاثوليكى أن رعاياه قد تخلفوا عنه ؛ وسلم حاكم البوجوميل مفاتيح الحصن الرئيسى ، مدينة بوبوڤاتس Bobovatz الملكية إلى الأتراك ، وأسرع سائر الحصون والمدن إلى الاقتداء بالحصن ، وفى خلال أسبوع انتقلت سبعون مدينة إلى أيدى السلطان ، وأضاف محمد الثانى البوسنة إلى عدد فتوحه الكثيرة (١) .

ومنذ ذلك الوقت لم نسمع عن البوجوميل إلا قليلا ، ويظهر أنهم دخلوا فى الإسلام بمحض إرادتهم فى جموع كبيرة على أثر الفتح التركى ؛ أما البقية الباقية منهم فيظهر أنهم اعتقدوا الإسلام بعد ذلك تدريجا ، على حين هاجر الكاثوليك الرومان من أهالى البوسنة إلى ما جاورهم من أراضى المجر والنمسا . وقد زعم بعض الباحثين (٢) أن جموعا كبيرة من البوجوميل ، فى العهد الأول من الفتح على الأقل ، دخلوا فى الإسلام بقصد الرجوع إلى دينهم إذا ما واتتهم فرصة مناسبة ؛ ولما كانوا يلقون اضطهادا مستمرا ، فلا يبعد أنهم تعلموا كيف ينكرون دينهم إلى حين . ولكن لما لم تواتهم قط هذه الفرصة المناسبة ، كان لابد أن يصرفوا النظر عن هذه النية تدريجا ، ثم نسيتها ذريتهم آخر الأمر . على أن مثل هذا الزعم لا يعدو أن يكون مجرد حدس وتخمين ولا يعتمد على دليل قوى . ولعل السبب فى رضا البوجوميل بالسماح لأنفسهم أن ينتظموا فى سلك عامة المسلمين المؤمنين راجع إلى مواضع كثيرة تتشابه فيها عقائدهم الخاصة ومبادىء الإسلام . فقد رفضوا عبادة مريم العذراء ونظام التعميد وكل صورة من الكهنوت (٣) . وأنكروا الصليب رمزا دينيا ، وعدوا من عبادة الأصنام الانحناء أمام الصور الدينية والتماثيل وآثار القديسين . وكانت بيوت صلواتهم ساذجة خالية من الزينة ، وهذا على خلاف الكنائس الكاثوليكية الرومانية التى تحلت بالزخارف الزاهية . وشاركوا المسلمين فى كراهية النواقيس التى أطلقوا عليها « أبواق الشيطان » ، واعتقدوا أن المسيح نفسه لم يصلب ، وإنما حل محله شبح آخر : وهم يتفقون فى هذه الناحية فى جانب مما جاء به القرآن (٤) . وإن ذمهم الخمر ، وتزمتهم البادى فى أسلوب حياتهم ، وتشددهم البالغ فى سلوكهم الخارجى ، كل هذه الروابط قد ساعدت على توثيق صلتهم بالإسلام (٥) ، إذ قيل عنهم : وإنك سترى هراطقة هادئين مسالمين كحملان طليقة بالعراء ،

(١) Asboth, pp. 42-95. Evans, pp. xxxvi—xlii.

(٢) Asboth, pp. 96 7.

(٣) « وعابوا حفلات الكنيسة ورؤساءها ، وأطلقوا على القسيسين من الأرثوذكس اسم الفريسيين العميان ، وكانوا ينبحونهم كما تنبح الكلاب الخيل ؛ وأكدوا أن العشاء الربانى لايصان تبعاً لوصية الرب ، وأنه ليس عبارة عن جسد الرب ولكنه كأى خبز آخر .

(Kosmas, quoted by Evans, pp. xxx-xxxi.)

(٤) سورة ٤ آية ١٥٦

(٥) قارن هذا بما أظهره الأتراك نحو شارل الثانى عشر ملك السويد من إعجاب : « إن تشدده فى الامتناع عن شرب الخمر ومواظبته على شهود الصلوات العامة مرتين فى اليوم ، قد جعلهم يقولون : إنه لمسلم حق » .

(Œuvres de Voltaire, tome 23, p. 200.) (Paris, 1785.)

سا كنين ، شاحبي اللون من صيام يشوبه النفاق ، لا يكثرون الكلام ولا يضحكون بصوت عال ، يطلقون لحاهم ويظهرون بمظهر الوقار[1] » . كانوا يصلون خمس مرات بالنهار وخمسا بالليل ، مرددين صلاة الرب مع سجدات كثيرة[2] . ومن ثم وجدوا التغيير ضئيلا بانتقالهم إلى إقامة الصلوات فى المساجد . وإذا كنا قد جمعنا هنا المواضع الكثيرة التى تتشابه فيها عقيدة البوجوميل مع تعاليم الإسلام ، فإن هناك بطبيعة الحال بعض مبادىء تتميز بطابعها المسيحى الذى لا يستطيع أن يقرها مسلم من أهل السنة . ومع ذلك فإن من اليسير أن ندرك بوجه عام كيف استميل البوجوميل تدريجا إلى ترك تلك المبادىء التى كان الإسلام ينبذها ولا يقرها . كذلك كان مذهبهم فى المانوية الثنوية مما لا تتسامح فيه العقيدة الإسلامية ؛ وإنما ظهر الإسلام دائما بمظهر المتسامح فى قبول مثل هذه التأملات فى العقيدة بشرط ألا تؤدى إلى الخروج عن الدين ، وأن تكون الموافقة عامة والقبول شاملا على الأصول الأساسية التى قامت عليها العقيدة من الوجهتين النظرية والعملية .

قدم الأتراك ، كما كانت عادتهم دائما ، كل مزية لإغراء أهالى البوسنة على قبول الدين ؛ فسمحوا لكل من يعتنق الإسلام أن يحتفظ بأراضيه وممتلكاته ، وأعفيت إقطاعاتهم من جميع الضرائب [3] . ومن المحتمل أن يكون كثير من الورثة الشرعيين للبيوتات القديمة الذين كانت الطائفة الكاثوليكية قد انتزعت أملاكهم فى جملة الأشراف بسبب أفكارهم الإلحادية ، قد انتهزوا الآن فرصة لاسترداد مركزهم القديم بالإذعان للدين الغالب . واحتفظ البوسنيون المسلمون بقوميتهم ، وظل السواد الأعظم منهم يحملون أسماء صربية ولا يتكلمون إلا بلغتهم الوطنية [4] ، وفى الوقت نفسه كانوا يبرهنون دائما على غيرة متدفقة على دينهم الجديد ، وسرعان ما تبوأ أشراف البوسنة بفضل شجاعتهم العسكرية وتقديسهم للإسلام وما كان لهم من نفوذ قوى ، مكانة سامية فى القسطنطينية ، وأصبح كثير منهم موضع ثقة فى مناصب الحكومة العامة . مثال ذلك أن تسعة من رجال السياسة الذين ينتمون إلى أصل بوسنى شغلوا منصب كبير الوزراء فى الفترة التى تقع بين سنتى ١٥٤٤ ، ١٦١١ .

وكان آخر ما حصلت عليه الفتوح العثمانية من ممتلكات ، جزيرة إقريطش التى اغتصبت فى سنة ١٦٦٩ من جمهورية البندقية بالاستيلاء على مدينة كانديا بعد حصار طويل مضن دام نحو ثلاث سنين ، وختم كفاح خمسة وعشرين عاما بين تلك القوى المتنافسة فى سبيل امتلاك هذه الجزيرة .

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى انضوت فيها إقريطش تحت لواء الحكم الإسلامى . فقد استولى فريق

---

(١) Kosmas, quoted by Evans, p. xxxi.

(٢) Asboth, p. 36. Wetzer und Welte, vol. ii, p. 975.

(٣) Oliver, pp. 17-18.

(٤) Oliver, p. 113.

من عرب الأندلس المخاطرين على هذه الجزيرة على غرة ، وذلك فى القرن التاسع الميلادى ، وظلت تحت سلطانهم حوالى قرن (٨٢٥ — ٩٦١) (١) . وفى خلال هذه الفترة أصبح كل سكان الجزيرة تقريبا مسلمين ، كما أصبح بعض الكنائس أطلالا ، واستحال بعضها الآخر إلى مساجد . ولكن عند ما عاد سلطان الدولة الرومانية إلى الاستقرار فى هذه البلاد ، ارتد الشعب مرة أخرى إلى دينهم القديم عن طريق التبشير الذى قام به راهب أرمنى ماهر ، وأصبح الدين المسيحى هو الدين الوحيد المعترف به فى الجزيرة (٢) . وفى مستهل القرن الثالث عشر اشترى البنادقة الجزيرة من بونيفاس دوق مونتسيرات Monteserrat ، الذى أصبحت هذه الجزيرة من نصيبه بعد تقسيم الدولة الرومانية ، وحكموها بيد من حديد . ويظهر أنهم نظروا إليها على أنها ثروة لهم أن يحولوها لصالح الحكومة التى استوطنت البلاد ولصالح مستعمريها . وكانت إدارتهم من الظلم والجور بحيث أثارت كثيرا من الثورات التى قمعت بشدة لا تعرف الرحمة ؛ وفى إحدى هذه المناسبات أخليت مقاطعات بأسرها فى ولايات سفاكية ولاسيتى Sfakia & Lassiti من السكان . وحُظرت زراعة الغلال فى هذه الأرض ، وإلا عرض المخالفون أنفسهم لعقوبة الموت ، حتى إن هذه المقاطعات بقيت جرداء مقفرة مدة قرن تقريبا (٣) . وقد أضافت تلك القسوة المفزعة التى قمع بها مجلس الشيوخ البندقى آخر هذه المحاولات فى بداية القرن السادس عشر ، رعبا بالغا إلى حالة البؤس التى أنّ منها أهالى إقريطش التاعسون . ونستدل على سوء حظهم العاثر فى هذه الفترة من تلك التقارير التى دونها أعضاء اللجنة الذين أرسلهم مجلس شيوخ البندقية فى الشطر الأخير من هذا القرن نفسه ، لكى يستقصوا حالة سكان الجزيرة . وقد قيل إن أشراف البندقية كانوا يسحقون الفلاحين بأقسى ألوان التعسف والظلم ، كما أصبحت حالة سادتهم الإقطاعيين أسوأ من حالة الأرقاء ، إلى حد أنهم لم يجرءوا قط حتى على تقديم شكواهم من أى لون من ألوان الظلم . وكان على كل فلاح أن يشتغل فى أعمال السخرة اثنى عشر يوما كل سنة بدون أجر من أجل سيده الإقطاعى . وعندئذ كان فى استطاعة سيده أن يرغمه على الاستمرار فى العمل ما دام هذا السيد يحتاج إلى خدماته بأجرة إسمية قدرها بنس فى اليوم (أى أربعة مليمات تقريبا) . وكانوا يدفعون عن كرومهم ضريبة تعادل ثلث قيمة المحصول ؛ ولكن الغش والعنف مجتمعين كثيرا ما أفلحا فى رفع هذه الضريبة إلى ما يعادل الثلثين . وقد تغتصب ثيرانهم وبغالهم لخدمة السيد الذى كان له ألف حيلة أخرى لابتزاز الفلاح المسكين (٤) . ولكن اتضح أن قرارات أعضاء اللجنة لم يكن لها تأثير فى إقناع مجلس الشيوخ بالبندقية ، بأن يرفع من مستوى حالة أهالى إقريطش البائسين ويضع حدا لقسوة الأشراف وظلمهم . فقد آثر المجلس أن يستمع إلى نصيحة فرابابا ولو ساربى Fra Paolo Sarpi

(١) Amari, vol. i. p. 163; vol. ii. p. 260.

(٢) Cornaro, vol. i. pp. 205—8.

(٣) Perrot, p. 151.

(٤) Pashley, vol. i. p. 30; vol. ii. pp. 284, 291—2.

الذى خاطب الجمهورية فى سنة ١٦١٥ فى شأن مستعمراتها اليونانيـــة بقوله : « إذا استبد سادة هذه المستعمرات بالقرى الواقعة تحت نفوذهم فإن أقوم السبل أن نغض النظر عنها لأنه قد لا توجد رحمة بينهم وبين رعاياهم[١] » .

فلا عجب إذا علمنا من المصادر ذاتها أن أهالى إقريطش كانوا يتطلعون إلى تغيير الحكام ، وأنهم « لم يترددوا كثيرا فى الخضوع للترك مقتدين فى ذلك بسائر أممهم » . حقا لقد هرب كثير إلى تركيا فى ذلك الوقت تخلصا من عبء الضريبة الذى أثقل كواهلهم ، مقتفين آثار غيرهم ممن لا يدخلون تحت حصر ، وممن كانوا من حين لآخر قد اتخذوا هناك ملجأ لهم[٢] . كذلك هاجرت جموع غفيرة إلى مصر حيث دخل كثير منهم فى الإسلام[٣] . وقد أزعج أهالى إقريطش بوجه خاص ما أنزله رجال الكنيسة اللاتينية بهم من تعسف وإرهاق ، هؤلاء الذين وضعوا أيديهم على الأحباس التى هى من حق رجال الدين من الإغريق . ولم يألوا جهدا فى إهانة المسيحيين من أشياع المذهب اليونانى ، الذين ألفوا تسعة أعشار سكان الجزيرة[٤] . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الأتراك قد استرضوهم بإعادة السلطة الدينية اليونانية . وقد ذكر أحد كتاب البندقية أن هذا الأمر قد تم على الصورة التالية : « ذهب أحد كهنة الأبرشية اليونانية أو أحد القسيسين فى كانيه Canea إلى قُسيم القائد التركى ، وأخبره أنه إذا أراد أن يظفر برضا الشعب الإقريطى وأن يجعل البندقية مبغضة إليه ، فلا بد له من أن يعلم أن الدين هو أوثق الروابط التى تحفظ المجتمع الراقى من وهدة الانشقاق ، وأنه ينبغى أن يعمل فى طريق تختلف عن الخطة التى رسمها البنادقة لأنفسهم . فقد بذل هؤلاء قصاراهم فى استئصال شأفة العقيدة الإغريقية وتأسيس عقيدة رومة مكانها ، وتواطئوا معها على أن يصدروا أمرهم بعدم بقاء أى أسقف إغريقى فى الجزيرة . ومن ثم حسبوا أنهم بعد إقصاء هؤلاء الرعاة الموقرين أنه أصبح من الميسور أن يتمكنوا من قيادة القطعان المتفرقة . وكان هذا التحريم قد أثار بلبلة فى عقول أهالى إقريطش إلى حد أنهم كانوا متأهبين فى فرح وطاعة للترحيب بأية سلطة تبدى رغبتها فى إعادة تأسيس هذا النظام فى حكومتهم الدينية ـــ وهو نظام أساسى فى مباشرة عبادتهم المقدسة ذاتها . وأضاف إلى ذلك أنه قد تكون هناك وسيلة أخرى لاسترضاء الشعب لو أنهم منحوا مزايا دينهم القديمة ، بل منحوا إلى جانب ذلك مزايا جديدة كذلك . وقد رأى قسيم أن هـذه المطالب عادلة ، فبادر إلى الكتابة إلى القسطنطينية بشأنهم ، وهناك أقروا مطالبهم ، وأمر البطريق اليونانى بأن يعين رئيس أساقفة ليكون مطرانا لولاية كانديا . ورشح كذلك سبعة أساقفة آخرين ليعملوا برياسة المطران[٥] » .

(١) Pashley, vol. ii. p. 298.

(٢) Id. vol. ii. p. 285.

(٣) Id. vol. i. p. 319.

(٤) Perrot, p. 151.

(٥) Charles Edwardes : Letters from Crete, pp. 90-2. (London, 1887.)

ويظهر أن جموعا كبيرة من أهالى إقريطش دخلت فى الإسلام بعد الفتح التركى مباشرة . ولا يبعد أن تكون تلك الوطنية ذاتها التى جعلتهم يتمسكون بدينهم القديم تحت سيادة البنادقة الأجنبية الذين أبقوا عليهم فى حرص شديد ، ونظروا إلى أية محاولة ترمى إلى إدماجهم فى غيرهم على أنها إهانة لا تغتفر [١] ، وحاولوا دائما أن يوحوا إلى رعاياهم بأنهم منحطون — لا يبعد أن يكون ذلك كله قد حملهم على قبول ديانة سادتهم الجدد التى سرعان ما رفعتهم من منزلة الرعايا إلى رتبة الأنداد ، ومنحتهم نصيبا فى الحياة السياسية وفى حكومة بلادهم . ومهما تكن العوامل التى أدت إلى تحول أهالى إقريطش إلى الإسلام وانتشاره بينهم انتشارا واسع النطاق ، يبدو أنه مما لا يكاد يصدقه العقل أن القوة هى التى غيرت دين شعب كان قبل ذلك بقرون قد تشبث بدينه القديم فى قوة وثبات ، برغم ما عاناه من اضطهاد خصم وعقيدة أجنبية . ومهما تكن الوسائل التى انضووا بها إلى صفوف الإسلام ، فقد قيل إن معظم المسلمين بعد الفتح بثلاثين سنة كانوا قد ارتدوا عن المسيحية أو كانوا أبناء مرتدين [٢] . وفى مدة تزيد قليلا على قرن دخل نصف أهالى إقريطش فى الإسلام . وكان هناك مسلمون من أهالى إقريطش (ولا يزالون) من أقصى الجزيرة الى أقصاها ، لا فى المدن وحدها ، بل كذلك فى القرى والمناطق الداخلية وفى صميم الجبال ، وهم متفقون جميعا فى الشكل والعادات واللغة برغم أنهم إغريق لحما ودما . ولم يكن هنالك قط ، حتى فى الوقت الحاضر ، أية لغة يتكلمها أهالى جزيرة إقريطش سوى اللغة اليونانية ؛ حتى الأتراك القلائل الذين تجدهم هنالك لم يكن بد من أن يتكلموا لغة البلاد ، كما كانت جميع فرمانات الباب العالى وأوامر الباشوات تقرأ وتذاع باللغة اليونانية [٣] . ولم يكن ما حدث بين النصارى والمسلمين فى إقريطش من الشعور المرير الذى جعل تاريخ هذه الجزيرة فى غضون القرن التاسع عشر تاريخا ينطوى على الحزن والأسى ، خطيرا بحال من الأحوال قبل نشوب الثورة اليونانية ، أيام أن كان مسلمو إقريطش يكثرون من اتخاذ البنات المسيحيات زوجات لهم ، وكن من بنات أصدقائهم المسيحيين [٤] . وقد زاد فى توثيق الارتباط الاجتماعى بين هاتين الجماعتين الزىّ المشترك بينهما ؛ فقد كان أهالى إقريطش من المسلمين والنصارى على سواء متشابهين فى الزى ، حتى لقد كان من العسير على المقيمين بينهم فترة طويلة ، أو على اليونان من أهالى الجزر المجاورة [٥] أن يميزوا بين الفريقين فى كثير من الأحيان .

وقد سدت الأحداث السياسية الحديثة نقصا كبيرا فى سكان إقريطش المسلمين . وفى سنة ١٨٨١ كان عدد المسلمين فى الجزيرة ٧٣,٢٣٤ ، وفى سنة ١٩٠٩ نقص العدد على أثر الهجرات المستمرة إلى ٣٣,٤٩٦ [٦] .

---

(١) Pashley, vol. ii. pp. 151-2.

(٢) Id. vol. i. p. 9.

(٣) Perrot, p. 159.

(٤) Pashley, vol. i. pp. 10, 195.

(٥) T.A.B. Spratt: Travels and Researches in Crete, vol. i. p. 47. (London, 1865.)

(٦) R. du M.M. vii. p. 99.

الباب السابع

انتشار الاسلام فى فارس وأواسط آسيا

إذا أردنا أن نتتبع طريق انتشار الإسلام شرقا إلى أواسط آسيا ، وجب أن نرجع قليلا إلى عهد الفتوح العربية الأولى ؛ فإنه لم يكد ينتصف القرن السابع الميلادى حتى كانت الأسرة الساسانية العظيمة قد سقطت ، ودخلت فى حوزة المسلمين ، تلك الإمبراطورية الفارسية الشاسعة ، التى ناهضت رومة وبيزنطة أربعة قرون . ولما تشتت شمل جيوش الدولة الفارسية ، لم يلق المسلمون مقاومة تذكر من الشعب الفارسى الذى كان قد استبد بحكمه ممثلو الدولة الساسانية فى أواخر أيامها استبدادا امتاز بكثير من ضروب الفوضى والعنت . ومما أثار غضب الأهلين وجعلهم ينظرون إلى حكامهم نظرة تنطوى على الكراهة والبغضاء ، وزادت شُقة الخلف بينهم ، أن هؤلاء الحكام كانوا يناصرون ديانة زرادشت التى غدت الدين الرسمى للدولة ، والتى كانت من قبل بغيضة عند الأهلين ، ويفسحون المجال لكهنتها ، حتى أصبح لهم نفوذ كبير فى الدولة وصاروا على جانب عظيم من القوة فى مجالس الملك ، وادعوا أن لهم نصيبا كبيرا فى إدارة الشئون المدنية[1] ، واستغلوا نفوذهم فى اضطهاد كل الفرق الدينية المخالفة لهم (وكانت كثيرة) . وإلى جانب هذه الجماعات الكثيرة من معتقدى المذاهب الفارسية القديمة ، كانت هناك طوائف من المسيحيين واليهود والصابئة ، وأحزاب مختلفة تأثرت بتأملات الأدريين Gnostics [†] والبوذيين والمانوية Manichaens . وقد أثار هذا الاضطهاد شعور الكراهة المريرة الذى أحسه الشعب الفارسى نحو هذا الدين الذى تغلغل فى بلاد الفرس ، ونحو تلك الدولة التى وقفت من ذلك الاضطهاد موقف الرضا والتشجيع ، كما كان كذلك علة ذلك الانتصار الذى حالف الفتح العربى ، وجعله يظهر فى صورة تخليص الأهلين مما أصبحوا فيه[2] . وما إن تم للمسلمين ما أرادوا على هذا الوجه ، حتى تنفس الفرس أنفسهم الصعداء ورحبوا بالعرب ، حبا فى الخلاص من ظلم الحكام أولا ، ورغبة فى إعفائهم من الخدمة العسكرية ثانيا ، ثم أملا فى تمتعهم بالحرية الدينية آخر الأمر ، وذلك لأن الإسلام كان يبيح لغير المسلمين من يهود ومسيحيين ، ومن زرادشتيين وصابئة وعبدة الأوثان والنار والحجارة ، أن يتدينوا بما يرضون لأنفسهم من دين ، على أن يدفعوا للمسلمين الجزية[3] . ولقد قيل إن

---

(١) ذكرت فى الأصل غربا

(†) هى طائفة من النصارى تقول إن المادة قديمة ، وإن الشر من طبيعتها ، وخلطت بين النصرانية ومذهب الماديين والمجوس .

(٢) Caetani, vol. ii, pp. 910-11; A. de Gobineau (I), pp. 55—6.

(٣) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٧٣

النبي نفسه أوصى بالزرادشتيين خيرا ، وأمر المسلمين أن يعاملوهم معاملة أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى وأن تؤخذ منهم الجزية كذلك كِفَاء حمايتهم [١] . وقد يكون هذا الحديث قد ذاع في القرن الثاني للهجرة حين تلمس المسلمون حديثا نبويا يبيح التسامح الديني في معاملة أهالي الديانات المختلفة الأخرى التي وجدها العرب في البلاد التي فتحوها ، سواء أدخل معتنقو هذه الديانات في عداد أهل الكتاب أم لم يدخلوا [٢].

وإلى حالة الكنيسة المسيحية في فارس وماسادها من اضطراب وارتباك ، يجب أن نذكر تغيير الحكومة الذي خلصها من استبداد ملوك الساسانيين الذين أثاروا الخلاف المرير بين اليعاقبة والنسطوريين ، كما زادوا في فوضى الأحزاب المتحاربة المتنافرة ، ولقد أشرنا من قبل [٣] إلى الاضطهادات الدينية الأولى . والآن نذكر أنه حتى في عهد احتضار الأسرة الساسانية ، ثارت ثائرة خسرو الثاني ، واشتد حنقه من جراء الهزيمة التي أنزلها به الإمبراطور المسيحي هرقل ، فأمر باضطهاد المسيحيين المقيمين في داخل حدود مملكته ، والذين تحملوا على اختلاف مذاهبهم كثيرا من ألوان العنت والآلام . ولعل هذه الأحوال المضطربة قد هيأت عقول الناس لذلك التحول الفجائي في شعورهم الذي سهل تغيير العقيدة . وإلى جانب الاضطراب السياسي في الدولة ، ظهرت تلك الفوضى الأخلاقية التي ملأت عقول المسيحيين الذين وقفوا أمام هذه المصائب المتراكمة والآلام المعنوية التي أثارها قيام الصراع العنيف بين هذه العقائد المتنافرة ، فالوا إلى هذا النظام العجيب من التنسيق العقلي الذي ينمو فيه الدين الجديد في سهولة ويسر ، ويكتسح أمامه أكثر الأديان الأخرى ويحاول أن يقيم الحالة الدينية والاجتماعية على أساس جديد . وبعبارة أخرى كان أهالي فارس ، والأجناس السامية بوجه خاص ، قد بلغت عقليتهم درجة ساعدتهم على التحول إلى ذلك الدين الجديد والترحيب باعتناقه في حماسة ملحوظة لما يمتاز به من البساطة . وهكذا قدر للاسلام أن يبدد بضربة واحدة كل هذه الغيوم ، وأن يفتح أمام الناس سبلا واضحة من الآمال الكبيرة ، وأن يعدهم بتخليصهم في أسرع وقت من عبوديتهم وحالتهم السيئة [٤] .

على أن سكان المدن ، وخاصة الصناع وأصحاب الحرف وأهل الطبقة العاملة ، قد رحبوا بالدين الإسلامي واعتنقه عدد عظيم منهم في حماسة كبيرة ، وذلك لما تتطلبه أعمالهم من تركهم ديانة زرادشت وتقبيح عبادة النار والأرض والماء ، وهم الذين كان ينظر إليهم أمام القانون باحتقار وازدراء ، ولما في اعتناقهم الإسلام أيضا من تركهم في الحال أحرارا ومساواتهم في المذهب الديني [٥]. ولم يكن ارتدادهم عن ديانة زرادشت

(١) أبو يوسف ص ٧٤ ، والبلاذري ص ٧١ (في النهاية) ، ٧٩ ، ٨٠ .

(٢) Caetani, vol. v. pp. 361 (§ 611 n. 1), 394-5, 457.

(٣) ص ٦٨ — ٦٩ .

(٤) Caetani, vol ii. p. 910.

(٥) De Gobineau (2), pp. 306-10.

نفسها بالأمر الصعب ، فقد تبع سقوط الأسرة الساسانية تدهور الكنيسة ، حتى إنه لم يعد لأتباعها هناك مركز يجتمعون حوله ، فوجدوا السبيل سهلا ميسورا لتدينهم بالإسلام لما بين مذهبهم الجديد ومذهبهم القديم من أوجه الشبه الكثيرة . فالفارسي يستطيع أن يجد في القرآن كثيرا من التعاليم الأساسية في ديانته القديمة وإن كان ذلك بصورة مختلفة كثيرا . وبعبارة أخرى فإنه يصادف بدل اسم أهورمزدا Ahurmazda وأهرمان Ahriman في ديانته القديمة اسم الله وإبليس في القرآن ، كما يجد أيضا أن الله خلق العالم في ستة أيام ، ويقرأ عن الملائكة والشياطين ، كما يقرأ قصة براءة الإنسان القديم ، وبعث الجسد بعد الموت ، والاعتقاد بوجود الجنة والنار (١) . بل نجد كثيرا من وجوه الشبه في تفصيلات العبادة اليومية ، وأصبح على أتباع زرادشت بعد اعتقادهم الإسلام أن يؤدوا على وفق تعاليم دينهم الجديد ، الصلاة خمس مرات في اليوم كما كانوا يفعلون من قبل على وفق كتابهم الديني القديم المسمى أفستا Avesta(٢). وكانت هذه القبائل التي تقيم شمالي فارس ، والتي قاومت النظام الكنسي لدين الدولة الرسمي في عناد مستمر ، بحجة أن كل شخص كان قسيسا في بيته ، وأنه لم يكن به من حاجة لأي واعظ آخر ، ثم لاعتقاده بوجود كائن أعظم وبخلود الروح ، ولأنه عرف أن الإنسان يجب أن يحب الخير لجاره ، وأن يكبح جماح شهواته ، ويسعى في صبر وأناة إلى حياة أحسن حالا من حياته الحاضرة . ولا غرو فإن أمثال هؤلاء الناس ليسوا بحاجة إلى كثير من الإقناع لحثهم على قبول دين النبي(٣). وهنالك أيضا كثير من أوجه الشبه بين الدين الإسلامي ومعتقدات بعض فرق الإلحاد في فارس التي أصبحت تحت تأثير المسيحية .

وفضلا عن هذه العوامل التي ذكرناها ، والتي كانت سبب انتشار الإسلام بسرعة مدهشة في بلاد الفرس كما رأينا ، كان ثمة عامل آخر ، هو الشعور السياسي والوطني لهذا الشعب المغلوب ، ذلك الشعور الذي أدى إلى انضوائهم تحت لواء هذا الدين الجديد عن طريق زواج الحسين بن علي من شاهبانو Shâhbânû إحدى بنات يزدجرد آخر ملوك الأسرة الساسانية . وقد رأى الفرس في أولاد شاهبانو والحسين وارثين لملوكهم الأقدمين ، كما رأوا فيهم ورثة لتقاليدهم القومية . وهذا الشعور الوطني يفسر لنا تعلق الفرس الشديد بعلي من جهة ، كما يفسر لنا ظهور التشيع هناك حزبا منفصلا من جهة أخرى (٤) .

ولم تكن القوة أو العنف السبب في اتساع نطاق تحويل الناس إلى الإسلام ، بدليل هذه المعاملة

---

(١) Dozy (1), p. 157.

(٢) Haneberg, p. 5.

(٣) Dozy (1), p. 191. A. de Gobineau (1), p. 55.

(٤) Les croyances Mazdéennes dans la religion Chiite, par Ahmed-bey Agaeff (Transactions of the Ninth International Congress of Orientalists, vol. ii. pp. 509-11. London, 1893.)

وللوقوف على بعض هذه العلاقات أنظر Goldziher : Islamisme et Parsisme (Revue de l'Histoire des Religions, xliii. p. 1, sqq.) .

التي عامل بها العرب من ظل من الفرس على تمسكه بمذهبه القديم . ولا يزال إلى الآن في بعض جهات فارس بعض جماعات صغيرة من عبدة النار[1] . ومع أنهم قاسوا فيما بعد كثيرا من الاضطهادات ، كان أسلافهم في القرون الأولى للهجرة يتمتعون بقسط وافر من الحرية الدينية . وكانت معابدهم محترمة ، حتى إننا نقرأ أن أحد قواد المسلمين (في عهد الخليفة المعتصم ٨٣٣ — ٨٤٢ م) (٢١٨ — ٢٢٧ ﻫ) أمر بجلد إمام ومؤذن لأنهما اشتركا في هدم أحد معابدهم في بلاد الصغد ، واستخدما حجارته في بناء مسجد مكانه [2] . وفي القرن العاشر الميلادي ، أي بعد فتح فارس بثلاثة قرون ، وجدت معابد النار في العراق وفارس وكرمان وسجستان وخراسان وجبال أذربيجان وأرّان ، وبعبارة أخرى في كل كورة من كور فارس تقريبا [3] . كما لم تخل أية مدينة أو كورة في فارس من المجوس أو معابد النـار [4] . وقد ذكر الشهرستاني (†) أيضا (حين ألف في عصر متأخر ، في القرن الثاني عشر) اسم معبد للنار في إسفينية بجوار بغداد نفسها [5] .

وبالنظر إلى هذه الحقائق يكون من المستحيل قطعا أن نقول إن اضمحلال ديانة زرادشت كان سببه أن الفاتحين المسلمين استعانوا بالقوة على حمل الناس على اعتناق الإسلام . ومن المحتمل أن يكون عدد أهالي فارس الذين اعتنقوا هذا الدين في السنين الأولى من الحكم العربي كبيرا جدا للأسباب المختلفة التي ذكرناها . بل إن في بقاء مذهبهم القديم ، وما أثر عن ارتداد الناس عنه تدريجيا في خلال القرون المتتابعة ، يقوي في نفوسنا ما ذهبنا إليه من احتمال تدينهم الإسلام بمحض اختيارهم وفي جو من الهدوء والسلام . وحول أواخر القرن الثامن خلع سامان أحد أشراف بلخ دين زرادشت ، واعتنق الإسلام لمساعدة أسد بن عبد الله والي خراسان إياه ، وسمى ابنه باسم هذا الوالي الذي دخل في حمايته . ومنذ ذلك التحول تسمت أسرة السامانيين (٨٧٤ — ٩٩٩ م) بهذا الاسم . وحول أوائل القرن التاسع ، كان كريم بن شهريار أول ملك اعتنق الإسلام من أسرة قابوس . وفي سنة ٨٧٣ م تحول إلى الإسلام عدد كبير من عبدة النار في بلاد الديلم بتأثير ناصر الحق أبي محمد . وفي القرن التالي ، أي حول سنة ٩١٢ م دعا الحسن بن علي - الذي ينتسب إلى البيت العلوي الذي تأسس على ساحل بحر الخزر الجنوبي ، أهالي طبرستان وبلاد الديلم ، وكان بعضهم يعبد الأوثان ويدين بعضهم الآخر بالمجوسية - إلى الإسلام . فأجاب دعوته كثير منهم ، على حين أصر

---

(١) Dosabhai Framji: History of Parsis, vol. i. pp. 56-9, 62-7. (London, 1884.)

ويذكر Nicolas de Khanikoff أنه كان هناك في نهاية القرن الثاني عشر اثنتا عشرة ألف أسرة من عباد النار في كرمان في Mémoire sur la partie méridionale de l'Asie centrale, p. 193. (Paris, 1861.)

(٢) Chwolsohn, vol. i, p. 287.

(٣) المسعودي : مروج ج ٤ ص ٨٦

(٤) الاصطخري ص ١٠٠ ، ١١٨ ، وابن حوقل ص ١٨٩ — ١٩٠

(†) ورد في الأصل (ص ٢١٠ س ٢) Al-Sharastani وليس Al-Shahrastani وهو خطأ مطبعي على ما يظهر

(٥) كتاب الملل والنحل (ed. by Cureton,) part 1. p. 198.

غيرهم على كفره . وكان الحسن بن على هذا على قدر كبير من العلم والذكاء كما كان ملما بمبادىء المذاهب الدينية المختلفة [١] . وفى سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ — ١٠٠٤ م) دان بالإسلام شاعر مشهور من أهالى بلاد الديلم ، هو أبو الحسن مهيار الديلمى ، وكان من عبدة النار ، وذلك بتأثير أستاذه فى فن الشعر الذى كان يفوقه فى الشهرة وهو الشريف الرضى [٢] .

ويحتمل أن يكون جد ابن خرداذبة الجغرافى المشهور قد تحول إلى الإسلام فى ذلك الوقت تقريبا ، وذلك بتأثير أحد البرامكة ، وكان جده أيضا من أتباع المذهب المانوى وأحد كبار كهنة عبادة النار فى معبد نوبهار العظيم بمدينة بلخ [٣].

وعلى الرغم من قلة المعلومات التى وصلت إلينا عن تحول الناس إلى الإسلام ، يظهر أن انتحالهم هذا الدين كان بمحض إرادتهم ، كما يظهر أن أتباع ديانة زرادشت قد تمتعوا بوجه عام بالحرية الدينية إلى نهاية العصر العباسى . حتى إذا جاء الغزو المغولى بدأ فى تاريخهم عصر أكثر إظلاما من العصر الذى سبقه . ويبدو أن ألوان البؤس التى لحقت بالمسلمين من الفرس أنفسهم قد ولدت فى نفوسهم روح التعصب الدينى وعرّضت أتباع زرادشت من حين إلى حين لتحمل الآلام التى تنطوى على القسوة والإرهاق [٤] .

وقد بدأت فى فارس حول أواسط القرن الثامن عشر الميلادى حركة تثير الاهتمام فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، وهى ظهور طائفة الإسماعيلية . ولسنا هنا بصدد بحث تاريخ هذه الطائفة ، ولا فى المكانة الدينية التى شغلها أتباع هذه الطائفة ، ولا فى العوامل الاجتماعية والسياسية التى ساعدت على ظهورها بمظهر القوة ، وإنما الذى يسترعى اهتمامنا حقا هو ذلك النظام المدهش الذى اتبع فى نشر الدعوة لذلك المذهب . وكان عبد الله بن ميمون هو الذى بعث فى أوائل القرن التاسع الميلادى روحا جديدة فى نفوس الإسماعيلية ونشر تعاليم مذهبهم ، الذى يفوق نظام مذهب الجزويت Jesuits من حيث دقة النظر فى الطبيعة الإنسانية والمهارة التامة فى تلقين مبادىء هذا المذهب للناس ، كل على حسب قدرته وميوله . وقد أنفذ عبد الله بن ميمون دعاته فى كل الجهات متنكرين فى زى الصوفيين غالبا ، أو فى زى التجار وغير ذلك . وقد مرنوا على أن يستحوذوا على عقول الناس جميعا ، وأن يجذبوا جميع الطبقات إلى رئيس الدعوة الإسماعيلية ، وأن يستخدموا تعاليمهم عن طريق التفاهم مع كل فرد بلغته الخاصة وعلى مقدار عقله . وقد استطاع هؤلاء الدعاة أن يأسروا العامة بما كانوا يقومون به من الأعمال الخارقة للمألوف التى كانت فى أعينهم كمعجزات ، والتى كانت تثير فى نفوسهم حب الاستطلاع . وكانوا يتظاهرون للأتقياء بالتقوى والتحمس الدينى ، ويظهرون للزهاد

(١) المسعودى ج ٨ ص ٢٧٩ ، ج ٩ ص ٤ — ٥

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٥١٧

(٣) كتاب الفهرست (طبعة فلوجل) ص ١٤٩ س ٢.

(٤) للوقوف على مجمل حالتهم تحت حكم المسلمين ، أنظر :

De Menant : Les Zoroastriens de Perse (R. de M.M. iii. pp. 193 sqq., p. 421 sqq.)

المثل الأعلى للفضيلة والحماس الديني ، ويحلون للصوفيين ما غمض عليهم من التعاليم المعروفة ، ويستخدمون مع من يريدون إدخاله في مذهبهم مراتب مختلفة تتناسب مع عقولهم. ومن ثم أخذ هؤلاء وأولئك يوحون إلى المتشوقين بظهور منقذ يصلح الأديان الكثيرة السائدة في ذلك الحين ، فأعلنوا للمسلمين قرب ظهور المهدي المنتظر ، ولليهود ظهور المسيح ، وللنصارى المعزى . بيد أنهم لقنوهم أن ما يطمح إليه كل فرد لا يمكن أن يتحقق إلا برجعة عليّ المنقذ الأكبر . وكان على الداعي الإسماعيلي أن يظهر بمظهر المتحمس لجميع العقائد الشيعية ، ويثير قسوة السنيين وظلمهم لعلي وأولاده ، ويجاهر بالحط من شأن الخلفاء السنيين . فاذا ما مهد السبيل على هذا النحو ، وجب عليه أن ينتقل على وفق ما تتطلبه دقة المذاهب الشيعية إلى مبادىء الطائفة الإسماعيلية العميقة في التأويل . وإذا ما خاطب اليهودي أظهر احتقاره للنصارى والمسلمين ، ووافق المدعو في تطلعه إلى قرب ظهور المسيح المنتظر ، ولكنه يتدرج معه في الحديث حتى يعتقد أن هذا المسيح لا يمكن أن يكون سوى علي بن أبي طالب ، وهو المهدي الأكبر عند طائفة الإسماعيلية (†) . وإذا حاول جذب المسيحي وجب أن ينحو باللائمة على مكابرة اليهود وجهل المسلمين ، وأن يعلن احترامه لما جاء به الدين المسيحي من عقائد ، ولكنه يشير في شيء من الحذر إلى أن هذه العقائد عبارة عن رموز وأنها ذات معان عميقة لا يجد المرء وسيلة للوصول إليها إلا عن طريق المذهب الإسماعيلي ، كما يجب عليه أيضا أن يشير في حذر وحرص إلى أن المسيحيين قد أساءوا نوعا تأويل نظرية المسيح المنتظر (الفرقليط) Paraclete ، وأن هذا المسيح المنتظر لا يوجد إلا في شخص علي بن أبي طالب . وعلى هذا النحو حاول دعاة الإسماعيلية الذين اتخذوا طريقهم إلى بلاد الهند أن يحملوا الهندوكيين على قبول عقائدهم عن طريق إظهار علي بن أبي طالب بمظهر أوتار وشنو (§) العاشر المنتظر The Promised tenth Avatar of Visnu ، الذي يجب أن يأتي من ناحية الغرب ، أي من ألموت Alamût . وكذلك كتبوا عن مهدي برانا Purâna (††) ونظموا الأشعار في تقليد الواماكارين Vâmâcârins أو الساكتس Sâktas ذوي الأيدي اليسرى الذين كانت حياة الزهد التي عاشوها قد هيأت عقولهم لقبول مذهب الإسماعيلية الباطني أو التأويلي (١) .

وبأمثال هذه الطرق اتحد عدد هائل ممن يدينون بأديان مختلفة في القيام بمشروع لم يعرف حقيقة مايرمي إليه إلا القليل الأقل من الناس . ويظهر أن مطامع عبد الله بن ميمون كانت سياسية محضة . ولكن الوسائل التي تذرع بها لتحقيق هذه المطامع كانت دينية . ومن ثم جمع الناس تحت لواء واحد وجعلهم ينتظرون قرب

(†) إن هذا لا يتفق مع أصول المذهب الاسماعيلي الذي يقول بامامة إسماعيل بن جعفر الصادق وقرب ظهور أحد أبنائه . وإلا لما استطعنا أن نفرق بين الاسماعيلية الذين يعتقدون إمامة إسماعيل وأبنائه وبين الاثنا عشرية الذين يعتقدون إمامة موسى الكاظم وأبنائه ، والزيدية وغيرهم من فرق الشيعة التي تؤمن بامامة علي بن أبي طالب . أما النصيرية فانهم يؤلهون علي بن أبي طالب .

(§) كلمة سنسكريتية الأصل معناها الشخص الذي جاء إلهاً لخلق الكائنات .

(††) مهدي برانا أي التفسير الذي كتبه المهدي .

(١) Khoja Vrittánt, pp. 141—8.

ولزيادة الايضاح عن دعاة الاسماعيليين في الهند ، أنظر الباب التاسع

ظهور الإمام المهدى . وإن نشاط الدعوة وارتباطه بتاريخ هذا الحزب خليق بأن نتصدى لذكره بإيجاز فى هذه الصفحات[١].

وإن تاريخ انتشار الإسلام فى بلاد أواسط آسيا إلى شمالى فارس لا يدل إلا على قليل من نشاط الدعوة الإسلامية . فانه لما وفد قتيبة بن مسلم على سمرقند ، وجد هناك كثيرا من الأصنام كان عبدتها يعتقدون أن كل من أثار حنقها تعرّض للموت . على أن الفاتح المسلم لم يأبه لهذه المخاوف التى أثارتها تلك الخرافات ، ومن ثم لم يحجم عن إحراق الأصنام . وكان من أثر ذلك العمل أن دان بالإسلام عدد كبير من الناس [٢] . على أن المعلومات التى وصلت إلينا مع قلتها تدل على أن التحول إلى الإسلام كان ، برغم هذا ، ضئيلا فى مستهل تاريخ تقدم الفتوح الإسلامية فى أواسط آسيا . وفوق هذا يبدو لنا أن أهالى هذه البلاد طالما تظاهروا باتحالم الإسلام إلى حين ، ثم أسرعوا فكشفوا القناع وشقوا عصا الطاعة للخليفة بمجرد انسحاب جيوش الفتح[٣]. ولم يصب العرب النجاح المطلوب فى إرغام الأهلين على اعتناق دين الفاتحين حتى أتم قتيبة فتح بخارى للمرة الرابعة .

وفى بخارى وسمرقند اتسمت مقاومة الأهلين للاسلام بكثير من ضروب العنف والعناد ، حتى إنه لم يسمح بحمل السلاح إلا للذين دانوا بهذا الدين . ولم يجرأ المسلمون أعواما طويلة على أن يظهروا فى المساجد أو غيرها من الأماكن العامة من غير أن يكونوا متقلدى السلاح ، على حين لم يكن بد من أن تُقام الجواسيس لمراقبة الحديثى العهد بالإسلام . وكذلك بذل الفاتحون جهودا مختلفة لإدخال الناس فى حظيرة الدين ، بل لقد حاولوا تأليفهم بالمال ليحضروا صلاة الجمعة فى المساجد ، وسمحوا بقراءة القرآن باللغة الفارسية بدلا من العربية حتى يستطيعوا جميعا فهمه فى سهولة ويسر[٤].

وكان انتشار الإسلام فى بلاد ما وراء النهر بطيئا بطئا ظاهرا . فقد استجاب بعض الأهلين إلى دعوة عمر الثانى (٧١٧ — ٧٢٠م) للتدين بالإسلام[٥]، وتحول عدد كبير منهم على يد أبى صيدا الذى أخذ فى نشر هذه الدعوة بسمرقند فى عهد هشام الثانى (٧٢٤—٧٤٣م)[٦]. ولكن جمهور أهالى هذه البلاد لم يعتنقوا الإسلام حتى عهد المعتصم (٨٣٣—٨٤٢م) . وربما كانت هذه العلاقات الوثيقة التى كانت قائمة إذ ذاك بين بغداد حاضرة العالم الإسلامى فى ذلك العصر ، والأتراك الذين كانوا قد هاجروا أفواجا لينضموا إلى جند

---

(١) Le Bon Silvestre de Sacy : Exposé de la Religion des Druzes, tome i. pp. Lxvii, cxlviii-clxii.

(٢) البلاذرى ص ٤٢١

(٣) النرشخى ص ٤٦

(٤) المصدر نفسه ص ٤٧

(٥) البلاذرى ص ٤٢٦

(٦) الطبرى ٢ : ١٥٠٧ وما يليها .

الخليفة من أهم العوامل التى ساعدت على انتشار الإسلام (١) . ويظهر أن الإسلام ، وقد رسخت قدمه بين القبائل التركية على هذا النحو ، لم ينتشر إلا ببطء حتى منتصف القرن العاشر الميلادى ، حين دان به بعض رؤساء عشائرهم ، كما حدث تماما فى تاريخ الدين المسيحى عند ما تحول كلوفيس Clovis وبعض ملوك شمالى أوربا من المتبربرين إلى المسيحية ، واقتفى أثرهم فى ذلك عدد كبير من القبائل التى ينتمون إليها .

وقد ظهرت فى ذلك الوقت قصص دينية خرافية حلت محل الحقائق التاريخية الجدية ، وذلك بصدد تحول الناس إلى الإسلام . فمدينة خيوة مثلا كانت تقدس مصارعا وطنيا يطلقون عليه اسم بهلوان Pahlavàn . وكان هذا المصارع فى خدمة أحد ملوك خوارزم الوثنيين . ولما سمع ملوك الهند بشهرة بهلوان هذا ، أرسل أحد المصارعين فى بلاطه يستفز ملك خوارزم لتحديد يوم للمبارزة . وقد حدد يوم لاختبار قوة هذين الرجلين ، ودعى عدد كبير من النبلاء والعامة فى خيوة لمشاهدة هذا المنظر ، وخاصة إذا علمنا أن من غُـلب فى هذه المصارعة كان حقه أن يُطاح رأسه . وفى اليوم الذى سبق يوم المصارعة ، عند ما كان بهلوان المقدّس يصلى فى الجامع ، سمع امرأة عجوزا تدعو الله وتقول : « رب لا تلحق بولدى الهزيمة فى مصارعة بهلوان فإنه ليس لى ولد سواه » . فأخذت الشفقة بهلوان ورق لحال هذه الأم ، وسهل لمصارعه الهندى إحراز الفوز عليه . وأمر الملك بقطع رأسه ، وقد ثارت ثائرته وأخذ الغضب منه كل مأخذ . غير أنه فى هـذه اللحظة نفسها أخذ الحصان الذى كان الملك معتليا صهوته يعدو مسرعا صوب منحدر خطير ، ولحق به بهلوان وأمسك بزمام الحصان ، وأنقذ حياة الملك من موت مروع . ولم يكن من الملك الا أن بادر الى التدين بهذا الدين الحق شكرا لله واعترافا بآلائه عليه ، وذهب المصارع المقدس فى طريق الصحراء ، وقد ملأ الفرح قلبه ، وأوى إلى صومعته ، وعاش عيشة النسك والزهد ، وانقطع إلى العبادة .

وحول منتصف القرن العاشر الميلادى ، رويت أسطورة عجيبة عن إسلام ساتوق بغراخان Satùq Bughrà Khàn مؤسس أسرة إيلكخان الإسلامية فى كشغر . فقد أراد خواجا أبو النصر السامانى أحد أمراء السامانيين ، وكان على جانب عظيم من التقوى ودماثة الخلق ، أن يجد مجالا لإشباع مواهبه الإدارية ، فعزم على اتخاذ التجارة حرفة له ، مدفوعا فى ذلك برغبته فى نشر الدين الحق فى بلاد الكفار . وبدلا من محاولة جمع الثروة عن طريق مشروعاته التجارية ، خصص ساتوق كل أرباحه لتنمية جهوده فى إدخال الناس فى دينه الجديد . فى ذات ليلة ظهر له النبى فى المنام وقال له : « استيقظ واذهب إلى تركستان حيث تجد الأمير ساتوق بغارى خان فى انتظار حضورك للدخول فى الإسلام » . ورأى هذا الأمير الشاب فى نومه رؤيا مماثلة تحثه على انتظار شخص يدعوه إلى الدين . ولما تقابل ساتوق مع أبى النصر السامانى بعد عدة أيام ، كان ساتوق على استعداد تام لقبول تعاليمه والتدين بالإسلام . ويظهر أن هذه الأسطورة استندت إلى

(١) August Müller, vol. i. p. 520.

(٢) Cahun, p. 150.

(٣) ابن الأثير جـ ٨ ص ٣٩٦ (س ١٩ — ٢٠) ، Grenard, pp. 7sq., 42—3.

هذه الحقيقة التاريخيـــة ، وهى أن الإسلام امتد من بلاد السامانيين إلى البلاد المجاورة فى تركستان ، وأن رعايا هذا الحاكم اقتفوا أثره فى التدين بالإسلام ، إذ أنه فى سنة ٩٦٠ م اعتنق هذا الدين مائتا ألف من الأسر التركية التى كانت تعيش فى الخيام ، والتى لايبعد أنها كانت تكون الجزء الأعظم من أتراك تركستان بمملكة بخارى خان . وتعزو إليه الأساطير القدرة السحرية فى الحروب التى شنها على الكفار ، حتى لقد روى أن شعلة محرقة تخرج من فيه ، وأن سيفه الذى كان يتقلده يبلغ طوله أربعين قدما . وقد قيل إن ساتوق لم يكد يبلغ التاسعة والستين من عمره ، حتى نشر سيفه الرعب فى قلوب الكفار الذين كانوا يقيمون فى الأراضى الممتدة من ضفاف نهر سيحون جنوبا إلى قُرَه قُورَم شمالا ، فتحولوا إلى الإسلام . كما قيل إن جيوشه المنتصرة دخلت قبيل موته بلاد الصين ، ونشرت الإسلام حتى ترفان Turfan [1] . وإن هذا الوصف الرائع لكفاح هذه الأسرة مع مملكة ختنان البوذية ليخلع على بطلها حلة من النجاح الذى لم يتم فى الواقع إلا فى القرن الرابع عشر الميلادى . ويمكن الحكم على مدى ما بلغه ساتوق بغرا خان من نجاح من أن خلفاءه من أسرة إيلكخان أرادوا فى سنة ١٠٢٦م الزواج من أميرات بيت محمود الغزنوى ، فأجابهم محمود بأنه مسلم على حين أنهم كفار ، وأنه ليس من عادات المسلمين أن يزوجوا أخواتهم وبناتهم من الكفار ، ولكنهم اذا دخلوا فى الإسلام أمكن النظر فى هذه المسألة [2] . وبعد ذلك بسنين قليلة ، أى بين سنتى ١٠٤١ ، ١٠٤٢ ، طلب بعض الأتراك الذين كانوا لايزالون على وثنيتهم ، والذين كانوا يعيشون فى هضبة التبت من أرسلان خان بن قَـدر خان أن يسمح لهم بالاستقرار فى ممتلكاته ، لما سمعوا عن عدله وسعة صدره ولين حكمه . ولكنهم لما أصبحوا على مقربة من بالاساغون [3] ، أرسل إليهم كتابا يدعوهم فيه إلى الإسلام ، ولكنهم رفضوا هذه الدعوة ، فتركهم وشأنهم لما آنسه فيهم من روح المسالمة والطاعة . وليس لدينا معلومات عن كيفية اعتناقهم الإسلام . على أنه يرجح أن هذا قد تم على مر الزمن . ولكنه ليس من اليسير أن نثبت أن هؤلاء هم أفراد هذه الجماعة التى كانت تتألف من عشرة آلاف أسرة تركية من الكفار اعتنقت الإسلام فى السنة التالية . إذ أنه قد أُثر عن هؤلاء الأخيرين أنهم أغاروا على المسلمين ونهبوهم قبل تحولهم إلى هذا الدين [4] . وكانت غزوة قره ختاى Qarà Khitày فى بلاد التركستان سببا فى تصويب

---

(١) Grenard, pp. 9—10.

ومن حرب الطموح هذه ، جعلت منها هذه الرواية حربا مقدسة ، وتنسب الرواية إلى ساتوق بغراخان الفتح الذى تم فى الواقع على يد خليفته الثانى عشر . ومن الخطأ البين أن تطلق هذه الرواية اسم الأخير على عم ساتوق بغراخان الذى كان لا يزال على وثنيته . ومما يؤسف له أن هذه الرواية تحول من شخصين اثنين شخصا واحدا فتعزو إلى نفس هذا الأمير الاغارة على تورفان أى مدد بلاد النور ، وهذه الاغارة تنسب حقا إلى شخص ثالث (المصدر نفسه ص ٥٠) .

(٢) Reverty, pp. 905.

(٣) كانت حاضرة تركستان فى خلال القرنين العاشر والحادى عشر ، ولكن موقعها الأصلى غير واضح .

(٤) النرشخى ص ٢٣٤ — ٢٣٥

ضربة عنيفة إلى قوة الإسلام . وكانت تقارير الرحالين الأوربيين حتى القرن الثالث عشر الميلادى توضح أنه كان ثمة طوائف من البوذيين والمانويين والمسيحيين فى هذه الجهات (١) .

وكان لدخول الأتراك السلجوقيين فى الإسلام أهمية عظيمة . وليس لدينا أى نص نستدل منه على تحولهم إلى الإسلام ؛ إلا أنه فى سنة ٩٥٦ م هاجر سلجوق مع قبيلته من بلاد تركستان إلى بخارى حيث دان هو وأتباعه بالإسلام وأصبحوا من المتحمسين له (٢) . وهذا هو أصل الأتراك السلجوقيين المشهورين الذين أحيوا بانتصاراتهم وفتوحهم مجد الجيوش الإسلامية بعد أن خبا ، ووحدوا الممالك الإسلامية فى غرب آسيا فى إمبراطورية واحدة .

إلا أنه فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى فقدت الدولة السلجوقية كل قوتها ، اللهم إلا اذا استثنينا آسيا الصغرى . وعند ما كان محمد الغورى يوسع رقعة إمبراطوريته من خراسان شرقا حتى شمال بلاد الهند ، انتعشت حركة انتشار الإسلام بين الأفغان ، وجاس خلال ديارهم دعاة من العرب والهنود الذين تحولوا إلى الإسلام وقاموا بحركة نشر تعاليم هذا الدين فى حماسة وجرأة ظاهرة (٣) . وتدل الأقاصيص على أن الإسلام قد دخل بلاد الأفغان دون أن يلجأ المسلمون فى سبيل ذلك إلى شىء من القوة أو العنف . فقد قيل إن العرب احتلوا فى القرن الأول الهجرى بلاد الغور إلى هراة شرقا ، وأن خالد بن الوليد ذهب إلى هناك حاملا أنباء الدين الإسلامى ، ودعا أهل هذه البلاد الى الانضواء تحت لواء النبى ، ثم عاد اليه بصحبة وفد مؤلف من ستة أو سبعة يمثلون الأفغان . ولما عاد هؤلاء إلى بلادهم أخذوا يدخلون أفـــراد قبائلهم فى الدين(٤) . على أن هذه القصة خالية من أى أساس تاريخى . وإن ما وصل إلينا عن اعتناق بعض الأفغان الإسلام لا يعدو ذلك النص الخاص بانتحال ملك كابل فى عهد الخليفة المأمون (٥) . ويظهر كذلك أن خلفاء هذا الملك ارتدوا إلى البوذية ، إذ أن يعقوب بن الليث مؤسس الدولة الصفّارية لما مد فتوحه إلى كابل فى سنة ٨٧١ م ، وجد حاكم هذه البلاد وثنيا . وأصبحت كابل منذ ذلك الوقت بلدا إسلاميا خالصا لأول مرة ، كما لا يبعد أن يكون الأفغان قد أصبحوا بحيث يرحبون الترحيب كله للعمل فى جيش فاتح جرىء كجيش يعقوب بن الليث(٦) . على أنه لم تكد تنتهى فتوح سبكتكين ومحمود الغزنوى ، حتى كان الإسلام قد تمكّن وتوطد فى كافة أرجاء بلاد الأفغان .

وسيجد القارىء فى الباب التالى تفاصيل أخرى عن تاريخ انتشار الإسلام فى فارس وأواسط آسيا .

---

(١) Grenard, p. 76.

(٢) Raverty, p. 117.

(٣) Bellew, p. 96.

(٤) المصدر نفسه ص ١٥ — ١٦

(٥) البلاذرى ص ٤٠٢

(٦) August Müller, vol. ii. p. 29.

الباب الثامن

انتشار الاسلام بين المغول والتتار (†)

لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطبا أشد هولا من غزوات المغول .

(†) لا بأس من أن نشير هنا إلى الفرق بين اللفظين : " تتر " و " مغول " وإلى التطورات التي داخلت كلا منهما .

فكلمة تتر تختلف بالمعنى العام باختلاف العصور : فقد أطلق هذا اللفظ على جماعتين من قبائل التتر في نقوش الأرخون التركية Turkish Orkhon التي ترجع إلى القرن الثامن الميلادي ، كما أطلق هذا الاسم على المغول عامة أو على فريق منهم خاصة .

وفي جميع الفتوحات المغولية في القرن الثالث عشر الميلادي كان الفاتحون يسمون بالتتر في كل مكان نزلوا فيه ، سواء أكان في الصين أم في البلاد الاسلامية أم في بلاد الروسيا وغرب أوربا . ويسمي ابن الأثير أسلاف جنكيزخان باسم التتر ، وهم التتر الأول ، وكانوا مشهورين عند قدماء اليونان باسم سكيثيا Scythia ، أو سكوتيا .

ولم يظهر اسم المغول في عالم الوجود حتى القرن العاشر ، ومن المرجح أنه أطلق على تلك العشائر التي انضوت تحت لواء زعيم إحدى قبائلهم ، وكان يحمل ذلك الاسم ، ثم أخذ لنفسه السيادة على بقية العشائر المتحالفة ، ومن ثم أطلق اسم البعض على الكل

(Lane-Poole : Muh. Dyn. p. 200)

على أن بعض المؤرخين يرون أن لفظ " مغول " لم يكن معروفا في خارج البلاد التي كانت تسكنها قبائل الرحالة على حدود صحراء جوبي قبل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ؛ كما يقولون باحتمال إطلاق هذا اللفظ على جميع هذه القبائل ، حتى امتد نفوذ رجل منهم تسمى بهذا الاسم على جميع تلك العشائر المتحالفة . وقد انتقلت فرقة من فرق المغول الحربية إلى بلاد آسيا الصغرى ، وكان أعقابهم (الذين صاروا أتراكا بلا شك) يسمون بالتتر السود Kara Tatar ، وقد عاشوا عيشة بدوية وقت حملات تيمورلنك في البلاد الريفية الواقعة بين أماسيا Amasia وقيصرية . وكان عددهم يناهز الثلاثين ألفا أو الأربعين ألف أسرة . وقد نقلهم تيمورلنك إلى أواسط آسيا ، فأنزلهم بايزيد الثاني المثاني بعض الأماكن في بلاد كشغر وخوارزم ، وقد عاد هؤلاء التتر السود بعد وفاة تيمور إلى بلاد آسيا الصغرى واستقروا بها من جديد .

كذلك نرى في الروسيا وشرق أوربا اسم التتر يطلق غالبا على جميع الشعوب التركية ما عدا العثمانيين . ويرى بعض المؤرخين من المسلمين أن التتر شعب كبير من الأمة التركية ، ومنه تفرعت معظم بطونها وأفخاذها ، وهو مرادف للترك عند الفرنجة ، حتى أنهم يعدون قبائل الأتراك كافة تترا ، ومنهم العثمانيون والتركمان . وقد شمل هذا الاسم (تتر) جميع المغول وبخاصة المنكرس Manchus كما كانت الحال في الصين .

وأما كلمة تتر بالمعنى الخاص فهي اسم لشعب معين إذ لا تطلق إلا على سكان حوض نهر الفلجا من بلاد قزان Kazan إلى استراخان ، وكذا على سكان شبه جزيرة القرم ، وجزء من سيبريا ممن يتكلمون اللغة التركية . ويظهر أن الشعوب التي كانت مغولا في الأصل واللغة كانت تسمي نفسها بالتتار .

وقد استبدلت كلمة تتر بعد جنكيزخان في بلاد منغوليا وأواسط آسيا بكلمة مغل Moghul ، ولا يزال لفظ مغل مستعملا إلى اليوم في بلاد أفغانستان بين أعقاب المغول الذين لا يزالون محتفظين بلغتهم حتى الآن .

وقد أدخل جنكيزخان تلك التسمية رسميا في بلاده . على أن كلمة Mongol لم تسد قط في معظم البقاع الغربية من إمبراطورية المغول رغم دخولها رسميا في تلك البلاد ، كما نعلم ذلك من الرحالة الأوروبيين أمثال يوحنا بيان الكاربيني John of Pian El Carpini ووليم روبروك William of Rubruck وغيرهما .

فقد انسابت جيوش جنكيزخان انسياب الثلوج من قنن الجبال ، واكتسحت فى طريقها المراكز الإسلامية وأتت على ما كان لها من مدنية وثقافة ، تاركين وراءهم من تلك البلاد صحراوات خالية وأطلالا بالية ، وكانت تقوم فيها قبل ذلك القصور الملكية الفخمة المحاطة بالحدائق الغناء والمروج الخضراء . وبعد أن تحول جيش المغول عن مدينة هراة ، خرج أربعون من أهلها من مخبئهم ، فرارا من الموت . وكان هؤلاء التاعسون هم البقية الباقية من سكانها الذين يربو عددهم على مائة ألف ، وقفوا موطدين مقنعى رءوسهم ، يبكون أطلال مدينتهم ، وقد أخذ الفزع والهلع من نفوسهم كل مأخذ . وفى مدينة بخارى ، التى اشتهرت برجال العلم والورع ، اتخذ المغول من مساجدها المقدسة اصطبلات لخيولهم ، ومزقوا المصاحف ووطئوها بدوابهم ؛ كما سبوا من نجا من الأهلين من القتل ، وجعلوا مدينتهم رمادا تذروه الرياح . وكذلك كان مصير مدينتى سمرقند وبلخ وغيرهما من أمهات مدن آسيا الوسطى ، التى كانت من قبل فخر الحضارة الإسلامية ، وموطن الأولياء وكعبة العلوم ، كما كان ذلك أيضا مصير بغداد ، التى ظلت قرونا عدة حاضرة الدولة العباسية .

وإن المؤرخ المسلم ليقشعر بدنه حين يروى هذه الفظائع ، حتى إن ابن الأثير قد أخذته نفس تلك القشعريرة حين وصف لنا غارات المغول حيث يقول(†): «لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها ، فأنا أقدم إليه (رجلا) وأؤخر أخرى . فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين ؟ ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت أمى لم تلدنى ، ويا (ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا !)(١)، إلى أن حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ؛ ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعا ، فنقول : هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عقمت الأيام والليالى عن مثلها ، عمت الخلائق وخصت المسلمين . فلو قال قائل منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ؛ فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا مايدانيها . ومن أعظم مايذكرون من الحوادث مافعله بختنصر ببنى إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس . وما البيت المقدس بالنسبة إلى ماخرّب هؤلاء الملاعين من البلاد التى كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس ؟ وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا ؟ فإن أهل مدينة واحدة ممن قُتلوا أكثر من بنى إسرائيل . ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة »(٢) .

ولكن لم يكن بد من أن ينهض الإسلام من تحت أنقاض عظمته الأولى وأطلال مجده التالد ، كما استطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه . ويرجع الفضل فى ذلك إلى نشاط الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعاب أشدها لمناهضة منافسين قويين كانا يحاولان إحراز قصب السبق فى ذلك المضمار . وليس هناك فى تاريخ العالم نظير لذلك المشهد الغريب ، وتلك المعركة الحامية التى قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام ، كل ديانة تنافس الأخرى ، لتكسب قلوب أولئك الفاتحين

(†) ذكر ابن الأثير ذلك عند كلامه على حوادث سنة ٦١٧ هـ

(١) سورة ١٩ آية ٢٣

(٢) ابن الأثير جـ ١٢ ص ٢٤٣ — ٢٤٤

القساة ، الذين داسوا بأقدامهم رقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين فى جميع الأقطار والأقاليم .

وقبل أن نشرع فى سرد أخبار هذا النزاع ، نرى من الحسن ، لكى تتفهم ما يأتى بإيجاز ، أن نلقى نظرة على أجزاء إمبرطورية المغول بعد وفاة جنكيزخان عند ما انقسمت أقساما أربعة بين أولاده الأربعة . فقد خلفه أجتاى (†) Ugutay ، ثالث أولاده ، الذى خلف أباه خاقان ، وقد آل إليه الجزء الشرقى من الإمبرطورية ، الذى ضم إليه قوبيلاى فيما بعد ، كل أرجاء بلاد الصين . وملك جَغَطاى ثانى أولاد جنكيزخان الجزء الأوسط ، وحكم باتو بن جوجى أكبر أولاد جنكيزخان الجزء الغربى ، وتلقب بلقب خان القبيلة الذهبية The Khan of the Golden Horde ، وحكم تولوى رابع أولاد جنكيزخان بلاد فارس التى ضم إليها هولاكو ، مؤسس أسرة إيلخانات المغول فى هذه البلاد ، جزءا عظيما من آسيا الصغرى .

كانت الشامانية Shamanism الديانة القديمة للمغول ، الذين كانوا ، على رغم اعترافهم بإله عظيم قادر ، لا يؤدون له الصلوات ، وإنما كانوا يعبدون طائفة من الآلهة المنحطة ، وبخاصة تلك الآلهة الشريرة التى كانوا يتقدمون اليها بالقرابين والضحايا ، لما كانوا يعتقدونه فيها من السلطان والقدرة على إيذائهم ، كما كانوا يعبدون أرواح أجدادهم القدامى التى كانوا يعتبرونها ذات سلطان عظيم على حياة أعقابهم . ولكى يوفق المغول بين هذه القوى السماوية والعالم السفلى ، كانوا يلجئون إلى القسيسين ، وهم الشامان Shamans والسحرة ، أو إلى رجال الطب ، الذين كانوا يعتبرونهم ذوى نفوذ خفى وسلطان غريب على عناصر الموتى وأرواحهم . ولم يكن دينهم معدودا من تلك الأديان التى تستطيع أن تقاوم طويلا جهود هذه الأديان الكثيرة الأتباع والأنصار ذات اللاهوت المنظم الذى يملك قوة الإقناع وسد حاجات العقل ، وذات الهيئات المنظمة للمعلمين الدينيين . ومن ثم تأثر المغول بمدنيات تلك الشعوب ، وخرجوا عن بربرية بداوتهم الأولى ، حين وجدوا أنفسهم جنبا إلى جنب مع هذه الأجناس ذات الديانات الراقية . وقد اتفق أن كانت الشعوب التى اختلط بها المغول على أثر فتوحاتهم ، تضم بين أفرادها عددا كبيرا من البوذيين والمسيحيين والمسلمين . وقد تنافس أتباع تلك الديانات الثلاث التبشيرية الكبرى لتحويل أولئك الفاتحين إلى دينهم . ولما هدأت ثائرة المغول الذين كانوا يدينون بالشامانية ، وتركوا التخريب والتدمير اللذين امتازت بهما غزواتهم ، ظهروا بمظهر التسامح مع أهالى الديانات الأخرى ، فأعفوا قسيسها ودعاتها من الضرائب ، كما منحوهم الحرية التامة فى إقامة شعائرهم الدينية . فكان قساوسة البوذيين يقومون بمناظرات دينية مع قساوسة المغول الشامانيين فى حضرة جنكيزخان (١٢٠٦ — ١٢٢٧ م) ، كما كان البوذيون والمسيحيون وأئمة المسلمين محل العطف والرعاية فى بلاد مانجوخان (١٢٤٨ — ١٢٥٧ م) وقوبيلاى (١٢٥٧ — ١٢٩٤ م) (١) . وفى عهد هذا الأخير بدأ المغول فى بلاد الصين يذعنون للمؤثرات الفعالة التى أحدثتها البوذية المنتشرة حولهم . حتى إذا

(†) أثار تعيين أجتاى (٦٢٤ — ٦٣٩ هـ = ١٢٢٧ — ١٢٤١ م) خليفة لأبيه جنكيزخان أتباع أخيه جغطاى ، لمخالفة ذلك لتقاليد المغول التى تقضى بأن يعين أكبر الأولاد سنا .

(١) William of Rubruck, pp. 182, 191, c. d'Ohsson, tome ii. p. 488.

جاء القرن الرابع عشر ، يظهر أن الديانة البوذية كانت قد تسلطت على قلوب المغول وأصبحت ذات سلطان عظيم على نفوسهم[١]. ويرجع الفضل فى تحويل الناس إلى البوذية إلى رجال الدين Shamans فى بلاد التبت الذين ظهروا أكثر الناس حماسة فى هذا النشاط الذى يقوم على الدعوة إلى الإسلام . ولا يزال أهالى منغوليا حتى الوقت الحاضر يتمسكون بأهداب هذا الدين ، كما هى الحال عند الكلموك Kalmuks الذين هاجروا إلى الروسيا فى القرن السابع عشر الميلادى .

ومع أن البوذية استطاعت أخيرا أن تجعل لنفسها المكانة العليا فى الجزء الشرقى من إمبراطورية المغول ، لم يكن نفوذ الكنيسة المسيحية بحال قليل الشأن أول الأمر ، فكان يجيش فى نفوس رجالها آمال كبيرة وأطماع بعيدة فى تحويل المغول إلى هذا الدين . ولقد حمل المبشرون النسطوريون فى القرن السابع الميلادى تعاليم الدين المسيحى من الغرب إلى الشرق ، عبر آسيا حتى شمال الصين . وكانت جماعاتهم المبشرة لا تزال تقيم فى هذه البلاد فى القرن الثالث عشر . ويزعم بعض المؤرخين أن القسيس يوحنا المشهور Prester John ، الذى كان يحيط باسمه كثير من أساطير القرون الوسطى ، كان رئيس القرايت Kara'its ، وهم قبيلة مسيحية تتارية كانت تعيش جنوبى بحيرة بيكال . ولما غزا جنكيزخان هذه القبيلة ، تزوج بإحدى بنات رئيسها إذ ذاك ، على حين تزوج ابنه أجتاى من نفس هذه الأسرة . وأما كيوك بن أجتاى فإنه ، وإن لم يعتنق الدين المسيحى ، أظهر كثيرا من العطف على ذلك الدين الذى كان يدين بعقائده رئيس وزرائه وأحد كتابه . وكان القساوسة النسطوريون محل رعايته السامية ، فى الوقت الذى استقبل فى بلاطه السفراء من قبل البابا إنوسنت الرابع .Innocent IV [٢] . وكانت السلطتان المسيحيتان فى الشرق والغرب تتطلعان إلى المغول ، لمساعدتهما فى حروبهما مع المسلمين . وكان هيتون Hayton ملك أرمينية المسيحى هو العامل الرئيس فى إقناع مانجو خان (١٢٤٨ — ١٢٥٧ م) بإرسال تلك الحملة التى دمرت بغداد بقيادة هولاكو[٣] (١٢٥٦ — ١٢٦٥ م) ، الذى حملته زوجته المسيحية بما كان لها من نفوذ ، على أن يظهر عطفا شديدا للمسيحيين ، وللنساطرة منهم بوجه خاص . ومن ثم اعتنق كثير من المغول الذين احتلوا بلاد أرمينية وجورجيا ، الدين المسيحى ، وعُمّدوا على أيدى مسيحيى هذه البلاد [٤] . وقد ولدت الأقاصيص العجيبة التى كانت تشيد بذكر عظمة القسيس يوحنا ومفاخره ، والتى ألهبت خيال أهالى أوربا الوسطى ، الاعتقاد بأن المغول كانوا على المسيحية . وكان يزيد من قوة هذا الاعتقاد تلك الأخبار الباطلة التى وصلت إلى أوربا عن تحول بعض أمراء المغول على اختلافهم إلى المسيحية ، وعن تحمسهم فى الدعوة لهذا الدين والانتصار له . وكان من أثر ذيوع هذه الأخبار أن أرسل القديس لويس St. Louis وليم روبرك William of Rubruck

(١) De Guignes, tome iii. pp. 200, 203.

(٢) Id. tom iii. p. 115.

(٣) Id. p. 125. Cahun, p. 391.

(٤) Klaproth, p. 204.

سفيرا من قبله إلى الخان الأعظم يستحثه على مواصلة جهوده لنشر الدين المسيحى ؛ على أنه سرعان ما تبين أن هذه الأخبار لم تستند إلى أى أساس من الصحة ، على الرغم من أن وليم روبرك قد وجد أن المسيحية كانت محل التسامح فى بلاط مانجوخان ، وأن اعتناق عدد قليل من المغول هذا الدين ، قد جعل القسيسين المسيحيين يعقدون الآمال على مواصلة نشر هذا الدين . ولكن ظهور الاختلافات الدينية بين المسيحيين من اللاتينيين والإغريق والنسطوريين والأرمن ، وامتدادها إلى وسط معسكر المغول ذاته ، قد جعل الأمل ضئيلا فى إحراز نجاح أكبر من ذلك النجاح . ومن المحتمل أن هذه الحاجة الملحة إلى قيام الاتحاد بين المبشرين بالمسيحية هى التى جعلت نجاح جهودهم بين المغول أمرا يسيرا جدا ، حتى إنه بينما كانت الطوائف المسيحية تتناحر فيما بينها ، كان كل من البوذية والإسلام يوطد قدمه فى بلاد المغول . وقد دفعت أوهام بابا رومة ودعاويه العريضة أولئك الفاتحين لنصف العالم ، والشديدى الأنفة والكبرياء ، أن يعدلوا عما كانوا يحبُون به رسله من ذلك العطف الذى مالوا إلى إظهاره لهم أول الأمر ، كما ساعد غير ذلك من الأسباب على إخفاق حركة التبشير التى قامت بها الإرساليات الرومانية (١).

وأما النسطوريون الذين كانوا قد ظهروا فى ذلك المضمار أولا ، فيظهر أنهم بلغوا درجة من الانحطاط والجمود أعجزتهم عن الاستفادة من هذه الحال . ويقول وليم روبرك (٢) عن النسطوريين فى بلاد الصين ، إنهم كانوا شديدى الجهل ، وإنهم لم يستطيعوا حتى فهم كتب صلواتهم التى كانت مدونة بالسريانية . كما يرميهم هذا الكاتب بشرب الخمر والفسق والجشع ، ثم يوازن بين حياتهم وحياة القسيسين من البوذيين موازنة ليست فى مصلحتهم البتة . أما أسقفهم فكان لا يزورهم إلا لماما ، حتى لقد حدث أنه لم يزرهم إلا مرة واحدة فى مدى خمسين سنة ؛ وكان فى هذه المناسبات يقوم برشم جميع الأطفال من الذكور حتى الأطفال الذين كانوا لا يزالون فى المهد . ويقول وليم روبرك أيضا إن القسيسين كانوا يتجرون بالمناصب الدينية ، ولا يبالون بجمع الثروات من وراء تعاليم طقوس الكنيسة ، ويؤثرون جمع المال على نشر تعاليم الدين (٣).

وفى الأجزاء الغربية من إمبراطورية المغول ، حيث تطلع المسيحيون إلى هذه القوة الناشئة لتساعدهم فى الحروب التى شنوها على المسلمين وتضمن لهم امتلاك الأراضى المقدسة ، كان الحلف الذى أبرم بين المسيحيين وإيلخانات المغول فى فارس قصير الأمد ، إذ أن هذه الانتصارات التى أحرزها الظاهر بيبرس سلطان

---

(١) D'Ohsson, tome ii. pp. 226—7. Cahun, p. 408, sq.

(٢) يقول يول Yule عن هذا الكاتب : وقد أمدنا بعبارة تقدح فى آداب رجال كنيستهم وأخلاقهم ، وهى أحق بالتقدير من أمثال تلك الاحكام التى ينظر إليها كما ينظر إليها المتدقون عادة ، إذ أن عبارة Rubruquis تجعلنا نميل إلى الظن بأن الذى كتبها كان رجلا قد استكمل ضروب الأمانة والذكاء .

Cathay and the Way Thither, vol. i. p. xcviii.

(٣) William of Rubruck, pp. 158-9.

المماليك فى مصر (١٢٦٠—١٢٧٧م) ، ومحالفته مع بركة خان[†] (١٢٥٦—١٢٦٦ م) قد دفع إيلخانات فارس إلى الاهتمام بمصالحهم الخاصة . وقد أساء إلى سمعة المسيحيين فى غرب آسيا ما ارتكبه إخوانهم فى الدين فى دمشق وفى غيرها من مدن الشام من الفظائع فى تلك المدة القصيرة التى أقاموا بين ظهرانيهم مغول فارس الذين أولوهم عطفهم ورعايتهم[1].

وطالما ارتكب أتباع هاتين الديانتين كثيرا من ضروب الوحشية فى أثناء ذلك النضال الذى قام بين المغول والمسلمين فى بلاد الشام . ولنضرب للقارىء مثلا عما حدث فى منتصف القرن الثالث عشر ، كما رواه الجوزجانى الذى يزعم أنه سمع هذه الحكاية حين كان فى دلهى . على لسان رجل يدعى السيد أشرف الدين ، وكان قد قدم هذه المدينة من سمرقند : « ومن ثم حكى السيد الأجل أن أحد المسيحيين فى سمرقند دخل فى ساحة الإسلام ، لحاطه أهل الورع من المسلمين فى هذه المدينة بالرعاية ، وأحلوه من أنفسهم محل الاحترام والإجلال ، ووالوا عليه الخيرات . وإذا بأحد رجالات المغول من الكفار ببلاد الصين يصل إلى سمرقند ، وكان كبير النفوذ عظيم الجاه ، كما كان ذلك اللعين يميل إلى المسيحية ، لجاء المسيحيون فى هذه المدينة إلى ذلك المغولى ، وبثوه شكواهم قائلين : « إن المسلمين يحرضون أولادنا على التحول عن المسيحية ، ويحولون بينهم وبين المسيح عليه السلام ، ويدفعونهم إلى اعتناق دين المصطفى عليه السلام . وإذا لم يسد هذا الباب فى وجه المسلمين تحول أبناؤنا جميعا عن المسيحية . فدبر بما لك من قوة وسلطان حلا لقضيتنا . فأمر المغولى بإحضار الشاب الذى تحول إلى الإسلام ، وحاولوا إغراءه بالعدول عن دينه الجديد بالرفق والمال والثراء ، ولكنه أبى أن يرتد عن دينه ، وأن ينزع عن قلبه وروحه هذا الثوب الجديد ، وهو عقيدة الإسلام . ومن ثم ضاق الحاكم المغولى بهذا الشاب ، وأخذ يتحدث عن العقاب الصارم ، فسلط كل ما فى استطاعته من ألوان العقاب أو ما دبره من صنوف القسوة على هذا الشاب الذى لم يرتد عن دينه بسبب حماسته البالغة لدين الإسلام . ولم تستطع ضربة ذلك الكافر العنيد أن تجعل جرعة الدين اللذيذة تفلت من يده . ولما ظل الشاب ثابتا على الدين الحق ، ولم يكترث للوعد والوعيد اللذين لقيهما من هذه الجماعة المفسدة ، أمر المغولى اللعين بإنزال العقاب بهذا الشاب أمام الملأ ؛ وقد فارق هذا العالم وهو فى سعادة الدين — أجزل الله له المثوبة والأجر ! وكان من أثر ذلك أن حل اليأس والخوف بجماعة المسلمين فى سمرقند ، ورفعت ظلامة مدعمة بشهادة الزعماء وثقات المسلمين الذين كانوا يقيمون بسمرقند ، وتقدمنا بهذه الظلامة إلى معسكر بركة خان ، وقدمنا بين يديه وصفا لسيرة المسيحيين وأخلاقهم فى تلك المدينة . وقد تجلت هذه الحماسة للدين الإسلامى فى ذهن ذلك الحاكم على أنه دين مثالى ، وأصبح الدفاع عن الحق ذا سلطان عظيم على ميوله . وبعد أيام تلقى بركة خان هذا السيد بمظاهر التكريم ، واختار طائفة من الأتراك والأشخاص الذين يوثق بهم من زعماء المسلمين ،

(†) ملك القبيلة الذهبية .

(١) المقريزى : (٢) الجلد الأول ، القسم الأول ص ٩٨ ، ١٠٦ .

وأمرهم بأن يذبحوا جماعة المسيحيين الذين كانوا قد ارتكبوا ذلك الظلم الشنيع ، وأن يبعثوا بهم إلى الجحيم . ولما صدر هذا الأمر إليهم ، احتفظوا به ، حتى إذا اجتمعت تلك الطائفة البائسة فى الكنيسة ، قبضوا عليهم جميعا ، وقتلوهم عن آخرهم ، وبعثوا بهم إلى جهنم ، وأحالوا الكنيسة أطلالا بالية مرة أخرى[١] . ويظهر أنه لم يكن من اليسير أن منافسة الإسلام فى مستهل الحكم المغولى غيره من الديانات القوية كالبوذية والمسيحية كانت عملا بعيد المنال ؛ إذ أن المسلمين كانوا قد قاسوا أكثر من غيرهم من ذلك الاضطراب الذى صحب غارات المغول ؛ وإن معظم هذه المدن التى كانت حتى ذلك الحين مجمع السلطة الدينية وكعبة العلم فى الإسلام فى القارة الآسيوية ، قد أصبح معظمها أطلالا دارسة ، حتى إن الفقهاء وأئمة الدين الأتقياء كان نصيبهم القتل أو الأسر[٢] . ومن بين حكام المغول الذين عرفوا عادة بتسامحهم نحو الأديان كافة جماعة كانت تظهر الكراهية للدين الإسلامى على درجات متفاوتة . فقد أمر جنكيزخان بقتل كل من يذبح الحيوانات على النحو الذى قرره الإسلام ، ثم سار على نهجه قوبيلاى ، فعين مكافآت لكل من دل على من يذبح بهذه الطريقة ، واضطهد المسلمين اضطهادا عنيفا دام سبع سنين ، حتى إن كثيرا من المعدمين وجدوا فى سن ذلك القانون فرصة لجمع الثروة ، واتهم الأرقاء مواليهم بهذه التهمة لكى يحصلوا على حريتهم[٣] . وقد عانى المسلمون أقسى ضروب العسف والشدة فى عهد كيوك (١٢٤٦ — ١٢٤٨ م) الذى ألقى بزمام أمور الدولة إلى وزيريه المسيحيين ، والذى امتلأ بلاطه بالرهبان من المسيحيين[٤] .

وقد أورد الجوزجانى ، وهو مؤرخ معاصر ، العبارة التالية ، وهى تبين نوع المعاملة التى تعرض لها أحد فقهاء المسلمين فى بلاط كيوك : « فقد روى بعض الثقات أن كهنة البوذية كثيرا ما كانوا يوغرون صدر ذلك الأمير على المؤمنين ويحملونه على اضطهادهم . وكان فى هذه البلاد أحد أئمة المسلمين ، وهو نور الدين الخوارزمى . . . وقد التمس من كيوك بعض العلمانيين وقساوسة المسيحيين وفريق من كهنة البوذية من عبدة الأوثان ، أن يستدعى ذلك الإمام ليناظروه ويحاجوه ، طالبين منه إقامة الحجة على تفوق الدين الإسلامى وإثبات رسالة محمد — وإلا كان مصيره القتل إذا أعيته الحجة . وقد أجابهم الخان إلى طلبهم . وبعث فى طلب الإمام . وطرحت على بساط المناقشة مسألة صحة دعوة محمد النبوة وسلوكه فى حياته ، مع موازنته بسلوك غيره من الأنبياء . ثم لما كانت أدلة هؤلاء الملاعين ضعيفة ، خالية من قوة الحق ، نفضوا أيديهم من

---

(١) الجوزجانى ص ٤٤٨ — ٤٥٠. Raverty, pp. 1288-90.

(٢) وقد بلغ من سوء المعاملة الوحشية التى لقيها هؤلاء أن راكبى الخيول من أهالى الصين كانوا إذا مرضوا أشباحا ، أظهروا البشر والحبور فى صلف وإعجاب بعرض صورة تمثل رجلا مسنا ذا لحية بيضاء ، يجره حصان قد ربط ذيله برقبة هذا الرجل . وإنما كان هؤلاء يفعلون ذلك ليظهروا للناس كيف كان يتصرف فرسان المغول فى معاملتهم للمسلمين (Howorth, vol. i. p. 159.)

(٣) Raverty, p. 1146, Howorth, vol. i. pp. 112, 273.

ولم يلغ هذا القانون إلا بعد أن امتنع التجار المسلمون من زيارة البلاط وتأثرت التجارة من ذلك القانون .

(٤) Howorth, vol. i. p. 165.

تلك المساجلة بالبراهين والحجج ورسموا خطة من خطط الظلم والسخط على صفحات ذلك التدبير الذى عقدوا العزم على تنفيذه ، فسألوا كيوك خان أن يأمر هذا الإمام بأن يسجد سجدتين وفق قواعد الشريعة الإسلامية وتعاليمها ، حتى تتبين أمامهم وأمام الخان حركات عبادتهم غير المستملحة . فأمر كيوك ذلك الإمام والمسلم الآخر الذى كان معه بأداء الصلاة حسب الأوامر الدينية المعروفة عند المسلمين . وفلما خر الإمام الورع والمسلم الذى كان معه على الأرض ساجدين ، قام بعض الكفار الذين دعاهم كيوك ، وأسرفوا فى إيذائهم ، وأخذوا يضربون رءوسهم فى الأرض فى شدة وعنف ، واقترفوا معهم بعض الأعمال المخزية . على أن ذلك الإمام الورع لم يأبه لكل هذا العنت والمضايقة ، وأدى الصلاة وآدابها من غير أن يقطعها . ولما انتهى الإمام من صلاته وسلم ، شخص ببصره إلى السماء وقال (أدعوا ربكم تضرعا وخفية)[١] . ثم طلب إلى كيوك أن يأذن له بالانصراف ؛ وعاد إلى بيته[٢] .

وقد اضطهد أرغون (١٢٨٤ — ١٢٩١ م) رابع إيلخانات المغول فى فارس ، المسلمين فى بلاده ، وصرفهم عن كافة المناصب التى كانوا يشغلونها فى القضاء والمالية ؛ كما حرم عليهم الظهور فى بلاطه[٣] .

على أنه على الرغم من جميع المصاعب ، أذعن هؤلاء المغول والقبائل المتبربرة[٤] آخر الأمر لدين هذه الشعوب التى ساموها الخسف وجعلوها فى مواطىء أقدامهم . واسوء الحظ ألا يلقى التاريخ إلا ضوءا يسيرا على تقدم حركة الدعوة الإسلامية هذه ، ولم يبق لدينا إلا قليل من البيانات الضافية عن إسلام بعض أشخاص كانوا أعظم شأنا . ولا بد أن يكون هناك كثير من أنصار النبى قد انتشروا فى طول إمبراطورية المغول وعرضها ، مجاهدين فى طى الخفاء لجذب الكفار إلى حظيرة الإسلام . ففى عهد اجتاى (١٢٢٩ - ١٢٤١ م) نقرأ عن إسلام بوذى يدعى Kurguz وكان حاكما على بلاد الفرس من قبل المغول[٥] . وفى عهد تيمور خان (١٣٢٣ — ١٣٢٨ م) كان آننداAnanda حفيد قوبيلاى (١٢٥٧ — ١٢٩٤ م) وأمير كان سو مسلما متحمسا . كما دفع كثيرا من أهل تانجوت Tangut وعدداً كبيرا من الجنود الذين كانوا تحت إمرته إلى اعتناق هذا الدين . وعلى الرغم من استدعائه الى بلاط تيمور وبذل الجهد فى ارتداده الى البوذية ، أبى الا التمسك بدينه الجديد ، فألقى به فى غياهب السجن ، ولكنه لم يلبث أن أطلق سراحه بعد قليل خشية ثورة أهالى تانجوت الذين كانوا شديدى التعلق به[٦] .

ويقرر مؤلف كتاب « منتخب التواريخ » أن آننداً بنى فى خان بالغ (وهى بكين الحالية) أربعة

(١) سورة الأعراف آية ٥٥

(٢) الجوزجانى ص ٤٠٤ — ٤٠٥ ؛ Raverty, pp. 1160, sqq.

(٣) De Guignes, vol. iii. p. 265.

(٤) وفى القرن الثالث عشر كان ثلاثة أرباع المغول أتراكا (Cahun, p. 279.)

(٥) c. d'Ohsson, vol. iii. p. 121.

(٦) رشيد الدين ص ٦٠٠ — ٦٠٢

مساجد تسع مليون شخص فى صلاة الجمعة ؛ على أنه ليس ثمة ما يؤيد هذه الرواية أو غيرها من الروايات التى رواها هذا الكاتب عن انتشار الإسلام فى بلاد الصين ، من حيث أنه يمثل آنندا خلفا لتيمور خان على عرش إمبراطورية المغول ، ثم يمدنا بعبارة خرافية صرفة عن خلفائه الذين يشير الى أن عددا منهم أعلن اسلامه ، مع أنه ليس لأحد من هؤلاء الخمسة وجود إلا فى مخيلة الكاتب(١) .

وكان بركة خان (١٢٥٦—١٢٦٧م) أول من أسلم من أمراء المغول ؛ وكان رئيسا للقبيلة الذهبية فى الروسيا بين سنتى ١٢٥٦و١٢٦٧ م (٢). وقد قيل فى سبب إسلامه إنه تلاقى يوما مع عير للتجارة آتية من بخارى . ولما خلا بتاجرين منهم سألهما عن عقائد الإسلام ، فشرحاها له شرحا مقنعا انتهى به إلى اعتناق هذا الدين والإخلاص له . وقد كاشف أصغر أخوته أول الأمر عن تغييره لدينه واعتناقه الإسلام ، وحبب إليه أن يحذو حذوه ، ثم أعلن بعد ذلك اعتناقه لهذا الدين(٣). على أن الجوزجانى قد ذكر أن بركة خان اعتنق الإسلام منذ طفولته . ولما شب و بلغ سن التعلم ، حفظ القرآن على أحد علماء مدينة خوقند (٤) Khodjand . ويذكر نفس المؤلف (الذى جمع تاريخه فى حياة بركة خان) أن كل جيشه كان مسلما ، وكما يذكر بعض الثقات أنه قد جرت العادة بأن يحمل كل فارس فى جيشه سجادة للصلاة ، حتى إذا ما حان وقت الصلاة اشتغلوا بصلاتهم . كما لم يكن في جيشه شخص واحد يتعاطى أى مسكر . وكانت الطبقة الاجتماعية الراقية فى بلاده تضم مشاهير العلماء من المفسرين ورجال الحديث والفقهاء وعلماء الكلام . وكان فى حوزته عدد كبير من كتب الدين ؛ كما كان معظم مجالسه ومناظراته مع العلماء . وكانت المناظرات الدينية منها تشغل أكثر مجالسه ، وكان هو سنيا مغاليا شديد التمسك بدينه(٥) . وقد دخل بركة خان فى حلف مع ركن الدين الظاهر بيبرس (١٢٦٠ ١٢٧٧ م) ، سلطان المماليك فى مصر ، الذى بدأ تلك العلاقات الوثيقة من جانبه ؛ فقد احتفى بشرذمة من جند القبيلة الذهبية يبلغ عددها المائتين . ولما لاحظ هؤلاء الجند العداء المستحكم بين ملكهم و بين هولاكو فاتح بغداد وهم الذين كانوا ينضوون تحت لوائه ، فروا إلى سورية ، حيث يممون منها شطر مصر ، وهناك استقبلوا بكل مظاهر الحفاوة والتكريم فى بلاط بيبرس ، الذى أقنعهم بصحة الدين الإسلامى واعتناقه(٦). وكان بيبرس نفسه فى حرب مع هولاكو ، وقد هزمه بيبرس وأخرجه من سورية

Blochet, pp. 74—7. (١)

(٢) ومن الأهمية أن نلاحظ أن نجم الدين مختارا الزاهدى وضع لبركة خان فى سنة ١٢٦٠ م رسالة تؤيد بالبراهين رسالة النبى الدينية وتدحض ما ذكره المنكرون لهذه الرسالة ، وتمدنا بوصف للمناظرات التى قامت بين المسيحيين والمسلمين .
(Steinschneider, pp. 63-4.)

(٣) أبو الفداء جـ ٢ ص ١٨١

(٤) الجوزجانى ص ٤٤٧ . Raverty, pp. 1283-4.

(٥) الجوزجانى ص ٤٤٧ . Raverty, pp. 1285—6.

(٦) المقريزى (٢)؛ جـ ١ ص ١٨٠ — ١٨١ ، ١٨٧

منذ أمد قريب . وقد أرسل بيبرس اثنين من المغول اللاجئين وغيرهم من الرسل يحملون كتابا إلى بركة خان . وقد نقل هؤلاء عند عودتهم إلى مصر ، أن لكل أمير وأميرة فى بلاط بركة خان إماما ومؤذنا خاصا ، وأن الأطفال كانوا يحفظون القرآن فى المدارس[١]. وكان من أثر هذه العلاقات الودية التى قامت بين بيبرس وبركة خان ، أن كثر الوافدون من رجال القبيلة الذهبية على مصر حيث اتخذوا الإسلام دينا لهم[٢].

كان الإسلام أقل انتشارا فى بلاد الفرس ، حيث أسس هولاكو أسرة إيلخانات المغول . ولكى يقوى على صد هجمات بركة خان وسلطان مصر ، تحالف هولاكو مع القوات المسيحية فى الشرق كملك أرمينية والصليبيين ، وكانت زوجته المحببة إليه مسيحية ، فعملت على استمالة زوجها نحو إخوانها فى الدين ، كما تزوج ابنه أباقا خان (١٢٦٥ — ١٢٨١م) من ابنة إمبراطور القسطنطينية . ومع أن أباقا نفسه لم يتخذ المسيحية دينا له ، امتلأ بلاطه بالقسيسين من المسيحيين ، وأرسل السفراء إلى بعض أمراء أوربا ؛ فكان يراسل القديس لويس ملك فرنسا ، وشارل ملك صقلية ، وجيمس ملك أرغونة يطلب إليهم التحالف معه على المسلمين ، كما أرسل لهذا الغرض أيضا بعثا من ستة عشر سفيرا من المغول إلى مجمع ليون سنة ١٢٧٤ م ، حيث دخل رئيس أولئك السفراء فى المسيحية وعمد مع بعض رفاقه . وقد طمع المسيحيون ، فعلقوا الآمال على اعتناق أباقا خان المسيحية ؛ ولكن الأيام أظهرت أن تلك الآمال لم تكن إلا سرابا خادعا . وكان أخوه تكودار أحمد[٣] (١٢٨٢ — ١٢٨٤م) ، الذى اعتلى العرش من بعده ، أول إيلخانات المغول الذين اعتقدوا الإسلام فى فارس . وقد شب على المسيحية ، لأنه (كما يحدثنا بذلك كاتب مسيحى من معاصريه[٤]) ، « تعمد فى صباه وتسمى باسم نيقولا ، ولكنه دان بالإسلام عند ما بلغ سن الرشد عن طريق اتصاله بالمسلمين الذين كان كلفا بهم ، وأصبح مسلما دينا . ولما ارتد عن المسيحية ، رغب فى أن يسمى محمدا خان ، وبذل قصاراه فى تحويل كافة التتار إلى دين محمد وعقائده . ولما أظهروا صلابة فى الارتداد عن دينهم ، لم يجرؤ على حملهم على اعتناق الإسلام ، وإنما لجأ إلى ذلك عن طريق بذل العطايا والمنح وألقاب الشرف ؛ حتى إن عددا كبيرا من التتار دخل فى عهده فى عقيدة المسلمين » . وقد بعث تكودار أحمد ينبأ إسلامه إلى سلطان المماليك فى مصر (قلاوون) فى ذلك الكتاب : « إلى سلطان مصر . أما بعد ، فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ونور هدايته ، قد كان أرشدنا فى عنفوان الصبا وريعان الحداثة ، إلى الإقرار بربوبيته والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، بصدق نبوته وحسن الاعتقاد فى أوليائه الصالحين من عباده وبريته (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام)[٥] . فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة

(١) المقريزى (٢) : ج ١ ص ٢١٥

(٢) نفس المصدر ص ٢٢٢

(٣) أو نيكودار على ما يسميه وصاف الحضرة ، وقد سمى أحمد بعد اعتناقه الاسلام .

(٤) Hayton. (Ramusio, tom. ii. p. 60, c.)

(٥) سورة ٦ آية ١٢٥

الدين وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين ، إلى أن أفضى إلينا بعد أبينا الجليل وأخينا الكبير نوبة الملك ، فأضفى علينا من جلابيب ألطافه ولطائفه ، ما حقق به آمالنا فى جزيل آلائه وعوارفه ، وجلى هذه المملكة علينا وأهدى عقيلتها إلينا . فاجتمع عندنا فى قوريلتاى (Quriltay على الأصح) المبارك — وهو المجتمع الذى تقدح فيه الآراء — جميع الاخوان والأولاد والأمراء الكبراء ، ومقدمو العساكر وزعماء البلاد ؛ واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير ، فى إنفاذ الجم الغفير من عساكرنا التى ضاقت الأرض برحبها من كثرتها ، وامتلأت الأرض رعبا من عظيم صولتها وشديد بطشها ، إلى تلك الجهة ، بهمة تخضع لها صم الأطواد ، وعزمة تلين لها الصم الصلاد . ففكرنا فيما تمخضت زبد عزائمهم عنه واجتمعت أهواؤهم عليه ، فوجدناه مخالفا لما كان فى ضميرنا من اقتفاء الخير العام ، الذى هو عبارة عن تقوية شعار الإسلام ، وأن لا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا إلا ما يوجب حقن الدماء وتسكين الدهماء ، وتجرى به فى الأقطار رخاء نسائم الأمن والأمان ، ويستريح به المسلمون فى سائر الأمصار فى مهاد الشفقة والإحسان ، تعظيما لأمر الله وشفقة على خلق الله ، فألهمنا الله تعالى إطفاء تلك النائرة ، وتسكين الفتن الثائرة ، وإعلام من أشار بذلك الرأى بما أرشدنا الله إليه : من تقديم ما يرجى به من شفاء مزاج العالم من الأدواء ، وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء . وإننا لا نحب المسارعة إلى هز النصال للنضال ، إلا بعد إيضاح الحجة ، ولا نبادر لها إلا بعد تبيين الحق وتركيب الحجة ، وقوى عزمنا على ما رأيناه من دواعى الصلاح ، وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح . إذ كان الشيخ قدوة العارفين (كمال الدين عبد الرحمن) ، الذى هو نعم العون لنا فى أمور الدين ، فأرسلناه رحمة من الله لمن (لبى) دعاه ، ونقمة على من أعرض عنه وعصاه وأنفذنا أقضى القضاة قطب (الملة و) الدين . والأتابك بهاء الدين ، اللذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة ، ليعرفوهم طريقتنا ، ويتحقق عندهم ما ينطوى عليه لعموم المسلمين جميل نيتنا ؛ وبيّنا لهم أنا من الله تعالى على بصيرة ، وأن الإسلام يجُبّ ما قبله ، وأنه تعالى ألقى فى قلوبنا أن نتبع الحق وأهله . . . فإن تطلعت نفوس إلى دليل تستحكم بسببه دواعى الاعتماد ، وحجة يثقون بها من بلوغ المراد ، فلينظروا إلى ما ظهر من أمرنا مما اشتهر خبره ، وعم أثره . فإنا ابتدأنا بتوفيق الله بإعلاء أعلام الدين وإظهاره ، فى إيراد كل أمر وإصداره ، تقديما لناموس الشرع المحمدى ، على مقتضى قانون العدل الأحمدى ، إجلالا وتعظيما ، وأدخلنا السرور على قلوب الجمهور ، وعفونا عن كل من اجترح سيئة واقترف ، وقابلناه بالصفح ، وقلنا : عفا الله عما سلف ؛ وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس ، وعمارة بقاع الدين والربُط الدوارس ؛ وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القائمة إلى مستحقيها بشروط واقفيها . . . وأمرنا بتعظيم أمر الحجاج ، وتجهيز وفدها ، وتأمين سبلها ، وتيسير قوافلها ؛ وإنا أطلقنا سبيل التجار المترددين على تلك البلاد ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم . وهو يلتمس مخالفة سلطان مصر ، وبحيث تعمر تلك الممالك وتيك البلاد ، وتسكن الفتنة الثائرة ، وتغمد السيوف الباترة ، وتحل العامة أرض

الهويني، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهون ». [١] [†]

وإن من يدرس تاريخ المغول ليرتاح عند ما يتحول فجأة من قراءة ما اقترفوه من الفظائع وما سفكوه من الدماء، الى أسمى عواطف الإنسانية وحب الخير، التي أعلنت عن نفسها في تلك الوثيقة التاريخية التي كتبها تكودار أحمد إلى سلطان المماليك في مصر، والتي يدهش الإنسان لصدورها من مثل ذلك المغولي.

وقد أحفظ تكودار أحمد واضطهاده المسيحيين، المغول الذين كانوا شديدي الاتصال بهم برغم مخالفتهم لهم في الدين، وشكوه الى قوبيلاي خان، متهمين إياه بأنه خالف بذلك سنن أجداده. وقد قامت في وجهه ثورة على رأسها ابن أخيه أرغون الذي دبر قتله، ثم خلفه على العرش. وفي أثناء حكم أرغون (١٢٨٤ — ١٢٩١م) القصير، استرد المسيحيون مكانتهم من جديد، على حين لم يكن بد من أن يلقى المسلمون الاضطهاد، فصرفوا عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها في القضاء والمالية، وحرم عليهم الظهور في بلاطه [٢].

وقد ظل خلفاء تكودار أحمد على وثنيتهم، حتى دخل غازان (١٢٩٥ — ١٣٠٤ م) سابع الإيلخانات وأعظمهم شأنا، في الدين الإسلامي في سنة ١٢٩٥م، وجعله دين الدولة الرسمي في فارس. وفي عهد إيلخانات المغول الثلاثة الأخيرين الذين سبقوا غازان[§]، أمل المسيحيون آمالا كبارا في تحويل الأسرة الحاكمة في فارس إلى الدين الإسلامي، تلك الأسرة التي أظهرت نحوهم عطفا شديدا، وأسندت اليهم كثيرا من مناصب الدولة الهامة. وكان بيدو خان، سلف غازان، الذي كان رأس الفتنة في فارس، والذي جلس على العرش في سنة ١٢٩٥ م بضعة أشهر فقط، قد آثر الدين المسيحي، وجهد في وضع العقبات في سبيل انتشار الإسلام بين المغول، فحرم على كل شخص أن يدعو لذلك الدين أو أن ينشر عقائده بينهم [٣].

وقد شب غازان على البوذية قبل اعتناقه الإسلام، وشيد عدة معابد للبوذية في خراسان. وكان يسر كثيرا بمصاحبة الكهنة الذين ينتمون إلى هذا الدين والذين كانوا قد وفدوا إلى فارس في جماعات كبيرة منذ بسط المغول سلطانهم في هذه البلاد[٤]. ويظهر أن غازان كان بطبعه يميل إلى تقليب نظره في المسائل الدينية، لأنه درس عقائد الأديان المختلفة المنتشرة في زمانه، واعتاد أن يقيم مناظرات مع أئمة كل من هذه

(١) وصاف الحضرة ص ٢٣١ – ٢٣٤

(†) وقد ورد هذا الكتاب أيضا في القلقشندي: صبح الأعشى ج ١ ص ٦٥ – ٦٨، وهو مؤرخ في شهر جمادى الأولى سنة ٦٨١ هـ (أغسطس سنة ١٢٨٢ م)، وقد بعث به مع رسولين هما قطب الدين شيرازي وأتابك بهلوان. وقد رد قلاوون على إيلخان المغول بكتاب مؤرخ أول رمضان من السنة نفسها (٣ ديسمبر سنة ١٢٨٢ م)، وقد ورد هذا الكتاب في القلقشندي (ج ٧ ص ٢٣٧ – ٢٤٣).

(٢) De Guignes, vol. iii. pp. 263-5.

(§) هؤلاء هم أرغون (١٢٨٤ – ١٢٩١ م)، وجيخاتو (١٢٩١ – ١٢٩٥ م)، وبيدو (إبريل ـ أكتوبر سنة ١٢٩٥ م)

(٣) C. d'Ohsson, tome iv. pp. 141—2.

(٤) Id. ib. p. 148.

الأديان[١]. وقد أيد رشيد الدين، وزيره العالم ومؤرخ عصره، بالبرهان صحة اعتقاده الإسلام، الذى أخذ على عاتقه المحافظة على شعائره فى حماس وغيرة طوال عهده؛ ولو أن معاصريه (وكثيرا ما ردد الكتاب الذين جاءوا فيما بعد هذه التهمة) أظهروا أنه إنما أذعن لإلحاح بعض الأمراء والمشايخ وتوسلاتهم[٢]. وفضلا عن ذلك، يسأل من يتصدى للدفاع عن عقيدة غازان الدينية : أى شعور خطير يمكن أن يثير اهتمام حاكم فى مثل هذه القوة والنفوذ فيلزمه تبديل دينه ؟ بل قل اهتمام أمير قام أسلافه الوثنيون يغزو العالم ؟، على أن اعتقاد غازان الإسلام قد جذب إليه، بلا مراء، قلوب الفرس عند ما كان فى نزاع مع بيدو على اعتلاء العرش. وقد عدل المغول من المسلمين الذين كانوا فى جيش منافسه عن تأييد دعوى أخيهم فى الدين. وكانت هذه هى الاعتبارات الحق التى تذرع بها نوروز فى حث غازان على قبول دعوته الى الإسلام. وكان نوروز أميرا مسلما، مالأ غازان، وناداه بلقب الأمير، وتنبأ بأنه سيظهر حول ذلك الوقت لحماية عقيدة الإسلام وإعادتها إلى سابق مجدها؛ كما أعلن أنه إذا اعتنق الإسلام، أصبح حاكم بلاد الفرس، وأن المسلمين إذا تخلصوا من نير المغول الوثنيين المؤلم، انتحلوا دعوته واعترفوا بأنه الدين الحق الذى يخلصهم من هلاك محقق، وباركوا آلاته الحربية ودعوا له بالنصر[٣]. وبعد قليل تردد جهر غازان بإسلامه، واقتفى أثره جنده وقواده: ووزع المنح على أفرادها وأهل العلم وزار المساجد ومقابر الصالحين، وظهر فى كل أطواره بمظهر الحاكم المسلم المثالى. وقد شب أخوه أولجايتو Uljāytū الذى خلفه فى سنة ١٣٠٤ م باسم محمد خدابنده Khudàbandah (†) على المسيحية دين أمه، وعُمّد باسم نيقولا. على أنه لم يلبث أن اعتقد الإسلام بعد موت أمه، وهو لا يزال شابا فى مقتبل العمر، وذلك بتأثير زوجته[٤].

(١) Id. ib. p. 365.

(٢) Cahun, p. 434. Id. ib, pp. 148, 354.

(٣) C. d'Ohsson, tome iv. pp. 128, 132.

(†) ذكر ابن بطوطة (ج ١ ص ١٤٣) أن اسمه مختلف فيه. وقد قيل خذا (بضم الخاء) ومعناها بالفارسية اسم الله، وبنده، ومعناها غلام أو عبد. وقيل خربنده (بفتح الخاء) ومعناها بالفارسية الحمار، وبنده ومعناها غلام أو عبد، فيكون عبد الله، أو غلام الحمار. وقد قيل إن سبب تسميته بهذا الاسم الأخير أن التتار يسمون الطفل باسم أول داخل إلى البيت عند ولادته. فلما ولد كان أول داخل الزمال (الزمال صاحب الزاملة، والزاملة ما يحمل عليه من الحيوان. ولعله يريد هنا الحمار) فسمى خربنده. وذكر براون أن غازان لما تولى فر أولجايتو وظل مشردا يرعى الحمير فى إقليم كرمان وهرمز؛ ولذلك أطلق عليه اسم خربنده أو راعى الحمير. وقيل أيضا إن أبوى الطفل كانا يطلقان عليه اسما قبيحا حتى لا تؤثر فيه عيون الحساد، ولذلك سمى خربنده، كما يسمى العرب أبناءهم بفهر وكلب وصخر ومعاوية ونحو ذلك تفاؤلا بأن يكون الولد فى كبره صخرا أو كلبا على عدوه. وقال ابن الوردى (تاريخ بن الوردى. ص ٢٦٤) إن خربنده اسمه خدابنده، وأن ملكه شمل بلاد العراق وخراسان والعراق العجمى وأذربيجان وديار بكر.

(٤) Hammer-Purgstall: Geschichte der Ilchanen, vol. ii. p. 182.

لا يبعد أن تكون سبايا المسلمين قد قمن بدور هام فى تحويل المغول إلى الاسلام. ويظهر أن المرأة شغلت مركزا من مراكز الشرف والكرامة بين المغول. ويمكن أن نأتى بأمثلة كثيرة تؤيد أنه كان لها أثر ظاهر فى الشئون السياسية. وقد تصدينا من قبل لذكر عدة حالات تبين مدى تأثير النساء فى أزواجهن فى المسائل الدينية. ويحدثنا وليم روبرك أنه شاهد بنفسه تأثير إحدى النساء المسلمات، وكيف وقف ذلك التأثير فى سبيل نشر تعاليمه الدينية: ,, وفى عيد العنصرة أتى أحد المسلمين عند ما أخذنا فى شرح

ويذكر ابن بطوطة (١) أن سيرة ذلك الأمير كان لها أثر كبير فى نفوس المغول . ومن ذلك العهد غدا الإسلام الدين السائد فى دولة إيلخانات فارس .

وإن ما لدينا من المعلومات عن تقدم الإسلام وانتشاره فى إمبراطورية المغول الوسطى ، التى كانت من نصيب جغطاى ، لا يزال ضئيلا . وكان كثير من أعقاب هذه الأسرة يستعينون فى دولتهم بوزير من المسلمين على الرغم من أنه لم يبد أى ميل إلى الإسلام . وقد ضيق جغطاى على رعاياه من المسلمين بما سنه من القوانين الشديدة الحرج ، التى ضيقت على شعائرهم الدينية ، فيما يتعلق بذبح الحيوانات للطعام وفرائض الوضوء . ويذكر الجوزجانى أن جغطاى هذا كان ألد أعداء المسلمين من بين خانات المغول كافة . وقد بلغ من شدة عدائه لهذا الدين أنه لم يكن يرغب فى أن ينطق أحد بكلمة مسلم فى حضرته اللهم إلا إذا أريد بها التحقير والحط من شأنها (٢) . وقد ربت أرغنة Orghana زوجة قرا هولاكو Qarà-Hùlàgù حفيد جغطاى وخليفته ، ابنها على الإسلام ، وتقدم باسم مبارك شاه فى سنة ١٢٦٤ م مطالبا بعرش خاقانية جغطاى ، الذى كان مثار النزاع بين أمراء المغول . ولكن سرعان ما خلعه ابن عمه براق خان Buràq Khàn . ويظهر أنه لم يكن لإسلامه أى أثر بين المغول ؛ فإننا لو رجعنا فى الواقع إلى أسماء أبنائه ، لا نجد أحدا منهم قد دخل فى دين أبيه (٣) . وقد قيل إن براق خان نفسه قد أدركته البركة بتلقيه نور العقيدة ، قبل موته فى سنة ١٢٧٠ م بأيام قليلة ، وإنه تسمى باسم السلطان غياث الدين (٤) . إلا أنه دفن حسب طقوس المغول القديمة ولم يدفن وفق شعائر الدين الإسلامى ، وأن من دخل فى الإسلام فى عهده ارتدوا إلى وثنيتهم الأولى . ولم يتم انتشار الإسلام بين المغول فى مملكة جغطاى إلا فى القرن التالى لإسلام مبارك خان ، وذلك على أثر إسلام طرماشيرين Tarmàshirin حول سنة ١٣٢٦ م . وقد ظل المغول الذين اقتفوا أثر زعيمهم متمسكين فى هذه المرة بدينهم الجديد . وعلى الرغم من ذلك ، لم يتأصل الميل إلى الإسلام بعد فى نفوس المغول ، فإن بوزن Buzan الذى كان خان المغول فى عشر السنين التالية (ولو أن صحة هذا التاريخ غير محققة) ، لم يلبث أن طرد طرما شيرين من العرش واضطهد المسلمين(٥) . على أننا لم نسمع عن ظهور أول ملك مسلم إلا بعد سنين قليلة . وكان ضعف أسرة

= تعاليم الدين فى أثناء حديثه معنا . فلما سمع عن نعم الله على الناس وعن التجسد وبعث الموتى ويوم الحساب ومحو الخطايا عن طريق التعميد ، رغب فى أن يعمد . ولكن ، بينما كنا نعد العدة لتعميده ، امتطى صهوة جواده على حين غفلة ، قائلا إنه لا بد من أن يذهب إلى داره لاستشارة زوجته . وفى اليوم التالى قال لنا فى أثناء حديثه معنا إنه لم يستطع أن يجرؤ على أن يعمد ، لأنه لا يستطيع عندئذ أن يشرب لبن الفرس » (Rubruck pp. 90-1.) .

(١) ابن بطوطة ج ٢ ص ٥٧

(٢) الجوزجانى ص ٢٨١ ، ٢٩٧ .Raverty; pp. 1110, 1145-6

(٣) رشيد الدين ص ١٧٣—٤ ، ١٨٨

(٤) أبو الغازى ج ٢ ص ١٥٩

(٥) رحلة ابن بطوطة ج ٣ ص ٤٧

جغطاى قد أتاح لهذه المملكة أن تستقل بحكم هذه البـــلاد . ويقول بعض المؤرخين إن إسلام تغلق تيمور خان Tuqluq Timùr Khàn (١٣٤٧ — ١٣٦٣ م) ملك كاشغر ، كان على يد رجل من أهل الورع والتقوى فى مدينة بخارى ، يقال له الشيخ جمال الدين . وكان معه جماعة من التجار ، وكانوا قد اعتدوا على الأراضى التى خصصها ذلك الأمير للصيد ؛ فأمر بأن توثق أيديهم وأرجلهم ، وأن يمثلوا بين يديه . ثم سألهم فى غضب : كيف جرءوا على دخول هذه الأرض ، فأجاب الشيخ بأنهم غرباء ، ولا يعلمون أنهم يجوسون أرضا محرمة . ولما علم الأمير أنهم من الفرس قال : إن الكلب أغلى ثمنا من أى فارسى ، فأجاب الشيخ : « نعم ! قد نكون أغلى ثمنا من الكلب لو أننا لم ندن بالدين الحق » . ولما راع الأمير ذلك الجواب أمر بأن يقدم إليه ذلك الفارسى الجسور عند عودته من الصيد . ولما خلا به سأله ماذا يعنى بهذه الكلمات ، وما ذلك الدين ؟ فعرض عليه الشيخ قواعد الإسلام فى غيرة وحماس انفطر لها قلب الأمير حتى كاد يذوب كما يذوب الشمع ، وصوّر له الكفر بصورة مروعة اقتنع معها الأمير بضلال معتقداته وفسادها وقال : « ولكنى إذا اعتنقت الإسلام الآن ، فلن يكون من السهل أن أهدى رعاياى إلى الصراط المستقيم . فلتمهلنى قليلا ؛ فإذا ما آلت إلى مملكة أجدادى ، فعد إلى » ؛ وذلك أن إمبراطورية جغطاى انقسمت فى ذلك الوقت إلى إمارات صغيرة ، وظلت على ذلك سنين طويلة حتى نجح تغلق تيمور Tuqluq Timur فى توحيد الإمبراطورية كلها تحت سلطانه ، وجمع كلمتها كما كانت من قبل ، وفى هذه الأثناء كان الشيخ جمال الدين قد عاد إلى بلده حيث مرض مرضا شديدا : فلما أشرف على الوفاة قال لابنه رشيد الدين : « سيصبح تغلق تيمور يوما ما ملكا عظيما ، فلا تنس أن تذهب إليه وتقرئه منى السلام ، ولا تخش أن تذكره بوعده الذى قطعه لى » . ولم يلبث رشيد الدين إلا سنين قليلة حتى ذهب إلى معسكر الخان ، وكان قد استرد عرش إمبراطورية آبائه ، تنفيذا لوصية أبيه ، ولكنه لم يستطع أن يظفر بالمثول بين يدى الخان برغم ما بذله من جهود . وأخيرا لجأ إلى هذه الحيلة الطريفة : ففى ذات يوم أخذ يؤذن فى الصباح المبكر على مقربة من فسطاط الخان ، فأقلق ذلك الصوت نوم الخان وأثار غضبه ، فأمر باحضاره ومثوله بين يديه . وهناك أدى رشيد الدين رسالة أبيه . ولم ينس تغلق تيمور وعده وقال : « حقا ! ما زلت أذكر ذلك منذ اعتليت عرش آبائى ، ولكن الشخص الذى قطعت له ذلك الوعد لم يحضر من قبل ، والآن فأنت على الرحب والسعة » . ثم أقر بالشهادتين ، وأصبح مسلما منذ ذلك الحين ؛ « وأشرقت شمس الإسلام ومحت بنورها ظلام الكفر . . . ولكى ينشر هذا الدين بين رعاياه اتفق تغلق تيمور ورشيد الدين على أن يستقبل الملك الأمراء واحدا بعد واحد ، ويعرض عليهم الإسلام ، فمن قبله جوزى الجزاء الحسن ، ومن أباه ذبح كما يذبح الوثنيون وعباد الأصنام » . وكان أول من عرض عليه منهم ، الأمير تولك Tülik ؛ فقال له الخان : « ألا تدخل فى الإسلام ؟ » عند ذلك سالت عبرات الأمير وقال : قد دخلت فى الإسلام « منذ ثلاث سنين على يد أحد رجال هذا الدين فى كاشغر ، وأصبحت مسلما منذ ذلك الحين ؛ ولكنى لم أصرح بذلك خوفا منك » . فنهض تغلق خان وعانقه ؛ ثم جلس ثلاثتهم . وهكذا عرض الإسلام على سائر الأمراء ، فقبلوه جميعا ،

إلا واحداً منهم اسمه جراس Jaràs ؛ فقد أبى أن يدخل فى هذا الدين ، واقترح عقد امتحان فى القوة الجسمانية بين الشيخ وخادمه وكان ضخم الجثة ؛ وقد بلغ من شدة قوته أنه كان يستطيع أن يرفع بيديه جملا ثنيا (ابن حولين) ؛ فقبل الشيخ المبارزة وقال لذلك الأمير : « إذا لم أصرعه فلن أطلب اليك أن تدخل فى الإسلام ؛ واذا قضت إرادة الله أن ينال المغول الشرف ببركة هذا الدين ، فإنه سوف يهب لى ، بلا ريب ، قوة أستطيع بها أن أظهر على هذا الرجل . » وقد حاول تغلق وغيره من الذين اعتنقوا الإسلام جهدهم فى أن يصرفوا ذلك الشيخ الورع عن تلك المبارزة ، ولكنه أصر على ذلك . « واحتشد الناس وأتى بذلك الكافر ووقف كل منهما أمام الآخر ، فتقدم الخادم فى غير اكتراث اعتزازاً بقوته وبدا الشيخ صغيراً ضعيفاً جداً بجانب ذلك الرجل . ولم يكد يبدأ الصراع بينهما حتى وكز الشيخ الكافر وكزة قوية فى صدره فسقط مغشياً عليه . وبعد قليل عاود الخادم المصارعة ، ولكنه لم يكد ينهض حتى سقط على أقدام الشيخ وصاح بكلمة الإيمان . فأكبر الناس ذلك الانتصار وعلت أصوات الاستحسان من كل مكان . وفى ذلك اليوم قص ١٦٠,٠٠٠ رجل شعورهم ودخلوا فى الإسلام . وأخذت الدهشة من الخان كل مأخذ ، وبدد نور الإسلام غياهب الكفر ، وأصبح الدين الإسلامى منذ ذلك الوقت دين سكان الحضر فى الولايات الخاضعة لسلطان خلفاء جغطاى[1] . ولكن يظهر أن كثيرين من بدو المغول بقوا بعيدين عن حظيرة الاسلام حتى مستهل القرن الخامس عشر الميلادى ، كما يتضح ذلك من الوسائل العنيفة التى كان يسلكها محمد خان ، أمير مغالستان[2] حول سنة ١٤١٦ م ، لتحويل هؤلاء البدو إلى ذلك الدين . « وكان محمد خان أميراً ثريا حسن الإسلام ، نهج منهج العدل وسلك سبيل المساواة بين الناس . ولم يفتر عن بذل هذه الجهود حتى أصبح معظم القبائل المغولية فى عهده المبارك تدين بالاسلام . وقد عرف الناس هذه الوسائل الشديدة الحرج التى تذرع بها لحمل المغول على الدخول فى الإسلام . مثال ذلك أنه كان إذا لم يلبس أحد المغول عمامة أنفذ فى رأسه مسماراً من المسامير التى تستعمل فى تركيب حدوة الحصان . وذاع استعمال هذا النوع من الوسائل الشديدة الحرج ، جزاه الله خيراً ! [3] » .

بل إن أمثال هذه الوسائل الصارمة لم يكن لها تأثير فى حمل الناس كافة على قبول الإسلام ؛ فقد ظهر فى زمن متأخر يرجع إلى نهاية القرن التالى (السادس عشر الميلادى[4]) أحد الدراويش، واسمه إسحاق ولى ، ووجد مجالا لتحويل كثيرين إلى الدين الاسلامى فى كاشغر وياركند والختا ، حيث قضى اثنتى عشرة سنة ينشر هذا

---

(١) أبو الغازى ج ٢ ص ١٦٠ — ١٦٨ ، محمد حيدر ص ١٣ — ١٥

(٢) لما انحلت قوة خانات جغطاى ، غدا جزء من القسم الشرقى من ممالكهم مستقلا استقلالا فعليا تحت اسم مغالستان ، وهى مملكة زراعية تلائم عادات رعاة البدو ، وتسمى الآن تركستان الصينية .

(٣) محمد حيدر ص ٥٧ — ٥٨

(٤) كان ذلك فى عهد عبد الكريم الذى كان خان كاشغر من سنة ٩٨٣ إلى سنة ١٠٠٣ ﻫ (١٥٧٥ — ١٥٩٤ م) .

الدين بينهم[١]، كما عنى أيضا بنشر الاسلام بين أمم الكرغيز والقازاق ، حتى أسلم منهم على يده مائة وثمانون ، وهدم ثمانية عشر هيكلا من هياكل الوثنيين[٢] .

وقد حاولنا ، فيما ذكرناه من قبل أن نبين بعض الخطط التى خطاها المسلمون ليجذبوا إلى دينهم القبائل المتوحشة التى قضت على مراكز ثقافتهم . وبذلك بدأ الاسلام يتخلص تدريجيا من أطلال مجده السالف ، ويتخذ مكانه من جديد باعتباره دينا ذا سيادة ، بعد أن منى بالتدهور والانحطاط أكثر من قرن . وفى أثناء الكفاح الذى احتدم بين أتباع الديانات المتنافسة لجذب المغول إلى دياناتهم ، كان لاعتبارات المنافع السياسية ، بلا ريب ، دخل كبير فى توجيه هذا الكفاح لمصلحة جماعة المسلمين . وقد أثارت مؤامرات العالم المسيحى فى الغرب شك المسيحيين الذين نظروا إليهم على أنهم جواسيس يعملون لمصلحة قوة أجنبية . بيد أن بعض المغول الذين كانوا يدينون بعقائد المذهب النسطورى ، استطاعوا بادىء الأمر أن يتقدموا بدعوى أحسن من الدعوى التى تذرع بها غيرهم ، وهى أنهم قوم وطنيون ، واستطاعوا بذلك أن يحملوا على المسلمين لأنهم أتباع دين أجنبى عنهم . فقد اتهم أرغون أحمد تكودار بخيانة شريعة آبائه بأن سلك سبيل العرب الذين لم يعرفهم أحد من أسلافه[٣] . وإن الثورة التى أدت إلى طرد طرماشيرين ونفيه استمدت قوتها من الشكوى بأن هذا الملك لم يحفل بالياساق أو القوانين القديمة الخاصة بالنظم المغولية[٤]. ومع أن مصدر الكفاح قد ظل مثار الشك زمنا طويلا ، رسخت أقدام الاسلام فى البـــلاد التى انتزعت منه . وإن الوسائل التى أحرز بها هذا الدين ذلك النجاح ، لمن المسائل التى يحوطها الغموض والإبهام ، كما أن المعلومات القليلة التى ذكرناها ، تضرب صفحا عن ذكر كثير من تفاصيل هـذه القصة . بيد أننا قد سجلنا ما يكفى للدلالة على بعض الأعمال التى أدت الى تحولات فردية الى هــــذا الدين . وقد أشرب آنندا روح الإسلام[٥]، وتمتعت البقية الباقية من المؤمنين ، وخاصة الأسرات التركية الإسلامية القديمة ، بنفوذ لا يكاد يحس ، بين المغول الذين استقروا بينهم . على أن هنالك من بين العوامل الفعالة التى ساعدت على نشر الدعوة ، والتى كان لها أهمية خاصة فى هذه السبيل ، تأثير البير Pir وتلاميذه الروحيين . وفى وسط ذلك الخور العميق الذى طغى على المسلمين بعد تدفق سيل الفتح المغولى ، وجد هؤلاء ملجأهم الأول فى التصوف . وقد أمد البير أو المرشد الروحى والطوائف الدينية — كطائفة النقشبندية التى ظهرت بمظهر النفوذ والقوة فى القرن الرابع عشر الميلادى ، — الجماعة الإسلامية بحياة جديدة وبثوا فيها حماسة شديدة. وعلى أيدى البير ودعاته غدا المسلم فى آسيا أول الأمر عاملا سلبيا لا يصدر فى أعماله عن شعور ووجدان ، ثم أصبح آخر الأمر مشايعا لجماعة الدين القومى التى تناوىء حكم المغول الذى كان وقتا ما أجنبيا متبربرا سوقيا[٦].

---

(١) Martin Hartmann : Der Islamische Orient, vol. i. p. 203 (Berlin, 1899.)

(٢) Id. p. 202.

(٣) Assemani, tome iii. part. ii. p. cxvi.

(٤) ابن بطوطة ج ٣ ص ٤٠

(٥) رشيد الدين ص ٦٠٠ س ١

(٦) Cahun, p. 410.

ولنعد الآن إلى الكلام على انتشار الاسلام بين أهالى القبيلة الذهبية. كانت هذه الطائفة من المغول تنزل فى ذلك السهل الرئيس الخصب الذى يرويه نهر الفلجا، حيث اتخذت على أحد ضفافه حاضرتها سيريه Serai، ومنها أرسل أمراء الروس الجزية إلى الخان؛ وكان لإسلام بركة خان الذى تكلمنا عليه من قبل، وما كان بينه وبين المماليك فى مصر من الصلات الوثنية أثر كبير فى انتشار الإسلام بين أهالى هذه القبيلة.

ويظهر أنه قد حذا حذوه تدريجا كثير من أفراد الطبقة الارستقراطية وزعماء القبيلة الذهبية الذين كانوا من أصل مغولى. ولكن يظهر أيضا أن كثيرا من بطون هذه القبيلة الذهبية قاوموا ذلك الدين وحالوا دون انتشاره بينهم، حتى إنهم فكروا فى خلع بركة خان حين أعلن إسلامه، وعرضوا تاج المغول الذى اعتقدوا أنه أصبح غير جدير به على منافسه هولاكو. وبلغ من شدة هذه المقاومة أن انقسم المغول على أنفسهم، وظهرت بينهم قبيلة نوجاى Nogais كقبيلة منفصلة، واتخذوا هذا الاسم من Nogay الذى كان قائد قواد الجيوش المغولية فى دولة بركة خان. ولما أصبح غيره من أمراء القبيلة الذهبية يدينون بالإسلام، ظل نوجاى متمسكا بالشامانية، وغدا نقطة الاتصال بين كل من هؤلاء الذين أبوا أن يتحولوا عن ديانة المغول القديمة. على أن ابنة هذا القائد التى تزوجت من أحد الشامانيين لم تلبث أن دخلت فى الإسلام بعد زواجها بقليل، وظلت على دينها الجديد، ولم يصرفها عنه سوء معاملة زوجها واحتقاره إياها(١).

وقد قيل لأوزبك خان Uzbek Khàn، الذى كان زعيما للقبيلة الذهبية من سنة ١٣١٣ إلى سنة ١٣٤٠م، والذى اشتهر بتحمسه لنشر تعاليم الدين الإسلامى، وحرصه على تحويل كثير من الأهلين إليه: «اقنع بطاعتنا، وماذا يهمك من ديننا؟ ولماذا تترك دين جنكيز خان لتعتنق دين العرب؟ ولكن أوزبك نجح على الرغم مما لقيته جهوده من مقاومة شديدة، فى جذب كثيرين وتحويلهم إلى هذا الدين الذى كان من أشد أتباعه حماسة وصلابة، وإليه يرجع الفضل فى توطيد دعائمه وتثبيت أركانه فى البلاد التى كانت تحت سلطانه.(٢) ومما يدل أيضا على نفوذ أوزبك ما نجده فى القبائل الأوزبكية فى أواسط آسيا، التى اشتقت اسمها من اسمه والتى لا يبعد أن تكون قد تحولت إلى الإسلام فى عهده. ويقال إنه وضع خطة لنشر الإسلام فى كافة أرجاء بلاد الروسيا(٣)، ولكن هذه الخطة لم تصادف شيئا من النجاح. وفى الواقع يظهر أن نفوذ المغول، مع أنهم كانوا أصحاب السيادة المطلقة فى الروسيا مدة قرنين، كان قليلا جدا فى أهالى هذه البلاد، وأن هذا النفوذ كان أقل ما يكون فى المسائل الدينية. أضف إلى ذلك أنه مما هو جدير بالملاحظة، على الرغم مما أظهره أوزبك من التحمس فى نشر الإسلام وتفانيه فى الإخلاص له، أنه كان كثير التسامح نحو رعاياه من المسيحيين. فقد منحهم الحرية التامة فى إقامة شعائرهم الدينية من غير أن يتعرض لهم أحد بسوء، وذهب فى تسامحه إلى أبعد من هذا، فسمح لهم بموالاة التبشير لدينهم ونشره فى بلاده. ومن أهم الوثائق التى تسترعى

---

(١) Howorth, vol. ii. p. 1015.

(٢) أبو الغازى ج ٢ ص ١٨٤

(٣) De Guignes, vol. iii. p. 351.

الانتباه عن التسامح الإسلامي ، ذلك العهد الذي منحه أوزبك خان المطران بطرس في سنة ١٣١٣م . وقد جاء فيه : « بمشيئة الله العلي القدير وعظمته ورحمته ! من أوزبك الى أمرائنا كبيرهم وصغيرهم وغيرهم . إن كنيسة بطرس مقدسة فلا يحل لأحد أن يتعرض لها أو لأحد من خدامها أو قسيسيها بسوء . ولا أن يستولى على شيء من ممتلكاتها أو متاعها أو رجالها ، ولا أن يتدخل في أمورها ، لأنها مقدسة كلها . ومن خالف أمرنا هذا بالتعدى عليها ، فهو أثيم أمام الله وجزاؤه منا القتل . ولندع المطران ينعم بالأمان والبهجة ؛ ولندعه (أو وكيله) يقرر وينظم كل المسائل الكنسية بقلب سليم وفؤاد عادل قويم . وإننا نعلن في حزم أننا نحن وأولادنا وأمراء دولتنا وولاة أقاليمنا لن نتدخل بأى حال في شئون الكنيسة ولا في شئون المطران ، ولا في شئون المدن والمراكز والقرى والأراضي المخصصة للصيد في البر والبحر ، ولا في خلايا النحل ؛ ولا في الأراضي والمراعي والصحارى ، ولا في المدن والأماكن الداخلة في أملاكها الخاصة ، ولا في الكروم والطواحين ، ولا في مراعي الشتاء ، ولا في أى شيء من ممتلكات الكنيسة وأمتعتها . ولتدع بال المطران في راحة دائمة خاليا من كل تعب أو نصب ، ولندع قلبه سليما قويما ، ولندعه يصلى لله من أجلنا ومن أجل أولادنا وأمتنا ، حتى إذا وضع يده على شيء مقدس ، ثبتت عليه التهمة ، وباء بغضب من الله ، وكان جزاؤه القتل ، حتى يلقى مصيره الرعب والفزع في قلوب الآخرين . وإذا فرض الخراج أو غيره من الضرائب : كالرسوم الجركية ، والمكوس ، وضرائب الطرق والأراضي غير المزروعة ، أو إذا أردنا حشد الجنود من بين رعايانا ، فلا يجمع شيء بالقوة والإكراه من الكنائس التابعة المطران بطرس أى لأى أحد من رجال الدين التابعين له : وكل ما يؤخذ من رجال الدين بالقوة والإكراه ، يرد إليهم أضعافا ثلاثة . . . ولتكن شرائعهم وكنائسهم وأديارهم ومعابدهم محل الاحترام والتعظيم . وكل من يتهم أو يحط من شأن هذا الدين ، فلن يقبل منه أى عذر ولا أن يطلب العفو ، بل يكون جزاؤه القتل . وسوف يتمتع أخوة القسيسين والشمامسة الذين يجلسون إلى مائدة واحدة وفي دار واحدة بنفس هذه المزايا والحقوق (١) » .

ويمكن أن نستدل على أن هذا المرسوم لم يكن كلمات جوفاء أو مجرد « حبر على ورق » ، وأن التسامح الذي وعد به هؤلاء المسيحيون قد أصبح حقيقة واقعة من هذه الرسالة التي بعث بها البابا يوحنا الثاني والعشرون Pope John xxii سنة ١٣١٨ م إلى الخان ، يشكر فيها للأمير المسلم ما أظهره من عطف على رعاياه المسيحيين ، ويثنى على هذه المعاملة الطيبة التي كان أوزبك يعاملهم بها (٢) . ويظهر أن خلفاء أوزبك خان لم تدفعهم نفس الرغبة التي أظهرها هو في نشر الإسلام ، ومن ثم لم يكن من المتوقع أن ينجحوا فيما أخفق هو فيه . وكان الروس إذا أدوا الضرائب المفروضة عليهم ، تركت لهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية كيف شاءوا . وقد بلغ من تغلغل المسيحية في حياة الشعب أنه لم يعد هناك ما يعكر صفو هذه الحياة ، وبذلت

---

(١) Karamzin, vol. iv. pp. 391-4.

(٢) Hammer-Purgstall: Geschichte der Goldenen Horde in Kiptschak, p. 290.

الجهود لتحويلهم عن دين آبائهم . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن المسيحية كانت الديانة القومية للشعب الروسى قرابة ثلاثة قرون ، قبل أن يوطد المغول سلطانهم فى الأراضى الروسية .

وقد حاول شعب آخر جذب الروس إلى الإسلام قبل ذلك بسنين كثيرة ، ولكنه أخفق كذلك ؛ وهؤلاء هم البلغار من المسلمين الذين وجدوا حول القرن العاشر الميلادى على ضفاف نهر الفلجا ، والذين قد يرجع الفضل فى إسلامهم إلى تجار المسلمين الذين كانوا يتاجرون فى الفراء وسائر السلع التى كانوا يحصلون عليها من البلاد الشمالية . على أنه يظهر أن دخول البلغار فى الاسلام لابد أن يكون قد تم قبل سنة ٩٢١ م ، حين أرسل اليهم الخليفة المقتدر (٩٠٨ — ٩٣٢ م) (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) رسولا من قبله يقوم بتثبيتهم على الدين وتعليمهم مبادىء الإسلام وشعائره (١) .

وقد حاول هؤلاء البلغار تحويل فلاديمير Vladimir ملك روسيا فى ذلك الحين (الذى تحدثنا الرواية الروسية) ، أنه رأى أنه لم يكن بد من أن يختار دينا آخر غير الدين الوثنى الذى كان يدين به . ولم يقف فى سبيل تحوله هو ورعاياه إلى هذا الدين إلا الختان وتحريم الخمر المستعملين عند المسلمين ؛ وصرح أن الروس لا يعدلون عنهما ، لأنهما كانا من مباهج الحياة عندهم . وكذلك ابتلى بهذا الإخفاق اليهود الذين جاءوا من بلاد الخزر على بحر قزوين ، واستمالوا ملك هؤلاء الروس إلى الديانة الموسوية (٢) . وبعد أن أصغى فلاديمير إلى حججهم ، سألهم أين بلدهم ؟ فأجابوا : « بيت المقدس ، ولكن الله شتت شملنا فى كافة أنحاء العالم غضبا منه علينا » ؛ فصاح « إذا فقد بؤتم بلعنة من الله ؛ ومع ذلك فأنتم تريدون أن تعلموا غيركم . اذهبوا ! فنحن لانريد مثلكم ألا يكون لنا وطن » . وكان أحسن ما أثر فى نفس فلاديمير تلك الفكرة التى رسمها قسيس إغريقى ، حين عرض صورة شاملة لتعاليم المسيحية ، بعد أن نقد الديانات الأخرى نقدا موجزا ، بادئا بخلق العالم وقصة فناء الإنسان ، وانتهى بالمجامع السبع المسكونية التى اعترفت بها الكنيسة الإغريقية ؛ ثم رسم الملك صورة ليوم الدين ، ودخول الصالحين الجنة ، وقذف الكفار فى الجحيم ، ووعده بميراث السماء إذا عُمد . ولكن فلاديمير لم يكن يميل إلى الاندفاع فى اختيار دين يحل محل دينه الوثنى ، ومن ثم جمع زعماء الروس فى دولته . ولما أنهى إليهم ما سمعه عن الديانات المختلفة ، سألهم أن يمدوه بنصائحهم ، فأجابوا : « أيها الأمير ! إن كل امرىء يمتدح ديانته ؛ فإذا أردت أن تختار أحسنها ، فابعث برجال عقلاء إلى البلاد المختلفة ليكشفوا لك أية أمة من الأمم تعظم الله بالطريقة المثلى التى تليق بمقامه الأسمى » . لذلك اختار الأمير لهذا الغرض عشرة رجال اشتهروا بالحكمة وسداد الرأى . ووجد هؤلاء السفراء بين البلغار أماكن حقيرة المظهر ، وصلوات تبعث على الكآبة ، ووجوها واجمة ، ووجدوا بين الألمان الكاثوليك حفلات دينية خالية من الأبهة والجلال . وأخيرا بلغوا القسطنطينية : فقال الإمبراطور : « دعهم يشاهدوا جلال إلهنا » ، ثم أخذوا إلى كنيسة أيا صوفيا ، حيث كان البطريق ، وهو مرتد ملابسه الرسمية ، يحتفل

(١) عن الباشغرد الذين ورد ذكرهم فى ابن فضلان وياقوت وشرح C. N. Frachnio (Mémoires de l'Académie Imperiale des Sciences de St. Pétersbourg, tome viii. p. 626, 1822.)

(٢) أبو عبيد البكرى ص ٤٧٠ – ٤٧١

بالقداس . وإن فخامة البناء ، وملابس القسيسين الكهنوتية الجميلة ، وزخارف المذابح ، ورائحة البخور الزكية ، وسكون الناس المنبعث عن الاحترام والخضوع ، والاحتفال الدينى السحرى الذى يتجلى فى هيبة وخشوع — كل ذلك ملأ قلوب الروس دهشا وعجبا . وقد بدا لهم أن هذه الكنيسة لا بد أن تكون مقام العلى الأسمى ، وأنه سبحانه أظهر للبشر مجده فى ذلك المكان . ولما عاد الرسل إلى كييف ، وصفوا سفارتهم للأمير ، وتكلموا فى احتقار عن ديانة النبى ، ولم يكن لديهم ما يقولونه إلا القليل عن الديانة الرومانية الكاثوليكية ؛ ولكنهم امتدحوا الكنيسة الإغريقية فى حماسة وغيرة وقالوا : « إن كل رجل ذاق شربة حلوة ، سوف يعاف من الآن ، أى شراب مر المذاق . ومن أجل هذا ، لا نرغب — بعد أن وقفنا على عقيدة الكنيسة الإغريقية — فى أية ديانة أخرى » . وقد استشار فلاديمير زعماء الروس مرة أخرى ، فقالوا له : لو لم تكن الديانة الإغريقية أحسن الديانات ، لما اعتقدتها أبدا جدتك أولجا ، أحكم البشر . ومن ثم لم يعد فلاديمير مترددا . وفى سنة ٩٨٨ م جهر بالمسيحية ؛ وفى اليوم التالى لتعميده نبذ الأوثان التى عبدها أجداده ، وأصدر مرسوما يقضى بأن يذعن الروس كافة ، سادة وعبيدا ، أغنياء وفقراء ، للتعميد وفق طقوس الديانة المسيحية (١) .

وهكذا أصبحت المسيحية ديانة الروس . فإنه بعد الفتح المغولى نجد الصفات القومية التى تميز بها الروس والتتار ، الذين احتفظوا إلى الآن بعنصرين منفصلين أحدهما عن الآخر ، وما أضمروه من كراهة مريرة للسلطان التتارى ، وإخلاص الروس لدينهم ، ونقص الغيرة الدينية عند التتار — نجد ذلك كله قد جعل الجنس المحكوم بعيدا عن اعتقاد ديانة هؤلاء الذين فتحوا بلاده . وقد زعم بعض أن تحريم الشريعة الإسلامية الخمور كان عقبة فى سبيل اعتقاد أهالى الروسيا هذا الدين .

ويظهر أنه لم تكن هنالك حالات عن تحول بعض الروس إلى الإسلام ، إلا بعد أن صدر فى سنة ١٩٠٥ مرسوم ينص على التسامح الدينى فى كافة أرجاء الإمبراطورية الروسية ، وما تلا ذلك من دعاية نشيطة قام بها المسلمون . وإن ما حدث من هذه الحالات يعزى إلى قوة التأثير الناتجة من المساعدة المادية التى قدمها التتار إلى هؤلاء الداخلين فى الإسلام ، كما يعزى إلى القوة المعنوية التى تميز بها المسلمون أنفسهم (٢) .

ولم يكن تتار بلاد الروسيا مجتمعين غير عاملين على تقدم انتشار الإسلام فى القرون السابقة ؛ فإن السحنة الهلينية الواضحة التى تشاهد بين هؤلاء الذين يطلق عليهم اسم تتار القرم ، أدت إلى الظن بأن هؤلاء المسلمين قد أدمجوا فى مجتمعهم الأهالى من الإغريق والإيطاليين الذين وجدوهم قد استوطنوا شبه جزيرة القرم . كما نجد بينهم أسلافهم الذين دخلوا فى الإسلام من الأهالى الوطنيين فى هذه البلاد ، ومن سكان مستعمرة جنوه (٣) . ويحدثنا أحد الرحالين فى القرن السابع عشر الميلادى أن تتار القرم كانوا يبذلون جهدهم

(١) Karamsin, tome i. pp. 259-71.

(٢) Bovronikoff, p. 13.

(٣) Reclus, tome v. p. 831. R. du M.M., tome iii. pp. 76, 78.

لحث مواليهم على الدخول فى الإسلام ، وأنهم جذبوا كثيرين منهم إلى هذا الدين ، بما كانوا يعدونهم إياه من منحهم الحرية إذا استجابوا لرغباتهم(١). وكذلك نشطت الدعوة إلى الإسلام بين تتار القرم بعد أن صدر مرسوم حرية التدين فى سنة ١٩٠٥(٢).

ولا بأس من أن نشير هنا إشارة موجزة إلى التتار فى لتوانيا ، حيث استقرت جماعات صغيرة منهم منذ أوائل القرن الخامس عشر . وقد احتفظ هؤلاء المهاجرون المسلمون ، الذين أقاموا بين الأهلين من المسيحيين ، بدينهم القديم . ولكن يظهر أنهم (وقد يكون ذلك لأسباب سياسية) لم يحاولوا أن يعلموهم مبادىء هذا الدين ؛ بيد أنهم اعتادوا أن يتزوجوا من اللتوانيات والبولنديات ، اللاتى نشأ أبناؤهن نشأة إسلامية ، ولم يسمح لأية مسلمة أن تتزوج من مسيحى . وشجع كبار دوقات لتوانيا زواج النساء المسيحيات من رجال جنودهم التتارية ، الذين قدموا إليهم هبات من الأرض ، ومنحوهم مزايا أخرى(٣) .

ومن أغرب الحوادث فى تاريخ الدعوة إلى الإسلام ، ما كان من تحول القرغيز فى بلاد آسيا الوسطى على أيدى علماء التتار (الملات) الذين نشروا الإسلام بينهم فى القرن الثامن عشر ، باعتبار أنهم دعاة من قبل الحكومة الروسية . وقد أخذ القرغيز ينضمون تحت لواء الروس حول سنة ١٧٣١ م ، وتبودلت الرسائل السياسية معهم كافة باللغة التتارية قرابة ١٢٠ سنة ، واهمين أنهم كانوا يشبهون تتار الفلجا من ناحية السلالة البشرية . وهناك نوع آخر من سوء الفهم من ناحية الحكومة الروسية ، وهو أن القرغيز كانوا مسلمين ، على حين كانوا فى القرن الثامن عشر جميعا ، على وجه التقريب ، يدينون بالشامانية ، حيث كان عدد كبير منهم لا يزالون يدينون بهذا الدين حتى منتصف القرن التاسع عشر . وفى القرن الذى ضمت فيه بلادهم إلى الإمبراطورية الروسية ، عدا قليل من خاناتهم وسلاطينهم ، كانت لهم معرفة ما بالدين الإسلامى ـ وكانت هذه المعرفة على درجة كبيرة من الاختلاط والغموض . ولم يجد أحد مسجدا واحدا فى أرجاء سهول القرغيز كافة ، كما لم يكن هناك أى معلم دينى يقوم بتعليم دين النبى . ويدين القرغيز بدخولهم فى الإسلام إلى هذه الحقيقة ، وهى أن الروس الذين عدوهم مسلمين ، أصروا على معاملتهم كما لو كانوا كذلك . وقد منحوا الأموال الضخمة لبناء المساجد ، وأرسل عدد كبير من (الملات) لإنشاء المدارس وتعليم الأطفال مبادىء الإسلام . وكان علماء القرغيز يتسلمون فى كل يوم مقدارا صغيرا من النقود يقوم بنفقتهم ، واستحث الآباء على إرسال أطفالهم إلى المدارس عن طريق الهدايا وغيرها من وسائل التشجيع والإقناع . ومن الأدلة التى لا تقبل الجدل على أن الدعوة الإسلامية قد شقت طريقها فى سهول القرغيز من ناحية بلاد الروسيا ، هذه الحقيقة الواقعة ، وهى أن هؤلاء القرغيز خاصة ، الذين كانوا أكثر اتصالا بأوربا ، هم الذين

---

(١) Relation des Tartares, par Jean de Luca, p. 17. (Thevenot, tome i.)

(٢) Islam and Missions, p. 257.

(٣) Gasztowtt, pp. 321-3. R. du M.M., xi. (1910), pp. 287, sqq.

أصبحوا مسلمين أول الأمر. وقد أخذت الشامانية القديمة تسير حتى القرن التاسع عشر فى بطء وتمهل، بين هؤلاء الذين طوفوا فيا جاور بلاد خيوة وبخارى وخوقند ، مع أن هذه البلاد كانت بلادا إسلامية عدة قرون (١).

وقد يكون هذا هو المثل الوحيد لحكومة مسيحية شاركت فى نشر الإسلام. وليس أقل غرابة من ذلك أن الحكومة الروسية فى هذا العصر كانت تحاول أن تفرض المسيحية على رعاياها المسلمين فى أوربا ، استمرارا لما بذلته من جهود فى القرن السادس عشر على أثر فتح خانية قزان .

وفى مستهل القرن التاسع عشر ، كان كثير من القرغيز الذين يقيمون فى السهول الفسيحة الممتدة جنوبا من مقاطعة تبلسك إلى بلاد تركستان لايزالون على الوثنية ، واتصل بعض بالحكومة الروسية لإيفاد بعث تبشيرى للدين المسيحى يقيم بين أظهرهم . ولكن الحكومة لم تجبهم إلى هذا الطلب بحجة أن « هؤلاء الناس كانوا من البربرية والوحشية بحيث لا يكون فهمهم للانجيل أمرا ميسورا » . سرعان ما سارت لنشر الدعوة جماعات أخرى لا تعتمد على حسن نية أية حكومة ، كما كانت أكثر غيرة وإدراكا ، واحتلت هذا الميدان واجتذبت كافة قبائل القرغيز إلى الدين الإسلامى(٢) .

وبعد فتح قزان على أيدى الروس فى القرن السادس عشر ، تلا احتلال خانية التتار السابقة حركة رسمية للتبشير بالمسيحية ، وعمد عدد من سكان الخانية الوثنيين ، ونشط رجال الشرطة ورجال السلطات المدنية فى تأييد أعمال رجال الكنيسة . بيد أنه ، لما لم يكن القسيسون الروسيون يفهمون لغة هؤلاء الذين حولوهم إلى الإسلام ، والذين لم يلبثوا أن أهملوا شأنهم ، لم يكن بد من الاعتراف بأن هؤلاء الذين تحولوا حديثا « يحتفظون فى غير خجل أو حياء بكثير من العادات التتارية المرذولة ، ولم يكونوا يتمسكون بالعقيدة المسيحية أو يعرفونها » . ولما أخفقت العظات الروحية ، أمرت الحكومة موظفيها بأن يلطفوا من هذه الحالة ، ويحبسوا الناس ، ويكبلوهم بالحديد ، ويحولوا بذلك دون تعليم هؤلاء الذين لايطيعون أوامر المطران برغم تعميدهم ، ويثيرون مخاوفهم من ناحية العقيدة التتارية .

وفى القرن الثامن عشر بذلت الحكومة الروسية جهودا جديدة لتنصير القبائل الوثنية ، والتتار الذين ارتدوا عن دينهم ، وبذلوا كثيرا من ضروب الإقناع والإغراء لتعميدهم . ففى سنة ١٧٧٨ أمرت الإمبراطورة كاترين الثانية بأن يوقع كل من هؤلاء الحديثى العهد بالمسيحية على إقرار كتابى يتعهدون فيه « بترك خطاياهم الوثنية ، وتجنب كل اتصال بالكفار ، والتمسك بالدين المسيحى وعقائده والثبات عليهما ،

---

(١) The Russian Policy regarding Central Asia. An historical sketch, By Prof. V. Grigorief. (Eugene Schuyler: Turkistan, vol. ii. pp. 405-6. 5th ed. London, 1876); Franz von Schwarz: Turkestan, p. 58. (Freiburg, 1910.)

(٢) Islam and Missions, pp. 251-2, 255.

على الرغم من هذا كله ، لم يكن هؤلاء الذين أطلق عليهم « التتار ، المعمدون إلا مسيحيين اسما ؛ وسرعان ما أخذوا يحاولون التخلص مما بذلت الكنيسة الأرثوذكسية من الجهود التبشيرية ، وتركوا المسيحية ، واعتنقوا الإسلام. ولم يكن هذا الدخول فى المسيحية إلا خطوة تمهيدية لدخولهم فى عقيدة النبى .

وفى الحق أنه لا يبعد أن تكون أسماؤهم قد دونت فى السجلات الرسمية باعتبارهم مسيحيين ، ولكنهم وقفوا فى ثبات وقوة فى وجه أية محاولة بذلت لتنصيرهم . ويقول الكاتب فى مقال شبه رسمى نشر فى سنة ١٨٧٢ : « إنه لحقيقة تستحق الانتباه أن سلسلة طويلة من الارتداد الواضح تتفق مع بداية الإجراءات التى اتخذت لتثبيت الداخلين فى العقيدة المسيحية . ولهذا يجب أن يكون هناك سبب معقول لحالات الارتداد هذه ، فى نفس الوقت الذى كان من المتوقع أن يحدث خلاف ذلك » . ويظهر أن الحقيقة كانت تنطوى على أن هؤلاء التتار، لكونهم قد ظلوا دائما مسلمين بقلوبهم ، قاوموا التدابير الفعالة التى اتخذت لتجعل اعتناقهم المسيحية الاسمى حقيقة واقعة بحال من الأحوال (١) . ولكن فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، بذلت جهود لتنصير هذه القبائل الوثنية والإسلامية عن طريق إنشاء مدارس بينهم . وكانوا يؤملون من وراء ذلك أن يجذبوا إليهم شبيبة ذلك الجيل، إذ ظهر لهم أنهم إذا لم يفعلوا ذلك ، كان من المحال أن يفوزوا بإدخال المسيحية بين التتار . ذلك أن « استمالة مواطنى قزان — كما يقول أستاذ روسى — أمر صعب المنال، ولكننا نستجلب نفرا قليلا من سكان القرى الواقعة فى السهل ، ونروضهم على مخافة الله ، فإذا ما أصبحوا معنا فإنهم لن يعرضوا عنا أبدا » (٢) . ذلك أن القانون الجنائى الروسى كان يتضمن دائما عقوبات صارمة لهؤلاء الذين حادوا عن الكنيسة الأرثوذكية (٣) ، ويعاقب كل شخص تثبت عليه تهمة تحويل مسيحى إلى الإسلام ، بتجريده من كافة الحقوق المدنية ، وبحبسه مع الأشغال الشاقة مدة تتراوح بين ثمانى سنين وعشر . وبرغم أوامر الحكومة نجحت الدعاية الإسلامية فى جذب القرى بأسرها إلى عقيدة الإسلام ولا سيما القبائل الروسية التى تقيم فى الشمال الشرقى (٤) .

وتعد مدينة قزان المركز الرئيس لنشاط هذه الدعوة ؛ وكان يطبع فى كل سنة عدد كبير من المنشورات الإسلامية ، فى ذلك المكان ، ويذهب الملبات من الجامعة لتحويل الوثنيين فى القرى وإعادة التتار ، الذين

(١) D. Mackenzie Wallace: Russia, vol. i. pp. 242-4. (London, 1877, 4th ed.) R. du M.M. vol. ix. (1909), p. 249. Bobrovnikoff, p. 5. sqq.

(٢) W. Hepworth Dixon: Free Russia, vol. ii. p. 284. (London, 1870.)

(٣) مثال ذلك أنه « فى سنة ١٨٨٣ ، سيق فلاحو التتار بقرية أبوزوف Apozof إلى محكمة قزان ، لأنهم تركوا المذهب الأرثوذكسى. وقد صرح المتهمون بأنهم كانوا يدينون بالإسلام على الدوام . وقد حكم على سبعة منهم بالأشغال الشاقة لاتهامهم بالكفر ونفى كثير من الذين ارتدوا عن دينهم إلى سيبريا » .

Anatole Leroy-Beaulieu: L'Empire des Tsars et les Russes, tome iii, p. 645. (Paris, 1889-93.)

(٤) D. Mackenzie Wallace: Russia, vol. i. p. 245.

كانوا قد ارتضوا التعميد ، إلى الإسلام . وإن ازدياد عدد التتار المسيحيين الذين أخذوا فى زيادة صفوف الإسلام ، قد أثار الفزع فى نفوس رجال الكنيسة الأرثوذكسية . ولكن جهودهم قد أخفقت فى وقت نجاح الملمات فى هذه السبيل (١) . وقد دونت الأخبار كثيرا عن دخول الناس فى هذا الدين أفواجا ، ولا سيما على أثر صدور مرسوم حرية التدين فى سنة ١٩٠٥ . مثال ذلك ما قيل من أن إحدى وتسعين أسرة اعتنقت الإسلام فى قرية أتومڤا Atomva فى سنة ١٩٠٩ (٢) . وإن عددا بلغ من الكثرة حول ٥٣,٠٠٠ نسمة أسلم بين سنتى ١٩٠٦ - ١٩١٠ (٣) . وقد قيل إن أكبر الفضل فى نجاح هذه الدعوة يرجع إلى مستوى الحياة الأخلاقية فى المجتمع الإسلامى ، الذى كان أكثر رقيا ، كما يرجع أيضا إلى شعور التآخى الذى كان يشيع فى هذا المجتمع ، والذى كان أكثر تماسكا وقوة (٤) . أضف إلى ذلك أن الأساليب التى لجأ إليها رجال الكنيسة الروسية وأيدتها الحكومة ، لتجعل تلك الطبقة التى كان يطلق عليها التتار المسيحيون أكثر تمسكا بالدين ، قد جعلت العقيدة المسيحية أمرا غير مألوف لديهم (٥) . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى سارت الدعوة الإسلامية قدما فى حماسة بالغة ، « فقد كان كل مسلم ساذج أمى داعية إلى دينه ، وعجزت القبائل الفقيرة الجاهلة الأمية من الوثنيين أو أشباه الوثنيين عن أن تقاوم قوة هؤلاء الدعاة . وفى كثير من القرى التى عمد أهلها ، انطلق الرجال فى زمن الشتاء يحترفون الحياكة فى القرى الإسلامية . وهناك يتحولون الى الإسلام ، ثم يعودون إلى قراهم خمسا يجلبون معهم أفكارا إسلامية يكون لها أثرها فى بيوتهم » (٦) .

ومن أهم القبائل التى تأثرت بحركة الدعوة إلى الاسلام قبيلة الڤوتياك Votiaks التى كان السواد الأعظم منها مسيحيا معمدا ؛ بيد أن كثيرا منهم أصبحوا مسلمين فى القرن الثامن عشر ، وفى مستهل القرن التاسع عشر . ولا يزال تأثير الإسلام آخذا فى النمو ، بين هؤلاء الذين يدينون بالمسيحية وبين هذه البقية اليسيرة ، التى لا تزال على وثنيتها . وإن قبيلة الشيرمس Cheremiss ، كالڤوتياك ، قبيلة من الفِنّ Finns (†) ، لا يزال ربعها على الوثنية ، ولكن كثيرين منها كانوا قد دخلوا فى الاسلام ، ولا يبعد أن يبادر معظمهم إلى الدخول فى هذا الدين . وقد تجلت حركة الشيرمس إزاء الإسلام فى القرن التاسع عشر ؛ ومع أن كثيرين منهم كانوا مسيحيين اسما ، فإن قراهم بأسرها دخلت فى الإسلام برغم القوانين التى تحرم التحول إلى أى دين من الأديان عدا مذهب الكنيسة الأرثوذكسية (٧) . وقد أصبحوا مسلمين باتصالهم المباشر بالباشغرد والتتار الذين

---

(١) Palmieri, pp. 85-6. R. du M.M., i. (1907), pp. 162. sq.

(٢) R. du M.M., ix. (1909), p. 294.

(٣) Id. x. (1910), p. 413. Id. i. (1907), p. 273.

(٤) Id. ix. p. 252.

(٥) Id. p. 249.

(٦) Bobrovnikoff, p. 12.

(†) وهى من أصل تيوتونى كانت تسكن فى الشمال الشرقى من أوروبا .

(٧) Reclus, tome, v. pp. 746, 748.

كانت تشبه أسرتهم وعاداتهم الاجتماعية أسرة هؤلاء وعاداتهم . وقد بدأت هذه الخطوات أحيانا بالتصاهر الى المسلمين — مثال ذلك أن إحدى أسرات الشيريمس فى بعض القرى تصاهرت إلى بعض الباشغرد واعتنقت ديانته . ولما كان هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام يلقون فى قراهم عنتا واضطهادا بتسميتهم «الكلاب المختونين» ، نراهم يهاجرون ويؤسسون مستعمرة جديدة على بعد أميال ، كما نرى بعض ذوى اليسار من الباشغرد يعينونهم بالمال . ولكن لما كانوا يعدون وثنيين فى السجلات الرسمية ، لم يستطيعوا أن يحصلوا على تصريح ببناء مسجد . لذلك انتقل بعض أسرات من الباشغرد التى كانت فى الأماكن المجاورة لهم إلى المستعمرة الحديثة ، حتى يجعلوا عدد الأهلين بحيث يسمح لهم بالحصول على التصريح الرسمى المطلوب[١]. وطالما اتخذ مثل هذه الخطوة فى القرى الأخرى التى جاء المسلمون لاستيطانها والتصاهر إلى من فيها من الشيريمس[٢]. وكانت هنالك فى أحوال كثيرة حركة واضحة لنشر الدعوة — مثال ذلك أن قرية قرقول كانت فى مستهل القرن التاسع عشر آهلة بالشيريمس المسيحيين . على أنه بعد منتصف هذا القرن بقليل ، تحول بعض الأسرات إلى الإسلام على يد أحد الشيريمس بعد أن دخل فى جماعة المليات ، وخلفه فى الدعوة بعد وفاته أحد الباشغرد من أهالى قرية أخرى . وبعد ذلك انتقل الذين دخلوا فى الإسلام إلى قرى التتار والباشغرد ، بعد أن احتل التتار أماكنهم ، وبعد أن أصبحت القرية بأسرها تتارية فى واقع الأمر . واحتفظ قليل من شبيبة الجيل بشيء من لغة الشيريمس وتصاهروا مع التتار وحدهم[٣]. وإذا تركنا هذا النشاط فى تعليم الناس مبادىء الدعوة جانبا ، وجدنا تأثير التتار فى الكلام والعادات بين الشيريمس منتشرا انتشارا ملحوظا جدا . فقد انتشرت لغة التتار بينهم ، وجلبت معها أفكار الإسلام الأدبية والدينية . ويعد إدخال الزى التترى علامة على تفوق الثقافة . وإذا لم يرتد أحد أفراد الشيريمس الزى الذى يرتديه التتار، تعرض لسخرية أول تتارى يلتقى به أو لسخرية اخوانه من الشيريمس . وهذه الحركة الثقافية تجنح إلى انتحال ديانة التتار بصفة نهائية [٤]. وقد قيل إن الشيريمس قد أصبحوا بعد إسلامهم على جانب عظيم من الحماسة لنشر دينهم الجديد ، كما تلقوا معونة التتار الموسرين[٥]. هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ينظر الروس إلى الشيريمس نظرة احتقار ، ويعدونهم جنسا منحطا ، وينبزونهم بألقاب شائنة ، حتى هؤلاء الشيريمس من المسيحيين الذين يقيمون بين أظهرهم[٦]. ولايزال نحو ربع عدد الشيريمس على الوثنية ، ولكن المؤثرات الإسلامية كانت من القوة بينهم بحيث لا يبعد أن يصبح

(١) Eruslanov, pp. 3, 6.

(٢) Id. pp. 7-8.

(٣) Id. pp. 5-6.

(٤) Id. pp. 9, 13.

(٥) Id. pp. 17, 20, 36.

(٦) Id. pp. 38-9.

السواد الأعظم منهم مسلمين على مر الأيام(١). أما الشوفاش Chuvash الذين يبلغ عددهم المليون، فقد عمدوا بأسرهم تقريبا، ولا يزال نحو عشرين ألفا منهم على الوثنية، ولكن الإسلام يضمهم إلى صفوفه تدريجا، على حين أصبح بعض الشوفاش من المسيحيين مسلمين. وأصبحت البقية الباقية منهم واقعة تحت تأثير الإسلام. وقد نستدل على امتداد حماستهم نحو الذين دخلوا منهم فى الإسلام من إحدى قرى الشوفاش المسيحية التى يمكن أن نتخذها مثلا فى هذا الصدد، فقد قضى قسيسها سنوات كثيرة فى جمع ثلثمائة روبل Roubles كانت ضرورية لإصلاح الكنيسة. وتحولت ثمانى أسرات شوفاشية إلى الإسلام، فجمع المسلمون ألفى روبل فى خلال بضعة أشهر لبناء مسجد(٢). وإن مثل هذا النشاط الحى ليعد صفة تمتز بها الدعوة الإسلامية التى كانت منبثة بين القبائل الوطنية فى ذلك الحين. وكانت كل أسرة تقبل الإسلام تتلقى المعونة عينا أو نوعا: فالبيت يبنى للفرد، ويباع الحقل والماشية وغيرها لآخر. فإذا أسلمت أسرات كثيرة فى قرية من القرى، بنى لهم مسجد، وأسست مدرسة لأطفالهم(٣).

وليس لدينا إلا تفصيلات يسيرة عن انتشار الإسلام بين التتار فى سيبريا. ولم ترسخ قدم الإسلام فى هذه البلاد إلا بعد النصف الأخير من القرن السادس عشر، ولكن دعاة المسلمين كانوا يشقون طريقهم من حين لآخر إلى سيبريا، حتى قبل هذه الفترة، أملا فى اجتذاب الأهالى الوثنيين لقبول عقيدتهم؛ ولكن السواد الأعظم من هؤلاء الدعاة قد ماتوا موت الشهداء. وعند ما انضوت سيبريا تحت لواء الحكم الإسلامى، فى عهد كوتشم خان، كشف أحد الشيوخ المسنين مقابر سبعة من هؤلاء الدعاة؛ وكان هذا الشيخ قد قدم من بخارى للبحث عنهم إذ كان يتطلع إلى معرفة شىء عن خشوع هؤلاء الشهداء وإخلاصهم فى دينهم، واستطاع أن يدلى بأسماء هذا الفريق من الشهداء، وكانت ذكراهم لا تزال حتى القرن الأخير موضع تجلة واحترام لدى التتار فى سيبريا(٤). ولما أصبح كوتشم خان (الذى كان من سلالة جوجى خان، أكبر أبناء جنكيز خان) خانا على سيبريا (حول سنة ١٥٧٠) — وكان قد اكتسب حق توليه العرش، إما عن طريق قيامه بغزو البلاد، أو (على رواية أخرى) عن طريق دعوة الأهالى إياه لتولى العرش على أثر وفاة الخان السابق دون أن يعقب ذرية(٥)، - بذل قصاراه فى تحويل رعاياه إلى الإسلام، وأرسل إلى بخارى فى طلب دعاة لمساعدته فى هذه المهمة التى تنطوى على التدين والتقوى. وقد خلف لنا أحد الدعاة الذين قدموا من بخارى أخبارا، وصف فيها خروجه مع أحد رفاقه إلى حاضرة كوتشم خان، على ضفة نهر إرتس Irtish. وهناك مات رفيقه بعد سنتين، وقفل هو راجعا إلى وطنه لأسباب لم يتعرض هذا الكاتب لذكرها. ولم يلبث إلا قليلا حتى عاد إلى بلاد كوتشم خان ثانية لاستئناف عمله، وبصحبته رفيق آخر، وذلك حين عاود كوتشم خان بخارى

(١) Bobrovnikoff, p. 22.

(٢) Id. pp. 21-2, 31.

(٣) Id. p. 13. Islam and Missions, p. 257.

(٤) G. F. Müller: Sammlung Russischer Geschichte, vol. vii, p. 191.

(٥) Id. vol. vii. pp. 183-4.

بطلبه مددا من الدعاة[1]. كذلك قدم دعاة من قزان إلى سيبريا ؛ ولكن تقدم تيار الغزو الروسى وقف جهود كوتشم خان التبشيرية ، قبل أن ينجز منها شيئا كثيرا ، وخاصة عندما وقف كثير من القبائل التى تنضوى تحت حكمه ، يعارضون معارضة قوية كل المحاولات التى بذلها هذا الخان لتحويلهم إلى الإسلام .

بيد أنه على الرغم من أن الغزو الروسى وقف هذه الجهود ، لم يتوقف تقدم الإسلام فى هذه البلاد بحال من الأحوال ؛ فقد دأب الملبات الآتون من بخارى وغيرها من مدن آسيا الوسطى ، والتجار القادمون من قزان ، على موالاة الدعوة إلى الإسلام فى سيبريا. وفى سنة ١٧٤٥ تسرب الإسلام لأول مرة إلى قبائل التتار التى يطلق عليها Baraba Tatars (وكانت مساكنهم بين نهرى إرتش Irtish وأوب Ob)؛ ومع أن كثيرا منهم كانوا حتى مستهل القرن التاسع عشر لا يزالون على الوثنية ، أصبحوا الآن مسلمين بأسرهم[2]. وقد سبق الكلام على إسلام القرغيز : وتاريخ معظم القبائل الإسلامية الأخرى فى سيبريا على جانب كبير من الغموض ، وإن كان من المحتمل أن يكونوا قد اعتقدوا الإسلام فى عصر حديث . ومما هو جدير بالذكر ، تلك الأغانى الشعبية ، التى يتغناها القرغيز ، والتى تحتل مكانة كبيرة بين وسائل الدعاية الإسلامية فى الوقت الحاضر . وقد تضمنت هذه الأغانى حقائق الإسلام الأساسية ، مصوغة فى أسلوب قصصى أسطورى ، مما جعل هذه الحقائق تصل إلى قلوب عامة الشعب فى سهولة ويسر[3].

---

(١) Radloff, vol. i. p. 147.

(٢) Jadrinzew, p. 138. Radloff, vol. i. p. 241.

(٣) Radloff, vol. i. pp. 472, 497.

الباب التاسع

انتشار الاسلام فى الهند

تناول كثير من المؤرخين الأقدمين والمعاصرين على سواء ، الكلام على غزوات المسلمين فى الهند وتأسيس النفوذ الإسلامى ونموه فى هذه البلاد . بيد أن أحدا لم يحاول إلى الآن أن يكتب عن تاريخ انتشار الإسلام فى الهند ، باعتباره شيئا منفصلا عن الانتصارات الحربية والأعمال الإدارية التى قام بها أشياع هذا الدين . وفى الحق أن مثل هذا العمل يجب أن يبدو أمرا مستحيلا فى نظر كثير من هؤلاء المؤرخين . فطالما كانت الهند البلد المختار الذى يدين بوجود الإسلام فيه ، واستمرار ذلك الوجود ، إلى استقرار الشعوب الإسلامية الأجنبية الفاتحة ، الذين نقلوا دينهم إلى ذرياتهم من بعدهم ، ولم ينجحوا فى نشره فيما وراء بيئتهم إلا عن طريق الاضطهاد والإكراه على التحول إلى هذا الدين . ومن ثم يزعم بعض أن روح الدعوة الإسلامية تعلن عن صورتها الحق فيما أحدثه محمود الغزنوى من مذابح البراهمة الوحشية ، وفى اضطهادات أورنج زيب Aurangzeb(§) ، وفى حمل الناس على الختان ، على أيدى حيدر على ، وتيپو سلطان ومن شاكلهما .

على أننا نجد من بين الستة والستين مليونا(†) من مسلمى الهنود عددا هائلا لم يكن للقوة والعنف نصيب فى تحويلهم أو فى تحويل ذريتهم ، بل كان للتعليم والإقناع وحدهما اللذين لجأ إليهما الدعاة المسلمون تأثيره الفعال فى هذه السبيل . وإن هذه الطبقة من هؤلاء الذين تحولوا إلى هذا الدين لتؤلف فى حد ذاتها جماعة معينة ، يمكن أن تتميز عن هذه الجماعة التى تحولت عن طريق الإكراه وعن غيرها من العناصر غير المتجانسة التى يتألف منها مسلمو الهند . ويمكننا أن نقسم هذه الجماعة العامة على وجه التقريب ، إلى هؤلاء الذين ينتمون إلى جنس أجنبى ، والذين جاءوا بهذا الدين معهم وأدخلوه فى البلاد ، وإلى هؤلاء الذين تحولوا من إحدى الديانات القديمة فى البلاد بتأثير بواعث مختلفة وفى عصور متباينة من التاريخ . وتتألف الجاليات الأجنبية فى الهند من طوائف أصلية ثلاث : الأولى ، وهى أهمها من حيث العدد ، هى طائفة المهاجرين الذين قدموا عبر حدود الهند الشمالية الغربية ، والذين نجدهم فى إقليمى السند والپنجاب بوجه خاص ؛ والثانية هم بقايا أعضاء الطبقة الأرستقراطية أو جيوش الدول الإسلامية الذين أقاموا بكثرة فى أعالى الهند وبدرجة أقل بكثير فى هضبة الدكن . والطبقة الثالثة والأخيرة ، هم هؤلاء الذين استوطنوا الساحل الغربى ؛ ولا

(§) اسم أحد ملوكهم ومعناه زينة العرش (أورنج = العرش ، زيب = زينة) .

(†) أصبح عدد مسلمى الهند اليوم أكبر مما ذكره المؤلف بكثير

يبعد أن يكونوا من أصل عربى ، وقد جاء الذين أسسوا هذه المستعمرات إلى بلاد الهند عن طريق البحر[1]. ولكن عدد الأسرات ، التى تنتمى إلى أصل أجنبى ، والتى استوطنت بلاد الهند فعلا ، ليس كبيرا فى أى مكان إلا فى البنجاب وما يجاورها. وفى الحق أن أكثر من نصف مسلمى الهند قد تلقب بألقاب الشعوب الأجنبية المتميزة ، مثل شيخ وبك وخان ، بل بلقب سيد . بيد أن السواد الأعظم من هؤلاء المسلمين هم من سكان البلاد الأصليين أو من ذرياتهم الذين تحولوا إلى الاسلام ، وتلقبوا بلقب الشخص الذى بلغ أعلى مرتبة بين هؤلاء الذين أسلموا على أيديهم ، أو اندمجوا فى الطبقة الارستقراطية الإسلامية ، حتى ولو كان صادرا عن بواعث أقل أهمية من ذلك[2]. أما هذا القسم الثانى من هذه الجماعة — وهم أهالى البلاد الأصليون الذين تحولوا إلى الإسلام ، — فإن تغيير دين فريق منهم ، كان بعضه راجعا من غير شك إلى ما استخدم من وسائل العنف وضغط السلطات الرسمية ، على حين دخل السواد الأعظم منهم فى حظيرة الإسلام بمحض إرادتهم إلى حد بعيد . وإن تاريخ الحركات التى قام بها المسلمون لنشر الدعوة الإسلامية ، والمؤثرات الاجتماعية التى أدت إلى تحول أهل بلاد الهند إلى الإسلام لم تلق إلى الآن إلا عناية يسيرة جدا . وإن معظم الكتب التاريخية التى نستطيع الرجوع إليها ، والتى تتناول الكلام على المسلمين فى الهند ، سواء أكان مؤلفوها من الأوربيين أم من أهالى هذه البلاد ، لا تعدو أن تكون سجلات دونت فيها أخبار الحروب والحملات ، وما أتاه الأمراء من أعمال ، على حين لم يشيروا إلى حياة ذلك العصر ، إلا بقدر يسير. فإذا تصدوا لذكر شىء منها ، صاغوه فى صورة من التعصب وعدم التسامح الدينى . على أننا نستطيع من دراسة أولياء المسلمين ، ومن التقاليد المحلية ، أن ندرك شيئا من الأعمال التى قام بها دعاة المسلمين فى سبيل نشر الدعوة ، مستقلين تمام الاستقلال عن الحياة السياسية فى البلاد . ولكن يحسن بنا ، قبل أن نتناول الكلام على هذه الأعمال ، أن نأتى بنبذة عما قامت به السلطات الرسمية من نشر الدعوة إلى الاسلام ، وما قام به حكام المسلمين فى سبيل نشر عقيدتهم .

بعد أن انتقل الرسول إلى جوار ربه بخمس عشرة سنة ، أرسل العرب حملة إلى بلاد السند ، وأخذ سيل الغزاة يتدفق على بلاد الهند من ناحية الشمال الغربى ، واستمر ذلك الى القرن الثامن عشر الميلادى ، وكان بعض هؤلاء الغزاة من مؤسسى الإمبراطوريات العظيمة ، وبعضهم الآخر لم يعد أن يكون قوما مخاطرين . على حين أتى بعض بقصد السلب والنهب ، وعادوا محملين بالغنائم والأسلاب ، وبقى بعض آخر يؤسسون ممالك ظل أثرها إلى اليوم . ولكننا لا نعرف عن هؤلاء ، إذا كانوا قد استصحبوا معهم أية بعوث أو دعاة لنشر الدعوة . ولكن ذلك لم يكن راجعا إلى عدم اكتراثهم لدينهم . وقد ظهر لكثير منهم أن غزوتهم بلاد الهند اصطبغت بصبغة الجهاد الدينى ، وأن مثل هذه الفكرة قد تجلت فى ذهن كل من محمود

---

(1) Census of India, 1891. General Report by J. A. Baines, p. 167. (London, 1893.)

(2) Id. pp. 126, 207.

الغزنوى وتيمور ، وقد دون هذا الأخير فيما دونه عن نفسه بعد أن استولى على دهلى : « لقد قضيت خمسة عشر يوما فى دهلى ، بين مظاهر الفرح والنعيم ، أعقد مجالس البلاط الملكية ، وأقيم الأحفلة العظيمة ، ثم ذكرت أنى أتيت إلى هندستان لشن الحرب على الكفار . وقد بارك الله هذه الحملة ، فجعل النصر حليفى والظفر يتبعنى أنى ذهبت . ولقد انتصرت على خصومى ، وقتلت بعض مئات الألوف من الكفار وعبدة الأصنام ، ولطخت سيف الدعوة بدماء أعداء الدين . الآن وقد تم لى هذا النصر المبين ، أشعر أنه لا يحق لى أن أخلد إلى الراحة ، بل أن أبذل جهدى لشن الحرب على كفار هندستان (١) . ومع أن تيمور يتحدث كثيرا عن سيفه الذى استعان به فى نشر الدعوة ، يظهر أنه لم يتذرع بأية وسيلة أخرى أكثر مما فعله بإرسال الكفار إلى الجحيم . ويبدو أن معظم غزاة المسلمين قد سلكوا سبيلا تشبه تماما هذه السبيل . فباسم الله حطمت الأصنام ، وقتل سدنتها ، وهدمت معابدها ، وبنيت مكانها مساجد فى أغلب الأحيان . وفى الحق أن الإسلام قد عرض فى الغالب على الكفار من الهندوس قبل أن يفاجئهم المسلمون بالقتال (٢) . وقد أملت الرهبة فى بعض الأحيان على الناس أن يقبلوا إلى حين ما عرض عليهم للدخول فى الإسلام ، وأدت إلى حالات تحول إلى هذا الدين ، تلك الحالات التى كانت قصيرة الأمد فى الغالب على الأقل فى الأيام الأولى من الفتح الاسلامى ، ثم لم تصبح ذات تأثير بعد انسحاب الفاتحين . ومما يوضح لنا هذه الحالة قصة هردته Hardatta أحد ملوك(†) بلندشهر Bulandshahr ؛ فقد سرد لنا كاتب محمود الغزنوى كيف خضع له هردته ، وذلك فيما كتبه هذا الكاتب عن تاريخ حملات محمود ، قال : « وأخيرا (حول سنة ١٠١٩ م) (٤١٠ هـ) وصل (محمود) إلى حصن باربا (٣) فى بلاد هردات ، وهو أحد رائيس ra'is ، ومعناها «ملوك» فى اللغة الهندية . ولما سمع هردات عن هذه الغزوة التى قام بها جنود الله المحميون الذين تدفقوا كأمواج البحر ، تحيط بهم الملائكة من كل جانب ، أخذ منه الغضب كل ما أخذ ، وارتعدت فرائصه ، وخشى أن يخسر حياته بوقوعها تحت طائلة شريعة الله . لهذا رأى أن خير سبيل لنجاته أن يوافق على اعتقاد دين الإسلام ، ما دام سيف الله قد جرد من غمده وسوط العذاب قد رفع . لهذا تقدم مع عشرة آلاف رجل ، وأعلنوا رغبتهم فى التحول إلى الإسلام ونبذهم عبادة الأصنام » (٤) .

ولا يبعد أن يكون هؤلاء الذين دخلوا حديثا فى الإسلام قد اغتنموا أول فرصة للارتداد عند ما عرض عليهم ذلك إثر انسحاب الفاتحين ، وهى ظاهرة نجد من تقدم من مؤرخى الهند المسلمين يوالون الشكوى منها . ذلك أنه عند ما أغار قطب الدين أيبك على بران فى سنة ١١٩٣ م ، تصدى له فى عنف شندرازن ، الذى

(١) Elliot, vol. ii. p. 448.

(٢) دعا محمد بن القاسم امراء الهنود إلى اعتقاد الاسلام ، ولا يبعد أن يكون الغزاة الذين جاءوا بعده قد عملوا مثله على تنفيذ مبادىء الدين (Elliot, vol. i. pp. 175,207.)

(†) كلمة هندية معناها المدينة العالية .

(٣) أو بران وهو اسم بولاند شهر القديم .

(٤) Elliot, vol. ii. pp. 42-3.

كان رائجا فى ذلك الحين ، والذى كان ينحدر من بيت هردته ، وكان مجرد اسمه يدل على عقيدته الهندية . ولم نعد نسمع بعد ذلك عن وجود مسلمين تحت حكمه (١) .

ولكن يظهر أن هؤلاء الفاتحين كان لديهم شيء يسير جدا مما نسميه «حب النفوس» ، الذى يدفع الدعاة المخلصين إلى نشر الإسلام ، والذى أتم مثل هذه الغزوات العظيمة فى سبيل الإسلام . فقد بلغ من اشتغال أسرة الخلجيين Khiljis التى حكمت من سنة ١٢٩٠ إلى سنة ١٣٢٠ م ، وأسرة تغلق Tughlaqs التى حكمت من سنة ١٣٢٠ الى سنة ١٤١٢م ، وأسرة اللوديين التى حكمت من سنة ١٤٥١ الى سنة ١٥٢٦ م ، بالحروب ، أنهم لم يستطيعوا فى الغالب أن يحفلوا بالأغراض الدينية ، وأنهم قد فكروا فى فرض الضرائب واشتطاطهم فيها ، أكثر من تفكيرهم فى نشر الدعوة (٢) . ولكن الحماسة الدينية لم تنقصهم نقصا تاما . فقد قيل إن الجكر Ghakkars مثلا ، وهم شعب متبربر كان يسكن المقاطعات الجبلية شمالى البنجاب ، وكانوا قد أثاروا متاعب جمة للغزاة الأولين ، قد تحولوا إلى الإسلام بتأثير محمد الغورى فى نهاية القرن الثانى عشر . وقد أسر الملك المسلم زعيمهم وحثه على اعتقاد الإسلام ، وبعد أن أقره زعامته على هذه القبيلة ، أعاده لتحويل أتباعه إلى هذا الدين . ولما كان كثير منهم ذوى إلمام يسير بدينهم القديم ، كان من السهل أن يسود فيهم الإسلام (٣) .

وقد شجع الخلجيون — كما يقول ابن بطوطة — على تحويل الناس إلى الإسلام ، وسنوا عادة تقديم الشخص الذى دخل حديثا فى الإسلام إلى السلطان ، الذى كان يكسوه كسوة حسنة ، ويعطيه قلادة وأساور من ذهب على قدره(٤) . ولكن الحكام فى عهد الأسرات الإسلامية الأولى لم تكن لديهم الحماسة الكافية لنشر تعاليم الإسلام . ومن الصعب أن نجد فى تاريخهم ما يشبه هذه العبارة التى دونها فيروز شاه تغلق (١٣٥١ - ١٣٨٨ م) فيما كتبه عن تاريخ حياته قال : «لقد شجعت رعاياى الكفار على اعتقاد دين النبى ، وأعلنت لهم أن كل شخص يردد هذه العقيدة ويصبح مسلما ، يعفى من الجزية أو ضريبة الرأس . ولما اتصل هذا

---

(١) Gazetteer of the N.W.P., vol. iii. part ii. p. 85.

(٢) لم يعن الرواد الحربيون الذين أسسوا دولا فى شمال الهند ، وأقاموا لهم ممالك فى هضبة الدكن عناية تذكر بالمسائل الروحية ؛ فلم يكن لدى معظمهم فى الواقع أى وقت لنشر تعاليم الدعوة ، إذ كانوا مشتغلين دائما بالفتح أو الحروب الأهلية . وكانوا فى الغالب من سوقة التتر أو المغول ، ولم يكن دين محمد قد تمكن من نفوسهم ، كما أنهم لم يتأثروا بحماسة الأجناس السامية الصادقة التى دفعت أول من رفعوا أول لواء عربى فى الإسلام . فقد كانت الامبراطورية التى أسسوها ذات صبغة حربية خالصة . وظلت هذه الامبراطورية على هذه الحالة بتأثير ما أحرزوه فى فتوحهم من بعض النجاح وما منوا به من خيبة بالنسبة إلى غيرهم فى غزواتهم الروحية وكان لديهم من القوة ما جعلهم يحولون دون أى شىء يشبه الاندماج الدينى بين الهندوس ، أو دون جمع القبائل وجعلها أمة . ولكنهم كانوا أبعد ما يكونون عن تحويل الهند إلى الاسلام ، حتى إن دينهم لم يحصل على احتكار المناصب الادارية العالية بصفة كاملة نهائية ، بين المسلمين أنفسهم » . (Sir Alfred C. Lyall : Asiatic Studies, p. 289.) (London, 1882.)

(٣) Firishtah, vol. i. p. 184.

(٤) ابن بطوطة ج ٣ ص ١٩٧

النبأ بمسامع الناس ، تقدم الهندوس زرافات ووحدانا ، وسمح لهم بأن ينالوا شرف الإسلام ؛ ومن ثم أخذوا ينثالون من كل حدب وصوب . ولما اعتقدوا الإسلام ، أعفوا من الجزية ، ومنحوا الهدايا ، ومظاهر التكريم (١) .

ولما توطد النفوذ الإسلامي ، وخاصة في عهد أسرة المغول ، أصبح نفوذ الإسلام الديني بطبيعة الحال أكثر ثباتا واستمرارا . حقا أن هذه المؤثرات لتتجلى في الحركات الهندوكية التي تقول بوجود الله ، والتي ظهرت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وقد زعم الأسقف لفروى Lefroy أن طابع تعاليم الإسلام الواقعية قد جذب عقولا لم تقنع بنظام الفكرة الحلولية (†) التي تتميز بالغموض والنسبية (§) . « لما اصطدم الإسلام ، مع ما عرف عنه من تمثيل قوى لحقيقة وجود الله وتلك الحقيقة التي انبعثت منا ، وهى طابع الحق الذي يتميز بالثبات المطلق والمحسوسية البحتة - اصطدم بعقيدة الحلول التي تقوم على الغموض ، وعما قامت عليه هذه العقيدة من نسبية ، تبع ذلك بالضرورة أن الإسلام لم ينتصر في هذه المعركة فحسب ، بل لقد غدا البلسم الشافي الذي سرى في شريان الحياة والفكر في بلاد الهند العليا . وسرعان ما أحيى عقولا كثيرة وبث فيها حياة أكثر قوة ونشاطا ، تلك العقول التي لم تقبل من تلقاء ذاتها أن تتأثر بمثل هذا التأثير الفكري » (٢) .

وقد ظهر عامل قوى من عوامل التحول إلى الإسلام ، عند ما وقف اعتقاد الناس للديانة الوثنية عقبة دون التقدم بين رجال البلاط عند المسلمين . ومع أن روح التسامح ، التي بلغت ذروتها تحت حكم « أكبر » الذي كان يدين بالفلسفة الانتقائية (††) ، طالما مالأت الديانة الهندوكية ، بل احترمت الأوقاف الحكومية الخاصة بهذه الديانة في أغلب الأحيان (٣) . ومع أن خوف أكبر من عدم تأييد الجمهور له ورغبته في معالجتهم ، قد أملت عليه سياسة عدم التدخل ، وأنكرت أمثال هذه الأعمال العنيفة ، وثورات التعصب الديني ، التي كانت قد ميزت فترة الفتح والانتصار الأولى - مع هذا كله ، جذبت أمثال هذه البواعث التي أملتها المنفعة الذاتية كثيرين من الذين تحولوا من الديانة الهندوكية إلى العقيدة الإسلامية . ولقد تحول كثير من أفراد القبائل الهندية Rajputs بهذه الطريقة ،

---

(١) Elliot, vol. iii. p. 386.

(†) مذهب وحدة الوجود Pantheism مذهب فلسفي يقول أنصاره إن الله والكون واحد ، أي أن الله حال في كل شيء وفي كل جزء منه متحداً به حتى يجوز أن يطلق الله على كل شيء .

(§) النسبية أي المذهب الذي يقول إن المعرفة البشرية شخصية بحتة .

(٢) Mankind and the Church, p. 286. (London, 1907.)

(††) يراد بهذه الفلسفة مذهب فرقة اغريقية ظهرت في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد ، وتقول بعدم الانحياز لمذهب ما ، بل باختيار الحسن من كل الأحزاب .

(٣) Sir Richard Temple ; India in 1880, p. 164, (London, 1881.) Punjab States Gazetteers, vol. xxxvi. A. Bahawalpur, p. 183.

ولا تزال سلالتهم إلى اليوم بين الطبقة الأرستقراطية من ملاك الأراضى . وربما كان أهم هؤلاء ذلك الفرع الإسلامى الذى ينتمى إلى عشيرة بشجوتى Bachgoti، وعلى رأسها شريف أوده Oudh الزعيم المسلم الأول. فقد روى فى إحدى أساطيرهم أن الإمبراطور «بابر» أسر تيلك تشند Tilok Chand ، الذى دان بالإسلام ليسترد حريته . على أن أسطورة أخرى ترجع تحوله إلى الإسلام إلى عهد همايون Humàyùn . ذلك أن هذا الأمير لما سمع بجمال زوجة تيلك تشند الفاتن ، أمر رجاله فقادوها إليه من أحد الأسواق . ولكن سرعان ما أنبه ضميره وردها إلى زوجها . وكان تيلك تشند قد استولى عليه اليأس ، واعتقد أنه لن يراها أبدا ، واعترافا بهذا الجميل ، اعتقد هو وزوجته الإسلام ، «الذى يلقن الناس مثل هذه العفة التى تنطوى على كرم الأخلاق» (١) . ويبدى أفراد القبائل الذين تحولوا إلى الإسلام حماسة بالغة . وكثيرا ما نراهم يقاومون شعائر دينهم القديم بطريقة تثير الدهشة . وفى مقاطعة بلند شهر Bulandshahr مثلا نرى أسرة مسلمة كبيرة تشتهر باسم لالخانى پتهان Làlkhàni Pathàns لا تزال تحتفظ (مع استثناءات قليلة) بألقابها الهندية القديمة ، وعادات أسراتها فى الزواج ، على حين لا تزال هنالك فروع هندية من نفس هذه العشيرة تقيم معها إلى الآن جنبا إلى جنب (٢) . وفى مقاطعة مرزابور Mirzapur لا يزال أفراد قبيلة جُهروار Gaharwàr ، الذين يدينون الآن بالإسلام ، يحتفظون بنظمها وعاداتها وتقاليدها الهندوكية القديمة ، ويصدرون أسماءهم الإسلامية بألقاب الشرف الهندوكية (٣) .

وقد قيل إن الضغط الحكومى لم يكن قط أشد على الهندوس منه فى عهد أورنج زيب Aurangzeb . وفى مقاطعات البنجاب الشرقية نجد حالات كثيرة يقال فيها إن جد العشيرة الإسلامية التى تتكون من جماعة هذه القرية قد غير دينه فى عهد هذا المتعصب ، «لكى يخلص أرض القرية» . وفى مدينة جرجاون Gurgaon القريبة من دلهى ، نجد أسرة هندية تنتمى إلى بنياس Banyas الذى لا يزال يحمل لقب شيخ (الذى انتحله عادة الهندوس الذين تحولوا إلى الإسلام) ، لأن أحد أفراد هذه الأسرة ، الذى انمحى نسبه الآن ، قد تحول إلى الإسلام ليخلص أملاك أسرته من المصادرة (٤) . وأرغم كثيرا من أفراد القبائل من ملاك الأراضى فى مقاطعة كونبور على الدخول فى الإسلام لهذا السبب نفسه (٥). وقد قيل فى بعض حالات

---

(١) Gazetteer of the Province of Oudh, vol. i. p. 466.

(٢) Gazetteer of the N.W.P., vol. iii. part ii. p. 46.

(٣) Gazetteer of the N.W.P., vol. xiv. part ii. p. 119.

فى مقاطعة كونبور Cawnpore يحتفظ الفرع الاسلامى من أسرة دخيت Dikhit بالعادات الاسلامية فى الولادة والزواج والوفاة . ومع أنهم لا يستطيعون تلاوة الصلاة المساة نماز Namaz عادة ، فانهم يقيمون طقوسهم النسبية بالسجود، ولكنهم يعبدون جيچك ديوى Chachak Devi (إلهة الجدرى والحصبة) فى الوقت نفسه ليدرءوا عنهم مرض الجدرى ، ويحتفظوا بأواصر الصداقة مع اخوانهم الذين ينتمون الى نفس طبقتهم القديمة ، وهم الثكور Thakurs فى الحوادث العائلية ، ويسمون عادة بأسماء هندية شائعة.

(Gazetteer of the N.W.P., vol. vi p. 64.)

(٤) Ibbetson, p. 163.

(٥) Gazetteer of the N.W.P., vol. vi, p. 64.

إخرى أن هذا الجد قد سيق أسيرا أو رهينة إلى دهلى ، حيث أرغم على الختان والتحول إلى الإسلام (١). وينبغى أن نلاحظ أن مصدر هذا التحول الذى تم عن طريق الإكراه إنما هو وليد أسطورة قبلية أو محلية. وليس هناك إشارة (بقدر ما أمكننى الوصول إليه) إلى ذلك فى العبارات التاريخية الخاصة بحكم أورنج زيب (٢). ومما لا مشاحة فيه أن حكام المسلمين قد حولوا النـاس إلى الإسلام بالقوة ؛ ويبدو أنه من المحتمل أن ما اتصف به أورنج زيب من غيرة معروفة على عقيدته الدينية قد حمل كثيرا من الأسرات الإسلامية فى شمال الهند (التى نسى تاريخ تحولهم) على أن تنسب تبديل عقيدتهم إلى هذه الغيرة . وهذا السبب هو أقرب الأسباب احتمالا . وشبيه بهذا ما نراه فى هضبة الدكن ، حيث شارك أورانج زيب ، حيدر على وتيبو سلطان Tipu Sultān (وهم أشهر حكام المسلمين فى العصر الحديث) ، فيما شاع من إكراه أسرات مختلفة وطوائف من الأهلين ، الذين يبدأ تحولهم إلى الإسلام بلا ريب إلى عهـد أقدم من هذا بكثير ، حيث لم يصل إلينا أية إشارة تاريخية عن الحوادث التى اكتنفت هذه المسألة (٣).

ولعل تيبو سلطان هو الحاكم المسلم الذى أخذ على نفسه مهمة تحويل الناس إلى الإسلام بالإكراه . ففى سنة ١٧٨٨م أذاع المنشور التالى على أهالى مليبار : « بعد انقضاء أربع وعشرين سنة على غزو بلادكم ، لا تزالون على عصيانكم وتمردكم ، ولا زلتم مصدر القلق والاضطراب . وفى الحروب التى نشبت فى خلال فصلكم المطر ، كنتم أنتم السبب فى استشهاد كثير من جندنا . وليكن هـذا ، فإن ما فات مات . وإنى مستعد لأن أتناسى الماضى . وقد حان الوقت الذى يجب أن تعدلوا عن خطتكم ، وتلزموا السكينة والهدوء ، وتؤدوا ما عليكم من الضرائب كما يفعل الرعايا الأخيار . وما دامت المرأة فيكم لا تقنع برجل واحد ، بل تعاشر عشرة رجال ، وما دمتم تذرون أمهاتكم وأخواتكم ينغمسن فى حمأة الرذيلة ، فإن جميع الناس يولدون من سفاح ، وما دمتم فى علاقاتكم أكثر قحة من الوحوش الضارية ، لذلك أرى لزاما علىّ أن أنهاكم عن هذه العادات الأثيمة ، وأنصح لكم أن تكونوا كسائر البشر . وإذا عصيتم أمرى وخالفتم عن نصحى ، فقد أقسمت قسما حقا غير حانث فيه ولا آثم ، أن أحملكم على الصراط المستقيم ، وأن أنيلكم شرف الإسلام أجمعين ، وأن أسوق جميع عظمائكم كبيركم وصغيركم إلى مقر حكومتى» . وقد أشعل هذا المنشور نار الثورة فى مليبار . ففى

= قارن أيضاً ما ورد فى نفس هذا المصدر vol. xiv, part. iii, p. 47. ,,إن الزراع المسلمين لم يكن عددهم كبيرا ، وهم إلآن مسلمون دخلوا حديثا فى الاسلام . ويرجع معظمهم تاريخ تحولهم الى حكم أورنج زيب ، ويصفونه بأنه كان أحيانا نتيجة للاضطهاد ، وأحيانا أخرى وسيلة لتمكينهم من الاحتفاظ بحقوقهم اذا عجزوا عن أداء الخراج ,, .

(١) Ibbetson, p. 163.

(٢) حقا قال فرشته Firishtah فى وضوح : ,, ولقد بلغ من تحمسه لعقيدة محمد أنه كافأ الذين تحولوا الى الاسلام بالاغداق عليهم ، ولو أنه لم يؤثر عنه أنه كان يضطهد هؤلاء الذين يدينون بعقائد أخرى فى الأمور الدينية ,, .

(The History of Hindostan, translated from the Persian by Alexander Dow, vol. iii, p. 361-) (London, 1812.)

(٣) The Bombay Gazetteer, vol, xxii, p. 222, vol, xxiii, p' 282.

مستهل سنة ١٧٨٩ أعد تيبوسلطان جيشا جرارا يتألف من عشرين ألف مقاتل لتنفيذ هذا المنشور بالقوة .
وأصدر أوامر عامة بأن « كل شخص فى هذه المقاطعة يجب أن يتشرف بالدخول فى الإسلام من غير تمييز .
وأن دُور الذين يفرون تخلصا من هذا الشرف ، يجب أن تحرق ، وأن يقتفى أثرهم حتى يصلوا إلى مكامنهم ،
كما يجب أن تستخدم كافة وسائل الصدق والنفاق ، والقوة أو الخداع ، فى حملهم جميعا على تغيير دينهم .
وعلى أثر ذلك اختتن آلاف من الهندوكيين ، وحملوا على أن يأكلوا لحم البقر . على أن الجيوش الإنجليزية
لم تلبث أن قضت على ما بقى من قوة تيبو سلطان فى أواخر سنة ١٧٩٠م ، ولقى هذا الحاكم حتفه فى مستهل
سنة ١٧٩٩ باستيلاء الإنجليز على سرى رنجا پتم Seringapatem (†) ، وأنكر معظم البراهمة والنيار Nayars
الدين الإسلامى ورفضوه ، وعادوا إلى دينهم القديم(١) .

ويمكن أن نحكم على مبلغ ضآلة تأثير انتشار الإسلام بالإكراه من جانب الحكام المسلمين من هذه
الحقيقة وهى ، أنه حتى فى المراكز التى يسود فيها النفوذ الإسلامى ، مثل دهلى وأجرا ، لا يكاد يعدو عدد
المسلمين فى العصور الحديثة على العشرة فى المائة من سكان الإقليم الأول ، على حين أن عدد المسلمين فى
الإقليم الثانى لايكاد يبلغ ربع السكان(٢) . وهناك مثل بارز نسوقه على عدم أهمية تحويل الناس إلى الإسلام
عن طريق الإكراه . ويتجلى هذا المثل فى حالة بودهمَل Bodh Mal راجا مجهولى Raja of Majhauli
فى مقاطعة جوركهپور Gorakhpur . فقد قبض عليه وأكره ، بسبب اختلاسه أموال الخراج ، وحمل إلى
دهلى حيث تحول إلى الإسلام وتسمى باسم محمد سليم . على أنه لما عاد ، رفضت زوجته أن تسمح له بالدخول
إلى قلعة أجداده ، ولما جذبت عطف رعيته إلى جانبها على ما يظهر ، حكمت بلاده فى الوقت الذى كان ابنه
بهوانى مال Bhawani Mal قاصرا ؛ وبذلك ظل الحكم فى هذا البيت دون أن يتعرض له أحد من غير
أفراده (٣) . وقد بقى إلى الآن بعض مخلفات عجيبة تدل على تفاهة تحول الناس إلى الإسلام بطريقة مماثلة ،
نلاحظها فى بعض طقوس الطائفة الهندوكية التى يطلق عليها اسم بشنوئى Bishnois ؛ ومن شعائرها الرئيسة
إنكار جميع آلهتهم الهندوكية عدا وشنو Visnu . وقد اعتادوا حديثا أن يدفنوا موتاهم بدل إحراقهم بالنار ،
واتخذوا اسم «غلام محمد» وغيره من الأسماء الإسلامية ، واستعملوا الصيغة التى يستعملها المسلمون فى السلام .
وقد فسروا انتحالهم هذه العادات الإسلامية بقولهم إنهم ذبحوا مرة قاضيا كان قد تدخل فى طقوسهم
الخاصة بإحراق الأرامل ، فكفروا عن خطيئتهم باعتقادهم الإسلام . على أنهم قد رفضوا الآن إقامة هذه
الشعائر مراعاة للعادات الهندوكية (٤) . على أن بعض حكام المسلمين لم يكونوا ، على الرغم من ذلك ، أكثر
نجاحا فى إكراه بعض رعاياهم من الهندوكيين على قبول الإسلام ، مما كانوا عليه فى الحالات التى ذكرناها

(†) تقع فى ولاية ميسور جنوبى الهند ، وقد أسسها حيدر على فى القرن الثامن عشر

(١) Innes, pp. 72-3, 190.

(٢) Sir W. W. Hunter : The Religions of India (The Times, February 25th 1888.)

(٣) Gazetteer of the N. W. P. vol. vi. p. 518.

(٤) Gazetteer of the N. W. P. vol. v. part i. pp. 302-3

آنفا ؛ ومهما يكن مبلغ الصدق فيما زعمه بعض الباحثين من أنه (١) « من المحال أن تدنو حتى من الجانب الديني الخاص بموقف المسلمين في الهند ، من غير أن تتمثل مظهره السياسي أولا » ، فإننا نجد بلا ريب أن الإسلام قد أحرز أعظم انتصاراته وأطولها بقاء في نشر الدعوة في الأزمان والأماكن التي كانت فيها قوته السياسية أشد ما تكون ضعفا ، كما كانت الحال في جنوب الهند وفي شرق البنغال . ولا بأس من أن نعرض هنا لبعض أمثال حركات الدعوة ، مبتدئين بجنوب الهند وهضبة الدكن ، وبعد أن نعرض للكلام على تاريخ السند والكتش Cutch وجوجرات ، ننتقل إلى البنغال ، وأخيرا نشير إلى بعض ما قام به الدعاة في خارج نطاق هذه الحدود الجغرافية التي تقدم ذكرها . أما هؤلاء الدعاة الكثيرون ، فلم يدوّن المؤرخون عنهم إلا أخبارا قليلة ، اللهم إلا ما ذكروه عن أسمائهم ومجال أعمالهم ؛ ومن ثم لا نجد في متناول أيدينا تفاصيل في هذا الصدد نظرا إلى ندرة أمثال هذه الأخبار الخاصة بالدعوة بوجه عام .

ويرجع دخول الإسلام في جنوب الهند لأول مرة إلى القرن الثامن الميلادى ، حين قدم جماعة من اللاجئين من العراق ، - وكانوا يرجعون منشأهم إلى المابلا Mappillas - واستقروا في هذه البلاد(٢) . وكان العرب والفرس يزاولون تجارة التوابل والعاج والأحجار الكريمة وغيرها بين الهند وأوربا مئات كثيرة من السنين . وقد أدى ذلك إلى توالى تدفق النفوذ الإسلامى على الساحل الغربي من بلاد الهند الجنوبية . وكان من أثر تدفق الأجانب المستمر على هذا الإقليم أن نشأ خليط من السكان يتألف بعض منه من الدم الهندى ، وبعض آخر من الدم العربي أو الفارسي ، وذلك في مراكز التجارة الواقعة على طول الساحل . ويبدو أن علاقات ودية وطيدة نشأت بين هؤلاء التجار المسلمين والحكام الهنود الذين بسطوا لهم حمايتهم ومدوا لهم يد المؤازرة والمعاضدة ، نظرا إلى نشاط الحركة التجارية المتزايد ، وما تبع ذلك من رخاء البلاد الذى كان نتيجة لبقاء هؤلاء التجار فيها (٣) . ولم تقف عقبات في سبيل نشر تعاليم الدعوة ، ولقى الذين دخلوا في الإسلام من أهالى هذه البلاد الاحترام والتقدير اللذين لقيهما التجار الغرباء ، مع أنهم كانوا قبل إسلامهم ينتمون إلى أحط طبقة في المجتمع (٤) .

وتصور الأخبار المنقولة عن دخول الإسلام في مليبار ، كما أوردها مؤرخ مسلم عاش في القرن السادس عشر الميلادى ، أن أسبق الدعاة كانوا جماعة من الحجاج في طريقهم لزيارة أثر قدم آدم في سيلان . فلما وصلوا إلى جرنجانور Cranganore بعث الراجه في طلبهم ، ووجد الشيخ شرف بن مالك ، زعيم هذه الجماعة ، وكان في صحبة أخيه مالك بن دينار ، وابن أخيه مالك بن حبيب ، الفرصة سانحة لأن يبسطوا له عقيدة الإسلام ورسالة محمد ، فأدخل الله سبحانه في قلبه صدق النبي ﷺ فآمن به ، ودخل في قلبه

(١) Sir Alfred C. Lyall : Asiatic Studies, p. 236.

(٢) نجد على مقبرة من مقابر Pantalàyini Kollam نقشا يحمل تاريخ ١٦٦ هـ (Innes, p. 436.)

(٣) زين الدين ص ٢٤ — ٢٥ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٦ .

حب النبي ﷺ ، وأمر الشيخ بأن يرجع هو وأصحابه إليه بعد زيارة قدم آدم عليه السلام [١].
ولما عاد الحجاج من سيلان رحل الملك معهم خفية في سفينة كانت على أهبة الرحيل إلى ساحل بلاد العرب ، تاركا مملكته فى أيدى نوابه . وهنا بقى وقتا ما . ولما أوشك أن يعود إلى بلاده ، معتزما بناء المساجد ونشر عقيدة الإسلام فيها ، انتابه المرض ومات . وقد أوصى رفاقه وهو على فراش الموت ، وشدد فى الوصية ، ألا يعدلوا عن رحلتهم التى أزمعوا القيام بها إلى مليبار لنشر الدعوة ، وأن يساعدوهم على أداء مهمتهم ، وأعطاهم كتبا إلى نوابه يوصيهم فيها بهم خيرا ، وأمر رفاقه فى الوقت نفسه أن يكتموا حقيقة موته . ولما تسلح شرف بن مالك ورفاقه بهذه الكتب أبحروا إلى جرنجانور ، حيث أتاحت لهم رسالة الملك حفاوة كريمة ومنحة من الأرض عمروا عليها مسجدا . وقد عزم مالك بن دينار على الاستقرار فى هذه البقعة ، ولكن مالك بن حبيب سافر فى رحلة ترمى إلى نشر الدعوة الإسلامية وبناء مساجد فى كافة أرجاء مليبار . « فخرج مالك بن حبيب إلى « كولم » بماله وزوجته وبعض أولاده ، وعمر بها مسجدا ، ثم خرج منها بعد ما خلى زوجته فيها إلى هيلى ماراوى[٢] وعمر بها مسجدا » . وكذا تستمر القصة ، فتورد سبعة أماكن أخرى بنى هذا الداعى فيها مساجد ، ثم عاد أخيرا إلى جرنجانور . وقد زار كل هذه الأماكن أخيرا للمرة الثانية ليؤدى الصـــلاة فى كل منها ، ورجع إلى وطنه « شاكرا الله وحامدا له بظهور دين الإسلام فى أرض ممتلئة كفرا[٣] » .

وليس هناك دليل على صحة هذه الرواية من الناحية التاريخية ، على الرغم مما تتصف به من الإسهاب . ويضع الاعتقاد السائد تاريخ وقوع هذه الحوادث المدونة إلى الزمن الذى عاش فيه النبى . وقد ظن زين الدين فى شىء قليل من الشك أن هذه الحوادث إنما وقعت بعد المائتين من الهجرة النبوية[٤]. ولكن ليس هناك ما يؤيد ترجيح أحـــد هذين التاريخين على الآخر ، أو ما يؤيد رواية المابلا الشائعة الخاصة بوجود قبر أحد ملوك الهندوكيين فى ظفار على ساحل بلاد العرب ، وقد نقش عليه « عبد الرحمن السامرى ، قدم سنة ٢١٢ ﻫ ، وتوفى سنة ٢١٦ »[٥] . كما يحمل المسجد الذى بنى فى مدايى ، والذى قيل إن الذى بناه هو مالك بن دينار ، نقشا تذكارا لبنائه فى سنة ١١٢٤ م[٦].

على أن الأسطورة تحمل فى الواقع الدليل على طابع المسالمة الذى اتسمت به مؤثرات نشر تعاليم

---

(١) زين الدين ص ٢١ .
(٢) هى مدينة مدايى الحديثة .
(٣) زين الدين ص ٢٣ — ٢٤ .
(٤) المصدر نفسه ص ٢٥ .
(٥) Innes, p. 41.
(٦) Id. p. 398.

الدعوة التى كانت قائمة على ساحل مليبار قرونا عدة . وكان الأفراد الذين قاموا بهذا العمل تجارا من العرب خاصة . بيد أن ابن بطوطة يذكر كثيرا من علماء الدين الذين اتخذوا تعليم الدين حرفة ، وقد جاءوا من بلاد العرب وغيرها ، وقد قابلهم فى مدن شتى على ساحل مليبار(١) . وقد قيل إن زامورن ، وكان أحد كبار أنصار التجارة العربية فى قليقوط ، شجع دخول الناس فى الإسلام ، ليجهز السفن العربية التى اعتمد عليها فى إعلاء مكانته ، كما قيل إنه أمر بأن يكون فى كل أسرة من صيادى السمك فى بلاده فرد أو أكثر من الذكور ينشئون تنشئة إسلامية(٢) . وفى مستهل القرن السادس عشر قدر عدد أهالى المابلا بأنهم كانوا يؤلفون خمس سكان مليبار ، وأنهم كانوا يتكلمون بلغة الهندوكيين ، ولم يتميزوا عنهم إلا بلحاهم الطويلة ولباس رأسهم الخاص . ولكن حين قدم البرتغاليون ، كان من الممكن أن يدخل جميع أهالى هذا الساحل فى الإسلام ، بسبب ما حدث من كثرة تحول الناس إلى الإسلام ، وما كان لتجار المسلمين الذين جاءوا من سائر جهات الهند مثل جوجرات والدكن ، ومن بلاد العرب وفارس ، من نفوذ قوى(٣) .

ولكن يظهر أنه ليس هناك خبر مدون عن الأفراد الذين قاموا بنصيب فى نشر الدعوة ، اللهم إلا ما ذكره المؤرخ عبد الرزّاق ، الذى ترك لنا وصفا لسفارته التى لم تصادف نجاحا فى بلاط زامورن ملك قليقوط . فقد أرسله الشاه روخ بهادر أحد ملوك الأسرة التيمورية فى هذه السفارة سنة ١٤٤١ ، تلبية لنداء أحد السفراء ، وكان قد أرسله زامورن ملك قليقوط إلى هذا الملك . وكان السفير نفسه مسلما ، وقد صور للسلطان أن إرسال رسالة خاصة إلى الزامورن أمر على جانب عظيم من السمو والأهمية ، وطلب إليه أن « يدعو الزامورن لقبول الإسلام اتباعا لأمره تعالى : (ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)(٤) ، وافتح مغلاق الظلمة والباطل الذى أوصد قلبه المظلم ، ودع بهاء نور الإيمان ، وسطوع ضياء الشمس يشرقان من نافذة روحه » . وقد اختير عبد الرزاق (٥) لهذه المهمة ، فوصل إلى قليقوط بعد رحلة

---

(١) ابن بطوطة ج ٤ ص ٨٢ ، ٨٨ وغيرها .

(٢) Innes, p. 190.

(٣) Oboards Barbosa, p. 310.

وكذلك زعم بعض أن سيلان لم تصبح مملكة إسلامية إلا بعد قدوم البرتغاليين . ذلك أنه قبل أن تظهر قوات البرتغاليين فى البحار الهندية ، كان تجار العرب سادة التجارة فى هذه الجزيرة بلا منازع (حيث كانوا فى الواقع قد كونوا مستعمرات تجارية قبل مولد النبى بقرون) ، كما كانوا يوجدون فى كل ميناء ومدينة ، بينما جذبت سهولة التجارة جماعات كبيرة من وفود جديدة جاءت من مستعمراتهم فى مليبار . وهنا صنع تجار العرب ما كانوا يصنعونه فى أى مكان ، فتصاهروا إلى أهالى هذه البلاد ، ونشروا دينهم على طول الساحل ، ولكن يظهر أنه لم تقم هناك حركة فعالة صحيحة لنشر تعاليم الدعوة ، بل لم يظهر السنغاليون غير راغبين فى اعتناق الاسلام ، كما يظهر أن معظم مسلمى سيلان فى الوقت الحاضر ينتمون إلى أصول عربية .

Sir James Emerson Tennent: Ceylon, vol. i. pp. 631-3. (5th ed., London, 1860.)

(٤) سورة ١٦ آية ١٢٦ .

(٥) مطلع السعدين ، ورقة ١٧٣ .

محفوفة بالخاطر ؛ ولكن يظهر أنه قوبل مقابلة جافة . وبعد أن مكث هناك نحوا من ستة أشهر ، ترك الأغراض الأساسية ، وقفل راجعا إلى خراسان فوصل إليها بعد أن تغيب ثلاث سنين .

وهناك جماعة أخرى من المسلمين فى جنوب الهند ، وهم الرفوتّان Ravuttans[١] ، الذين يعزون دخولهم فى الإسلام إلى تعاليم الدعاة الذين يمجدون قبورهم حتى الوقت الحاضر . وكان سيد نَتهرشاه[٢] (٩٦٩ — ١٠٣٩ م) أشهر هؤلاء الدعاة ؛ وكان قد طوّف كثيرا فى بلاد العرب وفارس وشمال الهند ، ثم استقر فى ترتشنابلى Trichinopoly ، حيث قضى بقية حياته فى العبادة وأعمال الخير ، وحول عددا كبيرا من الهندوكيين إلى عقيدة الإسلام . وكثيرا ما يؤم الناس قبره ويعدونه مكانا للحج . وقد أطلق المسلمون على ترتشنابلى اسم نتهرنجر ، تيمنا باسم هذا الولى[٣]. وكان سيد إبراهيم شهيد (ويقال إنه ولد حول منتصف القرن الثانى عشر) ، وضريحه على شاطىء نهر إراودى بطلا محاربا ، قاد حملة إلى مملكة باندیان Pandyan ، واحتل هذه البلاد اثنتى عشرة سنة تقريبا ، ولكنه قتل أخيرا . على أنهم أنقذوا حياة ابنه تقديرا لحكم أبيه الحافل بالخير ، ومنح قطعة من الأرض ، ولا يزال أعقابه ينعمون بها إلى اليوم . وكان آخر هؤلاء الأولياء شاه الحميد (١٥٣٢ — ١٦٠٠) ، وقد ولد فى مانكپور فى شمال الهند ، وقضى معظم حياته فى زيارة مشاهد الإسلام المقدسة ، وفى القيام برحلات لنشر الدعوة وخاصة فى كل أرجاء جنوب الهند ، واستقر أخيرا فى ناجور حيث لا يزال أعقاب ابنه المتبنى يتعهدون قبره[٤] .

وهناك جماعة أخرى من المسلمين فى جنوب الهند ، وهم الدودى كولا Dudekulas ، يعيشون على تنقية القطن (كما يدل على ذلك اسمهم) ، ونسج الأقمشة الخشنة ، ويعزون دخولهم فى الإسلام إلى بابا فخر الدين الذى يمجدون قبره فى بينوكنده Penukonda . وتقول الأسطورة إنه كان فى الأصل ملكا على سيستان ، ثم نزل عن عرشه لأخيه وأصبح من سؤّال الهنود المتدينين . وبعد أن حج إلى مكة والمدينة أمره النبى فى الرؤيا بأن يذهب إلى الهند ؛ وهنا قابل نتهر شاه ولى ترتشنابلى وتتلمذ عليه ، فأرسله فى صحبة مائتين من سؤال المتدينين فى بعثة لنشر تعاليم الدين . وتستمر الأسطورة فتخبرنا أنهم استقروا أخيرا فى بينوكنده على مقربة من معبد هندى . حيث لم يرحب راجا هذا المكان بوجودهم ، ولكن بدلا من أن يلجأ إلى القوة ، أجرى اختبارات كثيرة ليقف على ما إذا كان هذا الولى المسلم أو كاهن هذا الراجه

(١) ويوجد هؤلاء بصفة خاصة فى مقاطعات مدورا ، وتناولى Tinnevelly وكويم بتور Coimbatore وأركوت الشمالية North Arcot وأهالى نيل جيرى Nilgiris من الذين يتكلمون لغة تامل Tamil (وهى لغة يتكلم بها أهالى جنوب الهند) .

(٢) وتنعته مجـلة Imperial Gazetteer of India (vol. xxiv. p. 47) باسمه نادر شاه ، ويطلق قادر حسين خان عليه اسم نتهر ولى .

(٣) Madras District Gazetteers. Trichinopoly, vol. p. 338. (Madras, 1907.) Qàdir Husayn Khàn : South Indian Musalmans, p. 36. (Madras, 1910).

(٤) Qàdir Husayn Khān, pp. 36-8.

أحق بالقداسة التي تؤهله لامتلاك المعبد . وفي اختباره الأخير أمر بكليهما أن يربطا في أكياس مملوءة كلسا ، ثم يلقى بها في صهاريج . وقد رسب الكاهن الهندوكي ولم يظهر ، ولكن بابا فخر الدين برهن على تفوق عقيدته بأن انتقل بمعجزة إلى تل في خارج المدينة . ومن ثم دخل الراجا في الإسلام ، وحذا حذوه عدد كبير من سكان البلاد المجاورة ، وتحول المعبد إلى مسجد (١) .

ولا شك أن تاريخ الإسلام في جنوب الهند ظل دائما يتسم بطابع السلام ، ولكن لا يبدو أن تحول الهندوكيين وغيرهم إلى الإسلام عن طريق الإكراه ، الذي ارتكب في الوقت الذي أصبح فيه النفوذ الإسلامي مطلقا في عهد حيدر علي (١٧٦٧ — ١٧٨٢) وتيبو سلطان (١٧٨٢ — ١٧٩٩) ، يمكن أن يوازن بما كانت عليه الحال في تاريخ هذا الجزء من بلاد الهند الذي سبق هذا العهد . على أنه مهما يكن من أمر ، فليس ثمة ما يدعو إلى الشك في أن تحويل الناس المطرد إلى الإسلام بالطرق السلمية كان من بين الطبقات السفلى (٢) ، كما هي الحال في الوقت الحاضر حين يزداد دخول الناس من حين إلى حين من بين أفراد قبيلة تيان Tiyans ، الذين يقال إنهم يكونون إحدى الجماعات التي تعد من أكثر الجماعات تقدما في الهند ، وجماعة مكهوڤن Mukkuvans ، أي طبقة السماكين ، وكذلك من طبقة تشرومن Cherumans أي حراث الأرض ، وغيرها من طبقات الرقيق ، الذين يخلصهم الإسلام من القيود التي تلحق بالمنبوذين في نظام الهند الاجتماعي . وقد يحدث كذلك أن يؤخذ الداخلون في الإسلام من بين النيار والأهالي المسيحيين . وفي بوناني Ponnani ، مقر الرئيس الروحي لجماعة المسلمين في مليبار ، توجد رابطة يطلق عليها « منة الإسلام سبها » ، أي مجلس منة الإسلام ، حيث يلقن الذين يدخلون في هذا الدين شعائر دينهم الجديد ، وتقدم المساعدات المادية إلى هؤلاء الذين ينتظمون في سلك التعليم . وكان متوسط عدد الذين قبلوا في هذا المعهد ممن تحولوا إلى الإسلام ٧٥٠ في خلال السنوات الثلاث الأولى من القرن العشرين (٣) . وقد بلغ من كثرة تحول الناس من الديانة الهندوكية أن ميول مسلمي الساحل الغربي ، وكذلك الساحل الشرقي لبلاد الهند الجنوبية ، كانت تجنح إلى الطابع الهندوكي أو الوطني . ويمثل السواد الأعظم منهم الآن ، اللهم إلا في حالة بعض الأسر التي تنتمي إلى أصل أرقى ، كل الصفات التي يتميز بها شعب أصيل في القومية ، مع قليل جدا من الدم الأجنبي القديم الذي يجري في عروقهم (٤) . وفي الأقاليم الواقعة على الساحل الغربي نجد طغيان التعصب الطبقي يمتاز بالجور والظلم . ولنأت بمثل واحد . في تراونكور Travancore لا يسمح لبعض الطبقات السفلى أن تقترب من البرهمي بأكثر من أربع وسبعين خطوة ، كما يجب عليهم أن

(١) Qàdir Husayn Khàn, op. cit. pp. 39-42. Madras District Gazetteers. Anantapur, vol. i. pp. 193-4. (Madràs, 1905).

(٢) زين الدين ص ٢٣ (س ٤) ، ٣٦ (س ١) .

(٣) Innes, p. 190. Census of India, 1911. Vol. xii. Part. 1. p. 54.

(٤) Report on the Census of the Madras Presidency, 1871, by W. R. Cornish, pp. 71, 72, 109. (Madras, 1874).

يصيحوا بصوت كصوت الخنزير وهم يمرون فى الطريق إيذانا بدنوهم . وهناك أمثلة كثيرة من هذا النوع للتدليل على صحة هذا القول . لذلك لا نعجب إذا رأينا الأهالى المسلمين يزداد عددهم بسرعة بسبب دخول الناس فى الإسلام من بين هذه الطبقات السفلى الذين يحررون أنفسهم بذلك من مثل هذا الظلم الذى يحقر من شأنهم ، والذين يرفعـون منزلتهم ومـنزلة ذرياتهم فى المجتمع .

ويقال فى الواقع إنه قد بلغ من ازدياد عدد المابيلا الذين يقيمون على الساحل الغربى بسبب من دخل فى الإسلام من الطبقة الهندوكية السفلى ، أن أصبح فى الإمكان أن تتحول كافة الأجناس السفلى التى تقيم على الساحل الغربى إلى الإسلام فى سنوات قليلة (١) .

وأغلب الظن أن الإسلام قد عبر من مليبار إلى جزائر لكديف وملديف (فى خليج بنغالة) التى نجد كافة أهلها الآن مسلمين . ويدين سكان هـذه الجزائر بدخولهم فى الإسلام إلى تجار العرب والفـرس ، الذين استوطنوا هذه البلاد ، وتصاهروا إلى الأهالى ، ومهدوا بذلك السبيل لنشر تعاليم الدعوة فى نشاط وقوة . وقد زعم بعض أن تاريخ تحول أول سلاطين جزائر ملديف من المسلمين ، وهو أحمد شنورازة (٢) ، كان حول سنة ١٢٠٠ م . ولكن من المحتمل جدا أن تجار المسلمين كانوا قد أدخلوا دينهم إلى الجزيرة قبل ذلك بوقت لا يقل عن ثلاثة قرون ، وأن خطوات هذا التحول لا بد أن تكون من غير شك قد تمت تدريجيا (٣) . بيد أنه لم تصل إلينا معلومات تفصيلية عن ذلك التحول .

وفى مالى Mâlé ، وهى مقر الحكومة ، نجد ضريح الشيخ يوسف شمس الدين ، أحد أهالى تبريز فى إيران . وقد قيل إنه كان من دعاة الإسلام الذين أحرزوا نجاحا فى نشر الدعوة فى هذه الجزائر . ولا يزال الناس يعظمون قبره ، ويقومون دائما على إصلاحه ، كما دفن فى نفس هذه الناحية من الجزيرة بعض مواطنيه الذين جاءوا للبحث عنه ، وبقوا فى جزائر ملديف حتى زمن وفاتهم (٤).

ويعزى دخول الإسلام فى الأماكن التى تجاور جزائر لكديف إلى داعٍ عربى ، عرفه سكان الجزائر باسم تشبا ملايكا ؛ ولا يزال قبره يشاهد فى أندروتة . ولما كان قاضى هذا المكان فى الوقت الحاضر يدعى أن هذا الداعى هو جده السادس والعشرون ، لا يبعد أن يكون هذا الداعى قد وصل إلى هذه الجزائر

(١) Report of the Second Decennial Missionary Conference held at Calcutta, 1882-3 (pp. 228, 233, 248). (Calcutta, 1883.)

(٢) ابن بطوطة جـ ٤ ص ١٢٨ . أقام ابن بطوطة فى جزائر ملديف فى سنتى ١٣٤٣ – ١٣٤٤ م ، وتزوج ابنة وزير ، وكان حفيدَ السلطان داود ، الذى كان حفيد السلطان أحمد شنورازة م(جـ ٤ ص ١٥٤) . ومن هـذا البيان أخذنا هذا التاريخ وهو سنة ١٢٠٠ م عن طريق الحدس والتخمين .

(٣) H.C.P. Bell : The Maldive Islands, pp. 23-5, 57-8, 71 (Colombo, 1883).

(٤) Memoir on the Inhabitants of the Maldive Islands. By J. A. Young and W. Christopher. (Transactions of the Bombay Geographical Society from 1836 to 1838, p. 74. Bombay, 1844).

فى وقت ما فى القرن الثانى عشر [١].

كذلك كانت منطقة الدكن مسرحا لأعمال موفقة قام بها كثير من دعاة المسلمين . وقد أشرنا من قبل إلى أن تجار العرب كانوا قد زاروا منذ عصور مبكرة جدا المدن الواقعة على الساحل الغربى . ويروى أن جماعات كبيرة من العرب استقروا فى القرن العاشر فى مدن إقليم كان كن ، وذلك عند ما تزوجوا من نساء البلاد وعاشوا على شرائعهم ودياناتهم [٢] . وفى عصر أسرتى ملوك بهمنى (١٣٤٧ — ١٤٩٠) وبيجابور (١٤٨٩ — ١٦٨٦) دفع إلى الهجرة العربية روح جديد ، فقدم الدعاة مع التجار والجنود من ذوى الغنى واليسار يلتمسون القيام بغزوات روحية لأجل الدعوة إلى الإسلام ، واكتساب الشعب الكافر فى تلك البلاد بدعوتهم إلى الإسلام وطلب الاقتداء بهم ، ذلك أنه ليس لدينا خبر مدون عن حدوث تحول عن طريق القوة والإكراه فى عهد أسرات الدكن المبكرة ، التى يتميز حكمها بتسامح دينى بالغ [٣] .

وقد وفد أحد دعاة العرب ، واسمه پيرمهاپير [†] خام دايت ، على بلاد الدكن فى عصر مبكر يرجع إلى سنة ١٣٠٤م . ونجد من بين الطبقات المستنيرة فى بيجابور سلالات من الجين Jains تحولت على يديه [٤]. وحول نهاية هذا القرن نفسه ، أدخل ولى مشهور من جلبرجه [§] Gulbarga ، ويدعى سيد محمد جيسودراز † [٥] ، عددا من هنود مقاطعة پونا فى الإسلام ، كما تكللت أعماله بمثل هذا النجاح فى منطقة بلجام أو بلجاون Belgaum بعد عشرين سنة [٦]. ولا يزال يقيم فى دهانو ، سلالة أحد أقرباء أعظم أولياء الإسلام ، السيد عبد القادر الجيلانى ولى بغداد . وقد جاء إلى بلاد الهند الغربية حول القرن الخامس عشر ، وبعد أن أدخل كثيرا من أهالى كان كن فى الإسلام ، توفى ودفن فى دهانو [٧]. وفى مقاطعة دهاروار جماعات كبيرة من عمال النسيج ، كان أجدادهم قد تحولوا إلى الإسلام على يد هاشم پيرجوجرات، وكان المعلم الروحى لإبراهيم عادل شاه الثانى أحد ملوك أسرة بيجابور ، وذلك حول نهاية القرن السادس عشر . وهؤلاء القوم لا يزالون ينظرون إلى هذا الولى بعين الرعاية والتجلة ، ويحترمون ذريته

---

(١) Innes, pp. 485, 492.

(٢) المسعودى ج ٢ ص ٨٥ – ٨٦ .

(٣) The Bombay Gazetteer, vol. x. p. 132 ; vol. xvi. p. 75.

(†) پير = مرشد ، ومها = أكبر ، أيير = ناسك

(٤) Id. vol. xxiii. p 282.

(§) اسم مدينة فى هضبة الدكن تدخل فى ممتلكات نظام حيدر أباد .

(†) كلمة فارسية معناها الطويل الشعر (جيسو = شعر ، ودراز = طويل) .

(٥) ويطلق عليه أحيانا سيد مخدوم جيسودراز .

(٦) The Bombay Gazetteer, vol. xviii. p. 501 ; vol. xxi. pp. 218, 223.

(٧) Id. vol. xiii. part i. p. 231.

احتراما عظيما(١). ولاتزال سلالة ولى آخر ، يدعى شاه محمد صادق سَر مست حُسيني ، تقيم فى ناسك (§). وقد قيل إنه كان أكثر دعاة المسلمين توفيقا فى دعوته ؛ فإنه بعد أن قدم من المدينة فى سنة ١٥٦٨ ، تنقل فى معظم جهات الهند الغربية ، واستقر أخيرا فى ناسك - وكان قد بدأ فى هذه المقاطعة داع آخر من دعاة المسلمين ، اسمه خواجة خوندمير حسيني ، عمله فى نشر الدعوة قبل ذلك التاريخ بخمسين سنة ، ولاقى نجاحا عظيما فى هذه السبيل (٢) . وهناك داعيان عربيان آخران ، يمكن الإشارة إليهما ، وكان مسرح جهودهما التعليمية فى مقاطعة بلجام ، ويدعى أحدهما سيد محمد بن سيد على ، والآخر سيد عمر عيدروس بيش بان(٣).

وهناك حركة أخرى لنشر الدعوة ، يمكن أن يقال على وجه التقريب إنها كانت تتركز حول مدينة الملتان (٤) . وكانت هذه المدينة فى الأيام الأولى من الفتح العربى ، أحد المراكز الأمامية للإسـلام ، حينما كان محمد بن القاسم قد أسس حكومة إسلامية كانت لها السيادة فى السند (سنة ٧١٤ م) . وفى خلال القرون الثلاثة الأولى من الحكم العربى ، كان طبيعيا أن يدخل كثير فى دين الغزاة الفاتحين . وقد استجاب كثير من أمراء السند لدعوة الخليفة عمر بن عبد العزيز إياهم إلى اعتقاد الإسلام(٥). وتحدث البلاذرى (الذى كتب بعد ذلك بمائة عام) عن شعب ساوندارى Sawandari - وقد خضعوا لمحمد بن القاسم ومنحهم السلام على شريطة أن يرحبوا بالمسلمين ويمدوهم بأدلاء لمعرفة بلادهم - واعتبر هذا المؤرخ أنهم أقروا بالإسلام فى عهده ؛ وكثيرا ما تشير الرسائل الرسمية التى كتبها الفاتحون إلى دخول الكفار فى الإسلام .

ويمكن أن نحكم على أن حالات التحول هذه كانت فى جوهرها بمحض إرادة الذين أسلموا . من ذلك التسامح الدينى ، الذى أظهره العرب لرعاياهم الوثنيين بعد غزوتهم الأولى التى امتازت بشىء من العنف ؛ مثال ذلك ، أنه سمح لشعب برهمن آباد ، وكانت مدينتهم قد فتحت عنوة ، بإصلاح معبدهم الذى كان مصدر عيش البراهمة ، وما كان لأحد أن يحرم أو يحال دون إقامة شعائر دينه الخاصة(٦) . وكان الفاتحون بوجه عام ، لا يترددون فى تخصيص حى من أحياء المدينة لأصحاب الديانات الأخرى ، حيث وجدوا منهم الخضوع والتسليم ، كما كانوا يسمحون للشعب بإقامة عقائده وشرائعه الخاصة .

وفى خلال المتاعب التى حلت بالخلافة فى النصف الأخير من القرن التاسع الميلادى ، آلت بلاد السند، وكانت الحكومة المركزية قد أهملت شأنها ، إلى الانقسام بين عدد من صغار الأمراء ، وكان أعظمهم

---

(١) The Bombay Gazetteer, Id. vol. xxii. p. 242.

(§) اسم مدينة فى غرب الهند ، وهى مكان مقدس عند الهندوكيين .

(٢) Id. vol. xvi. pp. 75-6.

(٣) Id. vol. xxi. p. 203.

(٤) فى زمن الفتح العربى ، كانت أملاك حاكم السند الهندوكى تمتد شمالا حتى هذه المدينة التى لم تعد الآن داخلة فى هذه الامارة.

(٥) البلاذرى ص ٤٤١ (فى نهاية الصفحة) .

(٦) Elliot. vol, i. pp. 185-6.

نفوذا أمراء الملتان والمنصورة . وكان طبعيا أن يضعف مثل هذا التفكك من قوة المسلمين السياسية التى كانت فى الواقع قد أخذت فى الاضمحلال فى وقت أسبق من ذلك الوقت فى هذا القرن نفسه . ففى عهد المعتصم (٨٣٣ — ٨٤٢ م) ، أعلن هنود سندان [١] أنهم مستقلون ، ولكنهم أبقوا على المسجد حيث سمحوا للمسلمين أن يجتمعوا فيه ويدعوا للخليفة [٢] . وقد نجح مسلمو الملتان فى الاحتفاظ باستقلالهم السياسى ، واحتاطوا لأنفسهم من أن يغزوهم أمراء الهنود الذين يجاورون بلادهم ، وذلك بأن أنذروهم إذا هاجمهم هؤلاء الأمراء ، أن يحطموا صنما كانت تعظمه الهند وتحج إليه من أقاصى بلدانها[٣]. ولكن فى اللحظة التى كان المسلمون فيها فى انحلال من الناحية السياسية ، كان الإسلام لا يزال يحرز نجاحا متواليا فى نشر الدعوة . ويروى البلاذرى [٤] القصة التالية عن تحول أحد ملوك العسيفان إلى الإسلام ، وهى بلاد تقع بين قشمير والملتان وكابل . وكان أهل ذلك البلد يعبدون صنما قد بنى عليه بيت . فمرض ابن الملك ، فدعى سدنة ذلك البيت ، فقال لهم ادعوا الصنم أن يبرئ ابنى ، فغابوا عنه ساعة ، ثم أتوه ، فقالوا قد دعوناه وقد أجابنا إلى ما سألناه . فلم يلبث الغلام أن مات ، فوثب الملك على البيت فهدمه ، وعلى الصنم فكسره ، وعلى السدنة فقتلهم . ثم دعا قوما من تجار المسلمين ، فعرضوا عليه التوحيد ، فوحّد ، وأسلم . وهناك أثر من آثار نشر الدعوة ، يشبه ذلك المثل ، أحدثته ، من غير شك ، تلك الجماعات المتعددة من تجار المسلمين الذين حملوا معهم دياناتهم إلى مدن فى هندستان ، يدين أهلها بالكفر . ويذكر جغرافيو العرب فى القرنين العاشر والثانى عشر ، أسماء كثير من أمثال هذه المدن ، سواء ما كان منها على الساحل وفى الداخل ، حيث بنى المسلمون مساجدهم ، وكانوا آمنين فى حماية أمرائهم الوطنيين الذين منحوهم حق الحياة فى ظل شرائعهم الخاصة [٥] . وكان تجار العرب فى ذلك الحين وسطاء فى التجارة بين السند وبلاد الهند المجاورة وبين العالم الخارجى . وجلبوا منتجات الصين وسيلان إلى موانى السند ، وحملوها من هناك ، عن طريق الملتان إلى تركستان وخراسان[٦].

وكان يكون من الغريب لو أن هؤلاء التجار ، وكانوا منبثين فى المدن التى يدين أهلها بالكفر ، أخفقوا فى إظهار تلك الغيرة فى نشر تعاليم الدعوة التى نجدها لدى التاجر المسلم فى أى مكان . وأغلب الظن أن دخول أسرة سمّه Sammas التى حكمت بلاد السند من سنة ١٣٥١ إلى سنة ١٥٢١ م فى الإسلام ، كان

(١) وربما كانت سندان فى أبراسا ، وهى مقاطعة كتش الجنوبية .

(٢) البلاذرى ص ٤٤٦

(٣) الاصطخرى ص ١٧٣ — ١٧٤

(٤) البلاذرى ص ٤٤٦

(٥) ابن حوقل ص ٢٣٠ وما يليها . الادريسى :

(Géographie d'Edrisi, traduite par P. A. Jaubert, vol. i. p. 175 sqq.)

(٦) المسعودى ج ١ ص ٢٠٧ .

يعزى إلى تأثير أمثال طوائف التجار هؤلاء . وبينما نجد المؤرخين يخصون عهد نندا بن بابينيه أحد أمراء هذه الأسرة ، بالإشارة إلى أنه عهد « سلام وطمأنينه ، حتى إن هذا الأمير لم يُطلب إليه قط أن يركب للقتال ، ولم ينزل له عدو قط إلى ساحة الحرب »(١)، نجده يوصف فى الوقت نفسه بأنه « معروف بعدالته ، وكثرة دخول الناس فى الإسلام فى عهده» . لهذا يمكن أن تكون هذه الكثرة راجعة إلى شيء واحد ، هو الوسائل السلمية فى نشر الدعوة . وكان من أشهر هؤلاء الدعاة ، الولى المشهور سيد يوسف الدين ، أحد سلالة عبد القادر الجيلانى ، وكان قد أمر فى منامه أن يترك بغداد إلى بلاد الهند ويحول سكانها إلى الإسلام. وجاء إلى السند فى سنة ١٤٢٢ ، وبعد أن اشتغل بالدعوة هناك عشر سنين ، نجح فى أن يجذب إلى الإسلام سبعمائة أسرة من عشائر لوهانه ، التى حذت حذو شخصين منهم ، هما سندرجى وهنسراج . فهذان قد دخلا فى الإسلام ، بعد أن رأوا من هذا الولى بعض الكرامات . ولما أسلما تسمى الأول آدم جى والثانى تاج محمد . ثم هاجر هؤلاء الأهالى فيما بعد ، إلى كتش ، بزعامة جد الأول ، وهناك زادت جماعاتهم بمن انضم إليها من الذين دخلوا فى الإسلام من بين عشائر لوهانه فى كتش(٢).

كذلك كانت السند مسرحا لأعمال البير صدر الدين ، أحد دعاة الإسماعيلية ، وكان زعيما لفرقة الخوجة حول سنة ١٤٣٠ . وقد جرت مبادىء هذه الفرقة على التوفيق والملاءمة بين المذاهب والعقائد ؛ لهـــذا تلقب صدر الدين بلقب هندى ، وصرح بقبول بعض العقائد الدينية عند الهنود الذين جد فى تحويلهم إلى الإسلام ، وأدخل بينهم كتابا عنوانه دس أوتار الذى اعتبر فيه عليّ الأوتار العاشر (المهدى العاشر) أو الصورة المجسدة من وشنو ؛ وكان هذا الكتاب منذ البداية الكتاب المقدس الذى تعتمده فرقة الخوجة . ويقرءونه دائما إلى جانب فراش الميت ، كما يقرءونه فى فترات خاصة فى كثير من أعيادهم .

ويزعم هذا الكتاب أن مجسدات وشنو التسعة حقيقية من وجهة نظر أتباع هذه الفرقة ، ولكنها تنقص الحقيقة الكاملة ، كما يجعلون طريقة الوشنوى الناقصة تعقيبا لمذهب الإسماعيلية الجوهرى ، وفكرة التجسد وظهور عليّ . أضف إلى ذلك أن هذا الداعى أوّل براهما على أنه محمد ، ووشنو على أنه على ، وآدم على أنه سيوا Siva . وكان أول الداخلين فى الإسلام على يد البير صدر الدين ، هؤلاء الذين جذبهم إلى هذا الدين من القرى والمدن الواقعة فى أعالى السند . كذلك دعا إلى الإسلام فى كتش Cutch . ومن هذه البقاع انتشرت مبادىء هذه الفرقة جنوبا من طريق جوجرات إلى بمبى . والآن نجد جماعات الخوجات تقيم فى جميع المدن التجارية تقريبا ، فى الهند الغربية ، وعلى ساحل المحيط الهندى(٣).

على أن البير صدر الدين لم يكن أول دعاة الإسماعيلية الذين قدموا إلى الهند . فقد سبقه عبد الله ، أحد

(١) Elliot, vol. i. p. 273.

(٢) Bombay Gazetteer, vol. i. p. 93.

(٣) Khojà Vrttànt, p. 208. Sir Bartle Frere : The Khojas : the Disciples of the Old Man of the Mountain, Macmillan's Magazine, vol. xxxiv. pp. 431, 433-4. (London, 1876.)

الدعاة الذى أرسل من اليمن حول سنة ١٠٩٧ م . وقد قيل إنه كان واسع المعرفة ، اعتقد الناس أنه صاحب كرامات كثيرة ، ولهذا أقنع عددا كبيرا من الهندوكين بصدق ديانته(١). وهناك داع إسماعيلى آخر ، يقال له نور الدين ، اشتهر عادة باسمه الهندى الذى اتخذه لنفسه ، وهو نور ستاجر ، Nur Satagar ، أرسل إلى بلاد الهند من ألموت ، معقل زعيم الإسماعيلية الأكبر ، وبلغ جوجرات فى عهد الملك الهندى ، سِدّها راج (١٠٩٤—١١٤٣ م) (٢). وقد اتخذ لنفسه اسما هنديا ، ولكنه أخبر المسلمين أن اسمه الحقيقى هو سيد سعادت . وقد قيل إنه أدخل قبائل كنبى Kanbis وخواروبس أو خوار واس، Khárwas وكورى Koris والطبقات المنحطة فى جوجرات(٣).

وكما كان نور ستاجر موضع تكريم واحترام باعتباره أول داع من دعاة الخوجات ، كذلك يعتقد بعض أن عبد الله كان مؤسس فرقة البهرة ، إحدى فرق الشيعة الكبرى الهامة التى ترجع إلى أصل هندى والتى تقيم فى جموع كبيرة فى مراكز حكومة بمباى التجارية الرئيسة . بيد أن آخرين يعزون شرف القيام بأول دعوة من دعوات فرقة البهرة ، إلى ملاّ على ، الذى يورد أحد مؤرخى الشيعة أخبارا عما اتبعه هذا الملا من الوسائل فى نشر الدعوة ، على الوجه التالى : ولما كان شعب جوجرات فى تلك الأيام مشركين ، يسلمون زمام دينهم إلى شيخ مسن ، ويطيعون تعاليمه طاعة عمياء ، رأى ملاّ على ألا حيلة إلا أن يسير إلى هذا الشيخ المسن ، ويطلب إليه أن يتتلمذ عليه ، وقصد بذلك أن يضع نصب عينيه ما لديه من حجج دامغة وبراهين ساطعة لعله يصبح مسلما ، فيستطيع بعد ذلك أن يحول سائر أتباعه إلى الإسلام . من ثم قضى الملاّ عدة سنين فى خدمة هذا الشيخ ؛ ولما عرف لغة القوم ، قرأ كتبهم ، وحصّل معرفة بعلومهم . وتمكن شيئا فشيئا أن يبسط لعقلية الشيخ المستنيرة حقيقة العقيدة الإسلامية ، وحثه على الدخول فى الإسلام . وبعد أن تحول الشيخ إلى هذا الدين ، حذا بعض تلاميذه حذوه . وأخيرا علم كبير وزراء الملك فى هذه البلاد ، ما صار إليه الشيخ من التحول إلى الإسلام ، فسار إليه ليطلع على أمره ، ولم يلبث أن أذعن لإرشاده الروحى ودخل مثله فى الإسلام . وظل الشيخ وكبير الوزراء ، وسائر الذين اعتقدوا هذا الدين ، يكتمون إسلامهم وقتا طويلا ، وكانوا دائما يحولون دون أن يصل خبر إسلامهم إلى مسامع الملك خوفا منه . إلا أنه قد نمى إلى الملك آخر الأمر ، أن كبير وزرائه قد اعتقد الإسلام ، فشرع فى تحرى ذلك الخبر . وفى ذات يوم ، قدم الملك إلى بيت هذا الوزير ، دون سابق تنبيه ، فوجده فى صلاته ، حانيا رأسه ، فتضايق الملك من ذلك . وأدرك الوزير ما يرمى إليه الملك من هذه الزيارة ، وأيقن أن نقمة الملك قد حلت عليه بما ساوره من الشكوك والريب التى أثارتها صلاته وما قام به من ركوع وسجود ؛ ولكن إلهام الله

---

(١) Bombay Gazetteer, vol. ix. part ii. p. 26.

(٢) يزعم ك . ب . فضل الله لطف الله أن نور ستاجر قدم إلى الهند فى زمن أحدث من ذلك أى فى عهد بهيا الثانى (١١٧٩ — ١٢٤٢ م) . (Bombay Gazetteer, vol. ix. part ii. p. 38).

(٣) Khojà Vrttànt, p. 154-8.

ومعونته الإلهية قد هيئنا له ما يناسب المقام ؛ فقال للملك ، إنه إنما كان يفعل هذه الحركات لأنه كان يلاحظ ثعبانا فى زاوية الجدار . فلما التفت الملك إلى زاوية الجدار ليرى مصداق قوله ، أرادت العناية الإلهية أن يرى ثعبانا فى تلك الزاوية ، فقبل الملك عذر الوزير ، وخلى ذهنه من كل الشكوك . وكذلك اعتقد الملك الإسلام آخر الأمر ، ولكنه أخفى تغيير دينه لأسباب تتعلق بدولته . على أنه حين اقتربت ساعة وفاته ، وصى بألا يحرق جسده كما جرت بذلك عادة المشركين . وكان من أثر وفاته ، أنه عند ما غزا السلطان ظفر جوجرات ، وكان أحد أشراف السلطان فيروزشاه ملك دهلى كما كان محل ثقة هذا الملك ، صحبه فى هذه الغزوة بعض وجوه أهل السنة ، وجروا على محاجة أهالى جوجرات ليعتقدوا المذهب السنى ؛ لهذا نجد بعض البهرة سنية على حين ظل السواد الأعظم منهم مخلصين لعقيدتهم الأولى »(١).

وهناك فرق صغيرة كثيرة فى كتش وجوجرات يرجع دخولها فى الإسلام إلى الإمام شاه پيرانه (٢) ، الذى كان جادا فى أعمال الدعوة ، مشتغلا بها فى خلال النصف الأخير من القرن الخامس عشر . وقيل إنه حول جمعا هائلا من زراع الهندوكيين إلى الإسلام بأن استسقى لهم ، فمطرتهم السماء بعد أن كانوا فى قحط فصلين متتابعين . وفى مناسبة أخرى ، حدث أن التقى بجماعة من حجاج الهنود يعبرون من پيرانه فى طريقهم إلى بنارس ، فعرض عليهم أن يأخذهم إلى هناك ، فقبلوا ، وفى لحظة وجدوا أنفسهم فى المدينة المقدسة ، حيث اغتسلوا فى نهر الكنج ، وأوفوا بنذورهم . حينئذ تنبهوا ، فألفوا أنفسهم لم يبرحوا پيرانه ، فاعتقدوا دين ذلك الولى الذى استطاع أن يصنع مثل هذه الكرامة . وتوفى فى سنة ١٥١٢ ، ولا يزال قبره فى پيرانه مثابة الحجاج من الهندوكيين والمسلمين على سواء(٣) .

وكثير من مسلمى كتش ، الذين ينحدرون من أصل هندى ، يعظمون داول شاه پير ويعدونه زعيما روحيا لهم ، وكان اسمه الحقيقى ملك عبداللطيف(٤)، ابن أحد أشراف محمود بيجَره (١٤٥٩ — ١٥١١) ، الذى كان ملكا شهيرا من ملوك أسرة جوجرات الإسلامية ، كما تبدأ من عهده تلك الرواية المشهورة التى تؤرخ تحول كثير من الهندوكيين إلى الإسلام(٥).

على أن دعاة المسلمين فى الهند قد لاقوا أعظم النجاح فى البنغال خاصة ، من حيث كثرة عدد الذين دخلوا فى هذا الدين . وفى البنغال تأسست لأول مرة دولة إسلامية ، فى نهاية القرن الثانى عشر على يد محمد بختيار الخلجى ، الذى فتح بهار والبنغال ، واتخذ جور حاضرة الإمارة الأخيرة . وكان طبعيا أن يساعد استمرار الحكم الإسلامى مدة طويلة ، على انتشار الإسلام . ومع أن الحكم الهندى قد أعيد مدة عشر

---

(١) نور الله الشوشترى : مجالس المؤمنين ، ورقة ٩٥ . (India Office M S, No. 1400).

(٢) مدينة على بعد عشرة أميال جنوب غربى مدينة أحمد أباد .

(٣) Bombay Gazetteer, vol. ix, part ii. pp. 66, 76.

(٤) Bombay Gazetter, vol. v. p. 89.

(٥) Id. vol. ii. p. 378; vol. iii. pp. 36-7.

سنين على يد راجا كانس الذى عرف بتسامحه ، والذى قيل إن حكمه كان محببا إلى رعاياه المسلمين (١) رفض ابنه جات مَل الديانة الهندوكية واعتقد الإسلام . وبعد وفاة أبيه سنة ١٤١٤ ، استدعى كل موظفى الدولة ، وجمعهم ، وأعلن إليهم رغبته فى اعتقاد الإسلام ، كما أعلن أنه إذا لم يأذن له كبار رجال الدولة باعتلاء العرش ، كان على استعداد لأن يتخلى عنه لأخيه . ومن ثم أعلنوا أنهم يرضون به ملكا عليهم ، أيا كانت الديانة التى يعتقدها . وتبع ذلك أن دعى كثير من علماء الدين الإسلامى ليشهدوا أن الراجا قد نبذ ديانة الهندوكيين وجهر باعتقاد الإسلام . واتخذ لنفسه اسم جلال الدين محمد شاه ، وتذكر الروايات أن كثيرا من حالات التحول إلى الإسلام قد تم فى عهده (٢). على أن كثيرا من هذه الحالات كانت راجعة إلى القوة والإكراه ، ذلك أن عهده كان يتميز بأنه العهد الوحيد الذى لم تدون عنه على وجه الإجمال اضطهادات وقعت على رعايا الهندوكيين فى خلال الخمسة القرون والنصف قرن من الحكم الإسلامى فى البنغال الشرقية (٣).

على أنه طالما حدثت حالات من التحول إلى الإسلام فى أزمان أخرى ، بتأثير الحكومة الإسلامية وضغطها . كان راجيات خرك پور ينتمون إلى أصل هندوكى ، ثم اعتقدوا الإسلام ، لأن أحد قواد أكبر حين غزا ديارهم ، كان قد سمح لهم بأن يحتفظوا بضياع أسراتهم ، على شريطة أن يدخلوا فى الإسلام . وقد حُرم الجد الهندوكى الأكبر لأسرة أسد على خان ، فى جتا كانج (†) ، مكانته فى طبقته بأن أرغم على أن يشم رائحة لحم البقر ، وأن يضطر إلى اعتناق الإسلام . وهناك أمثلة كثيرة أخرى من هذا النوع كان من الممكن تدوينها (٤).

ونجد مرشد قُلى خان (ابن أحد البراهمة الذين دخلوا فى الإسلام) ، وكان قد ولاه الامبراطور أورنج زيب حاكما على البنغال فى مستهل القرن الثامن عشر ، يفرض قانونا يقضى بأن أى موظف أو إقطاعى لا يؤدى الخراج الذى ألزم أداءه ، أو يعجز عن تعويض ما يلحق البلاد من خسارة ، يلزم الدخول فى الإسلام هو وزوجته وأولاده . هذا إلى أن لهم قانونا شائعا يقضى بأن أى هندوكى سقط من مكانته فى المجتمع بسبب ما اقترفه من مخالفة للقوانين ، لا يستطيع أن يطلب إعادة النظر فى قضيته إلا لدى الحكومة الإسلامية ؛ فإذا رفضت الحكومة التدخل ، حرم طريد القانون أية وسيلة لاسترداد مركزه فى النظام

---

(١) وكذلك Firishtah ، ولكن أنظر

H. Blochmann : Contributions to the Geography and History of Bengal. (J. A. S. B., vol. xlii. No. 1, pp. 264-6, 1873).

(٢) J. H. Ravenshaw : Gaur : its ruins and inscriptions, p. 99. (London, 1878.) Firishtah, vol. iv, p. 337.

(٣) Wise, p. 29.

(†) مدينة ساحلية على مقربة من كلكتا .

(٤) Census of India, 1901, vol. vi, part i. p. 170.

الاجتماعي عند الهندوكيين ، وربما كان لايجد علاجا لموقفه إلا بالتحول إلى الإسلام(١).

كذلك يظهر أن رواد الأفغان الذين استقروا في هذه الإمارة ، كانوا على جانب من النشاط في نشر تعاليم الدعوة ؛ ذلك أنهم ، إلى جانب ما حصلوا عليه من الأطفال الذين ولدوا من النساء الهندوكيات ، تعودوا أن يشتروا عددا من الصبيان في أزمان القحط ، وينشئوهم على مبادىء الإسلام(٢) . على أن مسلمي البنغال لا يقيمون في جماعات كبيرة في مراكز الحكومة الإسلامية القديمة ، ولكنهم يقيمون في الأرياف، أي في المقاطعات التي لا نجد فيها أثرا للجاليات التي وفدت إليها من الغرب ، وفي البقاع التي تقيم فيها الطبقات المنحطة من الهندوكيين ، وطريدو المجتمع في كثرة وافرة(٣) . وإن تشابه العادات بين هذه الطوائف المنحطة من الهندوكيين وبين أتباع النبي ، وخصائص هذه الطوائف التي لا تزال تحتفظ بها ، كما احتفظت بالتشابه الجسماني — كل ذلك يحمل دليلا واحدا ، كما يحمل على الاعتقاد بأن مسلمي البنغال هم القبائل الأصيلة في هذه البلاد . وهنا لم يقف في سبيل تقدم الإسلام شيء من النظم الدينية العنيفة ، لا كما كانت الحال في شمال غربي الهند ، حيث لقي الغزاة المسلمون ديانة البراهمة زاخرة بحياة غضة ، وقوة ناشئة بعد أن أحرزت النصر في صراعها مع البوذية ، وحيث كان تأثير الإسلام ، برغم الاضطهادات ، قوة دافعة في وجه المعارضة التي أبداها الهندوكيون ، واحتفظ بنفوذه عليهم في أعمق ساعات الشدة والتدهور . بيد أن دعاة المسلمين قد لقوا في البنغال ترحيبا عظيما من السكان الأصليين والطوائف المنحطة من أهالي البنغال الذين لم تتغلغل العقائد الهندوكية في نفوسهم ، والذين كان حكامهم المعتزون بأنفسهم من الآريين ، يحتقرونهم ويغضون من شأنهم . واتجاه الإسلام إلى هؤلاء الفقراء وصيادي السمك والقناصين والقراصين وحراثي الأرض من أفراد العشائر المنحطة ، فأعلى منزلتهم ورفع من شأنهم . كان الإسلام عقيدة الجنس الحاكم ، كما كان دعاته ذوي غيرة ، حملوا بشارة الوحدانية ، والمساواة بين الناس إلى الأهالي المحتقرين المنبوذين . وقد جعلت هذه الآراء التي أدخلها هؤلاء الدعاة ارتداد الهندوكيين عن هذا الدين الجديد أمرا محالا ، كما جعلت المهتدي إلى الدين وذريته مؤمنين مخلصين إلى الأبد . وبهذه الطريقة ، استقر الإسلام في أخصب الولايات الهندية وأغناها ، تلك الولاية التي استطاعت أن تسد حاجة السكان الذين بدت كثرتهم في هذه الولاية أشد ما تكون سرعة وازدحاما . وقلما سجلت حالات التحول الإجباري إلى الإسلام . بيد أن ما أحرزه الإسلام من نجاح مستمر في البنغال السفلى لم يكن راجعا إلى القوة والعنف ؛ فقد راق الإسلام نظر الأهالي ، كما انتزع السواد الأعظم من الذين تحولوا

---

(١) Census of India, 1901, vol. vi. part i. Id. p. 30.

(٢) Charles Stewart : The History of Bengal, p. 176. (London, 1813).
H. Blochmann : Centributions to the Geography and History of Bengal, (J.A.S.B., vol. xlii. No. 1, p. 220. 1873).

(٣) The Indian Evangelical Review, p. 278. (January, 1883.)

إلى هذا الدين من طبقة الفقراء . وأدخل فى أذهانهم تصورا أرقى لمعنى الإله ، ومثلا أسمى للأخوة الإنسانية ، وقدم للعشائر المنحطة التى غصت بها البنغال والتى ظلت أجيالا دنيئة وضيعة ، أبعد ما تكون عن حظيرة الجماعة الهندوكية ، منفذا حرا ، تنفذ منه إلى نظام اجتماعى جديد»(١).

وقد قيل إن ظهور جهود واضحة فى نشر الدعوة فى البنغال قد أيده ما جاء فى بعض أساطيرهم عن حماسة أفراد لأجل دينهم ، ولا تزال أضرحة بعض هؤلاء الدعاة مثابة تكريم وتشريف ، يزورها فى كل سنة مئات من الحجاج(٢). ومن أقدم هؤلاء الدعاة الشيخ جلال الدين التبريزى ، الذى توفى سنة ١٢٤٤ م ، وكان تلميذا للولى الأكبر شهاب الدين السهروردى وفى أثناء رحلاته التى قام بها لنشر الدعوة فى بلاد الهند ، زار البنغال، حيث بُنى له ضريح تكريما له ، ووقف لهذا البناء هبة خيرية قيمة . أما موقع قبره الحقيقى فغير معروف . وتنسب إليه كرامات كثيرة ؛ منها أنه أدخل فى الإسلام أحد باعة اللبن من الهندوكيين بنظرة واحدة (٣) .

وفى القرن التاسع عشر نشطت حركة الدعوة إلى الإسلام فى البنغال نشاطا ملحوظا ، وأرسلت طوائف كثيرة ينتمى أصلها إلى تأثير الحركة الوهابية الإصلاحية ، دعاتهم يتنقلون فى هذه المقاطعة ، يطهرون البلاد من بقايا العقائد الهندوكية القديمة ويوقظون الحماسة الدينية ، وينشرون العقيدة الإسلامية بين الكفار(٤).

بقى بعض أخبار عن دعاة المسلمين الذين قاموا بنشر الدعوة فى أجزاء من الهند ، غير تلك الأجزاء التى ذكرناها من قبل ، لا بأس من ذكرها هنا . كان من أسبق هؤلاء الدعاة الشيخ إسماعيل ، وكان من أشهر الأولياء الصالحين فى بخارى ، كما عرف بثقافته الدينية والدنيوية . وقد قيل إنه كان أول داع مسلم دعا إلى عقيدة الإسلام فى مدينة لاهور التى كان قد قدم إليها سنة ١٠٠٥ م . وقد تدفقت إليه جموع زاخرة ليستمعوا إلى مواعظه ، وسرعان ما تزايد عدد الداخلين فى الإسلام على يديه يوما بعد يوم . وقد قيل إنه ما من كافر وفد عليه واتصل بشخصه ، إلا تحول إلى عقيدة الإسلام(٥).

وقد قيل إن تحول سكان سهول البنجاب الغربية إلى الإسلام كان من آثار دعوة بهاء الحق الملتانى(٦)، وبابا فريد الدين البكبتانى الذى نبغ حول نهاية القرن الثالث عشر وبداية الرابع عشر(٧) ويذكر المؤلف

---

(١) Sir W.W. Hunter : The Religious of India. (The times, February, 25,1838.) See also Wise, p. 32.

(٢) Wise, p. 37.

(٣) Blochmann, op. cit. p. 260.

(٤) Wise pp. 48-55.

(٥) غلام سرور : خزينة الأصفياء ج ٢ ص ٢٣٠ .

(٦) ورواية أخرى تسميه الشيخ بهاء الدين زكريا .

(٧) Ibbetson, p. 163.

الذى كتب سيرة هذا الولى الأخير بيانا عن ست عشرة قبيلة ظفر بهم الإسلام بفضل دعوته ؛ ولكن هذا المؤلف ، لم يمدنا لسوء الحظ بشيء من التفصيل فيما يتعلق بنوع العمل الذى قام به هذا الداعى[١].

ومن أشهر أولياء المسلمين فى الهند ، وأحد رواد الإسلام فى راجبوتانا ، خواجة معين الدين خشتى ، الذى توفى فى أجمير سنة ١٢٣٤ م ، وكان أحد أهالى سجستان شرقى فارس . وقد قيل إنه تلق نداء للدعوة إلى الإسلام بين كفار الهند ، حينما كان فى طريقه إلى المدينة لأداء فريضة الحج . فهنا تجلى له النبى فى منامه ، وخاطبه بقوله : « لقد عهد إليك الله القدير بلاد الهند ، فاذهب إليها واستوطن أجمير ؛ ولينتشرن دين الإسلام بعون الله فى تلك البلاد ، بفضل تقواك وتقوى من يتبعونك » . ولبى النداء ، وشق طريقه إلى أجمير وكانت فى ظل الحكم الهندوكى فى ذلك الحين ، وقد سادت عبادة الأوثان فى كافة أنحاء هـــذه البلاد . ومن أسبق الذين تحولوا إلى الإسلام على يديه فى هذه البلاد رجل يدعى يوجى ، كان المربى الروحى للراجا نفسه . وقد جمع هذا الرجل حوله تدريجا عددا عظيما من تلاميذه الذين انتشلتهم تعاليمه من صفوف الكفر ، وذاعت شهرته زعيما روحيا ، وجذب إلى مدينة أجمير جموعا كبيرة من الهندوكيين الذين حثهم على اعتقاد الإسلام[٢] . وقد قيل إنه أدخل فى الإسلام ، وهو فى طريقه إلى أجمير ما يقرب من ٧٠٠ شخص من مدينة دهلى .

وكان وصول سيد جلال الدين إلى تلك البلاد ذا أهمية بالغة فى تاريخ الإسلام فى الهند . وقد قيل إنه ولد فى بخارى سنة ١١٩٩ م . وفى سنة ١٢٤٤ ، استقر هذا الداعى فى أتش Uch ، التى تقع الآن فى أراضى بهاول پور[†] ، وحول جموعا من أهالى البلاد المجاورة إلى الإسلام . وتوفى فى سنة ١٢٩١ . وظل أعقابه الذين كان كثير منهم أولياء ينظر إليهم بعين الاحترام والإجلال ، حفظة على ضريحه حتى الوقت الحاضر ، واتخذوا من هذا المكان مركزا لنفوذ دينى واسع النطاق . ويعتقد قوم أن جد هذا الولى ، واسمه سيد أحمد كبير ، ويعرف باسم مخدوم جهانيان ، كان له أثر فى تحويل قبائل كثيرة من أهالى البنجاب[٣] . ويقع على بعد ميل من شرق أتش ضريح حسن كبير الدين بن سيد صدر الدين الذى كان معاصرا لجلال الدين . وقد قيل إن كلا الأب والابن قد أدخلا كثيرا من الناس فى الإسلام ، وقد بلغ من النفوذ الذى نسب إلى حسن كبير الدين ، أنه قيل إن أى هندى كان يعتقد الإسلام ، بمجرد نظرة يلقيها عليه هذا الولى[٤].

وفى وقت متأخر كثيرا فى هذا القرن نفسه ، وفد على الهند أحد أهالى العراق الفارسى ، ويدعى

(١) أصغر على جواهرى فريدى (١٠٣٣ م) ص ٢٩٥ (لاهور ١٨١٤) .

(٢) Elliot, vol. ii. p. 548.

(†) هى ولاية إسلامية فى البنجاب ينتمى حكامها إلى الخلفاء العباسيين .

(٣) Punjab States Gazetteers, vol. xxxvi A. Bahwalpur State. (Lahore, 1908), p. 160 sqq.

وفى ص ١٦٢ أسماء بعض القبائل التى تنسب تحولها إلى الإسلام إلى مخدوم جهانيان .

(٤) Id. p. 171.

أبا علي قلندر ، واتخذ مقامه في باني‌پت[†] Panipat ، حيث توفي وقد أكمل المائة من عمره ، وذلك في سنة ١٣٢٤ م . وينتمي أفراد القبائل من مسلمي هذه المدينة ، وكان عددهم حول ٣٠٠ من الذكور ، إلى شخص يدعى أمير سنگه Singh ، وكان قد تحول إلى الإسلام على يد هذا الولي . ولا يزال قبره مثابة تكريم وتشريف ، يقصد إليه كثير من الحجاج .

ومن أمثال هذا الولي ، رجل فارسي يقال له الشيخ جلال الدين ، وكان قد قدم الهند حول النصف الأخير من القرن الرابع عشر واستقر في سلهت ، في آسّام السفلى ، بقصد تحويل أهالي هذه الجهات إلى الإسلام . وقد نال شهرة واسعة كرجل مبارك ، وتكللت أعماله في نشر تعاليم الدعوة بنجاح باهر[1].

وفي سنوات أحدث من ذلك ، نجد شواهد كثيرة تدلنا على أن الإسلام كان في طريقه إلى الانتشار في الهند ، وفي نجاح عظيم جدا . وقد دل النصف الثاني من القرن التاسع عشر بوجه خاص ، على نهضة عظيمة في نشاط الدعوة ، فأصبح عدد الذين كانوا يدخلون في الإسلام سنويا يتفاوت بين عشرة آلاف ، وخمسين ألفا ، ومائة ألف ، وستمائة ألف[2]. على أنه من العسير أن نحصل على معلومات دقيقة عن وصف الطابع الفردي الخاص الذي يتميز به نشاط الدعوة الإسلامية ، وعن عدم وجود أي نظام مستق أو عن أي شيء يتعلق بأخبار الدعوة ، وإن النجاح الذي لازم أعمال الدعاة المسلمين قد بولغ فيه أحيانا إلى حد بعيد . فمثـــلا قيل إن رجلا في البنجاب يدعى حاجي محمد قد أدخل ما يقرب من مائتي ألف هندوكي في الإسلام[3] ، وإن أحد المولوية في بنكاور Bangalore قد افتخر بأنه حول إلى الإسلام ما يقرب من ألف شخص من أهالي تلك المدينة وضواحيها في مدى خمسة أعوام . ولكن الذي لا شك فيه أنه كان هناك دعاة مسلمون اشتغلوا بأعمال الدعوة ، في نشاط وتوفيق . وتنطبق الأمثلة الآتية على هذه الفترة التي أشرنا إليها .

أدخل مولوي بقا حسين خان ، وهو داعية متنقل في البلاد ، ٢٢٨ شخصا في الإسلام ، في مدى سبع سنين ، وكانوا يقيمون في بمباي ، وكان بور ، وأجمير ، ومدن أخرى . وحول مولوي حسن علي

(†) مكان في الهند وقعت فيه ثلاث مواقع حاسمة ، الموقعة الأولى هزم فيها بابر ، إبرهيم لودهي في أبريل سنة ١٥٢١ م ، والموقعة الثانية هزم فيها جلال الدين محمد أكبر ، هيمو البقال في سنة ١٥٥٦ م ، والموقعة الثالثة ، وهي أشهرها هزم فيها أحمد شاه الدراني جيش مرهته الهندوكي سنة ١٧٦١ م .

(١) ابن بطوطة ج ٤ ص ٢١٧ Yule, p. 515.

(٢) The Indian Evangelical Review, vol. xvi, pp. 52-3. (Calcutta, 1889-90.) The Contemporary Review, February 1889, p. 170. The Spectator, October 15, 1887, p. 1382.

(٣) Garcin de Tassy : La Langue et la Littérature Hindoustanies de 1850 à 1869, p. 343, (Paris, 1874.)

٢٥ شخصا إلى الإسلام ، اثنى عشر منهم من أهالى بونا ، والباقى من حيدر أباد وجهات أخرى من الهند[١]. وفى مقاطعة خندش ، فى مقر حكومة بمباى ، ظفرت دعوة قاضى ناصر أباد ، وهو سيد سفدر على ، بدخول جمع كبير من الصناع فى الإسلام ، وهم الذين زاولوا صناعة الحدادين أو القيون[٢] . وحول سنة ١٨٧٠ ، تحول عدد من الأشخاص الذين كانوا يحترفون هذه الصناعة نفسها ، وكانوا يؤلفون زمرة قليلة يبلغ عددها نحو ٢٠٠ شخص فى مقاطعة ناسك ، إلى الإسلام بطريقة عجيبة . وكان المبشرون المشيخيون (§) فى ناسك يحاولون منذ وقت طويل تحويل أهالى ناسك عن العقائد الهندوكية . وبينما كان هؤلاء الأهالى مترددين بين اعتقاد المسيحية ورفضها ، إذا بأحد فقراء المسلمين من بمباى ، وكان ملما حسن الإلمام بعادات تفكيرهم ، يشرح لهم مبادىء الإسلام ، ويفلح فى جذبهم إلى هذا الدين[٣] .

وكان فى باتياله (†) ، مولوى عبيد الله ، وهو أحد الذين دخلوا فى الإسلام من البراهمة ، وكان على جانب عظيم من الثقافة ، وقد برهن على أنه داعية غيور على الإسلام . وعلى الرغم مما وضعه أقرباؤه فى طريقه أول الأمر من عقبات ، أحرز نجاحا بلغ من عظمه أن الذين دخلوا فى الإسلام على يديه ، كادوا يملئون حيا بأكمله من أحياء المدينة . وقد كتب فى الجدل مؤلفات ، طبعت طبعات كثيرة ، كانت موجهة إلى الديانتين

---

(١) أمدنى مولوى حسن على بهذه المعلومات قبل وفاته سنه ١٨٩٦ ببضع سنين . وفيما يلى نذكر وصفا طريفا لحياته ، ورد فى بعض ما نشرته مجلة The Moslem Chronicle (٤ ابريل سنة ١٨٩٦) فى نعيه : ,, كان معروفا فى حياته الخاصة والتعليمية بأنه فتى ذكى مفرط الذكاء ، أحرز تقدما كبيرا فى حياته العلمية فى مدى وقت قصير ، واجتاز امتحان الدخول فى سن مبكرة جدا ، ومنح مكافأة دراسية ساعدته على نيل درجة البكالوريوس من الطبقة الأولى . ولكن لم يلبث أن دفعه طموحه الفريزى إلى البحث عن الحقيقة ، إلى السفر إلى الخارج والتنقل فى بلاد العالم ، فترك دراسته ، وعاشر الناس على اختلاف نزعاتهم : فعاشر فقراء الهنود ، وفرقة البنديين والمسيحيين ، ودخل الكنائس ، وجاس خلال الأدغال والأحراج والمدن دون أن يكون له ما يعينه إلا آماله وإخلاصه واعتماده المطلق على رحمة الإله الأعظم . وفى مدى سنة واحدة ، تنقل فى مختلف المناطق الدينية حتى قبل فى سنة ١٨٧٤ وظيفة ناظر فى إحدى مدارس باتنا ...، ولما كان استعداده الفطرى يؤهله لأن يكون داعيا إلى العقيدة الاسلامية ، أحس بحنين خفى يدفعه إلى ترك منصبه الذى كان يتقاضى منه مائة روبية شهريا ، فقدم استقالته ، على كره من أصدقائه ، وظل وقتا يصدر جريدة شهرية ,, نور الاسلام،، ، وألقى محاضرات كثيرة فى الاسلام فى باتنا ، ثم رحل إلى كلكتا حيث ألقى محاضرته باللغة الانجليزية ، وقد بلغ من تأثيرها فى السامعين أن كثيرا من رجال الدين الأوروبيين أقروا صدق الدين الاســلامى ، وكاد أحد الكبراء المعروفين ، وهو بابو بيبن جندرا بال أن يدخل فى الاسلام . وقد دعاه أهالى دماكة لزيارتهم ، وهناك خلدت مواعظه ومحاضراته اسمه فى قلوب المواطنين . وقد جعلت مؤلفاته ، ورسائله ، ومحاضراته المتوالية باللغتين الأردية والانجليزية ، فى مختلف المدن والبلدان فى الهند ، له اسما تاريخيا فى العالم . وقد أصبح مائة رجل مسلمين عند ما استمعوا إلى محاضراته وقرءوا كتبه ،، . وتجلت حماسته فى نشر الدعوة حتى آخر لحظة من حياته ، حين سمعه بعض الناس خلسة وهو يقول على فراش الموت : ,, أترك دينك وصر مسلما ،، . فلما سئل فى ذلك قال إنه يتحدث إلى أحد المسيحيين .

(٢) Bombay Gazetteer, vol. xii. p. 126.

(§) نسبة إلى مشيخة الكنيسة .

(٣) Id. vol. xvi. p. 81.

(†) اسم ولاية هندية يسكنها السيخ .

المسيحية والهندوكية . وفى أحد هذه المؤلفات ، يتحدث عن تحوله هو إلى الإسلام ، بقوله : « أنا ، محمد عبيد الله ، بن منشى قنطا مل ، ساكن پايال Payal ، فى ولاية بتياله ، أعلن أن هذا العبد الفقير ، كان فى طفولته وفى أثناء حياة والده ، أسير عبادة الأوثان ، ولكن رحمة الله انتشلتنى بيدها ، وجذبتنى إلى الإسلام . من ذلك أنى انتهيت إلى معرفة مزية الإسلام ونقائص الهندوكية ، فرضيت الإسلام دينا بقلبى وروحى ، وعددت نفسى خادما لرسول الله عليه السلام . وفى ذلك الوقت هدتنى الفطنة ، التى هى هبة الله ، إلى أنه من فرط الحماقة والغباوة أن يتبع المرء عادات أجداده اتباعا أعمى ، فيضل بها ، وألا يتأمل ويبحث فى مسائل الدين والعقيدة ، التى عليها تعتمد سعادتنا الأبدية أو شقاوتنا . وبهذه الأفكار أخذت فى دراسة العقائد السائرة ، وبحثت كلا منها غير متحيز ولا محاب . فعرفت الهندوكية معرفة تامة ، وتباحثت مع البنديت المتعلمين ، وحصلت على معرفة تامة بالدين المسيحى ، وقرأت كتب الإسلام وتباحثت مع علماء المسلمين . ووجدت فى جميعها أخطاء وأباطيل ، إلا الإسلام الذى تجلت لى مزيته جلاء بينا . ولزعيم هذا الدين ، النبى محمد ، من المزايا المعنوية ، ما يعجز اللسان عن وصفه ، وهو بمفرده الذى يعرف أصول هذا الدين وقواعده ، وتعاليمه الخلقية ، وشعائره ، كما يدركها إدراكا تاما . والحمد لله ! إن هذا الدين قد بلغ من السمو أن كل شىء فيه يهدى الروح إلى الله . وبالجملة أصبح التمييز بين الحق والباطل ، بفضل الله ، متجليا عندى تجلى الليل والنهار والظلمة والنور . ولكن مع أن قلبى قد استنار مدة طويلة ، بنور الإسلام وفمى قد تعطر بالإذعان للعقيدة ، كانت هواجس الشر والشيطان تكبلنى بأغلال من بهجة هذه الحياة الفانية ودعتها ، وكنت فى حالة سيئة ، بسبب الشعائر الظاهرية الخاصة بعبادة الأوثان . عندئذ نبهتنى رعاية الله أخيرا « إلى متى تحتفظ بهذه الجوهرة التى لا تقدر بثمن ، كامنة فى صدفتها ، وهذا الأريج المنعش مغلقا فى علبته ؛ يجب أن تقلد عنقك هذه الجوهرة ، وأن تنتفع بهذا الأريج » . هذا إلى أن العلماء قد جهروا بأن من يكتم عقيدته فى الإسلام ، ويبقى على زى الكفار وعاداتهم ، فإن مثواه جهنم . لهذا ، ولله الحمد ، بزغت شمس دخولى فى الإسلام يوم عيد الفطر من سنة ١٢٦٤ م من أستار سحائبها ، وأديت عباداتى جهارا مع إخوانى المسلمين [1] » .

وقد اتخذ كثير من دعاة المسلمين وسائل المبشرين المسيحيين ، من ذلك الوعظ فى الطرقات ، وتوزيع المنشورات ، وغير ذلك من الوسائل . وفى كثير من المدن الكبرى فى الهند ، قد يوجد دعاة المسلمين يوميا يشرحون تعاليم الإسلام فى بعض الطرقات العامة الرئيسة . ونجد هذه العادة شائعة جدا فى بنكاور ، وقد بلغ من محبة الشعب لأحد هؤلاء الدعاة ، وكان إمام المسجد حول سنة ١٨٩٠ ، أن الهندوكيين أنفسهم كانوا يدعونه أحيانا ليلقى عليهم عظاته . وكان يدعو إلى الإسلام فى الأسواق ، وفى مدى سبع سنوات أو ثمان ، ظفر باثنين وأربعين شخصا دخلوا فى هذا الدين . وفى بمباى ، يدعو أحد الدعاة المسلمين إلى الإسلام ،

---

(١) تحفة الهند ص ٢ (دهلى ١٣٠٩ هـ) .

كل يوم تقريبا ، على مقربة من السوق الرئيسة للمدينة ، وفى كلكتا توجد مراكز كثيرة للدعوة إلى الإسلام ، معدة على الدوام لهذا الغرض . وقد نجد بين الذين دخلوا فى الإسلام من حين لآخر ، بعض الأوربيين ، ومعظمهم ممن اضطرتهم الظروف إلى الفقر والإعواز . على أن جمهور الداخلين فى الإسلام من الهندوكيين(١) . ونجد بعض الجمعيات الكثيرة التى نشئت فى السنين الأخيرة ، فى مراكز الحياة الإسلامية الرئيسة فى الهند ، تجعل من بين أهدافها إرسال الدعاة للدعوة إلى الإسلام فى الأسواق . ومن أمثال هذه الجمعيات أنجومان حمايت إسلام بلاهور ، وأنجومان حامى الإسلام بأجمير . وهذه الأنجومان بوجه خاص ، تعين دعاة يتقاضون رواتب كفاء قيامهم بهذا العمل . ولكن كثيرا جدا من أعمال الدعوة فى الإسواق ، إنما يقوم بها أشخاص يشتغلون فى مهنة أو عمل ما فى أثناء ساعات النهار ، ويخصصون أوقات فراغهم فى المساء لهذا العمل الدينى .

ويتجه كثير من الحماسة فى الدعوة عند مسلمى الهنود إلى مناهضة مايقف فى سبيل الإسلام من الاتجاهات التعليمية التى ينزع إليها المبشرون المسيحيون ودعاة آريه سماج Arya Samàj ، ومن ثم كانت الجهود التى بذلت فى هذه السبيل جهودا دفاعية ، أكثر من أن تكون متصلة اتصالا مباشرا بنشر تعاليم الدعوة . كذلك يصرف بعض الدعاة عنايتهم ، بوجه خاص ، إلى تدعيم الأساس الذى وضع من قبل ، ومحاولة تخليص إخوانهم فى الدين من الجهال من خرافاتهم الهندوكية القديمة ، وبث صورة من العقيدة ، أنقى ، فى نفوسهم . وإن أمثال هذه الجهود ، ليست فى كثير من الأحيان ، إلا استمرارا لذلك النشاط القديم فى الدعوة وفى الحق أن ماقام به الدعاة فى سبيل إدخال الناس فى الإسلام كان فى أغلب الأحيان عملا ناقصا مبتورا . ويمكن أن يقال عن كثير من الذين تحولوا إلى الإسلام تحولا اسميا أنهم أشباه هندوكيين . فهم يراعون نظم عشائرهم القديمة ، ويشاركون فى الأعياد الهندوكية ، ويقيمون كثيرا من الشعائر الوثنية . كذلك فى بعض المقاطعات ، فى ميوات Mewàt وكركاون Gurgaon مثلا ، قد نجد جماعات كبيرة من المسلمين لايعرفون من ديانتهم إلا اسمها ، وليس لديهم مساجد ، ولا يراعون أوقات الصلاة . وهذه هى الحالة ، بوجه خاص ، بين مسلمى القرى أو فى الجهات التى يسكن فيها الأهلون بعيدا عن جمهور المؤمنين . أما فى المدن ، فإن وجود علماء الدين ، يساعد ، إلى حد كبير ، على مناهضة تأثير العقائد القديمة ، ويعمل على تكوين صورة من الحياة الدينية ، أكثر نقاء ، وأشد إدراكا من الحياة السابقة . على أنه فى السنين الأخيرة يمكن أن يقال بوجه عام ، أن هناك حركة تستحق الذكر ، قامت بين مسلمى الهنود ، ترمى إلى أن يأخذوا أنفسهم بحياة دينية ، أشد تمسكا بشرائع الإسلام . كذلك كان لمدارس التبشير المسيحى أثر كبير جدا فى

---

(١) The Indian Evangelical Review, 1884, p. 128. Garcin de Tassy : La Langue et la Littérature Hindoustanies de 1850 à 1869, p. 485. (Paris, 1874.) Garcin de Tassy : La Langue et la Littérature Hindoustanies en 1871, p. 12, (Paris 1872.)

حث بعض مسلمى الجيل الذى تلا ذلك الجيل على دراسة ديانتهم ، وفى إثارة يقظة فى الحماسة الدينية . وفى الحق ، أن انتشار التعليم ، بوجه عام ، قد أدى إلى تمثل المبادىء الدينية ، تمثلا أكثر إدراكا ، وإلى زيادة عدد المعلمين الدينيين فى المقاطعات المجاورة التى أهمل شأنها إلى الآن . وأياكان منشأ حركة الدعوة الإصلاحية هذه ، فإن من الممكن أن نلحظ قيام هذه الحركة فى جهات مختلفة جدا من بلاد الهند . ففى مقاطعات البنجاب الشرقية مثلا ، قامت نهضة دينية عظيمة بعد إعلان العصيان والثورة . وتنقل الدعاة فى طول البلاد وعرضها ، يدعون المؤمنين إلى نبذ شعائرهم الوثنيـة ، ويبسطون لهم مبادئ العقيدة الخالصة . وكان من أثر ذلك أن بنيت الآن مساجد فى معظم القرى التى يمتلك فيها المسلمون أى نصيب لا يستهان به ، على حين أن الأهالى أخذوا يكفون الآن عن إقامة العبادات الوثنية التى كانت أكبر مظهرا وأكثر علانية[١] . وكذلك فى راجپوتانه ، نجد القبائل الهندوكية التى كانت تدخل فى الإسلام من حين إلى حين فى المناطق الريفية ، تصبح الآن أكثر محافظة على أصول الإسلام ، وأشد مواظبة على إقامة شعائرهم الدينية ، وتنبذ العادات القديمة ، التى كانت حتى ذلك الحين تشارك جيرانها الوثنيين فى المحافظة عليها . فقبيلة ميرات Merats مثلا ، تتبـع الآن الطريقة الإسلامية فى الزواج ، بدلا من النظم الهندوكية التى كانوا يتبعونها من قبل . كما أنهم نبذوا أكل لحم الخنزير[٢]. وفى البنغال نهضة مماثلة تحدثنا عنها من قبل .

ولـكن مثل هـذه الحركات وجهود الدعاة الفردية ، لا تـكفى مطلقـا لشرح سرعة ازدياد عدد مسلمى الهند . وكان طبعيا أن يؤدى ذلك إلى أن يتحرى المرء الأسباب الأخرى ، أكثر من أن يتحرى الزيادة العادية فى عدد السكان[٣]، تلك الأسباب التى ساعدت على زيادة عدد هؤلاء السكان زيادة هائلة . وإنا نجد الجواب فى أحوال الحياة الاجتماعية عند الهندوكيين . وإن الإهانات والاحتقار الذى انصب على الطبقات المنحطة من الهندوكيين على أيدى إخوانهم فى الدين ، والعراقيل التى لا يمكن التغلب عليها ، والتى وضعت فى سبيل أى فريق من هذه الطبقات يرغب فى تحسين حالته ، ليوضح لنا فى هذه المفارقة العجيبة فوائد النظام الدينى الذى لا يفرق بين منبوذ وغير منبوذ ، والذى يهيء مجالا حرا للتمتع بأى مطمح . ففى البنغال مثلا ، يعتقد الإسلام هؤلاء الذين يقومون بنسج القطن ، والذين ينظر إليهم أخوانهم فى الدين من الهندوكيين كما ينظر المرء إلى السفلة والطغام ، فى جماعات كبيرة ليتخلصوا من المركز الوضيع الذى انحدروا إليه[٤] . وهنالك مثل واضح جدا عن نوع مماثل فى تاريخ الجزء الشمالى الشرقى لهذا الإقليم نفسه . فهنا فى سنة ١٥٥٠ أسست قبيلة

---

(١) Ibbetson, p. 184.

(٢) The Rajputana Gazetteer, vol. i. p. 90 ; vol. ii. p. 47. (Calcutta, 1879.)
The Census of India, 1901. vol. vi. p. 172.

(٣) للوقوف على الأسباب التى كان لها أثر فى زيادة عدد المسلمين راجع :
The Census of India, 1901. Vol. vi. p. 172.

(٤) E. T. Dalton, p. 324.

كوجه Kocch الأصيلة أسرة بزعامة رئيسهم العظيم «حاجو» Haju . وفى عهد حفيده ، لما وجد السواد الأعظم من الناس الطبقات العالية تدخل فى حوزة الهندوكية (١) ، وألفى جمهور الشعب نفسه محتقرا كالمنبوذين ، دخلوا فى الدين الإسلامى (٢) .

وإن الخلاص الذى يقدمه الإسلام إلى الهندوكيين من ظلم الطبقات العليا ، ليتضح بصورة عجيبة فى إقليم تناولى Tinnevelli فى نهاية القرن التاسع عشر . فإن طائفة منحطة جدا ، وهى طائفة الشنار Shanars ، قد أصبحت فى السنين الأخيرة فى رغد من العيش ، وبنى كثير من أفرادها دورا جميلة . وادعوا أن من حقهم أن يتعبدوا فى معابدهم التى كانوا قد أقصوا عنها إلى ذلك الحين . وتبع ذلك قيام هياج قاسى منه الشنار كثيرا على أيدى الهندوكيين الذين ينتمون إلى طبقة أعلى ، ولجئوا إلى حظيرة الإسلام . وقد دخل ستمائة من الشنار فى قرية واحدة فى الإسلام ، ولم يلبث أن اقتفى الناس أثرهم فى أماكن أخرى (٣) .

ونستطيع أن نأتى بأمثلة كثيرة مشابهة من جهات أخرى فى الهند . فإن الهندوكى الذى نبذته طبقته بطريقة ما ، وطردته تبعا لذلك أسرته وجماعته التى اعتاد أن يتنقل بينها ، كان طبعيا أن ينجذب نحو دين يقبل جميع الناس من غير تمييز ، وأن يبوّئه فى المجتمع منزلة تماثل فى المستوى الاجتماعى ، تلك المنزلة التى كان قد أقصى عنها . وإن مثل هذا التحول كان يقترن فى العادة بإيمان صادق بهذا الدين وعقائده . ولكن الرجال ، الذين ربما كانوا لا يكترثون مطلقا لعدد الآلهة أو أسمائها ، تلك الآلهة التى دعوا لعبادتها ، قد يحسون إحساسا جديا بحرمانهم وطردهم من الهيئة الاجتماعية ، وما نتج عن ذلك من ضياع حقوقهم فى طبقتهم ، ويصبحون مسلمين من غير أن يكون لهم شعور دينى . ولا بد أن يكون تأثير دراسة الأدب الإسلامى ، واتصالهم بحكم العادة بالهيئة الاجتماعية الإسلامية ، قد جعل الهنود يحسون ذلك التأثير بطريقة لم يشعروا بها . ففى راجپوتانه وبنديل كهند Bundelkhand ، كانت أمثال هذه النزعات التى تجنح إلى الإسلام ظاهرة فى القرن التاسع عشر ، بين أمراء راجه پوت(٤) — ولو أن إمبراطورية المغول بقيت ، لكان من المحتمل أن تؤدى هذه النزعات إلى تحول هؤلاء الأمراء نهائيا إلى الإسلام .

فإنهم لم يقتصروا على احترام أولياء المسلمين ، بل عهدوا فى تعليم أبنائهم إلى معلمين من المسلمين ، وذبحوا الحيوانات وفق الشريعة الإسلامية ، واشتركوا فى الأعياد الإسلامية وهم يرتدون زى الفقراء ، وصلوا كما يصلى المسلمون المتمسكون بدينهم . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، زعم بعض أن الأحوال الحاضرة تجعل

---

(١) للوقوف على إدخال القبائل الأصيلة فى الهندوكية راجع :
Sir Alfred Lyall : Asiatic Studies, pp. 102-4.

(٢) E. T. Dalton, p. 89.

(٣) The Missionary Review of the World, N. S. vol. xiii, pp. 72-3. (New York, 1900.)

(٤) يتحدث سير ألفرد ليال (Asiatic Studies, p. 29.) عن الميل الظاهر إزاء عقيدة الاسلام الذى كان يظهره بعض الزعماء الهندوكيين من حين إلى حين .

ازدياد تحول الهندوكيين إلى الإسلام أمرا أكثر احتمالا فى عهد حكومة بعيدة كل البعد عن التحيز والمحاباة فى المسائل الدينية ، بخلاف ما كانت عليه الحال فى ظل الممالك الإسلامية ، حين ظفر الهندوكيون بتوحيد كلمتهم وزيادة قوتهم من جراء النزاع المستمر مع هؤلاء الأعداء المهاجمين (١). كذلك كان الهندوكيون يذهبون زرافات ووحدانا لزيارة أضرحة الأولياء ، فى يوم إحياء ذكراهم . وكان الرجل الذى لم ينجب أطفالا ، يقدم أكف الضراعة إلى إله المسلمين ، مدفوعا بذلك الشعور الذى يدفع المشرك بأن لا يدع إلها من غير أن يلق إليه بالمودة ويتقدم بالدعاء ، فإذا ما استجيب دعاء أحدهم وقضيت حاجته ، وأنجب ولدا ، بر قسمه ودخل جميع أفراد الأسرة فى مثل هذه الحالة (والأمثلة على ذلك كثيرة) فى الإسلام(٢).

وقد يكون حب المرأة المسلمة سببا فى تحول الهندوكى إلى الإسلام ، إذ أن الشريعة الإسلامية تحرم تحريما قاطعا زواج المرأة المسلمة من الكافر . وإذا تبنّى المسلمون أطفالا هندوكيين ، تربوا على دين آبائهم الجدد . كما أن المرأة الهندوكية التى تتزوج ممن يتبع دين النبى ، تعتقد فى الغالب ديانة زوجها (٣). ولما كان من النادر أن يحدث العكس ، استلزم ذلك زيادة عدد المسلمين بنسبة زيادة عدد الهندوكيين . وكان الهندوكيون ، الذين طردوا من طبقاتهم لسبب ما ، والفقراء الذين أصبحوا يعيشون على صدقات المسلمين ، أو النساء والأطفال الذين دخلوا فى حماية المسلمين إذا مات آباؤهم وأمهاتهم أو هجروهم (وطبعى أن تحدث أمثال هذه الحالات فى أوقات القحط) — كل ذلك يكون مجرى مستمرا ، ولو أنه صغير ، يزيد فى عدد الذين تحولوا إلى الإسلام من الهندوكيين(٤).

وطالما كانت هناك أحوال محلية تتناسب مع نمو الإسلام . مثال ذلك ما أشرنا إليه من قبل (٥) من أن أى نمو فى سيادة المسلمين كان فى قرى تيرى Terai التى اتفق أن تساوى فيها عدد الهندوكيين وعدد المسلمين ،

---

(١) Gazetteer of the Province of Oudh. vol. i. p. xix.

(٢) ولنأت بمثل واحد فقط ، ففى غاتمبور Ghàtampur فى مقاطعة كان نور ، نجد أحد فروع أسرة كبيرة يدين بالاسلام ، استجابة لقسم جدهم غاتم ديوبيز Ghàtam Deo Bais . فانه قد نذر ، لما كان يدعو الله فى ضريح أحد أولياء المسلمين ، وهو مدار شاه ، أنه إذا استجيب دعاؤه ، أن تنشأ نصف سلالته تنشئة إسلامية .

وكانت عبادة أولياء المسلمين شائعة جدا بين بعض أفراد الطبقة السفلى من المشركين ، حتى أن ٢٠٢٣٣٠٦٤٣ هندوكى (أو ٥٠٧٨ ٠/٠ من مجموع سكان هذه المقاطعات) قد أثبتوا فى تذاكر التعداد الذى أجرى فى سنة ١٨٩١ فى الولايات الشمالية الغربية وفى أوده Oudh وحدها ، أنهم من عباد أولياء المسلمين .

(Census of India, 1891, vol. xvi. part. i. pp. 217, 244.) (Allahabad, 1894.) Gazetteer of the N.W.P. vol. xi. pp. 64, 238.)

(٣) وقد وردت أمثلة لمثل هذا التحول فى

Census of India, 1901, Vol vi. Bengal, part. 1, Appendix ii.

(٤) Report on the Census of the N.W.P. and Oudh, 1881, by Edward White, p. 62. (Allahabad, 1882.)

(٥) Ibid. p. 63.

وأن ذلك النمو كان يتبعه دائما قيام المنازعات حول ذبح البقر وغيره من الشعائر التي تسوء شعور الهندوكيين . وكان الهندوكيون يرحلون من القرية تدريجا ، غير تاركين وراء عقيدتهم إلا حراثى الأرض من الشمار فى خدمة زراع المسلمين ، وينتهى الأمر بهؤلاء إلى اعتقاد دين أسيادهم . ولم يكن ذلك منبعثا من أى إيمان بصدقه ، وإنما كان ذلك راجعا إلى ما تجره عزلتهم عن إخوانهم فى الدين من متاعب .

وكذلك نجد بعض الأمثلة البارزة لتحول الناس إلى الإسلام بين الطبقات الدنيا من الهندوكيين فى المراكز الزراعية فى أوده Oudh . ومع أن المسلمين فى هذه المقاطعة يؤلفون عشر جميع السكان فقط ، لا تزال الجماعات الصغيرة من حراث المسلمين يكونون « مراكز مبعثرة للثورة على الظلم الشائن الذى أسلم دينهم إليه هذه الطبقات الدنيا بصورة تبعث على اليأس والقنوط » (١).

وإن المزايا التي يقدمها الإسلام لأمثال هذه الطبقات ، كطبقتى الكورى Koris والجمار Chamàrs اللتين بقيتا فى أحط دركات المجتمع الهندوكى ، والخلاص الذى نالوه عن طريق تحولهم إلى الإسلام ، قد يفهم على أحسن وجه من هذه العبارة التي تصف حالتهم الاجتماعية باعتبارهم هندوكيين(٢). ولقد بلغ الكورى والجمار ، الذين يقومون بأعمال النسج وقطع الجلود لسائر مواطنيهم ، أحط دركات البؤس والانحلال . ففى الولايات الشمالية نجد أكثر هؤلاء فى الواقع أرقاء مستعبدين ، ليس من السهل مطلقا أن تتهيأ نفوسهم للافادة من العلاج الذى تقدمه دور القضاء عندنا ، ويهبطون مع أطفالهم جيلا بعد جيل كما تهبط قيمة السلعة القديمة . وهم يمسكون المحراث للسيد البرهمى أو الشّتْرى (§) ، الذى تحرم عليه كبرياء طبقته أن يمسه ، ويعيشون مع الخنازير التى لا تقل قذارة عنهم فى أحياء منعزلة بعيدة عن سائر سكان القرية . ولما كانوا دائما يوشكون أن يموتوا جوعا ، فإن أشكالهم الهزيلة السوداء ، ذات التقاطيع غير المتجانسة ، ووجوههم التي تعلن بغباوتهم ، وعاداتهم القبيحة التى تبعث على الاشمئزاز ، لتصور حظهم العاثر الذى حكم عليهم بأن يكونوا أحط شأنا من الحيوان الذى يعيش بين الرجال الذين ينتمون إلى طبقتهم الاجتماعية . ومع ذلك فإن حالة خدام الاسطبلات النشيطين ، الذين يختارون من بين هؤلاء ، والذين يحصلون على أجور طيبة ، ويعيشون عيشة حسنة فى كنف سادة من الأوربيين ، لتدل على أنهم بعيدون عن أن تكون حالتهم عاجزة عن التحسن . وأن تغيير الدين هو الطريق الوحيد الممهد أمامهم للخلاص ؛ وليس ثمة ما يدعو لأن يكونوا مخلصين لعقيدتهم الدينية التى كانوا يدينون بها .

---

(١) Gazetteer of the Province of Oudh, vol. i. p. xix.

(٢) Gazetteer of the Province of Oudh, vol. i. pp. xxiii-xxiv.

(§) ينقسم سكان الهند إلى خمس طبقات : البراهمة وهم طبقة العلماء ورجال الدين ؛ والشترى وهم الجند ؛ ويش أو بيش ، وهم التجار ورجال الأعمال ؛ وشودر ، وهم الطبقة الدنيا ؛ وجندال ، وهم لا يفترقون عن الحيوانات . ولا يختلط بعض أفراد هذه الطبقات ببعض بحال من الأحوال .

وإن عدم وجود التعصب الطائفي ، ليكون القوة الحقيقية للاسلام فى الهند ، ويمكن له من أن يجذب إليه عددا كبيرا جدا من الهندوكية .

ولكى نتم ما رسمناه من الكلام على الإسلام فى الهند ، لا يزال لدينا بعض أخبار نوردها عن انتشار هذا الدين فى قشمير ، ومنها وراء حدود الهند إلى بلاد التبت . ومن بين جميع المقاطعات والولايات فى الهند (بخلاف بلاد السند) . تشتمل قشمير على أكبر عدد من المسلمين (أى بنسبة ٧٠ ٪) بالنسبة إلى جميع السكان . بيد أن الحقائق التاريخية التى تفسر وجود عدد كبير جدا من المسلمين فى هذه الولاية ، والتى ترجع كلها تقريبا إلى أصل تُبَّتى أو هندى ، قليلة جدا لسوء الحظ . ولكن جميع الشواهد تهدينا إلى أن نعزو هذه الحقائق بوجه عام إلى حركة الدعاية المتصلة التى بدأها وقام على تنفيذها الفقراء والدراويش ، وكان من بينهم بعض دعاة الإسماعيلية الذين أرسلوا من قلعة ألموت (١) . (§)

ومن الصعب أن نقول متى بدأ التأثير الذى صبغ البلاد بصبغة إسلامية لأول مرة . وقد قيل إن أول ملوك قشمير من المسلمين ، وهو صدر الدين(٢)، يدين بدخوله فى الإسلام إلى أحد الدراويش ، ويسمى بلبل شاه ، وذلك فى مستهل القرن الرابع عشر الميلادى . وكان هذا الولى هو المعلم الدينى الوحيد الذى استطاع أن يحقق أمنيته فى الوصول إلى حقيقة الدين ، وذلك عندما تطلع إلى نوع من العقائد يكون أكثر قبولا لديه من عقيدته الهندوكية ، التى لم يكن راضيا عنها مقتنعا بها . وحول نهاية هذا القرن نفسه (١٣٨٨م) لقى تقدم الإسلام أعظم رواج بقدوم سيد على الهمذانى أحد القارين من مدينة همذان مسقط رأسه فى فارس ، حيث كان قد أثار سخط تيمور . وقد صحبه سبعمائة سيد ، وأسسوا أماكن للتنسك فى جميع أرجاء البلاد ، ويظهر أنه كان من تأثيرهم أن تحقق قبول الناس لهذا الدين الجديد . على أنه يظهر أن قدومهم قد أثار كذلك روحا قويًّا من التعصب الدينى ، إذ أن السلطان سكندر Sikandar (١٣٩٣ — ١٤١٧م) نال اسم بت شكن Butshikan لتخريبه الأصنام والمعاهد الهندوكية ، وقام وزيره الأول ، وكان هندوكيا قد تحول إلى الإسلام ، باضطهاد عنيف فى وجه منتحلى دياناته القديمة ، ولكن بعد وفاته أصبح التسامح الدينى قاعدة جرت عليها المملكة(٣). وحول نهاية القرن الخامس عشر قدم من بلاد العراق أحد دعاة المذهب الشيعى ، ويسمى مير شمس الدين ، واستطاع بمعونة تلاميذه ومريديه أن يظفر بعدد كبير من الذين دخلوا فى الإسلام فى قشمير .

ولما أصبحت قشمير فى عهد أكبر إحدى ولايات إمبراطورية المغول ، قوى النفوذ الإسلامى بطبيعة

---

(١) Khojà Vrttànt, p. 141.

(§) أسسها الحسن الصباح على مقربة من بحر قزوين فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) .

(٢) وتقول رواية أخرى إن اسمه شمس الدين . راجع محمد حيدر ص ٤٣٣ (هامش رقم ٢) .

(٣) Firishtah, vol. iv. pp. 464, 469.

الحال ، وقدم كثير من رجال العلم إلى هـذه البلاد . وفى عهد أورنج زيب ، تحول راجا كشتوار ، أحد رؤساء راجه بوت إلى الإسلام بفضل الكرامات التى أظهرها شخص يدعى سـيد شاه فريد الدين . ويظهر أن تحوله إلى الإسلام قد تبعه دخول السواد الأعظم من رعاياه فى هذا الدين . ولا نزال نرى على طول الطريق التى أحرز فيها أباطرة المغول نجاحا فى فتوحهم فى بلاد قشمير راجوات من ذرارى الراجه بوت من المسلمين(١) .

وإلى شمال قشمير والشمال الشرقى منها ، نرى خليطا من جنس التبت يقطنون ولايتى بلتستان Baltistan ولداخ Ladakh ، وقد استقر الإسلام بينهم قرونا عدة ، ولكن تاريخ دخوله فى هذه البلاد والطريقة التى دخل بها غير معروفة لدينا . ويروى مسلمو بلتستان قصة أخوة أربعة قدموا من خراسان ، ونهضوا بالدين ، بيد أنه يظهر أنه ليس هناك رواية تتعلق بأقدم الدعاة إلى الإسلام فى هذه البلاد(٢) . ويظهر أن الإسلام كان حتى منتصف القرن التاسع عشر يحرز تقدما ، ولكن التشجيع الذى قدمه مهراجه رنبير سنكه Maharaja Ranbir Singh لأتباع الديانة البوذية قد وقف فى سبيل هذا الاتجاه . وفى لداخ عدد من مولدى الطبقات يطلق عليهم اسم أرغونيون Arghons(٣) ، من أمهات تبتيات وآباء مسلمين ، من التجار الذين قدموا إلى ليه Leh وحثوا نساء التبت اللاتى تزوجوا منهن على قبول الإسلام . وهؤلاء الأرغونيون مسلمون جميعا ؛ وهم ، كآبائهم يتزوجون من نساء التبت . ويقال إن عددهم يزداد بسرعة أكثر من العنصر التبتى الخالص(٤) . كذلك نقل تجار قشمير الإسلام إلى بلاد التبت الأصلية . ونجد أمثال هؤلاء التجار يستوطنون جميع المدن الرئيسة فى التبت ، ويتزوجون من نساء تبتيات ، وكن فى الغالب يعتقدن دين أزواجهن . ويقال الآن إن هناك عددا كبيرا يبلغ ألفى أسرة مسلمة فى لهاسه Lhasa(٥) . وكذلك شق الإسلام طريقه من التبت من إمارة يونان(٦) ، وفى سو ـ جنك Su-ching على حدود ولاية زى ـ شوان Sze-chwan والتبت ، دخل فى الإسلام فريق من بين سكان بلاد التبت(٧) . ويقال أيضا إن المؤثرات الإسلامية قد أتت من فارس(٨) ، ومن تركستان(٩) .

---

(١) F. Drew : The Jummoo and Kashmir Territories. pp. 58, 155. (London, 1875).

(٢) Drew, op. cit. p. 359.

(٣) انظر ما ورد عن هذه الكلمة فى Yule : Marco-Polo, vol. i, p. 290,

(٤) Ahmad Shàh : Four Years in Tibet, pp. 45, 74 (Benares, 1906.)

(٥) Broomhall, p. 206.

وقد أذاع تو ون سو Tu wen-siu زعيم ثورة بانثى Panthey من سنة ١٨٥٦ إلى سنة ١٨٧٣ ، وكان السلطان الفعلى على نصف ولاية يونان Yunnan ست عشرة سنة ، منشورا فى لهاسه نفسها فى بداية هذه الثورة ليكسب أمدادات من المسلمين (Id. p. 132.)

(٦) Mission d'Ollone, pp. 207, 226, 233

(٧) Broomhall, p. 206.

(٨) A. Bastian: Die Geschichte der Indo-chinen, p. 159. (Leipzig, 1866.)

(٩) R. du M. M., tome i, p. 275 (1907.)

الباب العاشر

انتشار الاسـلام في الصين

روى عن النبي ﷺ أنه قال : « اطلبوا العلم ولو في الصين[١] » . ومع أنه ليس ثمة شاهد تاريخي يدل على أن هذا الكلام قد جاء على لسان الرسول ، فليس من المستحيل أن يكون الرسول قد عرف اسم هذه البلاد ، وذلك لأن الصلات التجارية بين بلاد العرب والصين كانت قد توطدت قبل مولده بزمن طويل . فكانت حاصلات الشرق ، التي تتلقاها بلاد الشام وموانىء البحر الأبيض ، تمر بنسبة هائلة عن طريق بلاد العرب . وفي القرن السادس الميلادي كانت بين الصين وبلاد العرب تجارة هامة عن طريق سيلان . وفي بداية القرن السابع كانت التجارة بين الصين وبين فارس وبلاد العرب لاتزال واسعة الانتشار ، حيث كانت مدينة سيراف ، الواقعة على الخليج الفارسي ، هي السوق الرئيسة للتجار الصينيين . وقد ورد ذكر العرب لأول مرة في التواريخ[٢] الصينية في ذلك الوقت الذي ابتدأ فيه حكم دولة تانج T'ang (٦١٨ - ٩٠٧م) ؛ وتشير هذه التواريخ إلى نشأة القوة الإسلامية في مدينا ، كما تتحدث بإيجاز عن التعاليم الدينية للعقيدة الجديدة.

أما تاريخ كوانجتنج Kwangtung فيذكر قدوم أول من جاء من المسلمين إلى الصين على النحو الآتي : « في عهد دولة تانج T'ang وفد على كنتن Canton عدد كبير من الغرباء من مملكة أنّام Annam وكمبوديا Cambodia ومدينا وبعض بلاد أخرى . وكان هؤلاء الغرباء يعبدون الله ، وليس لهم في معابدهم تمثال ولا صنم ولا صورة . وكانت مملكة مدينا قريبة من مملكة الهند ، وفيها نشأت ديانة هؤلاء الغرباء التي تختلف عن ديانة بوذا . وكانوا لايطعمون لحم الخنزير ولا يشربون الخمر ، ويعتبرون الذبائح التي لايذبحونها بأيديهم طعاما نجسا . ويطلق عليهم الآن اسم هوى هوى Hui Hui[٣] . . . ولما استأذنوا الإمبراطور وحصلوا منه على إذن بالإقامة في كنتن ، بنوا دورا جميلة من طراز يختلف عن ذلك الذي كان في بلادنا . وكانت لهم ثروة عظيمة ودانوا بالطاعة لرئيس انتخبوه بأنفسهم[٤] » . ومن المحتمل جدا ، على الرغم من قلة الشواهد التاريخية الصريحة[٥] ، أن الإسـلام دخل الصين أول ما دخل مع التجار الذين كانوا يسلكون

---

(١) كنز العمال المجلد الخامس ص ٢٠٢ .

(٢) Bretschneider (2), p. 6.

(٣) أنظر أصل هذا الرسم في Deveria, p. 311; Mission D'Ollone, p. 420 Sqq.

(٤) De Thiersant, vol. i, pp. 19-00.

(٥) وفيما يلي ، ينبهنا دلون D'ollone إلى التشكك في معرفتنا بالاسلام في الصين : « لا ندرى شيئا عن الاسلام في ـــ

الطريق البحرى القديم . ولكن أسبق النصوص التى يمكن أن نثق بصحتها تشير إلى علاقات سياسية تبادلوها برا عن طريق بلاد الفرس . وعند ما توفى يزدجرد آخر ملوك آل ساسان فى فارس ، استنجد ابنه فيروز بالصين لتنصره على العرب الغزاة[1]؛ غير إن إمبراطور الصين أجاب بأن بلاد الفرس كانت من بعد الشقة وطول المسافة بحيث لا يستطيع أن يرسل إليه الجيوش المطلوبة ؛ ولكن قيل إنه بعث إلى البلاط العربى سفيرا يدافع عن قضية الأمير الهارب — ومن المحتمل أيضا أن يكون الإمبراطور قد أوصى سفيره بأن يتبين مدى الاتساع والقوة فى الدولة الجديدة التى كانت قد نشأت فى الغرب . وقيل إن الخليفة عثمان أرسل أحد القواد العرب ليرافق السفير الصينى فى عودته سنة ٦٥١ م ، فأكرم الإمبراطور وفادة أول سفير من المسلمين بعث إليه . وفى عهد الوليد (٧٠٥—٧١٥م) (٨٦ — ٩٦ هـ) نجد القائد العربى المشهور ، قتيبة ابن مسلم ، الذى ولاه الخليفة على خراسان ، يعبر نهر سيحون ويشرع فى سلسلة من الحملات الناجحة ، أخضع فيها على التوالى بخارى وسمرقند ومدنا أخرى ، ومضى قدما فى فتوحاته حتى وصل إلى الحدود الشرقية للإمبراطورية الصينية . وأرسل قتيبة ، فى سنة ٧١٣م ، رسلا إلى الإمبراطور ، فصرفهم (كما تذكر بعض الروايات العربية) ومعهم هدايا ثمينة . وبعد سنين قليلة ، تذكر التواريخ الصينية سفيرا يدعى سليمان ، أوفده الخليفة هشام سنة ٧٢٦م إلى الإمبراطور هزوان تسنج Hswan Tsung . واكتسبت هذه العلاقات السياسية ، التى قامت بين الدولتين العربية والصينية ، أهمية جديدة فى أواخر عهد هذا الإمبراطور حين طرده أحد الغاصبين من عرشه فتنحى عنه لابنه سوتسنج Su Tsung (٧٥٦م) ، فطلب هذا الأخير النجدة من الخليفة العباسى المنصور ، وأجابه الخليفة إلى هذا الطلب بأن أرسل إليه قوة من الجيوش العربية ، نجح بمساعدتهم فى استرجاع عاصمتيه سينجنفو Si-ngan-fu وهو نَنفو Ho-nan-fu من أيدى الثوار . وفى نهاية الحرب ، لم ترجع هذه القوات العربية إلى بلادها ، بل تزوجت واستقرت فى الصين . ويعزى هذا التصرف الذى كان من جانبهم ، إلى أسباب متعددة ؛ فتصورهم رواية من الروايات بأنهم رجعوا إلى وطنهم، ولكنهم لما لم يسمح لهم بالبقاء فيه بحجة أنهم مكثوا مدة طويلة فى بلاد تأكل لحم الخنزير ، عادوا ثانية إلى الصين ؛ وتقول رواية أخرى إنهم كانوا ، فى كنتن ، على أهبة الإبحار إلى بلاد العرب ، وفى ذلك الوقت عيّرهم الناس بأنهم أكلوا لحم الخنزير فى أثناء الغزو . وكان من أثر ذلك أنهم رفضوا أن يعودوا إلى وطنهم ويعرضوا أنفسهم لخطر مثل هذه الاتهامات من قومهم ؛ وحين حاول حاكم كنتن أن يجبرهم على الرحيل ، انضموا إلى إخوانهم فى الدين من تجار العرب والفرس ، وسلبوا المتاجر العامة فى المدينة ؛ فأنقذ الحاكم

= الصين ، ولا نعرف بدقة كيف انتشر فى الامبراطورية ، ولا عدد من ظفر بهم من الذين دخلوا فى الاسلام ، ولا ما إذا كانت مبادئه خالصة ، ولا نعرف شيئا عن نظامه ، ولا ما إذا كانت له صلات ببقية العالم الاسلامى » . (Mission d'Ollone, p.I.)
وقد جمع شفر Schefer ما كتبه العرب والفرس عن الصين فى :
"Notice sur les relations des peuples musulmans avec les Chinois".

(١) Chavannes, p. 172.

نفسه بالالتجاء إلى سورها ، ولم يتمكن من العودة إلا بعد أن حصل من الإمبراطور على إذن لهذه الجيوش العربية بأن تقيم فى هذه البلاد ؛ وخصصوا لهم أراضى ، ودوروا فى مدن مختلفة حيث استقروا وتزوجوا من نساء البلاد(١).

وكان من الشائع بين مسلمى الصين أن أول من دعا إلى الإسلام فى بلادهم أحد أخوال النبى ، وكانوا يعظمون قبره المشهور ، فى كنتن ، إلا أنه لا يوجد لهذه الأسطورة أى سند تاريخى ، ويظهر أنها نبتت فى زمن متأخر(٢). ولاشك أن ظهورها كان نتيجة لرغبتهم فى أن يربطوا تاريخ الدين فى بلادهم ، ما أمكنهم ، بعصر النبوة — ذلك العصر الذى كان مصدرا خصبا للأساطير فى البلاد النائية عن مراكز التاريخ الإسلامى(٣). أما فيما يتعلق بوجود مسلمين فى الصين ، وعلى الأخص وجود تجار منهم فى الموانىء ، فى عهد دولة تانج ، فهناك الدليل الواضح على ذلك ، إذ يقول المؤرخ الصينى لهذه الفترة (٧١٣ — ٧٤٢م) إن برابرة الغرب دخلوا المملكة الوسطى جماعات ، كالطوفان ، جاءت من مسافة تبعد ألف فرسخ على الأقل ، وأتت من أكثر من مائة مملكة ، تحمل معها كتبها المقدسة كأنها الجزية ، فأخذت هذه الكتب ووضعت فى بهو فى القصر الإمبراطورى ، خصص لترجمات الكتب المقدسة والكتب القانونية(§). وعلى هذا النحو انتشرت منذ ذلك الحين العقائد الدينية لتلك الأقطار المختلفة ، وأخذ بها الناس فى إمبراطورية تانج(٤). وقد كتب أحد الجغرافيين العرب ، حوالى سنة ٨٥١م يصف هذه الجاليات العربية والمساجد التى سمح لهؤلاء التجار ببنائها لإقامة شعائرهم الدينية(٥) ؛ فقال إنه لم يصل إلى علمه أن أحدا من الصينيين اعتقد الإسلام . ولكنه ، وقد لاحظ نفس الملاحظة على الهند ، ربما أخطأ فى استقاء معلوماته عن الصين كما أخطأ فى استقاء معلوماته عن الهند(٦). ولكن من المؤكد أن ليس هناك دليل واضح على أن المسلمين فى الصين قاموا بأى نشاط فى نشر تعاليم الدعوة ، والواقع أن ما ذكر عنهم جميعا حتى عصر فتوح المغول ، فى القرن الثالث عشر الميلادى ، كان قليلا للغاية . وقد تمخضت فتوح المغول عن حركة هجرة واسعة النطاق هاجر فيها المسلمون على اختلاف

(١) De Thiersant, vol. i. pp. 70—1.

(٢) ناقش برومهول Broomhall هذه الأسطورة مناقشة وافية : Islam in China, chap. iv, vii.

(٣) وعلى هذا النحو يدعى أهالى ختن Khotan أن أول من نقل الإسلام إلى أرضهم هو جعفر ابن عم النبى (Grenard : Mission Dutreuil de Rhins, t. III. p. 2) ويعزو غانات كمبوديا Cambodia دخولهم فى الاسلام إلى أحد أعمام محمد (R. du M. M., vol. II. p. 138.)

(§) أى الكتب الدينية التى اتفق علماء المسيحيين على صلاحيتها وصحتها .

(٤) De Thiersant, vol. 1. p. 153.

(٥) Reinand : Relation des Voyages faits par les Arabes et les Persans dans l'Inde et à la Chine, i. pp. 13, 64. (Paris, 1845).

(٦) Id. p. 58.

قومياتهم ، من عرب وفرس وأتراك وغيرهم إلى الإمبراطورية الصينية [١] . فجاء بعضهم إلى الصين تجارا أو صناعا ، وبعضهم جنودا أو مستعمرين ، وجيء بآخرين أسرى حرب . واستقر عدد كبير منهم فى هذه البلاد بصفة دائمة ، وتطوروا إلى طائفة كبيرة مزدهرة ، فقدت خصائص جنسها الأول شيئا فشيئا بالزواج من نساء صينيات . وقد تقلد عدة مسلمين مناصب رفيعة تحت إمرة حكام المغول . مثال ذلك ، عبد الرحمن الذى اختير سنة ١٢٤٤ رئيسا على بيت مال الدولة ، وخول حق تقدير الضرائب المفروضة على الصين[٢]. وكذلك عمر شمس الدين المشهور بالسيد الأجل وكان من أهالى بخارى ، عهد إليه قوبيلاى خان ، عندما اعتلى العرش سنة ١٢٥٩ ، فى إدارة بيت مال الإمبراطورية ؛ ثم أصبح حاكما ليونَّان Yunnan ، بعد أن فتحت هذه الولاية وضمت إلى الإمبراطورية الصينية[٣]. ومات السيد الأجل فى سنة ١٢٧٠ ، وترك بعد وفاته شهرة بأنه كان حاكما فطنا عادلا ؛ إذ بنى فى مدينة يونان معابد لأتباع كنفشيوس بقدر ما بنى فيها من المساجد [٤].

وقد مثلت ذرية السيد الأجل دورا هاما فى توطيد دعائم الإسلام فى الصين ، فكان حفيده هو الذى حصل من الإمبراطور فى سنة ١٣٣٥ على الاعتراف بأن الإسلام « هو الدين الحق الخالص » ـ وهو اسم ظل الإسلام يحمله حتى يومنا هذا ـ وأذن الإمبراطور فى سنة ١٤٢٠ لشخص آخر من سلالة السيد الأجل بأن يبنى مساجد فى العاصمتين ، سينانفو Si-ngan-fu ونانكن Nan-kin[٥] . وقد اتخذ مؤرخو الصين ، فى عهد قوبيلاى خان ، من عدم تعيينه موظفين من الصينيين بدلا من مهاجرى الترك والفرس ذريعة للشكوى من هذا الملك[٦] . وانجذب أمثال هؤلاء الترك والفرس إلى شمال الصين ، لما كان يشغله السيد الأجل من مكان رفيع ، ولما أوجدته فتوح المغول من تيسير فى الصلة بين الصين والغرب . ومن المحتمل أن تكون هذه الجماعات الإسلامية المتفرقة ، التى تكاثرت فى معظم ولايات الصين بنسبة كبيرة ، قد أخذت تتكون نتيجة لهذه الهجرات . وقد لاحظ ماركو پولو Marco Polo الذى تمتع بعطف قوبيلاى خان ، وعاش

---

(١) ونعرف ، من مذكرة راهب صينى تجول من سنة ١٢٢١ إلى سنة ١٢٢٤ خلال آسيا الوسطى حتى وصل فارس ، أن الصينيين أيضا هاجروا نحو الغرب ، فى البلاد التى فتحها الاسلام ، حيث كانوا يحلون فى بيئة تفرده الدين ؛ ويقول هذا الراهب فى حديثه عن سمرقند ،، إن الصناع الصينيين يعيشون فى كل مكان ،، .

(Bretschneider (1), vol. i. p. 78.)

(٢) Howorth, vol. 1. p. 161.

(٣) للاطلاع على تراجم السيد الأجل ، أنظر : R. du M. M., viii. p. 344. sqq. and xi. p. 3 sqq. Mission d'Ollone, p. 25 sqq.

(٤) Broomhall, p. 127.

(٥) Mission d'Ollone, pp. 435—6.

(٦) Howorth, vol. 1. p. 257.

فى الصين من سنة ١٢٧٥ إلى سنة ١٢٩٢ ، وجود مسلمين فى جهات شتى من يونان[١] . ويقول مؤرخ معاصر لماركو پولو ، إنه فى بداية القرن الرابع الميلادى ، كان جميع سكان تاليفو Talifu ، حاضرة يونان، من المسلمين[٢] ؛ وكذلك ابن بطوطة ، الذى زار عدة مدن ساحلية فى الصين ، حول منتصف القرن الرابع عشر ، يحدثنا عن الترحيب الحار الذى لقيه من إخوانه فى الدين[٣] ، ويقرر أن « فى كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناهم ، ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعات وسواها ، وهم معظمون محترمون »[٤] .

ويظهر أن المسلمين فى الصين كانوا حتى ذلك العصر يعدون طائفة أجنبية ، ولكنهم بعد زوال دولة المغول فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى ، لم يتلقوا زيادة جديدة من الخارج ، نتيجة لسياسة العزلة التى اتخذتها حينذاك الحكومة الصينية ؛ ولما كان الأمر على هذا النحو ، من انقطاع الصلة بينهم وبين إخوانهم فى الدين الذين يقيمون فى أقطار أخرى ، أخذوا فى معظم بقاع الإمبراطورية يتحولون شيئا فشيئا إلى الاندماج فى العامة من أهالى البلاد ، وذلك بالزواج من نساء صينيات ، وتعود عادات أهل الصين وأخلاقهم . وقدم إليهم مؤسس دولة منج Ming الجديدة ، وهو الإمبراطور هنج وو Hung Wu، كثيرا من الامتيازات ، وتدل كثرة المساجد التى بنيت على انتعاشهم خلال الفترة التى قضتها هذه الدولة فى الحكم (١٣٦٨ — ١٦٤٤ م) .

وقد نمى ملوك هذه الدولة صلاتهم الودية بأمراء المسلمين الذين كانوا يقيمون على حدود الصين الغربية، كما أكثروا من تبادل السفراء مع الأمراء التيموريين . ويعتبر أحد هؤلاء الأمراء ذا أهمية فى تاريخ نشر الدعوة الإسلامية ، وهذا هو الشاه رخ بهادر ، الذى انتهز سنة ١٤١٢ فرصة قدوم سفير صينى إلى قصره فى سمرقند ، وضمن رده على الإمبراطور الصينى دعوة إلى الإسلام ، وذلك بأن أرسل مع رسوله ، الذى صحب السفراء الصينيين فى عودتهم ، رسالتين ، كانت أولاهما باللغة العربية ، وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ! لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . قال رسول الله محمد عليه السلام : لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من خذلهم ولا يطاع من خالفهم ، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك . لما أراد الله تعالى أن يخلق آدم وذريته ، قال : كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق لأعرف ، فعلم أن حكمته جلت قدرته ، وعلت كلمته ، من خلق نوع الإنسان ، إيثار العرفان ، وإعلاء أعلام الهدى والإيمان . وأرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ، ليعلم الشرائع والأحكام ، وسنن الحلال والحرام . وأعطاه القرآن المجيد معجزة ، ليفحم به

(١) Marco Polo, vol. 1. pp. 219, 274 ; vol. ii. p. 66.

(٢) رشيد الدين (Yule's Cathay, pp.)

(٣) رحلة ابن بطوطة ، المجلد الثالث ص ٢٧٥ ، ٢٨٣ (طبع أوربا) .

(٤) نفس المرجع ص ٢٥٨ .

المنكرين ، ويقطع لسانهم عند المنازعة والخصام ، وأبقى بعنايته الكاملة ، وهدايته الشاملة ، آثاره إلى يوم القيامة ؛ ونصب بقدرته فى كل حين وزمان ، وفرصة وأوان ، فى أقطار العالمين ، من الشرق والغرب والصين ، ذا قدرة وإمكان ، وصاحب جنود مجندة وسلطان ، ليروّج أسواق العدل والإحسان ، ويبسط على رءوس الخلائق أجنحة الأمن والأمان ، ويأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر والطغيان . ويرفع بينهم أعلام الشريعة الغراء ، وأزاح من بينهم الشرك والكفر بالتوحيد فى الملة الزهراء . فوفقنا الله تعالى بسوابق لطفه ، ولواحق فضله ، أن نسعى فى إقامة قوانين الشريعة الطاهرة ، وإدامة قواعد الطريقة الزاهرة ؛ وأمرنا بحمد الله أن نفصل بين الخلائق والرعايا ، فى الوقائع والقضايا ، بالشريعة النبوية ، والأحكام المصطفوية ؛ ونبنى فى كل ناحية ، المساجد والمدارس ، ونعمر الخوانق والصوامع والمعابد ، كى لا يندرس أعلام العلوم ومعالمها ، وينطمس آثار الشريعة ومراسمها ، ولأن بقاء الدنيا الدنية وسلطنتها ، واستدامة آثار الحكومة وإيالتها بإعانة الحق والصواب ، وإماطة أذى الشرك والكفر عن وجه الأرض ، لتوقع الخير والثواب . فالمرجو والمأمول من ذلك الجانب وأركان دولته ، أن يوافقونا فى الأمور المذكورة ، ويشاركونا فى تشييد قواعد الشريعة المعمورة » . أما الرسالة الأخرى التى كتبت بالفارسية فالدعوة فيها إلى اعتقاد الإسلام أكثر صراحة ، وليس فيها التنميق البلاغى الذى رأيناه فى الرسالة العربية : « لما خلق الله الأعظم ، بحكمته البالغة وقدرته الكاملة ، آدم (عليه السلام) جعل بعض أبنائه أنبياء ورسلا ، وأرسلهم إلى الخلق يدعونهم إلى الحق . وأنزل على بعض هؤلاء الأنبياء كإبراهيم وموسى وداود ومحمد (عليهم السلام) كتابا وعلمهم شريعة ، وأمر أهل زمانهم أن يتبعوا شريعة كل منهم ودينه . ودعا هؤلاء الرسل جميعا الناس إلى دين التوحيـــد وعبادة الله ، ونهوا عن عبادة الشمس والقمر والنجوم ، والملوك والأصنام ؛ ومع أن كلا من هؤلاء الرسل كانت له شريعة خاصة ، فإنهم كانوا جميعا متفقين على توحيد الله الأعظم . ولما صار أمر الرسالة والنبوة إلى محمد المصطفى (صلى الله عليه وسلم) نسخت كل الشرائع الأخرى . وهو نبى آخر الزمان ورسوله ، وواجب على العالم بأسره — أمراء وسلاطين ووزراء وأغنياء وفقراء وصغارا وكبارا — أن يعملوا بشريعته ، وأن يتركوا كل الملل والشرائع السابقة . هذه العقيدة الصادقة الصحيحة تسمى الإسلام . ومنذ سنوات خلت ، تهيأ جنكيز خان للقتال ، وأرسل أبناءه إلى بلاد وممالك مختلفة — فأرسل جوجى خان إلى حدود سراى ، وقرم ودشت قفجاق ، حيث أسلم بعض الشاهات ، من أمثال أوزبك وجانى خان وأرس خان ، وعملوا بشريعة محمد (عليه السلام) ، وأصبحوا بذلك مسلمين ، وانتقلوا إلى الدار الآخرة سعداء بشرف الإسلام ؛ ومن هؤلاء الملك الصادق غازان وألجايتو سلطان والشاه سعيد الحظ أبو سعيد بهادر — وغيرهم بعدهم حتى ولى العرش والدى المكرم أمير تيمور كوركان . وقد عمل والدى كذلك بشريعة محمد (عليه السلام) فى كل البلاد التى حكمها . ونعم المسلمون ، طوال عهده ، برخاء شامل . والآن وقد انتقلت إلى يدى ، بلطف الله وفضله ، ممالك خراسان وماوراء النهر والعراق وغيرها ، فإن حكم البلاد فى كافة أرجاء المملكة بموجب الشريعة المطهرة النبوية ؛ أمر بالمعروف ونهى عن المنكر .

وأبطل برغو وزالت قواعد جنكيز خان . ومنذ ذلك الحين صار يقينا ومحققا أن الخلاص والنجاة فى يوم القيامة ، والسلطان والدولة فى الدنيا ، سببها إيمان الفرد وإسلامه وعناية الله تعالى ، ومن الواجب علينا أن نعامل رعيتنا بعدل وإنصاف . وإنى لأرجو بفضل الله تعالى وكرمه أن تعملوا أنتم أيضا بشريعة محمد رسول الله (عليه السلام) ، وأن تقووا الإسلام فتنالوا بدلا من سلطان الدنيا سلطان الآخرة [١] » .

وليس ببعيد أن تكون هاتان الرسالتان قد خلقتا القصة ، التى نشأت فى عصر متأخر ، والتى روت أن أحد أباطرة الصين قد تحول إلى الإسلام [٢] . وقد روى هذه القصة ، مع غيرها من القصص ، تاجر مسلم يدعى سيد على أكبر ، قضى سنوات قليلة فى بكين ، فى نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ؛ ويتحدث عن عدد كبير من المسلمين الذين كانوا قد استقروا فى الصين ؛ فكان فى مدينة كنجنفو Kenjanfu عدد كبير يبلغ ثلاثين ألف أسرة من المسلمين ؛ فلم يؤدوا الضرائب ، وتمتعوا بكرم الإمبراطور ، الذى منحهم هبات من الأرض ؛ ونعموا بالحرية المطلقة فى إقامة شعائر دينهم الذى كان الصينيون ينظرون إليه نظرة احترام وتقدير ، وترك أمر التحول إلى الإسلام حرا ؛ وكان فى العاصمة نفسها أربعة مساجد كبيرة ، وما يقرب من تسعين مسجدا غيرها فى الولايات الأخرى من الإمبراطورية ، وقد بنيت كلها على نفقة الإمبراطور [٣] .

ولم يكن هناك حتى قيام دولة منشو Manchu سنة ١٦٤٤ خبر عن أية ثورة قام بها المسلمون ، بل يظهر أنهم كانوا راضين كل الرضا بما كانوا يتمتعون به من حرية دينية . ولكن سرعان ما قامت الصعاب على أثر قيام السلطة الحاكمة الجديدة ، فثار المسلمون فى ولاية كنسو Kansu سنة ١٦٤٨ ، وكانت هذه هى أول مرة تسلح فيها المسلمون وثاروا على الحكومة الصينية . على أنه لم يكد يأتى القرن التاسع عشر حتى أصبحت أية ثورة من هذا النوع تجر على المسلمين عواقب وخيمة ، أو تقطع العلاقات الودية التى قامت منذ البداية بين مسلمى الصين وحكامهم . وتتجلى وجهة النظر الرسمية التى كانت تنظر بها الحكومة الصينية إلى هذه الصلات فى القرار الذى نشره الإمبراطور ينج تشن Yung Chen سنة ١٧٣١ : — « فى كل ولاية من ولايات الإمبراطورية ، يوجد منذ قرون كثيرة مضت ، عدد كبير من المسلمين ، يؤلفون جانبا من الشعب ، أعتبرهم كأبنائى وأنظر إليهم كما أنظر إلى بقية رعيتى تماما ، ولا أفرق بينهم وبين الذين لا يدينون بالإسلام . وقد تسلمت من بعض الموظفين ظلامات سرية ضد المسلمين ، سببها أن ديانتهم تختلف عن ديانة غيرهم من أهل الصين ، وأنهم لا يتكلمون بلغة الصين ، ويلبسون لباسا يختلف عما يلبسه سائر الأهالى . وهم متهمون بالعصيان والغطرسة والميول الثورية ، وقد طلب منى أن أتخذ ضدهم تدابير صارمة .

---

(١) عبد الرزاق السمرقندى ، مطلع السعدين ومجمع البحرين ، ورقة ٦٠ - ٦١ . (Blochet, pp. 249-52.)

(٢) Zenker, pp. 798-9. Mélanges Orientaux, p. 65. (Publications de l'Ecole des Langues Orientales Vivantes, Sér. ii. t. q.) (Paris 1883.)

(٣) Schefer, pp. 29-30, Zenker, p. 796.

فلما بحثت هذه الظلامات والاتهامات لم أجد لها أساسا من الصحة . والواقع أن الدين الذى اتبعه المسلمون ، إنما هو دين أجدادهم ، والحق أن لغتهم ليست كلغة بقية الصينيين ، ولكن ما أكثر اللغات فى الصين . أما فيما يتعلق بدور عباداتهم ولباسهم وطريقتهم فى الكتابة — وكلها مختلفة عما عند غيرهم من أهل الصين ـ فهذه مسائل لا أهمية لها مطلقاً ، وما هى إلا عادة من عادات المسلمين . إنهم يتحلون بالأخلاق الفاضلة كغيرهم من الرعية ، وليس هناك ما يدل على ميلهم إلى الثورة . من أجل ذلك كانت رغبتى أن تطلق لهم الحرية فى إقامة شعائر دينهم، الذى يهدف إلى تعليم الناس التمسك بالحياة الفاضلة وتأدية واجباتهم الاجتماعية والمدنية . إن هذا الدين يحترم النظم الأساسية للحكومة ، فماذا نستطيع أن نطالب منه أكثر من هذا ؟ فإذا ظل المسلمون بعد ذلك يتصفون بما يتصف به الرعايا الأخيار المخلصون ، فسأبسط لهم رعايتى بقدر ما أبسطها إلى أبنائى الآخرين . لقد ظهر منهم مدنيون وعسكريون ارتقوا إلى أعلى المناصب . وهذا أقوى دليل على أنهم تطبعوا بطباعنا وتعودوا عاداتنا ، وتعلموا كيف يلائمون بين أنفسهم وبين شرائع كتبنا المقدسة . إنهم يجتازون امتحاناتهم فى الآداب كما يجتازها أى إنسان آخر . ويقومون بما يفرضه عليهم القانون من تضحية. وقصارى القول أنهم أعضاء خلص فى الأسرة الصينية العظيمة وأنهم يجدون دائما فى أداء واجباتهم الدينية والمدنية والسياسية . وحين ينظر القضاة قضية مدنية ، لا تعنيهم ديانة المتخاصمين ، فليس هناك إلا قانون واحد لرعيتى . فمن عمل صالحا كوفئ عليه ، ومن عمل سيئا حق عليه العقاب » (١) .

بعد ذلك بثلاثين سنة ، أظهر خليفته الإمبراطور كين لنج K'ien Lung دلائل واضحة على عطفه على المسلمين ، وذلك بأن رفع شأن اثنين من بيكوات الأتراك كانا قد ساعدا مساعدة فعالة على إخماد ثورة فى الشمال الغربى من الإمبراطورية ، وفى كاشغر ، كما أظهر عطفه ببناء قصور لهم فى بكين ؛ وكذلك شيد مسجدا ليصلى فيه بيكوات الأتراك الذين يزورون القصر الإمبراطورى ، وليصلى فيه أسرى الحرب الذين جيء بهم من كاشغر إلى العاصمة . وكان بين هؤلاء الأسرى فتاة جميلة ، أصبحت جارية للامبراطور، ونالت حظوة عنده. ويقال إنه فى سبيل حبها بنى هذا المسجد تجاه قصره مباشرة ، كما بنى قبة فى فناء قصره ، فتمكنت الجارية من أن تشاهد منها أبناء وطنها وهم يصلون ، وأن تشاركهم فى عباداتهم . وقد بنى هذا المسجد من سنة ١٧٦٣ إلى سنة ١٧٦٤ ، وهو يحتوى على نقش مكتوب بأربع لغات ، كتب الإمبراطور نفسه النص الصينى من هذا النقش (٢) .

وبعد أن قمع الثورة فى زنجريا Zungaria ، نقل إليها هذا الإمبراطور K'ien Lung نفسه فى سنة ١٧٧٠، عشرة آلاف مهاجر عسكرى من جهات أخرى من الصين ، وتبعتهم أسراتهم وغيرهم من الناس ، ليعمروا

(١) De Thiersant, tome i. 154-6.

(٢) Broomhall, p. 92 sqq. Devéria : Musulmans et Manichéens chinois. (J. A. qme. Sér., tome x. p. 447 sqq.)

البلاد ، ويقال إنهم جميعا دخلوا فى دين المسلمين الذين كانوا يقيمون فيما حولهم(١). على أنه ليس لدينا ما نذكره عن مثل هذا التحول الإجماعى إلى الإسلام هل حدث أيضا فى بقاع أخرى من الإمبراطورية ؟ ولكنه من العسير ، وإن كان عدد السكان فى تلك الولايات التى استقر فيها المسلمون الغرباء أكبر منه فى سائر الولايات(٢)، أن نفسر وجود عدد كبير من الأهالى المسلمين فى كل ولاية من ولايات الصين بأنه إنما يرجع إلى الهجرات الأجنبية و نمو السكان نموا طبيعيا(٣). وليس من المحتمل أن يكون مسلمو الصين ، الذين نعموا بالحرية الدينية وبحماية بعض الأباطرة لحريتهم ، قد تجردوا طوال القرون الكثيرة التى عاشوها فى الصين ، من تحمسهم لنشر تعاليم الإسلام ، ذلك التحمس الذى يلاحظه الباحثون المحدثون على ذريتهم فى عصرنا هذا(٤). وإلى مثل هذا النشاط المباشر في الدعوة إلى الإسلام يعزى إسلام يهود من الصينيين ، بدأ استيطانهم لهذه البلاد من عصر مبكر فشغلوا وظائف فى الحكومة وامتلكوا ضياعا واسعة ؛ ولكن جزءا كبيرا منهم تحول إلى الإسلام فى نهاية القرن السابع عشر(٥). ولابد أن هذا النوع من الدعوة إلى الإسلام كان فى غاية الرزانة والوقار ، والواقع أنه كان هناك أساليب علنية أخرى فى الدعوة أثارت شكوك الحكومة ، كما يتضح من التقرير الذى أرسله حاكم ولاية خوانسى Khwang-Se إلى الإمبراطور كين لنج سنة ١٧٨٣ . وهذا نصه : «إن لى عظيم الشرف أن أحيط جلالتكم علما بأن مغامرا يدعى هانفوين Han-Fo-Yun ، من ولاية خوانسى قبض عليه بتهمة التشرد . فلما سئل عن عمله ، اعترف بأنه قضى عشر سنوات يطوف بشتى ولايات الإمبراطورية كى يستطلع أحوال ديانته . وقد وجدنا فى إحدى حقائبه ثلاثين كتابا ، كتب بعضها بنفسه ، وكتب بعضها بلغة لا يفهمها أحد عندنا . وتمجد هذه الكتب ملكا من ملوك العرب يدعى محمدا ، فى أسلوب مسرف يدعو إلى السخرية . وحين قدمنا هذا الضال الذى ذكرناه من قبل للتعذيب ، اعترف أخيرا بأن الغرض الحقيقى من رحلته أن يدعو لهذا الدين الزائف الذى يتعلمونه من هذه الكتب ، كما اعترف بأنه قضى فى ولاية شنسى Shen-Si مدة أطول مما قضاه فى أية ولاية أخرى . لقد اختبرت هذه الكتب بنفسى فوجدت بعضها مكتوبا بلغة أجنبية ؛ ولهذا لم أستطع فهمها : أما بعضها الآخر الذى كتب باللغة الصينية فردىء جدا ، ويمكن أن أضيف إلى ذلك أنها كانت أيضا تبعث على السخرية لما فيها من مغالاة فى مدح أشخاص ، من المؤكد أنهم ليسوا أهلا لهذا المدح ، لأنى لم أسمع بهم حتى بمجرد السماع . وربما كان هانفويون الذى تقدم ذكره أحد الثوار من كنفسو Kan-Su . ولا شك أن مسلكه يدعو إلى الريبة ، إذ ماذا كان

(١) De Thiersant, tome i. pp. 163-4.

(٢) يذكر برومهول Broomhall فى الفصل الثانى عشر من كتابه «الاسلام فى الصين» "Islam in China" أن مجموعهم يتراوح بين خمسة وعشرة ملايين نسمة. أما دلون d'Ollone فانه يخفض هذا العدد إلى أربعة ملايين نسمة .

(٣) يقال إن المسلمين الصينيين أكثر إنسالا من غيرهم من الصينيين ، ويقدر التعداد الصينى ، الذى يحصى الأفراد حسب الأسر ، ستة أفراد للاسرة من الصينيين المسلمين وخمسة أفراد للاسرة من الصينيين غير المسلمين . (Broomhall, pp. 197,203.)

(٤) Vide infra, pp. 309-310.

(٥) Clark Abel : Narrative of a journey in the interior of China, p. 361. (London, 1818.)

يريد أن يعمل فى هذه الولايات التى طاف بها مدة السنوات العشر الأخيرة من حياته ؟ وإنى عازم على بحث المسألة بحثا جديا. وفى هذه الأثناء ، ألتمس من جلالتكم ، أن تأمروا بإحراق صحائف الطباعة ، التى فى حوزة أسرته ، وبالقبض على من حفروها ، وبالقبض أيضا على من ألفوا هذه الكتب التى أرسلتها إلى جلالتكم ، رغبة فى الوقوف على ما ترونه فى هذا الأمر[١] » .

وإن هذا التقرير ليشهد على نشاط واحد ، على الأقل ، من دعاة المسلمين فى القرن الثامن عشر الميلادى ، كما يدل على أن نمو الإسلام ، وهو مالاحظه هناك رسل الجزويت [٢] فى القرن الثامن عشر ، لا يحتمل أن يكون ضعيف الصلة بالدعوة الصريحة إلى الإسلام ، كما زعم بعضهم . ويعزو دوهلد Du-Halde الزيادة فى عدد المسلمين ، فى فصل من الفصول القليلة التى خصصها للمسلمين فى كتابه الضخم [٣] ، إلى ما اعتادوه من شراء الأطفال أيام المجاعات . « لقد استوطن المسلمون مدة تربو على ستمائة سنة ، فى مختلف الولايات ، حيث يعيشون فى هدوء تام ، لأنهم لا يقومون بأية جهود كبيرة لنشر عقيدتهم وكسب مسلمين جدد ، ولأنهم فى الأزمان الماضية لم يزد عددهم إلا عن طريق التحالف مع الصينيين والزواج منهم . ولكنهم سائرون ، منذ سنين ، فى تقدم ملحوظ بفضل ما لهم من ثروة . فهم يشترون الأطفال الوثنيين حيثما كانوا ؛ ولا يجد آباء هؤلاء الأطفال غضاضة فى بيعهم ، لعجزهم دائما عن توفير القوت لهم . وفى أثناء المجاعة التى خربت ولاية تشنتنج Chantong ، اشترى المسلمون ما يربو على عشرة آلاف من هؤلاء الأطفال . ويتزوج المسلمون بالصينيات ، ويشترون لهم الدور ، أو يبنون لهم فى المدينة أحياء مستقلة ، بل قرى بأكلها ؛ وحصلوا شيئا فشيئا على مثل هذا النفوذ فى جهات عدة ، حتى إنهم لم يبيحوا لأى شخص لا يذهب إلى المسجد أن يعيش بين ظهرانيهم . وبمثل هذه الوسائل تضاعف عددهم إلى حد كبير ، خلال القرن الماضى » .

وشبيه بهذا ، ما حدث فى المجاعة التى اجتاحت ولاية كوانجتنج Kwangtung سنة ١٧٩٠ ، إذ اشترى المسلمون فيما يقال ، عددا كبيرا يبلغ عشرة آلاف طفل ، كان آباؤهم من الفقر بحيث لم يستطيعوا الإنفاق عليهم ، فرغبوا فى التخلص منهم إنقاذا لأبنائهم من الهلاك جوعا ؛ وقد تربى كل هؤلاء على دين الإسلام[٤]. وقد زار القاهرة فى سنة ١٨٩٤ صينى مسلم من ولاية يونان ، يدعى سيد سليمان ، فذكر عندما قابله مندوب إحدى الصحف العربية[٥]، أن عدد الذين يدخلون فى الإسلام كل عام ، بهذه الطريقة ، يفوق الحصر والعد . وشهد مسيو دلون M.D'Ollone بما يشبه ذلك ، ويقرر أن عادة شراء الأطفال هذه ، فى أيام المجاعات ،

---

(١) De Thiersant, tome ii. pp. 361-3.

(٢) كتب أحد رسل الجزويت من بكين فى سنة ١٧٢١ يقول « إن طائفة المسلمين تتسع شيئا فشيئا » .
(Lettres édifiantes et curieuses, tome xix. p. 140.)

(٣) J. B. du Halde : Description geographique, historique, chronologique, politique et physique de l'Empire de la Chine, tome iii. p. 64. (Paris, 1735.)

(٤) Anderson, p. 151. Groier, tome iv. p. 507

(٥) ثمرات الفنون ، ١٧ من شوال ، ص ٣ (بيروت سنة ١٣١١ هـ) .

منتشرة حتى الآن بين المسلمين فى جميع أنحاء الصين ؛ وعلى هذا النحو اشتروا أطفال المسيحيين الذين قتلهم الملاكمون Boxers فى سنة ١٩٠٠ ، ونشئوهم على الإسلام(١).

ويميل المسلمون فى الصين إلى أن يعيشوا جماعة فى مدن وقرى مستقلة ، أو يكونوا لأنفسهم فى المدن أحياء إسلامية منفصلة ، حيث لا يبيحون لأى شخص لا يذهب إلى المسجد أن يقيم بينهم (٢) . ومع أنهم يعيشون على هذا النحو من العزلة إلى حد ما ، نراهم حريصين على أن يتجنبوا الظهور العلنى بأى مظهر خاص من مظاهر الشعائر الدينيـة الإسلامية ، التى قد تضايق جيرانهم ، كما نراهم حريصين على ألا يثيروا تعصب مواطنيهم من الصينيين . والمسلمون يلتزمون فى حياتهم العادية ما هو شائع حولهم من عادات وطبائع ؛ فهم يتخذون ضفائر الرأس والملابس الصينية المعروفة ، كما جرت العادة بأن يلبسوا العمامة فى المساجد فقط . وكذلك يتجنب المسلمون هناك بناء مآذن عالية ، فى أى مكان يبنون فيه ، تفاديا من إثارة تعصب الصينيين(٣). بل إن مساجدهم كانت فى معظم الأحيان تتفق مع المعمار الصينى ، فكانت فى الغالب لاتتميز بشىء عن معابد الصينيين(٤) أومساكنهم العادية . وتدفرض القانون أن يكون فى كل مسجد لوح للإمبراطور ، منقوش عليه ، عاش الإمبراطور الخالد إلى الأبد ، وكان المسلمون يسجدون أمامها جريا على العادة الصينية المتبعة ، وكانت لهم حيل عديدة فى التخلص من ذلك ، إرضاء لضمائرهم وتفاديا من الاتهام بالوثنية(٥). حتى فى بلاد التتار الصينية ، التى كان مباحا فيها للجنود المسلمين امتياز خاص يخول لهم أن يعيشوا غير مندمجين فى غيرهم ، وأن يكونوا طائفـة منفصلة ، كان كبار الموظفين من المسلمين يرتدون الزى المخصص لمناصبهم ، ويرسلون شواربهم ، وجـدائل شعرهم ، ويقومون فى أيام العطلة بما كان مفروضا على الموظفين من شعائر الولاء المعهودة ، لصورة الإمبراطور ، وذلك بأن يسجدوا لها ثلاث سجدات(٦). وكذلك كان جميع أصحاب المناصب من المسلمين وغيرهم من الموظفين ، فى الولايات الأخرى ، يؤدون فى أيام الأعياد الشعائر الخاصة بوظائفهم فى معابد كنفشيوس . والواقع أن المسلمين احتاطوا كل الحيطة كى لا يظهر دينهم بمظهر المعارض لدين الدولة ، وقد نجحوا ، من أجل هذا ، فى تجنب الكراهية التى كان الصينيون ينظرون بها إلى أصحاب الديانات الأجنبية ، كاليهودية والمسيحية . بل كان المسلمون يصورون ديانتهم لمواطنيهم من الصينيين على أنها متفقة مع تعاليم كنفشيوس ، مع فارق واحـد ، هو أن المسلمين يسيرون وفق تعاليم أجدادهم فى الزواج ، والجنازات ، وغسل الأيدى قبل وجبات الطعام ، وتحريم

(١) Mission d'Ollone, p. 279. R. du M. M., tome ix, pp. 577, 578.

(٢) Broomhall, p. 226. Grosier, tome iv, p. 508.

(٣) Vasil'ev., p. 15.

(٤) Broomhall, p. 237.

(٥) Id. pp. 186, 228.

(٦) Arminius Vambéry : Travels in Central Asia, p. 404. (London, 1864.)

الخنزير والخمر والدخان ولعب الميسر [١]. وكذلك كانت مؤلفات المسلمين الصينيين تمجد كتب كنفشيوس وغيرها من الكتب الصينية ، وتشير ، ما استطاعت ، إلى ما هنالك من الاتساق بين ما فى هذه الكتب الصينية وبين تعاليم الإسلام[٢].

كذلك كانت الحكومة الصينية ، تعطى المسلمين من رعاياها دائما (عدا أوقات الثورة) نفس الحقوق والامتيازات التى كان ينعم بها سائر أفراد الشعب . فلا تغلق فى وجوههم وظيفة من وظائف الدولة ؛ بل يتمتعون، بالوظائف حكاما للولايات ، وقوادا للجيش، وقضاة ووزراء للدولة ، بالثقة والاحترام من الحكام والشعب جميعا . وقد ظهرت أسماء المسلمين فى التاريخ الصينى ، كموظفين مشهورين فى الدولة من الناحية الحربية أو المدنية ، بل اشتهروا أيضا فى الفنون الصناعية ، والعلوم كالرياضة والفلك [٣] .

ويقال كذلك إن المسلمين الصينيين رجال أعمال أذكياء ، وتجار ناجحون ؛ فهم يحتكرون تجارة لحوم البقر ويزاولون تجارات أخرى بنجاح عظيم[٤]. وهكذا نجدهم على صلة بكل ناحية من نواحى الحياة القومية ، ونجد لديهم كل فرصة للقيام بالدعاية ، ولكن البعثات المسيحية القليلة ، التى اهتمت بهذا الموضوع ، ترى أن هؤلاء المسلمين لا تدفعهم حماسة خاصة فى نشر تعاليم الإسلام[٥]. وإن ما هو ثابت من أن عددا كبيرا من المسلمين الصينيين ، يستطيع الواحد منهم أن يعين اسم أول من أسلم من أجداده لدليل على استمرار عملية التحول إلى الإسلام[٦]. ومن الواضح أن المسلمين لم يكن مباحا لهم أن يدعوا إلى دينهم فى الطرقات ، كما يفعل البروتستانت [٧] ، ولكنهم (كما رأينا من قبل) [٨] لا يخفقون فى اغتنام الفرصة إذا ما سنحت لهم ، كى يزيدوا من عدد طائفتهم . ومن كتب المسلمين الدينية كتاب « الهداية إلى قواعد الدين الصحيح » ، (نشر فى كنتن سنة ١٦٦٨) ، وهو كتاب يثنى على نشاط الدعوة إلى الإسلام ، ويشير إلى هؤلاء الذين دخلوا فى هذا الدين حديثا من بين الوثنيين[٩]. ويتعلم المحدثون فى الإسلام قواعد هذا الدين الأساسية فى كتب منظومة [١٠] . ويعزو سيد سليمان ، إسلام كثيرين فى السنين الأخيرة ، إلى تأثير كتب المسلمين

---

(١) Vasil'ev, p. 16.

(٢) De Thiersant, tome ii. pp. 367, 372.

(٣) ثمرات الفنون من ٢٨ شعبان ص ٣ .Id. tome i. p. 247

(٤) Broomhall, p. 224.

(٥) Du Halde, loc. cit. Broomhall, p. 282.

(٦) Mission d'Ollone, pp. 210, 431.

(٧) Broomhall. pp. 274, 282.

(٨) p. 307.

(٩) Broomhall, pp. 231—2.

(١٠) W. J. Smith, p. 175. Mission d'Ollone, p. 407 sqq.

الصينيين(١). ويقال إن المعهد الإسلامى فى هوتشو Hochow بولاية كنسو Kansu يعلم طلبة العلوم الدينية النظرية، ثم يعودون إلى ولاياتهم، إذا ما أتموا دراستهم لينشروا هناك دينهم(٢)، كما يقال إنهم بدءوا عملهم هذا فى أكثر من حواضر عشر ولايات، أعدوا من فيها من المُدّيات للترويج للاسلام(٣). ويحول الضباط الحربيون إلى الإسلام كثيرا من الجنود الذين يعملون تحت رياستهم، وكذلك يستغل أصحاب المناصب من المسلمين سلطتهم التى يتمتعون بها فى الظفر بمسلمين جدد، ولكن لما كانوا كثيرى التنقل من مكان إلى آخر لم يستطيعوا أن يحدثوا مثل هذا التأثير العظيم الذى أحدثه الضباط المسلمون(٤). وقد تحدث كذلك حالات من التحول إلى الإسلام لم تكن نتيجة للدعوة الصريحة إليه. من ذلك أن رحالة تركيا، زار بكين فى سنة ١٨٩٥، فذكر أنه رأى هناك ثلاثين مسجدا، كان أحدها، فى الأصل، معبدا لأسرة أحد الصينيين الأثرياء؛ وقد أنقذ المفتى وأهُنّاد (عبد الرحمن) حياة هذا الثرى، فى أثناء ثورة الملاكمين Boxers؛ فدخل الثرى فى دين مخلّصه اعترافا له بالجميل(٥). وكانت هنـــاك فى الأعوام الأخيرة، بعوث من الترك وغيرهم من المسلمين تزور الصين، وقد حاولت أن تبث فى المسلمين الصينيين معرفة بدينهم تكون أوفى وأشمل، كما حاولت أن تثير فيهم حماستهم، ولكن يبدو أن جهود هذه البعوث لم تثمر إلا قليلا(٦).

وفى سنة ١٨٦٧، عبر كاتب روسى(٧)، فى كتاب هام كتبه عن الإسلام فى الصين، عن الفكرة التى تقول بأن الإسلام مهيأ لأن يصبح الدين القومى للامبراطورية الصينية، ولأن يقلب تبعا لذلك، الأوضاع السياسية فى العالم الشرقى رأسا على عقب.

وقد مر ما يقرب من نصف قرن على سماع هذه النبوءة المزعجة؛ ولكن شيئا من ذلك لم يحدث، يحقق هذه التكهنات؛ بل على العكس من ذلك، يبدو أن الإسلام كان فى خلال القرن الماضى آخذا فى التأخر أكثر من أن يكون آخذا فى التقدم، منذ أن أدت المذابح الكثيرة التى صحبت قمع الثورات الوثنية التى ظهرت فى يونان من سنة ١٨٥٥ إلى سنة ١٨٧٣، وثورة تونجان التى ظهرت فى ولاية كنسو وشنسى من سنة ١٨٦٤ إلى سنة ١٨٧٧ ومن سنة ١٨٩٥ إلى سنة ١٨٩٦ إلى نقص عدد الأهالى من المسلمين ملايين من الأنفس(٨). وقد أعطى قيام الجمهورية الجديدة المسلمين الصينيين حرية فى العمل (الدعوة)، لم تكن

---

(١) ثمرات الفنون نفس الاشارة المذكورة سابقا.

(٢) Broomhall. p. 240.

(٣) The Missonary Review of the World, vol. xxv. p. 786 (1912)

(٤) Mission d'Ollone. p. 431.

(٥) R. du M. M., iii. p. 124. (1907)

(٦) Broomhall. pp. 242, 286, 292 sqq.

(٧) Vasil'ev, pp. 3, 5, 14, 17.

(٨) وللوقوف على ثبت أكثر إسهابا بالثورات الاسلامية، أنظر Mission d'Ollone, p. 436.

معروفة فى ظل أية حكومة سابقة ، ولكنه لا يزال من سبق الحوادث أن تعرف إلى أى حد يمكنهم أن يغتنموا الفرص التى تتيحها لهم أوضاع الحياة الجديدة . وإن نشر تعاليم الإسلام فى الصين الذى ما زال يسير هناك بقدر ما تسمح به الظروف ، ليدل على أمل فى التوسع لا يزال وطيدا . ومع أنه قد انقضت أربعة قرون على الوقت الذى استطاع فيه مسلم رحالة (١) فى الصين أن يناقش احتمال دخول الإمبراطور فى الإسلام ودخول رعيته من بعده ، فإنه لا يزال من الممكن أن يقرر المسلم الصينى فى هذا الجيل أن أبناء دينه فى هذه البلاد يتطلعون فى ثقة إلى ذلك اليوم ، الذى ينتصر فيه الإسلام فى طول الإمبراطورية الصينية وعرضها (٢) .

(١) سيد على أكبر : ختاى نامه ص ٨٣ ,, إذا اعتقد امبراطور الصين الاسلام ، فلا مفر من أن يعتقد رعيته الاسلام كذلك، لأنهم جميعا يقدسونه إلى حد أنهم يصدقونه فى كل ما يقول . فإذا ما نوى هذا الضوء المنبعث من الغرب فان كفار الشرق سوف يدخلون فى الاسلام زرافات ووحدانا ، دون أن يبدوا معارضة ، لأنهم مجردون من كل تعصب فى المسائل الدينية ,, .

(٢) ثمرات الفنون ٢٦ من شوال ص ٣ (١٣١١ هـ) .

الباب الحادي عشر

إنتشار الاسلام فى إفريقية

إن تاريخ الإسلام فى إفريقية الذى يستغرق فترة تقرب من الثلاثة عشر قرنا ، والذى ينتظم ثلثى هذه القارة الواسعة ، بما فيها من مختلف القبائل وشتى الأجناس ، ليضع مشاكل بعينها فى طريق بحث الموضوع بحثا منظما ، إذ يستحيل علينا أن نصور انتشار الإسلام فى كافة أرجاء القارة تصويرا دقيقا يقوم على نظام تاريخى . وقد عالجنا فى فصل سابق الصلة بين انتشار الإسلام وبين الكنائس المسيحية فى مصر وبقية إفريقية الشمالية ، ثم بينه وبين كنائس بلاد النوبة وبلاد الحبشة ؛ أما فى هذا الباب فنريد أن نتتبع تقدمه بين الوثنيين فى إفريقية الشمالية أولا ، ثم فى السودان وعلى طول الساحل الغربى ثانيا ، وأخيرا على طول الساحل الشرقى ومستعمرة الكاب (١) .

وإن ما لدينا من أخبار انتشار الإسلام فى الشعوب الوثنية فى شمال إفريقية ، لا يكاد يزيد إلا زيادة طفيفة على تلك الحقائق القليلة التى ذكرناها من قبـــل عن زوال الكنيسة المسيحية . لقد قاوم البربر الجيوش العربية مقاومة عنيفة ، ويظهر أن استعمال القوة فى تحويلهم إلى الإسلام كان له أثر أكبر مما استخدم فى سبيل هذا التحويل من وسائل الاقناع والترغيب . فكانوا كلما سنحت لهم الفرصة ، ثاروا على الدين كما ثاروا على حكم الغزاة الذين فتحوا بلادهم ، حتى ليقرر المؤرخون العرب أن مرات ارتدادهم عن الدين بلغت اثنتى عشرة مرة (٢) . وفى تاريخ الكفاح الطويل بين العرب والبربر ، إشارات قليلة بسيطة عن دخول الأخيرين فى الإسلام . ويظهر أن إسلام البربر فى بعض الأحيان إنما كان يدفع إليه علمهم بأنه لا فائدة من التمادى في مقاومة الجيوش العربية . فحين وقف البربر فى وجه الغزاة سنة ٧٠٣ آخر وقفة لهم ، تنبأت الكاهنة (٣) ، وكانت نبيتهم ، وزعيمتهم المقدامة ، أن النصر سيتحول عنهم . وأرسلت أبناءها إلى معسكر القائد العربى ، وأوصتهم بأن يسلموا ويقفوا فى صف الأعداء . أما هى فقد اختارت لنفسها أن تموت وهى تحارب فى جانب مواطنيها فى المعركة الكبرى التى حطمت قوة البربر السياسية ، وأخضعت إفريقية الشمالية للعرب . وعقد الصلح بين الفريقين على شريطة أن يقدم البربر اثنى عشر ألف محارب إلى صفوف الجيش العربى ، وتكون من هؤلاء البربر جيشان ، وضع كل منهما

---

(١) وهنالك خريطة نفيسة تبين توسع الاسلام فى إفريقية ، فى مجلة
"The International Review of Missions," vol. i. p. 652.

(٢) Fournel, vol. i. p. 271.

(٣) واسمها الحقيقى غير معروف .

تحت إمرة واحد من أبناء الكاهنة (١) . وبتلك الحيلة ، نعنى إدخال البربر فى جيوش العرب ، أمل قواد المسلمين أن يدخلوهم فى الإسلام ، وذلك بأن يطمعوهم فى الغنائم .

وكان الجيش المؤلف من سبعة آلاف من البربر ، والذى أبحر من إفريقية سنة ٧١١ م ليفتح أسبانيا بقيادة طارق (وكان هو نفسه بربريا) ، يتألف من أشخاص كانوا قد دخلوا فى الإسلام حديثا . وقيل إن دخولهم فى الإسلام كان عن يقين ثابت . وقد اختير العلماء والفقهاء من العرب ، ليقرءوا ويفسروا لهم آيات القرآن الكريم ، ويعلموهم كل ما فرضه الدين الجديد من واجبات (٢) . وأظهر موسى ، فاتح إفريقية العظيم ، حماسة نحو إعلاء شأن الإسلام ، بأن خصص جزءا كبيرا من المال الذى كان يعطيه إياه الخليفة عبدالملك ، ليشترى أمثال هؤلاء الأسرى إذا ما تعهدوا بأن يظهروا أنهم جديرون بأن يكونوا أبناء أوفياء للاسلام . « فكان كلما وجد عددا من الرقيق ، معروضا للبيع ، عقب أى انتصار ، اشترى كل الذين يظن أنهم سيعتقدون الإسلام راغبين ، والذين كانوا من أصل كريم ، والذين يظهرون ، إلى جانب ذلك ، بمظهر الشباب العامل النشيط . وكان أول الأمر يعرض على هؤلاء أن يعتقدوا الإسلام ، فإذا ما تحولوا إلى خير الأديان ، بعد صقل مداركهم وتهيئتهم لاستقبال الحقائق السامية ، وكان تحولهم إليه صادقا ، استخدمهم على سبيل تجربة كفاياتهم ، فإذا أثبتوا استعدادا ومواهب طيبة أعتقهم فى الحال ، وعينهم فى مراكز هامة فى جيشه ، ورقاهم حسب كفاياتهم ؛ وإذا كان العكس ، ولم يظهروا صلاحية فى أعمالهم ، أعادهم إلى مستودع الأسرى العام التابع للجيش ، ليتخلص منهم حسب العادة المتبعة عندهم ، وهى أن ينتزعوا بالسهام ما فيهم من فساد » (٣) .

أما معرفة إلى أى حد كان إسلام البربر سطحيا ، فيمكن أن نحكم على ذلك مما حدث حين عين عمر بن عبدالعزيز الورع فى سنة ١٠٠ هـ (٧١٨م) إسماعيل بن عبدالله واليا على شمال إفريقية ، وأرسل معه عشرة من الفقهاء ليفقهوا مسلمى البربر فى أمور دينهم ، فلم يكن يظهر حتى ذلك الوقت أنهم كانوا يعلمون أن دينهم الجديد يحرم عليهم شرب الخمر . ويقال إن هذا الوالى الجديد أظهر نشاطا عظيما فى دعوة البربر إلى قبول الإسلام ، ولكن الحكم بأن جهوده كللت بالنجاح ، بحيث لم يبق واحد من البربر لم يدخل الإسلام ، حكم لاشك غير صحيح (٤) . وذلك لأن تحويل البربر إلى الإسلام كان من غير شك عمل قرون عديدة ؛ بل إنهم يحتفظون حتى الوقت الحاضر بكثير من نظمهم الفطرية التى تتعارض مع الشريعة الإسلامية (٥) . ولم ترسخ قدم الإسلام بينهم إلا بعد أن

---

(١) Fournel, vol. i. p. 224.

(٢) المقرى ج ١ ص ٢٥٣ .

(٣) المقرى ج ١ (p. lxv.)

(٤) Fournel, vol. i. p. 270 .

(٥) وللوقوف على ذلك وعلى حركات المرابطة التى كشفت عن بقايا الدين البربرى القديم ، أنظر :

Goldziher, Materialen zur Kenntniss der Almohadenbewegung in Nordafrika (ZDMG, vol. xli, p. 67 sqq.)

اتخذ شكل حركة قومية ، وأصبح مرتبطا بتولى دول البربر الحكم ، تلك الدول التى دخل فى عهدها كثير من البربر فى حظيرة الإسلام ، وكانوا من قبل يعدون قبول هذا الدين رمزا على ضياع الاستقلال السياسى . أما عن التغيرات المختلفة التى طرأت على حالة البربر السياسية ، فليس هنا مجال الحديث عنها ؛ ولكن الذى يستحق أن نخصه بالذكر فى تاريخ الدعوة إلى الإسلام ، هو ظهور المرابطين ، باعتباره حركة قومية عظيمة جذبت عددا كبيرا من قبائل البربر نحو الاندماج فى الأمة الإسلامية . وفى مستهل القرن الحادى عشر الميلادى نجد يحيى بن إبراهيم شيخ قبيلة صنهاجة ، إحدى قبائل الصحراء ، يبحث فى المراكز الدينية فى إفريقية الشمالية ، فى أثناء عودته من حج بيت الله بمكة ، عن معلم تقى متفقه ، يصحبه إلى أبناء قبيلته الجهلة المظلمين داعيا إلى الإسلام : فوجد فى أول الأمر أن من العسير أن يعثر على رجل يرضى بترك اعتكافه العلمى ويستهين بمخاطر الصحراء ، ولكنه أخيرا وجد فى عبدالله بن ياسين الشخص الذى يليق لهذا العمل ، إذ كان فيه من الإقدام ما يكفى للقيام بمثل هذه الرسالة الشاقة ، وكان تقيا زاهدا فى حياته ، متفقها فى الدين والشريعة وغيرها من العلوم . وإذا رجعنا إلى القرن التاسع الميلادى وجدنا أن دعاة الإسلام شقوا طريقهم بين بربر الصحراء ، وأقروا فيهم دين النبى ، ولكن هذا الدين لم يجد هناك من القبول إلا قليلا . وقد وجد عبد الله بن ياسين أنه حتى الذين أقروا بالإسلام كانوا يهملون شعائرهم الدينية إهمالا شديدا ، ويستسلمون لكل ألوان العادات المرذولة . فكرس نفسه ، متحمسا ، لهدايتهم إلى الصراط المستقيم ، وتفقيههم فى أمور دينهم ؛ ولكن العنف الذى زجرهم به عن رذائلهم ، وحاول بواسطته أن يصلح سلوكهم ، حول عواطفهم عنه ، فدفعه فى الغالب إخفاقه فى رسالته إلى أن يهجر هذا الشعب العنيد ويقصر جهوده على هداية السودان إلى الإسلام . ولما استُحث على ألا يترك عملا كان قد زاوله من قبل ، لجأ مع من جمعتهم حوله دعوته من تلاميذ ، إلى جزيرة فى نهر السنغال ، حيث بنوا بها رباطا أسلموا أنفسهم فيه لعبادة متصلة . أما هؤلاء البربر الذين كانوا أكثر استعدادا للتدين ، والذين حملهم على التوبة تفكيرهم فى الرذيلة التى أخرجت معلمهم المتدين من بينهم ، لجاءوا خاضعين إلى جزيرته يلتمسون منه العفو ، ويتلقون تعاليمه فى حقائق الدين الخالصة . وعلى هذا النحو تجمعت حوله هناك يوما بعد يوم جماعة من تلاميذه أخذت فى النماء ، وكانت على الأخص من لمتونة وهى فخذ من قبيلة صنهاجة ، أخذت أخيرا فى الزيادة حتى بلغت حوالى ألف شخص . ورأى بعد ذلك عبدالله بن ياسين أن الوقت قد حان للخروج إلى محيط أوسع للعمل ، فطلب إلى أتباعه أن يعبروا عن شكرهم لله على هذا التنزيل الذى أنعم عليهم به ، وذلك بأن ينقلوا العلم به إلى غيرهم من الناس : « أخرجوا على بركة الله تعالى وأنذروا قومكم ، وخوفوهم عقاب الله ، وأبلغوهم حجته . فإن تابوا وأنابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا عما هم عليه فخلوا سبيلهم ، وإن أبوا ذلك وتمادوا فى غيهم ولجّوا فى طغيانهم استعنّا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا » . ومن ثم ذهب كل رجل إلى قبيلته وعشيرته فوعظهم أن يتوبوا ويصدقوا ، ولكنهم لم ينجحوا فى هذه السبيل . وكذلك أخفقت جهود عبدالله بن ياسين نفسه ، الذى ترك رابطته لعله يجد رؤساء البربر فى ذلك الوقت أقوى رغبة فى الإصغاء لدعوته . وأخيرا ،

قاد أتباعه فى سنة ١٠٤٢م، الذين سماهم بالمرابطين — وهو اسم مأخوذ من نفس المادة وهى الرباط [١] أى الخلوة التى اتخذها فى جزيرته بنهر السنغال — وهاجم القبائل المجاورة وأرغمهم على قبول الإسلام. وقد بدا لقبائل الصحراء، أن النجاح الذى حالف ابن ياسين فى غاراته الحربية، كان حجة أقوى على إقناعهم من جميع تعاليمه، وسرعان ما تقدموا طواعية إلى اعتقاد دين كفل لجيوش أتباعه مثل هذه الانتصارات الباهرة. ومات عبد الله بن ياسين فى سنة ١٠٥٩، ولكن الحركة التى كان قد بدأها لم تمت بموته، بل جاءت قبائل كثيرة من البربر الوثنيين لتزيد فى جموع أبناء وطنهم المسلمين، واعتقدوا الإسلام على أنه القضية التى كافحوا من أجلها، وتدفقوا من الصحراء على إفريقية الشمالية، ثم فرضوا سيادتهم آخر الأمر على أسبانيا كذلك[٢].

ولا يبعد أن تكون الحركة القومية الكبرى التى نشأت بين قبائل البربر، وأعنى بها ظهور الموحدين فى بداية القرن الثانى عشر الميلادى، قد جذبت إلى المسلمين بعض القبائل التى كانت بعيدة عن الإسلام حتى ذلك الحين. وقد قرب ابن تومرت، مؤسس دولة الموحدين، إلى العامة عقائد هذه الطائفة فى التوحيد، وهى التى تمسكوا بها، وكان ذلك عن طريق ما ألفه من كتب باللغة البربرية شرح فيها قواعد الإسلام الأساسية، من وجهة نظره الخاصة، كما أتاح للقومية البربرية امتيازا أبعد من هذا، إذ أمر بأن يكون أذان الصلاة باللغة البربرية [٣]. ومع هذا، ظل بعض قبائل البربر على الوثنية حتى نهاية القرن الخامس عشر[٤] الميلادى، إلا أن الاتجاه العام كان بطبيعة الحال سائرا نحو اندماج هذه الجماعات الصغرى فى الجماعات الإسلامية الكبرى. وقد شهد القرن السادس عشر الميلادى نشأة حركة نشيطة، فى نشر تعاليم الدعوة فى بلاد المغرب، كانت ترجع إلى رد الفعل الذى أحدثته انتصارات المسيحيين فى أسبانيا وإفريقية الشمالية. وقد أمدت هذه الحركة نظام المرابطين بدافع قوى، وخرجت جموع كبيرة منهم من الربط فى جنوب مراكش ليقوموا بحملة إرشاد سلمية فى كافة أنحاء بلاد المغرب، مجددين عقيدة هؤلاء المسلمين الذين فتر إيمانهم، ومحولين إلى الإسلام جيرانهم من الوثنيين [٥]. وقام اللاجئون من أسبانيا بنصيبهم فى حركة نشر تعاليم الدعوة إلى الإسلام هذه، كما أشرنا إلى ذلك من قبل (ص ١١٣) إذ جاءوا لمساعدة الشرفاء أو أبناء إدريس بن عبدالله، الذين كانوا قد فروا إلى مراكش هربا من غضب هارون الرشيد [٦]. ومن الصحراء الكبرى، ذاعت معرفة الناس بالإسلام أول الأمر بين زنوج السودان. ويكتنف الغموض تاريخ

(١) وللوقوف على هذه الكلمة انظر:

Doutté, Notes sur L'Islam maghribin. (Revue de l'histoire des religions, tom. xli, p. 24-6.)

(٢) ابن أبى زرع ص ١٦٨ – ١٧٣. A. Müller, vol. ii, pp. 611-13.

(٣) ابن أبى زرع ص ٢٥٠ Goldziher, p. 71

(٤) Leo Africanus. (Ramusio, tom. i. p. 11).

(٥) Doutté, xl. p. 354; xli. pp. 26-7.

(٦) Depont et Coppolani, p. 127 sq.

هذه الحركة القديم ، ولكن يظهر أن هناك شيئا من الشك فى أن البربر هم أول من أدخل الإسلام فى البلاد التى يرويها نهرا السنغال والنيجر، حيث اتصلوا بممالك وثنية كان بعضها (مثل غانة Ghana وسنغاى Songhay) عريقا فى القدم (١). وكانت القبيلتان البربريتان لمتونة وجدالة اللتان تنتميان إلى عشيرة صنهاجة تتميزان بصفة خاصة بحماستهما الدينية فى تحويل الناس إلى الإسلام (٢)، وبجهودهم أثرت حركة المرابطين فى قبائل السودان الوثنية . وكان عهد يوسف بن تاشفين مؤسس مراكش (١٠٦٢م) وثانى أمراء دولة المرابطين ، حافلا جدا بدخول الناس فى الإسلام . وأخذ كثيرون من الزنوج الذين كانوا تحت حكمه يتعلمون مبادىء محمد(٣). وفى سنة ١٠٧٦م طرد البربر ، الذين ظلوا وقتا ما ينشرون الإسلام فى مملكة غانة ، الأسرة الحاكمة التى يحتمل أنها كانت أسرة فلى Fulbe ، وأسلمت هذه المملكة القديمة عن بكرة أبيها ؛ وفى القرن الثالث عشر الميلادى فقدت استقلالها واحتلها المندنجو Mandingos (٤).

أما عن دخول الإسلام فى مملكة سنغاى Songhay القديمة ، التى يقال إنها وجدت فى عهد مبكر يرجع إلى سنة ٧٠٠م ، فلم يذكر لنا إلا أن أول ملك مسلم كان يسمى زا كسّى Za-kassi ، وكان الملك الخامس عشر من أسرة زا ؛ وقد أسلم فى سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩—١٠١٠م) ، واصطلح على تسميته فى لغة سنغاى باسم مسلم دام Muslim-dam . ويدل هذا الإسم على أنه دان بالإسلام بمحض إرادته لا عن طريق الإرغام ، ولكن لم يرد أى ذكر عن المؤثرات التى دان لها بإسلامه (٥).

وفى هذا القرن نفسه تأسست على النيجر الأعلى مدينتان قدر لها فى القرون المتعاقبة أن تؤثرا تأثيرا قويا فى تقدم الاسلام فى السودان الغربى — إحداهما مدينة جنى Genne (٦) التى تأسست سنة ٤٣٥ هـ (١٠٤٣—١٠٤٤م)(٧)، والتى قدر لها أن تصبح مركزا تجاريا هاما ، والأخرى مدينة تمبكتو Timbuktu وهى مركز هام لتجارة القوافل مع الشمال ، وقد تأسست هذه المدينة حول سنة ١١٠٠م.وقد أسلم كنبرو Kunburu ملك جنى حول نهاية القرن السادس الهجرى (أى حول سنة ١٢٠٠م) ، فحذا حذوه سكان المدينة ،

(١) لا مجال هنا لتناول نشأة التاريخ السياسى للممالك المختلفة من السودان الغربى ؛ وقد بحث هذا الموضوع ليدى لوجارد Lady Lugard ، وهو مؤلف على نحو أكثر ملاءمة للقراء الانجليز وذلك فى كتاب عنوانه :

"A Tropical Dependency. An Outline of the Ancient History of the Western Sudan, with an Account of the Modern Settlement of Northern Nigeria." (London, 1905.) وانظر كذلك : H. F. Helmolt : The World's History, vol. iii, chap. ix. (London, 1903.)

(٢) Blau, p. 322.

(٣) Leo Africanus. (Ramusio, tom. i. pp. 7, 77.)

(٤) Meyer, p. 91

(٥) تاريخ السودان ص ٣ .

(٦) ويقال لها جنى أو ديفيه

(٧) ويتبع ميبر Meyer رأى بارث Barth ؛ ويضع تاريخ السودان (ص١٢) تاريخ هذه المدينة قبل ذلك بحوالى ثلاثة قرون

ويقال إن كنبرو لما عزم على اعتقاد الإسلام جمع كل العلماء فى مملكته ، وكان عددهم يبلغ ٤٢٠٠ عالما (ومهما يكن هذا العدد مبالغا فيه فإن الرواية تبين لنا فيما يظهر أن الإسلام تقدم تقدما عظيما فى البلاد التابعة لهذا الملك) . ثم طلب إلى هؤلاء العلماء أن يدعوا الله كى ينصر مدينته ، ومن بعدها هدم قصره وبنى فى مكانه (١) مسجدا عظيما (٢) . وكانت تمبكتو إلى جانب شهرتها بالتجارة ، مدينة إسلامية منذ البداية ، « ما دنسها عبادة الأوثان ، ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن(٣)» . وبعد ذلك بسنين صارت ذات شأن كمركز للتعاليم الإسلامية والتقوى ، وتوافد عليها الطلبة وعلماء الدين فى جموع كبيرة ، مدفوعين بما كانوا يلاقونه فيها من تشجيع ورعاية . وقد أثنى ابن بطوطه ، الذى تنقل فى هذه البلاد فى أواسط القرن الرابع عشر على الزنوج لحماستهم فى أداء عباداتهم وفى دراسة القرآن ، ويخبرنا هذا الرحالة أنه إذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلى لكثرة الزحام(٤).

وفى عصره كانت أقوى ولاية فى السودان الغربى هى ولاية ملى Melle أو مالىّ Malli ، وكان أمرها قد علا قبل ذلك بقرن ، بعد فتح غانة على أيدى المندنجو ، وهم من أعظم أجناس إفريقية رقيا : ويذكر عنهم ليو الإفريقى Leo Africanus (٥) أنهم أكثر جميع الزنوج مدنية وأشدهم ذكاء وأجدرهم بالاحترام ، ويمتدح الرحالون المحدثون صناعتهم ومهارتهم وأمانتهم(٦) . وكان هؤلاء المندنجو من أنشط الدعاة إلى الإسلام الذى انتشر بواسطتهم بين الجماعات المجاورة لهم(٧).

وكما جاء فى تاريخ كنو Kano Chronicle كانت قبائل المندنجو هى التى عرفت قبائل الحوصة Hausa بالإسلام ، وليس تاريخ ذلك محققا(٨) ، كما هو الشأن فى معظم التواريخ المتصلة بتاريخ ولايات قبائل الحوصة ؛

---

(١) ويورد فليكس دوبوا Félix Dubois فكرة عن هذا المسجد وعن إعادة بنائه ، وكان قد خربته جماعة شيخو أحمد حول سنة ١٨٣٠ ، وذلك فى بحثه : Tombouctou la mystérieuse chap. ix.

(٢) تاريخ السودان ص ١٢ — ١٣ .

(٣) نفس المرجع ص ٢١ .

(٤) ابن بطوطة ج ٤ ص ٤٢١ — ٤٢٢ .

(٥) Ramúsio, tom. i. p. 78

(٦) ويصفهم ونوود ريد Winwood Reade بأنهم شعب طويل القامة ، حسن المنظر مشرق اللون ، مسلمون متدينون ، يملكون الجياد وقطعان الغنم الكثيرة ؛ ولكنهم أيضا يزرعون القطن ، والفسول السودانى ، وأنواعا مختلفة من الغلال . وقد سررت كثيراً بلطفهم ، وسجاياهم الكريمة ، ومظهر نسائهم الجاد المحتشم ، ونظافة قرامم وهدوئها» .
(W. Winwood Reade: African Sketchbook, vol. i. p. 303.)

(٧) Waitz, 11er Theil, pp. 18—19.

(٨) ويضع بالمر (ص ٥٩) دخول الاسلام إلى كنو بين سنتى ١٣٤٩ ، ١٣٨٥ ، وتضع رواية أخرى من تواريخ الحوصة بداية عهد أول ملوك زوزو من المسلمين حول سنة ١٤٥٦ . (Journal of the African Society, vol.ix. p. 161.)

وذلك لأن قبائل فلبي Fulbe ، التي فتحت هذه الولايات في بداية القرن التاسع عشر الميلادي ، أتلفت معظم سجلاتها التاريخية . ولكن أهمية اعتناق الحوصة للاسلام لا يمكن أن نبالغ فيها ؛ فهم أصحاب نشاط وذكاء ، وقد أكسبتهم مهارتهم الفائقة في التجارة نفوذا كبيرا بين شتى القبائل التي اتصلت بهم ، فأصبحت لغتهم هي لغة التجارة في السودان الغربي . وحيثما ذهب تجار الحوصة — وهم منتشرون من ساحل غينيا Guinea حتى القاهرة — نقلوا معهم الدين الإسلامي . وسنتحدث في الصفحات التالية عن نشاطهم في الدعوة للاسلام . أما فيما يتعلق باعتناق الحوصة أنفسهم هذا الدين فإن الشواهد التاريخية تكاد تكون منعدمة تمام الانعدام[1]، كما هو الحال فيما يتعلق بظهور ولايات الحوصة السبع ، وملحقاتها[2] ؛ ويظهر أن أحد دعاة الإسلام الذين بعثوا إلى كنو Kano وكتزنا Katsena كان بلا شك أستاذا مثقفا ورعا ، وكان من تلمسان ، ذلك هو محمد بن عبدالكريم بن محمد المجيلي ، الذي نبغ حول سنة ١٥٠٠ م[3]. ومن الممكن أن تكون الحوصة قد تأثرت في إسلامها بهذه الموجة الكبيرة من السيطرة الإسلامية التي سرت من مصر صوب الجنوب في القرن الثاني عشر الميلادي[4]. ويفخر تجار كردفان وتجار السودان الشرقي على وجه العموم ، بأنهم ينحدرون من العرب الذين شقوا طريقهم إلى هذه البلاد بعد سقوط الخلافة الفاطمية في مصر سنة ١١٧١ . ولكن من المحتمل أنه كان هناك أيضا ألوان من النفوذ الإسلامي ، وقد أتى هذا النفوذ من الشمال الشرقي وتطرق إلى إفريقية الوسطى . ومن مصر ، انتشر حتى دخل كانم Kanem ، وهي مملكة واقعة إلى الشمال والشمال الشرقي لبحيرة شاد ؛ وبعد أن اعتقد أهلها الإسلام بقليل أصبحت دولة ذات أهمية كبرى وبسطت سلطانها على قبائل السودان الشرقي إلى حدود مصر وبلاد النوبة . ويقال إن أول ملوك كانم Kanem من المسلمين حكم إما حول نهاية القرن الحادي عشر أو في النصف الأول من القرن الثاني عشر[5] الميلادي . ولكن التفصيلات التي لدينا عن انتشار الإسلام من الشمال الشرقي أندر حتى من تلك التفصيلات التي ذكرناها من قبل عن تاريخ دويلات السودان الغربي . وإن مجرد ذكر تواريخ تحول ملوك هذه الدويلات إلى الإسلام وتأسيس دول إسلامية ، لا يمدنا إلا بأخبار قليلة ؛ ولكن حقيقة

(١) وكما في سائر جهات العالم الاسلامي ، تضع الرواية أول دخول الاسلام في عهد المؤسس ، وتذكر اسم الفزاري ، أحد صحابة النبي المشهورين ، باعتباره رسولا إلى شعب الحوصة .

J. Lippert, Sudanica. MSOS, iii. part 3, p. 204. (Berlin, 1900).

(٢) وللوقوف على أنواع هذه الولايات المختلفة انظر Meyer, p. 27.

(٣) Mischlich & Lippert, pp. 138—9.

(٤) Meyer, loc. cit. ويضع أرتين باشا (ص ٦٢) بداية تدفق العرب المسلمين في عهد مبكر يرجع إلى القرن الثامن .

(٥) Becker, Geschichte des östlichen Sudan, p. 162—3.

Blau, p. 322. Oppel, p. 289.

وفي نهاية القرن الرابع عشر ، نقل عمر بن إدريس قاعدة بلاده إلى غرب بحيرة تشاد في منطقة برنو ، وهي التي أصبح اسم مملكة كانم معروفا بها منذ ذلك الحين .

واحدة تبرز لنا واضحة من هذا السجل التاريخى الجزيل ، تلك هى البطء الشديد فى تحول الناس هناك إلى الإسلام. وإن بقاء جموع كبيرة من عبدة الفتش (§) يعيشون فى الأقاليم التى مرت عليها قرون وهى تحت الحكم الإسلامى ، ليدلنا فيما يظهر على أن نفوذ الإسلام ظل محصورا فى المدن طويلا ، ولم يتخذ طريقه إلى الجماعات الوثنية إلا تدريجيا . والواقع أن النفوذ الإسلامى لم يصادف مقاومة عنيدة كتلك التى جعلت جماعة البمبارا Bambara الوثنية يحتفظون بوثنيتهم ، مع أنهم (وقد سكنوا السنغال الأعلى والنيجر الأعلى) كانوا محاطين مدة قرون بسكان من المسلمين

وقد حاول مرابط يدعى عُمَرو كبا Umaru Kaba ، أن يحول البمبارا إلى الإسلام فأخفق ، وكان ذلك فى أوائل القرن العشرين. وقد أسس هذا الرجل جمعية إخوان دينية جديدة ، كانت على صلة بالقادرية ، فلما أخفق فى جذب أبناء دينه وجه اهتمامه إلى البمبارا الوثنيين ، وحاول أن يدخلهم فى الإسلام ويضمهم إلى جماعته . ويظهر أنه كان فى طريقه إلى النجاح ، وكان قد حول إلى الإسلام من قبل قرية وثنية فى ولاية سنسندنج Sansanding ، حين طرد رئيس الولاية هذا الداعى خارج حدود ولايته ، وأمر من دخلوا حديثا فى الإسلام من البمبارا أن يرجعوا إلى عقائدهم الدينية القديمة (١).

وحيثما كان التزاوج بين أمثال هذه الأجناس وبين غيرهم كالعرب والبربر الذين أكثروا من هذا التزاوج ، كان الاندماج فى المسلمين يسير سيرا منتظما ، وإن ذلك مضافا إليه ما كان هناك من نشاط فى الدعوة قامت به تلك القبائل ـ وهى فلى والحوصة والمندنجو ـ التى امتازت بحماستها فى سبيل دينها ، كان يساعد على نمو المجتمع الإسلامى لو لم تكن تلك الحروب الطاحنة التى جعلت كل دويلة إسلامية تخرب الأخرى . فنهضت قبيلة ملى Malle على أنقاض غانة فى القرن الثالث عشر الميلادى وحطمت سنغاى غانة فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، وخُربت سنغاى بدورها بعد ذلك بقرن على أيدى العرب . ولما دالت هذه الدول الإسلامية من جراء المذابح الكثيرة التى تميزت بها الحرب فى السودان ، استردت الديانة الفتشية كثيرا من مكانتها التى كانت قد فقدتها ؛ وكما كان الحال فى المسيحية ، كان كذلك فى العالم الإسلامى ، إذ كانت هناك فترات تدهورت فيها الحماسة فى الدعوة إلى درك منحط ، ورضى المسلمون فى بعض أجزاء السودان أن يتركوا الوثنية التى كانت تكتنفهم دون أن يمسوا أى نشاط فى نشر تعاليم الإسلام .

وفى القرن الرابع عشر الميلادى هاجر عرب التنجار Tunjar Arabe من تونس إلى الجنوب ، واخترقوا بورنو Bornu ووداى Wadai حتى وصلوا إلى دارفور، وجاء غيرهم من الشرق فيما بعد (٢) . وقد لقى أحدهم ويدعى أحمد حفاوة عظيمة من ملك دارفور الوثنى الذى تعلق به فجعله مشرفا على شئون بيته واستشاره فى كل المناسبات . وإن خبرته بأساليب حكم كانت أرقى تحضرا ، من تلك التى كانت

(§) الفتش كناية عن الأصنام التى كان الزنوج والقبائل المتبربرة يعبدونها .

(١) Maurice Delafosse p. 87.

(٢) Becker : Geschichte des östlichen Sudan, pp. 161—2.

فى دارفور ، مكنته من أن يدخل عدة إصلاحات على كل من شئون بيت الملك الاقتصادية وعلى حكومة الدولة . ويقال إنه أخضع لسياسته الحكيمة الزعماء المتمردين ، وقسم الأراضى بين فقراء السكان ليضع حدا للاغارات الداخلية ، وبذلك أدخل على المملكة شـــعورا بالطمأنينة والرضا لم يعرفوه من قبل . ولما لم يكن للملك وريث من الذكور زوج ابنته من أحمد ، وعينه خليفة له ، وقد أيد هذا الاختيار أن الناس ضجت باستحسانه . واستمرت هذه الدولة الإسلامية ، التى تأسست على هذا النحو ، حتى القرن الحاضر . وكانت أسباب الحضارة التى أحدثها هذا الزعيم وذريته قد اقترنت من غير شك ببعض نشاط فى نشر تعاليم الدعوة ، ولكن يظهر أن هؤلاء العرب المهاجرين لم يبذلوا إلا جهدا يسيرا جدا فى سبيل نشر دينهم بين جيرانهم الوثنيين . ومن المؤكد أن دارفور لم تدخل فى الإسلام إلا بجهود أحد ملوكها ويدعى سليمان ، وقد بدأ حكمه سنة ١٥٩٦[1] ، ولم ترسخ قدم الإسلام فى الممالك الأخرى ، الواقعة بين كردفان وبحيرة شاد كوداى وباغرمى ، إلا فى القرن السادس عشر . ولكن مملكة وداى كانت المركز الرئيس للنفوذ الإسلامى فى ذلك الوقت ، وقد أسسها عبد الكريم حول سنة ١٦١٢ م ، ولم تسلم عامة باغرمى إلا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر[2] .

ولكن تاريخ الدعوة الإسلامية فى إفريقية إبان القرن السابع عشر والثامن عشر ضئيل جدا ، بل لا أهمية له إطلاقا إذا ما قارناه بالنهضة العظيمة فى نشاط الدعوة خلال القرن الحاضر . وكان مسلمو إفريقية فى حاجة إلى مؤثر قوى يوقظ عزائمهم الخاملة ؛ فقد كانت حالتهم فى القرن الثامن عشر ، فيما يظهر ، حالة فتور دينى تقريبا ، وكانت نهضتهم الروحية راجعة إلى تأثير الحركة الوهابية فى أواخر القرن الثامن عشر ؛ ومن هنا جاء ما نصادفه فى الأزمان الحديثة من بعض الأخبار التى تتعلق بحركات نشر تعاليم الدعوة بين الزنوج ، تلك الأخبار التى لم تبلغ من التفاهة والضآلة ما بلغته الأخبار التى سردناها من قبل ، ولكنها تمدنا بتفصيلات شافية عن ظهور عدة أعمال هامة فى الدعوة وتقدمها .

وحول نهاية القرن الثامن عشر ظهر من بين جماعة الفلبى[3] رجل معروف يدعى الشيخ عثمان دنفُدْيو[4]، عرف بأنه مصلح دينى وداع محارب . وقد ذهب من السودان إلى مكة لأداء فريضة الحج ، فعاد من هناك مليئا بالحماسة والغيرة من أجل الإصلاح والدعوة للاسلام . وتأثر بمبادىء الوهابيين ، الذين كانت قوتهم آخذة فى النماء فى الوقت الذى زار فيه مكة ، فأنكر الصلاة على روح الميت وتعظيم من مات من الأولياء ،

---

(١) R. C. Slatin Pasha : Fire and Sword in the Sudan, pp. 38, 40-2. (London, 1896.)

(٢) Westermann, p. 628.

(٣) الفلبى (مفردها بول) إسم أطلقه هذا الشعب على نفسه ؛ ويطلق عليهم جيرانهم أسماء مختلفة تربو على المائة ، أشهرها الفلانى (Meyer, p. 28.)

(٤) Oppel, p. 292. Meyer, pp. 36-7. Westermann, pp. 629-30.

واستنكر المبالغة فى تمجيد محمد نفسه ؛ وهاجم فى نفس الوقت رذيلتين كانتا منتشرتين فى السودان ، هما شرب الخمر وفساد الخلق .

وحتى ذلك الوقت كانت جماعة الفلبى تتألف من عدة قبائل صغيرة متناثرة تحيا حياة رعوية ؛ وقد دانت هذه الجماعة بالإسلام فى وقت مبكر ، وكانت لا تزال حتى ذلك الحين قانعة بتأليف مستعمرات من الرعاة والزراع فى مختلف بقاع السودان . وإن ما لدينا من أخبارهم فى مستهل القرن الثامن عشر ، ليصورهم لنا فى صورة أناس مسالمين ، نشيطين فى أعمالهم ؛ ويتحدث عنهم أحد الذين زاروا (١) موطنهم على نهر الجمبيا سنة ١٧٣١ ، فيقول : فى كل دولة أو بلد على كل من جانبى النهر توجد جماعة ذات بشرة سمراء ، يدعون الفولز (أى الفلبى) ، وهم يشبهون العرب ومعظمهم يتكلم العربية ، لأنهم يتعلمونها فى مدارسهم ، ولأن القرآن ، وهو أيضا شريعتهم ، مكتوب بهذه اللغة . وإلمامهم على وجه العموم أكثر بالعربية من إلمام أهل أوربا باللاتينية ، إذ أن معظمهم يتكلمها مع أن لهم لغة غير مهذبة تسمى فولى . ويعيشون قبائل أو عشائر ، ويبنون لأنفسهم مدنا ، ولا يخضعون لأى ملك من ملوك البلاد التى يقيمون فيها ، مع أنهم يعيشون فى أراضى هؤلاء الملوك ؛ وذلك لأنهم كانوا إذا أسىء إليهم ، فى قوم هم يعيشون بين ظهرانيهم ، هدموا مدنهم وارتحلوا إلى قوم آخرين . ولهم رؤساء من أنفسهم يحكمونهم حكما معتدلا إلى حد أن كل عمل تقوم به الحكومة يبدو كأنه عمل الشعب أكثر من أن يكون عمل فرد من الأفراد . وهذا النوع من الحكومات يدار دولابه فى سهولة ويسر ، لأن الأهالى أصحاب طبيعة هادئة ، ولأنهم تعلموا جيدا ما هو عدل وما هو حق ، حتى إن من يقترف الشر منهم يكون موضعا لكره الجميع . . . وهذه الجماعة على جانب كبير من النشاط والاقتصاد ، يزرعون من القمح والقطن أكثر مما يفى بحاجتهم ، ويبيعونه بسعر معتدل ، ويشتهرون بالكرم إلى حد أن مواطنيهم يعتبرون أن من نعم الله عليهم أن تكون بجانبهم بلد من بلاد فولى ؛ وفوق هذا أكسبهم سلوكهم حدا من الشهرة يجعل من العار أن يعاملهم أحد معاملة غير كريمة . ومع أن إنسانيتهم تعم جميع الناس ، فشفقتهم بأبناء جنسهم مضاعفة ؛ وإذا علموا أن أى فرد من جماعتهم قد أخذ رقيقا اتحد الفلبى جميعا وحرروه . ولوفرة الغذاء عندهم لا يدعون أبدا واحدا منهم يقاسى الحاجة ؛ بل إنهم يعولون المسن والأعمى والأعرج ويساوون بينهم وبين الآخرين . وقلما يغضبون ، ولم أسمع مطلقا واحدا منهم يسب الآخر ؛ ومع هذا فلم تكن وداعتهم صادرة عن حاجة إلى الشجاعة ، إذ أنهم شجعان كأى شعب فى إفريقية ، وهم مهرة جدا فى استعمال أسلحتهم ، وكانوا يستخدمون أسلحة تتكون من الزغايات والبلطغانات القصيرة ، والقوس والنشاب ، بل يستخدمون البنادق فى بعض الأحيان . . . وهم مسلمون متمسكون بدينهم ، ومن النادر أن يشرب أحدهم الخمر أو أى مشروب أقوى تأثيرا من الماء » .

وقد وحد دنفديو هذه الجماعات المنفصلة ، المتناثرة فى شتى أقاليم الحوصة ، وجعل منهم جماعة قوية . وفى سنة ١٨٠٢ حدثت أول ثورة من مملكة جوبر التى كانت لا تزال على الوثنية ، والتى بسطت نفوذها على الشمال الأقصى من بلاد الحوصة ؛ وقد حاول ملك جوبر أن يعوق قوة الفلبى المتزايدة فى بلاده ،

(١) Francis Moore, pp. 75-7.

فأدى ذلك إلى أن رفع دنفديو علم الثورة ؛ وسرعان ما وجد نفسه على رأس جيش قوى ، لم يتعرض به للقبائل الوثنية وحدها ويفرض عليها عقيدة النبى ، بل تعرض أيضا لولايات الحوصة الإسلامية ؛ فسقطت هذه الولايات واحدة بعد أخرى ، وأصبحت كل أراضى الحوصة تحت حكم دنفديو قبل وفاته سنة ١٨١٦. ولا يزال قبره فى سوكوتو Sokoto مثابة تعظيم جموع كثيرة من زواره . وقد قسم دنفديو مملكته بين ولديه ، اللذين زادا كذلك فى توسيع حدود بلاد الفلبى ؛ وتعين مدينة أدماوا ، التى أسست سنة ١٨٣٧ على أنقاض عدة ممالك وثنية ، حدود فتوحاتهم تجاه الشرق . وكانت مدينة إلورن Ilorin ، فى بلاد يوروبا Yoruba ، التى تأسست فى عهد دنفديو ، هى الحد الجنوبى الغربى لإمبراطورية پول Pul . وقد ظلت السيطرة على هذه البلاد طوال القرن التاسع فى أيدى الفلبى ، على تفاوت فى التوفيق والنجاح فى الحكم ، وظهروا بمظهر القسوة والتعصب فى الدعوة إلى الإسلام ، حتى قامت الإدارة البريطانية فى نيجريا سنة ١٩٠٠ .

وكان دخول القانون والنظام فى نيجريا الجنوبية فى مصلحة الدعوة إلى الإسلام كما كان الحال فى جهات إفريقية الأخرى التى أصبحت تحت الحكم الأوربى . فاستطاع مسلمو الحوصة ، الذين ينتسب بعضهم إلى طائفة التيجانية ، أن يتنقلوا فى البلاد بحرية ، وأن ينفذوا إلى القبائل الوثنية التى كانت حتى ذلك الحين تمنع ، فى تعصب وصلابة ، تطرق كل المؤثرات الإسلامية إليها . ويقال ان الإسلام فى مملكة يوروبا بوجه خاص توسع قدمه بسرعة . وهناك أسطورة عن محاولة قام بها أحد دعاة الإسلام فى هذه البلاد ، فى وقت مبكر يرجع إلى القرن الحادى عشر أو الثانى عشر الميلادى ولكن هذه المحاولة لم تنجح ؛ كان هذا الرجل من الحوصة جاء إلى إيفى Ife ، حاضرة مملكة يوروبا الوثنية وجعل يدعو الناس ويقرأ لهم آيات من القرآن ، وكان لا يستطيع أن يتكلم بلغة يوروبا إلا كلاما ركيكا غير صحيح ، فلم يكن بد من أن يردد على سامعيه فى لهجة أجنبية قوله « هلم نعبد الله الذى خلق الجبال والوهاد وخلق كل شىء وخلقنا » . وكان يقوم بذلك من وقت لآخر دون أن ينجح فى كسب فرد واحد يتحول إلى الإسلام ، وقد مات بعد وصوله إلى إيفى بأشهر قليلة . وبعد موته وجدوا القرآن معلقا على مشجب فى حائط حجرته فصار أهل هذه البلاد يقدسونه على أنه من دين الفتش[١]. وحيث أخفق داعية هذا الدين القديم نجد المحدثين من أبناء دينه ينجحون نجاحا رائعا . وفى فترة الفوضى التى سبقت الاحتلال البريطانى كانت غالبية المسلمين فى مدن كبيرة تكتنفها الأسوار ، ولكنهم يستطيعون فى ظل الطمأنينة والأمن الجديد أن يستقروا فى القرى ، على مقربة من أعمالهم الزراعية . وعلى هذا النحو أخذ نفوذ الإسلام يزداد اتساعا فى هذه البلاد . وكما كانت الحال فى إفريقية الألمانية الشرقية ، نجد أن وجود مسلمين بين جيوش هذه البلاد قد ساعد على انتشار دينهم ، فكان المحدثون من الجنود يدينون فى الغالب بالإسلام كى يتجنبوا سخرية الناس ويظفروا باحترامهم [٢] . وكذلك نلحظ فى مملكة إيجيبو Ijebu ، فى نيجريا الجنوبية ، حركة حديثة جدا للدعوة إلى الإسلام ؛ على أن الإسلام لم يدخل فى هذا الجزء

(١) R. E. Dennett: Nigerian Studies, pp. 12,75. (London, 1910.)

(٢) Islam and Missions, pp. 71-3. The Moslem World, pp. 296-7, 351.

من نيجريا إلا فى سنة ١٨٩٣، وفى سنة ١٩٠٨ كانت هناك بلدة بها عشرون مسجدا وأخرى بها اثنا عشر مسجدا(١).
ويمكن أن نلاحظ سرعة انتشار الإسلام هذه على طول ضفتى نهر النيجر فى نيجريا الجنوبية بوجه خاص ؛ ويقرر أحد مبشرى المسيحيين ما يأتى: «عند ما غادرت هذه البلاد فى سنة ١٨٩٨ كان هناك قليل من المسلمين بأسفل إده Iddah (٢)، ولكنهم الآن منتشرون فى كل مكان، ما عدا أسفل أبو Abo ، وعلى هذا النحو من السرعة التى نلحظها فى تقدم الاسلام، سيكون من النادر أن نجد قرية وثنية على ضفتى النيجر فى سنة ١٩١٠» (٣).

وهكذا كان فى هذا الجزء من إفريقية نشاط كبير فى الدعوة إلى الإسلام قام به رجال لم يمتشقوا الحسام فى سبيل تحقيق غايتهم، — أعنى بذلك تحويل الوثنيين إلى الإسلام. وعلى هذا الأسلوب كان يسير الذين يتبعون بعض المبادىء الدينية الإسلامية الجليلة، تلك المبادىء التى كانت تكون الصفة الغالبة على النشاط الدينى فى إفريقية الشمالية. وقد حققت جهود دعاة الإسلام نتائج عظيمة خلال القرن التاسع عشر ؛ ومع أن كثيرا من أعمالهم لاشك أنها لم تدون قط، لا تزال لدينا أخبار عن بعض الحركات التى بدأها هؤلاء الدعاة. ومن أسبق تلك الحركات حركة يعزى قيامها إلى سى أحمد بن إدريس (٤)، الذى كان يتمتع بشهرة واسعة كمعلم دينى فى مكة من سنة ١٧٩٧ إلى سنة ١٨٣٣، وكان الزعيم الروحى لجماعة الخضرية ؛ وقد أرسل قبل موته سنة ١٨٣٥ أحد أتباعه، ويدعى محمد عثمان الأمير غنى، فى رحلة إلى إفريقية لنشر تعاليم الإسلام. ولما عبر البحر الأحمر إلى القصير، شق طريقه حتى بلغ النيل. وهنا بين جماعات إسلامية انحصرت جهوده بصفة خاصة فى ضم أعضاء إلى الطائفة التى كان ينتسب إليها ؛ ولكنه لم يصادف فى رحلته إلى أعالى النهر نجاحا كبيرا حتى وصل إلى أسوان، ونجحت رحلته من أسوان حتى دنقله نجاحا تاما ؛ وقد أسرع النوبيون إلى الدخول فى الطائفة التى كان ينتسب إليها محمد عثمان هذا، وأثرت فى هؤلاء الناس تلك الأبهة الملكية التى كانت تحيط به تأثيرا فعالا، كما جذبت إليه كراماته فى نفس الوقت عددا كبيرا من الأتباع. وفى دنقلة ترك محمد عثمان وادى النيل ليذهب إلى كردفان، حيث مكث زمنا طويلا، وهنا بدأ عمله فى نشر الدعوة بين الكفار. وكانت قبائل كثيرة فى هذه البلاد وحول سنار لا تزال على الوثنية ؛ وقد نجحت دعوة محمد عثمان بين هؤلاء القوم نجاحا رائعا جدا، وعمل على توطيد نفوذه فيهم بأن تزوج ببضع زوجات منهم، فتولى نسله منهن بعد أن مات فى سنة ١٨٥٣، نشاط الطائفة التى أسسها وتسموا أمير غنية (٥) نسبة إليه.

وقبل أن يقوم محمد عثمان برحلته، التى دعا فيها إلى الإسلام بسنين قلائل، كانت جنود محمد على، مؤسس

---

(١) Church Missionary Review (1908, p. 640).

(٢) بلدة على النيجر، جنوبى الحدود الشمالية لنيجريا الجنوبية.

(٣) Church Missionary Society Intelligencer (1902), p. 353.

(٤) Rinn, pp. 403-4

(٥) Le Chatelier (1), pp. 231-3.

الأسرة التى تحكم مصر الآن ، قد أخذت توسع من فتوحاتها فى السودان الشرقى ، وشجعت الحكومة المصرية رسل المذاهب الوثنية المدينة فى مصر على القيام بدعاية فى هذه البلاد التى عرفوها حديثا ، عسى أن تساعد أعمالهم على تهدئة الحال فى هذه البلاد ، فواصلوا نشر الدعوة فى تلك الأراضى التى استولوا عليها حديثا حيث قاموا بأعمال صادفت نجاحا كبيرا ، حتى إن ثورة السودان الحديثة بزعامة المهدى قد عزيت إلى الحماسة الدينية التى أثارتها دعوتهم(١).

وفى غرب إفريقية كانت هناك جماعتان تساعدان بنوع خاص على نشر الإسلام ، هما القادرية والتيجانية . وقد تأسست الأولى ، وهى أوسع الجماعات الدينية الإسلامية انتشارا ، فى القرن الثانى عشر على يد عبدالقادر الجيلانى ، ويقال إنه كان أشهر أولياء المسلمين كافة وأعظمهم هيبة(٢). — ودخلت القادرية فى إفريقية الغربية فى القرن الخامس عشر على أيدى مهاجرين من توات Tuat ، وهى واحة فى الشطر الغربى من الصحراء ؛ فاتخذوا من ولاتا Walata أول مركز لطريقتهم ، ولكن أحفادهم طردوا عن هذه المدينة فيما بعد ، فلجئوا إلى تمبكتو فى جهة نائية شرقى ولاتا . وفى مستهل القرن التاسع عشر نجد النهضة الروحية الكبيرة التى كانت تؤثر فى العالم الإسلامى تأثيرا عميقا ، تدفع بالقادرية الذين كانوا فى الصحراء الكبرى وفى السودان الغربى ، إلى حياة ونشاط جديدين ، ولم يمض زمن طويل حتى وجدنا فقهاء متفقهين ، ومقاطعات صغيرة ممن انضموا إلى القادرية قد انتشروا فى أرجاء السودان الغربى من السنغال إلى مصب النيجر . وتقوم المراكز الرئيسة لتنظيم دعوتهم فى كنكا وتمبو Timbo (فوتاجالون) ومسردو Musardo (الواقعة فى بلاد مندنجو Mandingo) (٣) . وكانت هذه المدن تؤلف مراكز النفوذ الإسلامى وسط شعب وثنى رحب بالقادرية باعتبارهم كتابا وفقهاء وكتاب تمائم ومعلمين . وتسلطت القادرية شيئا فشيئا على من كان يحيط بها . وسرعان ما تطور الدخول فى الإسلام من حالات فردية إلى جماعة صغيرة من الذين دخلوا فى الإسلام كان يرسل منهم فى أغلب الأحيان من هم معقد الرجاء إلى المراكز الرئيسة لهذه الجماعة ، ليتمموا دراستهم ، بل كانوا يبعثون إلى مدارس القيروان أو طرابلس ، أو إلى جامعات فاس والأزهر بالقاهرة(٤). وربما قضوا فى هذه البلاد عدة سنوات ، حتى يتقنوا دراستهم الدينية ثم يعودون إلى أوطانهم مزودين تزودا تاما للاشتغال بنشر العقيدة بين مواطنيهم . وعلى هذا النحو تسربت نواة الإسلام إلى عبدة الفتش والوثنيين ، فنشرت العقيدة تدريجيا نشرا قويا مستمرا ، وقد تم ذلك بخطوات غير محسة فى الغالب . وكان المعلمون حتى منتصف القرن التاسع عشر ، يؤسسون المدارس فى السودان ويشرفون عليها ؛ وكان هؤلاء المعلمون قد تربوا فى كنف القادرية ونظامهم الذى أقاموه على طريقة منظمة مستمرة فى دعوة القبائل الوثنية .

---

(١) Le Chatelier (2), pp. 89-91

(٢) Rinn, p. 175.

(٣) Bonet-Maury, p. 439

(٤) Id. p. 230.

وكان نشاط هذه الجماعة فى الدعوة ذا طابع سلمى للغاية ، يعتمد كل الاعتماد على الإرشاد وعلى أن يكون الواحد منهم قدوة لغيره ، كما كان يعتمد على مبلغ تأثير المعلم منهم فى تلاميذه ، وعلى انتشار التعليم [١] . وبهذه الخطة برهن دعاة القادرية فى السودان على أنهم أوفياء لمبادىء مؤسس الجماعة ولتقاليدها العامة . ذلك لأن أهم المبادىء التى كانت تسيطر على حياة عبد القادر هى حب الجار والتسامح . ومع أن الملوك وأصحاب الثراء كانوا يرادفون له هدايام ، كان كرمه البالغ يجعله دائما فى فقر ، ولا نجد فى كتبه ولا فى مواعظه ما يدل على سوء نية أو عداوة نحو المسيحيين . وكان كلما تكلم عن أهل الكتاب ، لم يزد على أن يعبر عن أسفه على ما هم فيه من باطل ، ويدعو الله أن ينير لهم السبيل . وقد أوصى تلاميذه بهذا السلوك السمح ، الذى كان صفة بارزة فى أتباعه فى جميع العصور [٢].

أما التيجانية التى تنتسب إلى طائفة نشأت فى بلاد الجزائر حول نهاية القرن الثامن عشر ، فقد سارت منذ قامت فى السودان حول منتصف القرن التاسع عشر على نفس أساليب القادرية فى الدعوة . ويعزى تعدد مدارسهم فى الغالب إلى نشر العقيدة ، ولكن التيجانية ، التى كانت تختلف عن القادرية ، لم تتورع عن اللجوء إلى السيف ، يستعينون به على إنجاح خطتهم فى تحويل الناس إلى الإسلام . وإذا ما قدرنا نشاط هؤلاء فى الدعوة إلى الإسلام فى إفريقية الغربية تقديرا صحيحا ، فإنه يؤسفنا أن نجد شهرة جهادهم أو حروبهم الدينية قد طغت على نجاح الدعاة المسلمين ، على الرغم من أن أعمال الأخيرين كانت أجدى على انتشار الإسلام من إنشاء دويلات صغيرة قصيرة الأجل . ونجد أخبار الحملات وخاصة عند ما كانت تتناول المشروعات التجارية أو خطط الغزو التى قام بها الجنس الأبيض ، تسترعى بطبيعة الحال انتباه الأوربيين أكثر من أن تسترعى انتباههم الأعمال السلمية التى كان يقوم بها دعاة المسلمين ومعلموهم . ولكن تاريخ أمثال هذه الحركات له تلك الأهمية ، وهى أن الغزو — كما كان يحدث دائما فى حالة الإرساليات المسيحية أيضا — قد فتح ميادين جديدة لنشاط الدعوة ، وجعلهم يعتقدون بوجود آفاق واسعة من البلاد لا يزال أهلها على الوثنية .

أما أولى الحركات الحربية التى قام بها أفراد التيجانية فى نشر الدعوة ، فتعزى نشأتها إلى الحاج عمر الذى كان قد دخل فى هذه الجماعة على يد أحد زعمائها الذى تعرف عليه فى مكة . ولد الحاج عمر سنة ١٧٩٧ على مقربة من بودور Podor على السنغال الأسفل ، ويظهر أنه كان رجلا كريم السجايا ، ذا نفوذ شخصى ، ومظهر يوحى بالسيطرة والقوة . وكان ابنا لأحد المرابطين ، وتثقف ثقافة دينية متينة ، واشتهر بعلمه وورعه قبل خروجه إلى الحج سنة ١٨٢٧ . ولم يعد ، من الحج ، إلى وطنه إلا سنة ١٨٣٣ ، حيث نشط فى نشر تعاليم التيجانية وهاجم أبناء دينه لجهلهم مهاجمة عنيفة ، وخاصة شيوخ القادرية الذين أثار تساهلهم وتراخيهم بنوع خاص سخطه وغضبه . وقد عبر الحاج عمر السودان الأوسط ، فظفر بكثير من الأتباع ، وكسّر كنبيّ جديد ،

---

(١) Le Chatelier (2), pp. 100-9.

(٢) Rinn, p. 174.

وما إن وافت سنة ١٨٤١ حتى كان قد بلغ فوتاجالون ، حيث سلح أتباعه وبدأ سلسلة من الحملات فى نشر تعاليم الدعوة بين القبائل التى كانت لاتزال على الوثنية ، وكانت تقيم حول النيجر الأعلى والسنغال . وفى إحدى هذه الغزوات لقى حتفه فى سنة ١٨٦٥ . ولم ينجح ابنه ، أحمد شيخو ، فى ضم مختلف الولايات فى مملكة أبيه إلا سنوات قلائل ؛ ثم صدعتها المنازعات الداخلية وقدوم الفرنسيين ، وانتقلت أراضيها إلى حكم فرنسا (١) .

ذكرنا من قبل طرفا عن دخول الإسلام فى هذا الجزء من إفريقية . كانت البذرة التى بذرها هناك عبدالله بن ياسين وأصحابه تتغذى من الصلة المستمرة مع تجار المسلمين ومع عرب واحة الحوص وغيرهم . ويحدثنا رحالة فى القرن الخامس عشر كيف جاهد العرب فى تعليم رؤساء الزنج شريعة محمد ، مبينين لهم أنه من العار عليهم ، أن يكونوا رؤساء يعيشون من غير أن تكون لهم أية شريعة من الشرائع الربانية ، وأن يفعلوا مافعلت الجماعات المنحطة التى عاشت من غير أن تكون لها شريعة على الإطلاق . ومن هنا ، قد يظهر أن هؤلاء الدعاة الأول استغلوا الطابع الذى تميز به الدين الإسلامى ، ودستور الحكم فيه ليؤثروا فى عقول هؤلاء المتوحشين غير المتحضرين (٢) .

ولدينا تفاصيل أوفى عن حركة من هذا النوع ذاته أحدث من تلك ، قامت فى جنوب سنغامبيا ، على يد أحد المندنجو ، ويدعى صمودو ، وقد اشتهر باسم سمرى ، وهو جندى وثنى موسر ، ولد حول سنة ١٨٤٦ ، وأصبح مسلما فى عهد مبكر من تاريخ حياته ، وأسس إمبراطورية فى جنوب سنغامبيا فى البلاد التى يرويها الحوض الأعلى من نهر النيجر ورروافده . وقد كتب أحد مؤرخى هذه البلاد بالعربية عن سيرة سمرى ، كتابة تمدنا ببعض تفاصيل ممتعة عن أعماله ؛ ويبدأ كالآتى : —

« هذه قصة الإمام أحمد صمودو ، أحد أفراد المندنجو ... لقد أنعم الله عليه بعونه منذ أخذ فى زيارة الوثنيين عبدة الأصنام ، أولئك الذين يعيشون بين البحر وبلاد وسولو ، وكان يزورهم بقصد دعوتهم إلى اتباع دين الله ، الدين الإسلامى . ولتعلموا يامن تقرءون هذا أن الإمام صمودو وجه همته أول الأمر إلى بلدة تدعى فولندية . ولما كان يعمل بالكتاب والشريعة والسنة أرسل رسلا إلى ملك هذه البلدة ، ويدعى سنديدو ، يدعوه إلى الإذعان لحكومته ، ونبذ عبادة الأصنام ، وإلى عبادة الإله الواحد العلى الحق الذى تنفع عبادته خلقه فى هذه الدنيا وفى الآخرة ؛ ولكنهم تأبوا على الخضوع ، ففرض عليهم الجزية ، كما أمر بها القرآن ؛ ولكنهم ظلوا فى عماوتهم وصممهم ، فجمع الإمام للجهاد قوة صغيرة تقرب من خمسمائة رجل ، كانوا شجعانا أشداء ، وحارب هذه المدينة ، فأعانه الله ونصره عليهم ، وقد طاردهم بخيله حتى سلموا . إنهم لن يعودوا إلى وثنيتهم ، وذلك لأن كل أولادهم الآن فى مدارس يحفظون فيها القرآن ، ويلمون فيها بأطراف من الدين والتهذيب . والحمد لله على هذا (٣) » . وليس من الممكن فى هذا المقام أن نتتبع سلسلة فتوحاته التى

(١) Oppel, pp. 292-3. Blyden, p. 10. Le Chatelier (3), p. 167 sqq.

(٢) Delle Navigationi di Messer Alvise da ca da Mosto. (A. D. 1454.) Ramusio, tome i. p. 101.

(٣) Blyden, pp. 357-60.

تميزت بكثرة المذابح والتخريب (١). وقد بلغ أحمد صمودو أوج قوته حول سنة ١٨٨١ ، وبعد ذلك بقليل دخل فى نزاع مع الفرنسيين ، فأسروه سنة ١٨٩٨ بعدسلسلة من الغزوات القاسية ، ومات فى سنة ١٩٠٠ ، ومع أن فتوحاته انتهت بالقضاء على جموع كبيرة من الوثنيين ذبحهم جنوده القساة ، وتظاهر آخرون بقبول الإسلام بدافع الخوف ، يظهر أنه لم يكن يهدف إلى نفس هذا الغرض الدينى الواضح الذى كان يهدف إليه الحاج عمر (٢). وقد خلف للمرابطين من القادرية مهمة الدعوة ، فبذلوا ، بما عرف عنهم من التقاليد التى ساروا عليها فى التسامح ، مجهودا كبيرا ليخففوا من أعماله الوحشية (٣). وفتحوا المدارس فى المدن التى كانت قد غلبت على أمرها ، وهناك وضعوا نظام جماعتهم ، وعلموا من دخلوا فى الإسلام حديثا ، كما سعوا فى نفس الوقت إلى جذب مسلمين جدد .

أما فيما يتعلق بهذه الحركات العسكرية فى الدعوة إلى الإسلام ، فمن المهم أن نلاحظ أن الانتصارات الحربية وفتح البلاد لم تكن أهم ما ساعد على تقدم الإسلام فى هذه المناطق ، إذ اتضح أن ما قام به الحاج عمر من تحويل الناس إلى الإسلام بالقوة قد نسى سريعا فيما عدا هذه المناطق الصغيرة التى بقيت فى أيدى خلفائه بصفة نهائية . وعلى الرغم من عظمة انتصاراته المؤقتة وحماسة جيوشه ، لم يبق لهذه الدعوة المسلحة إلا آثار يسيرة جدا (٤). أما الأهمية الحقيقية لهذه الحركات فى تاريخ الدعوة الإسلامية فى إفريقية الغربية فهى ما أثاره هؤلاء من حماسة دينية ، تجلت فى نشاط الدعوة إلى الإسلام بين الشعوب الوثنية الذى كان واسع النطاق والذى كان ذا طابع سلمى خالص. ولم تكن هذه الحروب الدينية ، إذا ما نظرنا إليها نظرة صحيحة ، إلا أحداثا عارضة فى النهضة الإسلامية الحديثة . ولم تكن بحال ما صفة تميز القوى وألوان النشاط التى كانت تؤثر تأثيرا حقيقيا فى نشر الدعوة الإسلامية فى إفريقية : والواقع أنه لو لم يتبع هذه الحروب نشاط متميز فى نشر الدعوة ، لدلت على أنها تقريبا لم تكن ذات أثر فعال على الإطلاق فى خلق جماعة إسلامية حقة . والواقع أن الحروب الهدامة والقسوة الغاشمة من جانب الفاتحين من أمثال الحاج عمر وسمورى ورسل التيجانية بصفة خاصة ، قد جعلت عقيدة الاسلام مكروهة كرها شديدا من قبائل السودان الوثنية فى البلاد التى يرويها السنغال والنيجر . ويكاد يتخذ هذا العداء الذى أضمرته هذه القبائل للدين الإسلامى صورة حركة قومية . ولكن مع هذا كانت لا تزال الدعوة الإسلامية تنشر عقيدة النبى فى أجزاء كثيرة من غينا وسنغامبيا ،

(١) تناول Le Chatelier (3) هذه المسألة بالتفصيل ص ٢٢٥ وما بعدها .

(٢) LeChatelier (3), p. 237 لم يتدخل سمورى فى المسألة الدينية تدخلامباشرا، . وقد وصل L.G.Binger إلى هذه النتيجة نفسها ، عن طريق معرفته الشخصية بسمورى .

(Le Péril de L'Islam, p. 20.) (Paris, 1906.)

(٣) Le Chatelier (3), pp. 238-40.

(٤) Le Chatelier (2), p. 112. R. du M. M., vol. xii.p.22.

تلك المناطق التي كان يحمل إليها جماعة الفلي[١] وتجار من الهوصة في رحلاتهم التجارية المتكررة معارف دينهم ، ونجحوا خلال القرن الماضي والقرن الحالي في الظفر بجموع كبيرة دخلت في الإسلام . ومما هو جدير بأن نخصه بالذكر، نشاط هؤلاء الدعاة من القادرية وتجار المسلمين الذين كسبوا لدينهم مسلمين جددا أدخلوهم في دينهم منذ جلب الاحتلال الفرنسي السلام إلى البلاد ، وإن تغلغل الدين في السودان الفرنسي بالطرق السلمية ، وكذلك تغلغله في أجزاء أخرى من إفريقية ، كانت قد دخلت حديثا تحت سلطان النفوذ الأوربي ، قد لقي تيسيرا بفضل ما أظهره الموظفون الفرنسيون من الاحترام والتقدير للطبقات المتعلمة ، وكلها بطبيعة الحال من المسلمين ، وما أظهره هؤلاء الموظفون من احتقار سافر للعادات المنحطة والخرافات التي كانت متفشية بين عبدة الفتش الوثنيين[٢].

لكن نشاط نشر تعاليم الدعوة الذي قامت به الفرقة التي سنتحدث عنها لم يكن مقترنا بحال ما بعمل من أعمال العنف والحرب ، ولم يستعمل في خدمة الدين إلا كل ضروب السلام والإغراء . وفي سنة ١٨٣٧ أسس فقيه جزائري ، يدعى سيدي محمد بن علي السنوسي ، جمعية دينية ، تهدف إلى إصلاح شأن الإسلام ونشر العقيدة الإسلامية . ولم يمت السنوسي سنة ١٨٥٩ ، حتى كان قد نجح ، في تأسيس دولة دينية ، بقوة عبقريته الصافية دون أن يريق الدماء . ويدين أتباعه بالطاعة والولاء لهذه الدولة التي يوسع خلفاؤه حدودها كل يوم[٣]. ويلتزم أفراد هذه الجماعة القيام بأوامر القرآن بكل دقة وبما يتفق وأكثر مبادىء التوحيد تشددا ، تلك المبادىء التي تجعل التعبد لله وحده ، وتحرم التضرع للأولياء وزيارة قبورهم تحريما تاما . وقد أوجبوا على أنفسهم أن يمتنعوا عن شرب القهوة والتدخين ، وأن يتجنبوا كل اتصال باليهود أو المسيحيين ، وأن يساهموا بنصيب معين من دخلهم يضاف إلى أموال الجماعة ، إذا لم يستطيعوا أن يكرسوا أنفسهم لخدمتها ، كما أوجبوا على أنفسهم أن يقفوا كل نشاطهم على تقدم الإسلام ، وأن يقاوموا في الوقت نفسه أي لون من ألوان الخضوع للنفوذ الأوربي . وتنتشر هذه الجماعة في إفريقية الشمالية كلها ، وتنتشر زواياها حول بلاد شمال إفريقية من مصر إلى مراكش ، كما تمتد إلى الداخل ، في واحات الصحراء وفي السودان . وكان مركز تنظيمها في واحة جغبوب[٤] في الصحراء الليبية بين مصر وطرابلس . وفي هذه القرية كان يتعلم كل عام مئات من الدعاة ثم يرسلون إلى كافة أجزاء إفريقية الشمالية دعاة للاسلام . وكانت زواياهم الفرعية (ويقال إنها بلغت ١٢١ زاوية) تتلقى من زاويتهم الرئيسة في جغبوب التعليمات والأوامر في كل

(١) وقبائل الفلي جميعا مسلمون متحمسون ، لحينا وجدوا ، تجد مسجدا ». . . (Haywood, p. 200).

(٢) Le Chatelier (3), pp. 231, 273, 303. Westermann, pp. 632-3

(٣) محمد بن عثمان الحشائشي ص ٨٤ وما بعدها .

(٤) وفي سنة ١٨٩٥ ، هاجر إلى كفره سيدي المهدي ، وهو ابن سيدي محمد السنوسي وخليفته ، لأنها كانت أكثر توسطا من جغبوب (محمد بن عثمان الحشائشي ص ١١١ — ١١٥) ، ولكنه توغل فيما بعد جنوبا إلى منطقة بوركو Borku وتبستي Tibesti ، حيث توفي سنة ١٩٠٢ . وكان رئيس الجماعة في سنة ١٩٠٨ سيدي أحمد ، أحد أقرباء مؤسس الجماعة».
(J. C. E. Falls : Drei Jahre in der Libyschen Wüste, p. 274.) (Freiburg, 1911).

المسائل المتعلقة بتدبير وتوسيع هـذه الدولة الدينية الكبرى ، التى كانت تضم ، فى نظام رائع ، آلافا من أشخاص ذوى جنسيات وقوميات متباينة ، ولو لم يكن الحال على هذا النحو لفرقت بينهم الفوارق الجغرافية الشاسعة والمنافع الدنيوية . ولما كان النجاح الذى تحقق على أيدى دعاة هـذه الجماعة المتحمسين النشيطين عظيما ، لم يقتصر وجود أتباعهم على كل إفريقية الشمالية من مصر إلى مراكش وفى أرجاء السودان وسنغامبيا وبلاد الصومال كافة ، بل نجدهم كذلك فى بلاد العرب والعراق وجزائر أرخبيل الملايو(١).

ومع أن السنوسية كانت فى أول أمرها حركة إصلاح داخلية فى الإسلام نفسه ، أصبحت إلى جانب ذلك حركة لنشر تعاليم الدعوة . وأصبحت عدة قبائل إفريقيـة كانت من قبل وثنيـة أو مسلمة إسلاما اسميا بحتا ، من أتباع عقيدة النبى المتحمسين منذ أن حل فيهم دعاة السنوسية . ومن هذا النوع من النشاط ، نذكر على سبيل المثال ، ما بذله دعاة السنوسية من جهد ليدخلوا فى الإسلام تلك الجماعة التى كانت لا تزال وثنية من قبيلة بيلى Baele ، (وهى قبيلة تسكن بلاد إنيدى Ennedi الجبلية شرق بوركو) ، بل إنهم حملوا حماستهم الدينية إلى الجماعات الأخرى من القبيلة لما وجدوا معرفتهم بالإسلام معرفة سطحية ، ولم يكونوا إلا مسلمين اسما (٢) ؛ أما جماعات التيدا Tedas ، التى كانت تقيم فى تو Tu أو تيبستى Tibesti بالصحراء جنوبى فزان ، والذين لم يكونوا كذلك إلا مسلمين اسما ، فانهم عند ماقدم السنوسية وأقاموا بينهم ، يحملون الدليل كذلك على نجاح جهود هذه الطائفة (٣). يضاف إلى هذا أن دعاة السنوسية يقومون بدعاية نشيطة فى بلاد الجلا Galla ، فيرسلون إليها كل عام دعاة جددا من هرر ، حيث تتمتع السنوسية هناك بقوة كبيرة ، ومنهم كل الرؤساء فى بلاط الأمير تقريبا بدون استثناء(٤). ويستعين دعاتهم على نجاح جهودهم فى نشر تعاليم الدعوة بفتح المدارس ، وقد ظفروا من استيطانهم فى واحات الصحراء — وخاصة فى وداى Wadai — بزيادة كبيرة فى عددهم ، وذلك بشراء عبيد كانوا يعلمونهم فى جغبوب ، فاذا ما رأوا أنهم تعلموا مبادىء المذهب تعليما كافيا ، أعتقوهم وأعادوهم إلى أوطانهم كى يدخلوا إخوانهم فى الإسلام (٥). على أنه قد يظهر أن نفوذ هذه الجماعة فى طريقه الآن إلى الانحلال(٦) .

(١) Riedel (1), pp. 7, 59, 162.

(٢) G. Nachtigal : Sahara und Sudan, vol. ii. p. 175. (Berlin, 1879-81.)

(٣) Duveyrier, p. 45.

(٤) Paulitschke, p. 214.

(٥) H. Duveyrier : La Confrérie musulmane de Sidi Mohammed Ben Ali EsSenousi, passim. (Paris, 1886.) Louis Rinn : Marabouts et Khouans, pp. 481-513. N. Slousch : Les Senoussiya en Tripolitaine. (R. du M. M., vol. i. p. 169 sqq.) وللوقوف على ثبت بمراجع الحركة السنوسية ، أنظر : Der Islam, iii. pp. 141-2, 312.

(٦) R. du M.M., vol. i. p. 181, vol. viii. pp. 64-5.

ومع أن هذه الأخبار التي دونت عن جهود المسلمين في الدعوة إلى الإســلام بين قبائل السودان الوثنية ضئيلة ، فانها ذات أهمية بالنظر إلى النقص العام في الأخبار الخاصة بانتشار الإسلام في هـذا الجزء من إفريقية . ولكن بينما تعوزنا الشواهد التاريخية الثابتة ، نجد المسلمين الذين يقيمون بين أظهر عبدة الفتش وعبدة الأصنام ويمثلون ديانة وحضارة أرقى ، شاهدا حسيا على الأعمال التي قام بها دعاة المسلمين في سبيل نشر الدعوة ، كما أنهم يختلفون (وخاصة على الحافة الجنوبية الغربية من منطقة النفوذ الإســلامي) اختلافا بينا عن القبائل الوثنية التي أفسدت أخلاقها تجارة الخمور الأوربية . وقد أوضح رحالة حديث[1] هذه المفارقة عند ما تكلم عن حالة الانحلال التي وصلت إليها قبائل النيجر الأسفل : « بينما كانت الباخرة تسير بي صعدا في مياه النهر (يعني النيجر) ، لم أجد إلا قليلا من التغيير للمناظر التي شاهدتها في الأميال المائتين الأولى ، لأن الفتشية والوحشية وتجارة الخمور قد ازدهرت كلها في وحدة مؤتلفة . ولكني لما تركت ورائي المنطقة الساحلية المنخفضة ، وألفيتني على مقربة من الحدود الجنوبية لما يسمونه السودان الأوسط ، لاحظت تحسنا مطردا في المظهر الأخلاقي عند الأهلين ، واختفت الوحشية ، وتبعتها الفتشية في هذه السبيل . وزالت تجارة الخمور إلى حد بعيد ، على حين صارت ملابسهم أكبر وأكثر احتشاما ، وأصبحت النظافة عندهم عادة ، على حين دل مظهرهم الخارجي على وقار زائد وأدب جم . وقد دل كل شيء على أن هناك نواة لمبدأ أكثر رقيا إلى حد ما . ومن الواضح أن هذا المبدأ كان يؤثر تأثيرا عميقا في طبيعة الزنجي ويجعل منه إنسانا جديدا . ولعلك تدهش لو علمت أن هذا المذهب هو الإسلام . ولما مررت بلكوجا Lokoja عند ملتقى نهر بنوى Benué بالنيجر تركت ورائي المراكز الأمامية لنشر الدعوة الإســلامية ، فلما دخلت السودان الأوسط وجدتني في دولة أحسن نسبيا في طريقة حكمها ، غاصة بجماعة نشيطة من التجار الأذكياء ، وأناس مهرة في صناعة المنسوجات ، والنحاس ، والجلد ؛ والواقع أنهم شعب تقدم تقدما عظيما في مراقي الحضارة والمدنية » .

ولكي نقدر نشاط الدعوة الإسلامية في نجرتيا Nigritia تقديرا صحيحا ، يجب ألا يعزب عن أذهاننا أنه بينما كان الداعي المسلم ، على السواحل وامتــداد الحدود الجنوبية لمنطقة النفوذ الإسلامي ، ممهد الطريق لدينه ، فإنه كان لا يزال متروكا وراءه هناك مجال واسع للدعاية الإسلامية في الأراضي الداخلية التي تمتد نحو الشمال والشرق ، على الرغم من أن الإسلام رسخت أقدامه في هذه الأراضي منذ زمن بعيد . وكانت هناك جماعات من الفونج ، وهم الجنس الزنجي الذي كانت له السيادة على سنار ، يدين بعضهم بالإسلام وبعضهم الآخر بالوثنية . وقد حاول تجار مسلمون من بلاد النوبة أن يدخلوا هؤلاء الوثنيين في الإسلام[2].

---

(١) Joseph Thomson (2), p. 185.

(٢) Oppel, p. 303.

أما قبيلة جوكون Jukun الوثنية[١]، التي دالت دولتها، وكانت قوية يوما ما قبل أن يسير الفلبي في سبيل الفوز والغلبة، فقد ناهضت النفوذ الإسلامي الزاحف، مع أن وزير ملكهم كان أجنبيا يختار دائما من المسلمين، وكانت جاليات من الحوصة وغيرهم من المسلمين تستقر بين ظهرانيهم. ولكن هؤلاء المستوطنين من المسلمين لا يصادفون نجاحا في أن يدخلوا في الإسلام أحدا من بين الجوكون الذين كانت تقاليد بجدهم القديم تجعلهم يتمسكون بعقيدتهم القومية، وكانت زعامتها الروحية تتمثل في شخص ملكهم[٢].

ولعله من اليسير أيضا أن نحصي كثيرا من عشائر السودان وسنغامبيا، ما زالت تحتفظ بعاداتها وعقائدها الوثنية، أو تكسو هذه العادات والعقائد بستار من شعائر الإسلام، على الرغم من أن أتباع النبي كانوا (في معظم الأحوال) يحيطون بهم منذ قرون. ولا يزال الكنو Konnohs، وهم فرع من قبيلة مندنجو الكبيرة، يدين معظمهم بالوثنية، ولم يتقدم الإسلام بينهم إلا في السنين الأخيرة[٣]. وكان من أثر ذلك أن الحماسة العظيمة في مهمة نشر الدعوة، التي تجلت بين مسلمي هذه الجهات في خلال القرن الحالي، لم تجد مجالا واسعا يمكنها من إظهار نشاطها. ومن ثم جاءت الأهمية في تاريخ الدعوة إلى الإسلام في هذه القارة، ثم أهمية حركات الإصلاح في الإسلام ذاته ونهضات الحياة الدينية، وهي مسائل افتنا النظر إليها من قبل.

أما الساحل الغربي من إفريقية فهو ميدان آخر لمشروع الدعوة الإسلامية، حيث وجد الإسلام نفسه أمام شعب ضخم لم يكن قد أسلم بعد، على الرغم من أنه ازدهر على ساحل غينا، وفي سيراليون وليبريا، تلك البلاد التي نجد عدد المسلمين فيها أخيرا أكثر من عدد الوثنيين. وهناك ملاحظة من أسبق ما لوحظ على نشاط الدعوة الإسلامية في البلاد المجاورة لسيراليون، نجدها في التماس لحل جماعة سيراليون Sierra Leone Company أمر مجلس العموم بطبعه، في الخامس والعشرين من مايو سنة ١٨٠٢؛ وهذا نصه: «منذ مدة لا تزيد على سبعين عاما، استقرت جماعة صغيرة من المسلمين في بلاد تبعد عن سيراليون من ناحية الشمال بما يقرب من أربعين ميلا، وسموها بلاد مندنجو. وكما هي العادة عند أساتذة هذا الدين (الإسلام) فتحوا مدارس تدرس فيها اللغة العربية والعقائد التي جاء بها محمد، وجروا على عادات المسلمين، وخاصة في عدم بيع أبناء دينهم بيع الرقيق. وقد أقاموا لأنفسهم شرائع استخرجوها من القرآن. واستأصلوا ما كان هناك من عادات تساعد على تخريب الساحل من السكان. وعلى الرغم من وجود كثير من اضطرابات قومية، جلبوا إلى البلاد حضارة بلغت درجة عظيمة نسبيا، كما جلبوا لها الاتحاد والطمأنينة. وكان من أثر ذلك، أن ازداد السكان زيادة سريعة، وانتقل إلى أيديهم شيئا فشيئا كل النفوذ في تلك الجهة من البلاد التي يقيمون فيها. أما هؤلاء الذين تعلموا في مدارسهم فإنهم يسيرون نحو الثراء والقوة في البلاد المجاورة المندنجو، ويعودون

(٢) وتقع في ولاية موري Muri في نيجريا الشمالية.

(٣) Journal of the African Society, vol. vii. pp. 379-81.

(٤) Haywood, p. 33.

ومعهم قسط وافر من دينهم وشرائعهم . وهناك رؤساء آخرون ينتحلون الأسماء التي اتخذها هؤلاء المسلمون لأنفسهم بسبب ما يقترن بها من احترام وتوقير ؛ ويبدو أن من الممكن أن ينتشر الدين الإسلامي في أمن وسلام انتشارا سلميا ، في كل المنطقة التي تقع فيها مستعمرة المندنجو ، حاملا معه تلك المزايا التي تتغلب فيها يظهر دائما ، على خرافات الزنوج[١] . ويظهر أن الإسلام لم يجد له منفذا في بلاد مندى Mendi التي تقع على بعد مائة ميل تقريبا جنوبي سيراليون ، إلا في القرن الحاضر ، ولكنه الآن يتقدم تقدما ثابتا . ولا يقوم هناك بالدعوة أية جماعة خاصة من الدعاة تفرغت لهذا الغرض ، بل كل مسلم هناك داعية نشيط . وإذا ما اجتمع في مدينة ستة رجال منهم ، وأقل من ذلك أو أكثر ، وعزموا على أن يقيموا فيها فترة من الزمن ، سارعوا إلى بناء مسجد وأخذوا ينشرون الدعوة . فهم يتقدمون أولا إلى رئيس المدينة ويحصلون منه على الموافقة على عملهم الذي يقصدون إليه ، وربما ظفروا بوعد منه أن يصبح مشايعا لهم ويعلمونه صلاتهم بالعربية ، أو يُحَفِّظونَهُ منها القدر الذي يستطيع أن يحفظه أو يعيه . ويمدونه بالصيغ والشعائر التي تستعمل في الصلاة ويحرمون عليه تناول المشروبات الروحية — وسواء روعى هذا الشرط أم لم يراع — أصبح الرجل مسلما[٢] . وعلى ساحل غينا تنتشر المؤثرات الإسلامية بوجه خاص على أيدي تجار الحوصة الذين نجدهم في كل المدن التجارية على هذا الساحل ؛ وكلما أنشئوا لهم مقرا ، أسرعوا إلى بناء مسجد ، وأثروا في السكان الوثنيين بمسلكهم القائم على الورع وثقافتهم المتفوقة ؛ وقد دخلت في الإسلام قبائل بأجمعها من عبدة الفتش دون أن يبذل المسلمون أية جهود خاصة يستوجبها إغراؤهم ، وإنما كان ذلك نتيجة لاقتدائهم بما يرون أنه حضارة أرقى من حضارتهم[٣].

أما أشنتي Achanti فكان فيها نواة لمجتمع إسلامي يرجع وجوده فيها إلى سنة ١٧٥٠ ، ولما كان دعاة الإسلام قد لقوا ترحيبا من أهالي هذه البلاد وظفروا بنفوذ كبير في البلاط ، جدوا في العمل منذ ذلك الحين مع نجاح بطيء ولكنه محقق[٤] ، واستطاعوا بواسطة مدارسهم أن يسيطروا على عقول الجيل الأحدث ، ويقال إن هناك علامات واضحة على أن الإسلام ستصير له الغلبة في أشنتي إذ دخل فيه كثير من الرؤساء[٥]. وفي دهومي Dahamey وساحل الذهب يتقدم الإسلام كل يوم تقدما جديدا ، حتى حين لا يعتقد شيوخ القبائل الوثنية أنفسهم الإسلام نجدهم يبيحون لأنفسهم ، في أوقات كثيرة ، أن يصبحوا تحت تأثير دعاة هذا الدين ، الذين يعرفون كيف يستغلون هذا النفوذ للدعوة بين عامة الناس[٦]. وفي هذا الجزء من القارة

(١) Claude George : The Rise of British West Africa, pp. 120-1. (London, 1902.)

(٢) Islam and Missions, pp. 73-4,

(٣) Lippett ; Uber die Bedeutung der Haussanation für unsere Togo-und Kamerunkolonie. p. 200. MSOS, Band. x. (1907), Abteilung III

(٤) Waitz : 11er. Theil, p. 250

(٥) C. S. Salmon, p. 801.

(٦) Pierre Bouche, p. 256.

تعتبر دهومى وأشنتى أهم الدول التى لا تزال يحكمها حكام وثنيون، ويقال إن تحولها إلى الإسلام لايحتاج إلا إلى زمن قصير [١]. ويوجد قرابة ١٠٠٠٠ مسلم فى لاجوس Lagos ، كما أن كل المراكز التجارية فى الساحل الغربى تضم بين سكانها جماعات إسلامية من القبائل الزنجية الراقية ، من أمثال الفلبى والمندنجو والحوصة . وحين يهبط رجال هذه القبائل إلى مدن الساحل ، وهم يأتون إليها جماعات ضخمة ، إما تجارا وإما جنودا يخدمون فى جيوش السلطات الأوربية ، لا يعجزون بحال عن أن يؤثروا فى زنجىّ الأراضى الساحلية ، وذلك بما لهم من جرأة وروح استقلالية . ويرى زنجى الساحل أن حكام الأوربيين والموظفين والتجار يحترمون الذين يؤمنون بالقرآن أينما كانوا ، وأن هؤلاء المؤمنين لا يختلفون عنه فى الجنس أو المظهر ، ولا فى الزى أو الطباع اختلافا بعيدا يستحيل معه أن يدخل فى زمرتهم ، بل إن هؤلاء المؤمنين فضلا عن ذلك قد منحوه حظا من امتيازاتهم على شريطة أن يدخل فى دينهم [٢] . وإذا ما أظهر الزنجى الوثنى ، مهما كان خاملا مغمورا ، رغبته فى قبول تعاليم النبى ، بادروا بضمه إليهم ، فيصبح واحدا منهم متساويا معهم ، وليس قبوله فى أخوة المسلمين امتيازا يمنحونه إياه متبرمين ، ولكنه امتياز يمنحه إياه عن رغبة وحرية ، دعاة ذو غيرة وحماسة فى نشر تعاليم الدعوة . ولهذا فمن مصب السنغال حتى لاجوس ، فى مسافة تبلغ ألفى ميل ، يندر فيها يقال أن نجد مدينة ذات أهمية على ساحل البحر ليس فيها مسجد واحد على الأقل، ومعه دعاة نشيطون يعملون فى أغلب الأحيان جنبا إلى جنب مع معلمى المسيحية [٣] .

ولننتقل الآن إلى تاريخ انتشار الإسلام على الجانب الآخر من قارة إفريقية ، ذلك الجانب الذى كان سكانه وثيق الصلة بالأرض التى نشأ فيها الإسلام . على أن الحقائق التى دُونت عن المواطن الأولى التى استقر فيها العرب على الساحل الشرقى ضئيلة جدا ، ويذكر أحد الكتب التاريخية العربية ، وكان قد وجده البرتغاليون فى مدينة كلوا Kiloa [٤] حين اجتاحها دون فرنسيسكو دالميدا Don Francisco d'Almeïda فى سنة ١٥٠٥ ، أن أول من هاجر كانوا جماعة من العرب نفوا لأنهم اتبعوا تعاليم خارجة على الدين، كان يقول بها شخص يدعى زيدا [٥] ، من سلالة النبى ، وقد سموا إموزيديج (وربما قصدوا بذلك أمة زيديه) نسبة إليه . ولا يبعد أن يكون زيد الذى أشير إليه هنا هو زيد بن على حفيد الحسين ، كما هو واحد من أحفاد على ابن عم محمد (عليه السلام) : وقد ادعى فى عهد الخليفة هشام أنه الإمام المهدى، وأشعل نار الثورة بين حزب الشيعة ، ولكنه هزم وقتل سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠ م) [٦] .

(١) Blyden, p. 357.

(٢) C. S. Salmon, p. 887.

(٣) Blyden. p. 202. Westermann, pp. 633-4.

(٤) تقع على جزيرة على مسافة ٣° جنوبى زنجبار.

(٥) De Barros, Dec. i. Liv. viii. cap. iv. p. 211.

(٦) ابن خلدون ج ٣ ص ٩٨ — ١٠٠ .

ويظهر أن هذه الجماعة عاشت فى خوف عظيم من سكان البلاد الأصليين الوثنيين . ولكنها نجحت بالتدريج فى بسط مواطنها على طول الساحل ، حتى جاءتها جماعة أخرى من المهاجرين الذين قدموا من الشـــاطىء العربى للخليج الفارسى ، من مكان لا يبعد عن جزيرة البحرين . وجاء هؤلاء فى سفن ثلاث بزعامة سبعة إخوة ، هاربين من اضطهاد ملك لاساء(١) ، وهى مدينة قريبة من موطن قبيلتهم . وأول مدينة بنوها هى مجدكسو(٢) التى ارتفعت فيما بعد إلى تلك القوة التى جعلتها سيدة على كل عرب الساحل . ولكن لما كان المستوطنون الأصليون وهم الأموزيديج من حزب يختلف عن حزب اللاجئين الجدد ، حيث كان الأولون من الشيعة والآخرون من أهل السنة ، أبوا أن يخضعوا لسلطة حكام مقدشو . وارتدوا إلى الداخل حيث اندمجوا فى السكان الأصليين وتزاوجوا معهم وتطبعوا بطباعهم وتخلقوا بأخلاقهم(٣).

وقد أنشئت مقدشو حول منتصف القرن العاشر وظلت أقوى مدينة على الساحل زهاء سبعين سنة ، حينما أدى قدوم مهاجرين آخرين من الخليج الفارسى ، إلى إنشاء وطن آخر ينافسها على بعد منها من ناحية الجنوب . وكان زعيم هؤلاء المهاجرين يدعى عليا ، وهو أحد الأبناء السبعة لأحد سلاطين شيراز ويدعى حسنا : ولما كانت أمه حبشية ، ازدراه إخوته ، وعاملوه معاملة قاسية ، جعلته يصمم على أن يهجر وطنه ويبحث عن موطن فى مكان ما . لهذا أبحر من جزيرة أرمز Ormuz ومعه زوجته وأولاده وجماعة صغيرة من أتباعه ، وسار متجنبا مقدشو ، التى ينتمى سكانها إلى فرقة دينية تختلف عن الفرقة التى ينتمى إليها ، فمضى فى طريقه صوب الجنوب ، إذ سمع أن الذهب يوجد فى ساحل زنجبار ، وأسس مدينة كلوا ، وهناك استطاع أن يحتفظ بمركز مستقل ، وأن يكون متحررا من تدخُّل أسلافه المقيمين بعيدا عنه فى الشمال(٤) .

وبهذه الطريقة ظهر عدد من المدن العربية على طول الساحل الشرقى من خليج عدن حتى مدار الجدى على حافة ما كان جغرافيو العرب فى العصور الوسطى يطلقون عليه أرض الزنج . وأيا كانت الجهود التى بذلها المستوطنون المسلمون فى تحويل الزنج إلى الإسلام ، فالظاهر أنه لم يبق لنا سجل عنها . وهناك قصة غريبة محفوظة فى مجموعة رحلات قديمة ، لا يبعد أنها كتبت فى أوائل القرن العاشر ، تصور لنا الإسلام بأنه دخل فى إحدى هذه القبائل على يد ملكها نفسه . ذلك أن سفينة تجارية عربية أقصتها الريح عن طريقها فى سنة ١٩٢٢ م وأرستها إلى بلاد الزنج الذين يأكلون لحم البشر ، حيث توقع البحارة موتا محققا ، ولكن حدث لهم عكس ماتوقعوه ، إذ تلقاهم الملك لقاء رحيما ورحب بهم ترحيبا كريما عدة شهور ،

---

(١) من الممكن أن تكون الكلمة محرفة من الحسا . انظر ابن بطوطة جـ ٢ ص ٢٤٧ — ٨ .

(٢) أو مقدشو كما تسمى عند العرب .

(٣) J. de Barros : Dec. i. Liv. viii. cap. iv. pp. 211-12.

(٤) De Barros, id, pp. 224.-5. See Also Justus Strandes : Die Portugiesenzeit von Deutsch-und Englisch-Ostafrika, p. 81 sqq. (Berlin, 1899.)

باعوا فى خلالها بضاعتهم بشروط مربحة ؛ ولكن التجار ردوا عليه كرمه بخيانة شائنة ، فأوثقوه هو وحاشيته حين ركبوا السفينة يودعونهم ، وحملوهم معهم إلى عمان رقيقا ، وبعد سنوات قليلة طوحت الريح بهؤلاء التجار أنفسهم إلى نفس الميناء ، فعرفهم الأهالى وطوقوهم بقواربهم ؛ فسلموا أنفسهم متوقعين الموت فى هذه المرة ، فصلى كل منهم على الآخر صلاة الموت . ثم أخذوا إلى حضرة الملك ، حيث تبينوا فى دهش وعجب ، أنه الملك نفسه الذى عاملوه معاملة جد مخزية قبل ذلك ببضع سنين . وبدلا من أن يقتص منهم بأى نوع من القصاص لمسلكهم الغادر ، أبقى على حياتهم ، وتركهم يبيعون بضاعتهم ، ولكنه رفض الهدية الثمينة التى قدموها إليه رفضا ينطوى على التقريع . وقبل أن يبرحوا تقدم واحد منهم فى جرأة إلى الملك وسأله أن يقص قصة فراره . فوصف لهم كيف أخذ رقيقا إلى البصرة ، ومنها إلى بغداد ، حيث أسلم وتفقه فى الدين ؛ فلما هرب من مولاه لحق بقافلة من الحجاج كانت ذاهبة إلى مكة ؛ وبعد أن أدى مناسك الحج ، وصل إلى القاهرة وصعّد فى النيل صوب بلاده ، فوصل إليها أخيرا بعد أن تجشم كثيرا من الأخطار ، ووقع فى الرق أكثر من مرة . ولما عاد إلى مملكته من جديد ، علم قومه دين الإسلام ؛ « وأنا اليوم فرح مسرور لما من الله به علىّ وعلى أهل دولتى من الإسلام والإيمان ومعرفة الصلاة والصيام والحج والحلال والحرام ، وبلغت ما لم يبلغه أحد فى بلاد الزنج وعفوت عنكم لأنكم السبب فى صلاح دينى . . . فعرفوا المسلمين أن يأتونا فإنا نحن قد صرنا إخوانا لهم ، مسلمين مثلهم[1] » .

ومن هذا المصدر نفسه نعلم أنه حتى فى هذه الفترة المبكرة ، كانت جموع كبيرة من تجار العرب ، تختلف إلى هذه البلاد الساحلية . ولكن على الرغم من وجود صلة دامت قرونا بين أهليها وبين المسلمين ، كان تأثرهم (فيما عدا أهالى السومال) بالإسلام قليلا قلة ملحوظة . وحتى قبل الفتوحات البرتغالية ، فى القرن السادس عشر ، يظهر أن ما تم من حالات قليلة من تحول الناس إلى الإسلام كان كله مقصورا على الحدود الساحلية . وكذلك بعد أن تدهور النفوذ البرتغالى فى هذا الجزء من العالم ، وعاد هناك الحكم العربى تحت إمرة سادة عمان ، وإلى أن جاء القرن العشرين ، كان من العسير أن تبذل أية جهود فى نشر معارف الإسلام بين قبائل الجهات الداخلية ، عدا قبائل الجلا وقبائل السومال . ويقول رحالة حديث : « لم أر فى خلال الرحلات الثلاث التى قمت بها فى شرقى إفريقية الوسطى ، شيئا يحمل على الظن بأن الإسلام هناك قوة تصبغ البلاد بصبغة من الحضارة والمدنية . ومهما كانت القوة الحية فى هذا الدين ، فإنها ظلت مستكنة ، ولم يكن العرب ، ولا أحفادهم فى هذه البلاد دعاة إسلام . وليست هناك بعثات تدعو إليه ، وإنما قنع أهل مسقط بأن يسير عبيدهم ، إلى حد ما ، وفق شعائر الدين . وقد تركوا قبائل إفريقية الشرقية ، الذين كانوا فى الواقع ، فى جهلهم المطبق راضين فيما يظهر بأن يظلوا سعداء فى جهلهم . وتظهر عدم قابليتهم للحضارة ظهورا جليا

---

(١) كتاب عجائب الهند أو

Livre des Merveilles de l'Inde, publié par P. A. van der Lith, 51-60 (Leiden, 1883.)

فى هذه الحقيقة الغريبة : وهى أنهم اتصلوا خمسة قرون بشعب نصف متحضر ، ولم يترك فيهم ذلك أقل أثر للصفات الراقية التى كان يتصف بها جيرانهم - ولم تنبت وتزهر بذرة واحدة صالحة طوال هذه السنين[١].
واستسلم العرب فى إفريقية الشمالية كل الاستسلام سعيا وراء التجارة وصيد الرقيق ، فأظهروا فتورا فى ترقية شئون دينهم ، فكان الفارق كبيرا بين نشاطهم وبين ما أظهره إخوانهم فى الدين نحو نشر الدعوة فى أجزاء أخرى من إفريقية .

على أن هناك حالة جديرة بالذكر نستثنيها ، وهى نشاط نشر الدعوة الذى قام به تجار من العرب أتيح لهم أن يدخلوا أوغندة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ؛ ومن المحتمل أنهم عرفوا أن قوة روح الحرية فى أهل يجندة جعلت قنص الرقيق من بينهم أمرا مستحيلا ، ولهذا سعوا إلى كسب ثقتهم عن طريق تحويلهم إلى دينهم . وأسلم كثيرون من أهل يجندة فى عهد الملك موتزا Mutesa ، ولكن زيارة استانلى لهذا الملك فى سنة ١٨٧٥ أدت إلى دخول إرساليات مسيحية فى السنة التالية ، واضمحلت قوة المسلمين فى هذه الدولة بالزيادة السريعة فى عدد المتنصرين وقيام الحماية الإنجليزية هناك[٢] .

ولكن لا يزال فى أوغندة عدد من المسلمين يشغلون مراكز هامة ، ومن المقرر أن دخول الولاية الشرقية فى الإسلام أمر ممكن . ويقال إن عددا ضخما من ذوى النفوذ فى بلاد بوسوجا Busoga الغنيه ، الواقعة فى شمال أوغنده ، والتى تخضع لانجلترا ، قد دخل فى الإســـلام سنة ١٩٠٦[٣] . ومع هذا الاستثناء ، كان الإسلام فى إفريقية الاستوائية الشرقية حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر منحصرا فى البلاد الساحلية وما يتاخمها من البلاد . وقد يبدو تفسير ذلك ، فى أنه لم يكن فى مصلحة جلاب الرقيق أن ينشروا الإسلام بين القبائل الوثنية التى يأخذون من بينها ضحاياهم التاعسين ؛ إذ لو تحولت هذه القبائل إلى الإسلام ، لتآخت معهم فى الدين ، ولأصبح غير ممكن أن تباعث وتؤخذ رقيقا[٤] .

ولما منعت تجارة الرقيق لانتشار الحكم الأوربى فى إفريقية الاستوائية الشرقية ، تلا ذلك توسع كبير فى نشاط نشر الدعوة الإسلامية ، وتوطد الســـلام والنظام في الجهات الداخلية ، ومدت السكك الحديدية وأنشئت الطرق ، وحينئذ استطاع التاجر المسلم أن يشق طريقه فى مناطق كانت مغلقة فى وجهه حتى ذلك الحين . وقد اختارت إدارة هذه البلاد موظفيها من بين أكثر السكان المسلمين ثقافة ؛ فأنشأت حكومة إفريقية الشرقية الألمانية آلافا من الوظائف ، أسندتها إلى موظفين من المسلمين ، استغلوا نفوذهم

---

(١) Mohammedanism in Central Africa, by Joseph Thomson, p. 877.

(٢) Roscoe, p. 229 sq.

(٣) Zwemer, p. 236. ويذكر جيردنر Gairdner (ص ٢٦) أن عدد المسلمين يبلغ ٢٠٠،٠٠٠ من مجموع السكان البالغ عددهم أربعة ملايين ، ولكنه لم يبين من أى مصدر استقى هذه الأرقام . ويذكر روسكو (ص ٦) أن مجموع سكان أوغنده لا يتجاوز مليونا واحداً تقريباً .

(٤) Richter, pp. 146-7, 154. Merensky, p. 156. Klamroth, p. 4.

فى إدخال قرى بأجمعها فى الإسلام[١]. وكان معلمو مدارس الدولة مسلمين كذلك ، وفى وقت مبكر يرجع إلى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ، لوحظ أن معلمى المدارس من السواحلية، يقومون بنشاط حتى نجح فى نشر الدعوة بين أهالى بندئى وودجو Bondéi and the Wadigo (الذين يسكنون فى الداخل على مسافة قصيرة من الساحل) فى إفريقية الشرقية الألمانية[٢]. ولكن نشاط هذه الحركة الجديدة فى نشر الدعوة أصبح يسترعى النظر إلى حد كبير فى الجهات الداخلية[٣] فى مستهل القرن العشرين ، وخاصة بعد القضاء على ثورة سنة ١٩٠٥ فى إفريقية الشرقية الألمانية. وقد سايرت حركة التوسع فى نشر الدعوة هذه بصفة خاصة ، السكك الحديدية والطرق التجارية الكبيرة ، فانتشرت فى خط مستقيم عبر إفريقية الشرقية الألمانية حتى حدودها الغربية على بحيرة تنجانيقا ، وانتشرت نحو الشمال من أوسمبرا Usambara إلى مقاطعة كلمنجارو ، ونحو الجنوب حتى بحيرة نياسا[٤]. وكان الذين قاموا بنشر هذه الدعوة من التجار ، وخاصة أهالى الساحل ، من السواحليين والجنود وموظفى الحكومة[٥].

وينظر الوثنيون هناك إلى قبول الإسلام على أنه دليل على الترقى إلى حضارة ومنزلة اجتماعية أرفع مما هم فيها ؛ ويقال إن الازدراء الذى كان ينظر به المسلمون إلى الوثنيين طالما كان عاملا حاسما فى تحولهم إلى الإسلام[٦]. ونستطيع أن نتخذ مثالا لتأثير هذا الإحساس من أوسمبرا الغربية ، التى قيل إنها كانت لا تزال فى سنة ١٨٩١ موصدة فى وجه الإسلام ؛ وكان شعور الرؤساء والشعب كليهما شعورا عدائيا نحو المسلمين ، فكانوا يكرهونهم ويخافونهم باعتبارهم تجار رقيق ؛ ولكنه لما انتهى عهد تجارة الرقيق وأنشئت إدارة منظمة ، كان أول من عين من الموظفين الوطنيين كلهم تقريبا من المسلمين. وقد أثر هؤلاء فى الزعماء وغيرهم من الشخصيات الهامة التى اتصلت بهم إلى حد أن الدخول فى الإسلام كان هو التصرف الصحيح للذين اشتغلوا فى الدوائر الرسمية ، وبذلك نجحوا فى أن يُدخلوا فى الإسلام بعضا من الزعماء أعظم من هؤلاء الذين نجدهم قد أثروا فيما بعد مثل هذا التأثير فى زعماء أقل منهم منزلة[٧]. ويظهر أن هناك شواهد قليلة على نشاط دعاة محترفين أو نشاط أية فرقة من الفرق الدينية ، ولكن الشواهد لا تعوزنا على وجود جهود منظمة فى نشر الدعوة ، كتلك الجهود التى قام بها معلم مسلم ، ذكر أنه كان يزور منطقة فى بلاد كلمنجارو كل أسبوع زيارة منتظمة ، وظل على ذلك خمسة شهور يدعو إلى الإسلام ؛ وقد رحب بجهوده الأهالى الذين

---

(١) R. du M. M., vol. ix, (1909), p. 322.

(٢) Oscar Baumann : Usambara und seine Nachbargebiete, pp. 141, 153. (Berlin, 1891.)

(٣) Becker, Islam in Deutsch-Ostafrika, p. 10.

(٤) Id. p. 13 sqq. Klamroth, pp. 14-28.

(٥) Id. p. 53.

(٦) Klamroth, pp. 21, 25, 54.

(٧) Id. pp. 23-4.

كان يقيم لهم ولائم يقدم لهم فيها طعام الأرز وغيره(١) . ومما يلفت النظر فى هذه الدعوة الحماسية أن الدعاة لم يقصروا اهتمامهم على الوثنيين وحدهم ، بل سعوا أيضا لكسب متحولين إلى الإسلام من بين الأهالى المسيحيين(٢) .

وقد شق الإسلام طريقه إلى نياسالاند من الساحل الشرقى أيضا ، ودخلها على أيدى النخاسين من العرب وحلفائهم الياوس Yaos ، الذين جاء أجدادهم من مكان قريب من الساحل الشرقى ، حيث كانوا قد اعتقدوا الإسلام منذ زمن بعيد . ويقال إنه من النادر أن ترى الآن عربيا فى نياسالاند ، ولكن الياوس يؤلفون قبيلة من أقوى القبائل الوطنية ، وينظرون إلى الإسلام على أنه دينهم القومى . ومع أنه لا تبدو هناك دعوة منظمة ، انتشر الإسلام بسرعة فائقة إبان العقد الأول من القرن العشرين ، وكان انتشاره بين بعض القبائل التى تعد من أشد القبائل ذكاء فى نياسالاند(٣) .

سجل الإسلام مثل هذا النجاح بين قبائل الجلا والسومال . وقد ذكرنا من قبل استيطان الجلا فى الحبشة ؛ ومن المحتمل أن هؤلاء المهاجرين ، الذين ينقسمون إلى سبع قبائل ، تسمى بالولّوجلا ، وهو اسم الجنس الذى ينتمون إليه ، كانوا جميعا وثنيين فى وقت إغارتهم على هذه البلاد(٤) ، ولا يزال جزء كبير منهم على الوثنية حتى يومنا هذا . وبعد أن استقروا فى الحبشة لم يلبثوا أن تأقلموا فيها ، واتخذوا لأنفسهم، فى كثير من الأحيان ، لغة سكان البلاد الأصليين وتعودوا عاداتهم وتطبعوا بطباعهم(٥) .

أما قصة دخولهم فى الإسلام فيكتنفها الغموض : فبينما يقال إن بعضهم أدخلوا كرها فى الديانة المسيحية ، نجد أن عدم وجود أية سلطة سياسية فى أيدى المسلمين يدحض إمكان القيام بأى نشاط فى تحويل الناس إلى الإسلام على هذا النحو . وفى القرن الثامن عشر قيل إن معظم الذين فى الجنوب يعتقدون الإسلام ، أما الذين كانوا فى الجهات الشرقية والغربية فمعظمهم وثنيون(٦) . وتشير أخبار أحدث من تلك إلى زيادة أخرى ،

---

(١) Klamroth, p. 26.

(٢) Id. p. 67.

(٣) Becker : Islam in Deutsch-Ostafrika, p. 14. The Moslem World, vol. ii. p. 3 sqq.

(٤) ويظهر فى حقيقة الأمر أن وصفا حبشيا معاصرا لهذه القبائل فى كتاب :

Geschichte der Galla. Bericht eines abessinischen Mönches über die Invasion der Galla in sechzehnten Jahrhundert. Text und Übersetzung hrsg. von A. W. Schleichler (Berlin, 1893),

يصور هذه القبائل على أنهم وثنيون ، على الرغم من أنه لم يرد عن دياناتهم أخبار مفصلة . على أن ركلوس Reclus (tome x. p.330) يزعم أنهم كانوا مسلمين وقت قيامهم بالغزو .

(٥) Henry Salt : A Voyage to Abyssinia, p. 299.(London 1814.)

(٦) James Bruce : Travels to discover the source of the Nile, 2nd ed. vol. iii. p. 243. (Edinburgh, 1805.)

فى عدد أتباع النبى . وفى سنة ١٨٦٧ تنبأ مونتسنجر Munzinger بأن كل قبائل الجلا ستدخل فى الإسلام فى مدة قصيرة(١) . وإذ قد قيــــل عنهم ، إنهم متعصبون جداً ، فإنا نستطيع أن نستنتج أنهم لم يكونوا بحال ما غير متحمسين أو متراخين فى اعتقادهم هذا الدين(٢) . ولا شك أن هذا الرجل المعتق الذى ينتمى إلى الجلا والذى قابله داوتى Doughty فى خيبر قد أظهر درجة عظيمة من الحماسة نحو دينه . وكان هذا الرجل قد انتزع من بلده فى طفولته وبيع بيع الرقيق فى جدة ؛ فلما سأله داوتى : ألا يزال يضمر السخط نحو هؤلاء الذين سرقوه وأسلموا حياته للعبودية فى أقاصى الأرض ، أجاب ، « إن شيئاً واحداً قد عوضنى ، ـ وهو أنى لم أعد غارقاً فى الجهل بين عبدة الأوثان ! ما أعجب عناية الرحمن ! تلك التى جئت بفضلها إلى بلاد الرسول هذه ، وتوصلت بها إلى معرفة الدين ! »(٣) « آه ! ما أشد حلاوة الإيمان ! صدقنى أيها الرفيق العزيز ، إنه أمر يعجز كل قلب عن الإفصاح عنه ، كم أتمنى أن يهديك الله إلى تلك المعرفة السماوية ؛ ولكنى موقن أن الله سيرعاك حتى لا تهلك قبل أن تدخل هذا الدين . حقاً كم يكون جميلا أن أراك مسلما ، وأن تصبح واحداً منا ؛ ولكنى أعرف أن الأجل بيد الله : يفعل الله ما يشاء »(٤) .

وبعض السكان ، فى قبائل الجلا التى تقيم فى بلاد الجلا الصميمة ، مسلمون (إذ كانت بعض القبائل قد تحولت إلى الإسلام حول سنة ١٥٠٠)(٥) ، وبعضهم الآخر وثنيون ، ما عدا تلك القبائل التى تقيم على حدود الحبشة مباشرة ، والتى أرغمها ملك هذه البلاد على انتحال المسيحية فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر(٦) . والمسلمون بين الجبال قلة ، أما فى السهول ، فقد صادف دعاة الإسلام نجاحا رائعا ، ولقيت تعاليمهم قبولا من الناس أخذ ينمو نموا سريعا فى خلال القرن الماضى . ويذكر أنطونيو ستشى Antonio Cecchi الذى زار مملكة لِمو الصغيرة فى سنة ١٨٧٨ ، قصة عن إسلام أبا باغيبو(٧) Abba Baghibo ، والد الأمير الذى كان يحكم إذ ذاك ، على أيدى مسلمين ظلوا عدة سنين يجدون فى نشر الدعوة فى هذه البلاد فى زى التجار . وقد حذا حذوه رؤساء ممالك الجلا المجاورة ورجال حاشيتهم ، وظفرت العقيدة الجديدة بعدد من العامة كذلك ، واستمرت تتقدم بينهم ، ولكن السواد الأعظم منهم

(١) Munzinger, p. 408.

(٢) I. L. Krapf : Reisen in Ost-Africa, ausgeführt in den Jahren 1837-55, vol. i. p. 106. (Kornthal, 1858.)

(٣) Arabia Deserta, vol. ii. p. 168.

(٤) Id., vol. ii. p. 109.

(٥) Morié, vol. ii. p. 248.

(٦) Reclus, tome x. p. 309. Basset, pp. 270-1.

(٧) منذ ما أنشأ الرومان الكاثوليك إرسالية بين قبائل الجلا فى سنة ١٨٤٦ ، قال لهم أبا باغيبو : « لو أنكم قدمتم منذ ثلاثين سنة ، لاعتنقت دينكم ، بل لاعتنقه جميع بنى وطنى ؛ ولكن تحقيق ذلك الآن من المحال » .
(Massaja, vol. iv. p. 103.)

كان يتشبث بعبادته القديمة[1] . وقد لقى هؤلاء التجار ترحيبا حارا فى بلاط رؤساء الجلا ، لمـــا وجدوه هناك من سوق لاستبدال حاصلات البلاد التجارية بسلع مستوردة من المصنوعات الأجنبية . ولمـــا كان هؤلاء التجار يرتحلون إلى الساحل مرة واحدة كل عام ، أو مرة فقط كل عامين ، وكانوا يقضون كل ما بقى من الوقت فى بلاد الجلا ، كانت لديهم فرص كثيرة ، عرفوا جيدا كيف ينتهزونها للعمل فى نشر الدعوة الإسلامية ، وحيثما وضعوا أقدامهم كان من المؤكد أن يظفروا بعدد كبير من الداخلين فى الإسلام فى مدة قصيرة من الزمن [2] . وقد دخل الإسلام هنا فى نزاع مع مبشرين مسيحيين من أوربا ، صادفت جهودهم نجاحا قليـلا جدا [3] ، على الرغم مما ظفروا به من تنصير نفر قليل — وحتى الذين نصرهم الكردينال ماساجا Cardinal Massaja ، فإنهم (بعد أن طرد من هذه البلاد) إما اعتقدوا الإسلام ، وإما انتهوا إلى عدم الإيمان ، لا بالمسيح ولا بالله[4] ، — بينما حقق الدعاة المسلمون نجاحا مستمرا ، وشقوا طريقهم بعيدا نحو الجنوب ، وعبروا نهر وابى [5] . وكانت غالبية قبائل الجلا التى تقيم فى غرب بلاد الجلا لا تزال وثنية قبيل نهاية القرن التاسع عشر ، ولكن يبدو أن عبادة الطبيعة القديمة بين الذين كانوا فى أقصى الغـرب ، ونعنى بهم الليجا [6] ، كانت فى طريقها إلى التدهور ، وقد جعل تأثير الدعاة المسلمين الآخذ فى النمو ودخل كل قبائل الليجا فى حظيرة الإسلام ، فى مدى سنوات قليلة ، أمرا محتملا [7] .

وإن إفريقية الشمالية الشرقية فى الوقت الحاضر لتمثل لنا حقا صورة لنشاط ذى حيوية وحماسة رائعتين فى نشر الدعوة من جانب المسلمين . وتفد من بلاد العرب عـدة مئات من الدعاة كل عام . وهم أيضا أكثر نجاحا فى جهودهم بين قبائل السومال منهم بين الجلا [8] . ولابد أن يكون القرب الشديد بين بلاد السومال وبلاد العرب قد جعل الأولى ، فى زمن مبكر ، مسرحا لنشاط الدعوة الإسلامية ؛ ولكن يظهر لسوء الحظ أن ما دون من هذا النشاط قليل . وقد ذكر ابن حوقل[9] أن أهالى زيلع كانوا مسيحيين فى النصف الثانى من

---

(١) Da Zeila alle frontiere del Caffa, vol. ii. p. 160. (Rome, 1886-7.) Massaja, vol. iv. p. 103; vol. vi. p. 10.

(٢) Massaja, vol. iv. p. 102.

(٣) يقول ستشى وهو يتحدث عن إخفاق الارساليات المسيحية : ,, يجب البحث عن سبب هذا فى انتشار الاسلام هنا ، فى هذه السنوات الأخيرة ، الذى حمله مئات من رجال الدين والتجار المسلمين ، الذين لم يعوزهم المال والفطانة والتمكن من اللغة ،، . (Op. cit. vol. ii. p. 342.)

(٤) Id. p. 343.

(٥) Reclus, tome xiii. p. 834.

(٦) يوجد الليجا من خط طول ٩° إلى ٣٠ ٩° ومن خط عرض ٣٤ ٣٥° إلى ٣٥ً شرقا .

(٧) Reclus, tome x. p. 350.

(٨) Paulitschke, pp. 330-1.

(٩) ابن حوقل ص ٤١ .

القرن التاسع الميلادى ، ولكن أبا الفداء يتحدث عنهم فى النصف الأول من القرن الرابع عشر على أنهم مسلمون (١) . ومن المحتمل أن تجارا من العرب اللاجئين إلى السومال هم الذين حملوا الدين عبر البحر . وتشيع لدى السوماليين أسطورة تقول بأن عربيا عريقا فى الأصل ، أجبر على أن يغادر بلاده ، فعبر البحر إلى عدل ، حيث دعا إلى الدين الإسلامى بين أجدادهم (٢) . وفى القرن الخامس عشر جاءت من حضرموت جماعة تتألف من أربعة وأربعين عربيا يدعون إلى الإسلام ، فنزلوا فى بربرة على البحر الأحمر ، ومن هناك انتشروا فى بلاد السومال ليدعوا إلى الإسلام . وقد شق أحدهم ، وهو الشيخ إبراهيم أبوزرباى طريقه إلى مدينة هَرَر حول سنة ١٤٣٠ ، واكتسب هناك كثيرين من الذين تحولوا إلى الإسلام ، ولايزال قبره موضع تعظيم فى هذه المدينة . وهناك بالقرب من بربرة جبل لا يزال يسمى جبل الأولياء تخليدا لذكرى هؤلاء الدعاة ، الذين يقال إنهم كانوا يجلسون هناك فى خلوة مقدسة قبل أن ينتشروا فى طول البلاد وعرضها لتحويل الناس إلى الإسلام (٣) . وقد ساد الإسلام شيئا فشيئا فى جميع أنحاء إفريقية الشمالية الشرقية ، ولكن تزايد نفوذ الإمبراطور منليك واحتلاله هرر فى سنة ١٨٨٦ أدى إلى تحول عدد معين من الأهالى إلى المسيحية (٤) .

ولكى نستكمل هذا الوصف الخاص بانتشار الإسلام فى إفريقية ، لا يبقى إلا أن نشير إلى هذه الحقيقة ، وهى أن الدين قد شق طريقه إلى أقصى الجنوب من هذه القارة ، ونعنى مستعمرة الكاب . ومسلمو الكاب هؤلاء من سلالة أهل الملايو ، جاء بهم الهولنديون (٥) إلى هذه البقعة إما فى القرن السابع عشر أو الثامن عشر (٦) ؛ وهم يتكلمون لهجة محرفة من لغة البوير ، مع خليط كبير من اللغة العربية ، وبعض كلمات إنجليزية وكلمات من لغة الملايو . وهناك كتاب صغير عجيب ، مؤلف بهذه اللهجة ومكتوب بحروف عربية ، وقد نشره وزير المعارف التركية فى القسطنطينية سنة ١٨٧٧ ، ليستعمل كتيبا صغيرا لتعليم قواعد الدين

(١) أبو الفدا ج ٢ القسم الأول ص ٢٣١ — ٢٣٢ .

(٢) Documents sur l'histoire, la géographie et le commerce de l'Afrique Orientale, recueillis par M. Guillain. Deuxième partie, tome i. p. 399. (Paris, 1856.)

(٣) R. F. Burton : First Footprints in East Africa, pp. 76, 404, (London, 1856.)

(٤) R. du M. M., vi. p. 288. (1908.)

(٥) كان رأس الرجاء الصالح فى حوزة الهولنديين من سنة ١٦٥٢ إلى سنة ١٧٩٥ ؛ ولما استردوه بعد صلح أميان Peace of Amiens فى سنة ١٨٠٢ ، احتلها البريطانيون من جديد بمجرد نشوب الحرب مرة أخرى .

(٦) وكان من بين هؤلاء الشيخ يوسف ، وهو مسلم ذو نفوذ عظيم فى جاوة وآخر أبطال استقلال بنتام . وفى سنة ١٦٩٤ ساقه الهولنديون سجين دولة إلى مستعمرة الكاب ، هو وعائلته ، وكثير من أتباعه ؛ ولا يزال ضريحه يعد مكانا مقدسا .

(G. M. Theal : History and Ethnography of Africa south of the Zambesi, vol. ii. p. 263.) (London, 1909.)

الإسلامى[١]. وإن الأسماء الهولندية الصرفة التى يتسمى بها بعضهم ، وملامح الوجه التى تلاحظ فى كثير منهم ، ليدل على احتمال أنهم تلقوا فى مجتمعهم فى وقت ما بعض أشخاص من أصل هولندى ، أو أن بدمائهم على الأقل مزيجاً كبيراً من الدم الهولندى . وكذلك اكتسبوا بعض متحولين إلى الإسلام من بين الهوتنتوت Hottentots. ولم يكتب عنهم الرحالون الأوربيون[٢] بل إخوانهم فى الدين ، حتى الأيام الأخيرة ، إلا مذكرات قليلة . وفى سنة ١٨١٩ لفت كولبروك الأذهان إلى نمو الإسلام ، فى بعض مذكرات ممتعة كتبها عن مستعمرة الكاب ، قال : « ويقال إن الإسلام يتقدم بين العبيد والسود الأحرار من أهالى الكاب ، ونعنى بذلك ، أن الذين تحولوا من الوثنية إلى الإسلام من بين الزنوج والسود على اختلاف أنواعهم كانوا أكثر عددا من الذين تحولوا من الوثنية إلى المسيحية ، وهذا على الرغم من الجهود القوية التى يبذلها مبشرون أتقياء . وقد ثبت أن النفور الشديد الذى أبداه السادة من تعميد عبيدهم كان سببا من أسباب هذا التحول ؛ وقد نشأ ذلك من بعض أفكار خاطئة أو من فرط تخوفهم من الحقوق التى ينالها العبد الذى يُعَمَّد . ولا شك أن العبيد متأثرون بفكرة بقاء هـذا النفور ، ولم يكن من النادر أن يجيب العبد ، إذا ما سئل عن بواعث تحوله إلى الإسلام ، بأنه يجب أن يكون له دين ، وأنه لم يسمح له بأن يتنصر . والتعصب فى هذا الأمر آخذ فى الزوال ، وقد قلت الآن معارضة هؤلاء السادة فى تنصير العبيد عما كانت قبل . وقد ثبت أن السادة أخذوا يدركون أن العبيد لا يسيئون استعمال التعاليم التى يتلقونها فى واجباتهم الدينية . وهناك جموع آخذة فى الزيادة على أيدى المبشرين (ويوجد فى كل بلد من البلدان الرئيسة) وواحد ممن كرسوا جهودهم على تثقيف العبيد ثقافة دينية ، ويأمل المبشرون ألا تكون جهودهم غير مثمرة . ولكن الداعية المسلم حول جموعاً أكبر بجهود أقل من مجهود المبشرين[٣] » . وفى خلال الخمسين سنة الأخيرة كان يزور المسلمين فى مستعمرة الكاب جماعة من بلاد أخرى من إخوانهم فى الدين المتحمسين ، وقد أثاروا الآن اهتمامهم بالتعليم أكثر مما مضى ، وبعثوا بينهم حياة دينية أعمق من تلك التى كانوا يحيونها ، ويقال إنهم يقومون بدعوة حماسية ، وخاصة بين الأهالى السود فى الكاب وإنهم حصلوا على نجاح محقق[٤] . وإن حركة نشر تعاليم الدعوة هـذه قوية فى الجزء الغربى من مستعمرة الكاب خاصة . ويقال إن هناك حركة سائرة فى طريق التنفيذ لتأسيس كلية فى كليرمونت Claremont

---

(١) M. J. de Goeje : Mohammedaansche Propaganda, pp. 2, 6. (Overgedrukt uit de Nederlandsche Spectator, No. 51, 1881.)

(٢) وقد نبه شخص يدعى كامبيل الأذهان إليهم فى سنة ١٨١٤ .

William Adams : The Modern Voyager and Traveller, vol. i. p. 93. (London, 1834.)

(٣) Sir T. E. Colebrooke : The Life of H. T. Colebrooke, p. 335. (London 1873.)

(٤) F. Coillard : Au Cap de Bonne Espérance. (Journal des missions évangéliques, avril 1899, p. 265.)

بجوار مدينة الكاب، وأنها ستصبح مركزا لنشر الدعوة الإسلامية . ومن الوسائل التى تستغل الآن تبنّى الأطفال الشاردين أو المهملين وتنشئتهم على دين الإسلام[١]. ويحج فريق منهم كل عام إلى مكة، حيث يعين لهم شيخ خاص للاشراف عليهم[٢]. وكذلك يقال إن عمال الهنود الذين يأتون للعمل فى حقول الماس فى إفريقية الجنوبية دعاة للإسلام.

ولما كانت جزيرة مدغشقر فى مكان منعزل، على بعد يتراوح بين ٢٢٠ ميلا و ٥٤٠ ميلا من الأراضى الأصلية، فإنها تستدعى ذكرا خاصا . وإن القبيلة الوحيدة التى اعتقدت الإسلام هى قبيلة أنتيمورونا Antaimorona، التى تحتل جزءا من الساحل الجنوبى الشرقى ؛ ولا شك أن تحولهم إلى الإسلام كان على يد دعاة من بلاد العرب، ولكن الوقت الذى تم فيه هذا التحول مجهول لنا تماما ؛ وربما أرجعته الأساطير إلى نفس عهد محمد ذاته، ولكننا لم نحصل إلا فى القرن السادس عشر[٣] على معلومات موثوق بها عن المسلمين فى هذه الجزيرة، وذلك فيما كتبه الجغرافيون من الطليان والبرتغاليين[٤].

ومن هذا الوصف التاريخى المجمل نستطيع أن نرى أن الأساليب السلمية كانت الطابع الغالب على حركة نشر الدعوة الإسلامية فى إفريقية، ومع أن الإسلام كثيرا ما شهر السيف كأداة يستعين بها على تقدم فتوحاته الروحية، نجد أن مثل هذا الالتجاء إلى القوة وسفك الدماء كان يسبقه فى معظم الحالات جهود سلمية فى نشر الدعوة، وكان الداعية يتعقب الفاتح ليكمل النقص فى تحويل الناس إلى الإسلام . والحق أن نجاح الرواد المسلمين نجاحا دنيويا سهل إلى حد كبير جدا نجاح الإسلام فى جهات كثيرة من إفريقية، كما سهله تأسيس دول إسلامية على أنقاض دول وثنية . وإن النار وسفك الدماء طالما ميزا خطة الجهاد، التى دبرت لاستئصال شأفة الكفار . وإن كلمات الشاب العربى الذى كان من البرنو والذى قابله الكابتن بورتن Burton[٥] فى قصر ملك أبيكوتا Abeokuta، لتعبر بدون شك عن مطامح كثيرين من مسلمى إفريقية: «أعطنا هذه البنادق وهذا البارود، ندخل فى الحال هذه الكلاب فى الإسلام». ويتردد صدى هذه الكلمات فى الرسالة التى يوردها منجو بارك Mungo Park[٦] باعتبارها مرسلة من ملك فوته تورو Futah Toro المسلم إلى جاره الوثنى : «بهذه السكين سينزل عبد القادر ويحلق رأس دامل، إن دخل دامل فى الإسلام ؛ وبهذه السكين الثانية سيدق عنق دامل إن أبى أن يدخل فى هذا الدين ؛ فاختر لنفسك».

(١) Kumm, p. 233.

(٢) C. Snouck Hurgronje (3), vol. ii, pp. 296-7.

(٣) Jacques Bonzon : Les Missionaires de l'Islam en Afrique. (Revue Chrétienne, tome xiii. p. 295.) (Paris, 1893.)

(٤) G. Ferrand, Les musulmans à Madagascar, pp. 19, 50 sqq. 138. (Paris, 1891).
Id. Les Migrations Musulmanes et Juives à Madagascar.
(Revue de l'Histoire des Religions, vol. lii p. 381 sqq.)

(٥) Richard F. Burton (1), vol. i. p. 256.

(٦) Travels in the Interior of Africa, chap. xxv. ad fin.

ولكن بقدر ما يمكن أن يعزى الإسلام إلى البسالة الحربية التى قام بها أمثال هؤلاء المتعصبين ، لدينا الدليل القاطع الذى شهد به الرحالون وغيرهم على نشر الدعوة بالطرق السلمية وقيام الداعى المسلم بأعمال تنطوى على الرفق والأناة ، تلك الأعمال التى عملت فى سبيل انتشار الإسلام انتشارا سريعا فى إفريقية الحديثة ، أكثر مما عمل أى أسلوب من أساليب العنف . وربما استأصل الإسلام حقا شأفة مقاوميه بالأساليب الأخيرة ، ولكنه عن طريق الأولى بصفة خاصة أنجز عملية تحويل الناس إلى الإســـلام ، ولعل نشاط التحول لا يزال يتقدم فى كثير من الأقاليم الساحلية والداخلية (١) . وحيثما شق الإسلام طريقه ، تجد هناك الداعى المسلم حاملا الدليل لعقائد هذا الدين ؛ــ فالتاجر سواء أكان من العرب أم الفلى أم المندنجو ، يجمع بين نشر الدعوة وبيع سلعته ، وإن مهنته وحدها لتصله صلة وثيقة مباشرة بأولئك الذين يريد أن يحولهم إلى الإسلام ، وتنفى عنه كل ما يحتمل أن يتهم به من دوافع شريرة . وإذا ما دخل مثـــل هذا الرجل قرية وثنية فسرعان ما يلفت الأنظار بكثرة وضوئه ، وانتظام أوقات الصلاة والعبادة ، التى يبدو فيها كما لو كان يخاطب كائنا خفيا . وإن ما يتحلى به من سمو عقلى وخلقى ليفرض احترامه والثقة به على الأهالى الوثنيين، الذين يبدى لهم فى نفس الوقت استعداده ورغبته فى مدهم بمزاياه ومعارفه السامية ؛ــ والحاج الذى عاد من مكة مليئا بالحماسة من أجل نشر العقيدة ، التى يقف عليها كل جهوده ، متنقلا من مكان إلى آخر ، يعيش على صدقات المؤمنين الذين يحملون الدليل على الحق بين جيرانهم الوثنيين ؛ــ وطالب العلم الذى يلقى تكريما باعتباره رجل علم تفقه فى الدين والشريعة الإسلامية ، بل أحيانا يزاول الطب ، أو على الأقل يكون ذا مهمة عظيمة باعتباره كاتب تعاويذ ، وآيات من القرآن ، تطوى فى قطع من الجلد أو القماش وتعلق على الأذرع أو حول العنق ، وهى مهمة يستطيع أن يستغلها كوسيلة لإكثار عدد المتحولين إلى الإسلام ؛ مثال ذلك ، أنه حينما تطلب منه هذه التعاويذَ النساءُ العواقر أو اللاتى فقدن أولادهن أطفالا ، يفرض عليهن ، شرطا لنجاح هذه التعاويذ ، أن ينشئن أطفال المستقبل على الإسلام (٢) . هؤلاء المعلمون الدينيون ، أو المرابطون أو آلوفاس ، كما يطلق عليهم بحسب اختلاف أسمائهم ، يحظون بأوفى نصيب من التقدير . وفى بعض قبائل إفريقية الغربية تضم كل قرية دارا لاستقبالهم ، ويعاملون بأعظم مظاهر الاحترام والتقدير ؛ ففى دارفور يحتلون أعظم مكانة بعد هؤلاء الذين يشغلون مناصب الحكومة ، كما يحتلون بين المندنجو مكانة أعظم شأنا ، وينالون احتراما يلى احترام الملك ، ويعتبر الرؤساء ، التابعون لغيرهم ، أقل منهم هيبة : وفى تلك الدول التى تتخذ فيها القرآن أساسا للحكم فى كل المسائل المدنية ، تحتاج الدولة لخدماتهم احتياجا شديدا لكى يفسروا معانى القرآن . وقد

---

(١) D. J. East, pp. 118-20. W. Winwood Reade, vol. i. p. 312. Blyden, pp. 13, 202.

(٢) Bishop Crowther on Islam in Western Africa. (Church Missionary Intelligencer, p. 254, April, 1888.)

بلغ من إجلال الناس لأشخاص هؤلاء المعلمين ، أنه لا يتعرض لهم أحد حين يجوسون خلال بلاد أمراء متعادين ، بل مشتبكا بعضهم مع بعض فى حرب فعلية . ويبجلهم الناس مثل هذا التبجيل ، لا فى البلاد الإسلامية وحدها ، بل فى القرى الوثنية ، التى يؤسسون فيها مدارسهم ، حيث يحترمهم الناس باعتبارهم معلمى أبنائهم ، ويعتبرونهم واسطة بينهم وبين الله سواء فى الحصول على حاجاتهم ، أو فى درء المصائب وصرفها عنهم (١). وقد درس كثير من هؤلاء المعلمين فى مساجد القيروان وفاس وطرابلس (٢) وغيرها من مراكز الثقافة الإسلامية ، ولكنهم درسوا بصفة خاصة فى الجامع الأزهر بالقاهرة . ويتدفق الطلبة إلى هذا الجامع من كل بقاع العالم الإسلامى ، ومن بينهم فى الغالب جماعة من زنوج إفريقية ، — طلبة من دارفور وودای وبرنو ، بل يشق فريق من المسلمين طريقه سيرا على الأقدام من أقاصى الساحل الغربى ، فإذا ما أتموا دراستهم فى الدين والشريعة الإسلامية ، صار كثيرون منهم دعاة بين أهالى بلادهم الوثنيين . وينشىء هؤلاء الدعاة فى المدن التى يزورونها مدارس يختلف إليها الأطفال الوثنيون والمسلمون على سواء ، فيحفظون القرآن ويتفقهون فى عقائد الإسلام وشعائره ، فإذا ما نجح الداعى المسلم ، على هذا النحو ، بما له من حظ موفور من العلم والمعرفة الساميتين ، فإنه لا يتوانى عن أن يؤثر تأثيرا كبيرا فى الأهالى الذين جاء يعيش بينهم ، ويساعده على ذلك أن عاداته وطباعه فى الحياة تشبه عاداتهم وطباعهم فى كثير من الوجوه . ومادام التاجر قد مهد له الطريق من قبل فلا يرتاب فيه الأهالى ؛ وبالتزاوج مع السكان الذين يرحبون بدخوله فى نظامهم الاجتماعى ، يتوطد نفوذه ويستقر ، وهكذا تنشر بينهم معارف الإسلام شيئا فشيئا وبطريقة طبيعية إلى أبعد حد .

وقد زاد من تيسير جهود الداعى فى نشر الدعوة أن الاعتقاد بوجود الله مع إنكار الوحى والأديان Deism ، وهو أساس الشعور الدينى عند كثير من عبدة الفتش ، يمكن أن يتحول ، فى سهولة ، إلى عقيدة التوحيد عند المسلمين ، وكذلك الحال فى بعض مظاهر أخرى فى فلسفتهم الدينية . وهكذا نجد أن نظرتهم العامة فى الحياة وكثيرا من شرائعهم الدينية قابلة لأن تصطبغ بصبغة إسلامية ، وأن تتحول إلى نظام الدين الجديد دون إجراء تغيير كبير (٣).

وإن نزول المسلمين فى بلاد وثنية إنما هو كذلك إيذان بفتح باب للتجارة أوسع مدى وانتشارا ، وبالاتصال بمراكز إسلامية تجارية كبيرة من أمثال جنى أو سجو Sego أو كانو Kano ؛ كما أن هؤلاء المسلمين قدموا إلى الأهالى نصيبا من مزايا هذه الحضارة المادية مع دين النبى . ومن ثم وقد يكون الداعية بين القبائل الزنجية غير المتحضرة على ثقة دائما من الاستجابة السريعة : فهو يستطيع أن يمدهم بكثير من الحقائق المتعلقة بالله والإنسان تصل إلى القلب وتنمى الإدراك ، بل يستطيع إلى جانب ذلك أن يمنحهم ترخيصا بالدخول

---

(١) D. J. East, pp. 112-13. Blyden, p. 202.

(٢) ويقال إن ما يربو على ألف داع من دعاة الإسلام ، يغادرون طرابلس كل سنة للعمل فى السودان .
(Paulitschke, p. 331.)

(٣) وللوقوف على بحث مستفيض لنقط هذا الاتصال ، أنظر Forget, p. 28 sqq. Merensky, p. 155.

فى وحدة اجتماعية سياسية ، تخولهم حق الحماية والمساعدة فى مسافة تمتد من المحيط الإطلنطى إلى سور الصين . وحيثما يستطيع المسلم أن يجد هناك دارا إسلامية يجد الأسود الذى تحول إلى الإسلام والذى يستطيع أن يسرد أركان عقيدته ، واثقا من المـــأوى والقوت والنصيحة ؛ وسرعان ما يجد نفسه ، فى بلاده ، عضوا فى طبقة ذات نفوذ إن لم يكن فى الطبقة المتسلطة . ويبدو أن هذا هو السر الحقيقى فى نجاح الدعاة المسلمين فى إفريقية الغربية . أما عدد المتحولين إلى الإسلام ، فإنه كان كبيرا ، سريعا فى التحول ، وذلك لسبب واضح ، هو أن الداعى المسلم كان منذ اللحظة الأولى التى يعترف فيها المتحول إلى الإسلام بالعقيدة ، يسير سيرا عمليا على المبادىء القائمة على إخاء المؤمنين جميعا وتساويهم أمام الله ، وهى مبادىء يشترك فيها الإسلام مع المسيحية ؛ غير أن هذا الداعى المسلم ، بصفة عامة ، أسرع وأحسم فى القيام بهذا العمل من المبشر المسيحى الذى يشعر فى أغلب الأحيان بأنه مضطر إلى المطالبة بدليل قوى على إخلاص المتنصر قبل أن يصافحه مصافحة التآخى فى المسيحية ، والذى كان دائما يثير تعصبا جنسيا لم يكن محتملا أن يزول فى جيل واحد ، حيث كان يعد المسيحى الأبيض ، طوال أجيال ، سيدا ، كما كان يعد الوثنى الأسود عبدا (١) » .

ومن المهم ، أيضا ، أن نلاحظ أن لون الزنجى وجنسه لم يحملا بأية حال إخوانه الجدد فى الدين ، على أن يتعصبوا عليه . ولا شك أن نجاح الإسلام قد تقدم فى نجريتيا Nigritia تقدما جوهريا بسبب عدم كل إحساس باحتقار الأسود — وفى الحق يظهر أن الإسلام لم يعامل الأسود قط على أنه من طبقة منحطة ، كما كانت الحال ، لسوء الحظ ، فى كثير من الأحيان ، فى العالم المسيحى (٢) .

---

(١) Sir Bartle Frere (1), pp. 18-19.

(٢) E. W. Blyden, pp. 18-24. E. Allégret, p. 200. Westermann, pp. 644-5.

وفى مناظرة شائقة جدا ، وإن كانت قد نسيت الآن ، أمام الجمعية الأنثروبولوجية بلندن ، حول موضوع « جهود المبشرين بين المتبربرين » ، ذكرت حالة مبشر مسيحى فى إفريقية ، تزوج زنجية . لذلك كان الشعور ضده ، قويا إلى حد أنه وجد نفسه مضطرا إلى مغادرة المستعمرة . أما الداعى المسلم فانه يشتغل بدعوته غير مستأثر بأمثال تلك المساوىء .

(Journal of the Anthropological Society of London, vol. iii. 1865.)

وقد أجاد شخص كان نفسه زنجيا فى توضيح الفارق بين الطريقة التى تقدم بها كل من المسيحية والاسلام إلى الافريقيين ، وذلك فى العبارات الآتية : — « بينما تنسب البحوث التبشيرية قيام قساوسة من الوطنيين إلى عصر غير معين ، نجد الدعاة المسلمين يتقدمون إلى قلب إفريقية ، ويصلون فى سهولة إلى الوثنيين ، ويحولونهم إلى الاسلام . وبذلك أصبح الزنوج اليوم ينظرون إلى الاسلام على أنه دين السود ، والمسيحية على أنها دين البيض . ويرون أن المسيحية تدعو الزنجى إلى الخلاص ، ولكنها تضعه فى مكان منحط إلى حد أنه يقول فى نفسه وقد استولى عليه القنوط : ليس لى نصيب ولا حظ فى هذا الدين . أما الاسلام فانه يدعو الناس إلى الخلاص ويقول له : إن بلوغك أسمى الدرجات الممكنة إنما يتوقف عليك . ومن ثم ركن الزنجى بدافع من الحماسة إلى هذا الدين بروحه وجسده » .

L'islam et le christianisme en Afrique d'après un Africain. (Journal des Missions Évangiliques. 63e année, p. 207.) (Paris, 1888.)

وإن هذه الملاحظة لتفسر إلى حد ما نجاح المسلم إذا ما قورن بالإرساليات المسيحية بين الشعوب الزنجية . ويتضح فى أغلب الأحيان أن الأسود المتنصر يميل إلى الإحساس بأن أبناء دينه من الأوربيين ينتمون إلى لون من الحضارة لا يلائم طبائعه فى الحياة ، على حين يشعر فى المجتمع الإسلامى بأنه أكثر تعلقا به واطمئنانا إليه . وقد أجاد أحد المشاهدين المحدثين توضيح ذلك فى الرسالة الآتية : « إن الإسلام ، على الرغم من تقصيره ، لا يتطلب ، من وجهة نظر أهل نيجريا ، أن يفقد أحدهم قوميته باعتبار أن ذلك شىء يصحب الدخول فى الإسلام ، ولا يستلزم تغييرات انقلابية فى الحياة الاجتماعية ، يستحيل تحققها فى المرحلة الحاضرة من تطور أهل نيجريا ؛ ولا هو يقوض نفوذ الأسرة أو سلطة الجماعة . وليست هناك هوة بين الداعى إلى الإسلام والمتحول إليه ؛ فكلاهما متساو أحدهما مع الآخر ، لا نظريا ، بل عمليا ، أمام الله . وكلاهما إفريقى ؛ وهما من أبناء أرض واحدة . وينفذ مبدأ التآخى الإنسانى تنفيذا عمليا ، ولا يعنى الدخول فى الإسلام أن ينصرف الداخل فيه عن شئونه وأسرته وحياته الاجتماعية ، ولا عن احترامه لسلطان حكام بلاده الأصليين . . . وليس هناك من لا يعجب بسلوك المسلم النيجيرى ووقاره — بل بسلوك مسلمى إفريقية الغربية عامة ؛ وإن هيئة الرجل العامة لتنم عن شعور بالقومية واعتزاز بالجنس ، يخيل إليك أنه يقول : إن كلا منا يختلف عن الآخر ، ولكننا جميعا بشر . وإن انتشار الإسلام الذى نشهده اليوم فى نيجريا الجنوبية ليؤثر بصفة خاصة تأثيرا اجتماعيا . ويمنح الإسلام هؤلاء الذين يتصلون به منزلة أرقى وفكرة أسمى عن مكانة الإنسان من العالم المحيط به ويحرره من ربق ألف من الأوهام الخرافية »[1] .

وقد ورد فى الروايات الإسلامية أن موسى كان رجلا أسود ، كما قد نتبين ذلك من الآيات القرآنية . « واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى ! » (سورة ٢٠ : آية ٢٣) « ونزع يده ، فإذا هى بيضاء للناظرين . قال الملأ من قوم فرعون : إن هـذا لساحر عليم » (سورة ٧ : آية ١٠٥ - ١٠٦). والقصة الآتية التى وصلت الينا عن العصر الذهبى للدولة العباسية ، مهمة باعتبارها شاهدا على شعور المسلمين نحو السود . كان إبراهيم بن المهدىّ أخو هارون الرشيد وابن إحدى الجوارى ، قد نصب نفسه خليفة فى بغداد ، ولكن المأمون الذى كان يحكم إذ ذاك (٨١٩م) هزمه وعفا عنه . ويقص إبراهيم قصة مقابلته مع الخليفة على النحو الآتى : — « قال لى المأمون وقد دخلت عليه بعد العفو عنى : أنت الخليفة الأسود ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ! أنا الذى مننت عليه بالعفو ؛ وقد قال عبد بنى الحسحاس : —

أشعار عبد بنى الحسحاس قمن له ... عند الفخار مقام الأصل والورِق
إن كنت عبدا فنفسى حرة كرما ... أو أسود الخلق إنى أبيض الخُلق

فقال لى : « ياعم ! أخرجك الهزل إلى الجد » . وأنشد :

---

(١) E. D. Morel : Nigeria, its people and its problems. pp. 216-17. (London, 1911.)

ليس يزرى السواد بالرجل الشهم ‏ ولا بالفتى الأديب الأريب
إن يكن للسواد فيك نصيب ‏ فبياض الأخلاق منك نصيبي (١)

وعلى هذا النحو ، سرعان ما يصبح الأسود المتحول إلى الإسلام مع المؤمنين على قدم المساواة ، ولا يحول دون ذلك لونه أو جنسه أو أية ملابسة من ملابسات الماضي . ولا شك أن ما كان يلقاه السود الوثنيون من ترحيب المسلمين بدخولهم فى الإسلام ، هو الذى كان يرغبهم فى الانضمام إلى مجتمع دينى تتطلب حضارته التى تفوق حضارتهم أن يؤثروا التخلى عن كثير من عاداتهم وطباعهم البربرية ؛ ومما يساعد فى نفس الوقت مساعدة كبيرة جدا على تفسير نجاح هذا الدين ، أن مجرد الدخول فى الإسلام يدل ضمنا على الترقى فى الحضارة ، وأنه خطوة جد متميزة فى تقدم القبيلة الزنجية عقليا وخلقيا وماديا . وكانت القوى المحشودة جنبا إلى جنب مع العقيدة الإسلامية ، تبلغ من القوة والبأس إلى حد أن البربرية والجهل والخرافة الدينية ، تلك الأمور التى كان الدين يجد فى القضاء عليها ، لا تجد إلا فرصة يسيرة فى إطالة المقاومة . وقد اتضح ما تقدمه حضارة إفريقية الإسلامية إلى الزنجى الذى تحول إلى الإسلام ، وضوحا يبعث على الإعجاب فى العبارات الآتية : «إن أقبح الرذائل — وهى أكل لحوم البشر ، وتقديم الإنسان قربانا ، ووأد الأطفال أحياء — تلك الرذائل التى نجد ما يبرر الاعتقاد بأنها كانت فى وقت ما منتشرة فى كل إفريقية ، ولا تزال فى بقاع كثيرة منها ، حتى تلك الجهات التى لا تبعد عن ساحل الذهب وعن مواطننا ، — قد اختفت فجأة وإلى الأبد . والمساكنون الذين كانوا يعيشون حتى ذلك الوقت عراة أو أشباه عراة بدءوا يرتدون الملابس بل يتأنقون فى ملابسهم ؛ والمساكنون الذين لم يغتسلوا قط من قبل ، بدءوا يغتسلون ، بل يكثرون من الاغتسال ؛ لأن الشريعة المقدسة تأمر بالطهارة ، وهو فرض لا ينطوى على تأثير قوى جدا فى غرائزهم التى جبلوا عليها . ويميل النظام القبلى إلى فسح المجال لأساس أوسع نطاقا ، وبعبارة أخرى إلى اندماج القبائل بعضها فى بعض لتصير أمما ، وبازدياد النشاط والمعرفة تصير الأمم إمبراطوريات . ونستطيع أن نورد كثيرا من أمثال هذه الحالات من تاريخ السودان والبلاد المتاخمة له فى خلال مئة السنة الأخيرة . ومتى أثيرت الروح الحربية على هذا النحو ، فإن المراكز التى تنبعث منها نار الحرب تصبح أقل عددا وأكثر انعزالا منها قبل . وفى هذه الحالة تكون الحرب أحسن تنظيما كما تكون متأثرة بصورة من صور التقييد ؛ وهم لا يثيرون القتال دون سبب من الأسباب . وقلّ السلب المطلق الذى لا يقوم على تفرقة بين من يسلبونهم ، كما أصبح تأمين الناس على أملاكهم وأرواحهم أكثر من ذى قبل . وتنشأ مدارس أولية (٢) كتلك المدارس

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٨ .

(٢) ,, إن أول دروس الأطفال فى القراءة عبارة عن مختارات من القرآن ، أما التفاسير وغيرها من الكتب التى ألفت حول القرآن ، فإنها تتقدى الدراسات المتقدمة بموضوعات رئيسة . وقد أنشئت منذ قرون مدارس ، من مختلف الدرجات ، فى بلاد داخلية مختلفة يمكنها الزنوج ، تحت سلطة القانون ؛ وفيها يتعلم الناس حتى الفقراء الذين يتعلمون على نفقة الخزانة العامة ، ويشهد فيها الأكفاء بدراسات طويلة من تعليم منظم ، سنوات كثيرة . وليس نظام الدراسة فيها مقصورا دائما على اللغة العربية أو على مؤلفات كتاب =

التي وصفها مونجو بارك Mungo Park منذ قرن مضى . حتى لو أن هذه المدارس اقتصرت على تعليم تلاميذها تلاوة القرآن ، لكانت ذات قيمة في نفسها ، وقد تـكون خطوة في سبيل ما هو أعظم منها بكثير . وقد أصبح المسجد الجيد البناء النظيف ، بما فيه من أذان للصلاة خمس مرات في اليوم ، وقبلة تتجه إلى مكة وإمام وصلاة جمعة ، مركزا للقرية بدلا من دار عبادة الفتش أو اليويو Juju ذات المنظر البشع . وقد طغت عبادة الله الواحد القهار ، الكائن في كل مكان ، العليم ، الرحيم ، على كل ما لقن الأهالي عبادته من قبـل ، طغيانا لا حد له . وبلغت اللغة العربية ، وهي اللغة التي تـكتب بها دائما الـكتب الدينية الإسلامية ، حدا يفوق كل وصف من الغنى والجمال . وإذا ما تعلموا هذه اللغة ، أصبحت لغة التخاطب بين قبائل نصف القارة . وتستخدم كمقدمة لدراسة الأدب ، بل هي أدب في ذاتها . وهي إلى ذلك لغة شريعة وقانون مكتوبة حلت محل نزوات شيخ القبيلة الاستبدادية — وهذا تغير يعتبر في ذاته تقدما هائلا في الحضارة . وظهرت صناعات وتجارة ، لا كالتجارة الصامتة التي تقوم الإشارات فيها مقام اللغة في التفاهم ، ولا كالمبادلة البدائية في الخامات ، تلك المبادلة التي نعرف من هيرودوت أنها وجدت في إفريقية من أقدم العصور ، ولا كالمقايضة بالودع ، أو البارود أو الطباق أو الروم (§) ، تلك المقايضة التي لا تزال تستخدم على طول الساحل وسيلة أساسية في التبادل ، ولـكنها صناعات تنطوي على مهارة فائقة ، وتجارة منظمة نظاما محكما . وظهرت هـذه المدن الـكبيرة في أرض الزنوج بتأثير هذه الصناعة والتجارة وتأثير الحـكومات الأكثر استقرارا التي جاء بها الإسلام ، وهي مدن نجد أن الرحالين الأوربيين حين وصفوها أول الأمر لم يستطيعوا إلا أن يهملوا مجرد وجودها . وإني لبعيد عن القول بأن الدين هو العلة الوحيدة في هذا النجاح النسبي . وإنما أقول إنه ملائم لهذا النجاح ودافع إليه . وقد ساعدت الأحوال الجوية والمؤثرات الأخرى المختلفة على الوصول إلى هذه النتيجة ، ولـكن ما الذي يحمل إفريقية الوثنية ، حيث توجد الظروف التي تتشابه كثيرا مع تلك ، على أن تقارن بين حالتها وبين هذا النجاح ؟ أما فيما يتعلق بالفرد ، فمن المسلم به من كل الوجوه أن الإسلام يعد

= العرب ، وقد نُسِّقَ عدد من اللغات القومية للكتابة ، فترجمت كتب من العربية ، وألفت كتب بتلك اللغات القومية ، وكذلك فتحت مدارس تعلم فيها اللغات القومية ».

Condition and Character of Negroes in Africa. By Theodore Dwight. (Methodist Quarterly Review, January 1869.)

ويذكر الدكتور بليدن Blyden (pp. 206-7) الكتب الآتية على أنها كتب يقرؤها المسلمون في إفريقية الغربية : مقامات الحريري ، وترجمات من أرسطو وأفلاطون إلى العربية ، وترجمة عربية من أبقراط ، والترجمة العربية للعهد الجديد والمزامير التي تنشرها جمعية الكتاب المقدس الأمريكية ، وللوقوف على كتب المسلمين في إفريقية الشرقية أنظر :

Becker ; Islam in Deutsch Ostafrika, p. 18 sqq.

(§) نوع من الخمر

السود الذين تحولوا إليه حديثا بالنشاط والعزة والاعتماد على النفس واحترام الذات . وهذه كلها صفات يندر جدا أن تجدها فى مواطنيهم الوثنيين أو المسيحيين »[١] .

وقد كتبنا هذه العبارات السابقة التى اقتبسناها قبل تقسيم الجزء الأكبر من إفريقية بين حكومات أوربا المسيحية ـ انجلترا وفرنسا وألمانيا ـ ولكن طابع الحضارة الإسلامية الغالب لم ينقطع عن التأثير فى العقلية الزنجية أو عن العمل باعتباره أحد المؤثرات التى تساعد على تحويل عبدة الفتش الإفريقيين إلى الإسلام . ولما مست هؤلاء الثقافة الأوربية فجأة ، مضوا قدما فى طريق الحضارة ، ولكنهم ، وقد عجزوا عن أن يقيموا جسرا على البرزخ الذى يفصلهم عن حكامهم الأجانب ، وجدوا فى الإسلام ثقافة ملائمة لحاجاتهم وجديرة بتكييف مطالبهم ومطامحهم[٢]؛ ولذلك، كان بعيدا كل البعد على انتشار السيادة الأوربية أن تعوق نشاط الدعاة المسلمين ، بل إن انتشار هذه السيادة قد ساعد إلى حد كبير على تقدم الإسلام . وقد ساعد دخول السلام فى بلاد نهكتها من قبل حروب مهلكة أو غارات جلاب الرقيق ، ثم قيام أساليب الحكم والإدارة المنظمة والزيادة فى تيسير المواصلات بإنشاء الطرق ومد السكك الحديدية ـ ساعد كل ذلك على ترويج التجارة ، ومكن التجار والدعاة المسلمين النشيطين من أن يبسطوا تأثيرهم فى مناطق لم تطأها الأقدام من قبل ، وأن يجولوا فى الأراضى المألوفة وهم أكثر أمنا وطمأنينة . زد على ذلك أن منع تجارة الرقيق أزال عقبة من العقبات الكبيرة فى سبيل انتشار الإسلام فى إفريقية الوثنية ، لأنه كان من مصلحة العرب وغيرهم من تجار الرقيق المسلمين ألا يضيقوا مجال أعمالهم بالتآخى فى الإسلام مع ضحاياهم الميسور صيدهم[٣] . والآن يكتسب المسلمون متحولين إلى الإسلام من القبائل الوثنية التى لم يمسها نشاط الدعوة أيام تجارة الرقيق . وقد ساعدت الحكومات الأوربية على الوصول إلى هذه النتيجة بتوظيف المسلمين فى الوظائف الثانوية فى الإدارة المدنية (حيث لم يكن هناك أشخاص متعلمون إلا بين المسلمين) ، وبتوظيف مسلمين فى مدارس الحكومة ، وبجمع جيوشها من بين القبائل الإسلامية ؛ وعلى هذا النحو زادوا من شهرة الإسلام فى نظر الإفريقيين الوثنيين ـ وهى فرصة لم يتوان المسلمون عن استغلالها لمصلحة عقيدتهم[٤] .

---

(١) Mohammedanism in Africa, by R. Bosworth Smith. (The Nineteenth Century, December 1887, pp. 798-800.)

(٢) Le Chatelier, (3). p. 348.

(٣) Forget, p. 95. Merensky, p. 156.
« كانت المنفعة التى تعود على المسلمين من استغلال سكان البلاد أكثر من تلك التى كانت تعود عليهم من نشر العقيدة بينهم . فلو أنهم أدخلوا شعوب إفريقية فى الاسلام عن طريق الأساليب الروحية ، لأصبحوا إخوانهم فى الدين ، ولساووا معهم فى الحقوق ، ولحرمت عليهم سرقتهم واستعبادهم ، أو تسخيرهم فى أعمال العبيد » .

(٤) Westermann, p. 643. L. de Contenson, p. 244. Kumm, p. 122.

وليس فى القول بأن الإسلام إنما يتقدم بقوة السلاح [1] إلا قليل جدا من الحقيقة ؛ بل الأمر على العكس ، إذ أن تقسيم إفريقية بين السلطات الأوربية ، التى انتزعت السيف من أيدى الرؤساء المسلمين الذين كانوا حينذاك تحت حكمهم ، قد أوجد دعاية يبدو من المحتمل أن تنجح حيث أخفقت قرون من السيادة الإسلامية .

(١) وعلى ذلك ، يقول مرنسكى ، حين يناقش إخفاق الاسلام فى السيطرة على جميع إفريقية بعد مضى قرون من الاحتلال : ،، نرى أن السبب الرئيسى لهذه الظاهرة الغريبة فى العلاقات ، هو أن قوة الاسلام الظاهرية عند المسلمين ، تساير انتشار الاسلام ، ويقف أحدهما إلى جانب الآخر ، كما أنهما متداخلان ، يتمشيان معا نموهما وانحطاطا ،، . (p. 156.) .

الباب الثاني عشر

انتشار الاســـلام فى أرخبيل الملايو

يمدنا تاريخ أرخبيل الملايو فى خلال الأعوام الستمائة الأخيرة بفصل من أهم الفصول فى قصة انتشار الإسلام ، بفضل مابذله الدعاة من جهود . ففى غضون هذه الفترة كلها ، نجد شواهد تدلنا على نشاط متصل قام به الدعاة المسلمون فى جزر الهند الشرقية ، أو فى بعضها على الأقل . وفى بدء الدعوة ، لم يكن بد من أن ينفذ الدعاة أعمالهم ، فى كل لون من ألوان هذه الدعوة ، دون مساعدة أو معاضدة من جانب حكام البلاد : وإنما نفذت بقوة الإقناع وحدها ، وصادفهم فى سبيل ذلك معارضة شديدة فى كثير من الأحيان ، ولا سيما من جانب الأسبان ولكن الدعاة والوا جهودهم بنشاط لايعرف الملل ، برغم كل الصعاب ، وبألوان من النجاح متباينة ، وأنجزوا أعمالهم (وخاصة فى الوقت الحاضر) أينما كانت هذه الأعمال جزئية أو ناقصة .

ومن المحال أن نعرف على وجه التحقيق التاريخ الدقيق لأول دخول الإسلام فى أرخبيل الملايو . وربما حمله إلى هناك تجار العرب فى القرون الأولى للهجرة ، وذلك قبل أن تصل إلينا أية معلومات تاريخية عن حدوث أمثال هذه المؤثرات فى تلك البلاد بزمن طويل . ومما جعل هذا الغرض أكثر احتمالا ، ما نعرفه من أن العرب زاولوا مع بلاد الشرق تجارة واسعة النطاق منذ عصور مبكرة جدا . ففى القرن الثانى للهجرة ، كانت تجارتهم مع سيلان كلها فى أيديهم . وفى مستهل القرن السابع الميلادى ، لقيت تجارتهم مع الصين ، عن طريق سيلان ، رواجا عظيما ، حتى لقد وجدنا تجار العرب ، فى أواسط القرن الثامن يقيمون فى كانتون فى جموع غفيرة . وفى الفترة التى بين القرنين العاشر والخامس عشر ، حتى قدوم البرتغاليين ، كان العرب سادة التجارة مع الشرق دون منازع (١) . لذلك نستطيع أن نزعم فى شىء من التأكيد المقبول ، أنهم لا بد أن يكونوا قد أسسوا مستعمراتهم التجارية فى بعض جزائر أرخبيل الملايو ، كما فعلوا ذلك فى الأماكن الأخرى فى عصر مبكر جدا . ومع أننا لانجد ذكرا لهذه الجزائر فى مؤلفات جغرافيى العرب قبل القرن التاسع (٢)، نجد فى حوادث سنة ٦٨٤ م فى الأخبار الصينية المدونة حسب السنين ، خبرا عن زعيم عربى ، يظن من التعليقات المتأخرة أنه كان زعيم مستعمرة عربية على ساحل سومطرة الغربى (٣).

---

(١) Niemann, p. 337.

(٢) Reinaud : Géographie d'Aboulféda, tome i. p. cccxxxix.

(٣) Groeneveldt, pp. 14, 15.

على أن الدعاة لابد أن يكونوا قد وفدوا كذلك على أرخبيل الملايو من جنوب الهند ، نستدل على ذلك من بعض خصائص معينة وجدت فى العقيدة الإسلامية التى اعتقدها سكان هذه الجزائر . ويتبع السواد الأعظم من مسلمى الأرخبيل المذهب الشافعى ، الذى يسيطر فى الوقت الحاضر على سواحل كوروماندل ومليبار ، كما كانت الحال كذلك حول منتصف القرن الرابع عشر ، عندما زار ابن بطوطة هذه البقاع(١). فإذا قدرنا أن المسلمين فى البلاد المجاورة ينتمون إلى المذهب الحنفى ، استطعنا أن نفسر ذيوع تعاليم المذهب الشافعى بشىء واحد ، هو الزعم بأن هـذه التعاليم قد جُلبت إلى هناك من ساحل مليبار الذى كان التجار الآتون من جاوة يترددون على موانيه ، كما كان يتردد عليها التجار القادمون من الصين واليمن وفارس (٢) . كذلك لا بد أن يكون التشيع قد جاء إلى هناك من الهند أيضا ، أو من فارس ، ولا تزال آثاره قائمة فى جاوة وسومطرة . ونعلم مما ذكره ابن بطوطه أن سلطان سَمُـدرة(†) المسلم قد دخل فى صلات ودية مع بلاط دهلى ؛ وكان من بين علماء الفقه الذين خصهم هـــذا السلطان المتدين بالرعاية قاض من شيراز وآخر من أصبهان (٣) . ولـكن قبل هذا الوقت بزمن طويل ، كان التجار المقيمون فى الدكن ، الذين قامت الحركة التجارية على أيديهم بين الدول الإسلامية فى الهند وأرخبيل الملايو ، قد استقروا فى جماعات كبيرة فى الموانىء التجارية الواقعة فى هذه الجزائر ، حيث ألقوا بذور الدين الجديد(٤).

ويرجع الفضل فى وجود الأهالى المسلمين ، الذين وجدنا ذكرهم فى الأخبار التاريخية الأولى التى تشير إلى الإسلام فى هذه الجهات ، إلى تلك الجهود التى بذلها تجار العرب والهنود فى نشر تعاليم الدعوة . فإنهم بعد أن استقروا فى مراكز التجارة ، تصاهروا إلى سكان البلاد ، ومن ثم كوّن أولائك النسوة الوثنيات وعبيد أسراتهن نواة الجماعة الإسلامية التى لم يأل أفرادها جهدا فى زيادة عـــددهم . ويمدنا الوصف التالى للوسائل التى اتخذها الدعاة من هؤلاء التجار فى جزائر الفيليبين ، بصورة لما كان قد صنعه من غير شك ، تجار المسلمين فى الأجيال الكثيرة السابقة : « كان أقوم السبل لإدخال دين المسلمين إلى هـذه البلاد ، أن اتخذوا لغة القوم وكثيرا من عادات الأهالى ، وتزوجوا من نسائهم ، واشتروا عبيدا ليرفعوا من قيمتهم الشخصية ، ونجحوا آخر الأمر فى أن يدخلوا أنفسهم فى زمرة الزعماء الذين يتبوءون أرفع مكانة فى الدولة . وعملوا يدا واحدة على نحو أكثر حذقا وتناسقا مما كان يصنعه الأهالى ، فزادوا من قوتهم شيئا فشيئا . ولما كانوا يمتلكون عددا من العبيد ، ألفوا فيما بينهم نوعا من الحلف ، وأسسوا ضربا من الحكومات الملكية جعلوها وراثية فى أسرة واحدة . ومع أن مثل هذا الحلف قد أمدهم بقوة عظيمة ، أحسوا الحاجة إلى التراضى على شروط ود مع الطبقة الأرستقراطية القديمة ، كما أحسوا الحاجة إلى أخذ ضمان لحريتهم من هذه الطبقات التى لم

(١) ابن بطوطة جـ ٤ ص ٦٦ ، ٨٠ .

(٢) Veth (3), vol. p. 231. ابن بطوطة جـ ٤ ص ٨٩ .

(†) اسم مدينة سومطرة القديم ، ويقال إنه سنسكريتى الأصل معناه البحر .

(٣) ابن بطوطة جـ ٤ ص ٢٣٠ ، ٢٣٤ .

(٤) Snouck Hurgronje (1), pp. 8-9.

يكن فى وسعهم أن يستغنوا عن تأييدها[1]. ولا بد أن يكون المسلمون الذين استوطنوا أرخبيل الملايو ، على اختلافهم ، قد وضعوا بطريقة تشبه تلك التى تحدثنا عنها ، أساسا سياسيا واجتماعيا ثابتا لجهودهم فى سبيل نشر تعاليم الدعوة . إنهم لم يفدوا على هذه البلاد غزاة ، كما فعل الأسبان فى القرن السادس عشر ، ولم يستخدموا السيف أداة لتحويل الناس إلى الإسلام ، بل لم يدّعوا لأنفسهم حقوق جنس أسمى يتمتع بالغلبة والسيادة ، لكى يحطوا بذلك شأن السكان الأصليين ويسلبوا حقوقهم ، بل قدموا فى زى التجار ، واستخدموا كل ما لديهم من ذكاء أسمى ، ومدنية أزهر فى سبيل دينهم ، أكثر من أن يكونوا قد استخدموا ذلك وسيلة لتوسيع نفوذهم الشخصى أو لتنمية ثرواتهم [2] . أما وقد قررنا بصفة عامة الوسائل الثانوية التى اتخذوها فى نشر الدعوة ، فلنتتبع بالتفصيل جهودهم فى نشر تعاليم هذه الدعوة فى الجزائر المختلفة .

تصور لنا الروايات أن الإسلام دخل إلى سومطرة من بلاد العرب . على أنه ليس هناك أساس تاريخى صحيح لمثل هذا الاعتقاد ، ويظهر أن الشواهد كلها تشير إلى أن الهند هى المنبع الذى استقى منه أهالى سومطرة معرفتهم بالعقيدة الجديدة . كانت العلاقات التجارية الفعالة ، قد قامت منذ قرون بين الهند وأرخبيل الملايو ، ولا يبعد أن يكون أول دعاة فى سومطرة تجارا من الهنود[3] . على أنه ليس لدينا أخبار تاريخية عن أعمالهم ، وتنسب أخبار الملايو شرف أول دعوة فى مدينة أتجيه Atjeh ، شمال غربى سومطرة ، إلى عربى يدعى عبد الله عارف ، قيل إنه زار الجزيرة حول منتصف القرن الثانى عشر ؛ وقيل إن أحد تلاميذه ، برهان الدين ، حمل معرفة العقيدة إلى الساحل الغربى حتى بريامان Priaman [4] . ولما كان هذا الخبر غير موثوق بصحته ، فإنه مع ذلك قد يوضح وجود بعض نشاط فى نشر تعاليم الدعوة حول هذه الفترة . ذلك أن أخبار مؤرخى الملايو الخاصة بأتجيه تجعل سنة ١٢٠٥ تاريخا لاعتلاء جيهان شاه العرش ، وهو الذى تزعم الروايات أنه مؤسس الأسرة الإسلامية . وقد قيل إنه كان أجنبيا ، من الغرب [5] ، وإنه قدم إلى هذه السواحل ليدعو إلى عقيدة النبى ﷺ . وقد أدخل كثيرين فى هذا الدين ، وتزوج امرأة من أهالى هذه البلاد ، فرحبوا به ملكا عليهم وتلقب بلقب سرى پَدُوكا سلطان ، وهو لفظ خليط من السنسكريتية والعربية . والراجح أن العقيدة الجديدة ظلت وقتا ما مقصورة على المواني.

---

(١) Padre Gainza, quoted by C. Semper, p. 67.

(٢) Crawfurd (2), vol. ii. p. 265.

(٣) Snouck Hurgronje : L'Arabie et les Indes Néerlandaises. (Revue de l'Histoire des Religions, vol. lvii. p. 69 sqq.)

(٤) De Hollander, vol. i. p. 581. Veth (1), p. 60.

(٥) قد تنطبق هذه الاشارة الغامضة إما على بلاد العرب وفارس وإما على الهند ، ولكن إذا كانت شخصية جيهان شاه هذه حقيقية ، فلا يبعد أن يكون قد قدم من كوروماندل أو ساحل المليبار . (Chronique du Royaume d'Atcheh, traduite du Malay par Ed. Dulaurier, p. 7.)

التى اتصل بها تجار المسلمين ، وأن تقدم هذه العقيدة فى داخل البلاد كان أكثر بطئا ، فهنا لم يكن بد من أن تصطدم العقيدة بالمؤثرات الهندوكية القوية التى اتخذت لها مركزا فى مملكة منانجكباو .

ويتحدث ماركو پولو ، الذى قضى خمسة أشهر على ساحل سومطرة الشمالى فى ١٢٩٢ م ، عن جميع السكان باعتبارهم عبدة أوثان ، اللهم إلا فى مملكة پرلاك الصغيرة على الزاوية الشمالية الشرقية من الجزيرة ، حيث كان سكان المدن وحدهم مسلمين كذلك ، لأن « تجار العرب ، كما ينبغى أن تعلم ، قد بلغ من كثرة ترددهم على هذه المملكة ، أنهم أدخلوا الأهالى فى شريعة محمد » ، أما سكان المرتفعات فكلهم وثنيون أو متوحشون يأكلون لحوم البشر[1] . أضف إلى ذلك أن أحد أخبار الملايو التاريخية يقول إن أول من ضرب المثل فى اعتقاد الإسلام ثم حذا رعاياه حذوه ، هو السلطان على مغايت شاه ، وكان قد حكم أتجيه من سنة ١٥٠٧ إلى ١٥٢٢[2] . ولكن لا يبعد أن يكون شرف أول حاكم مسلم للدولة قد نُسب إلى هذا السلطان لاعتباره مجدا يضاف إلى الحاكم الذى أسس عظمة أتجيه ، وأخذ فى بسط نفوذه على البلاد المجاورة . كما لا يبعد أن يكون الأصوب أنه أحدث أثرا فى إنعاش حياة رعاياه الدينية ، أو أنه بث روحا جديدة فى هذه الحياة ، لا أن يكون قد أمدهم بأول معرفة بعقيدة النبى . فقد رسخت قدم الإسلام فى سومطرة قبل ذلك الوقت بزمن طويل . وتخبرنا الروايات التى تتحدث عن مدينة سمدرة ، أن شريف مكة أرسل بعثة لتحويل شعب سومطرة إلى الإسلام . وكان قائد الجماعة رجلا يدعى الشيخ إسماعيل . وكان أول ما وصلوا إليه من الأمكنة فى هذه الجزيرة ، بعد أن تركوا مليبار ، بلدة پاسورى Pasuri (وربما كانت على مسافة قليلة من جنوب الساحل الغربى) ، وبفضل دعوتهم اقتنع شعب هذه البلدة باعتقاد الإسلام . ثم تقدموا شمالا حتى لمبرى Lambri ، ثم أخذوا يساحلون الجزيرة حتى وصلوا إلى الجانب الآخر منها ، وأبحروا من هناك حتى وصلوا إلى آرو Aru على الساحل الشرقى من جهة الجنوب ، وهى تقابل ملقا تقريبا . وفى كلتا هاتين البقعتين ، تكللت جهودهم بنجاح كذلك . وفى آرو ، تحروا الطريق إلى سمدرة ، وهى مدينة على الساحل الشمالى من الجزيرة ، ويظهر أنها خاصة كانت هدفا لدعوتهم ، فوجدوا أنهم قد تجاوزوها . ومن أجل ذلك قفلوا راجعين إلى پرلاك Parlak ، حيث كان ماركو پولو قد وجد جماعة من المسلمين قبل ذلك بأعوام قليلة ؛ وبعد أن ظفروا بمسلمين جدد فى هذه البقعة كذلك ، استأنفوا رحلتهم إلى سمُدرة . وكانت هذه المدينة ، والمملكة التى تسمت باسمها ، قد تأسست أخيرا على يد شخص يدعى مراسيلو Mara Silu . وقد أقنعه الشيخ إسماعيل باعتقاد الإسلام فاتخذ لنفسه اسم الملك الصالح ، وتزوج من ابنة ملك پرلاك فأنجب منها ولدين ، ولكى يترك لكل منهما ولاية بعد وفاته ، أسس هذه المدينة الإسلامية ومملكة پاسى Pasei ، وهى كذلك على الساحل الشمالى[3] .

---

(١) Marco Polo, vol. ii. p. 284.

(٢) Veth (1), p. 61.

(٣) Yule's Marco Polo, vol. ii. pp. 294, 303.

ولا يبعد أن يكون الملك الظاهر الذى وجده ابن بطوطة حاكما فى سمدرة عند ما زار هذه الجزيرة فى سنة ١٣٤٥ ، أكبر هذين الولدين . وقد أظهر هذا الملك أعظم ما تتجلى به المملكة الإسلامية من أبهة ، وامتدت بلاده مسيرة أيام كثيرة على طول الساحل . كان مسلما من أهل السنة ، غيورا على دينه ، مولعا بعقد المناظرات مع الفقهاء وعلماء الدين . وكان بلاطه مقصد الشعراء ورجال العلم . ويذكر لنا ابن بطوطة اسمى قاضيين ، كانا قد أتيا إليه من فارس ، كما يذكر اسم أمير كان قد ورد رسولا على السلطان فى دهلى . وهذا يدلنا على أن سومطرة كانت من قبل على اتصال بكثير من أرجاء العالم الإسلامى . كذلك كان الملك الظاهر قائدا عظيما ، وقد أعلن الحرب على الوثنيين الذين يقيمون فى البلاد المجاورة حتى أذعنوا لحكمه ، وأدوا له الجزية(١) .

وكان الإسلام من غير شك قد أحرز فى ذلك العهد تقدما عظيما فى سومطرة ، وبعد أن توطدت دعائمه على طول الساحل ، أخذ يشق طريقه الى المناطق الداخلية . وكانت دعوة الشيخ إسماعيل وجماعته قد آتت ثمارا وافرة ؛ فقد تحدث رحالة صينى ، زار هذه الجزيرة فى سنة ١٤١٣ ، عن بلدة لامبرى ، فقال إن عدد الأسرات التى كانت تقيم فيها ألف أسرة ، كلهم مسلمون ، و « على جانب عظيم من كرم الأخلاق » ، وكان ملك آرو وشعب مملكته يعتقدون جميعا هذا الدين نفسه (٢) . وقد حدث ، إما فى نهاية هذا القرن نفسه أو فى القرن الخامس عشر ، أن وجد دين النبى أشياعا من مملكة منانجكباو العظيمة ، التى امتدت أراضيها يوما ما من الساحل إلى الساحل ، وعلى جزء عظيم من الجزيرة يقع شمالى خط الاستواء وجنوبيه(٣) . وعلى الرغم من أن قوتها كانت لذلك العهد قد انحلت إلى حد بعيد ، ظلت تضع عقبات كبيرة ، باعتبارها معقلا قديما من معاقل الهندوكية ، فى سبيل تقدم الدين الجديد . ومع هذه الحقيقة ، كان تأصل الإسلام فى نفوس رعايا هذه المملكة آخر الأمر أقوى منه فى نفوس السواد الأعظم من سكان المنطقة الداخلية من هذه الجزيرة(٤) . ومن الواضح البين ، أن هؤلاء ، وهم أوسط شعوب الجزيرة مركزا ، لم يكن بد من أن يكونوا بأسرهم أسرع دخولا فى الإسلام من سكان كثير من سائر المقاطعات التى كانت أشد اتصالا بالمؤثرات الأجنبية . ولا يزال السواد الأعظم من سكان بلاد البتك Batak ، إلى اليوم ، على الوثنية ، بيد أن الإسلام قد ظفر ببعض آثار فيهم ، مثال ذلك فريق يعيشون على حدود أتجيه ، دخلوا فى الإسلام على يد جيرانهم المسلمين(٥) ، وفريق آخر يسكنون فى جبال إقليم راو Rau على خط الاستواء ، تحولوا مثلهم

(١) ابن بطوطة ج ٤ ص ٢٣٠ — ٢٣٦ .

(٢) Groeneveldt, p. 94.

(٣) وفى أوج قوتها ، امتدت من ٢° شمالا إلى ٢° جنوبا على الساحل الغربى ، ومن ١° شمالا إلى ٢° جنوبا على الساحل الشرقى ، ولكنها فى القرن السادس عشر ، فقدت سيطرتها على الساحل الشرقى . (De Hollander, vol, i. p. 3.)

(٤) Marsden, p. 343.

(٥) J. H. Moor. (Appendix, p. 1.)

إلى الإسلام[١] . كذلك عرفت حالات من إسلام البتك على الساحل الشرقى ، وكانوا على اتصال وثيق بسكان الملايو[٢] .

ولم تجد الجهود النشيطة التى بذلتها أسرة بدرى Padris المتعصبة(ص٣١٢) لفرض الإسلام على البتك بحد السيف ، فخربوا بلادهم وقتلوا كثيرا منهم . ولكن هذه الوسائل العنيفة لم تجذب أحدا إلى الإسلام . على أنه ، عند ما أخذت الحكومة الهولندية حركة البدرى وضمت إلى أملاكها الجزء الجنوبى من بلاد البتك ، أخذ الإسلام ينتشر بالوسائل السلمية ، وخاصة عن طريق الجهود الحماسية التى بذلها الموظفون المرءوسون من الأهالى الذين جاء بهم النظام الجديد والذين كانوا جميعا من سكان الملايو المسلمين[٣] ، وكذلك عن طريق نفوذ التجار الذين طوفوا فى البلاد ، والذين حذا حذوهم فى نشر الدعوة جماعة (الحاجى) وغيرهم من علماء الدين المعروفين . ومن الحقائق الواضحة ، أن البتك الذين كانوا قد أبدوا معارضة عنيدة فى دخول الإسلام بينهم قرونا عديدة ، مع أنهم كانوا يحاطون بمجموعتين من السكان المسلمين المتعصبين ، وهما الأتشينيون فى الشمال وأهل الملايو فى الجنوب ، قد استجابوا فى السنين الأخيرة للجهود السلمية التى بذلت لإدخالهم فى الإسلام ، وأظهروا حماسة فى هذه السبيل . ويظهر أن من الممكن إيجاد تفسير لذلك ، فيما اعترى صفاتهم القومية الحاجزة المنيعة ، من ضعف ووهن ، بسبب الاحتلال الهولندى ، والغزو الذى عرض بلادهم للمؤثرات الأجنبية التى دلت على بداية عصر جديد فى تطورهم الثقافى ، كما نجد تفسير ذلك أيضا فى تلك الخطوات السديدة التى تقدم بها أئمة هذا الدين الجديد ، الذين عرفوا كيف يلائمون بين تعاليمهم وعقائد البتك الراهنة ، وتقاليدهم المتأصلة فى نفوسهم[٤] . ويظهر أن تأسيس الإرساليات المسيحية بين البتك فى سنة ١٨٩٧ قد زود الدعوة الإسلامية فى هذه البـــلاد بباعث لا يستهان به ، بل يظهر أن هذه الإرساليات قد مهدت السبيل لنجاح تلك الدعوة . فقد قيل أن قريتين من قرى البتك ، وكان جميع أهليهما قد تنصروا ، انتقلتا جمعا واحدا إلى الإسلام ، بعد تنصرهما بزمن قصير[٥].

---

(١) Marsden, p. 355.

(٢) Godsdienstige verschijnselen en toestanden in Oost-Indië. (Uit de Koloniale Verslagen van 1886 en 1887.) Med. Ned. Zendelinggen, vol. xxxii. pp. 175—6. (1888.)

وفى سنة ١٩٠٩ ، كان المجموع الكلى للبتك ٥٠٠،٠٠٠ شخص ، منهم ٣٠٠،٠٠٠ كانوا لا يزالون على الوثنية ، على حين كان ١٢٥ ألف مسلمين و ٨٠ ألف مسيحيين . (R. du M.M., vol. viii, p. 183.)

(٣) J. Warneck : Die Religion der Batak, p. 122 (Leipzig 1909.)

(٤) G. R. Simon ; Die Propaganda des Halbmondes. Ein Beitrag zur Skizzierung des Islam unter den Batakken, pp. 425, 429—30. (Allgemeine Missions-Zeitschrift, vol. xxvii. 1900.)

(٥) R. du M.M., vol. viii. (1909), p. 183.

ولا يزال فى سومطرة الوسطى ، عدد كبير من الأهالى الوثنيين ، على الرغم من أن السواد الأعظم من السكان مسلمون. ولكن هؤلاء على جانب عظيم من الجهل بديانتهم ، اللهم إلا إذا استثنينا عددا قليلا من جماعة الحاجى والمعلمين الدينيين : بل إننا نجد بين شعب كورنتجى ، وهم فى معظمهم يشايعون الإسلام ويتحمسون له ، بعض الطوائف من الأهالى لا يزالون يعبدون آلهة أجدادهم الوثنيين [١] . على أن الجهود تبذل فى سبيل نهضة دينية ، كما أن دعاة المسلمين يقومون بغزوات جديدة بين الوثنيين ولا سيما على طول الساحل الغربى [٢]. وفى مقاطعة سيبيروك Sipirok أدخل معلم دينى . وكان قد لزم المسجد فى المدينة التى كانت تحمل اسم هذه المقاطعة مدة ربع قرن ، جميع أهالى هذه المقاطعة فى الإسلام ، اللهم إلا المسيحيين الذين كانوا يعيشون هناك . وكانوا فى الغالب من سلالة الأهالى الذين كانوا عبيدا من قبل [٣]. وقد أفلحت حركة حديثة لنشر الدعوة ، قامت فى العقد الأول من القرن العشرين ، فى اجتذاب كثير من مسيحيى هذه المقاطعة إلى الإسلام ، بل فى اجتذاب فريق ممن يعيش فى وسط المحيط الذى تجلى فيه نفوذ الإرسالية المسيحية [٤].

وتصور الروايات أن الإسلام دخل إلى بالمبنج Palembang حول سنة ١٤٤٠ على يد رادن رحمت ، وسنذكر فيما بعد نبذة عن نشاطه فى الدعوة (ص ٣١٩) . ولكن يظهر أن المؤثرات الهندية كانت متأصلة ثابتة فى هذه المنطقة ، وأن تقدم الدين الجديد كان بطيئا . وقد قيل إن مسلمى بالمبنج كانوا حتى القرن التاسع عشر ، يعرفون القليل عن دينهم ، إلا ما كان من طقوسه الشكلية ، اللهم إلا سكان الحاضرة الذين كانوا يتصلون بالعرب كل يوم [٥]. ولكن قد يظهر أن فى العقد الأول من القرن العشرين ، كان هنالك نهضة للحياة الدينية ، ودعاية آخذة فى النمو ، إذ أن تقارير الحكومة الهولندية الخاصة بالمستعمرات قد لفتت الأنظار إلى اطراد انتشار الإسلام بين الوثنيين من أهالى مقاطعات بالمبنج على اختلافها [٦].

ومن جاوه ، حُمل الإسلام لأول مرة إلى مقاطعات لمبونج Lampong التى تكوّن أقصى حدود سومطرة الجنوبية ، وذلك على يد سيد هذه المقاطعات ، ويدعى مِنَك كَمَله بومى . وحول نهاية القرن الخامس عشر ، عبر مضيق سُندا Sunda إلى مملكة بنتام على ساحل جاوة الغربى ، تلك المملكة التى كانت قد انتحلت تعاليم الدعاة المسلمين قبل أن يزورها هذا الزعيم بسنوات قليلة . وهنا أسلم هذا الرجل أيضا ،

---

(١) A. L. van Hassalt, pp. 55, 68.

(٢) Med. Ned. Zendelinggen, id. p. 173. (Koloniaal Verslag van 1911, p. 26; 1912, p. 17.) III

(٣) Uit het Koloniaal Verslag van 1889. (Med. Ned. Zendelinggen, vol. xxxiv. p. 168.) (1890.)

(٤) Koloniaal Verslag van 1910, p. 30.

(٥) De Hollander, vol. i. p. 703.

(٦) Koloniaal Verslag van 1904, p. 80; 1905, p. 46; 1909, p. 47; 1910, p. 33; 1911, p. 29; 1912, p. 21.

وبعد أن أدى فريضة الحج إلى مكة ، نشر تعاليم عقيدته الجديدة التى اعتقدها بين مواطنيه(١). وقد أحرز هذا الدين تقدما لا يستهان به بين أهالى لمپونج ، ولهم مساجد فى معظم قراهم ، ولكن الخرافات القديمة لا تزال قائمة فى أجزاء المنطقة الداخلية (٢) .

وفى مستهل القرن التاسع عشر ، قامت فى سومطرة نهضة دينية ، ولم تكن عادمة التأثير فى ترويج دعاية للاسلام أبعد مدى وأعظم أثرا . وفى سنة ١٨٠٣ رجع ثلاثة من جماعة الحاجى من مكة إلى وطنهم سومطرة ، وكانوا فى أثناء وجودهم فى المدينة المقدسة ، قد تأثروا تأثرا عميقا بالحركة الوهابية التى قامت لإصلاح الإسلام ، فأصبحوا الآن يتوقون إلى أن يدخلوا مبادىء هذا الإصلاح بين مواطنيهم ، وإلى أن يبثوا فيهم حياة دينية أكثر صفاء وأشد غيرة . ومن ثم أخذوا فى الدعوة إلى التشدد فى التوحيد الذى تقول به الطائفة الوهابية ، وحرموا التوسل إلى الأولياء وشرب الخمر والميسر وسائر الأعمال التى تتعارض مع القرآن . وجعلوا عددا من بين إخوانهم فى الدين والأهالى الوثنيين على سواء يدخل فى مذهبهم . وأخيرا أعلنوا الجهاد على البتك ، ولكن الحركة فقدت صبغتها الأصيلة وانحطت فأصبحت حربا وحشية دامية ترمى إلى الغزو ، وذلك بوقوع هذه الحركة فى أيدى قوم لا وازع لهم يطمحون إلى الشهرة . وفى سنة ١٨٢١ وقع هؤلاء الذين يطلق عليهم جماعة الپدرى Padris فى نزاع مع الحكومة الهولندية ، ولم تأت سنة ١٨٣٨ حتى سقط آخر معاقلهم وكسرت شوكتهم(٣) .

ويرجع جميع أهالى الملايو الذين يقيمون فى شبه جزيرة الملايو أصلهم إلى هجرات أتت من سومطرة ، ولا سيما من منانجكباو تلك المملكة المشهورة التى ذكرناها من قبل ، والتى يقال إنها كانت فى يوم ما أقوى الممالك فى الجزيرة . ولا يزال بعض رؤساء الولايات الداخلية ، فى الجزء الجنوبى من شبه جزيرة الملايو ، يتقلدون مناصبهم من هذا المكان . أما معرفة الفترة التى تمكنت فيها هذه الجاليات من قلب سومطرة فى داخل شبه الجزيرة ، فهذا أمر يدخل فى باب الحدس والتخمين ؛ ولكن يظهر أن سنغاپور وأقصى الحدود الجنوبية من شبه الجزيرة ، قد تلقت هجرة من هذه الهجرات فى أواسط القرن الثانى عشر ، وهى التى أسس أحفادها ملقا بعد ذلك بقرن تقريبا(٤) . وسرعان ما أصبحت هذه المدينة مدينة كبيرة زاهرة ، لما تميزت به من موقع مناسب فى طريق التجارة الآتية من الشرق . وهناك قليل من الشك فى أن تجار المسلمين الذين استوطنوا هنا ، هم الذين أدخلوا الإسلام إلى هذه البلاد(٥) . وتعزو أخبار مؤرخى

---

(١) Canne, p. 510.

(٢) Marsden, p. 301.

(٣) Niemann, pp. 356-9.

(٤) J. H. Moor, p. 255.

(٥) منذ أقبل هؤلاء الهنود ، ونحن نعتبرهم عربا فرسا ، والجوجراتيون (الذين استقروا فى البلاد بسبب التجارة) قد قام نفر منهم بتحويلنا إلى دين محمد . ولما كان نفر من أهل البلاد هنا قد أقبلوا على هذا الدين ، لم يلبث هذا ،، الوباء الجرثومى ،، أن وصل إلى ملقا . (De Barros, Dec. ii. Liv vi cap. i. p. 15.)

الملايو عن ملقا تحول هذه المملكة إلى الإسلام إلى عهد أحد ملوكها وهو سلطان محمد شاه، وكان قد اعتلى العرش سنة ١٢٧٦ م. وقد قيل إنه حكم هذه البلاد سنوات قليلة، قبل أن ترسو سفينة بقيادة سيدى عبد العزيز إلى شواطىء ملقا آتية من جدة، وأن هؤلاء القادمين قد أقنعوا الملك بتغيير عقيدته وترك اسمه الوطنى، وقد اتخذ لنفسه اسما يحمل اسم النبي[1]. ولكن طابع هذه الوثيقة التاريخية العام يجعل الثقة بها والاطمئنان إلى صحتها موضع شك إلى حد بعيد[2]، على الرغم من أنه من المحتمل أن يكون تاريخ حادثة هامة كتلك الحادثة، قد يكون موضع ملاحظة دقيقة (كما حدث ذلك فى جهات كثيرة من أرخبيل الملايو) من شعب يعتز بذكر الحادثة، ويعدها فاتحة عهد جديد فى تاريخهم. ويذكر مؤرخ برتغالى تاريخا متأخرا عن ذلك التاريخ ويقول إنه حدث فى سنة ١٣٨٤، كما يقول إنه كان قاضيا، قدم من بلاد العرب فى هذه السنة، وبعد أن حول الملك إلى الإسلام، سماه محمدا أسوة بالنبي وأضاف كلمة شاه إلى اسمه[3].

وفى أخبار قويدة، وهى إحدى ولايات شبه جزيرة الملايو، فى أقصى الشمال، رواية عجيبة وصلت إلينا عن دخول الإسلام إلى هذه المملكة، حول سنة ١٥٠١ م[4]، وإليك هذه الرواية (وقد حذفنا منها بعض حوادث من خوارق العادات): قدم عالم عربى يدعى الشيخ عبد الله، إلى قويدة، وزار الراجه، وسأل عن ديانة البلاد، فأجابه الراجه «دينى ودين رعيتى كلها، هو الذى وصل إلينا من الشعب القديم. إننا جميعا نعبد الأصنام». فقال الشيخ: «إذن أما سمعتم جلالتكم قط شيئا عن الإسلام، والقرآن الذى أنزله الله على محمد، ونسخ به كل الديانات الأخرى، وتركها فى حوزة الشيطان؟» فقال الراجه: «إذن أرجو منك، إن كان حقا ما تقول، أن تعلمنا هذا الدين الجديد، وتهدينا بنوره». وتهلل الشيخ عبدالله تهلل الحماسة المقدسة لسؤال الراجه إياه هذا السؤال، واحتضن الشيخ الراجه، ثم فقهه فى الدين. ولما اقتنع الراجه بتعاليم الشيخ، أرسل فى طلب آنية الأرواح (التى طالما عكف عليها) وأفرغ ما فيها على الأرض بيديه. بعد ذلك أمر أن تحضر كل الأصنام التى فى قصره، فجمعت بين يديه أكوام من أصنام الذهب والفضة والطين والخشب، وكسرها الشيخ عبد الله قطعا بسيفه وبفأس، وأحرقت الأجزاء فى النار. وطلب الشيخ إلى الراجه أن يجمع كل نساء القلعة والقصر. فلما قدمن جميعا فى حضرة الراجه والشيخ، تعلمن عقائد الإسلام. وكان الشيخ مهذبا لطيف المعشر، كما كان جذابا رقيقا فى لغته، حتى إنه جذب إليه قلوب ساكنى القصر. ولم يلبث الراجه أن أرسل فى طلب وزرائه الأربعة المسنين. ولما دخلوا البهو،

(١) Aristide Marre : Malàka. Histoire des rois malays des Malàka. Traduit et extrait du Livre des Annales malayses, intitulé en arabe Salàlet al Selàtyn, p. 8. (Paris, 1874.)

(٢) Crawfurd (1), pp. 241-2.

(٣) De Barros, Dec. iv. Liv. ii. Cap. 1.

(٤) يتحدث باربوسه Barbosa فيما كتبه سنة ١٥١٦، عن تجار مسلمين كثيرين، كانوا يختلفون إلى ميناء قويدة. (Ramusio, tom. i. p. 317.)

استولى عليهم الدهش حين رأوا شيخا يجلس إلى جوار الراجه . فأبان لهم الراجه المهمة التى جاء من أجلها هذا الشيخ . وعندئذ أظهر الزعماء الأربعة استعدادهم للاقتداء بجلالته ، وقالوا : « إننا نأمل أن يعلمنا الشيخ عبد الله كذلك » . ولما سمع هذا الأخير هذه الكلمات ، احتضنهم ، وقال لهم إنه يأمل ، لكى يبرهنوا على إخلاصهم ، أن يستدعوا شعبهم بأسره إلى بهو الاستقبال ، ويحضروا معهم كل الأصنام التى تعودوا أن يعبدوها ، والأصنام التى انتهت إليهم عن طريق آبائهم الأولين . وأجيب الشيخ إلى طلبه ، وأحضرت فى الوقت المحدد كل الأصنام التى كان الشعب يحتفظ بها ، وهناك حطمت وحرقت وأصبحت رمادا تذروه الرياح . ولم يأسف واحد منهم على ما أصاب آلهتهم الزائفة من الخراب والدمار ، وكانوا جميعا فرحين مستبشرين بدخولهم فى حظيرة الإسلام . ثم سأل الشيخ عبد الله الوزراء الأربعة : « ما اسم أميركم ؟ » قالوا : « اسمه برا أونج مهاوانجسا » . قال الشيخ : « فدعونا نستبدل باسمه اسما بلغة الإسلام » . وبعد تبادل الرأى ، طلب الراجه نفسه أن يحول اسمه إلى السلطان مُزْلف الشاه ، لأن الشيخ قد أكد أنه اسم مشهور وأنه ورد فى القرآن(١) .

والآن بنى الراجه المساجد فى البقاع الآهلة بالسكان ، وأمر بأن يُلحق بكل مسجد أربعة وأربعون شخصا على الأقل من السكان ، على أن يكونوا جماعة تقيم فى المسجد وتعكف على العبادة ، لأن أى عدد أقل من ذلك قد يكون غير كاف لتأدية الواجبات الدينية . ومن ثم بنيت المساجد ، وألحقت بها طبول كبيرة تُدق لدعوة الناس إلى صلاة الجمع . وظل الشيخ عبد الله ، وقتا ما ، يفقه الناس فى الدين ، وانثالوا عليه من جميع سواحل قويدة ومقاطعاتها وما جاورها ، وتعلموا على يديه صيغ الإسلام وشعائره .

وقد وصلت أخبار تحول سكان قويده إلى الإسلام على يد الشيخ عبد الله ، إلى أتجيه ، فأرسل إليهم سلطان هذه البلاد ، ورجل يدعى الشيخ نور الدين ، وهو داع عربى ، كان قد قدم من مكة ، بعض كتب، ورسالة ؛ وهذا نص الرسالة : - « هذه الرسالة من سلطان أتجيه ونور الدين إلى أخينا سلطان قويده والشيخ عبد الله اليمنى الذى يقيم الآن فى قويده . أرسلنا إليكم كتابين من كتب الدين ، حتى تتأكد دعائم العقيدة الإسلامية ، ويتعلم الناس واجباتهم وشعائر دينهم تعلما كاملا » . وأرسل الراجه والشيخ عبد الله رسالة يردان فيها على هذه الرسالة ، ويشكرانهما على ما أنعما به عليهما . ومن ثم ضاعف الشيخ عبد الله جهوده وبنى زوايا فى كل القرى على اختلافها بالإضافة إلى ما فيها من المساجد ، ليكون الانتفاع عاما ، وعلم الناس كل أحكام الدين وشعائره . وكان الراجه وزوجته ملازمين للشيخ ، يتعلمان قراءة القرآن . وبحث هذان الزوجان عن امرأة من نسل الراجات لتكون زوجة للشيخ . ولكن لم يرغب أحد فى أن يهب ابنته زوجة للشيخ ، لأن هذا الرجل المقدس كان يوشك أن يعود إلى بغداد ، وأنه كان لا ينتظر إلا أن يفرغ من تعليم شخص تعليما كافيا يقوم مقامه بعد مغادرته البلاد . وكان للسلطان فى ذلك الحين ثلاثة أولاد : راجه معظم شاه ، وراجه محمد شاه ، وراجه سليمان شاه : وهذه الأسماء كان الشيخ عبدالله قد أخذها

(١) مزلف لم ترد فى القرآن بهذه الصيغة ، وربما كانت الاشارة إلى قوله تعالى (سورة ٢٦ آية ٩٠) : وأزلفت الجنة للمتقين

من القرآن ، وخلعها على هؤلاء الأمراء الذين أسدى هذا الشيخ النصح إليهم بأن يصطنعوا الصبر والأناة ، وألا يسرع إليهم الغضب فى معاشرتهم عبيدهم والطبقات الدنيا ، وأن ينظروا بعين الشفقة والعطف إلى عباد الله أجمعين ، وإلى الفقراء والمعوزين(١) .

ولا يزعمن زاعم أن أعمال الشيخ عبدالله قد كللت بنجاح تام ، لأننا نعلم من أخبار آتجيه أن أحد سلاطين هذه البلاد ، وكان قد غزا قويدة فى سنة ١٦٤٩ ، قد نصب نفسه ، لأن يؤسس الإسلام فى البلاد تأسيسا أقوى ثباتا ، ويخرب معابد اللياز Liar ، أى هياكل الأصنام(٢) . وعلى ذلك ، كان قد مضى قرن ونصف قرن قبل أن تستأصل شأفة الوثنية من هذه البلاد .

وليس لدينا أخبار أخرى مفصلة فى تاريخ تحول أهالى شبه جزيرة الملايو إلى الإسلام ، ولكننا نجد فى أماكن كثيرة أضرحة دعاة العرب الذين كانوا أول من دعوا بينهم إلى هذه العقيدة ، تلقى من هؤلاء الناس تعظيما(٣) . وقد أدت معاشرتهم الطويلة للعرب ومسلمى ساحل الهند الشرقى إلى جعلهم محافظين شديدى التمسك بفروض دينهم ، واشتهروا بين الناس بأنهم خير من يقتدى به من مسلمى الأرخبيل . كما أدى اتصالهم المستمر بالهندوكيين والبوذيين والمسيحيين والوثنيين من سكان بلادهم ، إلى جعلهم فى الوقت نفسه على جانب من التساهل والتسامح . وهم شديدو التمسك بالمحافظة على صوم رمضان وتأدية فريضة الحج إلى مكة . ويرون دائما أن المنافع الدينية التى ينالها الناس ، إنما هى فى الوقت نفسه ، سعادة دنيوية لهم . وإذا وجدوا قرية بها أكثر من أربعين منزلا ، ورأوا أن سعتها تستلزم تنظيمها وتعيين موظفين دائمين للقرية ، جعلوا من بين أفراد هؤلاء الموظفين داعيا يعظ الناس فى الدين . وقد بنوا بطريقة رسمية مسجدا وأسسوه(٤) .

وفى الشمال ، حيث تتاخم ولايات الملايو منطقة سيام ، أثر الإسلام تأثيرا لا بأس به بين أهالى سيام من البوذيين . ويطلق على من دخلوا فى الإسلام منهم السمسم Samsams ؛ وهم يتكلمون لغة هى رطانة مزيجة من لغتى الشعبين جميعا(٥) . كذلك أدخل فى الإسلام فريق من بين القبائل المتوحشة فى شبه الجزيرة(٦) .

وإن تاريخ انتشار الإسلام فى الهند الصينية يحوطه الغموض والإبهام . ولا يبعد أن يكون تجار العرب والفرس قد أدخلوا دينهم إلى المدن الساحلية منذ القرن العاشر ، ولكن يعزى أهم توسع لهذا الدين إلى هجرات أهل الملايو التى بدأت فى نهاية القرن الرابع العشر(٧) .

---

(١) A translation of the Keddah Annals, by Lieut.-Col. James Low, vol. iii. pp. 474-7.

(٢) Id. p. 480.

(٣) Newbold, vol. i. p. 252.

(٤) Mc Nair, pp. 226-9.

(٥) J. H. Moor, p. 242.

(٦) Newbold, vol. ii. pp. 105,396.

(٧) R. du M. M., tome ii. (1907), pp. 137-8.

والآن ، يجب أن نرجع إلى وراء قرونا كثيرة ، لنتتبع تاريخ تحول جاوة إلى الإسلام . ولا شك أن الدعوة إلى مبادىء الإسلام وإذاعتها فى أهالى هذه الجزيرة ، كانت كلها نتيجة لما قام به أفراد من التجار أو من زعماء الجاليات الصغيرة منذ وقت طويل ؛ فلم يكن فى جاوة قوة إسلامية مركزية تشعّ آثارها فى مصلحة الدين الجديد ، أو تفرض قبول هذا الدين بالوسائل الحربية . بل على العكس من ذلك ، أصبح دعاة المسلمين فى هذه البلاد على ارتباط بالحضارة الهندوكية ، التى كانت قد تغلغلت أصولها فى أعماق حياة تلك البلاد ، ورفعت الجاويين إلى مستوى عال من الثقافة والرقى ، . ويظهر ذلك أكثر وضوحا فى تلك النظم والقوانين التى تختلف عن نظم بلاد العرب وقوانينها اختلافا جوهريا . بل لقد أخفقت الشريعة الإسلامية ، إلى الآن ، فى أن توطد دعائمها توطيدا كاملا ، حتى فى الأماكن التى تتغلب فيها سيطرة الإسلام . وهنالك صراع دائم بين أنصار عادات الملايو القديمة ، وجماعة الحاجى ، الذين عادوا بعد أن أدوا فريضة الحج فى مكة ، متحمسين متشددين فى المحافظة على الشريعة الاسلامية . ومن ثم كان لا بد أن يخطو عمل التحول إلى الإسلام خطوات بطيئة جدا ، ويمكن أن نقول فى تأكيد مقبول إنه فى الوقت الذى نجد فيه أن من الممكن أن نخلص جانبا من تاريخ هذه الحركة التى قامت على نشر تعاليم الدعوة مما شابه من الأساطير والتقاليد ، نرى لزاما أن يبقى كثير من هذا التاريخ مجهولا لدينا جهلا تاما . ونجد فى أخبار الملايو ، التى تفيدنا فيما تمدنا به من وصف لأول الداعين إلى هذا الدين ، أن ما كان يدخل ، من غير شك فى عمل أجيال كثيرة ، وما كان يجب أن يستمر فى خلال قرون شتى ، نراه ينحصر فى نطاق سنوات قلائل ؛ وتكتسب أسماء قليلة معروفة ، كما يحدث غالبا فى التواريخ الشعبية ، الشهرة والثقة ، وهى فى الحقيقة ترجع إلى ما قام به أسلافهم المجهولون من أعمال قوامها الصبر والأناة(١) . زد على ذلك أن الأعمال الهادئة العفة التى قام بها كثير من هؤلاء الدعاة ، لم تكن على الأرجح لتسترعى انتباه المؤرخ الذى كان بطبيعة الحال يصوب عنايته أولا وقبل كل شىء إلى أعمال الملوك والأمراء ومن كان على صلة وثيقة بهم . ونحن إذ نفقد مثل تلك المعرفة العظمى ، لا مفر من أن نرضى بتلك الحقائق التى وصلت إلينا .

لذلك نرى أن نورد فى الصفحات التالية ، صورة موجزة عن تأسيس الدين الإسلامى فى هذه الجزيرة ، كما تصورها الأخبار القومية التى لا شك أنها ، على الرغم من أنها ملأى بالتناقض والخرافات ، تقوم على أساس تاريخى ؛ ويدلنا على ذلك ما نقش على مقابر الشخصيات الهامة التى ذكرت فى هذه الأخبار ، وعلى آثار المدن القديمة ونحو ذلك . لهذا لا بأس من أن نقبل الأخبار الآتية ، مع افتقارها إلى دليل يثبت صحتها ، على أنها صحيحة فى جوهرها ، على أن نأخذ الحذر الذى سبقت الإشارة إليه ، من نسبة آثار فائقة مفرطة إلى جهود أفراد فى نشر تعاليم الدعوة .

كان أول من قام بالمحاولة الأولى لإدخال الإسلام إلى جاوة ، رجل من أهالى هذه الجزيرة حول نهاية القرن الثانى عشر . وقد ترك أول ملوك باجاجاران Pajajaran ، وهى ولاية فى الجهة الغربية من الجزيرة ،

---

(١) Snouck Hurgronje (1), p. 9.

ولدين : أما أكبرهما فقد آثر أن يزاول التجارة ، وباشر بعثة تجارية ذاهبة إلى بلاد الهند ، تاركا أخاه الأصغر الذى خلفه على العرش فى سنة ١١٩٠ ، وتلقب بلقب برابو موندنج سارى Prabu Munding Sari . وفى أثناء تطواف ذلك الابن الأكبر ، لقى بعض تجار العرب ، فدخل فى الإسلام على أيديهم ، واتخذ لنفسه اسم حاجى پُروا .

ولما عاد إلى وطنه ، حاول بمعونة أحد دعاة العرب أن يدخل أخاه والأسرة المالكة فى دينه الجديد . ولكن جهوده لم تصادف نجاحا ، فهرب إلى الأدغال خوفا من الملك ورعاياه الكفار ، ولم نسمع عنه شيئا بعد ذلك (١) .

وفى النصف الأخير من القرن الرابع ، تكوّنت حركة للدعوة ، نالت نجاحا أعظم ، على يد شخص يدعى مولانا مسالك إبراهيم ، وقد رسا على ساحل جاوة الشرقى مع إخوانه فى الدين ، واستقر قريبا من بلدة جريسك Gresik ، وهى قبالة جزيرة مادورة . ويقال إنه كان يُرجع نسبه إلى زين العابدين أحد أبناء أحفاد على ، وإنه كان ابن عم راجه تشرمن Chermen (٢) . وهنا شغل نفسه فى القيام بتحويل الناس إلى الإسلام وأحرز نجاحا فى هذه السبيل ؛ وسرعان ما جمع حوله فئة قليلة من المؤمنين . وأخيرا اتصل بابن عمه ، راجه تشرمن الذى قدم إلى هذه البلاد أملا فى أن يحول راجه مملكة ماجاپاهيت Majapahit الهندوكى إلى الإسلام وأن يعقد معه حلفا بعرض زواج ابنته عليه . فلما وصل أرسل ابنه ، صادق محمد ، إلى ماجاپاهيت ليحدد وقتا للمقابلة ، على حين شغل هو نفسه ببناء مسجد وتحويل السكان إلى الإسلام . وكان من أثر ذلك أن تمت مقابلة الأميرين ، ولكن قبل أن يتمكن من موالاة ذلك التأثير الذى بلغوه فى ذلك الحين ، تفشى مرض بين شعب راجه تشرمن ، فقضى على ابنته ، وثلاثة من أبناء أخيه ، كان قد صحبهم معه ، وفريقا عظيما من رجال حاشيته ؛ ومن ثم عاد هو إلى مملكته . وقد جعلت هذه الكوارث عقلية راجه ماجاپاهيت تتحامل على هذا الدين الجديد ، الذى كان ينبغى ، كما قال هذا الراجه ، أن يكون من الأصوب حماية معتنقيه . وكان من أثر ذلك أن أخفقت البعثة . على أن مولانا إبراهيم تخلّف ، ليتعهد مقابر(٣) ذويه وإخوانه فى الدين ، أما هو فقد قضى نحبه بعد ذلك بإحدى وعشرين سنة ، وذلك سنة ١٤١٩ ، ودفن فى جريسك حيث لا يزال المسلمون يعظمون قبره ويعدونه أول رسل الإسلام إلى جاوه .

ويذكر أحد مسلمى الصين ، وكان قد صحب سفارة إمبراطور الصين إلى جاوة فى وظيفة مترجم ،

---

(١) Veth (3) vol. 1. p. 215. Raffles (ed. of 1830), vol. ii. pp. 103, 104, 183.

(٢) موقع تشرمن غير محقق ؛ ويظن فيث Veth (3), vol. i. p. 230 أن من الممكن أن يكون فى بلاد الهند ؛ ولكن روفاير Rouffaer (p. 115 n) يسرد أسبابا جيدة للتدليل على أن هذا البلد يقع فى سومطرة .

(٣) وقد أورد J. F. G. Brumund ص ١٨٥ وصفا للحالة الراهنة لتلك المقابر ، ولا يزال يرى على واحدة منها آثار نقش مكتوب بحروف عربية .

قبل موت مولانا إبراهيم بست سنوات ، أى فى سنة ١٤١٣ ، قدوم إخوانه فى الدين فى هذه الجزيرة تحت عنوان « وصف عام لسواحل المحيط » ، حيث يقول : « فى هذه البلاد ثلاثة أنواع من الشعب : الأول المسلمون الذين جاءوا من الغرب واستقروا هنا ؛ وزيهم وطعامهم نظيف مناسب . والثانى الصينيون الذين هربوا واستوطنوا هنا ، وما يأكلون ويستخدمون بديع جدا كذلك ، وكثير منهم قد اعتقدوا الدين الإسلامى وحافظوا على تعاليمه . والثالث الأهالى الذين على جانب عظيم من القبح والفظاظة ، وهم يجيئون ويذهبون حفاة حاسرى الرءوس ، ويعتقدون في الشياطين فى خشوع وتبتل . ولكون بلادهم معروفة بذلك أطلق عليها فى كتب البوذيه بلاد الشيطان(١) » .

والآن نقترب من الفترة التى أصبح فيها لحكم المسلمين السيادة فى الجزيرة ، بعد أن تسرب دينهم إليها بما يقرب من قرن . وهنا نرى لزاما أن ندخل فى تفصيلات التاريخ ، على نحو أكثر دقة نوعا ما ، لكى نبين أن ذلك لم يكن نتيجة أية حركة قوامها التعصب الدينى ، أثارها العرب ، بل نتيجة ثورة قام بها أهالى البلاد أنفسهم(٢) ، الذين (مع أنهم بطبيعة الحال اكتسبوا القوة من وراء ارتباطهم برباط دين مشترك) حُرضوا على أن يجمعوا كلمتهم لينتزعوا السلطة العليا من أيدى مساكنيهم الوثنيين ، لا بالدعوة إلى حرب دينية ، ولكن عن طريق ما وجهه أحد المطالبين بالعرش من الطامعين ، وكان قد لحقه ظلم ، من تحذير وإنذار ، فأراد التشفى والانتقام(٣) .

ونستطيع أن نصف الحالة السياسية فى الجزيرة كما يلى :ـ كانت الإمارات الوسطى والشرقية من الجزيرة ، وكانت أكثر الإمارات ثروة وعمرانا ، وأبعدها تقدما نحو المدينة ، تحت سلطان دولة ماجاپاهيت الهندوكية . وفى أقصى الغرب ، نجد تشريبون Cheribon وإمارات أخرى كثيرة ، صغيرة مستقلة ؛ حين كان سائر الجزيرة ، ويشمل كل المقاطعات الواقعة فى أقصى حدودها الغربيـــة ، خاضعا لملك پاجاجاران .

كان ملك ماجاپاهيت قد تزوج من ابنة أمير تشامپا Champa ، وهى ولاية صغيرة فى كامبوديا شرقى خليج سيام(٤) . ولما كانت تغار من إحدى جوارى الملك الحظيات ، بعث الملك بهذه الجارية إلى ابنه آريه دمر Arya Damar حاكم پالمبنج Palembang فى سومطرة حيث أنجبت منـــه ابنا اسمه رادن پتاه Raden Patah ، وقد رُبى على أنه أحد أبناء الحاكم . وقدر لهذا الطفل بعد سنوات (كما سنرى) أن يقدم على انتقام فظيع من جراء المعاملة القاسية التى لقيها من أمه . وكانت بنت أخرى من

---

(١) Groeneveldt, pp. vii. 49-50.

(٢) Kern, p. 21.

(٣) Veth (3), vol. i. pp. 233-42. Raffles, vol. ii. pp. 113-33.

(٤) على أن روفائير يضع تشامپا هذه ، لا فى كمبوديا ولكن على ساحل آتجيه الشمالى ، ويذكر أنها هى جومپا Djeumpa الحديثة.
(Encyclopaedie van N.-J., vol. iv. p. 206.)

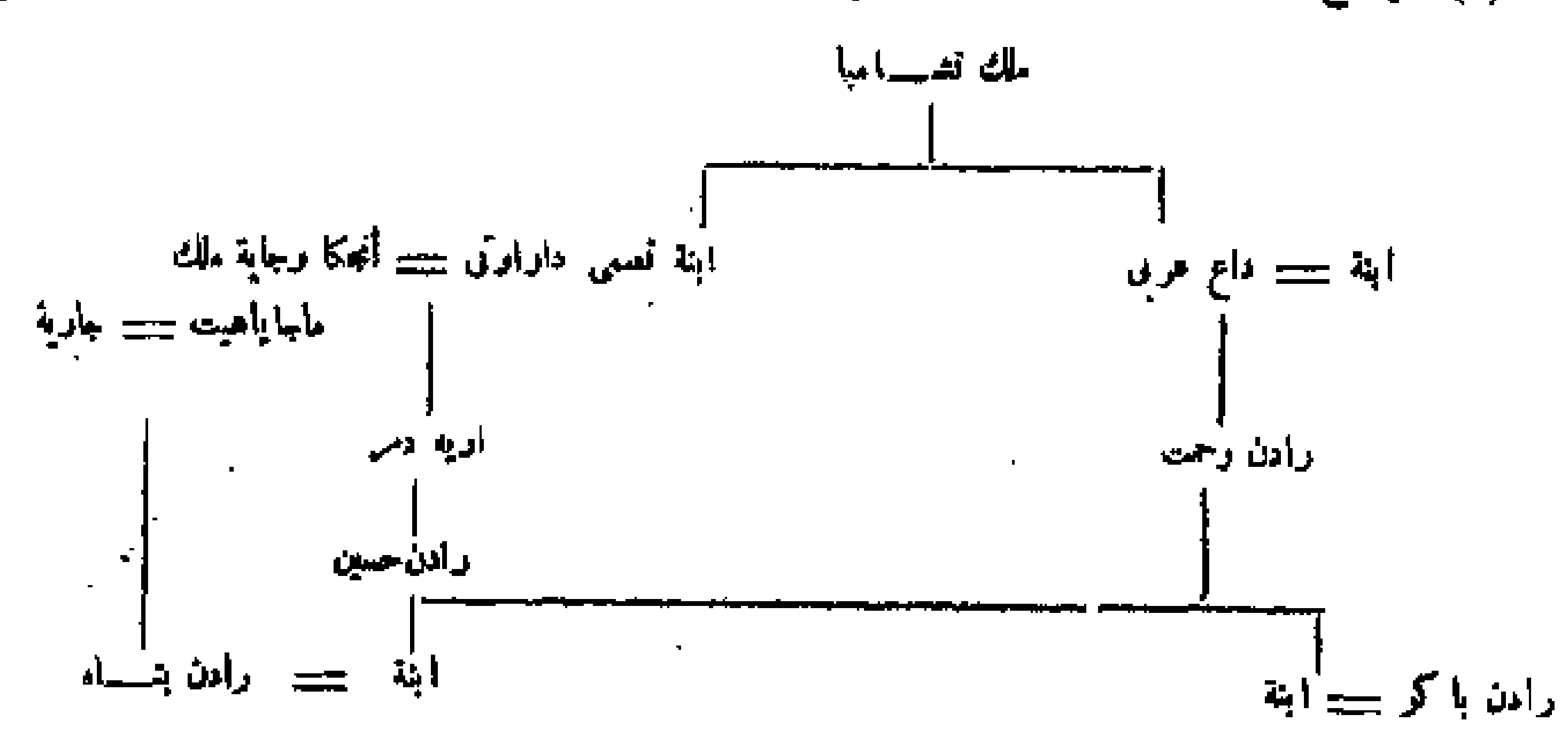
بنات أمير تشامبا قد تزوجت من عربي كان قد قدم إلى تشامبا للدعوة إلى الإسلام[1]. ومن هذا الزواج، ولد رادن رحمت Raden Rahmat الذى اعتنى والده بتربيته على الدين الإسلامى، ولا يزال الجاويون يعظمونه باعتباره أعظم رسل الإسلام إلى بلادهم[2]. ولما بلغ العشرين من عمره، بعث به أبواه ومعه رسائل وهدايا إلى عمه ملك ماجاپاهيت. وفى طريقه، مكث شهرين فى پالمبنج، ضيفا على أريه دمر الذى كاد أن يقنعه رادن رحمت اعتقاد الإسلام، إلا أنه لم يجسر على أن يجهر بإسلامه خوفا من الشعب الذى كان متمسكا أشد التمسك بتقاليده القديمة. وواصل رحلته حتى بلغ جريسك حيث رحب به أحد دعاة العرب، واسمه الشيخ مولانا جُمادى الكبرى، باعتباره رسول الإسلام المنتظر إلى جاوة الشرقية، وتنبأ بأن يكون زوال الوثنية على يديه، وبأن أعماله ستكلل بدخول كثير من الناس فى هذا الدين. وقد قوبل فى ماجاپاهيت بترحاب عظيم، من ملك تشامبا وأميرتها. وعلى الرغم من أن الملك كان نفسه غير راغب فى الدخول فى الإسلام، حمل لرادن رحمت مودة واحتراما، حتى إنه عينه حاكما على ثلاثة آلاف أسرة فى أمپل Ampel على الساحل الشرقى، على مقربة من جريسك إلى الجنوب، وسمح له بأن يقيم شعائره الدينية، وأن يدخل من يشاء فى الإسلام. وبعد وقت قصير، جذب إلى الإسلام معظم هؤلاء الذين كانوا تحت سلطته.

ومنذ ذلك الحين، كانت أمپل مقر الإسلام الرئيس فى جاوه، وذاعت شهرة الحاكم الذى كان يعمل فى حماسة بالغة للدعوة إلى دينه، وطبقت شهرته الآفاق. ومن ثم قدم إلى أمپل شخص يدعى مولانا إسحاق، ليمد له يد المساعدة فى تحويل الناس إلى هـــذا الدين، وعهد إليه فى مهمة نشر الإسلام فى مملكة بلمبنجن Balambangan فى أقصى الحدود الشرقية لهذه الجزيرة. وهنا شفى ابنة الملك التى كانت مصابة بمرض عُضال، فوهبها أبوها البار زوجة لهذا الشيخ. واعتقدت دين الإسلام وتحمست له، وأباح أبوها لنفسه أن يتلقى تعاليم الإسلام، ولكنه حين حثه مولانا على أن يجهر بهذا الدين، كما كان قد وعده ذلك إذا

---

(١) لا تزال بقايا المآذن والمقابر الاسلامية ماثلة فى تشامبا.
(Bastian, vol. i. pp. 498-9.)

(٢) ويوضح جدول الأنساب الآتى صلات القرابة هذه، كما أشير فى نصوص هذا الكتاب: إلى قرابات أخرى فيما بعد.



شفيت ابنته على يديه ، طرده من مملكته ، وأمر بأن يقتل الطفل الذى كانت بنته توشك أن تضعه . ولكن الأم بعثت بالطفل خفية إلى جريسك إلى أرملة مسلمة غنية(١)، فربته كأحسن ما تربى الأم ابنها ، وعلمته حتى بلغ الثانية عشرة من عمره ، فأسلمته إلى رادن رحمت ليتعهده ويرعاه . وبعد أن عرف قصة هذا الطفل ، سماه رادن پاكو ، وبعد وقت ، زوجه من ابنته كذلك . بعد ذلك بنى رادن پاكو مسجدا فى جيرى Giri فى الجنوب الغربى من جريسك ، حيث أدخل فى الدين آلافا من النـاس . وبلغ من عظم نفوذه أن عينه ملك ماجاپاهيت ، بعد وفاة رادن رحمت ، حاكما على أمپل وجريسك(٢). وفى هذه الأثناء ، تألفت بعوث دينية كثيرة من جريسك . واستقر ولد رادن رحمت من جهات شتى من الساحل الشمالى الشرقى ، وذاعت شهرتهم بفضل حماستهم الدينية ، وإدخال كثير من سكان هـذه الجهات فى الإسلام . كذلك أرسل رادن رحمت داعيا ، يدعى الشيخ خليفة حسين ، إلى جزيرة مادورة المجاورة ، حيث بنى مسجدا وكسب كثيرا من الناس للاسلام .

والآن نرجع إلى أريه دمر ، حاكم بالمبنج (أنظر ص ٣١٨) . ويظهر أنه ربى أبناءه على الدين الذى خشى هو أن يجهر به ، وحينذاك أرسل رادن پتاه ، عندما بلغ العشرين من عمره ، مع أخيه فى الرضاعة ، رادن حسين ، وكان أصغر منه بسنتين ، إلى جاوة حيث نزلا فى جريسك . ورفض رادن پتاه أن يصحب أخاه فى الرضاعة إلى ماجاپاهيت ، لأنه كان يعلم تمـام العلم منبته ونسبه ، ساخطا على المعاملة القاسية التى كانت أمه قد لقيتها ، ولـكنه بقى فى أمپل مع رادن رحمت ، على حين واصل رادن حسين سفره إلى الحاضرة حيث احتفى به ، ووكل إليه أمر مقاطعة من المقاطعات ، وأصبح فيما بعد قائد الجيش .

فى هذه الأثناء ، تزوج رادن پتاه من حفيدة رادن رحمت ، وكوّن مؤسسة فى مكان يدعى بنتره Bintara، وكان يتميز بقوته الطبيعية العظيمة ، فى وسط بقعة مائية بالآجام ، غربى جريسك . ولم يكد يسمع ملك ماجاپاهيت عن هذه الجالية الجديدة ، حتى بعث برادن حسين إلى أخيه يستقدمه إلى الحاضرة ، ويطلب إليه تقديم الطاعة للملك . وقد حمله رادن حسين على أن يفعل ذلك ، فذهب إلى البلاط حيث فطن الناس فى الحال إلى مشابهته الملك ، وحيث قوبل بترحاب ، وعين رسميا حاكما على بنتره . ولما كان لايزال يتحرق إلى الانتقام ويجنح إلى تخريب مملكة والده ، عاد إلى أمپل ، حيث أفضى بخططه إلى رادن رحمت . وحاول هذا الأخير أن يلطف من غضبه ، مذكرا إياه أنه لم يلق قط على يدى أبيه ملك ماجاپاهيت ، إلا كل لطف ورعاية ، وأنه فى الوقت الذى كان فيه الأمير على جانب عظيم من العدل واكتساب محبة الناس ، أبى عليه دينه أن يعلن حربا أو يلحق به أذى بحال من الأحوال . على أن پتاه لم يقتنع بتلك النصائح (كما يتضح ذلك فيما بعد) ، فعاد إلى بنتره ، وكانت فى ذلك الحين تزداد أهميتها ويكثر سكانها يوما بعد يوم ، على حين كانت جماعات كبيرة من الأهالى فى البلاد المحيطة تدخل فى الإسلام . وكان قد وضع خطة لبناء مسجد عظيم ؛ ولـكن بعد

(١) يحفظ الجاويون ذكرى هذه المرأة فى شرف عظيم ، وكثير منهم يفدون للصلاة على ضريحها . انظر Brumund, p. 186.

(٢) Veth (3), vol. i. pp. 235-6

أن بدأ بناء هـــذا المسجد بوقت قصير ، وصلت الأخبار بأن رادن رحمت قد أصيب بداء عياء . فأسرع رادن پتاه إلى أمپل ، حيث ألفى رؤساء الدعوة إلى الإسلام يجتمعون حول فراشه ، وينظرون إليه باعتباره زعيما لهم . وكان من بينهم ولدا رادن رحمت ، وقد تقدم ذكرهما (ص ٣١٩) ، ورادن پاكو الذى كان يقيم فى جيرى ، وخمسة أشخاص آخرين . ولفظ رادن رحمت نفسه الأخير بعد أيام قليلة ، فزالت بذلك العقبة الوحيدة الباقية التى كانت تقف فى سبيل خطط رادن پتاه الانتقامية ، وصحبه الزعماء الثمانية عائدين إلى بنتره حيث أعانوه على تتمة بناء المسجد[١]. وتعاطوا بينهم ميثاقا غليظا على أن يساعدوه فى محاولته ضد ماجاپاهيت. وارتبط الأمراء المسلمون جميعا بهذا الحلف ، عدا رادن حسين الذى ظل مخلصا لسيده هو وأتباعه جميعا ، وأبى أن يدلى بدلوه مع إخوانه فى الدين الثائرين .

وتبع ذلك حملة طويلة الأمد ، لا حاجة بنا إلى الدخول فى تفصيلاتها ، ولكن فى سنة ١٤٧٨[٢]، بعد أن نشب قتال مستحر دام سبعة أيام ، هُزم ماجاپاهيت ، وحلت السلطة الإسلامية محل السيادة الهندوكية فى جاوة الشرقية . وبعد ذلك بوقت قصير ، حوصر رادن حسين وأتباعه فى مكان حصين ، واضطر إلى التسليم، وسيق إلى أمپل ، حيث قابله أخوه مقابلة لطيفة . وهرب عدد كبير من الذين ظلوا مخلصين لديانتهم الهندوكية القديمة فى سنة ١٤٨١ إلى جزيرة بالى ، حيث لا تزال عبادة سيوه هى الديانة السائدة[٣]. ويظهر أن آخرين كونوا ممالك صغيرة بقيادة أمراء بيت ماجاپاهيت الذى ظل وقتا ما على وثنيته ، بعد أن سقطت قاعدة الهندوكيين الكبيرة .

ولقد ظل أهالى جاوة الوسطى على وثنيتهم وقتا طويلا ، حتى فى ظل رؤساء المسلمين ، وكان تقدم الإسلام نحو الجنوب من المراكز الأولى للدعوة على الساحل الشمالى نتيجة عمل قرون . ويتجلى بوضوح تأثير عقيدتهم الهندوكية القديمة حتى الوقت الحاضر ، فى الأفكار الدينية لأهالى جاوة الوسطى من المسلمين .

---

(١) لا يزال هذا المسجد قائما ، وينظر إليه الجاويون على أنه من أقدس الآثار فى جزيرتهم .

(٢) ويبدو أن هنالك قليلا من الشك فى أن هذا التاريخ مبكر جدا . وإن دراسة المصادر البرتغالية تشير إلى هذه النتيجة ، وهى أن ماجاپاهيت لم ينهزم إلا بعد ذلك الحين بأربعين سنة . (Rouffaer, p. 144.)

(٣) وقد قاوم شعب بالى ، حتى الوقت الحاضر ، معظم الجهود الحماسية التى بذلها المسلمون لحث هذا الشعب على قبول دين الإســـلام ، على الرغم من دخول الناس فى هذا الدين من حين إلى حين ، ومن تكوين جماعة إسلامية صغيرة من الأهالى يبلغ عددها نحو ٣٠٠٠ نفس ، من جملة السكان الذين يربو عددهم على ٨٦٢٠٠٠ نفس . وكان موقع الجزيرة الملائم للأهداف التجارية ، يجتذب دائما إلى شواطئها عددا من الغرباء ، كانوا فى أغلب الأحيان يتخذون من الجزيرة مقرا ثابتا . وبينما نجد بعض هؤلاء الغرباء المستوطنين يحرصون دائما على أن يكونوا بمنأى من أهالى البلاد ، نرى آخرين منهم يتعاقدون معهم على الزواج ، وكان من أثر ذلك أن اندمجوا فى جمهور الأهالى . وإلى جهود هؤلاء ، يرجع الفضل فيما أحرزه الإسلام من هذا التقدم المؤكد ، وإن كان تقدما بطيئا جدا . ويقال إن مسلمى بالى يؤلفون جماعة نشيطة مزدهرة ، زاخرة بالغيرة على ترقية دينهم ، تلك الجماعة التى تؤثر — على الأقل — فى جيرانهم الوثنيين ، على الرغم من أن هذه الجماعة لم تصادف نجاحا فى إقناعهم بنبذ طعامهم المحبب وهو لحم الخنزير ، من أجل عبادة الله.

(Liefrinck, pp. 241-3.)

ومن الأدلة الواضحة على تلك الجذور العميقة التي ألقتها الديانة الهندوكية في هذه الجهة من الجزيرة ، تلك الحقيقة ، وهي أن الرجوع إلى كتب القوانين الهندية ومجموعة قوانين مانو بوجه خاص ، لم يذعن أمام مجموعة القوانين التي كانت أكثر تمشيا مع روح التشريع الإسلامي ، إلا في سنة ١٧٦٨ (١).

دخل الإسلام إلى الجهات الشرقية من الجزيرة بعد ذلك بسنوات قلائل ، وربما كان ذلك في أوائل القرن التالي ، بسبب نشاط الدعوة الذي أظهره الشيخ نور الدين إبراهيم أحد أهالي تشريبون . وقد كسب لنفسه شهرة عظيمة لشفائه امرأة كانت مصابة بالجذام . وكان من أثر ذلك أن آلافا من الناس جاءوا إليه ليتعلموا شعائر الدين الجديد . وقد حاول من جاوره من الزعماء أن يناهضوا هذه الحركة أول الأمر ، ولكنهم لما وجدوا أن معارضتهم لا طائل تحتها سمحوا لأنفسهم أن يجرفوا مع التيار ، ودخل كثير منهم في الإسلام (٢) . وأرسل الشيخ نور الدين إبراهيم التشريبوني ، ابنه مولانا حسن الدين ، يدعو إلى الإسلام في بنتام ، أكثر ولايات الجزيرة انحرافا نحو الغرب ، وإحدى ملحقات مملكة باجاجاران الوثنية. وهنا تكللت جهوده بنجاح عظيم ، بين الداخلين في الإسلام الذين كانوا طائفة من النساك ، يبلغ عددهم ٨٠٠ وتذكر أخبار هذه الجهة من البلاد ، بنوع خاص ، أن الأمير الشاب قد كسب هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام على يديه ، بوسائل الإقناع اللطيفة وحدها ، وليس بحد السيف (٣) . بعد ذلك ذهب مع أبيه إلى مكة لتأدية فريضة الحج ؛ وعند عودته ، بسط نفوذه على ساحل سومطرة القريب من بلاده ، دون أن يمتشق سلاحا ، واجتذب الذين دخلوا في الإسلام على يديه بالوسائل السلمية وحدها (٤) .

ولكن يظهر أن تقدم الإسلام غربي جاوة كان أبطأ بكثير منه في شرقيها . فقد تبع ذلك أن قام نزاع طويل بين عُبّاد الإله سيوه وأتباع النبي ، ولا يبعد أن تكون مملكة باجاجاران الهندوكية ، التي يظهر أنها باشرت السيادة على الإمارات في الجهة الغربية من الجزيرة ، في وقت واحد من تاريخ جاوة ، لم تصل إلى نهايتها إلا في أواسط القرن السادس عشر(٥) ، على حين ظلت طوائف وثنية أخرى أقل عددا ، باقية حتى عصر أحدث من ذلك بكثير(٦) — بل ظل بعضها حتى الوقت الحاضر . ولإحدى هذه الطوائف ، وتسمى البدوى Baduwis ، تاريخ ذو أهمية خاصة . وهم ذرية قوم من أتباع الدين القديم ، هربوا بعد سقوط باجاجاران إلى الغابات ومخابىء الجبال ليتمكنوا من موالاة إقامة شعائر دين أجدادهم . وفي عصور أحدث من ذلك ، عند ما أذعنوا لحكم سلطان بنتام المسلم ، سمح لهم أن يواصلوا إقامة شعائرهم الدينية ،

(١) Encyclopaedie van N.-I., vol. ii. p. 523.

(٢) Veth (3), vol. i. pp. 245, 284.

(٣) Raffles, vol. ii. p. 316.

(٤) Veth (3), vol. i. pp. 285-6.

(٥) Id. pp. 305, 318-9.

(٦) ويذكر رحالة كان في جاوة في سنة ١٥٩٦ مملكتين أو ثلاث ممالك وثنية ، يسكنها عدد كبير من الأهالي الوثنيين . (Niemann, p. 342)

على شريطة ألا يسمح لهم بزيادة الجماعات التى تجهر بالعقيدة الوثنية(١). ومن الغريب أن يقال إنهم لايزالون يحافظون على هذه العادة ، على الرغم من أن الحكم الهولندى قد توطدت دعائمه فى جاوة مدة طويلة ، وأنه يحررهم من ضرورة الإذعان لما اتفقوا عليه منذ القدم . وهم يحددون عددهم تحديدا دقيقا ، بحيث لا يتجاوز أربعين أسرة ، فإذا زادت الجماعة على هذا الحد ، وجب على أسرة أو أكثر أن يتركوا النطاق الداخلى الذى يقيمون فيه ، ويستقروا بين الأهالى المسلمين فى إحدى القرى المحيطة بهم(٢).

ولكن على الرغم من أن عمل التحويل إلى الإسلام فى غرب جاوة كان أبطأ منه فى سائر جهات الجزيرة ، كان انتصـــار الإسلام على العبادة الوثنية التى حل هذا الدين محلها ، أتم منه فى المقاطعات التى كانت أسرع فى الانضواء تحت حكم راجيات ماجاباهيت ؛ وإنما يرجع ذلك بنوع خاص ، إلى تلك الحقيقة ، وهى أن الديانة الهندوكية لم تكن قد تغلغلت بين الشعب فى هذه البقعة ، كما تغلغلت فى وسط الجزيرة . والشريعة الإسلامية هنا قوة حيوية ، كما أن الحضارة التى جلبت من بلاد العرب إلى هذه البـــلاد ، قد اتسقت مع الحكومة وحياة الشعب . وقد لاحظنا أن مسلمى غربى جاوة ، فى الوقت الحاضر ، وهم الذين يدرسون ديانتهم دراسة تامة ، ويؤدون فريضة الحج فى مكة يؤلفون فى العادة ، أشد طبقات الأهالى تجابة ورفاهية(٣).

ولقد رأينا من قبل أن طوائف كبيرة من الجاويين ظلوا على وثنيتهم قرونا بعد قيام الممالك الإسلامية فى الجزيرة . وجميع أهالى جاوة فى الوقت الحاضر مسلمون ، عدا قلة ليس لها شأن يذكر . ومع أن كثيرا من الخرافات والعادات قد بقى بينهم من أيام أجدادهم الوثنيين ، لا يزال الميـل يتجه دائما إلى إرشاد التفكير والسلوك على هـدى تعاليم الإسلام . وقد سارت جهود التحويل إلى الإسلام تلك المدة الطويلة قدما فى هدوء وتدرج ، كما يرجع نمو الولايات الإسلامية فى الجزيرة إلى تاريخها السياسى أكثر من أن يكون راجعا إلى تاريخها الدينى ، ذلك أن ما أحرزه الدين من تقدم كان نتيجة أعمال الدعاة أكثر من أن يكون نتيجة أعمال الأمراء .

وفى الوقت الذى كان مسلمو جاوة يتآمرون على الحكومة الهندوكية ويضعون حكم البلاد فى أيديهم بالقوة والعنف ، كانت تدبّر ثورة لا تحمـــل فى طياتها إلا طابع الهدوء ، فى سائر أجزاء الأرخبيل ، عن طريق الدعوة إلى الإسلام التى قام بها الدعاة الذين كانوا يحرزون نجاحا بطيئا ، ولكنه كان مؤكدا ، فيما بذلوه من جهود فى نشر تعاليم الدعوة . ولنوجه عنايتنا أولا إلى تاريخ حركة الدعاية هذه فى جزائر ملوكّس.

ولا بد أن تكون تجارة القرنفل قد أدت إلى ارتباط أهل ملوكس بسكان الجزائر فى النصف الغربى من الأرخبيل منذ أزمان مبكرة جدا ، ونشر الجاويون الذين دخلوا فى الإسلام ، وأهل الملايو الآخرون الذين قدموا إلى هـذه الجزائر للتجارة ، دينهم بين سكان الساحل(٤) . ويرجع رفاق مجلان Magellan هذا إلى قصة عجيبة ، عن الطريقة التى أدخل بها هؤلاء الرفاق عقائدهم الدينية بين أهـالى ملوكس : « بدأ ملوك

(١) Raffles, vol. ii. pp. 132-3.

(٢) Metzger, p. 279.

(٣) L. W. C. van den Berg (1), pp. 35-6, C. Poensen, pp. 3-8.

(٤) De Barros, Dec. iii. Liv. v. Cap. v. pp. 579-80. Argensola, p. II B.

هذه الجزائر[١]، قبل قدوم الأسبانيين بسنوات قليلة يعتقدون خلود الروح، ولم يقتنعوا إلا بحجة واحدة، وهى أنهم كانوا قد رأوا طائرا صغيرا رائع الجمال لا نظير له على الأرض، ولا على أى شىء يتعلق بالأرض. وقد أخبرهم المسلمون الذين كانوا يزاولون التجارة فى هذه الجزائر، أن هذا الطائر الصغير قد ولد فى الجنة، وأن هذه الجنة هى المكان الذى تستريح فيه أرواح الموتى. ولهذا السبب، انضم السادة إلى طائفة المسلمين لأنها تعدهم أشياء كثيرة عجيبة فى هذا المكان الذى تستريح فيه الأرواح[٢]».

ويظهر أن الإسلام بدأ يحرز تقدما لأول مرة فى هذه البقعة فى القرن الخامس عشر. وقد أذعن ملك تيدور الوثنى لما قدمه إليه عربى يدعى الشيخ منصور من إقناع، واعتقد الإسلام مع كثير من رعاياه. وأبدل باسم الملك الوثنى، تجيريلى ليجاتو Tjireli Lijatu اسم جمال الدين، كما سمى أكبر أبنائه منصورا على اسم معلمهم العربى[٣]. وكان هذا الأمير الأخير هو الذى أكرم وفادة البعثة الأسبانية التى وصلت إلى تيدور فى سنة ١٥٢١، بعد أن لاقى مجلان حتفه المشئوم بزمن قصير. ويسميه بيجافتا، مؤرخ هذه البعثة، باسم رَيا سلطان موزور Raia Sultan Mauzor، ويقول إن عمره كان يزيد على خمس وخمسين سنة، وإنه لم يمض أكثر من خمسين سنة على قدوم المسلمين للإقامة فى هذه الجزائر[٤].

ويظهر أن الإسلام قد رسخت قدمه فى جزيرة ترنات المجاورة قبل ذلك بوقت قصير. فقد أخبر سكان هذه الجزيرة البرتغاليين، الذين قدموا إلى هذه الجزيرة فى نفس السنة التى وصل فيها الأسبان إلى تيدور، أن الإسلام كان قد دخل فى بلادهم منذ أكثر من ثمانين سنة بزمن وجيز[٥].

ويروى البرتغاليون كذلك[٦]، أن سلطان ترنات كان أول زعماء ملوكس الذين أصبحوا مسلمين. وتحكى أسطورة دخول الإسلام إلى هذه الجزيرة كيف أثار أحد التجار، ويدعى داتو ملا حسين، حب الاستطلاع فى نفوس الشعب عند ما رأوه يتلو القرآن بصوت عال على مشهد منهم. وقد حاولوا تقليد

---

(١) فى هذه الفترة، كان أهل ملوكس فى أغلب الأحيان، فى ظل حكم الأمراء الأربعة، نعنى بذلك أمراء ترنات Ternate وتيدور Tidor، وجيلولو Gilolo وباتجان Batjan. وكان الأول أعظمهم نفوذا بكثير، وامتدت ممتلكاته إلى ترنات والجزائر الصغيرة المجاورة، وجزء من هلماهيرا Halemahera، وجانب عظيم من جزائر سليبس Celebes، وأمبوينا، وبنده Banda. وبسط سلطان تيدور نفوذه على تيدور وبعض الجزائر الصغيرة المجاورة وجزء من هلماهيرا، والجزائر الواقعة بينها وبين غينيا الجديدة، ويقترن بذلك الساحل الشرقى لغينيا الجديدة، وقسم من سرام Ceram. ويظهر أن أراضى سلطان جيلولو كانت تنحصر فى الجزء الأوسط من هلماهيرا وفى جزء من ساحل سرام الشمالى، بينما حكم سلطان باتجان أجزاء أهمها باتجان ومجموعة أوبى.

(De Hollander, vol. i. p. 5)

(٢) Massimiliano Transilvano. (Ramusio, tom. i. p. 351 D.)

(٣) P. J. B. C. Robidé van der Aa, p. 18.

(٤) Pigafetta, tome i. pp. 365, 368.

(٥) «كلما تقدموا فى البلاد أتيح لنا الوقت لنعلم من أهل البلاد سر هذه العقيدة، وكانت قد دخلت البلاد منذ نيف وثمانين سنة».

J. de Barros : Da Asia, Dec. iii, Liv. v. Cap. v. p. 580.

(٦) Id. ib.

الحروف المكتوبة فى المصحف ، ولكنهم عجزوا عن قراءتها ، فسألوا التاجر كيف تمكن من قراءتها ، على حين عجزوا هم عن أن يفعلوا ذلك . فأجاب أن من الواجب عليهم أولا أن يؤمنوا بالله ورسوله . ومن ثم أعربوا عن رغبتهم فى قبول تعاليمه ، وانتهوا إلى الدخول فى العقيدة (١) . وقد قيل إن سلطان ترنات الذى تبوأ أرفع مكانة بين الحكام المستقلين فى هذه الجزائر ، قام برحلة إلى جريسك فى جاوة ، ليعتقد الدين الإسلامى هناك فى سنة ١٤٩٥ (٢). وقد ساعده فيما بذل من جهود لنشر الدعوة شخص يدعى باتى پُتاه Pati Putah ، وكان قد قام برحلة من هيتو فى أمبوينا إلى جاوة ليتعلم عقائد الدين الجديد ، وينشر معارف الإسلام بين شعب أمبوينا بعد عودته (٣) . على أنه يظهر أن الإسلام لم يخط أول الأمر نحو التقدم إلا خطوات بطيئة ، وأنه لقى معارضة كبيرة من سكان هذه الجزائر ، الذين تشبثوا بخرافاتهم وأساطيرهم القديمة فى حماسة وغيرة ، حتى إن الوثنية القديمة ظلت فترة من الزمن مشوبة بتعاليم القرآن ، جاعلة عقول الشعب فى حالة مستمرة من القلق (٤). كذلك جعلت غزوة البرتغاليين تقدم الإسلام أبطأ مما قد يكون لو أن هذه الغزوة لم تحدث . فقد طردوا القاضى ، الذى وجدوه يفقه الناس فى عقائد محمد ، ونشروا المسيحية بين الأهالى الوثنيين ، ولقوا فى ذلك شيئا من النجاح ، وإن كان قصير الأمد (٥). ذلك أنه عند ما استغل أهل مُلوكَّس انصراف البرتغاليين الذين اشتغلوا بمتاعبهم الوطنية الخاصة ، فى النصف الأخير من القرن السادس عشر ، وحاولوا التخلص من سلطانهم ، دبروا اضطهادا عنيفا فى وجه المسيحيين الذين استشهد كثير منهم ، وارتد آخرون منهم عن دياناتهم ، حتى لم يعد للمسيحية ذلك الشأن الذى كان لها من قبل (٦). ومنذ ذلك الحين ، هيأت مناهضة سلطة المسيحيين السياسية صدرا أرحب لقبول المعلمين المسلمين الذين جاءوا من الغرب فى جموع تزداد شيئا فشيئا (٧). وقد أجهز الهولنديون على المسيحية فى ملوكس بطرد الأسبان والبرتغاليين من هذه الجزائر فى القرن السابع عشر ، ومن ثم حمل الآباء اليسوعيون البقية الباقية القليلة من مسيحيى ترنات معهم إلى جزائر الفيليبين (٨).

ومن هذه الجزائر ، انتشر الإسلام فى سائر ملوكس ، مع أن الذين دخلوا فى الإسلام كانوا مقصورين فترة من الزمن على سكان الساحل (٩). وقد جاء معظم الذين دخلوا فى الإسلام من بين سكان الملايو الذين

(١) Simon, p. 13.

(٢) Bokemeyer, p. 39.

(٣) Simon, p. 13.

(٤) Argensola, pp. 3-4.

(٥) Id. p. 15 B.

(٦) Id. pp. 97, 98.

(٧) Id. pp. 155, 158. حيث يطلق على ترنات « وهذا المصب الذى كانت التيارات تنحدر إليه من كل صوب ، والذى تنبعث منه كل مذاهب الكفر ، وخاصة عقيدة محمد البغيضة . ومنذ عام ١٥٨٥ ، حين دخل الهولنديون هذه البحار ، لم تكف هذه العقيدة عن الانتشار وكسب الأنصار واجتذاب قباطنة القراصنة ، هؤلاء الرؤساء الذين كانوا يحملون معهم خيرات آسيا ، ويخلفون مكانها هذه العقيدة ، ويحولون إليها هذه النفوس » .

(٨) ولا تزال سلالتهم فى ولاية كافيتيه Cavité فى جزيرة لوزن Luzon (Crawfurd (1), p. 85.)

(٩) W. F. Andriessen, p. 222.

يؤلفون جميع أهالي الجزائر الصغرى ، ولكنهم يسكنون في الأراضي الساحلية ، من الجزائر الكبرى وحدها، على حين يسكن الألفور Alfurs في المناطق الداخلية . ولكن الذين دخلوا في الإسلام في عصور حديثة قد أخذوا من بين هؤلاء الألفور كذلك (١) . بل كان هنالك في عهد مبكر جدا ، في سنة ١٥٢١ ، ملك مسلم لولاية جيلولو Gilolo على الجانب الغربي من الطرف الشمالي لجزيرة هلماهيرا(٢). وفي أزمان حديثة ، أدى وجود قوانين خاصة ، سُنت لمصلحة دين الدولة ، إلى تسهيل تقدم الدين الإسلامي ، إلى حد ما ، بين الألفور الساكنين في المناطق الكبرى ؛ من هذه القوانين أنه إذا ثبت أن أي فرد منهم كان يعاشر فتاة مسلمة معاشرة غير شرعية ، وجب عليه أن يتزوجها ، وأن يدخل في الإسلام ؛ وأن أية امرأة من الألفور تتزوج من مسلم وجب أن تعتقد دين زوجها ، وقد يكفّر المرء عما يقترف من آثام يعاقب عليها القانون ، بالتحول إلى الإسلام . وإذا أريد شغل منصب شاغر من مناصب الرؤساء ، فإنه لا ينظر إلى مؤهلات المرشح القانونية ، بقدر ما ينظر إلى استعداده لاعتقاد الإسلام(٣) .

وعلى هذا النحو ، ينحصر المسلمون في بورنيو غالبا على الساحل ، مع أن الإسلام قد كسب نفوذا في الجزيرة في عهد مبكر ، أعني في مستهل القرن السادس عشر . وحول هذا الوقت ، اعتقد هذا الدين شعب بنجرماسين Banjarmasin ، وهي مملكة على الجانب الجنوبي، كانت خاضعة لمملكة ماجاباهيت الهندوكية، حتى دالت في سنة ١٤٧٨ (٤) . ويرجع الفضل في دخولهم في الإسلام إلى إحدى الولايات الإسلامية التي قامت على أنقاض مملكة ماجاباهيت (٥). والقصة هي أن شعب بنجرماسين طلب المساعدة لقمع إحدى الثورات ، وأن هذه المساعدة قدمت لهم على شريطة أن يعتقدوا الدين الجديد . ومن ثم ، قدم عدد من المسلمين من جاوة ، وقضوا على الثورة ، وعملوا بهذا الشرط فتحولوا إلى الإسلام (٦) . وعلى الساحل الشمالي الغربي ، وجد الأسبان ملكا مسلما في بروناي Brunai ، عندما بلغوا هذا المكان في سنة ١٥٢١ (٧) . وبعد ذلك بقليل ، أعني في سنة ١٥٥٠ ، دخل الإسلام إلى مملكة سوكدنه(٨) Sukadana ، في الجانب الغربي للجزيرة، على أيدي العرب الذين جاءوا من پالمبنج في سومطرة (٩) . وأبى الملك الحاكم أن يترك دين آبائه ، ولكن

---

(١) T. Forrest, p. 68.

(٢) Pigafetta (Ramusio, vol. i. p. 366.)

(٣) Campen, p. 346. Koloniaal Verslag van 1910, p. 56; 1911, p. 52.

(٤) Dulaurier, p. 528.

(٥) تقع دمك Damak على ساحل جاوة الشمالي ، وتقابل جنوبي بورنيو .

(٦) Hageman, pp. 236-9.

(٧) Pigafetta. (Ramusio, tom. i. pp. 363-4.)

(٨) كان قد أسس هذه المملكة ، جالية قدمت من مملكة ماجاباهيت الهندوكية (De Hollander, vol. ii. p. 67.) وربما كانت قد وقعت بطبيعة الحال تحت تأثير القوة الاسلامي بعد تحول الجاويين إلى الاسلام .

(٩) Dozy (1), p. 386.

يبدو أن الدين الجديد ، فى غضون الأربعين سنة التى انقضت قبل موته (فى سنة ١٥٩٠) قد أحرز تقدما كبيرا ، وأصبح خليفته على العرش مسلما ، وتزوج بنت أمير من أمراء الجزيرة المجاورة ، التى كان الإسلام فيها قد توطدت دعائمه توطدا ظاهرا منذ وقت طويل[١] ، ويتحدث رحالة[٢] فى عهده ، زار الجزيرة فى سنة ١٦٠٠ ، عن الإسلام باعتباره الدين الشائع على طول الساحل . على أن سكان المنطقة الداخلية ، كما يخبرنا ، كانوا جميعا وثنيين — وأكثرهم فى الواقع لا يزال على وثنيته حتى الوقت الحاضر . ويظهر أن تقدم الإسلام فى مملكة سوكدنة قد لفت الآن أنظار مركز العالم الإسلامى إلى تلك البقعة النائية ؛ وفى عهد الأمير الذى خلفه ، قدم شخص يدعى الشيخ شمس الدين من مكة يحمل هدية تتألف من نسخة من القرآن ، وخاتم مرصع بحجر ثمين كبير ، مع كتاب ذكر فيه أن هذا الذائد عن الدين ، قد مُنح لقب شرف سلطان محمد صفى الدين[٣] .

وفى النصف الأخير من القرن الثامن عشر ، قيل إن إحدى القبائل التى تسكن فى الداخل ، وتسمى قبيلة إيدان Idaans ، وكانت تقطن فى المنطقة الداخلية من شمال بورنيو ، كانت تنظر إلى مسلمى الساحل نظرة ملؤها الاحترام والتقدير ، باعتبار أنهم يعتقدون ديانة لم يدن بها أفراد هذه القبيلة أنفسهم[٤] . ويخبرنا دالرامبل Dalrymple ، الذى استقى معلوماته عن قبيلة إيدان التى تقيم فى بورنيو ، فى أثناء زيارته إلى سولو Sulu من سنة ١٧٦١ إلى ١٧٦٤ ، أن أفراد هذه القبيلة ، يكنّون أسفا صادقا على جهالتهم ، وفكرة وضيعة عن أنفسهم لهذا السبب عينه ، ذلك أنهم ، عند ما كانوا يأتون إلى دور المسلمين أوسفنهم ، تراهم يظهرون لهم أشد ألوان التبجيل والاحترام ، باعتبارهم ذوى عقول أسمى من عقولهم ، ولأنهم يعرفون خالقهم . وهم لا يجلسون فى المكان الذى ينام فيه المسلمون ، ولا يضعون أصابعهم فى نفس التشونان أو علبة الفلفل ، ولكنهم يأخذون قليلا منها فى خضوع بالغ ؛ وهم ، فى كل مثال ، يعبّرون ، بأشد ميولهم وإشاراتهم ضعة وحقارة ، عما يضمرونه من تعظيم للإله الذى لا يعرفونه ، بما يظهرونه من احترام وتوقير لهؤلاء الذين عرفوا ذلك الإله[٥] . ويلوح أن هذا الشعب قد اعتقد الإسلام منذ ذلك الحين[٦] ؛ وهذا من الشواهد الكثيرة التى تدل على التأثير القوى الذى أحدثه الإسلام فى القبائل التى

---

(١) Veth (2), vol. I. p. 193.

(٢) Olivier de Noort. (Histoire général des voyages, vol. xiv. p. 225.) (The Hague, 1756.)

(٣) وقد توفى صفى الدين حول سنة ١٦٧٧ ، ولا يبدو أن أباه قد اتخذ لنفسه اسما إسلاميا ؛ وهو لا يعرف — على الأقل — إلا باسمه الوثنى ، بنمبهان جيرى كوسوما Panembahan Giri-Kusuma (Netscher, pp. 14-15).

(٤) Thomas Forrest, p. 371

(٥) Essay towards an account of Sulu, p. 557.

(٦) B. Panciera, p. 161.

بلغت أحط درجات المدنية . وقد تحدث حالات من الدخول فى الإسلام ، من حين إلى حين ، بين الجاليات المختلفة ، كالعرب ، والبوجى Bugis ، وأهالى الملايو ، والصينيين (الذين كانوا قد استوطنوا هذه البقاع منذ القرن السابع)(١) ، والعبيد الذين دخلوا إلى هذه الجزيرة من أقطار مختلفة ، حتى إن مسلمى بورنيو فى الوقت الحاضر ، يكونون جنسا خليطا من كثير من العناصر(٢) . وكان كثير من هؤلاء الغرباء لا يزالون على وثنيتهم ، عند ما قدموا لأول مرة إلى بورنيو ، وكانوا أرقى حضارة من قبائل الدياك Dyaks الذين غزاهم هؤلاء الغرباء ، وطردوهم إلى الداخل حيث لا يزال السواد الأعظم منهم على وثنيته ، اللهم إلا فى الجانب الغربى للجزيرة ، حيث تعتقد الإسلام قبائل قليلة العدد من الدياك من حين إلى حين(٣). وعند ما كان الوثنيون من قبائل الدياك يغيرون عقيدتهم ، كان الأعم الأغلب أنهم كانوا أكثر خضوعا للمؤثرات الإسلامية ، منهم للتبشير المسيحى ، أو كانوا يدخلون أولا فى المسيحية ، ثم يتحولون إلى الإسلام ؛ ويبذل المسلمون جهودا تنطوى على الحماسة ، لاكتساب الداخلين فى الإسلام من بين الدياك الوثنيين والمسيحيين على سواء(٤).

وعلى هذا النحو ، نجد الدين الإسلامى ينمو نموا بطيئا فى جزيرة سليبيس Celebes ، بعد أن نبت بين سكان الساحل ، وشق طريقه ببطء نحو الداخل . على أنه لم يعتقد الإسلام إلا الجانب الأرقى مدنية من السكان . وينقسم هذا الجانب إلى قبيلتين : قبيلة مكسّر Macassars والبوجى Bugis ، الذين يسكنون فى الجنوب الغربى من شبه الجزيرة ؛ هذا إلى أن البوجى كذلك ، يكونون نسبة كبيرة من أهالى الساحل فى أشباه الجزائر الأخرى . ولا يزال الأهالى الذين يقيمون فى داخل الجزيرة على وثنيتهم ، عدا الجنوب الغربى لشبه الجزيرة ، حيث يعتقد الإسلام جميع السكان تقريبا ، وأكثر سكان الداخل من الألفور ، وهم شعب منحط فى مستوى الحضارة ، يكوّن السواد الأعظم من سكان الشمال والشرق والجنوب الشرقى من أشباه الجزائر . وفى أقصى أول أشباه الجزائر هذه ، أى فى ميناهسّا Minahassa، دخل الناس فى المسيحية فى جموع كبيرة . ولم يشق المسلمون طريقهم إلى هذه البقعة إلا بعد أن رسخت أقدام البرتغاليين فى هذه الجهة من الجزيرة ، ونجد الألفور الذين حولهم البرتغاليون إلى الكاثوليكية الرومانية ، ينقلبون بروتستانتيين على يد الهولنديين ، الذين قام مبشروهم بأعمالهم فى ميناهسّا ، ولقوا نجاحا عظيما جدا فى هذه السبيل . ولكن الإسلام يشق طريقه فى بطء بين القبائل الوثنية من الألفور فى جهات شتى من الجزيرة ، سواء فى المقاطعات التى تديرها الحكومة الهولندية مباشرة ، أو فى تلك التى كانت تحت

---

(١) J. Hageman, p. 224.

(٢) Veth (2), vol. i, p. 179.

(٣) De Hollander, vol. ii, p. 61.

(٤) Coolsma, p. 556. Koloniaal Verslag van 1911, pp. 38, 41; 1912, p. 30.

ظل حكم الرؤساء الوطنيين(١) . وعند ما زار البرتغاليون الجزيرة لأول مرة ، حول سنة ١٥٤٠ ، لم يجدوا إلا قليلا من الغرباء المسلمين فى جوا Gowa ، قاعدة مملكة مكسّر ، وكان أهلوها لم يدخلوا فى الإسلام بعد . ولم يأخذ الناس فى الدخول فى الإسلام بصفة عامة إلا فى مستهل القرن السابع عشر . وتاريخ هذه الحركة ذو أهمية خاصـــة ، لأننا نلتمس فيها إحدى الحالات القليلة ، التى كانت تتنافس فيها المسيحية والإسلام لاكتساب ولاء الشعب الوثنى . من ذلك ما يقصه مصنف قديم عن إحدى حوادث هذا النزاع بطريقة تثير الإعجاب : « ينظر البرتغاليون إلى كشف قطر على هذا النحو من الأهمية ، على أنه مسألة ذات شأن عظيم ، وقد اتخذت التدبيرات لكسب عواطف هؤلاء القوم الذين وُجد أن غزوهم أمر ليس من السهولة بمكان ؛ على أنهم كانوا ، من جهة أخرى ، على استعداد لأن يقبلوا المعروف ، وينقلبوا قوما صالحين ، كخلفائهم ، بالمعاملة الطيبة . كان الشعب أشجع بل أحسن فهما وإدراكا من السواد الأعظم من الهنود . ولذلك أخذوا بوجه عام يدركون ، بعد مناقشة قصيرة مع الأوربيين ، أن دياناتهم خالية من أى معنى أو مغزى ، ولم يكن قليل منهم ، ممن كان قد دخل فى المسيحية برعاية دون أنطونيو جلفانو Don Antonio Galvano (حاكم مُلوكَّس) ، قد عرفوا تعاليم المسيحية معرفة كاملة ، بحيث يتسنى تعليمهم دينا جديدا . على أن الشعب بأسره ، قد أنكر خرافاته القديمة على وجه العموم ، وأصبح يؤمن بالله دفعة واحدة . ولكنهم لم يقنعوا بذلك ، فقرروا أن يرسلوا ، فى وقت واحد ، إلى ملقه يطلبون قساوسة مسيحيين ، وإلى أتشين (٢) يطلبون أئمة فى الشريعة الإسلامية ، وعقدوا النية على أن يعتقدوا ديانة أول من يقدم عليهم من الذين أرسلوا إليهم . ولكن يظهر أن دون رويس بريرا Don Ruis Perera الذى كان حاكم ملقه فى ذلك الحين ، كان يعوزه بعض الاهتمام بشئون الدين ، إذ أحدث تأخيرا كبيرا لا مبرر له ، فى إرسال القساوسة المطلوبين . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، لم تكد مملكة أتشين ، وهى مسلمة متعصبة ، تتلقى خبرا عن استعداد أهالى جزيرة سليبيس وميلهم ، حتى بادرت إلى إرسال سفينة مملوءة بأئمة الشريعة ، الذين وطدوا دعائم دينهم بين سكان الجزيرة توطيدا قويا فى زمن قصير . وبعد فترة من الزمن قدم القساوسة المسيحيون ، وحقروا من شأن الشريعة الإسلامية تحقيرا مريرا ، ولكن دون جدوى . فقد اختار أهالى سليبيس ديانتهم ، ولم يعد فى الإمكان حملهم على تغييرها . والحق أن أحد ملوك الجزيرة ، وكان قد اعتقد المسيحية من قبل ، تشبث بدينه ، وتحول معظم رعاياه إليه ، ولكن السواد الأعظم من أهالى سليبيس ظلوا مسلمين ، وهم كذلك إلى اليوم ، كما أنهم أشد حماسة لدينهم من أهالى أية جزيرة من جزر الهند الشرقية »(٣) .

---

(١) Med. Ned. Zendelinggen, vol. xxxii. p. 177 ; vol. xxxiv. p. 170.

(٢) أى أتجيه .

(٣) A Complete History of the Rise and Progress of the Protugeze Empire in the East Indies. Collected chiefly from their own Writers. John Harris: Navigantium atque Itinerantium Bibliotheca, vol. i. p. 682. (London, 1764.)

وقد قيل إن هذه الواقعة حدثت فى سنة ١٦٠٣ (١). وإن كثرة الإشارة إليها فى الآداب المعاصرة تجعل الشك فى صحتها التاريخية أمرا محالا (٢). وفى ولاية تلّـو الصغيرة Tallo، شمالى جوا، التى كانت دائما حليفة لها، لا يزال يُرى ضريح أحد مشاهير الدعاة إلى مكسر، واسمه خطيب تونجال. وقد برهن أمير هذه الولاية بعد دخوله فى الإسلام، على أنه أشد أبطال الدين الجديد حماسة وغيرة؛ وعن طريق نفوذه، اعتقد الإسلام، كل القبائل التى تتكلم لغة مكسر على وجه الإجمال. ولم تكن نتيجة هذه الحركة ذات طابع سلمى بحت؛ فقد انجرف أهالى مكسر فى تيار حماستهم لدينهم الذى اعتقدوه حديثا، ليقوموا بمحاولة لفرضه على جيرانهم من البوجى. وعرض ملك جوا على ملك بونى Boni أن يعتبره مماثلا له من جميع الوجوه لو أنه عبد الإله الحقيقى وحده. وشاور ملك بونى شعبه فى الأمر فقالوا له: «لم نحارب بعد، ولم نهزم بعدُ». وقد ذاقوا عاقبة الحرب، وحلت بهم الهزيمة. وكان من أثر ذلك أن اعتقد الملك الإسلام، وأخذ من ناحيته يحاول أن يفرض عقيدته على رعاياه، كما حاول أن يفرض هذه العقيدة على ما جاوره من الولايات الصغيرة، بالقوة والإكراه. ومن الغريب أن يقال إن الشعب طلب معونة ملك مكسر، فأرسل رسلا يطلبون إلى ملك بونى أن يجيب عن الأسئلة الآتية: هل فعل الملك ما فعله من الاضطهاد بوحى خاص من النبى؟ — أم فعل ذلك تلبية لنداء عادة قديمة؟ — أم فعل ذلك جريا وراء لذته الخاصة؟ فإن كان السبب الأول، فإن ملك جوا يتوق إلى معرفة تفصيل ذلك؛ وإن كان السبب الثانى، فسوف يمد إليه يد المساعدة بإخلاص؛ وإن كان السبب الثالث، فعلى ملك بونى أن يكف، لأن هؤلاء الذين ظن أنه يظلمهم، إنما هم أصدقاء جوا. ولم يجب ملك بونى عن شىء من هذه الأسئلة، وسير أهالى مكسر جيشا عظيما إلى تلك البلاد، وتغلبوا عليه فى ثلاث معارك متتالية، وأرغموه على مغادرة البلاد، وحولوا بونى إلى إمارة. وبعد أن ظل شعب بونى خاضعا ثلاثين عاما، رفعوا لواء العصيان فى وجه مكسر بمساعدة الهولنديين، وادعوا زعامة قبائل سليبيس، بدلا من سادتهم السابقين (٣). ولا شك أن الدعوة إلى الإسلام كانت تسير بين البوجى فيما يظهر تدريجيا وفى بطء (٤)، ولكن لم يكادوا يعتقدون الدين الجديد

---

(١) The Encyclopaedie van N. — I. وتذكر. Crawfurd (1), p. 91. (vol. i. p. 216) أن تاريخ هذه الواقعة هو سنة ١٦٠٦.

(٢) راجع ما كتبه فرناندو نفاريت، وهو قسيس أسبانى ذهب إلى جزائر الفيليبين فى سنة ١٦٤٦ وذلك فى

(Collection of Voyages and Travels, p. 236. London, 1752.)

وراجع ما كتبه تافرنيير Tavernier الذى زار مكسر سنة ١٦٤٨، فى

(Travels in India, p. 193.) (London, 1678.)

وراجع: Itinerarium Orientale R. P. F. Philippi à SSma. Trinitate Carmelitae Discalceati ab ipso conscriptum, p. 267. (Lugduni, 1649.)

(٣) Crawfurd, vol. ii. pp. 385-9

(٤) «ويظهر أنه لم تبذل جهود غير عادية فى مصلحة الدين الجديد، مدة طويلة. ويتميز شعب سليبيس، دون سائر القبائل فى الجزائر الشرقية، بأنه يمقت البدع، ويلتزم العادات القديمة فى اعتقاد وتدين. وهذه الصفات تدل، لأول وهلة، على أنها أشد العقبات التى تقف فى سبيل انتشار الإسلام. ولا يبعد أن يكون هذا هو السبب الذى أخر اعتقاد الناس هذا الدين الجديد تلك الفترة الطويلة حتى استطاع أن يتسرب إليهم عن طريق تسربله برداء القديم». Crawfurd (2), vol. ii. p. 387.

حتى أثار هذا الدين ، فيما يظهر ، روح العمل فيهم ، كما أثار العرب من قبل (ولو أن هذا النشاط الذى أوقظ حديثا فى كل من هاتين الحالتين كان يتحول إلى اتجاهات مختلفة كل الاختلاف) ، وخلق منهم القوم الذين تراهم الآن ، قوما كانوا من قبل أشجع الناس ، وأكثر سكان الأرخبيل مزاولة للتجارة واشتغالا فى الملاحة [١] . فهم يشقون طريقهم بسفنهم التجارية ، إلى كافة أنحاء الأرخبيل ، من ساحل غينيا الجديدة إلى سنغافورة ؛ وقد أدخلت جالياتهم المتنوعة ، التى ميزت قبائل البوجى أنفسهم فى تكوين هذه الجاليات تميزا خاصا ، دين الإسلام إلى كثير من الجزائر الوثنية : مثال ذلك ، أن إحدى مستعمراتهم كانت مؤسسة فى ولاية تنبسط على جزء كبير من ساحل فلورز الجنوبى حيث أحرزوا النجاح ، بعد أن اختلطوا بالأهالى الأصليين ، الذين كان جانب منهم يتألف من الرومان الكاثوليك ، فى " ويل كل سكان هذه الولاية إلى الإسلام [٢].

كذلك ربط البوجى فى بلادهم الأصلية ، جزيرة سليبيس ، بين الجهود فى نشر تعاليم الدعوة ، وأعمالهم التجارية ؛ وقد نجحوا ، فى مملكة بولانج مونجندو Bolaäng-Mongondou فى شبه الجزيرة الشمالى [٣] فى خلال القرن الحالى ، فى أن يضموا إلى الإسلام عددا من الأهالى المسيحيين الذين يرجع تاريخ تحولهم إلى الإسلام إلى نهاية القرن السابع عشر . وكان أول ملك مسيحى لمملكة بولانج - مونجندو يعقوب منوبو Jacobus Manopo (١٦٨٩ - ١٧٠٩) ، وفى عهده انتشرت المسيحية انتشارا سريعا ، بسبب نفوذ شركة الهند الشرقية الهولندية ، وتبشير رجال الكنيسة من الهولنديين [٤] . وكان جميع خلفائه مسيحيين حتى سنة ١٨٤٤ ، عند ما اعتقد الإسلام الراجه الحاكم فى ذلك الحين واسمه يعقوب مانويل منوبو . وكان دخوله فى الإسلام بداية سلسلة من الجهود فى نشر تعاليم الدعوة ، التى كانت قد أحرزت تقدما منذ بداية هذا القرن . ذلك أنه حدث حول ذلك الوقت ، أن الجهود الحماسية التى قام بها بعض تجار المسلمين - البوجى وغيرهم - قد ظفرت بفريق تحولوا إلى الإسلام فى إحدى المدن الساحلية لمملكة مونجندو الجنوبية . ومن هذه المدينة ذاتها ، أخذ داعيان من التجار ، يقال لهما حكيم نجوس وإمام تويكو ، ينشران دينهما فى سائر أنحاء هذه المملكة . وكان أول ما قاما به ، أن أدخلا فى الإسلام بعض العبيد ، والنساء الوطنيات اللائى تزوجوا منهن . وقد حث هؤلاء أصدقاءهم وأقاربهم على اعتقاد الدين الجديد شيئا فشيئا . ومن مونجندو انتشر الإسلام إلى مملكة بولانج الشمالية . وفى هذه البقعة ، فى سنة ١٨٣٠ ، كان الأهالى جميعا إما مسيحيين أو وثنيين ، عدا جاليتين أو ثلاثا من المسلمين . ولكن سرعان ما أحرز دعاة الإسلام المتحمسون من البوجى والعرب الذين ساعدوهم على أداء أعمالهم الخاصة بنشر الدعوة ، نجاحا واسع

(١) Crawfurd (I), p. 75. De Hollander, vol. ii, p. 212.

(٢) Id. vol. ii, p. 666. Riedel (2), p. 67.

(٣) وتقع شرقى ميناهسا بين خطى طول ٤٥ ْ١٢٤ و ٢٠ َ ١٢٣ ْ ، وقد قدر عدد سكانها تقديرا يتراوح بين ٣٥٠٠٠٠ ، ٤٠٠٠٠٠ (De Hollander, vol. ii, p. 247.)

(٤) Wilken (1), pp. 42-4.

النطاق . ولم يتسلح المسيحيون الذين كانت معرفتهم بعقائد دينهم تافهة للغاية ، والذين كان إيمانهم ضعيفا جدا ، تسلحا تاما بأسلحة الجدل لكى يواجهوا هجمات العقيدة المنافسة . ولما كانت الحكومة الهولندية تنظر إلى هؤلاء المسيحيين نظرة الاحتقار ، ورؤساء الكنيسة يهملون من شأنهم ويكادون ينبذونهم ، بدءوا يتطلعون إلى هؤلاء الغرباء ، الذين تزوج بعضهم من نسائهم ، واستقروا بينهم ، وأصبحوا أصدقاءهم . ولما تقدمت مهمة التحويل إلى الإسلام فى تلك البلاد ، أصبح تردد هؤلاء البوجى والعرب عليها أكثر - وكان من قبل نادر الوقوع - كما أصبح نفوذهم فى تلك البلاد يزداد زيادة كبيرة جدا ، حتى لقد بلغ من عظمه أن تزوج عربى ، حول سنة ١٨٣٢ ، ابنة الملك كورنيليوس منوبو Cornelius Manopo ، وكان يدين هو نفسه بالمسيحية . وحول هذا الوقت نفسه ، هجر كثير من الرؤساء ، وفريق من أعظم الناس نفوذا بينهم ، دين المسيحية واعتقدوا الإسلام . وعلى هذا النحو ، كان الإسلام قد توطدت أركانه فى مملكته ، قبل أن يصبح الراجه يعقوب مانويل منوبو مسلما فى سنة ١٨٤٤ . وكان هذا الأمير قد طلب مرارا إلى السلطات الهولندية فى مندو Manado أن تعين خلفا ليعقوب بستيان ، المعلم المسيحى - الذى كان موته خسارة فادحة للطائفة المسيحية - ولكن دون جدوى . ولما علم من نائب الحكومة الهولندية فى مندو أنها على حياد تام من حيث ديانة الشعب ، وأنه لا يعنيها أن يكون شعب ولايته مسيحيين أو مسلمين ، ما داموا مخلصين ، صرح أمام الملأ أنه قد أصبح مسلما ، وحاول كل وسيلة لحمل رعيته على الدخول فى هذا الدين نفسه. واستغل أحد دعاة العرب وقوع زلزال شديد فى السنة التالية ، فتنبأ بخراب بولانج مونجندو ، إذا لم يبادر شعبها إلى الدخول فى الإسلام . وهرع كثيرون من فزعهم إلى اتباع هذه النصيحة ، ومد الراجه وأشرافه يد المساعدة للدعاة وتجار العرب ، الذين لم يكونوا على الدوام يستخدمون أرق الوسائل وأنبلها فى معاملة الذين تراخوا عن هذا الدين . على أن نصف الأهالى تقريبا لا يزالون على وثنيتهم ، وإن كان تقدم الإسلام بينهم ، على بطئه ، مستمرا فى صورة مؤكدة (١).

ولا يبعد أن تكون جزيرة سمبوا Sambawa القريبة كذلك، قد تلقت معرفتها بهذا الدين من سليبيس، عن طريق الدعوة التى قام بها الدعاة من مكسر بين سنتى ١٥٤٠ و ١٥٥٠ . وإن جميع السكان الذين نالوا حظا أرقى من المدنية والحضارة مؤمنون صادقون ، ويقال إنهم أشد تمسكا فى إقامة فرائضهم الدينية من أى شعب من الشعوب الإسلامية التى تجاورهم . ويرجع ذلك بنوع خاص إلى حركة تجديدية بعثها شخص يدعى حاجى على ، بعد انفجار جبل تمبورا فى سنة ١٨١٥ ، تلك الكارثة المفزعة التى نجمت عن ذلك ، فاستغلت لإثارة الشعب على أن يحافظوا على مبادىء دينهم على نحو أقوى ، وأن يهتدوا إلى حياة أكثر ورعا وتدينا(٢). ولا يزال الإسلام فى الوقت الحاضر يوالى اجتذاب مسلمين جدد فى هذه الجزيرة(٣) .

(١) Wilken (2), pp. 276-9. Koloniaal Verslag van 1910, p. 52 ; 1911, p. 47.

(٢) Zollinger (2), pp. 126, 169.

(٣) Med. Ned. Zendelinggen, xxxii. p. 177 ; xxxiv. p. 170.

ولذلك يرجع الفضل فى تحويل السسك Sasaks ، الذين يسكنون فى جزيرة لمبوك Lombok المجاورة إلى الإسلام ، إلى الدعوة التى قام بها البوجى ، الذين يكوّنون مستعمرة كبيرة فى هذه البقعة ، وقد قدموا إما عن طريق عبور المضيق من سمبوا ، أو من سليبيس رأسا . ومهما يكن من شىء ، فإن التحويل إلى الإسلام ، فيما يظهر ، قد حدث بطريقة سلمية[١] . وينقسم أهالى لمبوك قسمين متميزين ، السسك والبليليون . أما الجماعة الأولى ، وهم عبارة عن السسك المسلمين ، سكان الجزيرة الأصليين ، فإنها تفوق الجماعة الثانية عددا ، إلا أنهم أصبحوا ، حول منتصف القرن الثامن عشر ، تحت حكم البليليين ، وسرعان ما وجدوا أفواجا من جيرانهم الهندوكيين يجتاحون جزيرتهم[٢] . وكان حكم البليليين جائرا للغاية ، وقد بذلوا جهودا — لم تصادف نجاحا كبيرا — لحمل رعاياهم المسلمين على اعتقاد الديانة الهندوكية . وحاول السسك ، دون جدوى ، أن يتخلصوا من نير هؤلاء الحكام الجائرين ، ولجئوا إلى الحكومة الهولندية أكثر من مرة ، قبل أن تجلب حملة سنة ١٨٩٤ تباشير السلام إلى الجزيرة ، وأن تقيم إدارة منظمة فى ظل الحكم الهولندى . وقد جلبت الحكومة الجديدة معها عددا كبيرا من الموظفين الوطنيين من المسلمين ، الذين يستخدمون نفوذهم فى مصلحة دينهم ، ومن ثم كان من المتوقع أن تكون إحدى نتائج الغزو الهولندى للمبوك ، إمداد الإسلام بروح قوية دافعة فى هذه الجزيرة[٣] .

ونجد فى جزائر الفيليبين صراعا بين المسيحية والإسلام لكسب ولاء السكان ، وهذا الصراع يشبه فى طابعه ما حدث فى سليبيس إلى حد ما ، إلا أنه أكثر عنفا وشدة ؛ فقد اشتبك فيه الأسبان والمسلمون فى نزاع عنيف دام ، حتى القرن التاسع عشر . وليس من المحقق أن نقف على الزمن الذى وصل فيه الإسلام إلى هذه الجزائر لأول مرة[٤] . وتصور لنا أخبار مندناو Mindanao ، أن الإسلام دخل إلى هذه الجزائر من جوهور Johore ، فى شبه جزيرة الملايو ، على يد شخص يدعى شريف كابونجسوان ، الذى استقر مع عدد من الأتباع فى الجزيرة ، وتزوج هناك . ويقال إنه أبى أن ينزل إلى الشاطىء حتى يعده هؤلاء الذين قدموا للقائه عند وصوله ، أن يعتقدوا الإسلام . وتوحى هذه الأخبار القديمة بأن نزول كابونجسوان على الشاطىء ، ودخول شعب مندناو فى الإسلام ، قد حدث أول الأمر فى غاية الهدوء والسكينة . ولكنه ، بعد أن وطد سلطته ، أخذ يغزو من جاوره من الزعماء والقبائل ، فقبلوا ديانته عندما

---

(١) Zollinger (1), p. 527.

(٢) ويذكر دى هولاندر De Hollander فى سنة ١٨٨٢ أن عدد البليليين ٢٠٠٠٠ ، وعدد السسك ٣٨٠٠٠٠ . (Vol. i. p. 489)

(٣) Encyclopaedie van N.-I. vol. ii. pp. 432-4, 524. W. Cool: With the Dutch in the East. An outline of the military operations in Lombok, 1894. (London, 1897.)

(٤) يقول كابتن توماس فورست ، فيما كتبه سنة ١٧٧٥ ، إن العرب قدموا إلى جزيرة مندناو قبل ذلك بثلاثمائة سنة ، وإن ضريح أول عربى ، وكان أحد أشراف مكة ، لا يزال يرى — وهو عبارة عن « كومة جافة من أحجار المرجان الصخرية » .
(pp. 201 313)

أذعنوا لسلطانه (١). وقد وجد الأسبان ، وكانوا قد اهتدوا إليهم فى سنة ١٥٢١ ، أن أهالى الجزائر الشمالية قوم همج يعبدون رموزا ساذجة من الأوثان ، على حين وجدوا قبائل إسلامية أكثر رقيا وحضارة (٢) ، فى جزائر مندناو وسولو . وقد قاوم أهالى سولو على وجه الإجمال ، كل الجهود التى بذلها المسيحيون فى الغزو والتبشير ، حتى نهاية القرن التاسع عشر ، مقاومة ناجحة ، إلى حد أن المبشرين الأسبان يئسوا من الاستمرار فى القيام بأعمال التبشير (٣) . ويرجع نجاح الإسلام إلى حد بعيد ، إذا ووزن بالمسيحية ، إلى الصورة المختلفة التى عُرضت بها هاتان الديانتان على أهالى هذه البلاد . وقد انطوى اعتقادهم المسيحية على فقد الحرية السياسية كلها ، والاستقلال القوى ، ومن هنا أصبح الناس ينظرون إليها على أنها رمز العبودية . وقد قدر للوسائل التى اتخذها الأسبان لنشر دينهم أن تجعل هذا الدين منذ البداية غير محبب لدى الشعب . وكان عنفهم وتعصبهم على طرفى نقيض مع سلوك التسامح الذى ظهر به دعاة المسلمين، الذين تعلموا لغة الشعب ، وانتحلوا عاداته ، وأصهروا إليه . وبغناتهم فى عامة الشعب ، لم يدّعوا لأنفسهم كافة الحقوق التى تقتصر على جنس متميز عن سائر الأجناس ، ولا رموا الأهالى بأنهم فى مستوى طبقة منحطة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، كان الأسبان يجهلون لغة الأهالى وعاداتهم وأحوالهم ، وقد أدى فساد أخلاق هؤلاء الأسبان ، بل شحهم وجشعهم ، إلى جعل دينهم مبغضا إلى النفوس ، كما كان المقصود من نشر دينهم استخدامه أداة لتقدمهم السياسى (٤) . لهذا فإنه ليس من العسير أن ندرك المعارضة التى أظهرها الأهالى إزاء دخول المسيحية ، التى لم تصبح فى حقيقة الأمر إلا ديانة الشعب فى تلك الجهات حيث كان السكان من الضعف ، أو كانت الجزيرة من الصغر ، بحيث مكنوا الأسبان من إخضاع البلاد إخضاعا تاما . ولم يكن بد من أن يرغم المسيحيون من الأهالى ، بعد دخولهم فى المسيحية ، على أداء واجباتهم الدينية خوفا من العقاب ، كما أنهم عوملوا معاملة أطفال المدرسة سواء بسواء (٥) . وكانت مملكة مندناو الإسلامية ، حتى زمن احتلال الأمريكيين جزائر

(١) N. N. Saleeby : Studies in Moro History, Law and Religion, pp. 24-5, 53-5. (Manila, 1905.)

(٢) Relatione di Ivan Gaetan del discoprimento dell' Isole Molucche. (Ramusio, tom. i. p. 375 E.)

(٣) ,, وقد ظهر أنهم من العناد لرحمة الله والبعد عن عقيدته بحيث أصبح من المستحيل تقريبا أن يتحولوا إلى النصرانية ,, .

(Cartas de los PP. de la Compania de Jesús de la Mission de Filipinas, 1879, quoted by Montero y Vidal, tom. i. p. 21.)

(٤) Crawfurd (2), vol. ii. pp. 274-280.

(٥) ,, وهم قليلو العناية بتأدية واجب المسيحية التى تلقوها ، ولم يكن بد من أن يرغمهم على أدائه بتحذيرهم من العقاب ، وأن يعاملهم كما يساس أطفال المدارس ,, .

Relation des Isles Philippines, Faite par un Religieux, p. 7. (Thevenot, vol. i.)

الفيلبين ، ملجأ لهؤلاء الذين رغبوا فى التخلص من الحكومة المسيحية البغيضة(١). وقد كوّنت جزيرة سولو، كذلك، مع أنها دخلت اسميا فى حوزة الأسبان منذ سنة ١٨٧٨ ، مركزا إسلاميا آخر مناهضا للمسيحية ، كما وُجِد به المرتدون من الذين يتكلمون اللغة الأسبانية(٢).

وليس لدينا شاهد تاريخى معين ، يبين المدة التى قضاها سكان جزائر سولو فى الإسلام ، قبل قدوم الأسبان . وتذكر أخبار سولو اسم الشريف كريم المخدوم باعتباره أول داع إلى الإسلام فى هذه الجزائر . ويقال إنه كان عربيا ، ذهب إلى ملقه حول منتصف القرن الرابع عشر ، وأدخل السلطان محمد شاه وشعب ملقه فى الإسلام . وقد واصل رحلته شرقا ، حتى وصل إلى سولو حول سنة ١٣٨٠ ، واستقر فى بوانسا Bwansa (٣) ، قاعدة سولو القديمة ، حيث بنى له الأهالى مسجدا وتقبل كثير من الرؤساء تعاليمه . وقد قيل إنه زار كل جزيرة فى الأرخبيل تقريبا ، وإنه أدخل فى الإسلام ناسا فى أماكن كثيرة . ويقال إن ضريحه فى جزيرة سيبوتو Sibutu (٤) ؛ كما يقال إن الداعى الذى جاء بعده هو أبو بكر ، وقد ذُكر كذلك أنه عربى ، وأنه بدأ نشاط دعوته فى ملقه ، وأنه شق طريقه إلى پالمبنج وبروناى Brunai ، ووصل إلى سولو حول سنة ١٤٥٠ ، وبنى مساجد وقام بدعاية ناجحة . وقد زوجه الراجه بجندا Baginda ، ملك بوانسا المسلم ، من ابنته ، وجعله وريثه . وإلى أبى بكر يرجع الفضل فى تنظيم حكومة سولو وسن قوانينها على أسس إسلامية قويمة ، بقدر ما كانت تسمح به العادات المحلية (٥) . وعلى الرغم من أنهم دخلوا فى الإسلام منذ زمن بعيد ، فإن المسلمين من أهالى سولو بعيدون عن التمسك بدينهم ، وفى الحق أن مؤثرات العبيد المسيحيين ، على اختلافهم ، وكانوا قد نقلوها معهم من جزائر الفيلبين فى غاراتهم التى كانت تقوم على النهب والسلب ، كانت فى العادة من القوة بحيث زعم بعض الباحثين(٦) ، أنهم كانوا قد اعترفوا بأنهم مسيحيون قبل ذلك بوقت طويل ، ولكن على تقدير أن مثل هذا التغيير لدينهم ، عن طريق إلقاء تأثير قوى غلاب إلى رجال الدين المسيحى ، لا بد أن يقوض دعائم سلطة هؤلاء العبيد ، ويمهد الطريق إلى نقل ممتلكاتهم إلى الحكم الأسبانى . وهذه حادثة قد علمتها التجارب القائلة ، فى قوة وعنف ، كلّ الشعوب

---

(١) «وفى منداناو ، عند قبائل تاجال التى تمكن فى الشرق ، عند ما أراد هؤلاء التاجال أن يتخلصوا من نير السادة الكاثوليك البغيض ، تجمعوا وزاد عددهم يوما بعد يوم ، والتفوا حول رؤساء الأسرات الوطنية ، وكان هنالك أكثر من ٣٦٠ ألف من المسلمين ، يعترفون بأن القرآن دستورهم الوحيد . وقد تقدم دعاة المسلمين من الصين والهند رؤساء دينيين ، ومعلمين للأهالى ، بدلا من اليسوعيين الذين طردوا من الجزيرة ، ومن الذين يمثلون الديانة الرسمية ، وعلى ذلك جدد هؤلاء المسلمون الدعوة التى بدأها العرب الفاتحون» . (A. le Chatelier (2), p. 45.)

(٢) Montero y Vidal, vol. i. p. 86.

(٣) على بعد ثلاثة أميال إلى الغرب من جولو ، قاعدة البلاد الحالية .

(٤) N. M. Saleeby : The History of Sulu, pp. 150, 158-9. (Manila, 1908.)

(٥) Id. pp. 150, 162-3.

(٦) J. H. Moor. (Appendix, p. 37.)

المحيطة التي انتحلت العقيدة المسيحية في تهور واستهتار . أضف إلى ذلك ، أن مسلك العدوان الذى ظهر به قساوسة الأسبان الذين أقاموا بعثة تبشيرية في سولو ، قد خلق في نفوس الأهالى نفورا شديدا من الديانة الأجنبية (١) .

ومنذ احتل الأمريكيون جزائر الفيليبين ، أصبح التأثير الإسلامى محدودا إلى حد كبير ، وهو الآن ينحصر في جزيرة پلوان Palawan ، وساحل منداناو الجنوبى ، ومجموعة جزائر سولو(٢) . ولكن يقال إنه يجد في نشر دعوته بين الجزائر الشمالية ، وإنه بدأ نشاط الدعوة حتى في منيلا Manila . ويقال إن أحوالا معينة قد ساعدت على نجاحه ، ولا سيما تلك الحقيقة ، وهى أن أهالى جزائر الفيليبين يتحاملون على المسيحية ، بسبب المساوىء التى أدت بهم إلى حمل السلاح في وجه رهبان الأسبان(٣) .

وقد قوبل الإسلام ، كما ذكرنا من قبل ، بأسمى آيات القبول من شعوب أرخبيل الملايو الذين يتمتعون بحضارة أرق ، كما أنه لم يرسخ إلا قليلا عند الشعوب التى هى أشد انحطاطا وتأخرا . ومن أمثلة هؤلاء ، البپوان Papuans في غينا الجديدة ، وفى الجزائر التى تقع إلى الشمال الغربى منها ، نعنى بذلك الوايجيو Waigyu والميسول Misool ، والوايجما Waigama والسلوتى Salawatti . وكانت هذه الجزائر ، بالإضافة إلى شبه جزيرة أونين Onin ، إلى الشمال الغربى من غينا الجديدة ، خاضعة في القرن السادس عشر لسلطان باتجان(٤) ، أحد ملوك ملوكس . وبفضل نفوذ حكام باتجان من المسلمين ، اعتنق زعماء البپوان في هذه الجزائر الإسلام (٥) . ومع أن عامة الشعب في المنطقة الداخلية قد ظلوا على وثنيتهم حتى الوقت الحاضر ، فإن سكان الساحل مسلمون . ولا شك أن إسلامهم يرجع بنوع خاص إلى تأثير هؤلاء الذين جاءوا من ملوكس واستقروا في هذه البلاد(٦) . وفى غينا الجديدة نفسها ، يظهر أن فئة قليلة جدا من البپوان قد اعتقدوا الإسلام . وقد دخل هذا الدين إلى الساحل الغربى (وربما إلى شبه جزيرة

---

(١) Dalrymple, p. 549.

(٢) R. du M. M., vii. pp. 115-16. (1909.)

(٣) The Missionary Review of the World, N. S., vol. xiv, p. 877 (New York, 1901.)

(٤) وأول من اعتنق الاسلام من أمراء باتجان كان شخصا يدعى زين العابدين ، وكان يحكم في سنة ١٥٢١ ، عند ما قدم البرتغاليون إلى ملوكس للمرة الأولى .

(٥) Robidé van der Aa, pp. 350, 352-3.

(٦) Id. p. 147 . وقد ورد عن جزيرة ميسول : ,, إن كل سكان الساحل مسلمون ... وسكان الجبل وثنيون،، Id. p. 53 . وورد عن جزيرة سلوتى Salawatti : ويجهر فريق صغير من السكان بعقيدة محمد ، على أن السواد الأعظم يتألف من قبيلة بپوان الوثنية . وقد تحول عدد قليل منهم إلى الدين الاسلامى أو اعتنقوا مبادئه ظاهريا .، Id p. 299 (Waigyu).

وقد دخل في الاسلام بعض البپوان من جزيرة جبى ، بين وايجيو وها لماهيرا ، على يد المسلمين المستوطنين الذى جاءوا من ملوكس.

(Crawfurd (1), p. 143.)

أونين) على أيدى تجار المسلمين ، الذين أذاعوا دينهم فى السكان فى عهد مبكر يرجع إلى سنة ١٦٠٦ [١] . ولكن يظهر أنه لم يصادف نجاحا كبيرا فى خلال القرون التى خلت منذ ذلك الحين [٢]. وأبدى الپپوان نفورا شديدا من الدخول فى الإسلام ، كذلك النفور الذى أبدوه فى قبول تعاليم المبشرين المسيحيين الذين قاموا بأعمال التبشير بينهم منذ سنة ١٨٥٥ ، ولم يصادفوا نجاحا كبيرا فى هذه السبيل . وقد اتهم مسلمو الجزائر المجاورة بأنهم يحتقرون الپپوان احتقارا شديدا بحيث لايستطيعون أن يبذلوا جهودا لنشر الإسلام بينهم [٣] . على أن هنالك اسم أحد الدعاة ، ويدعى الإمام دِكْر (ربما ذكَر) ؛ وكان قد قدم من إحدى الجزائر على الجنوب الشرقى من سرام Ceram حول سنة ١٨٥٦ ، وأدخل الإسلام إلى جزيرة أدى الصغرى Adi ، جنوبى شبه جزيرة أونين . وبعد أداء رسالته ، عاد إلى وطنه ، بعد أن قاوم إلحاح السكان الذين طلبوا إليه أن يستقر بينهم [٤] . وقد روت الأخبار أن تجار المسلمين من سرام وجُسرام قد أدخلوا فريقا فى الإسلام من بين الوثنيين فى خلال العقد الأول من القرن العشرين [٥] . وتبذل جهود مماثلة لتحويل الپپوان فى جزائر كى Kei المجاورة إلى الإسلام . وقد قيل إنه كان من الصعب أن نجد فى منتصف القرن التاسع عشر ، أى فريق من المسلمين على هذه الجزائر ، لا نستثنى إلا سلالة المهاجرين من جزائر بنده . وقبل ذلك بقليل ، كان الدعاة من سرام قد نجحوا فى إدخال عدد فى الإسلام ، بيد أنه قلما كانت تراعى تعاليم الإسلام بينهم ، فقد أباحوا لأنفسهم أكل اللحوم المحرمة وشرب المسكرات . على أنه قيل إن النساء كن أشد تمسكا بأهداب الدين من الرجال ، حتى إن بعولتهن كانوا إذا رغبوا فى أن يبيحوا لأنفسهم أكل لحم الخنزير ، فعلوا ذلك سرا ، لأن نساءهم كنّ لا يسمحن بجلبه إلى المنازل [٦] . وقد لوحظ فى سنة ١٨٨٧ ، أنه كانت هنالك نهضة فى الحياة الدينية بين أهالى جزائر كى ، كما كان عدد

(١) Robidé van der Aa, p. 352.

(٢) على أن كابتن فورست يخبرنا فى سنة ١٧٧٥ أن ,, كثيرا من البپوان قد انقلبوا مسلمين ،، .

(Voyage to New Guinea, p. 68.)

(٣) Robidé van der Aa, p. 71. ,, وقد بلغ من شدة قسوة طبيعة كل من أفراد قبيلة پاپو (مفردها بپوان) أنه لم يكن يشعر بالحاجة إلى اعتناق دين من الأديان . ولم تكن هناك عقيدة أخرى . ولم تكن هناك غير الديانة المسيحية تستطيع أن تجد إلى نفسه سبيلا لو تدع للإسلام النجاح ، إذا بذل شىء من الجهد بين هذه الشعوب . وبقدر ما ظهر لى فى خلال رحلات خمس قمت بها فى هذه البلاد ، لم يقم شعب تيدور ولا شعب سرام أو غيرهما قط بأى مجهود جدى لإدخال عقيدة محمد هنا ... وقد لعب رؤساء قليلين جدا فقط من أمثال راجات أمبات أرف وريجبو، وسلواتى ، وميسول ووايجما ، من هؤلاء يجهرون بهذا الدين ، وذلك بسبب تخلفهم إلى تيدور عدة مرات باعتبارهم بابوانيين. ولم يحاول أحد قط أن يدخل الإسلام بين الأهالى الأصليين . ولا يبعد مطلقا أن يكون ذلك راجعا إلى احترامهم ذلك الدين ، الذى يعدونه فوق مستوى البابوانيين بكثير،،

(٤) Robidé van der Aa, p. 319.

(٥) Koloniaal Verslag van 1906, p. 70 ; 1911, p. 52.

(٦) The Journal of the Indian Archipelago, vol. vii. pp. 64, 71. (Singapore, 1853.)

المسلمين يكثر يوما بعد يوم . وقد برهن تجار العرب من مادورة وجاوة وبالى على أنهم دعاة متحمسون للاسلام ، ولم يدعوا وسيلة إلا حاولوها لجذب الداخلين فى هذا الدين . وكانوا يدعمون حججهم بالتهديد والعنف تارة ، وبالرشا تارة أخرى . وقد قيل إن العادة قد جرت بأن يتقاضى كل من يدخل حديثا فى الإسلام ، ما يساوى مائتى فلورين(§) من الهدايا ، على حين كان الزعماء يتسلمون مبلغا هائلا يساوى ألف فلورين(١) . وفى نهاية القرن التاسع عشر ، قيل إن نحوا من ٨٠٠٠ من سكان جزائر كى كانوا مسلمين من بين مجموع سكان هذه الجزائر الذى يبلغ ٢٣٠٠٠(٢) .

وإن الصورة العامة التى رسمناها من قبل عن انتشار الإسلام من الغرب إلى الشرق عن طريق أرخبيل الملايو ، لا تؤلف إلا جانبا قليلا من تاريخ أعمال الدعوة إلى الإسلام فى هذه الجزائر . وكثير من حقائق هذا التاريخ لم يدون بأكمله ، وإن ما يمكن أن نلتقطه من التواريخ الوطنية ، ومؤلفات الرحالين الأوربيين ، والموظفين والدعاة ، إنما هو متفرق ناقص فى جوهره . على أن هناك شواهد كافية تدلنا على وجود جهود سلمية فى الدعوة لنشر عقيدة الإسلام فى خلال السنوات الستمائة الأخيرة . حقا إن السيف كان يمتشق أحيانا لتأييد قضيـــة الدين ، ولكن الدعوة والإقناع ، وليس القوة والعنف ، كانا هما الطابعين الرئيسين لحركة الدعوة هذه . وإن النجاح الرائع هو الذى أحرزه التجار بنوع خاص ، الذين كسبوا السبيل إلى قلوب الأهالى ، بتعلم لغتهم ، وانتحال أخلاقهم وعاداتهم ، وأخذوا فى رفق وتدرج ، ينشرون معارف دينهم بأن بدءوا بأن يحولوا إلى الإسلام ، نساء البلاد اللائى تزوجوا منهن ، والأشخاص الذين ارتبطوا معهم بعلاقات تجارية . وبدلا من أن يعتزلوا الأهالى فى أنفة وكبرياء ، امتزجوا شيئا فشيئا فى عامة الشعب ، واستخدموا كل ما يتميزون به من تفوق فى العقلية والحضارة فى القيام بأعمال التحويل إلى الإسلام ، واصطنعوا لمبادىء دينهم وطقوسه ، شروطا حاذقة ، ومخارج ماهرة ، كانوا يرونها لازمة لتقريب هذا الدين إلى أذهان الشعب الذى كانوا يرغبون فى جذبه إليهم(٣) . وفى الواقع ، »كان دعاة المسلمين - كما قال عنهم بكل Buckle - على جانب عظيم من الحكمة والروية(٤) « .

وإلى جانب التجار ، كانت هنالك جموع ممن يصح أن نسميهم الدعاة المحترفين — وهم الفقهاء ، والقضاة والحجاج . وكان الحجاج ، فى السنين الأخيرة ، نشيطين فى نشر تعاليم الدعوة بنوع خاص ، وذلك بحث مواطنيهم على لون من الحياة الدينية ، أكثر نشاطا ، وأشد تماسكا ، وبتطهيرها من بقايا عادات الوثنية

(§) عملة أسبانى عشرة قروش تقريبا .

(١) G. W. W. C. Baron von Hoëvell, p. 120: Krieger, p. 436.

(٢) Encyclopaedie van N.-I. vol. ii. p. 210.

(٣) Crawfurd (2), pp. 275, 307.

(٤) Buckle's Miscellaneous and Posthumous Works, edited by Helen Taylor, vol. i. p. 594. (London, 1872.)

ومعتقداتها . وإن عدد الذين يذهبون إلى مكة لأداء فريضة الحج من كل جهات الأرخبيل آخذ فى الزيادة على الدوام ، وتبع ذلك نمو التأثير الإسلامى والفكرة الإسلامية نموا مناسبا . وقد حاولت الحكومة الهولندية ، حتى منتصف القرن التاسع عشر ، أن تضع العراقيل فى سبيل الحجاج ، فأصدرت أمرا بأنه لا يجوز لأحد أن يؤدى فريضة الحج إلى المدينة المقدسة إلا إذا حصل على جواز سفر ، وكان لا بد أن يدفع للحصول عليه ١١٠ فلورين . وكل من يخالف هذا الأمر ، تلزم عند عودته بأن يدفع غرامة تساوى ضعفى هذا المبلغ (١) . ومن ثم لا نعجب أن نجد عدد الحجاج فى سنة ١٨٥٢ ينخفض حتى يصل إلى السبعين . ولكن هذا الأمر لم يلبث أن ألغى فى هذه السنة نفسها ، وأخذ عدد الحجاج يزداد منذ إلغائه زيادة ثابتة .

وبلغ متوسط عدد الحجاج فى خلال العقد الأول من القرن التاسع عشر ٧٠٠٠ — وفى خلال العقد الأول من القرن العشرين ٧٣٠٠ (٢) ؛ ولكن العدد يتفاوت كثرة سنة فأخرى . وكان أكبر عدد سجل من جزائر الهند الهولندية ١٤،٢٣٤ فى سنة ١٩١٠ (٣) .

ولا شك أن مثل هذه الزيادة تعزى بنوع خاص إلى زيادة تيسير المواصلات بين مكة وأرخبيل الملايو ؛ ولكن هذا ، كما لاحظ ذلك أحد المبشرين المسيحيين ، لا يقلل بحال من أهمية تلك الحقيقة ، ولا سيما أن الحجاج ، الذين نما عددهم بسرعة فائقة ، لم يفقدوا بحال من الأحوال من صفاتهم ما حصلوا عليه من كثرة عددهم . فالأمر على خلاف ذلك ، يوجد الآن بينهم كثير من هؤلاء أكثر إلماما وأشمل معرفة بمبادىء الإسلام ، وأشد تشربا بالتعصب الإسلامى وكراهية الكفار ، منهم قبل أن يؤدوا فريضة الحج ، (٤) وتحمل تقارير الحكومة الهولندية والمبشرين المسيحيين ، دليلا لامراء فيه على تأثير هؤلاء الحجاج ، وحماستهم فى نشر تعاليم الدعوة ، وكانوا يعودون إلى أوطانهم مصلحين ودعاة فى وقت واحد(٥). وإلى جانب الحجاج الذين كانوا يقنعون بمجرد زيارة البقاع المقدسة ، وتأدية الشعائر اللازمة ، وهؤلاء الذين يقضون وقتا أطول هناك لإتمام دراساتهم الدينية ، نجد فى مكة ، فى الوقت الحاضر ، جالية كبيرة من أهالى الملايو ، الذين اتخذوا مقامهم فى المدينة المقدسة إلى الأبد . وهؤلاء على إتصال دائم بمواطنيهم فى أوطانهم . وكانت جهودهم فى الغالب فعالة فى تطهير الإسلام فى أرخبيل الملايو من شوائب العادات

(١) Neimann, pp. 406-7.

(٢) C. Snouck Hurgronje : De hadji-politiek der Indische Regeering, p. 12. (Overdruk uit Onze Eeuw, 1909.)

(٣) Id: Notes sur le mouvement du pèlerinage de la Mecque aux Indes Néerlandaises. (R. du M. M., vol. xv. pp. 409, 412.)

(٤) Report of Centenary Conference on Protestant Missions, vol. i. p. 21, Niemann, p. 407.

(٥) Med. Ned. Zendelinggen. vols. xxxii. xxxiv. passim.

الوثنية ووسائل التفكير الوثنى التى بقيت من العهود القديمة . كذلك طبعت فى مكة مجموعة كبيرة من الكتب الدينية باللغات المختلفة التى يتكلمها مسلمو الملايو ، وأرسلت إلى كل جهات الأرخبيل . وفى الواقع أن تأثير مكة فى الحياة الدينية فى هذه الجزائر ، كما قيل بحق ، كان أقوى منه فى تركيا أو الهند أو بخارى (١) .

وكما كان من الممكن أن نتوقع إذا تأملنا هذه الحقائق ، نجد فى السنين الأخيرة نهضة عظيمة جدا فى نشاط الدعوة فى أرخبيل الملايو (٢)، وأصبح الحجاج العائدون من مكة، سواء أكانوا تجارا أم معلمين دينيين ، دعاة إلى الإسلام فى البقاع التى كانوا يتصلون فيها بالأهالى الوثنيين . أضف إلى ذلك أن الجماعات الدينية بسطت نظامها على أرخبيل الملايو ، بل لقد وجدت أحدث هذه الجماعات عهدا ، وهى السنوسية ، أتباعا لها فى أقصى هذه الجزائر (٣) ، ومما يدل على تأثيرها أن كثيرا من سكان الملايو يتسمون باسم سنوسى ، على حين كانوا فى مكة يبدلون أسماءهم الوطنية بأخرى عربية (٤) .

وقد اتهم المبشرون المسيحيون الحكومة الهولندية بأنها تساعد على انتشار الإسلام . ومهما يكن من شىء، فإن من المحقق أن الذى سهل مهمة الدعاة المسلمين هو تلك الحقيقة، وهى أن لغة الملايو ، التى لا يكاد يتكلمها إلا المسلمون ، قد اتخذت اللغة الرسمية للحكومة الهولندية إلا فى جاوة . ولما كان موظفو الدولة من الهولنديين (من غير العسكريين) قد ألحقوا فى كل مكان بجمع حاشد من المسلمين الذين كانوا موظفين مرءوسين ، ورجالا فى الهيئة السياسية ، وكتبة ، ومترجمين ، وتجارا ، حملوا الإسلام معهم إلى كل مكان ينزلون فيه . وكان حتما على كل الأشخاص الذين يربطهم بالحكومة عمل ما ، أن يتعلموا لغة الملايو ، وقلما كانوا يتعلمونها دون أن يصبحوا مسلمين فى الوقت نفسه . وعلى هذا النحو ، اعتقد الأهالى ذوو النفوذ والسلطان الإسلام ، وبادرت البقية الباقية إلى الاقتداء بهم (٥) . وبذلك يعمل الإسلام فى الوقت الحاضر على طرد الوثنية من أرخبيل الملايو فى سرعة .

---

(١) Snouck Hurgronje (3), vol. ii. pp. xv. 339-393. Encyclopaedie van N.-I., vol. ii. pp. 576-9.

(٢) مثال ذلك القادرية والنقشبندية والسّمانية .

(C. Snouck Hargronje (2), p. 186.) Id. (3) vol. ii. p. 372, etc.

(٣) J. G. F. Riedel (1), pp. 7, 59, 162.

(٤) Snouck Hurgronje (3), vol. ii. p. 323.

(٥) Hauri, p. 313. Encyclopaedie van N.-J., vol. ii. p. 524.

الباب الثالث عشر

خاتمة

دعاة المسلمين :-

فى العالم المسيحى الحديث ، تتمثل مهمة التبشير فى الجمعيات التبشيرية ، والموكلين بالتبشير كفاء أجور يتقاضونها ، والتبرعات ، والتقارير والصحف . ويبدو أن « مشروع التبشير » تسمية غير صحيحة متى كان مجردا من هيئة مؤلفة تأليفا منظما بصفة مستمرة . وقد روعى فى تأليف هيئة الكنيسة المسيحية ، منذ بدء تاريخها ، نشر التعاليم المسيحية بين الكفار . وكان مبشروها ، فى أغلب الأحيان ، قساوسة ورهبانا ، يعيشون لهذا الغرض بانتظام . وقد توافرت جماعات الأديار (منذ قيام جماعة بندكت فالجماعات التى جاءت بعدها) والجمعيات التبشيرية التى نجدها فى أزمان أحدث عهدا ، على اتجاه خاص ينحصر فى ترقية إدارة المهمة المسيحية التى اعتُرف منذ البداية بأنها إحدى واجبات الكنيسة الأساسية . أما فى الإسلام فإن عدم وجود أى لون من ألوان الكهنوت أو أية هيئة دينية منظمة أيا كانت ، قد جعل نشاط الدعوة عند المسلمين يتجلى فى صور مختلفة تمام الاختلاف عن تلك التى تظهر فى تاريخ البعوث التبشيرية المسيحية . فليس هنالك جمعيات للدعوة (١) ، ولا موكلون مدربون لهذا الغرض ، كما أنه قلما نجد مواصلة الجهود فى هذه السبيل . ويظهر أننا لا نستثنى إلا جماعات الإسلام الدينية ، التى يشبه نظامها ، إلى حد ما ، نظام جماعات الأديار فى العالم المسيحى . ولكن حتى فى تلك الجماعات الإسلامية ، نجد أن عدم وجود فكرة عن نظام الكهنوت ، أو أية نظرية ترى فصل المعلم الدينى عن عامة المؤمنين ، أو ترى ضرورة العكوف على تأدية الوظائف الدينية ، والتصريح بها - كل ذلك يجعل الاختلاف الأساسى فى النظامين ، يظل قائما فى كل مكان ، فى وضوح وجلاء .

ومهما تكن المساوئ التى نجمت من حاجة المسلمين إلى طبقة كهنوتية تختص بنشر العقيدة ، فقد وجدوا ما يعوضهم عنها فى ذلك الشعور الناشئ عن المسئولية التى ألقيت على كواهل المؤمنين من الأفراد . ولما لم يكن هنالك واسطة بين المسلم وربه ، كانت مسئولية خلاصه الشخصى ملقاة على كاهله وحده ، وكان من أثر ذلك أن أصبح المسلم ، كما جرت العادة ، أكثر تشددا واهتماما فى أداء واجباته الدينية ، وأشد تحملا للمتاعب فى سبيل تعلم مبادئ دينه وشعائره . وبذلك يؤثر ، وقد رسخت فى ذهنه أهمية هذه المبادئ وتلك الشعائر لنفسه ، أن يصبح رمزا لخلق الداعى إلى دينه بين يدى الكافر . ولم يكن

---

(١) لم تبدأ هيئات منظمة على غرار الجمعيات المسيحية التبشيرية فى الظهور إلا فى القرن العشرين ، وقد أوردنا طرفا منها فى ملحق ٣ من هذا الكتاب .

الساعى فى نشر تعاليم الدعوة ، يُحيل من أدخله فى الدين إلى بعض معلمى دينه الثقات ، الذى ربما يقبل الرجل حديث العهد بالإيمان فى زمرة المسلمين من الناحية الشكلية ، ولم يكن بحاجة إلى الخوف من الرقابة الكنسية لارتكاب خطيئة (§) قارون . وعلى ذلك ، مهما تكن المبالغة عظيمة فى القول ، ومهما ردد الباحثون القول (١) بأن كل مسلم داعية إلى دينه ، يبقى هـذا القول حقيقيا . وفى الحق أن قليلا من المسلمين المتمسكين بدينهم تمسكا صحيحا ، الذين يتصلون بالكفار يوميا يهملون ما أوصاهم به نبيهم « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة (٢) » . ومن ثم نجد ، إلى جانب أرباب الدعوة المحترفين ، — وهم المعلمون الدينيون الذين كرسوا وقتهم ونواحى نشاطهم كله فى مهمة الدعوة — أخبارا تاريخية لنشر العقيدة الإسلامية تتضمن سجلا بأسماء رجال ونساء من جميع طبقات المجتمع ، من الملك(٣) إلى الفلاح ، ومن كل الصنائع والحرف ، قاموا بأعمال ابتغاء نشر دينهم ، — والتاجر المسلم ، على خلاف أخيه المسيحى ، يظهر بنوع خاص بمظهر النشاط فى أمثال تلك الأعمال . ونجد فى ثبت يتضمن أسماء دعاة الهنود ، نشر فى صحيفة إحدى جمعيات لاهور(٤) الدينية الخيرية ، أسماء معلمى مدارس ، وكتّاب للحكومة فى مصلحتى القنال والأفيون ، وتجار (وفيهم أحد العملاء فى عربات النقل بالجمال) ، ومحرر إحدى الصحف ، ومجلّد كتب ، وعامل فى مطبعة . فقد خصص هؤلاء الناس ساعات فراغهم بعد إنجاز عملهم اليومى ، للدعوة إلى دينهم فى الطرقات وأسواق المدن الهندية ، ملتمسين اجتذاب مسلمين جدد من بين المسيحيين والهندوكيين جميعا ، الذين كانوا يجادلونهم ويحملون على عقائدهم .

ومما يثير اهتمامنا ما نلاحظه من أن نشر الإسلام لم يكن من عمل الرجال وحدهم ، بل لقد قام النساء المسلمات أيضا بنصيبهن فى هـذه المهمة الدينية ؛ فيرجع الفضل فى إسلام كثير من أمراء المغول إلى تأثير زوجة مسلمة . ولا يبعد أن يكون مثل هذا التأثير سببا فى إسلام كثير من الأتراك الوثنيين ، عند ما كانوا قد أغاروا على الأقطار الإسلامية . وقد أنشأ دعاة السنوسية الذين قدموا لنشر دعوتهم بين التوبو ، شمالى بحيرة شاد ، مدارس للبنات ، واستغلوا ما كانت تحدثه النساء من نفوذ قوى بين هذه القبائل (كما كان لهن

(§) مثل يضرب فى حالة ارتكاب إثم كبير .

(١) « ويظهر أن الميل إلى نشر تعاليم الدعوة عند كل مسلم ، مهما كان محبا للدنيا ، أمر غريزى إلى حد ما » .

(Snouck Hurgronje, Revue de l'Histoire des Religions, vol. lvii. p. 66.)

إن المسلم داعية بطبيعته ... فهو يدير لدعوة بجهده وحسابه الخاصين » .

(Munzinger, p. 411.) Snouck Hurgronje (1) p. 8; Lüttke (2) p. 30; Julius Richter, p. 152 Merensky, p. 154.

(٢) سورة ١٦ آية ١٢٦ .

(٣) راجع الرسالة الهامة التى وجهها مولاى إسماعيل ، شريف مراكش إلى الملك جيمس فى سنة ١٦٩٨ ، يدعوه إلى الاسلام

(Revue de l'Histoire des religions, vol. xlvii. p. 174 sqq.)

(٤) أنجومان حمايت إسلام كاماهوارى رسالة ، ص ٥ — ١٢ (لاهور أكتوبر ١٨٨٩) .

هذا النفوذ بين جيرانهن من البربر) ، فبذلوا جهودهم لجذبهن إلى صفوف الإسلام[1]. وفى إفريقية الشرقية الألمانية ، دخل فى الإسلام هؤلاء الأهالى الوثنيون الذين كانوا يتركون أوطانهم ستة أشهر او أكثر ، للعمل فى السكك الحديدية أو الأعمال الزراعية ، على أيدى نساء مسلمات ، تعاقدوا معهن على زواج مؤقت ؛ فإن أولاء النساء كن يرفضن أن يتعاملن فى شىء مع كافر لم يختتن بعد ، فكان بعولتهن يتجنبون ذلك العار الذى كان يلحق مثل هذا اللقب ، بأن يختتنوا وبذلك يقبلون الدخول فى الجماعة الإسلامية[2]. وقد قيل إن تقدم الإسلام فى بلاد الحبشة ، فى خلال النصف الأول من القرن الماضى ، كان راجعا ، إلى حد كبير ، إلى ما بذله النساء المسلمات من الجهود ، وخاصة نساء الأمراء المسيحيين ، الذين لم يكن بد من أن يتظاهروا بالتحول إلى المسيحية ، عند ما يتزوجون ، ولكنهم نشئوا أبناءهم على شعائر الإسلام ، وبذلوا كل ما استطاعوا فى سبيل تقدم ذلك الدين[3]. وتقيم على حدود الحبشة الغربية قبيلة وثنية تسمى البُرُن Boruns ؛ وقد دخل بعض أفراد هذه القبيلة ، وكانوا قد انتظموا فى سلك فصيلة من الزنوج ، تحت لواء الحكومة المصرية الإنجليزية فى السودان فى الإسلام ، على أيدى نساء الجنود السود ، فى الوقت الذى كانت فيه الكتيبة راجعة إلى الخرطوم[4]. ويقال إن نساء قزان التتريات بوجه خاص ذوات غيرة ، باعتبارهن داعيات إلى الإسلام[5]. ولا تمنع المتمسكة بدينها ، من أن تحتل مكانها إلى جانب الولىّ من الرجال فى زمرة الداعين إلى العقيدة إذا اتفق أنها كانت امرأة . وإن أسطورة النساء المقدسات ، اللائى ينتمين إلى على ، واللائى يقال إنهن طرن فى الهواء من كربلاء إلى لاهور ، وإنهن ظفرن بأول من تحول من الهندوكية إلى الإسلام[6]، بفضل تأثير حياة الصلاة والصوم ، التى كن يحيينها فى تبتل وخشوع ، كان من الصعب أن يكون لها أصل تاريخى ، لو أن تأثير أمثال أولاء النساء المقدسات كان أمرا مجهولا تماما . ومن أضرحة القاهرة التى لقيت أوفى نصيب من التعظيم ، ضريح السيدة نفيسة ، حفيدة الحسن (الذى مات شهيدا وهو ابن على) ، وهى التى أثارت إعجاب الإمام الشافعى نفسه ، أحد من عاصروها من العظماء ، بتفقهها فى الإلهيات ، والتى رفعتها تقواها ، وتقشفها إلى مصاف الأولياء الصالحين . ويروى أنها عندما استقرت فى مصر اتفق أنها أقامت بجوار أسرة من أهل الذمة ، وكانت لهم بنت مصابة بداء عضال ، بحيث لم تستطع أن تحرك أطرافها ، ولم يكن بد من أن ترقد على ظهرها طوال اليوم . ولزم الأمر أن يذهب والدا هذه الفتاة المسكينة إلى السوق ذات يوم، فطلبا إلى جارتهما المسلمة أن تتفقد ابنتهما أثناء تغيبهما . وباشرت نفيسة هذا العمل الإنسانى ، وهى مفعمة بالحب والرحمة . ولما ذهب والدا هذه الفتاة المريضة إلى السوق، سمت نفيسة بروحها ، وابتهلت

(١) Duveyrier, p. 17.

(٢) Klamroth, p. 12.

(٣) Massaja, vol. xi. pp. 124-5.

(٤) Artin, p. 119.

(٥) R. du M. M., ix. (1909), p. 252.

(٦) غلام سرور : خزينة الأصفياء ، جـ ٢ ص ٤٠٧ — ٤٠٨

إلى الله أن يشفى هذه المريضة اليائسة . ولم تكد تفرغ من دعائها حتى استعادت الفتاة المريضة تحريك أطرافها وأصبحت قادرة على أن تذهب للقاء أبويها عند عودتهما . وملأ الشكر والامتنان قلوب أفراد الأسرة جميعا ، فانتهوا إلى الدخول فى ديانة تلك المرأة التى أسدت إليهم هذا الفضل (١) .

حتى المسلم الأسير ، يغتنم الفرص فى المناسبات لدعوة آسريه أو إخوانه فى الأسر إلى دينه . وقد تسرب الإسلام إلى أوربا الشرقية أول الأمر بفضل ما قام به فقيه مسلم ، سيق أسيرا ، ربما فى إحدى الحروب التى نشبت بين الدولة البيزنطية وجيرانها المسلمين ، وجىء به إلى بلاد پتشنج Pechenegs (٢) فى مستهل القرن الحادى عشر . وقد بسط بين يدى كثير منهم تعاليم الإسلام ، فاعتقدوه فى إخلاص ، حتى إنه أخذ فى الانتشار بين هذا الشعب . أما سائر الپتشنج الذين لم يكونوا قد قبلوا دين الإسلام ، فقد ارتابوا من تصرف مواطنيهم ، وانتهى بهم الأمر إلى نشوب القتال بينهم . وقاوم المسلمون ، وكان عددهم يبلغ نحوا من اثنى عشر ألفا ، هجمات الكفار فى نجاح ، مع أن هؤلاء كانوا أكثر منهم عددا بما يزيد على الضعفين . ودخلت فلول المهزومين دين المنتصرين . ولم تأت نهاية القرن الحادى عشر ، حتى كان الشعب بأسره قد اعتقد الإسلام ، وكان من بينهم مسلمون تعلموا الفقه والتوحيد (٣) . وفى عهد الإمبراطور جهانجير (١٦٠٥-١٦٢٨) كان هنالك عالم سنّى من علماء التوحيد يدعى الشيخ أحمد مجدد ، وقد تميز بقدرته على مجادلة الشيعة فى عقائدهم بنوع خاص . ولما كان هؤلاء مقربين إلى البلاط فى ذلك الحين ، نجحوا فى إيداعه السجن بتهمة تافهة. وفى خلال السنتين اللتين قضاهما فى الحبس ، أدخل فى الإسلام عدة مئات من عبدة الأوثان الذين كانوا يرافقونه فى هذا السجن نفسه (٤) . وفى سنوات أحدث من ذلك ، قضت الحكومة البريطانية بنفى أحد مولوية الهنود إلى جزائر أندمان نفيا مؤبدا ، لأنه كان قد قام بنصيب فعال فى مؤامرة دبرها الوهابيون سنة ١٨٦٤ ؛ وهناك ، أدخل هذا المولوى فى الإسلام قبل وفاته كثيرا من المحكوم عليهم . وفى إفريقية الوسطى ، حكم البلجيكيون على زعيم عربى بالإعدام ، فقضى ساعاته الأخيرة ، وهو يحاول أن يدخل فى الإسلام ذلك المبشر المسيحى الذى كان قد أرسل إليه ليزجى إليه التعزيات الدينية (٥) .

عوامل نجاحهم : وإذا كان المسلمون قد بلغوا مثل هذه الحماسة فى نشر الدعوة إلى حد أنهم كانوا

---

(١) Goldziher, vol. ii. pp. 303-4.

(٢) احتل البتشنج فى ذلك الحين البلاد التى تقع بين الدانوب الأدنى والدون ، وكانوا قد هاجروا إليها من شواطئ نهر أورال فى نهاية القرن التاسع . (Karamsin, vol. i. pp. 180-1.)

(٣) أبو عبيد البكرى (توفى سنة ١٠٩٤ م) ص ٤٦٧ — ٤٦٨ .

(٤) غلام سرور : خزينة الأصفياء ج ١ ص ٦١٣ .

(٥) D. Crawford : Thinking Black, p. 202. (London, 1913.)

على استعداد للتحدث عنها فى مناسبة وفى غير مناسبة ، ــ كما يقول داوتى فى حصافة ودقة ملاحظة ، « حديثهم دائما (فى غير زندقة) عن الدين ، وفى هذا الحديث ما يذكرهم بما ترتاح إليه نفوسهم من التقوى والورع »[١] ، ــ فلنسرد الآن بعض العوامل التى ساعدت على نجاحهم .

فى مقدمة هذه الأسباب بساطة العقيدة الإسلامية[٢] ، لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . وكل ما يتطلب من الذى يدخل فى الإسلام ، قبول هاتين الشهادتين . وإن تاريخ العقائد الإسلامية كله ، ليخفق فى عرض أية محاولة من جانب المقامات الدينية ، لحمل جمهرة المؤمنين على الأخذ بأية إشارة منطوية فى عبارات أكثر تدقيقا وتعقدا . إن هذه العقيدة البسيطة لا تتطلب تجربة كبيرة للايمان ، ولا تثير فى العادة مصاعب عقلية خاصة ، وإنها لتدخل فى نطاق أحط دركات الفهم والفطنة . ولما كانت خالية من المخارج والحيل النظرية اللاهوتية ، كان من الممكن أن يشرحها أى فرد ، حتى أقل الناس خبرة بالعبارات الدينية النظرية . ويعبر الشطر الأول من هذه العقيدة عن مبدأ يكاد يقبله جميع الناس على أنه فرض لا بد منه ، على حين يقوم الشطر الثانى منها على فكرة علاقة الناس بالله وهى مسألة تكاد تكون عامة شاملة كذلك ، بمعنى أن الله تعالى ، فى فترات من تاريخ العالم ، قد وهب بعض تجليه على الخلق ، على لسان أنبياء ملهمين . ولا يستطيع أى فرد أن يوضح ذلك ، أعنى الطابع العقلى للعقيدة الإسلامية ، وما جنته من هذا الطابع من الفائدة فى جهودها فى نشر الدعوة ، توضيحا يبعث على الإعجاب ، بأكثر مما وضحه البروفسور مونتيه فى العبارات التالية :

« الإسلام فى جوهره دين عقلى ، بأوسع معانى هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية . فإن تعريف الأسلوب العقلى Rationalism بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادىء المستمدة من العقل والمنطق ، ينطبق عليها تمام الانطباق . والحق أن محمدا الذى كان متحمسا لدينه ، كما كان كذلك يمتلك غيرة الإيمان ، ونار الاقتناع ، تلك الصفة القيمة التى بثها كثيرا جدا من أتباعه ــ قد عرض حركته الإصلاحية على أنها وحى وإلهام : على أن هذا النوع من الوحى ليس إلا صورة من العرض والتفسير ، وإن لدينه كل العلامات التى تدل على أنه مجموعة من العقائد قامت على أساس المنطق والعقل . وتتلخص العقيدة الإسلامية من وجهة نظر المؤمنين فى الاعتقاد بوحدانية الله ورسالة نبيه ، أما من وجهة نظرنا نحن الذين نحلل عقائده تحليلا لا روح فيه ، فنعتقد فى الله وفى الحياة الآخرة . وهذان المبدآن هما أقل ما ينبغى للاعتقاد الدينى ، وهما أمران يستقران فى نفس الرجل المتدين على أساس ثابت من العقل

(١) Doughty, vol. ii. p. 39.

(٢) وقد أكد مراتشى Marracci هذا القول فى القرن السابع عشر بقوله : « لو قارن كافر بين أسرار الحالة الطبيعية البسيطة التى فاقت طاقة الذكاء البشرى أو التى هى ، على الأقل ، من الصعوبة بمكان ، إن لم تكن مستحيلة وبين عقيدة القرآن ، لانصرف عن الأولى فى الحال ، وأسرع إلى الثانية فى ترحيب وقبول » .

(Alcorani textus . . . translatus, p. 9 patavii, 1698).

والمنطق، ويلخصان كل تعاليم العقيدة التي جاء بها القرآن . وإن بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهي على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة في الدين وفي نشاط الدعوة إلى الإسلام . ومما لا سبيل إلى إنكاره أن كثيرا من عقائد اللاهوت ونظمه ، وكثيرا من الخرافات كذلك ، من عبادة الأولياء إلى استخدام المسابح والتعاويذ، قد طُعِّم به الجذع الرئيس للعقيدة الإسلامية . ولكن على الرغم من التطور الخصب، بكل ما في هذه الكلمة من معنى، لتعاليم النبي، حفظ القرآن منزلته من غير أن يطرأ عليه تغيير أو تبديل، باعتباره النقطة الأساسية التي بدأت منها تعاليم هذه العقيدة . وقد جهر القرآن دائما بمبدأ الوحدانية ، في عظمة وجلال وصفاء لا يعتريه التحول ، ومن العسير أن نجد في غير الإســـلام ما يفوق تلك المزايا . وإن هذا الإخلاص كمبدأ الدين الأساسي ، والبساطة الجوهرية في الصورة التي يصاغ فيها هذا الدين، والدليل الذي كسبه هذا الدين من اقتناع الدعاة الذين يقومون بنشره اقتناعا يلتهب حماسة وغيرة ، إن هذا كله يكون الأسباب الكثيرة التي تفسر لنا نجاح جهود دعاة المسلمين . وكان من المتوقع لعقيدة محددة كل التحديد ، خالية كل الخلو من جميع التعقيدات الفلسفية ، ثم هي تبعا لذلك في متناول إدراك الشخص العادي، أن تمتلك ، وإنها لتمتلك فعلا ، قوة عجيبة ، لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس »[1] .

ويرى الأسقف لفروى Lefroy أن « سر القوة الخارقة للعادة التي أظهرها الإسلام في أزهر عصوره في فتوحاته وتقدمه، كامن في إدراك هذا الدين وجود الله، أكثر منه في وحدانيته ، قال : « ليس قولنا إن الله واحد بأعظم من قولنا إنه موجود ـ بمعنى أن وجوده هو حقيقة الكون المطلقة ـ وأن إرادته هي العليا ـ وأن سيادته مطلقة ـ وأن قوته لا تحد . . . وهذا معناه الإيمان بأن هنالك إرادة مطلقة عليا لا تقاوم في وسط كل ما يغمر الكون من الاختلال والاضطراب والفساد الذي يجعله في صورة من الظلمة والوحشة تبعث على الفزع والرهبة، كما أن معناه الإيمان بأن الرجل مسير طوع هذه الإرادة ، يظهرها ، ويلتزم الطاعة لها ، ـ ولو أنه من الضروري أن يأخذ في سبيل إظهار هذه الإرادة بأسباب بسيطة بدائية جدا ـ وهذا هو الذي أمد جحافل المسلمين بوسائل الفتح التي لا تقهر ، تلك التي بعثت فيهم روحا من الانقياد الحربي والنظام العسكري، كما بعثت فيهم ازدراء الموت ، الأمر الذي ربما لم نعرفه قط في أي نظام سابق . وهذا هو الذي يعطينا في كلمة ، حسب ما نجده متمثلا في أية روح صادقة فعالة بين المسلمين ، ذلك العمود الفقري لأخلاقهم ، أعني ذلك الثبات في العزيمة والقوة في الإرادة ، وذلك الصبر الذي لا يعرف سبيلا إلى الشكوى ، والاستسلام لأشد المصائب وأصعبها ، ـ كل ذلك قد ميز خير أنصار العقيدة وجمّلهم . »[2]

وإذا قبل الذي يدخل في الإسلام هذه العقيدة البسيطة وتعلمها ، لم يكن بد عندئذ من أن يتعلم فرائض

---

(١) Edouard Montet : La propagande chrétienne et ses adversaires musulmans, pp. 17-18. (Paris, 1890.)

(٢) Mankind and the Church, p. 283-4. (London, 1907.)

الدين الخمس : (١) النطق بالشهادتين (٢) وإقام الصلوات الخمس فى أوقاتها (٣) وإيتاء الزكاة (٤) وصوم رمضان (٥) والحج إلى مكة .

وطالما اعترض بعض الناس على أداء هذا الفرض الأخير باعتباره بقية غريبة من بقايا الوثنية ، ظلت من جملة تعاليم النبي التى تدعو إلى الوحدانية ، ولكن ينبغى ألا يعزب عن الأذهان أن الحج قد اقترن بإبراهيم ، فى نظر النبى ، وأن رسالة النبى هى إعادة دين إبراهيم (١) . ولكن فوق ذلك كله ، — وهنا تكون أهميته العليا فى تاريخ نشر الدعوة فى الإسلام ، — ينظم الحج اجتماع المؤمنين فى كل سنة ، على اختلاف شعوبهم ولغاتهم ، من كافة أنحاء العالم ، للصلاة فى ذلك المكان المقدس ، الذى يولون وجوههم شطره فى كل ساعة من ساعات عبادتهم الخاصة فى أوطانهم النائية . ولم تستطع أية محاولة يقوم بها عباقرة أى دين أن تتصور وسيلة أحسن من هذه الوسيلة تطبع فى عقول المخلصين معنى حياتهم المشتركة ، وأخوتهم التى ارتبطت بروابط الدين . وفى ذلك المكان ، حيث تجد عملا ساميا من أعمال العبادة المشتركة ، ترى زنجى ساحل إفريقية الغربى يلتق بالصينى من أقصى الشرق ؛ ويتعرف التركى الرقيق المهذب على أخيه المسلم من أهل الجزائر المتوحشين الذين يسكنون أبعد أطراف بحر الملايو . وفى هذا الوقت نفسه تتطلع قلوب المؤمنين فى كافة أنحاء العالم الإسلامى ، فى عطف وحنين ، إلى إخوانهم الأسعد حظا منهم ، الذين تجمعوا فى المدينة المقدسة ، فيحتفلون فى أوطانهم بعيد الأضحى ، أو (كما يسمى فى تركيا ومصر) عيد البيرام أو العيد الكبير . وإن زيارتهم المدينة المقدسة قد أصبحت فى نظر كثير من المسلمين ، التجربة التى حثتهم على الجهاد فى سبيل الله ، وقد أوردنا فى الصفحات السابقة إشارات متتابعة إلى ما قامت به طبقة الحاجى من نصيب فعال فى أعمال نشر الدعوة .

وإلى جانب نظام الحج ، نجد إيتاء الزكاة فرضا آخر يذكر المسلم دائما بقوله تعالى « إنما المؤمنون إخوة » (٢) — وهى نظرية دينية تتحقق على صورة رائعة تبعث على الدهش فى المجتمع الإسلامى ، وقلما تعجز عن أن تتجلى فى أعمال الشفقة إزاء المسلم الجديد . ومهما يكن جنسه ولونه وأسلافه ، فإنه يقبل فى زمرة المؤمنين ، ويتبوأ مكانه على قدم المساواة مع أقرانه المسلمين .

على أنه ليس من الصواب ، ما زعمه بعض الكتاب الأوربيين من أنه إذا كان عبد الرجل المسلم كافرا ، فإن تحوله إلى الإسلام يؤدى إلى تحرير رقبته . ذلك أن الشريعة الإسلامية تقتضى بأن دخول العبد فى الإسلام ، لا يؤثر فى حالة العبودية التى كان عليها من قبل (٣) . وتختلف حالة العبد المسلم اختلافا كبيرا تبعا لأخلاق مولاه . ولكن الحرية هى جزاء التحول إلى الإسلام فى كثير من الحالات . وإن العقول الورعة

---

(١) قرآن : سورة ٢ آية ١١٨ — ١٢٦ .

(٢) سورة ٤٩ آية ١٠ .

(٣) W. H. Macnaghten : Principles and Precedents of Moohummudan Law, p. 312. (Madras, 1882.)

التقية لتعترف حتى فى الاسترقاق بهداية الله إلى الدين الحق ، كما يروى عن الزنوج الساكنين فى بلاد النيل الأعلى ، الذين لقيهم داوتى فى بلاد العـــرب . « ولا يوجد فى نفوس أولئك الإفريقيين أى حقد من أنهم صُيّروا عبيدا ... حتى ولو أن سُرّاق البشر القساة قد انتزعوهم من ذويهم . وكان العملاء الذين يدفعون ثمنهم ، يتخذونهم فى بيوتهم ، ويختتن الذكور منهم — وإن الذى حرر أرواحهم ، الحنين الطويل إلى أوطانهم ، هو أن الله قد تفقدهم فى ملتهم ؛ إنهم يستطيعون أن يقولوا إن نعمة الله قد تداركتهم منذ أن دخلوا بفضلها فى الدين المنقذ . لذلك يرون أنهم فى بلد خير من بلادهم ، فهم فى ذلك البلد عتقاء الله ؛ وهم فى بقاع تحيى حياة أكثر مدنية ، وهم فى تربة الحرمين الشريفين ، وفى بلد محمد — لذلك يشكرون لله أن يبعث أجسادهم يوما ما بيع الرقيق ! » (١)

كذلك يجد أداء الصلوات الخمس كل يوم على جانب عظيم من التأثير سواء فى جذب الناس أو الاحتفاظ بالمسلمين منهم . وقد أحسن مونتسكيو (٢) فى قوله : « إن المرء لأشد ارتباطا بالدين الحافل بكثير من الشعائر ، منه بأى دين آخر أقل منه احتفالا بالشعائر ، وذلك لأن المرء شديد التعلق بالأمور التى تسيطر دائما على تفكيره » . إن دين المسلم يتمثل دائما فى مخيلته ؛ وفى الصلوات اليومية ، يتجلى هذا الدين فى طريقة نسكية خاشعة مؤثرة ، لا تستطيع أن تترك العابد والمشاهد كليهما غير متأثرين . يتحدث سعيد بن الحسن ، أحد يهود الإسكندرية ، الذى اعتقد الإسلام فى سنة ١٢٩٨ م ، عن مشهد صلاة الجمعة فى مسجد باعتباره عاملا حاسما فى تحوله إلى الإسلام . فى خلال مرض شديد كان قد انتابه ، رأى فى المنام أن صوتا يأمره بأن يجهر بالإسلام . « وعند ما دخلت المسجد » ، (ويستمر فى حديثه إلى أن يقول) « ورأيت المسلمين يقفون صفوفا كأنهم الملائكة ، سمعت هاتفا يقول ، هذه هى الجماعة التى أخبر الأنبياء (صلوات الله عليهم !) بقدومها . ولما ظهر الخطيب مرتديا عباءته السوداء ، استولى على شعور عميق من الرهبة . . . ولما ختم خطبته بالكلمات ، إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون ، ولما بدأت الصلاة ، أحسست بقوة تدفعنى إلى النهوض ، لأن صفوف المسلمين بدت أمامى كأنها صفوف الملائكة ، الذين يتجلى الله القدير فى سجداتهم وركعاتهم ، ثم سمعت هاتفا يهتف بى : ، إذا كان الله قد تحدث مرتين إلى بنى إسرائيل فى كل العصور ، فإنه يتحدث إلى هذه الجماعة فى كل وقت من أوقات الصلاة ؛ وأيقنت فى نفسى أنى خلقت لأكون مسلما » (٣) .

فإذا استطاع رينان أن يقول : « ما دخلت مسجدا قط ، دون أن تهزنى عاطفة حادة ، أو

---

(١) Arabia Deserta, vol. i. pp. 554-5.

(٢) De l'Esprit des Lois, livre xxv. chap. 2.

(٣) Goldziher, Said b. Hasan d'Alexandrie. (Revue des Études Juives, tome xxx. pp. 17-18.) (Paris, 1895.)

بعبارة أخرى ، دون أن يصيبنى أسف محقق على أننى لم أكن مسلما ، (١) ، كان من اليسير أن ندرك كيف أن منظر التاجر المسلم فى صلاته ، وسجداته الكثيرة ، وعبادته للاله الذى لا يراه ، فى سكينة واستغراق ، قد يؤثر فى الإفريقى الوثنى ، الذى وُهب إدراكا قويا للقوى الخفيـــة ، كما يقترن هذا الإدراك عادة بدرجة منحطة من المدنية . وقد يحفز حب الاستطلاع على البحث بطبيعة الحال . وإن معارف الإسلام التى عرفها الناس على هـذا النحو قد تجذب أحيانا فردا يدخل فى الإسلام ، كان من الممكن أن ينصرف عنه لو أنه قدم إليه على صورة لا يرغب فيها ، باعتبارها هبة حرة . ولا حاجة إلى القول بأن صيام شهر رمضان جزء من دليل ثابت يدحض النظرية القائلة بأن الإسلام نظام دينى يجذب الناس عن طريق مراودتهم فى ملذاتهم الشخصية . وكما قال كارليل : « إن دينه ليس بالدين السهل : فإنه بما فيه من صوم قاس ، وطهارة ، وصيغ معقدة صارمة ، وصلوات خمس كل يوم ، وإمساك عن شرب الخمر ، لم يفلح فى أن يكون دينا سهلا » .

ولكن هؤلاء المسلمين يعنون بتلك الفرائض وغيرها من الشعائر الدينية ، ولكن من غير أن يثقلوا بها كواهلهم ، أو تجعلهم مغمورين فى الحياة ، نجد أركان العقيدة الإسلامية تلقى دون انقطاع ، تعبيرا ظاهرا فى حياة المؤمن ؛ ومن ثم نجدها ، بعد أن أصبحت متشابكة مع نظام حياته اليومية تشابكا لا سبيل إلى الفكاك منه ، تجعل المسلم الفرد إماما ومعلما لعقيدته ، أكثر ، إلى حد بعيد ، مما هى الحال مع أنصار معظم الديانات الأخرى(٢) . ولما كانت عقيدته مصوغة فى مثل هذه اللغة الموجزة البسيطة ، كانت لا تتطلب من الذكاء إلا قليلا ؛ وإن تحدد هـذه الطقوس وواقعيتها ودقتها ليدع المؤمن لا يتخالج فى نفسه الشك فيما هو

---

(١) Ernest Renan : L'Islamisme et la Science. p. 19. (Paris, 1883.)

وقد أكد ذلك كثير من الملاحظين ، ولكن حسبنا فى هذا المقام أن ننقل كلمات أسقف مسيحى مشهور : « ما من فرد يتصل بالمسلمين لأول مرة إلا أخذ بمظهر دينهم هذا ... وحيثما يمكن أن توجد ، فى الطريق العامة ، أو فى محطة السكة الحديدية ، أو فى الحقل ، فإن من أكثر الأشياء شيوعا أن ترى الرجل منهم ، يترك فى اللحظة التى يقوم فيها بأداء أعماله أيا كانت ، بدون أدنى تأثر بالرياء أو الظهور ، وفى سكينة وتواضع ، لكى يؤدى صلواته فى أوقاتها المحددة . وأكثر من ذلك أنه ما من فرد رأى يوما ساحة الجامع الكبير فى دهلى فى الجمعة الأخيرة من شهر رمضان ، وهى غاصة بما قد يربو على ١٥٠٠٠ مصل ، وكلهم جميعا منهمكون فى صلاتهم ، مظهرون أعمق آيات الاجلال والخشوع فى كل إشارة يبدونها ، إلا تأثر تأثرا عميقا بهـذا المشهد ، أو أخذ فكرة عابرة عن تلك القوة التى ينطوى مثل هـذا النظام تحت لوائها ؛ على حين نجد النظام الدقيق الذى يتجلى فى دعوة الناس اليومية إلى الصلاة ، عندما يؤذن الداعى فى وقت السحر ، قبل أن يتنفس الصبح ، أو بين ضوضاء ساعات العمل وضجيجها ، أو عندما يرخى الليل سدوله كذلك ، مفعما بتلك الرسالة ذاتها » .

(Dr. G. A. Lefroy : Mankind and the Church, pp. 287-8.) (London, 1907)

(٢) « وقد يلاحظ المرء ويعجب بذلك القدر من الاعتزاز النبيل بالنفس ، الذى يتمسك به المسلمون ، فى المتوسط ، فى دينهم »

(Bishop Lefroy : Mankind and the Church, p. 289.)

مكلف بأدائه ، فإذا أدى هذه الواجبات ، اطمأن وجدانه إلى أنه قد أنجز كل أوامر الشرع . وقد نجد إلى حد بعيد ، فى هذه الوحدة التى تربط بين النظامين العقلى والطقسى فى هـذا الدين ، سر السيطرة التى أحدثها الإسلام على عقول الناس ... فإذا أردت أن تجذب إليك جماهير كبيرة من الناس ، افهم الحقيقة فى صورة حاسمة ، دقيقة واضحة ، وفى أسلوب مرئى محس » (١) .

ومن الممكن أن نورد كثيرا من الظروف الأخرى التى ساعدت على نجاح الدعوة إلى الإسلام — وهى ظروف تتعلق بأزمان معينة وبلاد خاصة . ويمكن أن نذكر من بين هذه الظروف تلك الفائدة التى تستمدها أعمال نشر الدعوة الإسلامية من هذه الحقيقة ، وهى أن هذه الدعوة كانت إلى حد كبير فى أيدى التجار ، وخاصة فى إفريقية وبلاد أخرى غير متمدنة ، حيث نرى الأجنبى موضع الريبة والشك بطبيعة الحال من أهالى هذه البلاد . ففى حالة التاجر ، نجد مهنته المعروفة التى لا ضرر فيها ، تضمن له مناعة من أى إحساس يمثل هذه الريبة ، على حين نرى خبرته بالناس والأخلاق ، وحنكته التجارية فى معاملة النـاس تنيلانه قبولا حسنا ، وتزيلان ذلك الشعور بالضيق الذى قد ينشأ بطبيعـة الحال من وجود الغريب ، وهو لا يقع فى تلك المساوىء التى تعرقل مهمة الداعى المحترف ، الذى يكون معرضـــا لأن يتهم ببعض الدوافع الشريرة ، من جانب الشعب الذى نجد درجة خبرته وأفقه العقلى محدودين ، والذى يرى أن فكرة أى شخص يتحمل أخطار سفر طويل ، ويطرح جانبا كل المشاغل الدنيوية لغرض واحد ، هو أن يظفر بقوم يدخلهم فى دعوته ، أمر غامض لا سبيل إلى تفسيره ، بل من جانب قوم من العالم أكثر تمدنا وحضارة على أتم استعداد للشك فى إخلاص هؤلاء الذين عهد إليهم فى نشر الدعوة من المأجورين .

وتختلف الظروف جد الاختلاف ، حينما لم يكن هنالك من سبيل من أن يظهر الإسلام فى مظهر الضارع المتوسل فى البلد الغريب ، ولـكنه يمثل دين الجنس الحاكم فى عزة وكبرياء . وقد بيّنا فى الصفحات السابقة أن نظرية العقيدة الإسلامية تلتزم التسامح وحرية الحياة الدينية لجميع أتباع الديانات الأخرى ، اولئك الذين يؤدون الجزية كفاء حمايتهم . وعلى الرغم من أن صفحات التاريخ الإسلامى قد تلوثت بدماء كثير من الاضطهادات القاسية ، ظل الـكفار ، على وجه الإجمال ، ينعمون فى ظل الحكم الإسلامى بدرجة من التسامح لم تـكن نجد لها مثيلا فى أوروبا حتى عصور حديثة جدا . وإن التحويل إلى الإسلام عن طريق الإكراه محرم ، طبقا لتعاليم القرآن : « لا إكراه فى الدين » (سـورة ٢ آية ٢٥٧) . « أفأنت تـكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ، وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله » (سورة ١٠ آية ٩٩ ، ١٠٠) . وإن مجرد وجود كثير جدا من الفرق والجماعات المسيحية فى الأقطار التى ظلت قرونا فى ظل الحكم الإسلامى ، لدليل ثابت على ذلك التسامح الذى نعم به هؤلاء المسيحيون ، كما يدل على أن الاضطهادات التى كانوا يُدعون

---

(١) B. Kuenen : National Religions and Universal Religions, p. 35. (London, 1882.)

إلى معاناتها بأيدى الطغاة والمتعصبين ، إنما كانت ناتجة من بعض ظروف خاصة وإقليمية ، أكثر من أن تكون منبعثة عن مبدأ مقرر من التعصب (١) .

وفى أمثال تلك الأزمان التى حدث فيها الاضطهاد ، كان ضغط الظروف يدفع كثيرا من الكفار إلى أن يصبحوا — من الناحية الشكلية على الأقل — مسلمين . ويمكن إيراد كثير من الأمثلة عن أفراد أكرهوا فى مناسبات خاصة على الإذعان لدين القرآن . ولكن مثل هذا التعسف لم يكن بموافقة الشرع الإسلامى فى شىء ، سواء منه الدينى والمدنى . وقد ذكرنا من قبل (التمهيد ص ٢٠) الآيات القرآنية التى تنهى عن الإكراه فى الدين ، وتوصى بالدعوة باعتبارها الوسيلة الشرعية الوحيدة لنشر هذه العقيدة ، ويؤيد هذا المبدأ نفسه ما قرره الأئمة من المسلمين . ولما هرب موسى بن ميمون ، الذى كان قد تظاهر بالدخول فى الإسلام فى عهد الموحدين ، الذين كان حكمهم ينطوى على التعصب الدينى ، إلى مصر ، وأعلن هنالك أمام الملأ أنه يهودى ، اتهمه أحد فقهاء المسلمين من أسبانيا ، بالارتداد عن الإسلام ، وطلب بأن يوقع عليه أقصى عقوبة يقضى بها الشرع لهذا الجرم . ولكن القاضى الفاضل ، عبد الرحيم بن على (٢) ، وهو من أشهر قضاة المسلمين ، وكبير وزراء صلاح الدين العظيم ، ألغى هذا الحكم ، وأعلن بصفة جازمة ، أن رجلا قد أرغم على الدخول فى الإسلام ، لا يصح شرعا أن يعد مسلما (٣) . وبهذه الروح نفسها ، نجد

---

(١) مثال ذلك ما حدث فى عهد المتوكل من اضطهاد ، كان نتيجة لرد فعل المذهب السنى على كل الأشكال التى تنحرف عن العقيدة التى يدين بها عامة الناس : وما حدث فى فارس وفى جهات أخرى من آسيا ، حول نهاية القرن الثالث عشر ، من الانتقام من سلوك الغطرسة والاهانة الذى ظهر به المسيحيون فى ساعة تقدمهم وتفوقهم فى ظل المغول الأولين . (المقريزى (٢) ج ١ القسم الأول ص ٩٨ ، ١٠٦) . ويقول السمعانى (tom. iii. pars. ii. p. c.) حين يتحدث من الأسباب التى أدت إلى اضطهاد المسيحيين فى ظل الحكم الاسلامى : ,, كثيرا ما أثارت المنازعات المتبادلة بين المسيحيين أنفسهم ، وتصريحات رجال الدين وكبرياء قادتهم ، وسلطة أقطابهم العاتية ، عاصفة من الاضطهاد ، وخاصة المجادلات بين الأطباء والكتاب بصدد السيطرة المطلقة على أمتهم ،، . وفى خلال الحروب الصليبية ، طالما وقع مسيحيو الشرق فى تهمة العمل على ممالأة الغزوات التى قام بها إخوانهم فى الدين من المسيحيين الذين وفدوا من الغرب . وفى تركيا الحديثة ، نجد حركة استقلال اليونان ، وما أثارته هذه الحركة من العواطف الدينية فى أوربا المسيحية ، ساعدت على جعل نصيب الشعوب المسيحية الخاضعة ، أشق مما كان يمكن أن يكون لو أنهم لم يتهموا بالخيانة ونفورهم من حاكمهم المسلم . وقد أوضح دى جوبينو De Gobineau تكرته إيضاحا قويا جدا فيما يتعلق بمسألة تسامح الاسلام حين قال : ,,إذا انفصلت العقيدة الدينية عن الضرورة السياسية التى طالما تحدثت وعملت باسمها ، فاننا لا نجد دينا أكثر تسامحا ، بل يمكن أن يقال على وجه التقريب ، أكثر بعدا عن الاكتراث للعقيدة الفردية من الاسلام . هذا التكوين الأول قوى إلى حد أننا إذا استثنينا الحالات التى كان كيان الدولة الواقع فى خطر يحمل الحكومات الاسلامية على اتخاذ كل الأساليب للوصول إلى توحيد العقيدة ، فقد كان التسامح إلى أقصى حد هو القاعدة المستمدة من الأصول الاسلامية .... لا يجوز أن نقف عند ألوان القسوة والعنف الذين ارتكبا فى أية مناسبة . وإذا نظرنا إليها عن قرب ، لن نتردد فى معرفة أن أسبابها كانت سياسية محضة أو راجعة إلى الأهواء البشرية ، أو إلى المزاج المسيطر على الحاكم أو فى الشعوب . إن الفعل الدينى لم يلجأ إلى هذه الوسائل إلا من حيث هى حجة ولكنه فى الواقع لا يدخل فى نطاقها . (A. de Gobineau (1), pp. 24-5.)

(٢) للوقوف على ترجمة حياته أنظر ابن خلكان ج ٢ ص ١١١ — ١١٥ .

(٣) ابن العبرى (٢) ص ٤١٧ — ٤١٨ .

غازان (١٢٩٥ — ١٣٠٤ م) ، عند ما اكتشف أن عبدة البوذية الذين كانوا قد دخلوا فى الإسلام فى مستهل حكمه (حينما خربت معابدهم) لم يتحولوا إلى هذا الدين إلا تظاهرا ونفاقا ، يسمح لجميع هؤلاء الذين كانوا جد راغبين فى العودة إلى التبت ، حيث يستردون حريتهم مرة أخرى بين مواطنيهم البوذيين ، ويتبعون دياناتهم القديمة (١) . ويقص لنا تافرنيير قصة مماثلة عن بعض يهود أصفهان الذين كان الحاكم قد اضطهدهم اضطهادا شديدا إلى حد أنه جعلهم يتحولون إلى الإسلام بالقوة والخديعة كلتيهما ؛ ولكن الملك (الشاه عباس الثانى) (١٦٤٢ — ١٦٦٧) أدرك أن القوة والرهبة وحدهما قد أرغمتاهم على هذا التحول ، فأذن لهم أن يستردوا دياناتهم وأن يعيشوا فى هدوء وأمان » (٢) . وتدلنا قصة ذكرها رحالة (٣) فى فارس يرجع إلى عهد أقدم من ذلك بكثير ، إلى سنة ١٤٧٨ ، كيف عكف أحد حكام المسلمين ، فى تلك الأزمان المضطربة ، على القضاء على سورة من التعصب من هذا النوع نفسه فى شدة وعنف . بينما كان تاجر أرمنى موسر جالسا فى حانوته ذات يوم ، قدم عليه حاجى (٤) ، كان مشهورا بالتقوى والصلاح ، وألح عليه أن يدخل فى الإسلام ، وينبذ المسيحية . ولما أعرب التاجر عن نيته فى أن يظل ثابتا على دينه ، وقدم له صدقة ، رغبة فى أن يتخلص منه ، أجابه بأنه لا يريد صدقته ، وإنما يريد أن يتحول إلى الإسلام . وأخيرا ضاق الحاجى ذرعا بإصرار التاجر على الرفض ، فاختطف فجأة سيفا من يد أحد المشاهدين ، وضرب التاجر على رأسه ضربة قاضية ، ثم لاذ بالفرار . ولما سمع حاكم المدينة الخبر ، استشاط غضبا ، وأمر بأن يقتفى أثر القاتل ويودع فى السجن . وجىء بالمذنب بين يدى الحاكم ، فطعنه بيده طعنة قضت عليه وأمر بأن تلق جثته نهبا للكلاب ، وقال : « ماذا ! أبهذه الطريقة ينتشر دين محمد ؟ » . ولما أرخى الليل سدوله أخذ عامة الشعب هذه الجثة وحرقوها ، ومن ثم ثار سخط الحاكم لهذا التحقير لأوامره . فأسلم هذا المكان إلى عساكره ينهبونه ثلاث ساعات أو أربعا ، ثم فرض غرامة إمعانا فى العقاب . وكذلك استقدم إليه ابن التاجر وعزاه ولاطفه بعبارات طيبة رقيقة . حتى الحاكم المجنون (٩٩٦ - ١٠٢٠ م) (٣٨٦ - ٤١١ هـ) الذى حملت اضطهاداته كثيرا من اليهود والمسيحيين على أن يتركوا دينهم ويدخلوا فى الإسلام ، قد سمح فيما بعد لهؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام عن غير رغبة أن يعودوا مرة أخرى إلى دينهم ، وأن يعيدوا بناء أماكن عبادتهم المخربة (٥) . ولما كان المسيحيون الشرقيون يلقون إهمالا من جانب إخوانهم المسيحيين فى الغرب ، وكانوا فى الأغلب الأعم عزلا من أى سلاح ، كما كانوا غير محميين على الإطلاق ، كان يكون من السهل على أى حاكم

---

(١) C. d'ohsson, vol. iv, p. 281.

(٢) Tavernier (1), p. 160.

(٣) Viaggio di Iosafa Barbero nella Persia, (Ramusio, vol. ii, p. III.)

(٤) لو أنه يقصد حقا الحاجى بقوله آزى

(٥) المكين ص ٢٦٠ . وعلى هذا النحو ، أصدر المقتدر (٩٠٨ — ٩٣٢ م) (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) الذى ولى

من حكام الإسلام الأقوياء ، أن يستأصل شأفة رعاياه المسيحيين ، أو ينفيهم من بلادهم ، كما فعل الأسبان بالعرب ، والإنجليز باليهود مدة أربعة قرون تقريباً . وكان من الممكن تماماً أن ينفذ سليم الأول (فى سنة ١٥١٤) أو إبراهيم (فى سنة ١٦٤٦) تلك الفكرة البربرية التى تصوروها للقضاء على رعاياهم المسيحيين ، كالذى صنعه الأول من ذبح ٤٠٠٠٠ شيعى لتدعيم وحدة العقيدة الدينية بين رعاياه المسلمين . وإن طبقة المفتى الذين صرفوا أذهان سادتهم عن مثل هذا الغرض الذى ينطوى على القسوة ، إنما فعلوا ذلك باعتبارهم أئمة الشريعة الإسلامية والتسامح الإسلامى(١) .

أضف إلى ذلك أنه على الرغم من أن المبدأ الذى وجد قبولا عظيما فى ألمانيا فى القرن السابع عشر(٢) — وهو أن لكل منطقة دينها الخاص — لم يقبله قط أى عاهل مسلم ، فمن الواضح أن هذه الحقيقة ، وهى أن الإسلام دين الدولة لم تعجز فى أنها قد أحدثت بعض التأثير فى زيادة عدد أنصاره . وإن الأشخاص الذين لم تتغلغل العقيدة الدينية فى نفوسهم قد يكونون على استعداد للتأثر باعتبارات المنافع الدنيوية ، وقد يقوم الطموح والمصلحة الشخصية مقام بواعث أكثر قبولا واستحسانا للتحول إلى الإسلام . وقد شكا القديس أوغسطين من مثل ذلك فى القرن التاسع ، فذكر أن كثيرا من الناس دخلوا فى الكنيسة المسيحية ، لا لشىء إلا لأنهم أمّلوا فى الحصول على بعض المنافع المادية باعتقادهم المسيحية ، قال : « ما أكثر الذين لا يسعون إلى المسيح إلا لغرض واحد ، هو أن يجنوا من وراء ذلك منفعة لهم ، حسب ماتقتضيه ظروف كل منهم : يكون لأحدهم مهمة ما فيسعى إلى رجال الدين ليحظى منهم بالكلمة الصالحة ؛ ويهرع آخر إلى الكنيسة يطلب منها الحماية من زميل له ، أكثر منه عتادا وقوة ، قد ضيق عليه الخناق ؛ ويرمى آخر بذلك إلى توسيط زميل له بعض الجاه والسلطان ، لمصلحته الشخصية . ولهذا حجته ، ولذاك حجته . إن الكنيسة تمتلىء كل يوم بأمثال هؤلاء »(٣) .

زد على ذلك أيضا ، أن الإسلام لابد أن يكون قد بدا فى نظر القبائل المتبربرة وغير المتمدنة التى شاهدت مجد الإمبراطورية العربية وعظمتها فى أوج قوتها ، بمثل ذلك التأثير والسحر اللذين بدت بهما المسيحية حين عرضت على برابرة أوربا الشمالية ، وعندما وجدوا المسيحية فى الإمبراطورية — تلك المسيحية المهذبة

= الخلافة قبل الحاكم بنحو قرن ، أوامره بإعادة بناء بعض الكنائس فى الرملة بفلسطين ، وكان المسلمون قد خربوها فى أثناء شغب لم يدون التاريخ سببه . (سعيد بن البطريق ج ٢ ص ٨٢) . ويذكر أبو صالح إعادة بناء كثير من الكنائس والأديار الكبيرة فى مصر ، وكانت إما قد خربت فى زمن الحرب (أى فى خلال غزوة الغز والأكراد فى سنة ١١٦٤) (ص ٩١ ، ٩٦ ، ١١٢ ، ١٢٠) ، أو دمرت بأيدى المتعصبين (ص ٨٥ — ٨٦ ، ١٨٢) ، والمقريزى منقولة فى ملحق ص ٣٢٧ — ٣٢٨) ، أو آلت إلى الفناء (ص ٥ ، ٨٧ ، ١٠٣ — ١٠٤) .

(١) A. de la Jonquière, pp. 203, 213, 312.

(٢) E. Charvériat : Histoire de la Guerre de Trente Ans, tome, ii, pp. 615, 625, (Paris, 1878.)

(٣) In Ioannis Evangelium Tractatus, xxv. § 10.

المعقدة التي تعتمد على الأبهة وجلال النفوذ والسلطان — دينا لبس التاج إلى جانب الملوك ، وقد يتفوق عليهم في السيطرة في بعض الأحيان »(١) .

ومما يجب أن نزيده على ما تقدم ، هذا التأثير البطيء الدائم ، الذى أحدثه الاتصال اليومى بالحياة الإسلامية والتفكير الإسلامى ، مما جعل حتى أحد الكتاب النساطرة فى القرن الثانى عشر ، يضيف كلمات التبجيل والتقديس إلى اسم النبى والخلفاء الأولين كلما عرض لذكرهم (٢) ، ويستنزل رحمة الله على عمر ابن عبد العزيز (٣) . وفى عصور حديثة ، يشكو المبشرون المسيحيون من أن نظام التعليم العام فى مصر فى ظل الاحتلال البريطانى ، ذلك النظام الذى « يضطر الأولاد المسيحيون غالبا بمقتضاه إلى أن يجلسوا ويستمعوا للقرآن والدين (أى الدروس الدينية) وهما يدرّسان لرفاقهم المسلمين ، على حين لا يوجد مكان يمكن عزلهم فيه »(٤) ، إنما يميل إلى منح المسلمين نفوذا راجحا على إخوانهم التلاميذ المسيحيين . ومن أنشط أتباع محمد عبده المفتى الأخير رجل كان فى الأصل طالبا قبطيا يدرس الطب ، ثم تحول إلى الإسلام بتأثير التعليم الدينى الذى كان قد سمعه يلقن فى ساعات الدرس بالمدرسة (٥) .

ولكن سرد أمثال هذه البواعث التافهة يفسر كل حالات التحول إلى هذا الدين أو إلى غيره من الأديان . وينبغى ألا تجعلنا هذه البواعث نغض النظر عن العوامل الأخرى فى حياة الدعوة إلى الإسلام التى كان لتأثيرها طابع دينى أكثر تميزا ووضوحا . وفى مقدمة هذه العوامل تأثير حياة الورع والتقوى التى يحياها المسلمون . وقد يبدو ذلك غريبا فى نظر جيل تعود أن ينظر إلى الإسلام على أنه مستودع لكل ألوان الرذيلة ؛ ومع ذلك لا مراء فى أن كثيرا من المسيحيين فى عصور أقدم من ذلك ، اتصلوا بمجتمع إسلامى حى ، وتأثروا تأثرا عميقا بما تجلى فى هذا المجتمع من فضائل . وإذا كانت هذه الفضائل قد أثرت كذلك فى الرحالة وفى الغريب ، فلا شك فى أنه كان لها بعض التأثير فى جذب الكافر الذى أصبح يتصل بهم اتصالا يوميا . من ذلك نجد ركلدوس دى مونت كروسيس Ricoldus de Monte Crucis ، وهو مبشر دومينيقانى زار الشرق فى نهاية القرن الثالث عشر ، ينطلق بالثناء على المسلمين الذين كان قد اشتغل بين أظهرهم ، يقول : « استولى علينا الدهش ، كيف أن أعمالا تتصف بمثل هذا الكمال يمكن أن تحيا فى

(١) C. Merivale : The Conversion of the Northern Nations, p. 102. (London, 1866.)

(٢) مارى بن سليمان ص ٦٢ (س ٤ ، ٦ ، ١٢) . وعلى ذلك أعرب العالم المارونى يوسف سمعان السمعانى ، فى القرن الثامن عشر ، عن نزعه من مثل هذا الاذعان لاحساس المسلمين بقوله : « لقد مدح محمدا وأنصاره ؛ والأمر الذى لا يمكن أن يذكر دون أن تقشعر منه الأبدان ، هو أنه ذكر اسم ذلك النبى ... مع القول المضاف « عليه السلام » ، ذلك القول الذى لا يبعث على الدهش ، كما جرت بذلك عادة المسلمين (Assemani, tom. iii. pars. i. p. 585)

(٣) مارى بن سليمان ص ٦٥ (س ١٦) .

(٤) Methods of Mission Work among Moslems, p. 62.

(٥) Id. pp. 61-4.

ظل شريعة تصطبغ بمثل هذه النزعة الإلحادية . لهذا نستعيد الآن فى إيجاز أعمال العرب تلك المتصفة بالكمال... من ذا الذى لا يعجب إذا تأمل جيداً أية عناية فائقة بالدراسة يمكن أن توجد بين العرب ؛ أى إخلاص فى الصلاة ، وأية رحمة بالفقير ، وأى تبجيل لاسم الله والأنبياء والأماكن المقدسة ؛ وأى وقار فى أخلاقهم ، وفى معاملتهم للغرباء ، وأية مودة تربط بين جنسهم ؟ (١) وعلى هذا النحو امتدح وليم يتى أف نيوبره William Petit of Newburgh حول نهاية القرن الثانى عشر ، رزانة العرب باعتبارها مظهراً من تعاليم نبيهم ، وموحية إليهم بمعنى من التفوق الخلقى على المسيحيين . قال : « ولما كان محمد يبغض السكارى والنهمين فى جميع أنحاء الأرض ، فإنه قد علمهم العفة والقناعة ، وقبح الطيب من الطعام ، ونهاهم عن شرب الخمر إلا فى أعياد محددة قليلة . ولذلك نرى العرب ، وإن كانوا حقيقة مستسلمين لشهواتهم الجنسية ، متبعين فى ذلك — كما قيل — سنة ذلك الذى أغواهم ، إلا أنه من المحزن أن نقول إنهم أكثر عفة وأرجح منزلة من رجالنا المسيحيين . وهم آخذون علينا ، يا للعار ! ، قذارتنا بسبب نهمنا وإدماننا تناول المسكرات . ولما سمع صلاح الدين أخيراً ، أثناء اختباره أحوال شعبنا ، وكان صلاح الدين المعول الهدام لاسم المسيحيين منذ عشر سنوات خلت ، أنهم يستخدمون بعض الأطباق عند تناول الطعام ، يروى أنه قال إن أمثال هذه الآنية تعد عاراً على الأرض المقدسة . ومن ذلك يتضح أن مظهر مجدنا يثير علينا العرب الذين يباهون باقتصادهم ، كما أنه يشجعهم ، كأن لسان حالهم يقول وقد نبذ الله السكارى ، فلنقتف آثارهم ، ونلق القبض عليهم ، ماداموا لا يجدون منقذاً لهم » (٢) .

وأدب الصليبيين غنى بمثل هذا التقدير للفضائل الإسلامية ، كما تلقى الأتراك العثمانيون فى أيام حكمهم الأولى فى أوربا ، كثيراً من تقدمات المدح والثناء من أفواه المسيحيين ، كما بينا ذلك فى أحد أبواب هذا الكتاب .

وهنالك فى الوقت الحاضر عاملان رئيسان (فوق ما ذكرنا آنفاً مما يصح أن يؤيد وجهة نظرنا) يعملان على تنشيط الدعوة فى العالم الإسلامى . أولها انتعاش الحياة الدينية التى يبدأ تاريخها من حركة الإصلاح الوهابية فى نهاية القرن الثامن عشر ؛ وعلى الرغم من أن هذا الانتقال الجديد قد فقد كل معنى سياسى فى خارج حدود نجد زمناً طويلا ، نرى تأثيرها من حيث هى نهضة دينية ملموساً فى كافة أنحاء إفريقية والهند وأرخبيل الملايو ، حتى إلى الوقت الحاضر ، كما أحيت كثيراً من الحركات التى أحرزت قصب السبق بين أقوى المؤثرات فى العالم الإسلامى . وقد أوضحنا فى الصفحات السابقة كيف أن كثيراً من البعوث الإسلامية الحديثة ، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتلك الحركة الواسعة النطاق . وإن ما أثارته هذه الحركة من حماسة متقدة ، وما سكبته فى النظم الدينية القائمة من حياة جديدة ، وما بثته فى الدراسة الدينية النظرية وتنظيم الشعائر

(١) Laurent, p. 131.

(٢) Historia Rerum Anglicarum Willelmi Parvi de Newburgh, ed. Hans Claude Hamilton, vol. ii. p. 158 (London, 1856.)

المتسكية من روح دافعة — إن ذلك كله قد عمل على إيقاظ روح الإسلام الفطرية التي جبلت على نشر تعاليم الدعوة ، كما عمل على الإبقاء عليها .

وهناك عامل آخر يسير مع هذه الحركة الإصلاحية جنبا إلى جنب ، وهو من نوع يختلف عن هذه الحركة جد الاختلاف — ذلك أنه ، وإن نذكر إلا وجهة واحدة من هذا الاختلاف ، في الوقت الذي نجد فيه الحركة الوهابية تناهض الحضارة الأوربية مناهضة عنيفة ، نرى العامل الثاني ينزع نوعا ما إلى التفكير الحديث ، ويقدم صورة الإسلام بما يتمشى مع هذه النزعة ، — ذلك هو حركة الوحدة الإسلامية التي تسعى إلى ربط جميع شعوب العالم الإسلامي برباط مشترك من المودة والتعاطف . وعلى الرغم من أن هذا العامل لا يساوي بحال العامل الآخر في الأهمية ، نجد هذا الاتجاه إلى التفكير ، يهب روحا قوية تدفع إلى القيام بأعمال نشر الدعوة ؛ وإن الجهد الذي يحقق في الحياة الدنيا المثل الإسلامي الأعلى في إخوة المؤمنين كافة لينعكس على مثل العقيدة العليا المكملة ؛ وإن معنى وحدة شاملة ، وحياة مشتركة تجرى في هذه الشعوب ، لينفخ في قلوب المؤمنين روحا وحياة ، ويخلق فيها الجرأة على التحدث بين يدي الكفار .

أما معرفة ما ستحدثه هاتان الحركتان من تأثير أبعد مدى في حياة الدعوة الإسلامية ، فإن المستقبل وحده كفيل ببيان ذلك . على أن مجرد نشاطهم في الوقت الحاضر دليل على أن الإسلام لم يمت . ولم يكن النشاط الروحي للاسلام ، كما زعم عدد كبير جدا من الناس ، متمشيا مع سلطانه السياسي [١] . بل على العكس من ذلك ، نجد فقدان السلطة السياسية والانتعاش المادي ، يعمل على إبراز أجمل الصفات الروحية التي تعد أصدق البواعث التي تحفز على القيام بأعمال الدعوة . وقد تعلم الإسلام منافع الشدائد ، ولما كان بعيدا كل البعد عن الانحدار إلى الرخاء المادي لكونه نذير انحلال هذا الدين ، كان من المهم أن تلك البلاد الإسلامية الخالصة ، التي عاشت أطول وقت في ظل الحكم المسيحي ، تتجلى كأشد ما تكون نشاطا في القيام بنشر تعاليم الدعوة . ويظهر مسلمو الهند والملايو من الحماسة والغيرة في نشر الدين مالا نجده في تركيا أو في مراكش .

(١) وقد عبر فردريك دينسون موريس عن فكرة من أكثر الأفكار التي تتعلق بهذه العقيدة تداولا وشيوعا ، حين يقول : « من الثابت أن الاسلام لم يكن يصادف نجاحا إلا عند ما كان يهدف إلى الغزو » .

(The Religions of the World, p. 28.) (Cambridge, 1852.)

ملحق (١)

رسالة الهاشمي إلى الكندي يدعوه إلى الاسلام

فيما يلي نص رسالة الهاشمي يدعوه بها إلى الإسلام :

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد ، فقد افتتحت كتابي إليك بالسلام عليك والرحمة تشبها بسيدي وسيد الأنبياء محمد رسول الله ﷺ ، فإن ثقاتنا ذوي العدالة عندنا . الصادقين الناطقين بالحق ، الناقلين إلينا أخبار نبينا عليه السلام ، قد رووا لنا عنه أن هذه كانت عادته ، وأنه كان ﷺ إذا افتتح كلامه مع الناس يبادئهم بالسلام والرحمة في مخاطبته إياهم ، ولا يفرق بين الذمي منهم والأمي ، ولا بين المؤمن والمشرك ، وكان يقول إني بعثت بحسن الخلق إلى الناس كافة ، ولم أبعث بالغلظة والفظاظة . ويستشهد الله على ذلك ، إذ يقول : « بالمؤمنين رءوف رحيم[١] » . وكذلك رأيت من حضرته من أئمتنا الخلفاء المهتدين الراشدين رضي الله عنهم أجمعين ، أنهم كانوا لفضل أدبهم ، وشرف حسبهم ، ونبل همتهم وكرم أخلاقهم ، يتبعون أثر نبيهم ﷺ ، ولا يفرقون في ذلك ولا يفضلون فيه أحـــدا ، فسلكت ذلك المنهج ، واحتذيت تلك السبل ، وأخذت ذلك الأدب المحمود ، فابتدأتك في كتابي هذا بالسلام والرحمة ، لئلا ينكر علىّ منكر يقع إليه كتابي هذا .

« والذي حملني اليك وحثني على ذلك ، محبتي لك ؛ إذ كان سيدي ونبيي محمد ﷺ يقول محبة القريب ديانة وإيمان . على أني كتبت طاعة لرسول الله ﷺ ، ولما أوجبه لك عندنا حق خدمتك لنا ، ونصحك إيانا ، وما أنت عليه من محبتنا ، وتظهره من مودتنا ، والميل إلينا ، وما أرى أيضا من إكرام سيدي وابن عمي أمير المؤمنين أيده الله لك ، وتقريبه إياك ، وثقته بك ، وحسن قوله فيك . فرأيت أن أرضى لك ما قد رضيته لنفسي وأهلي وولدي مخلصا لك النصيحة ومبذلها[٢] ، كاشفا عما نحن عليه من ديانتنا هذه التي ارتضاها الله لنا ولجميع خلقه ، ووعدنا عليها حسن الثواب في المعاد ، والأمن من العقاب في المآب . . . فرغبت لك فيما رغبت فيه لنفسي ، وشفقت عليك لما ظهر لي من كثرة أدبك وبارع علمك وحسن تهذيبك وجميل مذهبك وشرف حسبك وتقدمك على الكثير من أهل ملتك ، أن تكون مقيما على ما أنت عليه من ديانتك هذه ، فقلت : أكشف له عما منّ الله به علينا ، وأعرفه ما نحن عليه بألين القول وأحسنه متبعا في ذلك ما أذن الله به ، إذ يأمرني ويقول جل ثناؤه : «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن» . (سورة ٢٩ آية ٤٥) . فلست أجادلك إلا بالجميل من الكلام ، والحسن من القول ، واللين من اللفظ ،

(١) تمام الآية : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » .

(٢) كذا في الأصل ، ولعله محرف عن (باذلها) .

لعلك تنتهى وترجع إلى الحق ، وترغب فيما أتلوه عليك من كلام الله جل جـــلاله ، الذى أنزله على خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم ، نبينا محمد عليه الصّلاة والسلام . ولم أيأس من ذلك ، بل رجوته لك من الله الذى يهدى من يشاء ، وسألته أن يجعلنى سببا فى ذلك ، ووجدت الله تبارك وتعالى يقول فى محكم كتابه : « إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإسلام » (سورة ٣ آية ١٧) ، ويقول الله أيضا مؤكدا لقوله الأول « ومن يبتغ غير الإسلام دِينا فلنْ يقبلَ منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » . (سورة ٣ آية ٧٩) ، ثم أكد ذلك تبارك وتعالى أمراً قاطعا إذ يقول : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتُنَّ إلا وأنتمْ مسلِمون » (سورة ٣ آية ٩٧) .

« وأنت الرجل (عافاك الله من جهل الكفر ، وفتح قلبك لنور الإيمان) — تعلم أنى رجل أتت علىّ سنون كثيرة ، وقد تبحرت فى عامة الأديان ، وامتحنتها ، وقرأت كثيرا من كتب أهلها ، وخاصة كتبكم معشر النصارى » (وهنا يعدد الأسفار الهامة من العهدين القديم والجديد (التوراة) ، وكيف درس الفرق المسيحية المختلفة) . «ولقيت جماعة من الرهبان المعروفين بشدة الزهد وكثرة العلم ، ودخلت عمارا(١) وديارات وبيعا كثيرة ، وحضرت صلواتهم . . . ورأيت ذلك الاجتهاد العجيب ، والركوع والسجود بإلصاق الخدود بالأرض ، وضرب الجبهة ، والتكتف إلى انقضاء صلواتهم . خاصة فى ليالى الآحاد وليالى الجمع وليالى الأعياد . التى يسهرون فيها منتصبى الأرجل بالتسبيح والتقديس والتهليل الليل كله ، ويصلون ذلك بالقيام نهارهم أجمع ، ويكثرون فى صلواتهم ذكر الأب والابن والروح القدس ، وأيام الاعتكاف التى يسمونها أيام البواعيث ، وقيامهم فيها حفاة على المسوح والرماد ، باكين بكاء كثيراً متواتراً بانهمال دموع من الأعين والجفون ، منتحبين بشهيق عجيب . ورأيت عملهم القربان ، كيف يحفظونه بالنظافة فى خبزهم إياه ، ودعاءهم عند عمـــله الدعاء الطويل ، مع التضرع الشديد عند إصعاده على المذبح فى البيت المعروف ببيت المقدس ، مع تلك الكؤوس المملوءة خمرا . ورأيتُ أيضا مايتدبر به الرهبان فى قلاليهم أيام صياماتهم الستة ، أعنى الأربعة الكبار والاثنين الصغيرين وغير ذلك . فهذا كله كنت له حاضرا ، ولأهله مشاهدا ، وبه عارفا عالما . ورأيت أيضا مطارنة وأساقفة مذكورين بحسن المعرفة وكثرة العلم ، مشهورين بشدة الإغراق فى الديانة النصرانية ، مظهرين غاية الزهد فى الدنيا ، فناظرتهم مناظرة نصفة ، طالبا للحق ، مسقطا بينى وبينهم اللجاج والمراء والمكابرة بالسلطة ، والصلف والبذخ بالحسب . وأوسعتهم أمنا أن يقوموا بحجتهم ، ويتكلموا بجميع ما يريدونه ، غير مؤاخذ لهم بذلك ، ولا متعنّت عليهم فى شىء ، كمناظرة الرعاع والجهال والسقاط والعوام والسفهاء من أهل ديانتنا ، الذين لا أصل لهم ينتهون إليه ، ولا عقل فيهم يُعوّلون عليه ، ولا دين ولا أخلاق تحجبهم عن سوء الأدب ؛ وإنما كلامهم العنت والمكابرة والمغالبة بسلطان الدولة ، بغير علم ولا حجة . وكانوا إذا أنا ناظرتهم وسألتهم مسألة بحث عن عقولهم واعتقادهم وتخرجهم ، يصدقوننى عن أمرهم ولا يكذبون فى شىء مما كنت أسائلهم عنه ، وأجادلهم فيه ، وكنت قد عرفت من بواطنهم مثل الذى قد عرفته من ظاهرهم . فكتبت إليك (أصلحك الله !) بهذا الشرح ، وعدوتُ ما عدوته بعد

(١) هو جمع عمر ، بضم العين ، بمعنى البيعة والكنيسة . ولم نجد له فى اللسان ولا التاج جمعا .

الاستقصاء والبحث الشديد والامتحان له على طول الأيام ، لئلا يظن بى أنى غبى بالأمور ، وليعلم من وقع إليه كتابى هذا أنى عارف بجميع أحوال النصارى حق المعرفة .

وفأنا الآن (مَتّع الله بك !) أدعوك بهذه المعرفة كلها منى بدينك الذى أنت عليه وبطول المحبة إلى هذا الدين الذى ارتضاه الله لى وارتضيته لنفسى ، ضامنا لك به الجنة ضمانا صحيحا ، والأمن من النار ، وهو أن تعبد الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يتخذ له صاحبة ولا ولدا ولم يكن له كفوا أحد ..... وهى الصفة التىوصف نفسه جل وعز بها ، إذكان ليس أحد من خلقه أعلم به من نفسه . فدعوته إلى عبادة الإله الواحد الذى هذه صفته ، ولم أزد فى كتابى هذا على ما وصف به نفسه (جل اسمه وتعالى ذكره ، علوا كبيرا عما يشركون !) ، فهذه ملة أبيك إبراهيم صلوات الله عليه ، فإنه كان حنيفا مسلما .

ثم أدعوك ـ حفظك الله إلى الشهادة والإقرار بنبوة سيدى وسيد ولد آدم ، وصفى رب العالمين وخاتم الأنبياء محمد . . . الذى أرسله الله بشيرا ونذيرا إلى الناس كافة « بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » (سورة ٩ آية ٣٣) . فدعا الناس أجمعين ، أهل الشرق والغرب ، وأهل البر والبحر ، والجبل والسهل ، بالرحمة والرأفة وطيب القول وحسن الخلق واللين . فاستجاب هذا الخلق كلهم إلى دعوته بالشهادة له أنه رسول الله رب العالمين إلى من يريد انتصاحا ، وأقر الأنام كلهم طائعين مذعنين لما عرفوا من الحق والصدق من قوله وصحة أمره ، وما جاء به من البرهان الصريح والدليل الواضح ، وهو هذا الكتاب المنزل عليه من عند الله ، والذى لا يقدر أحد من الإنس والجن أن يأتى بمثله ، وكفى به دليلا على دعوته ، وأنه دعا إلى عبادة إله واحد فرد صمد ، فدخلوا فى دينه وصاروا تحت يده غير مكرهين ولامجبرين ، بل خاضعين معترفين مستنيرين بنور هدايته متطاولين باسمه على غيرهم ممن جحد نبوته وأنكر رسالته ورد أمره مقاوما ومتعاليا ، فمكن الله لهم فى البلاد وأذل لهم رقاب الأمم من العباد ، إلا من قال بقولهم وتدين بدينهم ، وشهد على شهادتهم ، فحقن بذلك دمه وماله ، وحرمته أن يؤدى الجزية عن يد وهو صاغر . (وهنا يعدد تعاليم الإسلام المختلفة ، كالصلوات الخمس وصوم رمضان والجهاد ، ويشرح عقيدة بعث الموتى ، ويوم الدين ، ويصف مناعم الفردوس وأهوال الجحيم) . وفأما نحن فقد ذكرناك ؛ فإن أنت آمنت وقبلت ما يتلى عليك من كتاب الله المنزل انتفعت بما ذكرناك ، وكتبنا به إليك ؛ وإن أبيت إلا المقام على كفرك وضلالك وعنادك للحق ، كنا نحن قد أجرنا ، إذ عملنا بما أمرنا به وكان الحق هو المنتصف منك إن شاء الله . (وهنا يعدد فروض الدين المختلفة ومزايا المسلم ويختم ذلك بقوله) : « فقد تلوت عليك من قول الله تبارك وتعالى ، وهو قول الحق ، لا خلف لوعده ، ولا تكذيب لقوله فيما سلف من كتابى هذا ، ما فى أقله كفاية . فدع ما أنت عليه من الكفر والضلال والشقاوة والبلاء ، وقولك بذلك التخليط الذى تعرفه ولا تنكره وهو قولكم بالأب والابن والروح القدس وعبادة الصليب التى تضر ولا تنفع ، فإنى أربأ بك عنه وأجل فيه عقلك وشرف حسبك عن خساسة ، فإنى وجدت الله تبارك وتعالى يقول « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » (سورة ٤ آية ٥١) ، وقال جل ذكره « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن

مريم ، وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ، إنه من يشرك بالله فقد حرم عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ؛ وما من إله إلا إله واحد ؛ وإن لم ينتهوا عما يقولون ليَمسَّنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم ؛ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم ! ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمهُ صديقةٌ كانا يأكلان الطعام . انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنّى يؤفكون » . فدع ما أنت فيه من تلك الضلالة ، وتلك الحمية الشديدة الطويلة المتعبة ، وجهد ذلك الصوم الآزم الصعب والشقاء الدائم ، والبلاء الطويل الذى أنت منغمس فيه ، الذى لا ينفع ولا يجدى عليك إلاّ إتعابك بدنك وتعذيبك نفسك ، وأقبل داخلا فى هذا الدين القيم ، السهل المنهج ، الصحيح الاعتقاد ، الحسن الشرائع ، الواسع السبيل ، ارتضاه الله لأوليائه من عباده ، ودعا جميع خلقه إليه من بين الأديان كلها ، تفضلا منه عليهم به ، وإحسانا إليهم بهدايته إياهم ، ليتم بذلك نعماه عندهم .

« فقد نصحتُ لك يا هذا وأدّيتُ إليك حق المودة وخالص المحبة ، إذ أحببت أن أخالطك بنفسى ، وأن أكون أنا وأنت على رأى واحد وديانة واحدة . فإنى سمعت ربى يقول فى محكم كتابه « إنّ الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها ، أولئك هم شر البرية . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ؛ جزاؤهم عند ربهم جنّاتُ عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربَّه » (سورة ٩٨ آية ٥ إلى ٨) ؛ وقال الله فى محكم كتابه فى موضع آخر « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف » (سورة ٣ آية ١٠٦) . وأشفقت عليك (أبقاك الله) أن تكون من أهل النار ، الذين هم شر البرية ، ورجوت أن تكون بتوفيق الله إياك من المؤمنين ، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وهم خير البرية ، ورجوت أن تكون من هذه الأمة التى هى خير أمة أخرجت للناس ، فإن أبيت إلاّ إلظاظا ولجاجا وجهلا وتماديا فى كفرك وطغيانك الذى أنت فيه ، ورددتَ علينا قولنا ، ولم تقبل مابذلناه لك من نصيحتنا ، حيث لم نُرِدْ منك على ذلك جزاءً ولا شكرا ، فاكتب بما عندك من أمر دينك ، والذى صح فى يدك منه ، وماقامت به الحجة عندك ، آمنا مطمئنا ، غير مقصر فى حجتك ولا مُكاتِم لما أنت معتقده ، ولا فرق ولا وجل ؛ فليس عندى إلا الاستماع للحجة منك ، والصبر والإقرار بما يلزمنى منه طائعا غير منكر ، ولا جاحد ولا هائب ، حتى نقيس ما تأتينا به وتتلوه علينا ، ونجمعه إلى ما فى أيدينا ، ثم نخبرك بعد ذلك . على أن تشرح لنا علته ، وتدع الاعتلال علينا بقولك إن الفزع حجبك وقطعك عن بلوغ الحجة ، واحتجت أن تقبض لسانك ، ولا تبسطه لنا ببيان الحجة ، فقد أطلقناك وحجتك ؛ لئلا تنسبنا إلى الكبرياء ، وتدّعى علينا الجور والحيف ، فإن ذلك غير شبيه بنا .

فاحتجّ عافاك الله بما شئت ، وتكلم بما أحببت ، وانبسط فى كل ما تظن أنه يؤديك إلى وثيق حجتك ، فإنك فى أوسع الأمان ، ولنا عليك أصلحك الله ، إذ أطلقناك هذا الإطلاق ، وبسطنا لسانك هذا البسط ، أن تجعل بيننا وبينك حكما عادلا لا يجور ، ولا يحيف فى حكمه وقضائه ، ولا يميل إلى غير الحق إذا ما تجنب دولة الهواء[1] ؛ وهو العقل الذى يأخذ به الله عز وجل ويعطى ، فإننا قد أنصفناك فى القول وأوسعناك فى الأمان ،

(١) كذا فى الأصل . والصواب الهوى .

ونحن راضون بما حكم به العقل لنا وعلينا إذكان «لا إكراه فى الدين» (سورة ٢ آية ٢٥٧) ، وما دعوناك إلا طوعا وترغيبا فى ما عندنا وعرفناك شناعة ما أنت عليه ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

ويمكن أن يكون هنالك قليل جدا من الشك فى أمر واحد فيما يتعلق بهذه الوثيقة ، وهو أنها قد وصلت إلينا فى حالة ناقصة ، وأنها لقيت على أيدى النساخ المسيحيين تشويها وتحريفا . وإن ما نكاد نراه من عدم وجود ما يدحض تلك العقائد المسيحية الحاسمة دحضا تاما ، كعقيدة الثالوث المقدس ، وما نجده من الإشارات إلى أمثال تلك الهجمات فى رد الكندى على هذه الرسالة ، ليدل بالتأكيد على إسقاط تلك العبارات التى قد تكون قد آلمت القراء المسيحيين (١) .

ملحق (٢)

كتب الجدل بين المسلمين وأتباع الديانات الأخرى

على الرغم من أنه لم يكن للاسلام طريقة منظمة للدعاية ، ولا جمعيات دينية ، ولا وسائل من هذا القبيل للقيام بأعمال الدعوة ، لم يكن هنالك أى نقص فى عروض الدين المعقولة التى قدمت إلى الكفار ، وخاصة إلى المسيحيين واليهود. وليس من غرضنا أن نورد وصفا مفصلا عن تلك العروض فى هذا المقام ، ولكن المهم أن نوجه انتباهنا إلى وجودها ، وحسبنا أن نفعل ذلك لنزيل الخطأ الشائع الذى يقول إن التحول الجمعى هو الصفة الغالبة فى إنتشار الإسلام ، وإن الإقناع الفردى لم يؤلف أى جانب من مشرعات الدعوة التى قام بها الدعاة المسلمون . ونجد بواكير الجدل الإسلامى ضد الكفار فى القرآن ذاته ؛ ولكن منذ القرن التاسع الميلادى تبدأ سلسلة طويلة من الرسائل المنظمة فى الدفاع عن صحة الديانة الإسلامية ، وقد ظلت قوية نشيطة حتى الوقت الحاضر . وإن عدد أمثال هذه المؤلفات التى وجهت ضد العقيدة المسيحية ، كان أكبر بكثير مما كتبه المسيحيون فى تفنيد الإسلام ، وقد استخدم فريق من أقدر مفكرى المسلمين أقلامهم فى كتابة هذه المؤلفات ، منهم أبو يوسف بن إسحاق الكندى (٨١٣ — ٨٧٣ م) والمسعودى (المتوفى سنة ٩٥٨ م) وابن حزم (٩٩٤—١٠٦٤ م) والغزالى (المتوفى سنة ١١١١ م) وغيرهم. ومن الطريف أيضا أن نلاحظ أن عدة من المرتدين كتبوا يبررون تغيير دينهم ويدافعون عن العقيدة الإسلامية ، منهم ابن جزلة فى القرن الحادى عشر ، ويوسف اللبنانى والشيخ زيادة بن يحيى فى القرن الثالث عشر ، وعبد الله بن عبد الله فى القرن الخامس عشر ، ودرويش على فى القرن السادس عشر ، وأحمد بن عبد الله وهو إنجليزى ولد فى كمبردج فى القرن السابع عشر وغيرهم. وهؤلاء الأخيرون كانوا جميعا مسيحيين

(١) وعلى هذا النحو ، نجد الناشر الأسبانى الذى نشر الرسائل الجدلية التى تبودلت بين ألفار و «المذنب» (وهو مسيحى تحول إلى اليهودية) يضيف الملاحظة الآتية عقب الرسالة الخامسة عشرة : « إن أربعة عشر سطرا من هذه الصحيفة قد انمحت بحيث لا يمكنك قراءة كلمة واحدة منها . وقد قطع صاحب الكتاب الصحيفة التالية ، حتى لا تقرأ أباطيل المذنب » .

(Migne, Patr. Lat., tom. cxxi p. 483.)

قبل أن يتحولوا إلى الإسلام ؛ أما المرتدون من اليهود أيضا ، مع أنهم كانوا أقل عددا ، فقد كانوا من بين الذين كتبوا دفاعا عن الإسلام . وإلى جانب ما دون في الهند من كتب إسلامية كثيرة للرد على الدين المسيحي ، نجد عددا هائلا من المؤلفات الجدلية للرد على الهندوكية : أما أن المسلمين كانوا على هذا النحو من النشاط في سائر الأقطار الوثنية ، فليس لدى معلومات عن ذلك .

وسيجد القارىء ذخيرة وافية من المعلومات عن آداب الجدل الإسلامي في الكتب التالية :

Moritz Steinschneider : Polemische und apologetische Litteratur in arabischer Sprache, zwischen Muslimen, Christen und Juden. (Leipzig, 1877.) ; Martin Schreiner : Zur Geschichte der Polemik zwischen Juden und Muhammedanern (Z. D. M. G., vol. 42, p. 591 ff. 1888) ; W. A. Shedd : Islam and the Oriental Churches. pp. 252-3 ; Carl Güterbock : Der Islam in Lichte der byzantinischen Polemik (Berlin, 1912.)

ملحق (٣)

جمعيات الدعوة الاسلامية

إن تأليف الجمعيات لمباشرة الدعاية في طريقة منظمة منهجية ، تطور حديث العهد في تاريخ الدعوة الإسلامية — كما هي في الواقع حديثة نسبيا في تاريخ الإرساليات المسيحية . وقد يبدو أن أمثال جمعيات الدعوة الإسلامية هذه ، قد تألفت على مثال يقوم على الخبرة والمعرفة لهيئات منظمة مماثلة في العالم المسيحي ؛ وهي ليست في ذاتها أشد الدلالات تمييزا لروح الدعوة في الإسلام . وفي العالم الغربي نجد قليلا جدا يمكن ملاحظته في هذا الصدد . ويظهر أنه لم تكن هنالك أية محاولة قد بذلت لتكوين مثل هذه الجمعية قبل النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، ولم يكلل أسبق الجهود في هذه السبيل إلا بقليل من النجاح . وعند ما كتب هـ. م. ستانلي في سنة ١٨٧٥ في الصحافة الإنجليزية يحث على إرسال بعث مسيحي إلى موتزا ملك أوغنده ، أدت العناية الواسعة النطاق التي وجهها الناس إلى دعوة ستانلي إلى تأليف جمعية في القسطنطينية لنشر الدعوة الإسلامية في تلك البلاد . ولكن أحدا من الدعاة المسلمين لم يرسل قط إلى أوغنده ، و حوّل نشوب الحرب الروسية التركية في سنة ١٨٧٨ أنظار الأتراك عن أي مشروع من هذا القبيل (١) . وقد تبين إخفاق مماثل في تأسيس عمل منظم لنشر الدعوة ، عند ما حددت الحكومة المصرية الإنجليزية في السودان مناطق النفوذ للجمعيات التبشيرية المسيحية المختلفة في المقاطعات التي كان أهلها وثنيين . وقد ادعى بعض مسلمي القاهرة أن جزءا من الأراضي يجب أن يخصص لأتباع الإسلام ؛ ومن ثم أجابت الحكومة بأن كل ما تستطيع عمله أن ترسل دعاة مسلمين ، وأن تقدم إليهم نفس التسهيلات التي قدمتها للمبشرين المسيحيين .

---

(١) Richter, pp. 164-5.

ولكن المسألة كان يعوزها التنظيم الأساسي، فتعرضت للإهمال[١]. وفي سنة ١٩١٠ أسس الشيخ رشيد رضا، صاحب مجلة المنار، جمعية في القاهرة، كانت تهدف إلى تأسيس كلية (تسمى دار الدعوة والإرشاد) لتدريب دعاة وجدليين للدين الإسلامي، وإرسالهم بادىء الأمر إلى بلاد الوثنيين والمسيحيين، بل إلى البلاد الإسلامية التي تبذل فيها الجهود لإقناع المسلمين بالتخلي عن عقيدتهم[٢].

على أن أعظم توسع لأمثال هذه الهيئات المنظمة كان في بلاد الهند. ومن المحتمل أن تعد أنجومان حمايت إسلام في لاهور من أحسن الهيئات المنظمة، ولكن مهمة الدعوة لا تؤلف من مجال نشاطها الواسع إلا جانبا يسيرا، ولهذا لا نستطيع أن نصفها بأنها جمعية لنشر الدعوة نقية بسيطة. وكان الغرض الأصلي الذي تأسست من أجله أنجومان حامي إسلام في أجمير هو أن تجيب على الاعتراضات التي وجهها إلى الإسلام أعضاء آريه سماج؛ بيد أنه من بين أغراضها الدعوة إلى الإسلام، وتزويد المسلمين الجدد بالطعام واللباس[٣]. وقد قصرت أنجومان وعظ إسلام، كما يدل على ذلك اسمها، جهودها على الدعوة إلى هذا الدين، على حين كان مولوي بقا حسين خان (ص ٢٤١) كاتم سرها، وقد نشر ثبوتا بأسماء من ظفرت بهم هذه الجمعية من الذين دخلوا في الإسلام — كما فعلت كذلك أنجومان إسلام وأنجومان تبليغ إسلام (وكانت ترمي إلى تحويل الهندوكيين الذين لم يمكن الاتصال بهم إلى الإسلام) التي أنشئت في حيدراباد (بالدكن)، ولكن يظهر أن كلا من هاتين الجمعيتين لم تعمر طويلا[٤]. ومن بين الجمعيات التي أنشئت في القرن العشرين، مدرسة إلاهيّت في كونپور لتدريب الدعاة ونشر الرسائل دفاعا عن الإسلام وردا على الحملات التي توجه إليه. وإن أنجومان إشاعت وتعليم إسلام في بَطالة بالبنجاب، لتهدف إلى أغراض مماثلة. ولكن أنجومان هداية الإسلام في دهلي تعد أعظم هذه الهيئات المنظمة، وينضم إليها عدد كبير من الجمعيات الأخرى يبلغ أربعا وعشرين جمعية[٥]، في جهات مختلفة من الهند. وتوسل هذه الأنجومان الدعاة للدعوة إلى عقائد الإسلام ولعقد مناظرات مع غير المسلمين، كما تقوم بنشر الكتب الجدلية، وخاصة في الرد على الهجمات التي يوجهها أعضاء آريه سماج.

---

(١) Artin, p. 35.

(٢) The Moslem World, vol. i. p. 441. R. du M. M., vol. xv. p. 374 ; vol. xviii. pp. 216, 224.

(٣) Rajputana Herald, April 17, 1889.

(٤) Mohammedan World of To-day, p. 183.

(٥) ورد ثبت بأسماء هذه الجمعيات في ص ١٩ من : The Annual Report for the year 1328 H.

مراجع الكتاب

١ — مراجع عربية وفارسية — مذكورة بالإشارات المختصرة

ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء . القاهرة ١٢٩٩ هـ

ابن أبي زرع : روض القرطاس . باريس ١٨٦٠

ابن الأثير : كتاب الكامل في التاريخ . ليدن ١٨٥١ — ١٨٧٦

ابن إسحاق : سيرة سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم رواية أبي محمد عبد الملك بن هشام . جوتنجن ١٨٥٩

ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروفة برحلة ابن بطوطة . باريس ١٨٥٣ — ١٨٥٨

ابن حوقل : المسالك والممالك والمفاوز والمهالك . ليدن ١٨٧٣

ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر . بولاق ١٨٦٧

ابن خلكان : Biographical Dictionary, translated by Baron Mac Guckin de Slane (Paris, 1843-71.)

ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ، نشره سخاو . ليدن ١٩٠٥ — ١٩٢١

ابن سعد : Die Schreiben Muhammads und die Gesandtschaften an ihn. (Skizzen und Vorarbeiten von J. Wellhausen. Viertes Heft. Berlin, 1889.)

ابن العبرى : (١) Gregorii Barhebraei. Chronicon Ecclesiasticum, ed. J. B. Abbeloos et T. J. Lamy. (Louvin, 1872-77.)

(٢) أبو الفرج ، تاريخ مختصر الدول طبعة الصالحاني (بيروت ١٨٩٠) .

(٣) Gregorii Abulpharagii sive Bar-Hebraei Chronicon Syriacum, ed. et vert. P. J. Bruns et G. G. Kirsch. (Lipsiae, 1789.)

أبو شامة : Arabische Quellenbeiträge zur Geschichte der Kreuzzüge Übersetzt und herausgegeben von E. P. Goergens und R. Röhricht. Erster Band : Zur Geschichte salah ad-din's. (Berlin, 1879.)

أبو صالح : تاريخ أبي صالح (أكسفورد ١٨٩٥) .

أبو عبيد البكرى : Fragments de géographes et d'historiens Arabes et Persans, inédits, relatifs aux anciens peuples du Caucase et de la Russie meridionale, traduits par C. Defrémery. (J. A. iv me série. Tome xiii, 1849.)

أبو الغازى : Histoire des Mogols et des Tatares par Aboul-Ghâzi Behâdour Khan, traduite par le Baron Desmaisons. (St. Petersburg, 1871-4.)

أبو الفدا : Géorgraphie d'Aboulféda, traduite par M. Reinaud. (Paris, 1848.)

أبو يوسف : كتاب الخراج . القاهرة ١٣٠٢ هـ

أحمد بن يحيى المرتضى : المعتزلة مشتق من كتاب الملل والنحل نشره السير توماس أرنولد (ليبزج ١٩٠٢) .

الادريسى : صفة المغرب والأندلس ، نشره دوزى ودى غويه . (ليدن ١٨٦٦)

الأزدى : فتوح الشام لمحمد بن عبد الله الأزدى البصرى ، نشره و. ن. ليز Lees (كلكته ١٨٥٤) .

الاصطخرى : كتاب المسالك والممالك . نشره دى غويه

(Bibliotheca Geographorum Arabicorum I. Leiden, 1870.)

أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار . نشر هـ . ديرنبورغ ، القسم الثانى

(Publications de l'École des Langues Oreintales Vivantes. ii me. ser. tome xii (ii me. Partie). (Paris, 1886.)

البلاذرى : فتوح البلدان . ليدن ١٨٦٦

بهاء الدين (بن شداد) : سيرة السلطان الملك الناصر صلاح الدين . (بتافيا ١٧٣٢)

تاريخ السودان : لعبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدى ، نشره هوداس ، باريس ١٨٩٨ .

التيجانى : Voyage du Scheikh Et-Tidjani dans la régence de Tunis, pendant les années 706, 707, et 708 de l'Hégire (1306 - 1309) ; traduit de l'arabe par M. Alphonse Rousseau (J. A. iv me. serie, tome xx., 1852.).

الجوزجانى : منهاج سراج الجوزجانى ، طبقاتى ناصرى نشره و . ناساو ليز (كلكته ١٨٦٤) .

رشيد الدين : جامع التواريخ ، تاريخ مبارك غازانى نشره بلوشيه (سلسلة جيب التذكارية – xviii) (لندن ١٩١١)

زين الدين (المعبرى المليبارى) : تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتكاليين . لشبونه ١٨٩٨ .

سعيد بن البطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق . (باريس ١٩٠٦—١٩٠٩)

ساويرس (بن المقفع) : أخبار بطاركة الاسكندرية (بيروت ١٩٠٤ ——)

سيد على أكبر : Trois chapitres du Khitay Naméh. Texte Persan et traduction française par Charles Schefer (Mélanges Orientaux. Publications de l'École des Langues Orientales Vivantes. 11 e. série. Vol. ix. Paris, 1883.)

صليبا بن يوحنا : المجدل طبع مع ترجمة لاتينية بعناية جسموندى . (روما ١٨٩٦) .

الطبرى : تاريخ الرسل والملوك (نشره دى غويه . ليدن ١٨٨٥ —— ١٨٩٣)

عبد الرزاق السمرقندى : مطالع السعدين ومجمع البحرين (India Office MS. No. 2704.)

عبيد الله : تحفه الهند ، دهلى ١٣٠٩ هـ

عرب فقيه : فتوح الحبشة نشره رينيه باسيه . باريس ١٨٩٧ — ١٩٠٩

عمرو بن متى : المجدل طبع مع ترجمة لاتينية بعناية جسموندى (روما ١٨٩٦)

غلام سرور : خزينة الأصفياء (لاهور غير معروف تاريخ الطبع)

فرشته (محمد قاسم) : History of the Rise of the Mahomedan Power in India, translated from the Persian of Mohamed Kasim Ferishta by John Briggs. (London, 1829.)

ابن النديم : كتاب الفهرست ، نشره فلوجل . (ليبزج ١٨٧١ — ١٨٧٢)

مارى بن سليمان : المجدل طبع مع ترجمة لاتينية بعناية جسموندى (روما ١٨٩٩) .

محبوب المنبجى : العنوان الكامل بفضائل الحكمة . (بيروت ١٩١٢) .

محمد بن عثمان الحشائشى : Voyage au pays des Senoussia, traduit par V. Serras et Lasram (Paris, 1903.)

محمد حيدر : تاريخ رشيدى ، نقله إلى الانجليزية ن . إلياس و إ . دينيسون روس (لندن ١٨٩٥) .

المسعودى : مروج الذهب (باريس ١٨٦١ — ١٨٧٧) .

المقريزى : (١) A short history of the Copts, traslated from the Arabic by S. C. Malan. (London, 1873.)

(٢) Histoire des Sultans Mamlouks de l'Egypte, traduite par M.Quatremère. (Paris, 1837-45.)

المقرى : نفح الطيب ترجمة Pascual de Gayangos (لندن ١٨٤٠ — ١٨٤٣)

المكين : تاريخ المسلمين (بتافيا ١٦٢٥)

النرشخى : أخبار بخارى (باريس ١٨٩٢)

الهداية : ترجمة تشارلس هاملتون (لندن ١٧٩١)

ياقوت : معجم البلدان (ليبزج ١٨٦٦ - ١٨٧٣)

يحيى بن آدم : كتاب الخراج (ليدن ١٨٩٦) :

مراجع إفرنجية

(عناوين المراجع التى ذكرت مرة واحدة فى هذا الكتاب قد اكتفينا بإيرادها كاملة فى الهوامش)

Aa (P. J. B. Robidé van der) : Reizen naar Nederlandsch Nieuw-Guinea, met Geschied- en Aardrijkskundige Tœlichtingen. (The Hague, 1879.)

Abh. f. d. K. d. M. hrsg. v. d. D M G : Abhandlungen für die Kunde des Morgenlandes, herausgegeben von der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft. (Leipzig.)

Allégret (E.) : L'Islamisme en Afrique. (Revue Chrétienne, iii^{me} sér., tome xiv. (Paris, 1901.)

Alvar : (1) Alvari Cordubensis Epistolae. (Migne, Patr. Lat. tom. cxxi.)
(2) Indiculus Luminosus. (id. ib.)

Alvarez : Viaggio nella Ethiopia al Prete Ianni fatto par Don Francesco Alvarez Portughese. (1520-27.) (Ramusio. Tom. i.)

Amari (Michele) : Storia dei Musulmani di Sicilia. (Florence, 1854-72.)

Amélineau (E.) : Etude sur le Christianisme en Égypte au septième siècle. (Paris, 1887.)

Anderson (John) : Chinese Mohammedans. (Journal of the Anthropological Institute of Great Britain and Ireland, vol. i. London, 1872.)

Andriessen (W. F.) : De Islam in Nederlandsch Indië. (Vragen van den Dag. Amsterdam, 1889.)

Argensola (B. Leonardo de) : Conquista de las Islas Malucas. (Madrid. 1609.)

Arminjon (Pierre) : Étrangers et protégés dans l'empire ottoman. (Paris, 1903.)

Artin (Yacoub Pasha) : England in the Sudan, translated by George Robb. (London, 1911.)

Asboth (J. de) : An official tour through Bosnia and Herzegovina. (London, 1890.)
Assemani (J. S.) : Bibliotheca Orientalis Clementino-Vaticana. (Rome, 1719-28.)
Barbaro : Viaggio di losafa Barbaro nella Persia. (Ramusio Tom. ii.)
Barbier de Meynard (A. C.) : Un document turc sur la Circassie. (Centenaire de l'École des Langues Orientales Vivantes. Recueil de Mémoires publié par les Professeurs de l'École. Paris, 1895.)
Barbosa (Odoardo) : Libro di Odorado Barbosa Portoghese dell' Indie Orientali, 1516, (Ramusio, Tom. i.)
Barros (J. de) : Da Asia. (Lisbon, 1777-8.)
Basset (René) : Études sur l'Histoire d'Éthiopie. (Paris, 1882.)
Bastian (A.) ; Die Völker des östichen Asien. (Leipzig, 1866.)
Baudier (Michel.) : Histoire Générale de la Religion des Turcs. (Rouen, 1641.)
Baudissin (W. W. Graf von) : Eulogius und Alvar. Ein Abschnitt spanischer Kirchengeschichte aus der Zeit der Maurenherrschaft (Leipzig, 1872.)
Baumgarten (Martin) : The travels of. (A Collection of Voyages and Travels. London, 1752.)
Becker (C. H.) (1) Materialien zur Kenntnis des Islam in Deutsch-Ostafrika. (Der Islam, vol. ii. Strassburg, 1911.)
(2) Papyri Schott-Reinhardt I., herausgegeben und erklärt. (Veröffentlichungen aus der Heidelberger Papyrus-Sammlung, iii.) (Heidelberg, 1906.)
(3) Zur Geschichte des östlichen Sudan. (Der Islam, vol. i. Strassburg, 1910.)
Beke (T. C.) : Routes in Abyssinia. (J. R. Ggr. Soc., vol. xiv. 1844.)
Belin : Fetwa relatif à la condition des Zimmiz et particulièrement de, Chrétiens, en pays musulmans, depuis l'établissement de l'islamisme jusqu'au milieu du viii[e] siècle de l'hégire, traduit de l'arabe par M. Belin. (J. A. iv[me] série, tome xviii., 1851.)
Bell (H. I.) : Greek Papyri in the British Museum. Catalogue, with Texts, vol. iv. The Aphrodito Papyri, edited by H. I. Bell. With an appendix of Coptic Papyri, edited by W. E. Crum. (London, 1910.)
Bellew (H. W.) : The races of Afghanistan. (Calcutta, 1880.)
Benedict of Peterborough : Gesta Regis Henrici Secundi Benedicti Abbatis. Edited by William Stubbs. (London, 1867.)
Berg (L. W. C. van den) : (1) De Mohamedaansche geestelijkeid en de geestelijke gœderen op Java en Madœra. (Ts. ind. t.- l.- vk. Vol. xxvii., 1881.)
(2) Le Hadhramout et les Colonies Arabes dans l'Archipel Indien. (Batavia, 1886.)
Bijdr. t. d. t. l. en vlk : Bijdragen tot de Taal-, Land- en Volkenkunde van Nederlandsch-Indië, uitgegeven door het Koniglijk Instituut voor de Taal-, Land- en Volkenkunde van Nederlandsch-Indië. ('s Gravenhage)
Bizzi : Relatione della visita fatta da me, Marino Bizzi, Arcivescovo d'Antivari, nelle parti della Turchia, Antivari, Albania e Servia. alla Santità di Nostro Signore Papa Paolo Quinto. 1610. (Bibliotheca Barberina, Rome. Nr. lxiii. 13.)
Blau : Chronik der Sultâne von Bornu, bearbeitet von Otto Blau.(ZDMG., vol. 6. 1852.)
Blochet (E.) : Introduction à l'Hitstoire des Mongols de Fadl Allah Rashid ed-Din. ("E. J. W. Gibb Memorial" Series. xii.) (London, 1910.)

Blount : A voyage into the Levant; a brief relation of a journey lately performed by Master Henry Blount, Gentleman. 1634-36. (A Collection of Voyages and Travels. London, 1745.)
Blunt (W. S.) : The Future of Islam. (London, 1883.)
Blyden (E. W.) : Christianity, Islam and the Negro Race. (London, 1888.)
Bobrovnikoff (S.) : Moslems in Russia. (The Moslem World, vol. i. London, 1911.)
Bokemeyer (H.) : Die Molukken. (Leipzig, 1888.)
Bonaventura di S. Antonio : Informatione di Fra Bonaventura di S. Antonio, Reformato di S. Francesco, Missrio d'Albania. (Assisi, li 30 Luglio, 1652.) (Bibliotheca Chigiana, Rome. G. iii., 94.)
Bonet-Maury (G.) : L'Islamisme et le Christianisme en Afrique. (Paris, 1916.)
Bouche (Pierre) : La Côte des Esclaves et le Dahomey. (Paris, 1885.)
Bretschneider (E.) : (1) Mediæval Researches from Eastern Asiatic Sources. (London, 1888.)
(2) On the Knowledge possessed by the Ancient Chinese of the Arabs and Arabian Colonies. (London 1871.)
Broomhall (Marshall) : Islam in China. (London, 1910.)
Brosset (M. F.) : Histoire de la Géorgie. (St. Petersburg. 1849-58.)
Brumund (J. F. G.) : Bijdragen tot de kennis van het Hindoeïsme op Java. (Verth. Bat. Gen. van K. en W. Deel xxxiii. 1868.)
Budge (E. A. Wallis) : The Egyptian Sûdân, its history and monuments. (London, 1907.)
Burchard : Burchardi de Monte Sion Descriptio Terrae Sanctae. (Perergrinatores Medii Aevi Quatuor. Ed. J. C. M. Laurent. Lipsiae, 1864.)
Burckhardt (J. L.) : (1) Travels in Nubia. (London, 1819.)
(2) Travels in Syria and the Holy Land. (London, 1822.)
Burton (Richard F.) : (1) Abeokuta and the Camaroon Mountains. (London, 1893.)
(2) First Footprints in East Africa. (London, 1856.)
Busbecq (Augier Ghislen de) Omnia quæ extant. (Amstelodami. 1660.)
Businello (P.) : Historische Nachrichten von der Regierungsart der osmanischen Monarchie. (Leipzig, 1778.)
Caetani (Leone, Principe di Teano) : Annali dell' Islám. (Milano, 1905- .)
Cahun (Léon) : Introduction à l'histoire de l'Asie. Turcs et Mongols. (Paris, 1896.)
Campen (C. F. H.) : Nalezingen op het opstel over de godsdienstbegrippen der Halemaherasche Alfoeren. (Ts, ind. t.- l.- vk. Deel xxviii. 1883.)
Canne (H. D.) : Bijdrage tot de Geschiedenis der Lampongs. (Ts. ind. ti- l.- vk. Deel xi. 1862.)
Cantacuzenos : Trattato di Theodoro Spandugino Cantacusino de costumi de Turchi. (Venice, 1573.)
Chavannes (E.) : Documents sur les Tou-Kiue (Turcs Occidentaux. (Sbornik Trudov Orchonskoy Expedicii. VI. St. Petersburg, 1903.)
Chiragh 'Ali : Maulavi Cheragh Ali : A Critical Exposition of the Popular Jihàd. (Bombay, 1885.)
Chwolsohn (D.) : Die Ssabier und der Ssabismus. (St. Petersburg, 1856.)
Chytræus (David) : Oratio de statu ecclesiarum hoc tempore in Græcia, Asia, Africa, Ungaria, Boëmia, etc. (Wittebergæ, 1580.)
Clark (E. L.) : The Races of European Turkey. (New York, 1878.)
Comuleo : Instruttioni al Revdo Don Alessandro Comuleo Archiprete di S. Girolamo di Roma mandato da' Papa Clemente Ottavo al Gran Duca di Moscovia, et altri

Principi, et Potentati delle Parti Settentrionali. Con una Relatione del Medesimo Comuleo fatta à S. Santità sopra le cose del Turco. (Bibliotheca Barberina, Rome. Nr. lviii. 33.)

Contenson (L. de) : Chrétiens et Musulmans. (Paris, 1901.)

Coolsma (S) : De Zendingeeuw voor Nederlandsch Oost-Indië. (Utrecht, 1901.)

Cornaro (F.) : Creta Sacra, authore Flaminio. Cornelio. (Venice, 1755.)

Crawfurd (John) : (1) A Descriptive Dictionary of the Indian Islands and adjacent Countries, (London, 1856.)
(2) History of the Indian Archipelago. (Edinburgh, 1820.)

Creasy (Sir Edward S.) : History of the Ottoman Turks. (London, 1878.)

Crisio : Summario della Relatione della Visita di Albania, fatta per ordine della Sac. Cong[ne] da Don Marco Crisio Sacerdote Albanese. 1651. (Bibliotheca Chigiana, Rome. G. iii. 94.)

Crusius (Martin) : Turcogræcia. (Basileæ, 1584.)

Darlymple (A.) : Essay towards an account of Sulu. (Journal of the Indian Archipelago and Eastern Asia. Vol. iii. Singapore, 1849.)

Dalton (E. T.) : Descriptive Ethnology of Bengal. (Calcutta, 1872.)

Delafosse (Maurice) : Les confreries musulmanes et le maraboutisme dans les pays du Sénégal et du Niger. (Renseignements Coloniaux et Documents publiés par le Comité de l'Afrique Française et le Comité du Maroc. No. 4. Paris, 1911.)

Depont (Octave) et Coppolani (Octave) : Les confréries religieuses musulmanes. (Alger, 1897.)

Devéria (Gabriel) : Origine de l'Islamisme en Chine. (Centenaire de l'École des Langues Orientales Vivantes. Recueil de Mémoires publié par les Professeurs de l'École. Paris, 1895.)

Dobschütz (E. von) : Die confessionellen Verhältnisse in Edessa unter der Araberherrschaft. (Zeitschrift für wissenschaftliche Theologie. 41[er] Jahrgang, 1898.)

Döllinger (J. J. T.) : Mohammed's Religion nach ihrer inneren Entwicklung und ihrem Einflusse auf das Leben der Völker. (Munich, 1838.)

Dorostamus (Athanasius) : Neueste Beschreibung derer Griechischen Christen in der Türckey, aufgesetzt von Jacob Elssner. (Berlin, 1737.)

Doughty (Charles M.) : Travels in Arabia Deserta. (Cambridge, 1888.)

Dousa : Georgii Dousæ de Itinere suo Constantinopolitano epistola. (Lugduni Batavorum, 1599.)

Doutté (E.) : Notes sur l'Islam maghribin. (Revue de l'Histoire des Religions; XL, XLI. Paris, 1899, 1900.)

Dozy (R. P. A.) : (1) Essai sur l'histoire de l'Islamisme. (Leyde. 1879.)
(2) Histoire des Musulmans d'Espagne. (Leyde, 1861.)
(3) Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen âge, 3[me] éd. (Leyde, 1881.)

Driesch (G. C. von den) : Historische Nachricht von der Röm. Kayserl. Gross-Botschaft nach Constantinopel, welche . . . der Graf Damian Hugo von Virmondt rühmlichst verrichtet. (Nürnberg, 1723.)

Dulaurier (M. E.) : Addition au memoire intitulé Liste des pays qui relevaient de l'empire javanais de Madjapahit. (J. A. iv[me] série, tome xiii. 1849.)

Duveyrier (H.) : La confrérie musulmane de Sidi Mohammed Ben 'Alî Es-Senoûsî. (Paris, 1886.)

East (D. J.) : Western Africa. (London, 1844.)

Elias of Nisibis : F. Bæthgen : Fragmente syrischer und arabischer Historiker. (Abh. f. d. K. d. M. hrsg. v. d. DMG. Vol. iii. No. 3. 1884.)

Elliot (Sir H. M.) : The History of India, as told by its own historians. The Muhammadan Period. Edited by Prof. John Dowson. London, 1872-7.)

Encyclopædie van Nederlandsch-Indië, met medewerking van verschillende ambtenaren, geleerden en officieren, samengesteld door P. A. van der Lith en J. F. Snelleman. (Leiden. 1899-1905.)

Enhueber (J. B.) : Dissertatio de hæresi Elipandi et Felicis. (Migne, Patr. Lat. tom. ci.)

Eulogius : Memoriale Sanctorum. (Migne, Patr. Lat., tom. cxv.)

Evans (A. J.) : Through Bosnia and the Herzegovina. (London, 1876)

Farlati (Daniel) : Illyricum Sacrum. (Venice, 1769-1819.)

Finlay (G.) : A History of Greece, from its Conquest by the Romans to the present time. (Oxford, 1877.)

Forget (D. A.) : L'Islam et le Christianisme dans l'Afrique Centrale. (Paris, 1900.)

Forrest (T.) : A Voyage to New Guinea and the Moluccas. (London. 1779.)

Fournel (Henri) : Les Berbers. Étude sur la conquête de l'Afrique par les Arabes. (Paris, 1875.)

Frere (Sir Bartle) : (1) Eastern Africa as a field for Missionary Labour. (London, 1874.)
(2) Indian Missions. 3rd. ed. (London, 1874.)

Gaetan : Relatione di Ivan Gætan del discoprimento dell' Isole Molucche. (Ramusio. Tome. i.)

Gairdner (W. H. T.) : The Reproach of Islam. (London, 1909.)

Garnett (L. M. J) The Women of Turkey and their Folklore. The Jewish and Moslem Women. (Londor, 1891.)

Gasztowtt (Thadée) : La Pologne et l'Islam. (Paris, 1907.)

Gazetteer of the Bombay Presidency. (Bombay, 1877-1904.)

Gazetteer of the North-Western Provinces of India. (Allahabad, 1874-84.)

Gazetteer of the Province of Oudh. (Lucknow, 1877.)

Garetteer of Rajputana. (Calcutta, 1879)

Georgieviz (Bartholomæus) : De Turcarum Moribus Epitome. (1598.)

Georgirenes (Joseph) : A Description of the Present State of Samos, Nicaria, Patmos and Mount Athos. (London, 1678.)

Gerlach (Stephan) : Tage-Buch der von zween . . . Römischen Kaysern. . . an die Ottommanische Pforte . . . abgefertigten . . . Gesandtschaft. (Frankfurt, 1674.)

Gfrörer (A. F) : Byzantinische Geschichten, hrgs. von J. B. Weiss. (Graz, 1872-7.)

Gibbon (Edward) : The History of the Decline and Fall of the Roman Empire. (London, 1881.)

Gmelin (M. F.) : Christensclaverei und Renegatenthum unter den Völkern des Islam. (Berlin. 1873.)

Gobineau (A. de) : (1) Les Religions et les Philosophies dans l'Asie Centrale. (Paris, 1865.)
(2) Trois Ans en Asie. (Paris, 1859.)

Goldziher (Ignaz) : Muhammedanische Studien. (Halle, 1889-90.)

Gottheil (R. J H.) : Dhimmis and Moslems in Egypt. (Old Testament and Semitic Studies in memory of William Rainey Harper, Vol. ii. Chicago, 1908.)

Grenard : J.-L. Dutreuil de Rhins. Mission Scientifique dans La Haute Asie, 1890-1895.

IIme Partie. Le Turkestan et le Tibet, étude ethnographique et sociologique, par F. Grenard. IIIme Partie. Histoire, Linguistique, Archeólogie, Géographie, par F. Grenard. (Paris, 1898.)

Grenard : La légende de Satok Boghra Khân et l'histoire, par M. F. Grenard. (Journal Asiatique. ixme série, tome xv. Paris, 1900.)

Groeneveldt (W. P.) : Notes on the Malay Archipelago and Malacca, compiled from Chinese sources. (Verh. Bat. Gen. van K. en W. Deel xxxix. 1880.)

Grosier (J. B. G. A.) : De la Chine, ou description générale de cet empire. (Paris, 1819.)

Guignes (C. L. J. de) : Histoire générale des Huns, des Turcs, des Mogols, (Paris, 1756-8.)

Hackett (J.) : A History of the Orthodox Church of Cyprus. (London, 1901.)

Hageman (J.) : Bijdrage tot de Geschiedenis van Borneo. (Ts. ind. t.-l.-vk. Deel vi. 1856.)

Hammer-Purgstall (Joseph von) : (1) Geschichte des osmanischen Reiches. (Pesth, 1827-35.)
(2) Des osmanischen Reichs Staatsverfassung und Staatsverwaltung. (Wien. 1815.)
(3) Geschichte der Goldenen Horde in Kiptschak. (Pesth, 1840.)
(4) Geschichte der Ilchanen. (Darmstadt, 1842-3.)

Haneberg (B.) : Das muslimische Kriegsrecht. (Munich, 1871.)

Hasselt (A. L. von) : Volksbeschrijving van Midden-Sumatra. (Leiden, 1882.)

Hauri (J.) : Der Islam in seinem Einfluss auf das Leben seiner Bekenner. (Leiden, 1883.)

Haywood (A. H.W.) : Through Timbuctu and across the Great Sahara. (London, 1912.)

Hefele (C.J.): Beiträge zur Kirchengeschichte, Archäologie und Liturgik. (Tübingen, 1864.)

Helfferich (Adolf) : Der Westgothische Arianismus und die Spanische Ketzer-Geschichte. (Berlin, 1860.)

Hertzberg (G.F.): Geschichte der Byzantiner und des Osmanischen Reiches. (Berlin, 1882-3.)

Hill (Aaron) : A Full and Just Account of the Present State of the Ottoman Empire. (London, 1709.)

Hoëvell (G. W. W. C. Baron von) : De Kei-eilanden. (Ts. ind. t.-l.-en vk. Deel xxxiii. 1890.)

Hollander (J. J. de) : Handleiding bij de Beœfening der Land- en Volkenkunde van Nederlandsch Oost-Indië. (Breda, 1884.)

Hoveden : Chronica Magistri Rogeri de Hovedene, edited by William Stubbs. (London, 1868-71.)

Howorth (Sir H. H.) : History of the Mongols. (London, 1876-80.)

Hurgronje (C. Snouck) : (1) De beteekenis van den Islam voor zijne belijders in Oost-Indië. (Leiden, 1883.)
(2) De Sjottarijjah-secte. (Med. Ned. Zendelinggen. Vol. xxxii. 1888.)
(3) Mekka. (The Hague, 1888-9.)

Ibbetson (D. C. J.) : The Musulmans of the Panjab. (Indian Evangelical Review. Vol. x. Calcutta, 1884.)

Informatione del Segretario de Propaganda Fide circa la missione d'Albania de fratri Riformati di S. Francesco. (Bilbliotheca Chigiana, Rome. G. iii. 94.)

Innes (C. A.) : Malabar and Anjengo : by C. A. Innes, edited by F. B. Evans. (Madras District Gazetteers.) (Madras, 1908.)

Isenberg (C. M.) : Abessinien. (Bonn, 1844.)

Ishok of Romgla : Chronique de Michel le Grand, traduite sur la version arménienne du prêtre Ischôk par Victor Langlois. (Venise, 1868.)

Isidori Pacensis Chronicon. (Migne, Patr. Lat., tom. xcvi)

Islam and Missions, being papers read at the second Missionary Conference on behalf of the Mohammedan World at Lucknow, January 23-28, 1911, edited by E. M. Wherry, S. M. Zwemer, C. G. Mylrea. (New York, etc., 1911.)

J. A. : Journal Asiatique. (Paris.)
J. A. S. B. ; Journal of the Asiatic Society of Bengal. (Calcutta.)
J. R. Ggr. Soc. : Journal of the Royal Geographical Society. (London.)
Jacques de Vitry : Jacobi de Vitriaco Libri Duo. Quorum prior Orientalis, sive Hierosolymitanae : Alter, Occidentalis Historiae nomine inscribitur. Operâ D. Francisci Moschi editi. (Duaci, 1597.)
Jadrinzew (N.) : Sibiren : Geographische, ethnographische und historische Studien, bearbeitet von Ed. Petri. (Jena, 1886.)
Jessup (H. H.) : The Mohammedan Missionary Question. (Philadelphia, 1879.)
John of Gorz : Vita Ioannis Abbatis Gorziensis, auctore Ioanne Abbate S. Arnulfi. (Migne, Patr. Lat., tom cxxxvii.)
John of Nikiu ; Chronique de Jean, Évêque de Nikiou. Publié et traduit par H. Zotenberg. (Notices et extraits des Manuscrits de la Bibliothèque Nationale. Tome xxiv. Première Partie. Paris, 1883.)
Joinville : Œuvres de Jean, Sire de Joinville, ed. N. de Wailly. (Paris, 1867.)
Joselian (Plato) : A Short History of the Georgian Church, translated by S. C. Malan. (London, 1866.)
Kanitz (F.) : Die fortschreitende Arnautisirung und Muhamedanisirung Alt-Serbiens. (Oesterreichische Monatsschrift für den Orient. Vienna, March, 1888.)
Karamsin (N. M.) : Histoire de l'Empire de Russie. (Paris, 1819-26.)
Keane (A. H.) : Asia, edited by Sir Richard Temple. (London, 1882.)
Kern (H.) : Over den invloed der Indische, Arabische en Europeesche beschaving op de volken van den Indischen Archipel. (Leiden, 1883.)
Khoja Vrttant by Sachedina Nanjiani. (Ahmadabad, 1892.)
Klamroth (M.) : Der Islam in Deutschostafrika. (Berlin, 1912.)
Klaproth (J. von) : Aperçu des entreprises des Mongols en Géorgie et en Arménie dans le xiii siècle. (J. A. série ii., tome xii. 1833.)
Krehl (Ludolf) : Das Leben des Muhammed. (Leipzig, 1884.)
Kremer (A von) : (1) Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen. (Vienna, 1875.)
(2) Culturgeschichtliche Streifzüge auf dem Gebiete des Islams. (Leipzig, 1873.)
(3) Geschichte der herrschenden Ideen des Islams. (Leipzig, 1868.)
(4) Notizen gesammelt auf einem Ausfluge nach Palmyra. (Sitzb. d. Akad. d. Wiss., Philos.-hist. Cl. Vol. v. 1850.)
Krieger (Maximilian) : New Guinea. (Berlin, 1899.)
Kritopoulos (Metrophanes) : Metrophanis Critopuli Confessio. (E. J. Kimmel : Monumenta Fidei Ecclesiae Orientalis. Pars. II.) (Jenae, 1850.)
Kumm (H. K. W.) : Khont-hon-nofer, the Lands of Ethiopia. (London, 1910.)
Kyriakos (A. Diomedes) : Geschichte der orientalischen Kirchen von 1453-1898. (Leipzig, 1902.)
La Jonquière (A. de) : Histoire de l'Empire Ottoman. (Paris, 1881.)
La Saussaye (P. D. Chantepie de) : Lehrbuch der Religionsgeschichte. (Freiburg i. B., 1887-9.)
Lammens (Henri) : Études sur le regne du Calife Omaiyade Mo'awia 1er. (Université Saint-Joseph, Beyrouth (Syrie). Mélanges de la Faculté Orientale, I.) (Beyrouth, 1906.)
Lane (E. W.) : The Manners and Customs of the Modern Egyptians. 5th ed. (London, 1860.)
Laurent (J. C. M.) : Peregrinatores Medii Aevi Quatuor. (Lipsiae, 1864.)
Lazar (Victor) : Die Südrumänen der Türkei und der angrenzenden Länder. (Bukarest, 1910.)
Le Chatelier (A.) : (1) Les Confréries musulmanes du Hedjaz. (Paris, 1887.)
(2) L'Islam au xixe siècle. (Paris, 1888.)
(3) L'Islam dans l'Afrique Occidentale. (Paris, 1899.)
Le Quien (Michael) : Oriens Christianus. (Paris, 1740.)

Lea (H. C.): The Moriscos of Spain: their conversion and expulsion. (London, 1901.)
Leake (W. M.): Researches in Greece. (London, 1814.)
Leo Africanus: Della Descrittione dell' Africa, par Giovani Lioni Africano. (Ramusio. Tom. i.)
Leslie (Gaultier de): L'Ambassade à la Porte Ottomane, ordonnée par Sa Majesté Impériale, Léopold I., executée par Gaultier de Leslie, Comte du S. Empire. (1665-66.) (Rycaut, tome ii.)
Liefrinck (F. A.): Bijdrage tot de kennis van het eiland Bali. (Ts. ind. t.-l.-vk. Deel xxxiii. 1890.
Littmann (Enno): Bemerkungen über den Islam in Nordabessinien. (Der Islam, vol. i. Strassburg, 1910.)
Low (Col. James): A Translation of the Keddah Annals. (Journal of the Indian Archipelago and Eastern Asia, Singapore, 1849.)
Luca (Jean de): Relations des Tartares. (Thevenot.)
Ludolf de Suchem: Ludolphi, Rectoris Ecclesiae Parochialis in Suchem, de Itinere Terrae Sanctae Liber, herausgegeben von F. Deycks. (Stuttgart, 1851.)
Lüttke (Moritz): (1) Aegyptens neue Zeit. (Leipzig, 1873.)
(2) Der Islam und seine Völker. (Gütersloh, 1878.)
Luitprandi (Pseudo-) Chronicon. (Migne, Patr. Lat. tom. cxxxvi.)
Lyall (Sir Alfred C.): Asiatic Studies. (London, 1882.)
MSOS: Mittheilungen des Seminars für Orientalische Sprachen. Berlin.
Macarius (Patriarch of Antioch): Travels of, from the Arabic of the Archdeacon Paul, translated by F. C. Belfour. (London, 1829-34.)
Mackenzie (G. Muir) and Irby (A. P.): Travels in the Slavonic Provinces of Turkey-in-Europe. (London, 1867.)
Mackenzie (K. R. H.): Schamyl and Circassia. Chiefly from materials collected by Dr. Friedrich Wagner, edited by. (London, 1854.)
McNair (F.): Perak and the Malays. (London, 1878.)
Marsden (William): Hisory of Sumatra. (London, 1811.)
Marsigli (L. F.): Stato Militare dell' Imperio Ottomanno. (Amsterdam, 1732.)
Mas-Latrie (J. M. J. L. de): (1) Histoire de l'île de Chypre sous le règne des princes de la maison de Lusignan. (Paris, 1852-61.)
(2) Relations et commerce de l'Afrique septentrionale avec les nations chrétiennes au moyen âge. (Paris, 1886.)
Massaja (Guglielmo): I miei trentacinque anni di missione nell' Alta Etiopia. (Roma, 1885-93.)
Massimiliano Transilvano: Epistola di, della ammirabile et stupenda nauvigatione fatta per gli Spagnuoli lo anno MDXIX. attorno il mondo. (Ramusio, tom. i.)
Med. Ned. Zendelinggen; Mededeelingen van wege het Nederlandsche Zendeling-genootschap. (Rotterdam.)
Menavino (G. A.): Vita et Legge Turchesca. (Venice, 1573.)
Menzel (Theodor): Das Korps der Janitscharen. (Beiträge zur Kenntnis des Orients. Band i. Jahrbuch der Münchner Orientalischen Gesellschaft, 1902-3. Berlin.)
Merensky (A.): Mohammedanismus und Christentum in Kampfe um die Negerländer Afrikas. (Allgemeine Missions-Zeitschrift, Band xxi. Gütersloh, 1894.)
Methods of Mission Work among Moslems, Being those Papers read at the First Missionary Conference on behalf of the Mohammedan World held at Cairo April 4th-9th, 1906, and the discussions thereon, which by order of the Conference were not to be issued to the public, but were to be privately printed for the use of missionaires and the friends of missions. (New York, etc., 1906.)
Metzger (E.): Die Baduwis auf Java. (Globus, Band xliii. Braunschweig, 1883.)
Meyer (P. C.): Erforschungsgeschichte und Staatenbildungen des Westsudan. (Ergänzungsheft No. 121 zu "Petermanns Mitteilungen.") (Gotha, 1897.)
Michæl the Elder: Chronique de Michæl le Syrien, patriarche jacobite d'Antioche (1166-1199), éditée . . . par J. B. Chabot. (Paris, 1899-1901.)

Migne, Patr. Gr.: Patrologia Graeca. (Paris, 1857-66.)
" Patr. Lat.: Patrologia Latina. (Paris, 1844-55.)
Milman (H. H.): History ot Latin Christianity. (London, 1872.)
Mischlich und Lippert: Beiträge zur Geschichte der Haussastaaten von A. Mischlich. Mit Einleitung von Julius Lippert. (M S O S VI. (1903), Abtheilung III.)
Mission d'Ollone: Recherches sur les Musulmans Chinois par le commandant D'Ollone, le capitaine De Fleurelle, le capitaine Lepage, le lieutenant De Boyve. Études de A. Vissière. Note de E. Blochet et de divers savants. (Paris, 1911.)
Mohammedan World: The Mohammedan World of to-day, being papers read at the First Missionary Conference on behalf of the Mohammedan World held at Cairo, April 4th-9th, 1906. (New York, etc., 1906.)
Monteroy Vidal (D. José): Historia de la Pirateria Malayo-mahometana en Mindanao, Joló y Borneo, (Madrid, 1888.)
Moor (J. H.): Notices of the Indian Archipelago. (Singapore, 1837.)
Moore (Francis): Travels in the Inland Parts of Africa. (The World displayed; or a curious collection of voyages and travels. London, 1760.)
Morgan (J.): Mahometism explained. (London, 1723-5.)
Morié (L. J.): Histoire de l'Éthiopie. (Paris, 1904.)
Moslem World (The), a quarterly review of current events, literature, and thought among Mohammedans, and the progress of Christian Missions in Moslem lands. (London. 1911- .)
Müller (August): Der Islam im Morgen- und Abendland. (Berlin, 1885-7.)
Müller (G. F.): Sammlung Russischer Geschichte. (St. Petersburg, 1761.)
Muir (Sir William): (1) The Caliphate; its rise, decline and fall. (London, 1891.)
(2) Life of Mahomet. (London, 1858-61.)
Munzinger (Werner): Abessinien. (Petermann's Mittheilungen. Gotha, 1867.)
Neander (A.): (1) General History of the Christian Religion and Church. (London, 1851-8.)
(2) Memorials of Christian Life. (London, 1852.)
Netscher (E.): Kronijk van Sambas en van Soekadana. (Ts. ind. t.-l.-vk. Deel i. 1852.)
Newbold (T. J.): Political and Statistical Account of the British Settlements in the Straits of Malacca. (London, 1839.)
Nicholson (Reynold A.): A Literary History of the Arabs. (London, 1907.)
Niemann (G. K.): Inleiding tot de kennis van den Islam. (Rotterdam, 1861.)
Ohsson (C. d'): Histoire des Mongols. (The Hague, 1834-5.)
Ohsson (M. d'): Tableau général de l'Empire Othoman. (Paris, 1820.)
Olivier (L.): La Bosnie et l'Herzégovine, ouvrage publié sous la direction de Louis Olivier. (Paris, n. d.)
Oppel (A.): Die religiöse Verhältnisse von Afrika. (Zeitschrift der Gesellschaft für Erdkunde zu Berlin. Vol. xxii. 1887.)
Orderici Vitalis Historia Ecclesiastica. (Migne, Patr. Lat. tom. clxxxviii.)
Palmer (H. R.): The Kano Chronicle, translated with an introduction (Journal of the Royal Anthropological Institute. Vol. xxxviii. 1908.)
Palmieri (Aurelio): Die Polemik des Islam. Aus dem Italienischen übersetzt von Prof. Valentin Holzer. (Salzburg, 1902.)
Panciera (B.): I Musulmani (Florence, 1877.)
Pashley (Robert): Travels in Crete. (London, 1837.)
Paulitschke (Philipp): Harar. Forschungsreise nach den Somâl- und Galla-ländern Ost-Afrikas. (Leipzig, 1888.)
Pavy: Œuvres de Mgr. L.-A.-A. Pavy, Évêque d'Alger. (Paris, 1858.)
Perceval (A. P. Caussin de): Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme, pendant l'époque de Mahomet, et jusqu'à la réduction de toutes les tribus sous la loi musulmane. (Paris, 1847-8.)
Perrot (Georges): L'île de Crète. (Paris, 1867.)
Phrantzes (Georgios): Annales, ed. B. G. Niebuhr. (Bonnae, 1838.)
Pichler (A.): Geschichte der Protestantismus in der orientalischen Kirche im 17. Jahrhundert, order Der Patriarch Cyrillus Lucaris und seine Zeit. (Munich, 1862.)

Pigafetta (M. Antonio): Viaggio atorno il mondo fatto et descritto per. (Ramusio, Tom. i.)
Pitzipios (J. G.): L'Église orientale. (Rome, 1855.)
Plowden (W. C.): Travels in Abyssinia and the Galla Country. (London, 1868.)
Poensen (C.): Brieven over den Islam uit dh Binnenlanden van Java. (Leiden, 1886.)
Polo (Marco): The Book of Ser Marco Polo, the Venetian, concerning the Kingdoms and Marvels of the East, translated and edited by Sir Henry Yule. Third Edition, revised by Henri Cordier. (London, 1903.)
Prutz (H.): Kulturgeschichte der Kreuzzüge. (Berlin, 1883.)
R. du M. M.: Revue du Monde Musulman, publié par la Mission Scientifique du Maroc. (Paris.)
Rabbath (Antoine): Documents inédits pour servir à l'Histoire du Christianisme en Orient. Tome premier. (Paris, 1905.)
Radloff (W.): Aus Siberien. (Leipzig, 1884.)
Raffles (Thomas Stamford): The History of Java. (London, 1817.)
Ramusio (G. B.): Navigationi et Viaggi. (Venice, 1559.)
Raverty: Tabakat-i-Nasiri: a general history of the Muhammadan Dynasties of Asia, by Minhaj-ud-Din, Abu-'Umar-i-'Usman. (London, 1881.)
Reade (W. Winwood): African Sketch Book. (London, 1873.)
Reclus (Elisée): Nouvelle Géographie Universelle. (Paris, 1876-91.)
Reinaud, see أبو الفدا
Renaudot (E.): Historia Patriarcharum Alexandrinorum Jacobitarum. (Paris, 1713.)
Report of Centenary Conference on the Protestant Missions of the World, held in London, 1888, edited by Rev. J. J. Johnston. (London, 1889.)
Rev. col. int.: Revue Coloniale Internationale. (Amsterdam.)
Richter (J.): Die Propaganda des Islam als Wegbestreiterin der modernen Mission. (Missionswissenschaftliche Studien. Festschrift zum 70. Geburtstag des Herrn Prof. Dr. Gustav Warneck.) (Berlin, 1904.)
Riedel (J. G. F.): (1) De Sluik-en Kroesharige Rassen. tusschen Selebes en Papua. (The Hague, 1886.)
(2) The Island of Flores or Pulan Bunga. The Tribes between Sika and Manggaraai. (Rev. col. int., tome ii. 1886.)
Rinn (Louis): Marabouts et Khouan. (Algiers, 1884.)
Roscoe (John): The Baganda. (London, 1911.)
Ross (Alexander): A Needful Caveat, or Admonition, for them who desire to know what Use may be made of, or if there be danger in Reading the Alcoran. (The Alcoran of Mahomet, translated out of Arabick into French, by Sieur de Ryer, ... and newly Englished, for the satisfaction of all that desire to look into the Turkish Vanities.) (London, 1688.)
Rouffaer (G. P.): Het tijdperk van godsdienstovergang (1400-1600) in den Maleishen Archipel. (Bijdr. t.d.t.l. en vlk., dl. 50.) (1899)
Rubruck: The Journey of William of Rubruck to the Eastern Parts of the World, 1253-55, as narrated by himself. Translated .... by William Woodville Rockhill. (Hakluyt Society. Second Series. No. iv.) (London, 1900.)
Rüppell (Eduard): Reise in Abyssinien. (Frankfurt am Main, 1838.)
Rycaut (Sir Paul): Histoire de l'état présent de l'empire ottoman, traduit de l'Anglais de Monsieur Ricaut, par M. Briot. (Amsterdam, 1672.)
Sachau (Eduard): Über den zweiten Chalifen Omar Ein Charakter-bild aus der ältesten Geschichte des Islams. (Sitzungsberichte der Königlichen Preussischen Akademie der Wissenschaften. Berlin 1902.)
Sacy (Le Bon Silvestre de): Exposé de la Religion des Druzes. (Paris, 1838.)
Salmon (C. S.): British Policy in West Africa. (Contemporary Review, 1882.)
Samson: Samsonis Abbatis Cordubensis Apologeticus Liber. (Henrique Florez: España Sagrada, tom. xi.) (Madrid, 1747-74.)
Sansovino (Francesco): Historia Universale dell' Origine et Imperio de Turchi. (Venice, 1573.)

Schack (A. F. Graf von): Poesie und Kunst der Araber in Spanien und Sicilien. (Stuttgart, 1877.)
Schefer (C.): Notice sur les relations des peuples musulmans avec les Chinois, depuis l'extension de l'Islamisme jusqu'à la fin XV^e siècle. (Centenaire de l'École des Langues Orientales Vivantes, 1795-1895. Recueil de Mémoires publiés par les Professeurs de l'École. Paris, 1895.)
Scheffler (Johannes): Türcken-Schrifft: von den Ursachen der Türckischen Ueberziehung und der Zertretung des Volckes Gottes. (1664.)
Schiltberger (Hans): Reisebuch, herausgegeben von V. Langmantel. (Tübingen, 1885.)
Semper (C.): Die Philippinen und ihre Bewohner. (Würzburg, 1869.)
Shedd (W. A.): Islam and the Oriental Churches. (Philadelphia, 1904.)
Silbernagl (Isidor): Verfassung und gegenwärtiger Bestand sämtlicher Kirchen des Oriants. 2^te Auflage. (Regensburg, 1904.)
Simon (G.): Islam und Christentum im Kampf um die Eroberung der animistischen Heidenwelt. Beobachtungen aus der Mohammad-anermission in Niederländisch-Indien. (Berlin, 1910.)
Sitz. d. Akad. d. Wiss., Philos.-hist. Cl.: Sitzungberichte der philosophisch-historischen Classe der kaiserlichen Akademie der Wissenschaften. (Vienna.)
Smith (Thomas): Remarks upon the Manners, Religion and Government of the Turks. (London, 1678.)
Smith (W. J.): The Present Phases of the Mohammedan Question. (The Churchman. London, Jan., 1888.)
Spons (Jacob): Reisen durch Italien, Dalmatien, Griechenland und die Morgenländer. (Nürnberg, 1713.)
Sprenger (A.): Das Leben und die Lehre des Mohammed. (Berlin, 1861.)
Steinschneider (Moritz): Polemische und apologetische Litteratur in arabischer Sprache, zwischen Muslimen, Christen und Juden. (Leipzig, 1877.)
Stirling-Maxwell (Sir William): Don John of Austria. (London, 1883.)
Tavernier (J. B.) (1) The six voyages. (London, 1677.)
(2) Travels in India. (London, 1678.)
(3) A New Relation of the Inner-Part of the Grand Seignor's Seraglio. (London, 1677.)
Thevenot (M.): Relations de divers voyages curieux. (Paris, 1696.)
Thiersant (P. Dabry de): Le Mahométisme en Chine. (Paris, 1878.)
Thomas of Marga: The Book of Governors: the Historia Monastica of Thomas, Bishop of Margâ A. D. 840, edited by E. A. Wallis Budge. (London, 1893.)
Thomson (Joseph): (1) Mohammedanism in Central Africa. Centemporary Review, Dec., 1886.)
(2) Note on the African Tribes of the British Empire. (The Journal of the Anthropological Institute of Great Britain and Ireland. Vol. xvi. London, 1887.)
Tournefort (J. P.): A Veyage into the Levant. (London, 1741.)
Ts. ind. t.-l.vk.: Tijdschrift voor Indische Taal-, Land- en Volkenkunde. (Batavia.)
Turchicæ Spurcitiæ et Perfidiæ Suggillatio et Confutatio (Paris, 1516.)
Vambéry (Arminius): (1) Geschichte Bochara's. (Stuttgart, 1872.)
(2) Sketches of Central Asia. (London, 1868)
Vasil'ev (V. P.): Spread of Mohammedan Zaith in China (St. Petersburg, 1867.)
Veniero: Descrittione dell' Imperio Turchesco del Rever^mo Mons^re Maffeo Vaniero, Arcivescovo di Corfù. (R. D. Marci Bibliotheca, Venice. Classe vii. Cod. 882.)
Verh. Bat. Gen. van K. en W.: Verhandelingen van het Bataviaasch Genootschap van Kunsten en Wetenschappen. (Batavia.)
Veth (P. J.): (1) Atchin en zijne betrekkingen tot Nederland. (Leiden, 1873.)
(2) Borneo's Wester-Afdeeling. (Zaltbommel, 1854.)
(3) Java, geographisch, ethnologisch historisch. Tweede Druk bewerkt door J. F. Snelleman en J. F. Niermeyer. (Haarlem, 1896-1907.)

Vivien de Saint-Martin (L.): Nouveau Dictionnaire de Géographie Universelle. (Paris, 1879-95.)
WZKM: Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes.
Waitz (Theodor): Anthropologie der Naturvölker. (Leipzig, 1860.)
Wansleben (J. M.): Histoire de l'église d'Alexandrie. (Paris, 1677.)
Wassaf: Geschichte; persisch herausgegeben und deutsch übersetzt von Hammer-Purgstall. (Vienna, 1856.)
Weil (Gustav): Geschichte der Chalifen. (Mannheim, 1846-51.)
Wellhausen (J.): Skizzen und Vorarbeiten. (Berlin, 1885-99.)
Westermann (D.): Islam in the West and Central Sudan. (The International Review of Missions, vol. i. Edinburgh, 1912.)
Wetzer und Welte's Kirchenlexicon. Zweite Auflage. (Freiburg im Breisgau, 1885 sqq.)
Whishaw (B. and E. M.): Arabic Spain. (London, 1912.)
Wilken (N. P.) en Schwarz (J. A.) (1) Gedachten over het stichten einer zending in Bolaäng-Mongondou. (Med. Ned Zendelinggen. Vol. xi., 1867.)
(2) Het Heidendom en de Islam in Bolaäng-Mongondou. (id. id.)
Wise (James): The Muhammadans of Eastern Bengal. (J. A. S. B. Vol. lxiii., Part iii., 1894.)
Wright (William): A short History of Syriac Literature. (London, 1894.)
Wüstenfeld (F.): Die Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke. (Göttingen, 1882.)
Yule (H.): Cathay and the Way thither. (London, 1866.)
ZDMG: Zeitschrift der deutschen morgeländischen Gesellschaft. (Leipzig.)
Zenker (J. T.): Das chinesische Reich, nach den türkischen Khataïname. (Z.D.M.G., vol. xv. Leipzig, 1861.)
Zmaievich: Notizie universali dello stato di Albania e dell' operato da Monsig. Vincenzo Zmaievich, arcivescovo di Antivari, esaminate nelle Congregationi Generali di Propaganda Fide di 4 Debr. 1703-12 Febr. 1704. (Bibiotheca Barberina, Rome, Nr L. 126.)
Zollinger (H.): (1) The Island of Lombok. Journal of the Indian Archipelago, vol. v. (Singapore, 1851.)
(2) Verslag van eene reis naar Bima en Soembawa. (Verh. Bat. Gen. van K. en W. Deel xxiii 1850.)
Zwemer (S. M.): Islam: A. Challenge to faith. (New York, 1908.)

فهـــرس عام

الدعاة المسلمون :

تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٢	١٩	وغيرهم	وغيرهما
٢٢	٢٢	تتحقق من البواعث	بتحقق البواعث
٢٣	٩	أضافت	أضاف
٣٥	١٤	الحشبة	الحبشة
٤٢	١٨	الأسفع	الأسقع
٤٤	١٨	سقط سهوا قول الشاعر : إذا أنت لم تنفع فضر فانما يرجى الفتى كيما يضر وينفعا	
٤٤	هامش (٢)	استقينا له	استقينا عنه
٥٠	٢٢	واستذل	واستدل
٥٩	١٥	سكوتارى	أسكدار
٩١	١٦	سكوتارى	أسكدار
١٣٢	هامش (٢)	يبدأ بالعبارة (وكتب جرلاخ Gerlach سنه ١٥٧٧ يقول :)	
١٥٩	٩	يدين	يبدين
٢٠٢	٢١	أول ملك مسلم	أول ملك مسلم فى كاشغر
٢٠٤	٢٣	والخطا	وختان
٢٠٤	هامش (١)	ص ١٦١ - ١٦٨	١٦٦ - ١٦٨
٢٠٨	هامش (١)	Frachnio	Fraehnio
٢١٩	هامش (٣)	بولندشهر	بلندشهر
٢٢٧	هامش (٣)	Oboards	Oboardo
٢٢٨	هامش (١)	مدورا	مادوره
٢٥٣	هامش (٣)	ويعـــزو خانات كبوديا	وتعزو عشائر الجام فى كبوديا
٢٧٣	١٠	(بعد إلا فى القرن السادس عشر سقطت العبارة الآتية : وكان أول ملوك باغرمى من المسلمين السلطان عبد الله الذى حكم من سنة ١٥٦٨ إلى سنة ١٩٠٨)	
٢٨٥	١٧	Achanti	Ashanti
٢٨٥	٢١	Dahamey	Dahomey
٣٢٢	٢٤	Arabe	Arabs

THE
PREACHING OF ISLAM

A History of the Propagation of the Muslim Faith

By

Sir T. W. ARNOLD,

M. A., D. Lit. C. I. E., F. B. A.

Professor of Arabic, University of London,

University College

Third Edition

TRANSLATED INTO ARABIC

by

HASSAN IBRAHIM HASSAN
D. Litt. (CAIRO), PH. D., D. Litt. (LONDON).
PROFESSOR OF ISLAMIC HISTORY,
HEAD OF THE DEPT. OF HISTORY
FOUAD 1st. UNIVERSITY, CAIRO

ABDU'L-MAGID ABDINE,
B. A., DIPL. O. S., FOUAD 1st. UNIVERSITY
LECTURER, GORDON, COLLEGE,
KHARTOUM

ISMAIL EL-NEHRAWI,
B. A., FOUAD 1st. UNIVERSITY



Publishd By,
THE RENAISSANCE BOOKSHOP
9, Adly Pacha Street, Cairo.

Shibokshi Press - Azhar Cairo